红高粱家族

نوبل
2012

莫言

المركز القومي للترجمة

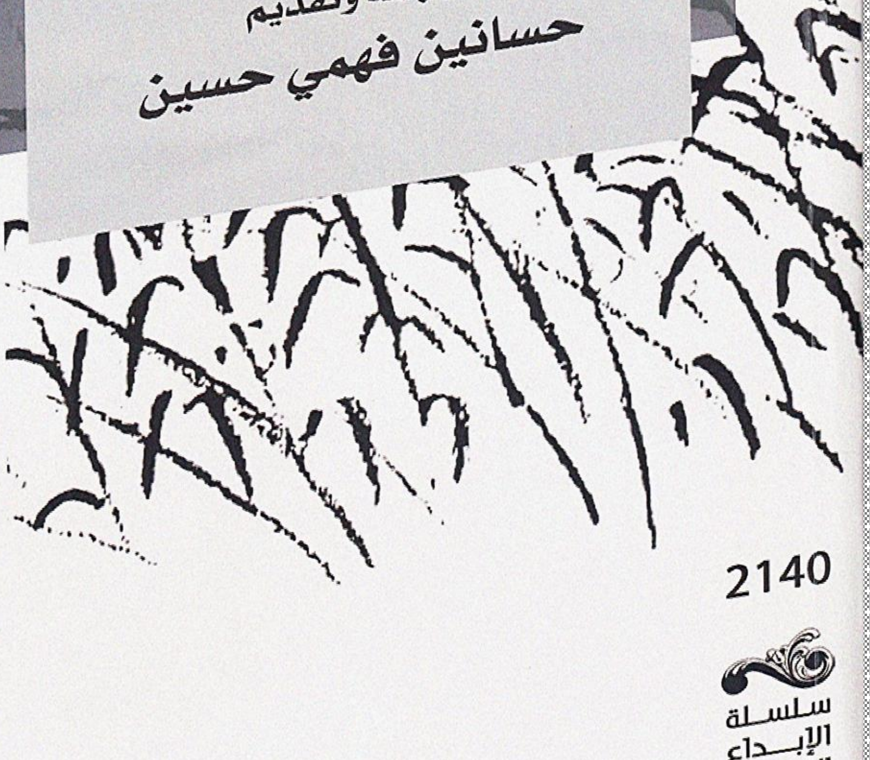
المشروع القومي للترجمة

## مو يان

# الذرة الرفيعة الحمراء

ترجمة وتقديم

حسانين فهمي حسين



2140

سلسلة الإبداع القصصي



# الذرة الرفيعة الحمراء

روايـــــة

المركز القومى للترجمة
تأسس فى أكتوبر ٢٠٠٦ تحت إشراف: جابر عصفور

**إشراف: كاميليا صبحي**

**سلسلة الإبداع القصصى**
**المشرف على السلسلة: خيرى دومة**

العدد: 2140
- الذرة الرفيعة الحمراء
- مو يان
- حسانين فهمي حسين
- الطبعة الأولى 2013

**هذه ترجمة:**

红高粱家族

莫言


شارع الجبلاية بالأوبرا- الجزيرة- القاهرة. ت: ٢٧٣٥٤٥٢٤ فاكس: ٢٧٣٥٤٥٥٤
El Gabalaya St. Opera House, El Gezira, Cairo.
E-mail: egyptcouncil@yahoo.com Tel: 27354524 Fax: 27354554

# الذرة الرفيعة الحمراء

رواية

تأليف: مو يان

ترجمة وتقديم: حسانين فهمى حسين

2013

بطاقة الفهرسة
إعداد الهيئة العامة لدار الكتب والوثائق القومية
إدارة الشئون الفنية

يان، مو
رواية: الذرة الرفيعة الحمراء/ تأليف: مو يـــان، ترجمـــة وتقـــديم: حسانين فهمى حسين؛
ط ١ - القاهرة: المركز القومي للترجمة، ٢٠١٣
٦٢٤ ص، ٢٤ سم
١ - القصص الصينية.
(أ) حسين، حسانين فهمى (مترجم ومقدم)
(ب) العنوان ٨٣٥,٣

رقم الإيداع: ٤٣٤٣ /٢٠١٢
الترقيم الدولى: I.S.B.N - 978 - 977 - 704 - 988 - 7
طبع بالهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية

授权书

请哈赛宁博士将我的小说

《红高粱》

《透明的红萝卜》

翻译成阿拉伯文并在埃及出版。（以及其他阿拉伯国）

莫言

2007年11月20日

于北京

صورة من التفويض بخط يد الكاتب الصينى مو يان

أفوض أنا السيد/ مو يان (كاتب صينى) لدكتور/ حسانين فهمى، لترجمة رواية "**الذرة الرفيعة الحمراء**" وقصة "**الفجلة الذهبية**" إلى اللغة العربية ونشرها فى مصر وغيرها من الدول العربية.

**مع خالص التقدير،،،**

مو يان

فى بكين

٢٠/ ١١/ ٢٠٠٧

# المحتويات

# رواية الصين

"الذرة الرفيعة الحمراء" هي رواية الصين بامتياز.. طفلٌ صينيٌّ كبير، يستعيد بوعي وحنين، نُتَفًا من "تاريخ عائلته" في قرية دونغ بي بمدينة قاو مي، وهي نفسها قرية المؤلف. يستعيد الطفل حكايات عن الأب والأم والجد والجدة وزوجة الجد.. وما أحاط بعالمهم من أساطير، خلال مقاومة الغزو الياباني للصين في ثلاثينيات القرن العشرين. ومن هذه النتف والحكايات، تتألف لدى القارئ في النهاية لوحةٌ ملحميةٌ واسعةٌ للصين والصينيين، بتقاليدهم وعاداتهم الغرائبية، وفي خلفية كل ذلك تتبدَّى طبيعةٌ خاصةٌ، بنباتها وحيوانها وإنسانها.

تلك هي بإيجاز رواية مو يان، التي ينبع عالمها السحري من استخدام عنصرين رهيفين يعكسان وعي كاتبها بفن الرواية : العنصر الأول هو ذلك الراوي/ الطفل الذي يتذكر ويحكي ما رآه وما رُوي له، مستندًا إلى وعي بهوية الصين، يكاد يكون وعيًا أيديولوجيًّا؛ والعنصر الثاني هو المشهد الثابت المتكرر عند كل منحنى من الرواية، مشهد حقول الذرة الرفيعة الحمراء التي تشكل الخلفية الطبيعية والسحرية لعالم هذه الرواية البديعة، ففي هذه الحقول وحولها تقع كل الأحداث والأسرار والأفراح والجنازات، الذرة الرفيعة الحمراء التي يكتب الراوي مرثيتها بعد عودته وحضوره المفاجئ في نهاية الرواية، معلنًا عن رعبه من الذرة المهجنة التي زحفت واحتلت الصين.

ترسم الرواية عالمًا صينيًّا واقعيًّا، لكنه في الوقت نفسه يقترب من أن يكون غرائبيًا، أهم ما يميزه هو ذلك الطابع البدائي المرعب، القائم على القتل

بسهولة والتعذيب وقطع الطريق، وذلك التماذج المهول الذي يصل إلى حد التطابق بين البشر والحيوانات والطيور والنبات وكل مظاهر الطبيعة، إنها قرية صينية صنعتها ذكريات مو يان التي أراد أن يكتب لها الخلود، وصنعها خياله بالطبع، كما صنعها وعيه السياسي والأيديولوجي الحاضر بقوة وراء كثير من مشاهد الرواية.

في هذه الرواية مشاهد لن ينساها القارئ بسهولة. كيف يمكن لقارئ أن ينسى مشهد تعذيب المعتدي الياباني لأبناء القرية، تعذيب يبدأ من التلذذ بقطع الأذن ويمتد إلى ما هو أشنع، وكيف يمكن أن ننسى مشهد جنازة الجدة الذي يكاد يستغرق مائة صفحة من الرواية، وكذلك مشهد مفارقة زوجة الأب للحياة، في طقس غرائبي مرعب لا يكاد ينتهي، كيف يمكن لقارئ أن ينسى مشهد الكلاب الذي يحتل قسمًا كاملاً من الرواية يدعى "موقعة الكلب"، الكلاب التي تدخل في معركة مع البشر، بحيث تختلط الجثث وتتناثر العظام، في فانتازيا دموية مرعبة تضم الجميع: اليابانيين إلى الصينيين إلى الكلاب.

يمكن للمرء أن يقرأ كتبًا كثيرة عن الصين وثقافتها وعاداتها، لكنه لن يعرفها في العمق، ومن داخل قلوب أبنائها وعيونهم، كما يمكن له أن يعرفها من قراءة هذه الرواية. تلك هي معجزة فن الرواية، الرواية التي هي تاريخٌ للواقع، تفصيليٌّ وخارجي، بقدر ما هي – كما قيل – تاريخٌ للقلب، عاطفيٌّ وداخلي.

استمتعت بقراءة هذه الرواية وأنا أعمل – لأسبوعين – على تحرير نصها العربي في صورته النهائية، وأدركت ما بذله مترجمها الشاب من جهد، خلال محاولته نقل هذا العالم الغرائبي، المكتوب – كما أخبرني – بلغة صينية محلية خاصة بالمقاطعة التي تدور فيها الأحداث.

تحية للمترجم الدكتور حسانين فهمي، الذي لولا مبادرته، ولولا جهود زملائه وأساتذته من المتخصصين المصريين في اللغة الصينية، ما كان للمركز القومي للترجمة أن يسبق إلى ترجمة هذه الرواية البديعة، قبل أن يحصل صاحبها مؤخرًا على جائزة نوبل للآداب لعام ٢٠١٢، وتكون هذه الرواية على رأس مبررات منحه الجائزة.

قراءة ممتعة للصين وعالمها كما يصنعه فن الرواية..

**خيري دومة**

# تقديم المترجم

الروائى الصينى الكبير مو يان mo yan كاتب قدم للقراء الصينيين ولقراء العالم صورة دقيقة عن الريف الصينى، وعن حياة الفلاحين الصينيين وعاداتهم وتقاليدهم وأسباب تخلفهم وخبراتهم الحياتية الثرية، ومعاناتهم فى ظل ظروف الاستعمار الأجنبى (العدوان اليابانى على الصين ١٩٣٧ – ١٩٤٥)، وفى ظل القهر السياسى، وتدنى القيم الأخلاقية، وانتشار الظواهر السلبية التى عمت مجتمع الصين الحديثة بما فى ذلك الرشوة والفساد الإدارى وضياع حقوق الإنسان البسيط. إن أعماله تعد لوحة فنية صادقة لحياة فئة أصيلة من فئات الشعب الصينى الكبير. وتعبر عن حياة مجتمع الفلاحين فى مسقط رأسه قرية دونغ بيى بمدينة قاو مى – مقاطعة شان دونغ بشمال شرق الصين وعاداتهم ومعاناتهم اليومية، كما تعبر عن القهر السياسى الذى يتعرض له الإنسان البسيط المهمش فى مجتمع الصين الحديثة، وفى ظل الحضارة الحديثة التى أجبرت ذلك الإنسان على التخلى عن الكثير من القيم التى كانت جزءًا أساسيًا من تكوينه الأصيل.

ويقدم مو يان موضوعات أعماله الثرية فى أسلوب يجمع بين المحافظة على الأساليب الفنية الأصيلة للأدب الصينى والتأثر الواضح بالتيارات الأدبية الغربية، خاصة تيار الواقعية السحرية ورائده الروائى العالمى ماركيز. ونرى أن مو يان فى اهتمامه الكبير بكتابة البيئة الريفية، وعلمه ببواطنها، ورصده للكثير من الأحداث والقضايا التى تخص تلك البيئة، وتأثره الواضح بتيار الواقعية السحرية ووضوح ذلك فى أكثر من

عمل من أعماله الروائية المهمة، جاء شبيهًا بالروائى الراحل الكبير خيرى شلبى، يُعدُّ أكثر كتابنا المعاصرين احتفاء بالواقعية السحرية أو اهتمامًا بها". إذ برزت الواقعية السحرية عنده كما يرى الدكتور حامد أبو أحمد فى أربع روايات هى: "الشطار" و"نسف الأدمغة" و"بغلة العرش" و"السنيورة"(١).

ومو يان اسمه الكامل قوان مو يى، ولد فى عام ١٩٥٥ بمدينة قاو مى مقاطعة شان دونغ بشمال شرق الصين لعائلة صينية تعمل بالزراعة. وفى عام ١٩٧٦التحق بالعمل فى جيش التحرير الصينى الشعبى. بدأ نشر أعماله الأدبية منذ عام ١٩٨١، وكان أول عمل له قصة قصيرة بعنوان "أمطار ليلة ربيعية" ١٩٨١ (حيث كان قد أحرق بنفسه أكثر من عمل قبل ذلك نذكر منها قصة "حكاية أم"، ومسرحية "الطلاق" وغيرهما) وبعدها توالت أعماله الأدبية بين قصة قصيرة ونوڤيلا ورواية ونصوص سينمائية. فقد نشر له عددًا من القصص القصيرة التى حازت إعجاب الأوساط الأدبية الصينية آنذاك، ومنها قصة "الموسيقى الشعبية" (١٩٨٣)، التى نالت فور نشرها إعجاب الكاتب الصينى الكبير سون لى **sun li** (١٩١٣-٢٠٠٢، وهو واحد من أهم أربعة كتاب صينيين انصبت كتابتهم على الريف الصينى). ثم نشر مو يان بعد ذلك القصة الطويلة (النوڤيلا) "الفجلة الذهبية" (١٩٨٤)، التى جعلت اسم مو يان يتردد داخل الأوساط الأدبية الصينية، ثم توالت أعماله بعد ذلك، إلى أن بلغت حتى الآن أكثر من ٥٠ عملاً ما بين مجموعة قصصية ورواية ونثر. أشهرها على الإطلاق روايات: "الذرة الرفيعة الحمراء"، و"الطفل ذو الشعر الأصفر"، و"النهود الكبيرة"، و"أنشودة الثوم"، و"أرجوحة الكلب الأبيض"، وغيرها من الأعمال. وحصلت روايته

(١) د: حامد أبو أحمد "كتاب الهلال" (خيرى شلبى وتد الرواية المصرية- ملف خاص) عدد ديسمبر ٢٠١٠ صفحات ١١و١٣.

الشهيرة "الذرة الرفيعة الحمراء" فور صدورها على جائزة الرواية الممتازة على مستوى الصين، ثم حصلت بعد ذلك على الكثير من الجوائز المحلية والعالمية. ورشحت روايته "جريمة خشب الصندل" للحصول على جائزة ماودون، وهى أرفع جائزة أدبية صينية.

ورواية "الذرة الرفيعة الحمراء" الصادرة لأول مرة فى مايو عام ١٩٨٧ عن دار نشر الفنون والآداب بجيش التحرير الصينى، هى العمل الذى دخل به مو يان فى عالم الشهرة، فلمع اسمه ليس فى الأوساط الصينية فحسب، بل العالمية أيضًا. وقد تحولت الرواية فيما بعد إلى فيلم سينمائى للمخرج الصينى الشهير جانغ إى موو (صاحب فيلم "البطل" وغيره من الروائع السينمائية الصينية)، وحصل الفيلم على جائزة الدب الذهبية بمهرجان برلين السينمائى الثامن والثلاثين. كما تحولت أعمال أخرى لمو يان إلى أفلام ومسلسلات تليفزيونية، وحصدت جوائز عالمية منها مجموعته القصصية الشهيرة (يا أسطى إنك ستفعل أى شىء فى سبيل الضحك)، والتى تحولت إلى فيلم بعنوان (زمن السعادة) للمخرج جانغ إى موو، و"أرجوحة الكلب الأبيض"، التى تحولت إلى فيلم بعنوان "الدفء" للمخرج الصينى خوا جيان تشى، وحصل على الجائزة الكبرى لمهرجان طوكيو السينمائى الدولى لعام ٢٠٠٣.

وكان لأعمال مو يان، وروايته الشهيرة "الذرة الرفيعة الحمراء" على وجه الخصوص، صدى واسع فى مختلف أنحاء العالم، وترجمت إلى العديد من لغات العالم منها الفرنسية، والألمانية، والإنجليزية، والإيطالية، والإسبانية، واليابانية، والسويدية، والنرويجية، والهولندية، والكورية، والعبرية، وغيرها من اللغات، وتعتبر هذه الترجمة لرائعته "الذرة الرفيعة الحمراء" أول ترجمة إلى العربية لأعمال موا يان. وتأتى اللغة الفرنسية على

رأس اللغات الأجنبية التى ترجمت إليها أعمال مو يان، فقد ترجم لــه أحــد عشر عملا إلى اللغة الفرنسية، حيث تتربع أعماله علـــى عــرش الأعمــال الأدبية الصينية الحديثة التى ترجمت إلى الفرنسية.

حصل مو يان فى عام ٢٠٠٤ على وسام فارس فى الفنــون والآداب من فرنسا، وحصل الأستاذ دو ته لى أستاذ اللغة الصينية بجامعــة بولــون الفرنسية عام ٢٠٠١ على جائزة (لوراى باتيليين) لأفضل عمل أجنبى مترجم إلى الفرنسية عن ترجمته لرواية "مملكة النبيذ" للكاتب موا يان. كما حــصل مو يان فى عام ٢٠٠٥ على جائزة (نونينيو) الأدبية الإيطالية الدوليــة عــن روايته "الذرة الرفيعة الحمراء". وعلى جائزة (فو قانغ يا) اليابانيــة للثقافــة الأسيوية عام ٢٠٠٦، والتى تمنح للأعمال التى تدعو إلى المحافظــة علــى التراث والثقافة الأسيوية وقيمتها ٥٠٠ مليون ين يابانى، ومنحت حتــى الآن لثمانى شخصيات صينية، ومو يان هو الكاتب الصينى الثانى بعــد بــاجين صاحب رواية "العائلة" الذى حصل على هذه الجائزة الكبرى. وأخيرًا توجت أعمال كاتبنا الكبير مو يان بحصوله فى سبتمبر من العام الحالى ٢٠١١ على جائزة "ماو دون الأدبية"، والتى تعتبر "نوبل الأدب الــصينى"، وذلــك عــن روايته المهمة والمعروفة "الضفدع"، والصادرة فى ديسمبر عام ٢٠٠٩ عــن دار نشر الفنون والآداب بشنغهاى. وقد استقبلت الأوساط الأدبيــة الــصينية خبر حصول مو يان على هذه الجائزة الرفيعة بحفاوة بالغة.

وذكر الأستاذ ما يوى ران، خبير اللغة الصينية بالأكاديمية الــسويدية ومساعد مكتب جائزة نوبل للآداب، فى أكثر من محفل أدبى داخل الــصين، أن مو يان هو الأديب الصينى الذى تستحق أعماله عن جدارة جائزة نوبــل فى الآداب.

وقال الكاتب اليابانى الكبير (دا جيانغ) الحاصل على نوبل فى الآداب لعام ١٩٩٤ "إن مو يان وأمثاله من الكتّاب الصينيين هم خير من يمثل أدب القرن العشرين، وإذا كان لى حرية الاختيار فى ترشيح اسم للفوز بنوبل، فسوف أختار الكاتب موا يان".

وتمت مقارنة أعمال مو يان الأدبية مع أعمال كتّاب عالميين كبار من أمثال جارثيا ماركيز، إذ تمت المقارنة بين رواية "مائة عام من العزلة" لماركيز ورواية "النهود الكبيرة" لمو يان، والتى صور فيها مو يان بدقة المشاهد الوحشية وجرائم العدوان اليابانى على الشعب الصينى وفرق الفدائيين الصينيين خلال حرب المقاومة ضد اليابان (١٩٣٧-١٩٤٥).

ومو يان كاتب تميز بين كتّاب جيله الذين يمثلون أدب الفترة الجديدة فى الصين (منذ عام ١٩٧٨ حتى الآن) ، وقد ولد روائيًا، فى أعماله وصف ساحر لمسقط رأسه مدينة قاو مى بمقاطعة شان دونغ بشمال شرق الصين. ومنذ صغره عاش فى معاناة بين الجوع والوحدة والحرب التى عانى منها أهل مقاطعة شان دونغ وغيرها من مدن شمال شرق الصين، وهذا ما شكل لدى مو يان الشعور بالمسئولية تجاه شعب مدينته والتعبير عنهم فى معظم أعماله، والتى دائما ما نلمس فيها آلام الجوع والمعاناة لشعب شمال شرق الصين.

أهم ما يميز أسلوب الكاتب والروائى الصينى الكبير مو يان أنه يجمع بين التأثر بالنظريات الأدبية الغربية (وخاصة التأثر بمذهب الواقعية السحرية) والثراء الإبداعى الذى يقوم على التأثر الشديد بالثقافة المحلية، وخاصة ثقافة فلاحى شمال شرق الصين وعاداتهم وتقاليدهم، واللغة الريفية الواضحة جدًا التى تشعر عند قراءتها وكأنك تستمع إلى صوت فلاح أصيل، كما أن كثيرًا من أعماله تأخذ أسماء محاصيل زراعية وحيوانات وأشياء

أخرى مرتبطة بالبيئة الريفية مثل: "الفجلة الشفافة" (١٩٨٦)، و"الذرة الحمراء" (١٩٨٧)، و"القطن الأبيض" (١٩٩١)، و"العائلة العشبية" (١٩٩٣)، و"أنشودة الثوم" (١٩٩٣)، و"الغابة الحمراء" (١٩٩٩). وغيرها من الأعمال التى جمعت بين كتابة التاريخ، والواقع المعاصر، والأسطورة والعادات الشعبية لأهل شمال شرق الصين. والتى جعلت أعمال مو يان تتميز عن إبداعات غيره من الكتّاب الصينيين الذين كتبوا فى مجال أدب الريف والأدب المحلى. فالريف الذى يصوره قلم مو يان يعتبر ريفا صينيا خاصا به دون غيره من الكتّاب الصينيين، حتى أولئك الذين ينتمون لنفس المقاطعة التى ينحدر منها مو يان مثل الكاتب الصينى المعاصر جانغ وى (١٩٥٦- ). فالريف الذى يصوره قلم مو يان هو ريف عريق يضرب بجذوره فى عمق التاريخ، ريف ملىء بشتى أشكال المعاناة. فإذا كان جابريل جارثيا ماركيز قد "اخترع لرواياته مكاناً خاصًا أطلق عليه أم ماكوندو **MACONDO** تعد جزئياته مفردات مأخوذة من كثير من الأماكن فى كولومبيا وفى أمريكا اللاتينية. فهو مكان سحرى اخترع خصيصًا لهذا الغرض"(١). نقول فإن مو يان قد سار على نفس الطريق باختياره ريف دونغ بيى بمدينة قاو مى مقاطعة شان دونغ الصينية. فما إن يذكر اسم مو يان وعالمه الروائى الخاص، حتى يذكر هذا الريف الصينى الذى شكل مملكة مو يان الخاصة به وحده.

ويمكن تقسيم حياة مو يان الإبداعية إلى ثلاث مراحل: المرحلة المبكرة، وتمتد من عام ١٩٨١ حتى عام ١٩٨٥، واتسمت أعماله فى تلك الفترة بالتركيز على الخبرات الحياتية للكاتب والوصف الدقيق لعالم الريف

---

(١) د: حامد أبو أحمد "كتاب الهلال" (خيرى شلبى وتد الرواية المصرية- ملف خاص) عدد ديسمبر ٢٠١٠ صفحة رقم ١٧.

والفلاحين فى شمال شرق الصين، وبالتعبير عن الحياة الواقعة لأهل الريف من خلال أسلوب الرمزية وفوق الواقعية. ومنذ عام ١٩٨٦ بـدأت أعمالـه تدخل فى مرحلة إبداعية جديدة اتسمت بالتأثر الواضح بالواقعيـة الـسحرية وروادها من أمثال الكاتب الجنوب أمريكى جارثيا ماركيز؛ حيث بدأ مو يان ببناء عالم روائى خاص يقوم على الخيال الواسع والمعالجـة الأسـطورية للواقع. والذى تمثل جليًا فى أعماله "الذرة الرفيعة الحمراء" و"أنشودة الثـوم" وغيرهما من الأعمال الروائية والقصصية. أما المرحلة الثالثة فى مشوار مو يان الإبداعى فقد تركزت إبداعاته خلالها فى مجال الرواية وإبداع أعمالـه المعروفة "مملكة النبيذ" و"النهود الكبيرة" وغيرهما من الروايات التـى أدت إلى جدل كبير وتباينت آراء النقاد حولها.

وبالإضافة إلى الوصف الدقيق للثقافة المحلية وعادات وتقاليـد أهـل مقاطعة شان دونغ بشمال شرق الصين، فإن أعمال مو يان، وخاصة أعماله المبكرة مثل" الفجلة الشفافة"، و"النهر الجاف"، و"البقرة"، و"النهود الكبيـرة"، وغيرها من الأعمال، فإنها تعبر عن القهر السياسى ومعاناة عامة الـشعب، وكثيرا ما تعكس أعماله النقد اللاذع للمجتمع وسياسة القهر، وذلك من خلال صور الطفل البطل والكوميديا الساخرة والمواقف الشعبية التى تتخلل حيـاة شخوص أعماله، فالقهر السياسى هو الفكرة الرئيسية فى أعمال مو يان منـذ عام ١٩٨٦.

وتتميز أعمال مو يان أيضا بالنزعة الفلسفية التى تتمثل فى الغـوص والتأمل فى جوهر الحياة الإنسانية، والكشف عن مزايـا ومـساوئ الـنفس البشرية، كما فى أعماله الروائية الشهيرة "التعذيب بخشب الصندل" و"مملكة النبيذ"، ونرى ذلك بوضوح فى شخصية الضابط (دينغ قو ار) بطل روايـة

"مملكة النبيذ"؛ حيث كان ضابطًا ناجحًا وذا كفاءة عالية في التحقيقات البوليسية، ويتحلى بروح تحمل المسئولية والنزاهة والتطلع إلى كشف الغموض فى أحداث قضية (أطفال مملكة النبيذ)، ولكنه يفقد كل هذه الصفات العظيمة تحت إغراء الخمر والنساء إلى أن يتحول من ضابط ناجح إلى مجرم قاتل حتى يلقى حتفه. فعالم "مملكة النبيذ" هو صورة مصغرة للمجتمع الصينى المعاصر بما فيه من السعى وراء الملذات، فهى رواية ضد الفساد.

فهو فى معظم أعماله يبحث فى خبايا النفس البشرية، ويكشف عن مزاياها والرغبة الإنسانية فى الحياة الآمنة والحرية ومجتمع تسوده العدالة والمساواة، حيث يهتم بتمجيد الحياة والبقاء لمناهضة التقاليد القديمة البالية، والنموذج السياسى الحالى الذى يتسم بالقهر والظلم للنفس البشرية. فالكاتب الكبير مو يان يعتبر رائدًا من رواد "تيار البحث عن الجذور"(١) الذى ظهر فى الصين عقب فترة "الثورة الثقافية الكبرى"، والذى هو امتداد لروح نقد التراث التى بدأها الرائد العظيم لوشيون (١٨٨١-١٩٣٦) عميد الأدب الصينى الحديث فى عشرينيات القرن العشرين فى الصين لنقد الثقافة الصينية القديمة. وأعمال مو يان تغوص فى البحث عن الثقافة الصينية الأصيلة لأهل

---

(١) أدب البحث عن الجذور: هو تيار أدبى مهم ظهر على الساحة الأدبية الصينية فى منتصف الثمانينيات من القرن الماضى، عقب "أدب الجراح". حيث بدأ عدد كبير من الكتاب الصينيين آنذاك بالاهتمام بكتابة الموضوعات التى تتعلق بالوعى بالتقاليد الصينية والتراث الصينيى والثقافة القومية الصينية، حتى أطلق على الأعمال التى يكتبونها فى هذا الصدد مسمى "أدب البحث عن الجذور". وقد بدأ الإعلان عن هذا التيار الأدبى الجديد فى عام ١٩٨٥، حيث أعلن الكاتب الصينى المعاصر خان شاو قونغ **han shao gong** فى ورقة بحثية له بعنوان "جذور الأدب" عن أن: الأدب له جذور، وأن جذوره تمتد فى التربة الثقافية للثقافة القومية ". ومن أهم الأعمال الرائدة فى مجال "أدب البحث عن الجذور" رواية "با با با" للكاتب خان شاو قونغ، ورواية "ملك الشطرنج" للكاتب آه تشينغ، والقصة الطويلة "الفجلة الذهبية" للكاتب موا يان، وغيرها من أعمال مهمة فى هذا المجال للكتاب لو ياو، وتشين جونغ شه، وجيا بينغ وا، ووانغ آن إى، وغيرهم من الكتاب المعاصرين. (المترجم).

قاو مى شمال شرق الصين، وهو يربط فى أعماله بين أشخاص الحاضر وأشخاص وأحداث أخرى من التاريخ الصينى القديم، كما فى روايته "الذرة الرفيعة الحمراء" التى تتشابه فيها صور الأشخاص ومصائرهم مع أبطال حركة يى خه توان عام ١٩٠٠ المعروفة فى التاريخ الصيني. ورواية "التعذيب بخشب الصندل" تعبير عن التعذيب وتقدم وسائله فى سياسات المجتمع الإقطاعى الصينى القديم، حيث كشفت الرواية عن الكثير من مساوئ الثقافة الإقطاعية فى الصين القديمة، فأعمال مو يان تعد امتدادًا، بل تطورًا، لأعمال الرائد لوشيون فى نقد مساوئ الثقافة الإقطاعية فى الصين القديمة التى تقوم على أساس "أكل الإنسان". فمو يان يؤكد أن جذور هذه الثقافة البالية ليس فقط لم تمح حتى الآن، بل تعاود الظهور من خلال أشكال أخرى أكثر فسادًا ووحشية.

أما رواية "الذرة الرفيعة الحمراء" فتحكى، باختصار، قصة عائلة صينية ريفية تمتلك فرنًا لصناعة نبيذ الذرة فى قرية دونغ بيى بمدينة قاو مى بمقاطعة شان دونغ شمال شرق الصين، وتتكون هذه العائلة من الجد يو جان آو الذى كان يعمل بالأمس القريب حمالاً فى شركة لنقل توابيت الموتى وهوادج الأفراح، ثم أصبح بعد ذلك قائدًا كبيرًا فى عصابات قطاع الطرق، والتى انضمت إلى قوات الجيش الثامن التابع للحزب الشيوعى الصينى، وقاتلوا المعتدى اليابانى دفاعًا عن بلدتهم. وقد قام يو جان آو فى شبابه بقتل صاحب أكبر وأشهر فرن لصناعة النبيذ وابنه الذى تزوج من أجمل فتاة فى القرية، حتى تمكن يو جان آو من الاستيلاء على الفرن وصاحبته التى أعلن زواجه منها، ثم خرج بعدها مصطحبًا معه ابنه فى معاركه الطاحنة ضد عصابات قطاع الطرق المعادية له، ثم مقاومة العدو اليابانى، حتى كانت النهاية الغريبة المفجعة بقيام القوات اليابانية بقتل زوجته الثانية وابنته الطفلة

الصغيرة صاحبة الأعوام الخمسة فى عام ١٩٤١، ذلك العام الــذى "يعتبــر أكثر الأعوام التى شهدت فيها حرب المقاومة ضد اليابان وحشية وقسوة لــم يسبق لها مثيل خلال سنوات حرب المقاومة ضد اليابان".

فالرواية تسلط الضوء على بيئة ريف دونغ بيى بمقاطعة شان دونــغ، وعادات وتقاليد هذه المنطقة بما فيها عادات الزواج وانتشار الزواج القسرى الذى يستمد شرعيته من التقاليد القديمة المتوارثة وموافقة الوالدين، والجنازة الصينية التقليدية، والتى لا يزال كثير من عاداتها باقيًا حتى الآن فى مجتمع صين القرن الحادى والعشرين، وغيرها من العــادات والتقاليــد الــصينية الأصيلة التى توارثتها الأجيال جيلاً بعد جيل. فهى واحدة من أهم الروايــات المهمة لمو يان اتخذت من القرية فضاء كاملاً لها، ومسرحًا لأحداثها ومثلت شخوصها هذه البيئة الريفية الأصيلة أصدق تمثيل. فهى بذلك تقدم صــورة شاملة عن البيئة الريفية فى منطقة شمال شرق الصين، والتى ينتمــى إليهــا الكاتب مو يان، فقد بدأ مو يان بهذه الرواية المهمة فى تاريخ الأدب الصينى المعاصر مشروعه الطموح عن الناس والحياة والتاريخ فى ريف دونغ بيــى بمدينة قاو مى بمقاطعة شان دونغ الصينية. وهو المكان الذى ترعرع فيــه الكاتب واختاره نموذجًا للحياة الشعبية فى الريف الــصينى، وســكب فيــه عصارة وعيه بهموم القرية فى حياة جيل الكتاب الرواد الذى ينتمــى إليــه، وخلاصة رؤيته لآفاق تطورهم. فتنحاز هذه الرواية للريف وتجيــد التعبيــر عنه وتقديمه بــصورة دقيقــة بقلــم مبــدع واع. فــصورة القريــة عنــد هى صورة القرية الواقعية، بكل ما يدور فيها من صراعات وعلاقات اجتماع ومنظومة القيم التى تتحكم فى سلوكيات أفرادها الذين هم شخوص الروايــة. وهى بكل المقاييس ليست صورة للقرية الرومانسية المرسومة عــن بعــد. وقد كتبت حول هذه الرواية دراسة نقدية موسعة فى ملحق صحيفة "نيويورك

تايمز" للكتب، وقد ذكر كاتب الدراسة أن: "الكاتب الروائى الصينى مو يان استطاع من خلال شخصيات الرواية الحية أن يجعل القارئ الغربى باستطاعته التعرف على الثقافة الغريبة التى تتمتع بها المناطق الصينية على مستوى مقاطعات الصين، وكانت نتيجة ذلك أن استطاع جمهور القراء الغرب بالتعاون مع مو يان أن يضعوا "ريف دونغ بيى بمدينة قاو مى الصينية" على خريطة الأدب العالمى".

هذه الرواية واحدة من أهم الراويات الصينية الحديثة التى تؤرخ لحرب المقاومة الصينية ضد المعتدى اليابانى خلال الفترة من ١٩٣٧ حتى ١٩٤٥. حتى عدها نقاد الأدب الصينى واحدة من الروايات المهمة التى كان لها تأثير كبير على تاريخ تطور رواية الحرب فى الصين. إلا أن هذه الرواية تختلف عن غيرها من الروايات الصينية المعروفة التى اهتمت بكتابة تاريخ الثورات والحروب الصينية، فهى تقدم تاريخ حرب المقاومة ضد اليابان من خلال قصص مثيرة حدثت لزعيم عصابة قطاع الطرق البطل المعروف يو جان آو.

وتزخر رواية "الذرة الرفيعة الحمراء" لمو يان بالكثير من العناصر السحرية المهمة التى تؤكد تأثره الواضح بتيار الواقعية السحرية ورائده الكاتب الكولومبى جابريل جارثيا ماركيز. ونرى أن مو يان، كما ذكر الراحل الكبير خيرى شلبى فى معرض حديث عن الجوانب المشتركة بينه وبين جابريل جارثيا ماركيز،" بيننا مشتركات. كلانا يقتطع من لحمه، وكلانا لا يخشى الكشف عن عوراته فى سبيل الحقيقة، وكلانا صاحب تجربة عميقة فى الحياة يستخدمها فى طهو أعماله". وقد عبر مو يان عن ذلك فى رائعته "الذرة الرفيعة الحمراء" خير تعبير. وقد تجلت العناصر السحرية فى الرواية فى عالم عصابات قطاع الطرق الغريب والقواعد الخاصة التى تحكم هذه

الجماعة الخاصة من البشر، وعالم الحمالين البسطاء الذين يعملون فى مجال حمل توابيت الموتى وهوادج الأفراح، وعالم مقابر الأطفال الموتى، والذى يعتبر أكثر هذه العناصر غرابة للقارئ "وكانت تلك المقابر عبارة عن مكان فسيح يقوم الأهالى بإلقاء موتاهم من الأطفال الصغار فى هذا المكان المكشوف. وحيث كانت تنتشر فى القرية آنذاك عادة تقول بأن الطفل الذى يموت دون الخامسة من عمره لا يمكن دفنه مثل باقى الأموات، وإنما يجب إلقاؤه فى مكان مكشوف لتأكله الكلاب الضالة". وعالم الجن والعفاريت وغيرها من العوالم الغريبة التى تنفرد بها الرواية بين الأعمال الأدبية الصينية المعاصرة، والتى ترسخ مكانة مو يان كرائد فى فن السرد المعاصر والتأثر بالنظريات الأدبية الأجنبية.

وتتميز هذه الرواية بلغتها المحلية الشاعرية الجميلة، والتى تفيض بالوصف الدقيق للكثير من مكونات البيئة الريفية من نباتات وحيوانات وطيور وحشرات وأنهار وجداول. كما برع المؤلف فى استخدام كم كبير من الألفاظ والتعبيرات الشائعة فى أوساط العامة فى ريف شمال شرق الصين، وكم كبير من التشبيهات الغنية بالخيال الخصب، والتى تنافى الواقع، وقد نجح مو يان فى تطويع اللغة فى الرواية بما يتوافق مع الواقع السحرى والتعمق فى بواطن شخوص العمل، ليعبر عن تأثره الواضح بماركيز وتيار الواقعية السحرية، حيث يعتبر مو يان أكثر الكتاب الصينيين احتفاء بالواقعية السحرية واهتمامًا بها كما صرح بذلك بنفسه. وهكذا فإن استخدام المؤلف للغة العامية والكلمات الخاصة ببيئة ريف مقاطعة شان دونغ شمال شرق الصين، فقد مثلت هذه اللغة المحلية والتشبيهات الخاصة جدًا صعوبة كبيرة خلال الترجمة، وقد تمكنت من زيارة المؤلف فى العاصمة الصينية بكين وتناقشت معه حول الكثير من الاستخدامات اللغوية الخاصة فى الرواية، كما اجتهدت فى قراءة ما أمكن من

أعمال أدبية صينية تنتمى لنفس البيئة، واستعنت برأى عـدد مـن الأصـدقاء الصينيين العاملين فى حقل اللغة الصينية. وأتمنى، بفضل الله وعونه، أن ينال جهدى هذا فى ترجمة هذه الرواية الصينية المهمة جدًا إلى اللغة العربية رضا القارئ العربى الكريم. مع وعد منى أن أجتهد، إن شـاء الله، فـى الأعمـال القادمة. والله وحده ولى ذلك والقادر عليه.

ويسعدنى أن أتقدم بجزيل الشكر إلى من كان لهم الفضل الكبير فى تشجيعى على ترجمة الأعمال الأدبية الصينية وهذه الرواية المهمة على وجه الخـصوص. وأخص بالشكر أساتذتى الأفاضل المترجم الكبير د. عبد الغفار مكاوى، والروائى المصرى الكبير الأستاذ جمال الغيطانى، وأستاذى الفاضل الذى أكن له كـل الاحترام والتقدير الدكتور محسن فرجانى بكلية الألسن جامعة عين شمس.

والله الموفق..

**حسانين فهمى حسين**

**القاهرة فى سبتمبر ٢٠١١**

## هذا العمل تحية...

إلى هؤلاء الأبطال والمظلومين الذين ترفرف أرواحهم وسط حقول الذرة الرفيعة في مسقط رأسي؛ فأنا لست حفيدًا بارًا لكم جميعًا، وكم أود لو أنتزع قلبي الذي تشرب بزيت الصويا، وأقطعه إربًا إربًا، وأضعه في ثلاثة أوانٍ، وأوزعه على حقول الذرة الرفيعة؛ تكريمًا لكم أيها الأبطال! تكريمًا لكم أيها الأبطال!

**المؤلف**

# الباب الأول

# الذرة الرفيعة الحمراء

(١)

فى اليوم التاسع من الشهر الثامن حسب التقويم القديم عام ١٩٣٩، كان أبى- أحد أفراد عصابة قطاع الطرق- قد تجاوز الرابعة عشرة من عمره. وكان قد رافق القائد يو جان آو – ذلك البطل الأسطورى الذى ذاع صيته فيما بعد – رافقه إلى الفريق الذى كان ينصب كمينًا للعدو على الطريق العام عند جياو بينغ. خرجت جدتى تودعهم وهى ملتحفة بعباءتها. فقال القائد يو: "فلترجعى!" فوقفت فى مكانها، ولم تواصل التقدم لوداعهم. وقالت لأبى ناصحة إياه: "دوو قوان، استمع جيدًا إلى كلام والدك!" فأنصت أبى إليها، ولم ينبس ببنت شفة، وراح يمعن النظر فى قامتها العالية ويشم الرائحة المنبعثة من خلال عباءتها، ثم شعر ببرودة شديدة، وراح يرتجف حتى بدأ القائد يو يمسح على رأسه قائلاً: "فلنمض يا صغيرى!"

وهكذا بدأ وقع أقدام أفراد العصابة يبتعد عن المكان شيئًا فشيئا. وبدأ الضباب الكثيف يحجب الرؤية أمام أبى، كان لا يرى أمامه بوضوح، كان فقط يسمع وقع أقدام أفراد العصابة ولا يراهم. ومضى أبى يمسك بطرف ثياب والده القائد يو وهو يهرول وراءه. وأدرك أن جدتى مضت تبتعد عنه كثيرًا، والضباب يبدو كثيفًا كأمواج البحر الهائج، وهو يمسك بطرف ثياب القائد يو وكأنه طوق النجاة الوحيد من هذا الموج الهائج.

بدأ أبى يقفز نحو قبره الحجرى الذى سيكون فيما بعد هنا وسط حقول الذرة. كان ذلك القبر محاطًا بالأعشاب الكثيفة، وقد جاء إلى ذلك القبر صبى

يجر ماعزة، وكانت الماعزة تأكل من تلك الأعشاب والصبى يتبول على حافة القبر وهو يتغنى قائلاً: "لقد احمرت الذرة، وجاء اليابانيون، فيا أيها الأشقاء! استعدوا لإطلاق الأعيرة النارية والمدافع".

قال البعض إن ذلك الصبى هو أنا. ولكننى لا أعرف إن كنت هو أم لا. كنت أعشق كثيرًا ريف دونغ بيى بمدينة قاو مى، وكنت أحقد على ذلك المكان. وبعد أن كبرت واجتهدت فى دراسة الماركسية، أدركت أن ريف دونغ بيى بمدينة قاو مى هو أجمل وأقبح مكان على سطح الأرض، وأهله هم أشجع الشجعان وأحقر الناس، وأنهم أكثر الناس قدرة على شرب النبيذ وعلى الحب. عاش آبائى وأجدادى هنا، وتغذوا على الذرة، وكانوا يزرعونها سنويًا بكميات كبيرة. وفى أغسطس من كل عام، كانت الحقول تبدو كبحور من الدماء وسط زراعات الذرة الرفيعة. وكان أهل قاو مى ينشغلون بهذا العرس فى كل عام. كما أنهم كثيرًا ما قاموا بالقتل والنهب، وأخلصوا دفاعًا عن وطنهم، وقد قدموا صورة مسرحية بطولية حزينة، جعلتنا نحن الأحفاد غير البارين نشعر أمام كل تلك الإنجازات بتراجع النوع الإنسانى فى مدينة قاو مى. وبعد أن خرج فريق العصابة من القرية، ساروا فى طريق ترابى ضيق. واختلط الضباب الكثيف بكميات التراب المنبعثة من تحت أقدامهم، وهم يسيرون فى ذلك الطريق الترابى، كانت قطرات المياه تبدو على وجه أبى وكأنها قطع بلورية. وكان أبى قد تعود على رائحة النعناع الذكية والروائح الأخرى المنبعثة من وسط زراعات الذرة. وفى تلك المرة حيث اختلطت الرائحة بالضباب الكثيف، أحس أبى بأنه يشم رائحة جديدة أيقظت فى نفسه ذكريات بعيدة. وبعد مضى خمسة عشر يومًا، وفى الخامس عشر من شهر أغسطس الذى يوافق عيد منتصف الخريف، كان البدر يملأ السماء وينير حقول الذرة،

وكانت حبات الذرة تبدو كأنها حبات فضية. وراح أبى يشم رائحة ذكية تفوق أضعافا رائحة الذرة فى العصر الحالى. فى ذلك الحين كان القائد يو يجره وراءه، وخلفهم تظهر بركة من دماء ما يزيد على ثلاثمائة من أهل القرية، جعلت الأرض السوداء تبدو مخضبة بالدماء. وقد جعلت الرائحة بعضهم يشعر بالاختناق. كانت مجموعة من الكلاب التى جاءت لتأكل من لحم القتلى تقبع هنالك وتنظر إلى أبى والقائد يو. فأطلق القائد يو رصاصة من مسدسه فاختفى كلبان، ثم أطلق رصاصة ثانية اختفى على دويها كلبان آخران. فتفرقت جماعة الكلاب ووقفت بعيدًا تنظر إلى الجثث الملقاة على الأرض. وبدأت تلك الرائحة تزداد شيئا فشيئا. وراح القائد يو يصيح فى الكلاب: "أيتها الكلاب اليابانية، اللعنة على اليابانيين!"، ثم صوب مسدسه تجاهها حتى اختفت تمامًا. وقال لأبى: "هيا بنا يا بنى!" ودخل الأب وابنه وسط زراعات الذرة. وتسربت تلك الرائحة إلى أعماق أبى حتى أنها باتت ترافقه طيلة حياته.

كانت سيقان الذرة تصدر عند اصطدامها ببعضها البعض أصواتًا مسموعة، أحيانًا قوية وأحيانًا أخرى ضعيفة. ولكى يلاحق أبى الركب، كان يهرول وسط الذرة وهو يصطدم بسيقانها. وفى ذلك الحين كانت تصدر أصوات أخرى نتيجة اصطدام مسدس أحد أفراد العصابة بمسدس رفيقه، أو نتيجة اصطدام أحدهم برأس جثة من تلك الجثث الملقاة وسط الذرة. وسمع أبى صوت سعال ذلك الرجل الذى كان يسير أمامه، وقد عرف من صوت السعال صاحب الصوت وانغ وين إى المعروف بأذنيه الكبيرتين اللتين ما إن تهتزان حتى تنزفا. كانت أذنا وانغ وين إى أكثر أعضاء جسمه دلالة عليه. وكان الرجل يتميز بأنه قصير القامة ذو رأس كبير. جاهد أبى فى السير حتى تحقق من وانغ ونظر إليه نظرة فاحصة. وتذكر حكاية وانغ عندما كان فى ساحة التدريب، وصاح فيهم نائب القائد أن استديروا صوب اليمين، ولكنه

لم يسمع جيدًا، ولم يعرف الوجهة التى نادى بها القائد، فما كان من نائب القائد إلا أن ضربه بالسوط فراح وانغ يصيح: يا أمى! وتغير لون وجهه من شدة الضربة، حتى سمع الجميع صوت ضحك الأطفال الذين كانوا يتابعون التدريب من خارج السور.

وضرب القائد يو وانغ وين إى على مؤخرته، ثم سأله.

"لماذا تسعل؟"

"أيها القائد.". تحمل وانغ وين إى سعاله. وقال "أشعر بألم فى حنجرتى..".

"لا تسعل مهما كان السبب! واعلم أننى سأقطع رأسك إذا اكتشف أمرنا!".

"سمعًا وطاعة أيها القائد". أجاب وانغ، ثم صدر عنه صوت سعال لم يستطع أن يكتمه.

وهنا أحس أبى بأن يد القائد يو تنزل من خلف رأس وانغ وين إى، وأحس أيضًا أن هناك قطرات كحبات العنب تسيل من رقبة وانغ، ورأى عينىّ وانغ تبدوان فى غاية الامتنان والشفقة.

بعد وقت قصير، غابت العصابة وسط زراعات الذرة. وأحس أبى أن العصابة تسير صوب الجنوب الشرقى. وأن الطريق الترابى الذى سلكته العصابة هو الطريق الوحيد المؤدى إلى حافة نهر موا شوى(١). الطريق الضيق أبيض يبدو مائلاً إلى الزرقة فى وضح النهار. كان الطريق

---

(١) نهر موا شوى: نهر يجرى فى منطقة شمال شرق الصين على حدود مقاطعة شان دونغ الصينية، يصل طول مجراه إلى ٤١. ٥٢ كيلومترًا، ومساحة حوضه ٣١٧. ٢ كيلومتر مربع. وينقسم إلى أربعة فروع رئيسية هى: نهر ليو تسون، ونهر لونغ تشوان، ونهر تو تشياو توو، ونهر شى ليو فينغ. (المترجم)

مكونًا من الطمى الأسود، غير أنه الآن غنى بالكثير من روث الأبقار والبغال والحمير. سار أبى فى ذلك الطريق أكثر من مرة، حتى أنه كان يذكره أثناء فترة العذاب التى قضاها فى اليابان. لا يعرف أبى كم من الأحزان والأفراح التى عاشتها جدتى على ذلك الطريق، لكننى أعرف. وكذلك لا يعرف أبى أن جثة جدتى كانت قد ألقيت على ذلك الطريق الترابى الأسود الذى تظلله زراعات الذرة، لكننى أعرف.

كان أبى قد لعب فى صغره فى مياه نهر موا شوى، وكأن حب اللعب فى المياه كان موهبة طبيعية اتصف بها فى طفولته وصباه. حيث تتذكر جدتى أن لهفته إلى المياه كانت أشد من لهفته إلى أمه. كان وهو فى الخامسة من عمره يسبح فى المياه مثل البط الصغير. كان يعرف تمامًا طين قاع نهر موا شوى، وكانت ينمو على ضفاف النهر أعشاب وأزهار كثيرة ويسبح على الشاطئ بعض من كائنات النهر. وفى الخريف عندما كانت تهب الرياح الخريفية وتزداد برودة الجو، كانت تفر إلى الجنوب جماعات من الإوز الصينى. وعندما استمع أبى إلى صوت صرير مياه النهر، تذكر الجد ليو لوو خان الذى كان قد خدم فى منزل العائلة عشرات السنين، وكان مسئولاً عن صناعة النبيذ التى كانت تديرها عائلتى، كان أبى يحبه كثيرًا مثل جده الحقيقى تمامًا.

كثيرًا ما كان أبى يرافق الجد ليو فى الخروج إلى النهر للعب مع سرطان البحر على ضفتى نهر موا شوى. ويمضى هنالك وقتًا جميلاً، حيث صيد الأسماك الصغيرة ونصائح الجد ليو بعدم الاستعجال على الفريسة. وكان أبى يتابع فريسته وهى تدنو من الشاطئ، وتظهر جلية تحت ضوء الشمس حتى يصدر له الجد ليو أوامره بأن: "اقبض عليها!"

وبعد أن توغل أبى بصحبة أفراد العصابة فى زراعات الذرة، كانت قدماه لا تكفان عن الاصطدام بأعواد الذرة، بينما هو غارق فى التفكير فى ماضى النهر وألعاب الطفولة. كان لا يزال ممسكًا بطرف ثياب القائد ليو وهو يهرول وراءه، وقد أحس بالنوم يغلبه، فثقل رأسه، وبدت على عينيه علامات النوم. مضى أبى يفكر فى أن رحلته لن تضيع سدى ما دام فى رفقة الجد ليو إلى نهر موا شوى. وكان أبى قد شبع كثيرًا من أكل سرطان البحر وكذلك جدتى. وكان الجد ليو يقوم بتقطيع سرطان البحر إلى قطع صغيرة ويضيف إليها فول الصويا والملح، ويضعها فى إناء لإعداد حساء سرطان البحر، ذلك الحساء الذى كانوا يتلذذون جميعًا بشرابه. وكنت قد سمعت بأن جدتى كانت تتعاطى مخدر الحشيش، ولكنها لم تصل إلى حد الإدمان؛ لذا فقد كانت تبدو دائمًا فى حالة من الانتعاش. وكان الاهتمام بالصحة والمحافظة عليها شعارًا معروفًا فى قريتنا التى كانت معروفة بإنتاج أنواع من الأسماك الغنية بقطع اللحم. فجأة تذكر أبى حادثة وفاة الجد ليو فى العام الماضى عند طريق جياو بينغ العام. وكانت جثته قد قُطعت إربًا إربا، وتم توزيع تلك القطع فى جميع الاتجاهات. كانت الجثة قد سلخت مثل الضفدعة. وما إن تذكر أبى حادثة مقتل الجد ليو شعر برعشة شديدة أصابت جسمه كاملاً. ثم تذكر حادثة كانت قد وقعت منذ سبعة أو ثمانية أعوام مضت، فى ذلك المساء كانت جدتى قد شربت حتى سكرت، ووصلت إلى ساحة فناء صناعة النبيذ فى منزل العائلة الكبير، وهناك تعلقت بكتف الجد ليو وهى تتوسل إليه: "أيها العم ليو، أتوسل إليك ألا تغادرنا، وإن لم يكن لأجلى فلأجل الصغير دوو قوان، أتوسل إليك أيها العم ليو ألا تغادرنا، وإن أردت أن أهب لك نفسى فسأفعل على الفور، فأنت مثل أبى تمامًا". أذكر أن الجد ليو كان قد أزاح جدتى عنه وغادر المكان إلى زريبة البغال ليطعم بغاله. فقد كانت أسرتى تربى بغلين أسودين يتم استخدامهما فى فرن صناعة النبيذ، وكان البغلان من أجود أنواع البغال المعروفة فى القرية.

ولم يغادر الجد ليو الأسرة إلا بعد قيام اليابانيين بالاستيلاء على البغلين واستخدامهما فى صيانة وتعبيد طريق جياو بينغ العام.

فى ذلك الحين، سمع أبى صوت الحمير القادم من القرية، ففتح عينيه ورأى أن الجو لا يزال ملبدًا بالضباب، وأن أعواد الذرة تحجب عنه رؤية أقرب الأشياء إليه. ومضى يفكر فى زراعات الذرة التى لا تنتهى، لا يدرك كم من الوقت قضاه بين جنباتها. وفقد أبى وهو بين تلك الحقول التى لا تنتهى التركيز فى الاتجاهات. وتذكر أنه كان فى العام قبل الماضى قد ضل طريقه وسط حقول الذرة، ولكن صوت مياه النهر آنذاك دله على طريق النجاة من غيابات الذرة. فعندما سمع أبى صوت صرير مياه النهر، عرف على الفور أن العصابة تمضى فى اتجاه الشرق صوب النهر. وبمجرد أن تأكد من وجهة السير، تأكد أن الركب يمضى إلى ذلك الخندق لمواجهة وقتال الجيش اليابانى، نعم إنهم يمضون إلى القتل، قتل البشر وكأنهم يقتلون الحيوانات. وعرف أن الركب سيسير صوب طريق جياو بينغ الذى قام الجيش اليابانى وعملاؤه بتعبيده مسخرين شعب القرية.

اشتد صوت اصطدام أفراد العصابة بعيدان الذرة، فقد أتعبتهم الرحلة الطويلة وسط زراعات الذرة التى لا تنتهى. حتى وانغ وين إى لم يتوقف عن السعال رغم سيل التوبيخ والسب الموجه له من القائد يو. ولما أحس أبى أن الركب يقترب من الطريق العام، راح يتأمل عيدان الذرة المنغرسة فى الأرض الطينية والمشبعة بمياه الأمطار.

وفجأة سمع أبى صوتًا حادًا، ثم اجتهد ليعرف مصدر الصوت.

وهنا سمع القائد يو يصيح بصوت مرتفع: "من الذى أطلق النار؟ يا شياو جيو تسه من الذى أطلق النار؟".

وسمع أبى دوى طلقة نارية أحدثت جلبة كبيرة وسط زراعات الذرة، وقد أصابت الطلقة فى طريقها الكثير من عيدان الذرة وسنابلها، ولا أحد يعرف أين استقرت. ثم سمع صوت وانغ وين إى وهو يصيح بصوت به الكثير من الأسى والخوف: أيها القائد يو، إننى عديم الرأس، أيها القائد يو إننى عديم الرأس"!

ركله القائد يو برجله. ثم قال: "عليك اللعنة! عديم الرأس ولكنك جرىء فى الحديث!"

وقال أبى: "أيها العم وانغ إنك جُرحت".

"دوو قوان، أأنت دوو قوان، انظر جيدًا هل لا يزال رأس العم وانغ فى مكانه؟"

"نعم، إنه لا يزال مستقرًا فى مكانه، فقط تبدو أذنك مجروحة".

مد وانغ وين إى يده يتحسس أذنه المجروحة، ولامست يده الدماء التى تسيل من أذنه، وهنا بدأ يشكو حاله إلى القائد يو: "أيها القائد يو، لقد جُرحت، لقد جُرحت، لقد جُرحت".

رجع القائد يو إلى الخلف، وجلس القرفصاء، وأمسك برقبة وانغ وين إى، وقال بصوت منخفض: "كف عن الصراخ، وإلا فصلت رقبتك عن جسدك!"

وهنا كف وانغ وين إى عن الصراخ.

وعاود القائد يو يسأله: "أين مكان الجرح؟"

فرد وانغ باكيًا: "إنها أذنى..."

أخرج القائد يو من جيبه قطعة قماش بيضاء وشقها نصفين ومدها إلى وانغ قائلاً: "غط بها الجرح، وكف عن الصراخ، وسنعاود لف الجرح ثانية في الطريق".

ونادى القائد يو على أبي: " دوو قوان". فأجابه أبي، ثم اقترب منه وواصلا السير معا. بينما كان وانغ يسير خلفهما وهو يتألم من جرحه.

كانت تلك الطلقة الطائشة التي دوى صوتها وسط زراعات الذرة، قد خرجت عن غير قصد من بندقية الأخرس. وكان الأخرس صديقًا قديمًا وحميمًا للقائد يو، وكان بطلاً رافقه طويلاً، وأكلا معًا الخبز وسط زراعات الذرة، وكانت إحدى قدمي الأخرس قد جُرحت وهو لا يزال في بطن أمه، كان يعرج عليها أثناء السير، ولكنه كان يسير عليها بسرعة، وكان أبي يخشاه كثيرًا.

وعندما تبدد ضباب الفجر، وصلت العصابة أخيرًا إلى طريق جياو بينغ العام. وعندما سلك الركب الطريق العام، بدا أبي أكثر مرونة وحيوية وقدرة على السير بمفرده، حتى أنه لم يعد يمسك بطرف ثياب القائد يو. وكان وانغ وين إي لا يزال يغطي أذنه المجروحة بتلك القماشة البيضاء وهو غارق في بكائه. وهنا مد القائد يو يده وساعده في ربط الجرح بأحكام حتى شمل الغطاء نصف رأسه. وراح وانغ يتأوه من شدة الألم.

قال القائد يو: "آه من عمرك الطويل!".

فرد وانغ وين إي: "لقد نزفت دمائي كلها، ولا أستطيع الذهاب!".

قال القائد يو: "عليك اللعنة، إن جُرحك هذا لا يعادل بدغة بعوضة، هل نسيت ثأر أبنائك الثلاثة!".

فطأطأ وانغ رأسه، وقال وهو يغمغم: "لا لم أنس، لم أنس أبدًا".

ومضى وانغ يسير وهو يحمل بندقيته التى تلوثت بدمائه التى لم تتوقف بعد.

كان الضباب قد تبدد تمامًا، وبدا الطريق العام صحوًا، ولم يكن على الطريق أى أثر لأقدام الأبقار والخيل أو حتى البشر. وكان الطريق المحاط من جانبيه بزراعات الذرة كفيلاً بأن يجعل المارة يشعرون بعدم الاطمئنان. كان أبى يعلم أن عصابة القائد يو المكونة من أربعين شخصًا، من بينهم الأبكم والأخرس والأعرج، كانوا جميعهم جنودًا شجعانًا عاشوا فى القرية، واختلطوا بجميع ما فيها من حيوانات وطيور. والتف ثلاثون رجلاً منهم مكونين دائرة تشبه الحية أثناء نومها، وكان من بينهم من يحمل البنادق والمسدسات والمطارق والتروس الحديدية. ولم يكن أبى يعرف آنذاك شيئًا عن نصب الأكمنة وعن فائدة التروس الحديدية فى نصب الأكمنة لمواجهة العدو.

(٢)

كنت قد عدت إلى قرية دونغ بيى بمدينة قاو مى لأقوم بزيارات ميدانية وتحقيقات، رغبة منى فى أن أخلد مآثر عائلتى. وكانت النقطة الرئيسية التى ركزت عليها فى زياراتى هى تلك المعركة التى كان أبى قد شارك فيها لمقاومة العدوان اليابانى على القرية. قالت لى عجوز من القرية تبلغ من العمر اثنين وتسعين عامًا: "لقد عاش أهل دونغ بيى الكثيرون هنا على ضفاف نهر موا شوى خه. وكان القائد يو الشجاع يتقدمهم فى المعارك الكثيرة التى استطاعوا خلالها أن يبددوا جيش العدو الياباني. وكانت البطلة داى فينغ ليان قد وقفت بالمطرقة الحديدية أمام العدو واعترضت طريقه إلى

القرية..."، كان رأس العجوز يبدو أصلع مثل قدر من الفخار، وتبدو على وجهها آثار الزمن. وكانت تلك العجوز قد نجت من مذبحة خريف أغسطس عام ١٩٣٩، بعد أن أصيبت آنذاك بدمل فى قدمها جعلها غير قادرة على ملاحقة الركب والهروب من العدو، فأدخلها زوجها فى سرداب، واختفت داخله حتى زال الخطر. كان داى فينغ ليان - تلك المرأة التى تتغنى بشجاعتها العجوز - هو لقب لجدتى. وقد تأثرت كثيرًا عند سماعى لقب جدتى على لسان العجوز. وعرفت أن كلام العجوز يدل على أن جدتى هى التى كانت قد اعترضت طريق العربات اليابانية بالمطرقة الحديدية. فهى تعتبر أيضًا رائدة من رواد المقاومة ضد العدوان اليابانى وبطلة شعبية دافعت عن بلادها.

عندما ذكرت للعجوز اسم جدتى، أسهبت فى الحديث عنها. وكان حديثها عن جدتى متفرقًا، فتحدثت عن قدميها اللتين كانتا أصغر أقدام بالقرية. وتحدثت عن صناعة النبيذ التى كانت تزاولها عائلتى. وتحدثت بكلام مترابط عن طريق جياو بينغ العام، حيث قالت: "عندما وصل تشييد الطريق إلى هنا، قام اليابانيون بجمع أكثر أهل القرية شدة وأجبروهم على العمل فى تشييد الطريق، كما استولوا على البغلين اللذين تمتلكهما عائلتك، وأقام اليابانيون جسرًا حجريًا أعلى نهر موا شوى، أما لوو خان، أقصد ذلك الأجير الذى كان يخدم فى منزل عائلتك، فقد كانت بينه وبين جدتك علاقة غير واضحة، والجميع كان يتحدث عن هذه العلاقة، كان هناك الكثير من الحكايات حول جدتك فى شبابها، وكان أبوك شجاعًا استطاع القتل وهو فى الخامسة عشرة من عمره، فقد تربى على يدى قطاع الطرق. كان الأجير لوو خان قد تعرض للقتل والتمثيل بجثته عندما راح يبحث عن البغلين ويحاول استعادتهما من أيدى اليابانيين.

ويعتبر الجد ليو لوو خان شخصية مهمة فى تاريخ عائلتى الطويـــل. وحتى الآن لا توجد أى أدلة تؤكد تلك العلاقة المزعومة بينه وبين جـــدتي. وإن كنت شخصيًا لا أرغب فى الاعتراف بهذه العلاقة.

جعلنى حديث العجوز الصلعاء أشعر بالحيرة، على الرغم من وجـــود مبررات لتلك العلاقة بين جدتى والجد ليو لوو خان. مضيت أفكر فى أنه ما دام الجد ليو يعاملنى كحفيده، فإنه يعتبر مثل جدى لأبى، وإذا كان له نزوات طائشة مع جدتى، فإن هذا سيكون مجرد افتراضات فحسب. لم تكن جـــدتى زوجة له بل كانت سيدته، وكان الجد ليو يرتبط بعائلتى بـــصفة اقتـــصادية فحسب لكونه أجيرا عند العائلة، ولم تكن تربطه بنا صلة قرابة. كـــان فقـــط أجيرًا عمل لمدة طويلة على خدمة العائلة، وكان له دور فى ازدهار تجارتها، وإذا كانت جدتى وقعت فى حبه أم لم تقع، وإذا كان هو وقع فى حبائل جدتى أم لم يقع، فإن ذلك كله مجرد افتراضات. وماذا لو كان حدث ذلك الحـــب؟ أثق تمامًا أن جدتى كانت قادرة على فعل أى شىء ما دامت ترغـــب فيـــه. وأنها لم تكن بطلة شعبية فحسب، بل كانت أيضًا رائدة فى مجال تحرر الذات ونموذجًا فى اعتماد المرأة على نفسها.

قمت بمراجعة سجلات المدينة، وتوصلت إلى أن تلك السجلات تذكر: أنه فى العام السابع والعشرين من تأسيس جمهورية الصين الوطنيـــة(١) قـــام الجيش اليابانى بالقبض على أربعمائة ألف من أهل مدن قاو مى، وبينغ دو، وجياو شيان، لتشييد طريق جياو بينغ العام. وقد أدى ذلك إلى تبوير مساحات شاسعة من الأراضى الزراعية. والاستيلاء على عدد كبير من البغال والخيل

---

(١) جمهورية الصين الوطنية تأسست فى عام ١٩١١ وظلت قائمة حتى أكتوبر عـــام ١٩٤٩، إذ سقطت بتأسيس جمهورية الصين الشعبية. (المترجم).

للاعتماد عليها فى تشييد الطريق. اعترض الفلاح ليو لوو خان على ذلك، وحاول استعادة بغليه من العدو اليابانى، الأمر الذى أدى إلى رد عنيف من الجيش الياباني. قاموا بقتله والتمثيل بجثته أمام الجماهير العريضة من أبناء القرية. غير أن الفلاح ليو لم يستسلم للعدو بسهولة وناضل حتى لفظ أنفاسه الأخيرة.

(٣)

وهكذا كانت تلك الواقعة، حيث جاءت القوات اليابانية وواصلت تشييد الطريق على حدود قريتنا. وقد أدى ذلك إلى الإضرار الكبير بحقول الذرة، وغير الطريق الكثير من معالم القرية. وعندما سمع الأهالى بأمر الطريق، وأن الجيش اليابانى قادم إلى القرية لتشييد الطريق، كانوا فى غاية القلق وبدءوا يترقبون وقوع الكارثة.

ووقعت الكارثة بالفعل، وجاءت القوات اليابانية.

وعندما وصل العدو اليابانى إلى القرية وقاموا بالقبض على الفلاحين، واستولوا على البغال والخيل، كان أبى يغط فى نوم عميق. وقد أيقظه آنذاك صوت طاحونة صناعة النبيذ. وسحبته جدتى من قدميه الصغيرتين إلى فناء الطاحونة. كان يوجد بالفناء آنذاك ما يزيد على عشرة قدور كبيرة ممتلئة بالنبيذ الأبيض عالى الجودة، تفوح رائحته فى جميع أرجاء القرية. ودخل إلى الفناء جنديان يابانيان يرتديان زيًا أصفر اللون ويمسك كل منهما برشاش مزود بخنجر، بصحبتهما شابان صينيان فى زى أسود يحمل كل منهما بندقية وقد انشغلا بفك البغلين المربوطين إلى الشجرة. وحاول الجد ليو جاهدًا منع العميلين الصينيين من فك البغلين، لكنه لم يستطع الصمود أمام ضرباتهم

المتتالية، وبعد وقت قصير، بقى الجد ليو بمفرده وسط شمس الصيف المحرقة، وقد تمزقت ثيابه جميعها إلا سترة بسيطة بدت مبللة بقطع أرجوانية داكنة.

قال الجد ليو للمغتصبين: "أيها الأخوة الصغار، علينا أن نتفاهم فى الأمر، علينا أن نتفاهم".

فرد العميل صاحب القامة السامقة: "أيها الحيوان العجوز، اغرب عن وجهنا".

قال الجد ليو: "هذه حيوانات أصحاب الدار التى أعمل بها، وليس أمامى إلا الدفاع عنها".

فقال أحدهم: "اغرب عن وجهى وكف عن الجدال وإلا قتلتك!"

وفى تلك الأثناء كان الجنديان اليابانيان يحملان سلاحهما واقفين وكأنهما صنمان مثبتان فى مكانهما.

وما إن دخلت جدتى وأبى إلى الفناء، حتى راح الجد ليو يصيح: "إنهم يريدون أن يستولوا على بغالنا".

فتدخلت جدتى وقالت: "أيها السيد، إننا مواطنون صالحون".

فنظر الجنديان اليابانيان إلى جدتى وهما يضحكان.

قام العميل صاحب القامة القصيرة بفك البغلين، وحاول جرهما بقوة، غير أنهما كانا يرفعان رأسيهما إلى أعلى متشبثين فى مكانهما لا يرغبان فى مغادرة المكان. فتدخل العميل صاحب القامة السامقة وضرب البغلين ببندقيته على أردافهما، ولكنهما اشتاطا غضبًا وراحا يدكان الأرض بقدميهما حتى أصاب الطين وجه العميل.

وهنا أشار العميل صاحب القامة القصيرة بالبندقية إلى الجد ليو وصاح فيه: "أيها العجوز الأحمق، فلتسحب أنت البغال إلى موقع تشييد الطريق".

تقرفص العجوز فى مكانه.

وأخذ الجندى اليابانى برشاشه وراح يلوح به أمام عينى الجد ليو وهو يغمغم بكلمات غير مفهومة. ولم يستطع الجد ليو أن ينهض من على الأرض، وظل قابعًا فى مكانه. ثم استل الجندى اليابانى خنجره ولوح به أمام عينى الجد ليو، ثم مال على رأسه وخدشها محدثا بها فتحة ظاهرة.

تدخلت جدتى قائلة: "أيها العم ليو، فلتترك لهم البغال".

اقترب الجندى اليابانى من جدتى، ونظر أبى إلى ذلك الجندى فرآه شابًا وسيمًا ذا عينين كبيرتين وشعر أسود لامع وأسنان صفراء. وتراجعت جدتى إلى الجد ليو، وراحت تتحسس الدم الذى يسيل من رأسه، وتحاول أن توقفه وهى تنظر نظرات غريبة إلى الجنود والعملاء وكأنها شيطانة. فتراجع عنها الجندى اليابانى، وتدخل العميل الصينى قائلاً: "أيها القائد أرى أن هذه المرأة قد أصيبت بالجنون".

واقترب الجندى اليابانى من جدتى ثانية، وأطلق أعلى رأسها طلقة جعلتها تفترش الأرض.

أجبر العميل الصينى القصير الجد ليو على أن ينهض من جلسته تحت تأثير سلاحه، وجعله يأخذ بحبل البغال ويجرها إلى خارج الفناء. وعندما خرج الجد ليو بالبغال إلى الخارج، كان الشارع يمتلئ بالبغال والأبقار الأغنام.

ولم تكن جدتى قد أصيبت بالجنون أو ما شابه ذلك. فما أن خرج المغتصبون، سارعت بفتح أحد القدور فى الفناء وغسلت وجهها بالماء.

تم احتجاز الجد ليو مع البغلين فى موقع العمل.

وهكذا تم الاستيلاء على الجد ليو والبغلين ليصبحا رهائن فى موقع تشييد طريق جياو بينغ العام. وعندما اقترب الانتهاء من دك الطريق، ظهر الكثير من سيارات النقل الكبيرة والصغيرة التى كانت تسير على الطريق الجديد محملة بالأحجار الصغيرة والرمال، كانت تفرغ حمولتها على جانب النهر. فى ذلك الحين كان يوجد على النهر جسر خشبى صغير؛ لذا فكر اليابانيون فى استبدال جسر حجرى كبير به وفى أثناء ذلك تم دك مساحات واسعة من الذرة، حتى الطريق بدا وكأنه مغطى بطبقة خضراء. وكانت البغال والخيل تدوس فى حقول الذرة لتحمل الأحجار والرمال من جانب النهر إلى موقع العمل. وكان العمال المكلفون بسحب البغال والخيل ينظرون فى أسى إلى حقول الذرة التى تخربت تمامًا، واختلطت محاصيلها بالأحجار والرمال وروث الحيوانات.

كان الجد ليو قد كُلف بنقل الأحجار من جنوب النهر إلى شماله، ولم يكن يرغب فى أن يترك البغلين لشيخ آخر ليشرف على عملهما. وكان يعبر الجسر الخشبى الذى يتمايل بشدة وكأنه على وشك السقوط. وبينما هو يعبر الجسر إلى جنوب النهر وقد وقف برهة يأخذ قسطًا من الراحة، دنا منه رجل صينى يبدو أنه رئيس عمال وضربه بالعصا على رأسه قائلاً: "انهض وواصل حمل الأحجار إلى شمال النهر". ففرك الجد ليو عينيه ومسح الدم الذى بدأ يسيل من رأسه ثم مضى إلى عمله. ورأى ذلك الشيخ يسحب البغلين فدنا منه وقال: "رفقًا بهما، فإنهما حيوانات العائلة التى كنت أقوم بخدمتها". ولم يعره الشيخ أى اهتمام، وواصل عمله. كان رأس الجد ليو لا يزال ينزف، فجلس على الأرض وأمسك بحفنة تراب، وراح يسد بها فوهة الجرح والألم يزيد، وكأن رأسه انقسم إلى شطرين.

في موقع العمل كانت تقف مجموعة من الجنود اليابـانيين والعمـلاء الصينيين الممسكين ببنادق، وكان ذلك المشرف الصيني صاحب العصا التي جرحت الجد ليو يزرع المكان ذهابًا وإيابا. والجد ليو يروح ويجيء في موقع العمل ورأسه لا يتوقف عن النزيف، والعمال الصينيون ينظرون إليـه فـي شفقة. وبينما هو يمضي في حمل قطعة حجرية، إذا بذلك المشرف الـصيني ينزل عليه بضربة عصا أحس الجد ليو بعدها أن جسده انـشطر نـصفين، ففاضت عيناه بالدموع وسالت دماؤه بغزارة.

فقال الجد ليو: "أيها القائد!"

فضربه القائد ضربة ثانية.

قال الجد ليو: "ما السبب الذي يحملك على أن تضربني أيها القائد؟"

فرد القائد مبتسمًا: "لكي أزيد من همتك أيها الحيوان".

واشتد غضب الجد ليو، ومضى إلى عمله يحمل الأحجار الكبيرة وكأنه لا يشعر بأدنى ألم.

كان المشرف الصيني يقف آنذاك في مكانه، وما إن رأى الجد ليو يمر من أمامه حتى أشاح بيده، ونزل على رقبة الجد ليو بضربة عصا. ومـشى الجد ليو يتألم حتى سقط الحجر من بين يديه على الأرض، وأصـاب يديـه بجروح متفرقة راح بعدها يبكي مثل الطفل الصغير. وبينما هو يبكـي، إذا بقطعة لهب تشتعل فوق رأسه.

راح الجد ليو يقفز من فوق الأحجار ويجري هنا وهناك.

ونظر إلى رجل في منتصف العمـر، كـان غارقًـا فـي الـضحك، ثم اقترب من مشرف العمال وأشار إليه بقطعة خشب ملتهبة في يده.

وقال الرجل الذى فى منتصف العمر للجد ليو: "أيها الجد، لا داعى لأن تغضب من هذه القطعة الخشبية".

وفى تلك الأثناء كان مشرف العمال ممسكًا بسيجاره ينفثه فى الهواء الطلق.

واقترب منه ذلك الرجل الذى فى منتصف العمر، ودس فى جيبه علبة سجائر، بعدها تحرك المشرف وغادر المكان.

وسأل الرجل الذى فى منتصف العمر الجد ليو: "أيها الأخ الأكبر، هل أنت جديد فى هذا المكان؟".

أجاب الجد ليو: "نعم".

وسأل: "ألم تقدم له أية هدية؟"

فرد الجد ليو غاضبًا: "إنه مجرد كلب لا يستحق الهدايا! كلاب قبضوا على بدون سبب".

قال الرجل: "أهد له بعض النقود أو علبة سجائر أو أى شيء تتق به شره". ثم مضى الرجل إلى عمله.

وهكذا أمضى الجد ليو صبيحة يوم كامل فى نقل الأحجار ورأسه ويداه وجميع أطرافه تبدو مخضبة بالدماء.

فى وقت الظهيرة، جاءت سيارة صفراء اللون تسير على الجزء الذى تم تعبيده من الطريق، وراح العمال يهرولون إلى السيارة القادمة، ولكن الجد ليو بقى قابعًا فى مكانه لم يتحرك فى اتجاه السيارة.

اقترب منه الرجل فى منتصف العمر، وسحبه من يده قائلاً: "حان وقت الطعام، هيا لنتذوق الأرز اليابانى!".

فوقف الجد ليو وسار برفقة الرجل إلى سيارة الطعام.

ووقفت السيارة، وقام العمال بإنزال برميلين كبيرين من على سطحها. برميل ممتلئ بالأرز الأبيض، والآخر ممتلئ بسلطانيات خزفية مرسـومة، إلى جانب البرميلين وقف رجل صينى نحيف يمسك بمغرفة نحاسية كبيـرة، ورجل صينى سمين يمسك بمجموعة من السلطانيات. وكان العمال يقتربون أولاً من الرجل السمين ليحصلوا على السلطانية، ثم إلى النحيف ليغرف لهم غرفة من الأرز المطبوخ. ولم يكن هناك عصا طعام، فكان العمال يـأكلون الأرز بأيديهم.

وعاد مشرف العمال ثانية وبيده العصا، ولا يزال تعلو وجهه ابتسامة فاترة. وقد جعل اللهب الذى أصاب رأس الجد ليو يستعيد جميع ما حدث لـه على مدى ذلك اليوم الحزين الذى هو أشبه بكابوس مـروع. وجـاء أيـضًا الجنود اليابانيون والعملاء الصينيون، والتفوا جميعًا حول قـدر كبيـر مـن الأرز، وانهمكوا فى تناول وجبة الغداء. بينما كان يرقد خلف القدر كلب ذو أذن طويلة يلعق بلسانه فى تجاه العمال الفلاحين.

وبعد أن أحصى الجد ليو عدد الجنود اليابانيين والعملاء المرافقين لهم، وكان عددهم مجتمعين لا يزيد على بضعة وعشرين فردًا، فكر فى الهروب. نعم الهروب، ولا طريق أمامه سوى حقول الذرة، ولن يتمكن هؤلاء الكلاب من اللحاق به وسط الذرة. وبدأ القلق يساوره منذ أن فكر فى الهروب. فراح ينظر إلى مشرف العمال وابتسامته الفاترة التـى تخفـى وراءهـا الكثيـر من الشر.

وقبل أن يشبع العمال، قام الرجل الصينى الـسمين بجمـع سـلطانيات الطعام. وراح العمال يلحسون أطراف شفاههم بألسنتهم وهم ينظرون إلى بقايا

الأرز المترسبة بقاع القدر الكبير، ولكن لم يجرؤ أحدهم على مد يده لطلب المزيد من الأرز. وفى تلك الأثناء صاح بغل على الضفة الشمالية للنهر، وعلى الفور ميز الجد ليو صوت البغل، وعرف أنه صوت بغل سيده الأسود. وكان البغل مربوطًا هنالك إلى حجر كبير يأكل فى كومة من سيقان الذرة.

وبعد ظهر ذلك اليوم، استغل شاب فوق العشرين عدم انتباه مشرف العمال، وفر هاربًا إلى حقول الذرة المجاورة لموقع العمل، فلاحقته على الفور رصاصة أردته قتيلاً.

وعندما آذنت الشمس بالمغيب، عادت تلك السيارات الصفراء ثانية إلى موقع العمل. كانت معدة الجد ليو قد تعودت على ذلك النوع من الأرز اليابانى، ومع مرور الوقت كانت رغبته فى الهروب تزداد حيث، كان شوقه يزداد إلى قريته البعيدة وَإلى فناء منزل العائلة تفوح منه دائمًا رائحة النبيذ، جميع العاملين فى صناعة النبيذ فروا بمجرد دخول اليابانيين إلى القرية. كان شوقه يزداد إلى جدتى وأبى، فقد كان الدفء الذى كانت تمنحه إياه جدتى شيئًا لا ينسي.

بعد الانتهاء من تناول وجبة العشاء، تم تسكين العمال فى سقيفة خشبية ذات باب حديدى مغطاة بقطع من القماش، بينما كان اليابانيون والعملاء الصينيون يبيتون فى خيمتين على بعد حوالى عشر خطوات من سقيفة العمال. كان ذلك الكلب مربوطًا أمام خيمة اليابانيين، وأمام سقيفة العمال كان هناك عمود خشبى يتدلى منه مصباح كهربى. وكان الشياطين اليابانيون والعملاء الصينيون يتناوبون على مراقبة العمال فى سقيفتهم. والبغال مربوطة هنالك على مقربة من سقيفة العمال ترعى فى بقايا الذرة التى دهستها سيارات الرصف.

وكان المرء باستطاعته أن يسمع داخل السقيفة أصوات شخير بعض العمال، أو يرى أحدهم يخرج إلى جوار السقيفة لقضاء حاجته.

واشتدت البرودة بعد منتصف الليل، وقد راح النوم من عينى الجد ليو. كان لا يزال يفكر فى أمر الهروب من الموقع. ولما كان صوت وقع أقدام الحراس لا يتوقف، فقد أسلم الجد ليو نفسه إلى النوم حتى راح فى نوم عميق، ورأى فى حلمه أن هناك خنجرًا حارًا ينفذ إلى داخل رأسه، وأنه كان ممسكًا بسيخ حديدى. وبعد أن استيقظ وجد بنطاله مبللاً بآثار بول. وسمع فى ذلك الحين أصوات الديكة تصيح من القرى البعيدة، كما سمع أصوات شخير البغال، ورأى من خلال غطاء السقيفة نجوم السماء البعيدة.

وفجأة نهض ذلك الرجل الذى كان قد ساعد الجد ليو فى الظهيرة. وعلى الرغم من ظلمة الليل، فإن الجد ليو استطاع أن يميز عينيه اللتين كانتا تبرقان مثل كرة نارية. ولما كان الجد ليو قد عرف قليلاً عن تاريخ ذلك الرجل غير السوى، فقد راح يراقب حركاته وسط ظلمة الليل البهيم.

ركع الرجل عند حافة السقيفة وراح يتحرك ببطء. ومضى الجد ليو يراقب الرجل وينظر إلى ظهره ورأسه من الخلف. كان يقفز ويتلوى فى حركات دائرية، وتطلق عيناه نظرات ثاقبة إلى جميع الأشياء من حوله. كان يقبض بيديه على عصيين حديديتين، وفجأة قفز قفزة سريعة، ونظر الجد ليو إلى الرجل، فإذا به ينقض على أحد الجنود اليابانيين ويقبض على سلاحه ثم يختفى فجأة.

ومر وقت طويل حتى استطاع الجد ليو أن يفهم تلك الحادثة التى وقعت أمام عينيه. فقد كان ذلك الرجل بطلاً فى رياضة الوو شو، وقد فتح ذلك البطل الطريق أمامه إلى الهروب من أيدى الشياطين اليابانيين! ونجح

الجد ليو فى أن يتسلل إلى خارج السقيفة من خلال تلك الفتحة التى قفز من خلالها ذلك البطل، ورأى الجد ليو الجندى اليابانى الذى قتله بطل الوو شو ملقى ووجهه على الأرض.

قفز الجد ليو إلى داخل حقول الذرة، ومضى يتعمق داخلها وهو فى غاية الحذر، حتى وصل إلى ضفة نهر موا شوى. وفى ذلك الحين كانت السماء لا تزال مظلمة بظلام قبيل الفجر، والنجوم تبدو مضيئة على صفحة مياه نهر موا شوى. وجلس الجد ليو على ضفة النهر وهو يتلوى من شدة البرد الذى ظهر جليًا من خلال صوت أسنانه. لم يكن الجد ليو يصدق حقيقة أنه استطاع النجاة من أيدى الشياطين اليابانيين. ثم قادته قدماه إلى الجسر الخشبى الصغير، ليرى أسفله تلك الأسماك الصغيرة تلهو وسط مياه النهر، وتلك النجوم المضيئة أعلى صفحة النهر. وأحس كأن شيئًا لم يحدث. كان يفكر فى أنه سيعود إلى القرية، ويختفى من هؤلاء الشياطين وعملائهم وسيشفى من جراحه، ويواصل حياته فى منزل سيده. ولكنه عندما كان يسير أعلى الجسر الخشبى، سمع صوت بغل يصهل على الضفة الجنوبية للنهر. وعندما رجع ليرى ذلك البغل، واجه نهايته المأساوية.

كانت البغال والخيل مربوطة هنالك إلى دعائم خشبية على مقربة من سقيفة العمال، عاد الجد ليو إلى هنالك ودخل وسط البغال، شم على الفور رائحة بغلىّ سيده. وقد رآهما بأم عينيه. فانقض عليهما رغبة منه فى إنقاذ رفيقيه فى تلك الرحلة المؤلمة. غير أن البغال – تلك الحيوانات التى لا تفهم – راحت تدك الأرض بأقدامها وتقفز هنا وهناك. وراح الجد ليو يتحدث إلى أحدهما: "أيها البغل الأسود، أيها البغل الأسود، لا تقلق سنهرب معًا!" ولكن البغلين لم يفهما كلامه وراحا يدوران فى مكانهما، وكأنهما لم يتعرفا عليه، كانت رائحة الجد ليو قد تغيرت، وغيرت الجروح من ملامح وجهه. وبدأ

الجد ليو يشعر بالقلق، وعندما بدأ يقترب من البغال، رفسه أحدهما رفسة فى ظهره. فسقط العجوز على الأرض، ولم يقو على الحركة لفترة طويلة. واستمرت البغال فى هيجانها حتى استجمع الجد ليو قوته، ونهض محاولاً الخلاص من تلك الورطة. وعندئذ سمع صياح الديكة القادم من القرى المجاورة. كان الصبح قد بدأ يرسل نوره على الفضاءات المحيطة.

(٤)

سارت العصابة على حافة نهر موا شوى والشمس تعلو وجوههم. كان أبى مثله مثل أعضاء العصابة يراقب عن كثب ذلك الضباب المتبقى أعلى مياه النهر. وهناك كان يظهر جسر شه سه كونغ الحجرى الذى أقامه اليابانيون ليربط بين ضفتى النهر الجنوبية والشمالية. وقد شُيد الجسر الجديد فى الناحية الغربية من موقع الجسر الخشبى القديم. كنت ترى من أعلى الجسر الجديد سنابل الذرة التى كانت ثابتة فى مكانها وكأنها وجوه حمراء مألوفة لمن يسير أعلى الجسر الجديد، وكانت بعض أعواد وسنابل الذرة تتجمع مع بعضها مكونة وحدة متكاملة تحمل مغزى عميقًا. وكان أبى فى ذلك الحين لا يزال صغيرا، ولا يفهم معنى اتحاد أعواد الذرة، هذا ما ذكرته به فيما بعد.

كانت الذرة مثل فلاحى القرية تنتظر موعد جنى الثمار.

وكان الطريق العام يمتد مباشرة تجاه الجنوب، ويضيق شيئًا فشيئا حتى يتوارى تمامًا وسط زراعات الذرة الكثيرة. ليبدو موحشًا عند نهايته.

راح أبى ينظر بفضول إلى أعضاء عصابة القائد يو، ويتساءل فى نفسه: من أين جاءوا وإلى أين يمضون ولماذا ينشغلون بنصب هذا الكمين وماذا بعد نصب هذا الكمين وسط ذلك السكون الذى خيم على المكان، سمع أبى صوت خرير المياه أسفل الجسر الحجرى. ثم بدأ يرى تغير لون مياه النهر تحت ضوء الشمس التى بدأت أشعتها تنتشر فى أرجاء المكان. ومضى يتذكر، عندما كانت تهب رياح الخريف ويشعر ببرودة الجو وتطير جماعات الإوز صوب الجنوب ويجرى هو وراءها والجد ليو يشجعه قائلاً: اقبض عليها، اقبض عليها! وبدأ أبى يشم رائحة سلطعون النهر المميزة، وتذكر أن عائلتنا كانت قبل فترة حرب المقاومة ضد اليابان تروى بعض محاصيلها بصلصة هذا السلطعون، كانت الثمار دائمًا وفيرة وذا رائحة قوية.

وقال القائد يو: "عليكم جميعًا بالاختفاء أسفل السد. وأنت أيها الأخرس عليك بإلقاء الأمشاط الحديدية".

وهنا أخرج الأخرس من جعبته بعض الرقائق الحديدية وربط بها أربعة أمشاط، ونادى على بعض رجال العصابة، فقاموا بنقل الأمشاط الحديدية إلى مكان التقاء الطريق العام بالجسر الحديدى.

قال الجد ليو: "أيها الرفاق، علينا أن نختبئ جيدًا، وأن ننتظر حتى تصعد سيارات الشياطين اليابانيين أعلى الجسر، ثم نطلق جميعًا النار بمجرد أن أعلن لكم إشارة البدء، وأن نقدم هؤلاء الحيوانات وجبة سمينة لأسماك النهر".

وأشار القائد يو إلى الأخرس بيديه، فهز الأخرس رأسه، وحمل على الفور مدفعًا فى نصف طول قامة الإنسان، ونصبه وسط حقل الذرة على الناحية الغربية للجسر. وسار العم وانغ وين إى غربًا برفقة الأخرس، ثم أشار الأخرس عليه بالعودة. فاستقبله القائد يو قائلاً: "لا تذهب معه واتبعنى هل أنت خائف؟"

هز العم وانغ رأسه قائلاً: "لا أخاف..... لا أخاف..".

وأمر القائد يو الرفيق فانغ جيا بأن يحمل العمود الكبير إلى ضفة النهر، ثم وجه كلامه إلى الطبال والزمار ليو الذى كان ممسكًا بمذياع كبير قائلاً: "أيها الرفيق ليو، بمجرد أن تشتعل النيران عليك فقط أن تجتهد فى نفخ مزمارك، فإن الشياطين اليابانيين يخشون آلات الصوت، أسمعت؟

ويعتبر الرفيق ليو أحد أصدقاء القائد يو منذ الصغر، وتعود صداقتهما إلى وقت كان القائد يو يجر هودجًا، وكان ليو ينفخ المزمار ويقرع الطبول، وكانت يداه تمسك بالمزمار كأنها تقبض على بندقية.

هنا وجه القائد يو كلامه لجميع أعضاء العصابة قائلاً: "سأبدأ بالكلام القبيح أولاً، سأقتل كل من تسول له نفسه التسبب فى فشل خطتنا. فعلينا أن نقاتل بحماس حتى يرى ذلك أعضاء عصابة لينغ هؤلاء الأوغاد، وأن نرفع راية النصر حتى يدب الفزع فى قلوبهم. وإذا لم نبادر نحن بذلك، فإنهم سوف يحاولون القضاء علينا!"

احتشد الجمع وسط الذرة، وأخرج الرفيق فانغ ليو مبسم السجائر وراح يلف سيجارته، ثم بدأ يدخن والدخان يتطاير أمامه حتى تدخل القائد يو قائلاً: "انفض رماد سيجارتك، فكيف سيصعد اليابانيون الجسر إذا شموا رائحة الدخان؟"

أخذ ليو نفسين فى عجالة، ثم نفض سيجارته، وأحكم غلق علبة السجائر. قال القائد يو: "علينا جميعًا أن نرابط على ضفة النهر لكيلا نفاجأ باليابانيين أعلى الجسر".

وساور الجميع شعور بالقلق، ثم أسرعوا، وانبطحوا على ضفة النهر ممسكين بأسلحتهم فى وضع الاستعداد لملاقاة العدو. وانبطح أبى آنذاك إلى جوار القائد يو الذى سأله: "هل أنت خائف؟ فأجاب أبى: "لا أخاف!"

قال القائد يو: "يا لك من بطل شجاع، من شابه أباه فما ظلم! إنك ستخلفنى فى قيادة هذه العصابة، وعليك ألا تفارقنى أثناء القتال، وسأبلغك بأية توجيهات منى للفريق، ثم تنشرها أنت إلى ناحية الغرب".

هز أبى رأسه بالموافقة. ثم راح ينظر إلى المسدسين اللذين كانا معلقين فى وسط القائد يو، كان أحدهما كبيرًا والآخر صغيرًا.

والمسدس الكبير صناعة ألمانية، والمسدس الصغير صناعة فرنسية. وكان لكل منهما تاريخه وقصته الخاصة.

قال أبى: "المسدس!"

فقال القائد يو: "هل تريد مسدسًا؟" فهز أبى رأسه قائلاً: "نعم، المسدس".

سأله القائد يو: "هل تجيد استخدامه؟"

فأجاب أبى: "نعم".

استل القائد يو المسدس الصغير من حزامه، ونظر إليه مليًا. وقد بدت عليه آثار الزمن وتغير لونه. وضغط القائد يو على خزينة المسدس، وأطلق رصاصة عالية، ثم أحكم إغلاق الخزينة.

قال القائد يو محدثًا أبى: "أعطيك هذا! وعليك أن تحسن استخدامه مثلى تمامًا".

فاستلم أبى المسدس من القائد يو، وقبض عليه ومضى يتذكر القائد يو عندما استخدمه فى تحطيم كأس النبيذ.

وراح أبى يستعيد تلك الواقعة القديمة التى حدثت أمام عينيه فى ساحة فرن صناعة النبيذ بين القائد يو وجدته وقائد عصابة لينغ السيد لينغ ماتزه. كانوا يشربون النبيذ وكان القائد يو أكثرهم قدرة على الشراب، ذكرتهم جدتى بدماء الجد ليو وأمى اللذين لقيا حتفهما على أيدى القوات اليابانية.

وبينما كانت جدتى تقف وسط القائد يو وقائد عصابة لينغ، ضغطت بيدها اليسرى على مسدس القائد لينغ وبيدها اليمنى على مسدس القائد يو الفرنسى الصغير.

وسمع أبى صوت جدتى وهى تقول: "إذا لم تتم الصفقة فلن تفسد العلاقة التى بيننا، وهذا المكان ليس ساحة لاستخدام السلاح، ومن عنده الرغبة فى ذلك فليخرج لملاقاة اليابانيين".

وهنا بدأ القائد يو يسب: "يا ابن العم حتى لو استطعت تحطيم سارية القائد وانغ فلن ترعبنى. أنا ملك لهذه المنطقة، وقد تغذيت طيلة عشرة أعوام على خبز تشيا، ولن أبالى بملاقاة هؤلاء اليابانيين الأوغاد!"

ضحك القائد لينغ قائلاً: "الأخ جان آو، إننى أفكر فى مصلحتك، وكذا القائد وانغ ليو جانغ. فقط نريد منك أن ترجع إلينا بسارية العلم، وسنعلن تنصيبك قائدًا، وسيمنحك القائد وانغ وسامًا أفضل من كونك مجرد قاطع طريق".

من قاطع طريق؟ ومن منا ليس قاطع طريق؟ البطل الصينى الحقيقى هو من يجرؤ على قتال اليابان. لقد تمكنت فى العام الماضى من القبض على ثلاثة حراس يابانيين، واستوليت على ثلاثة مسدسات كانت بحوزتهم.

وأنت يا قائد لينغ لا تعتبر قاطع طريق فكم قتلت من الشياطين؟ وهل حصلت على شعرة جندى يابانى واحد؟"

فجلس لينغ وأشعل سيجارة.

وفى تلك اللحظة دخل عليهم أبى بقدر النبيذ. فأخذت جدتى منه القدر وقد تغير لون وجهها، ونظرت إلى أبى نظرة غير مريحة، ثم راحت تصب النبيذ فى ثلاثة كؤوس.

قالت الجدة: "النبيذ تفوح منه رائحة دماء العم ليو، ومن يرى منكما نفسه رجلاً فليقدم على شرابه. ومن الآن فصاعدًا عليكما مواجهة القوات اليابانية معًا، وبعد ذلك سنرى شجاعة كل منكما، حتى لا يختلط الحابل بالنابل.

حملت جدتى كأسها، وراحت تتلذذ بالشراب.

ورفع جدى كأسه وأفرغ محتوياته فى جوفه فى شربة واحدة.

ولكن القائد لينغ لم يستطع شرب الكأس كاملاً، فبعد أن شرب نصف كأسه راح يخاطب القائد يو قائلاً: "أيها القائد يو، إننى لست منافسك فى الشراب، فلأستأذن للانصراف!"

وهنا ضغطت جدتى على مسدسها، وسألت لينغ: "وهل ستقاتل؟"

فأجابها القائد يو: "لا داعى لأن تتوسلى إليه، إن لم يقاتل هو، فأنا لها!"

فأجاب لينغ: "سأقاتل".

تركت جدتى المسدس، واستلمه منها لينغ وعلقه فى وسطه.

وقالت جدتى: "جان آو، سأسلمك ابنى دوو قوان، على أن تصطحبه معك من الآن فصاعدا".

نظر القائد يو إلى أبى، وسأله وهو يبتسم: "ابنى العزيز، هل ستقوى على ذلك؟"

نظر أبى إلى أسنان القائد يو الصفراء بازدراء واضح، ولم ينبس ببنت شفة.

فأخذ القائد يو بكأس نبيذ، ووضعه أعلى رأس أبى، وطلب منه أن يرجع حتى يقف عند مدخل الباب. ثم أخذ القائد يو مسدسه الفرنسى برونينج، وسار إلى جانب الحائط.

ورأى أبى أن القائد يو يقترب من الحائط فى خطوات بطيئة، ونظر إلى جدتى فإذا بوجهها يبدو شاحبًا، أما القائد لينغ فكانت تعلو وجهه ابتسامة فاترة.

وبعد أن وصل القائد يو إلى جانب الحائط استدار بجسمه فى حركة مباغتة، ورأى أبى أن ذراع القائد يو تبدو فى وضع مستقيم، بينما تطلق عيناه شررًا أحمر. وفجأة خرج دخان أبيض من فوهة مسدس برونينج. وسمع أبى دوى صوت عالٍ رأى على إثره قطعًا كثيرة تتطاير من قدح النبيذ، وقد استقرت إحدى تلك القطع الصغيرة على رقبة أبى، ثم انزلقت إلى جسده. وعندها ذهل أبى ولم ينبس ببنت شفة. وبدا عندها وجه جدتى أكثر شحوبًا. بينما كان القائد يو يجلس مسترخيًا على مقعد وهو يردد: "يا لها من تصويبة رائعة".

قال القائد يو: "ما أمهرك أيها الغلام!"

وحمل أبى مسدس برونينج وقد أحس فجأة أنه ثقيل.

قال القائد يو: "لا داعى لأن أعلمك فنون التصويب، فأنت تعلمها جيدًا. عليك أن تخبر الأخرس ورفاقه أن يكونوا على أهبة الاستعداد فور سماع إشارتى!"

حمل أبى مسدسه الفرنسى، وتسلل وسط زراعات الذرة حتى وصل إلى المكان الذى يختبئ عنده الأخرس. كان الأخرس يقرفص وسط زراعات الذرة ممسكًا بحجر أخضر اللون يشحذ به خنجره. بينما كان رفاقَه فى اجتماع حوله بين جالس ومضطجع.

قال أبى للأخرس: "القائد يو يأمركم بالاستعداد".

وحدج الأخرس أبى بنظرة، ثم استمر فى شحذ خنجره، وبعد أن انتهى من تجهيز الخنجر راح يضرب به سيقان الذرة وأوراقها.

فعاود أبى تذكيره قائلاً: "القائد يو يأمركم بالاستعداد!"

أعاد الأخرس خنجره إلى جيبه، وارتسمت على وجهه ابتسامة عريضة، ثم رفع يده الكبيرة، وراح يلوح بها مناديًا على أبي.

وتقدم أبى إلى الأمام حتى توقف على بعد خطوات قليلة من الأخرس. وتقدم الأخرس ومد جسده تجاه أبى وجذبه حتى ارتمى أبى فى حضن الأخرس. وأحكم الأخرس قبضته على أبى الذى فقد القدرة على الحركة وهو فى حضن الأخرس الذى انفجر ضاحكا.

ضحك رفاق الأخرس الذين كانوا يحيطون به.

"انظروا أليس يشبه القائد يو؟"

"إنه بذرة ألقاها القائد يو".

"دوو قوان، إننى أشتاق إلى أمك".

"دوو قوان، إننى أريد أن آكل قطعتى المعجنات المحشية بالتمر التى صنعتها أمك".

واشتد الغضب بأبى فرفع مسدسه وصوبه تجاه ذلك الرجل الذى يريد أن يأكل تلك المعجنات التى صنعتها جدتى. وضغط أبى على زناد مسدسه محدثًا صوتًا مسموعًا ولكن لم تخرج منه طلقة واحدة.

وبدا وجه ذلك الرجل شاحبًا، وراح يقفز بسرعة ملحوظة، محاولاً أن يستولى على المسدس الذى كان بحوزة أبى. وراح أبى يطلق طلقات متتابعة نحو السماء، ثم راح يقفز هنا وهناك حتى ارتمى فى حضن ذلك الرجل وهو يركله ويعضه فى جميع مواقع جسده.

وعندئذ وقف الأخرس وأحكم قبضته على رقبة أبى، وهزه هزات متتالية، ثم ألقى به وسط زراعات الذرة، وسقط أبى على الأرض، وقد تسبب سقوطه فى تحطيم بعض سيقان الذرة. وراح أبى يحاول جاهدًا أن يقف مرة أخرى وهو يلعن جميع من حوله حتى ارتمى أمام الأخرس. ورأى أبى وجه الأخرس الصامد. مد الأخرس يده وأخذ المسدس الذى كان بحوزة أبى وسحب بيت الطلقات النارية حتى أخرج الطلقة التى كانت داخله. وراح يلوح بتلك الطلقة أمام عينى أبى، ثم صوب المسدس تجاه ظهر أبى وهو يمسح رأس أبى ويهزها بيده الأخرى.

"ما الضوضاء التى أحدثتها هنالك؟" سأل القائد يو.

فرد أبى وهو يشعر ببعض الظلم: "إنهم.. إنهم يريدون أن يضاجعوا أمى".

سألة القائد يو وقد تغير لون وجهه: "وماذا كان رد فعلك؟"

رفع أبى ذراعه وراح يمسح به عينيه، ثم قال: "أطلقت عليهم طلقة من مسدسى!"

"أأطلقت رصاصًا؟"

"لم يكن بالمسدس أية طلقات". ثم قدم أبى بيت نار المسدس إلى القائد يو.

تسلم القائد يو الطلقة الفارغة من يد أبى، وراح يتفحصها، ثم ألقى بها فى عرض النهر.

وقال القائد يو: "ما أشجعك من غلام! عليك أن تقاتل أولاً العدو اليابانى، وبعد الانتهاء من قتال العدو اليابانى، يمكنك أن تصوب مسدسك تجاه معدة كل من يجرؤ على التفوه بأنه يرغب فى مشاركة أمك النوم. ولا تصوب مسدسك تجاه رأسه أو صدره، تذكر جيدًا! عليك أن تصوب فقط صوب معدته".

تمدد أبى إلى جانب القائد يو. وكان على يمينه الأخوة من عائلة فانغ. وقف فانغ تشى على حافة النهر، وفوهة البندقية مصوبة نحو الجسر الحجرى. وكانت الفوهة مسدودة بقطعة من القطن البالى. وتظهر خلف الحامل المنتصب على حافة النهر صمامة ما. وإلى جانب الأخ فانغ تشى كان يظهر فتيل من اللهب مصنوع من بعض عيدان الذرة، وقد ظهر الفتيل مشتعلاً. أما الأخ فانغ ليو فكان يظهر إلى جواره بعض الأعشاب وصندوق حديدى ممتلئ بالحبوب.

وإلى يسار القائد يو كان يرقد العم وانغ ون إى، ممسكًا ببندقية صيد وهو يرقد متكومًا وسط الذرة. وقد ظهرت القماشة البيضاء التى تغطى أذنه المجروحة مخضبة بالدماء.

ارتفعت الشمس وتلونت باللون الأحمر. وبدت مياه النهـر متلألئــة، وراحت جماعات البط البرى تحلق فوق حقول الذرة، وتفرقت إلـى ثـلاث مجموعات، راح معظمها يرمى بنفسه إلى داخل الأعشاب على ضفة النهر، بينما سقط الجزء الآخر إلى أسفل النهر، وراح يجرى ويندفع مـع مياهـه. ولم تكن جماعات البط التى تسبح فى عرض النهر قادرة على السكون، كانت تجرى هنا وهناك وهى تترنح برقبتها. وبدأ أبى يشعر بالدفء بعد أن جفت تمامًا ملابسه التى بللتها مياه النهر، وانبطح أبى بعض الوقت، وعندما تـألم من قطعة حصى أسفل جسده، رفع جسده على الفور. فخاطبه القائد يو موبخًا إياه: "انبطح ثانية". فرضخ لأمر القائد على غير رغبة منه. وفى تلك الأثناء كان الجمع يسمع صوت شخير الأخ فانغ ليو. فمد القائد يو يـده، وأمـسك بقطعة طمى وألقاها على وجه الأخ فانغ ليو. انتفض فانغ ليو وجلس علـى الأرض، وراح يتثاءب.

وصاح مذعورًا: "هل جاء العدو اليابانى؟"

لعنه القائد يو قائلاً "اللعنة على أمك"، "اعلم أنه غير مسموح بالنعاس".

وعم السكون جنوب النهر وشماله، ولف الصمت الطريق العام الواسع، وبدا الجسر الحجرى أعلى النهر فى غاية الجمال. واستقبلت حقـول الـذرة الممتدة على جانبى النهر الشمس العالية المتلألئة. وبدت جماعات البط البرى تبحث بمنقارها عن شيء ما، وهى تصدر صوتًا مسموعًا. وتوقفت نظـرات أبى عند جماعات البط البرى، ومضى يحدق فيها، فى ريشها الجميل وأعينها الثاقبة. ثم حمل مسدسه الثقيل، وحدد هدفه فى اتجاه جماعات البط البـرى. وما كاد يضغط على زناد مسدسه صوب جماعات البط، حتى ضغط القائد يو على يده قائلاً: "أيها الحمل الصغير، ماذا عساك أن تفعل؟"

أحس أبى باضطراب شديد، ونظر إلى الطريق العام فوجده لا يـزال يلفه صمت مخيف. وقد بدت سنابل الذرة أكثر حمـرة ممـا كانـت عليـه منذ قليل.

قال القائد يو بلهجة صارمة: "هل يجرؤ لينغ مـاتزه هـذا الحيـوان على خداعى".

خيم السكون على جنوب النهر وشماله، ولم يعد يرى أى أثر لفريـق لينغ ماتزه. وعلم أبى أن القائد لينغ ماتزه قد حصل على معلومـات حـول مرور عربات العدو اليابانى من هذا الطريق، وأنه يخـشى ملاقـاة العـدو اليابانى بمفرده، ومن ثم فقد قصد هذا المكان ليلتحم مع قوات القائد يو.

شعر أبى ببعض التوتر، ثم هدأ شيئًا فشيئا. وكانت نظراتـه لا تكـاد تفارق جماعات البط البرى. وتذكر عندما كان يخرج مع الجد لـوو خـان لصيد البط، كان الجد يمتلك بندقية صيد ذات ماسورة حمراء داكنة وجرابًـا من الجلد. استولى عليها الآن العم وانغ ون إى.

وترقرق الدمع فى عينى أبى، دون أن تنحدر منهما دمعة واحدة. تمامًا مثلما حدث فى ذلك اليوم. فتحت أشعة الشمس الدافئة. أحس أبى بلفحة بـرد شديدة ارتجف على إثرها جسده كله.

فى ذلك اليوم كان العدو اليابانى وجيش العملاء الخونـة قـد قـاموا باختطاف الجد ليو لووخان والبغلين اللذين كان يرعاهما، بينما كانت جـدتى تغسل الدماء التى ملأت وجهها فى قدر النبيذ. كانت تفوح منها رائحة النبيذ النفاذة، وقد احمر جلدها وتورم جفاها، وتبللت ملابسها بالنبيـذ وبالـدماء. وتسمرت جدتى إلى جوار قدر النبيذ تتأمله. وقد انعكس وجهها داخل القدر. ولا يزال أبى يذكر أنها قد ركعت أمام قدر النبيذ ثلاث مرات. ثـم قامـت

بعدها وهى تحمل بين يديها بعض النبيذ تشربه. وخداها متوردتـــان، بينمـــا جبهتها وذقنها فى غاية الشحوب.

وأمرت جدتى أبى قائلة "اركع "، "اسجد".

فركع أبى وسجد أمامها.

"احمل كوبًا من النبيذ واشربه!"

فحمل أبى النبيذ وراح يتجرعه.

راحت خيوط الدم تغرق داخل قدر النبيذ، وكأنها مثل الأشعة تنفذ إلى داخل القدر. وتطايرت داخل قدر النبيذ بعض السحب البيــضاء الــصغيرة، غطت وجه جدتى وأبى. ووقفت جدتى وقد خرج من عينيها شــعاع لامــع، لم يجرؤ أبى على النظر إليه. وارتجف قلبه بشدة، ثم مد يده، وأخذ بعــض النبيذ من داخل القدر، وبدأ النبيذ يتساقط من بين أصابعه. وشرب أبى جرعة جديدة من النبيذ، حتى فاحت رائحة الدم على طرف لسانه. وتركزت خيوط الدم فى أسفل قدر النبيذ مكونة كتلة بارزة عند قاع القدر. راحــت تتأملهــا جدتى وأبى لفترة طويلة. وسحبت جدتى غطاء القدر، ثم جاءت بجزء مــن المطحنة الحجرية من جانب الحائط ووضعتها أعلى فوهة قدر النبيذ.

قالت جدتى "حذار أن تحرك هذه الكتلة الحجرية!"

فهز أبى رأسه بالموافقة وقد شعر بالخوف بعد أن رأى الطين الــذى يغطى المطحنة والحشرات التى تتطاير من حوله.

فى تلك الليلة، وبينما كان أبى يرقد فى سريره، سمع صوت وقع أقدام جدتى تقطع الفناء جيئة وذهابًا. وقد صادف وقع خطوات جدتى مع صــوت احتكاك عيدان الذرة بعضها ببعض، محدثــةً صــوتًا نــسج أحــلام أبــى المضطربة. هناك سمع أبى فى عالم الأحلام صياح البغلين الأسودين.

وعند شروق الشمس، نهض أبى من نومه وجرى عاريًا إلـــى الفنـــاء ليقضى حاجته. فرأى جدتى لا تزال واقفة فى عرض الفناء تنظر إلى السماء فى ذهول. فناداها يا أماه، لكنها لم تسمع نداءه. وبعد أن قضى أبى حاجتـــه، سحب يدى أمه إلى داخل الحجرة. فاستجابت له ودخلت معه بكل لين. ومـــا إن دخلا الغرفة سمعا صوتًا قويًا أشبه بصوت الموج قادمًا من جهة الجنوب الشرقى، ثم تبعه صوت طلق نارى. كان صوت الطلق النارى قويًا وحـــادًا جدًا، أشبه ما يكون بحدة مقص حاد أثناء قطع قطعة من الحرير.

أما هذه البقعة التى ينبطح عليها أبـــى الآن، فكانـــت آنـــذاك ممتلئـــة بالأحجار الناصعة البياض، تتكوم على ضفة النهر مكونة تلالاً صغيرة أشبه بصفوف قبور كبيرة. وفى مطلع صيف العام الماضى، كانت حقول الـــذرة خارج حاجز النهر تبدو موحشة، وكان هذا الطريق الحجرى العام يمتد نحو الشمال. لم يكن الجسر الحجرى قد تم تشييده بعد، كان هنـــاك فقـــط جـــسر خشبى صغير، أنهكه سير مئات الآلاف من البشر والبغال والخيل، حتى ترك هذا كله بصمة واضحة على سطح الجسر. أما تلك الرائحة التى كانت تنبعث من شتلات الذرة الرفيعة، فكانت رائحة نفاذة. وكانت حقول الذرة الواســـعة تبكى بحزن شديد. لم يكد يمر وقت طويل على سماع جدتى وأبى لـــصوت الطلق النارى، حتى قامت القوات اليابانية بملاحقتهم وبعـــض مـــن شـــيوخ ومرضى وأطفال ونســـاء القرية إلى هذا المكان. فى ذلـــك الحـــين، كانـــت الشمس قد أشرقت منذ وقت قصير على حقول الذرة، فوقفت جـــدتى وأبـــى وجماعة من أهل القرية على الضفة الجنوبية للنهر، وأقدامهم تدوس بقايا من عيدان الذرة الرفيعة. وراح أبى ينظر إلى سياج الذرة وإلى جماعة الفلاحين المحيطين به. قام بعد ذلك اثنان من جنود العملاء بمطاردة الفلاحـــين إلـــى غرب الطريق، والتحموا بجدتى وأبى مكونين جماعة واحدة. وأمام المكـــان

الذى عسكر عنده أبى وجماعة الفلاحين، كان يقع مكان ربط البغال والخيل، والذى كان يجعل الإنسان يقف أمامه شاحبًا فيما بعد. ووقف الجميع هنالك لفترة ليست قصيرة، وأخيرًا تمكنوا من رؤية مسئول يابانى قادم من ناحية الخيمة، وظهر للجميع وهو يعلق على كتفيه زوجًا من الشارات الحمراء ويحمل سيفًا ويجر كلبًا، مرتديًا زوجًا من القفاز الأبيض. كان الكلب يجرى وراءه وهو يلهث، وخلف هذا الكلب يظهر اثنان من أفراد جيش العملاء يحملان جثة جندى يابانى، وفى الخلف يظهر جنديان يابانيان يحرسان جثة الجد لوو خان، يحملها اثنان من أفراد جيش العملاء. والتصق جسد أبى بجسد جدتى، فاحتضنته جدتى بذراعيها.

سحب المسئول اليابانى كلبه وتوقف عند منطقة قريبة من إسطبل الخيل والبغال. وراحت تطير حوله جماعة من الطيور البيضاء بلغت ما يزيد على خمسين طائرًا، راحت تطير فى جميع الاتجاهات، وهى تركز على الطيران صوب قرص الشمس الذهبى. ونظر أبى إلى بعض الحيوانات الموجودة داخل الإسطبل، فرأى بغلى العائلة الأسودين ملقيين على الأرض. ورأى أحد البغلين جثة هامدة، وإلى جوارها تلك المطرقة الحديدية، وقد لطخ الدم الأسود بعضًا من عيدان الذرة، لطخ وجه البغل الذى كان فى غاية اللمعان. أما البغل الثانى فكان جالسًا على الأرض، وهو يضرب بذيله الأرض محدثًا صوتًا مسموعًا. كان منخاراه يصدران صوتًا أشبه بصوت الصفير. كم كان أبى يعشق هذين البغلين. كانت جدتى تركب على ظهر البغل، ويجلس أبى فى حضنها، ويسير البغل وهو يحمل على ظهره الأم وطفلها، وينطلق يعدو على الطريق المحاط بحقول الذرة. كان أبى آنذاك فى غاية المتعة بهذه الرحلة. وتنظر جماعات الفلاحين الممسكين بالمعاول أو بغيرها من أدوات الزراعة إلى تلك المرأة، ويحسدونها على ما هى فيه من سعادة. الآن أمامه البغلان أحدهما ملقى على الأرض جثة هامدة، وقد شقت

شفتاه، والآخر جالس وحالته أصعب من حال أخيه الميت. هنا همس أبى إلى جدتى: "أماه، إنهما بغلانا". فمدت جدتى يدها ووضعتها على فمه لعله يصمت.

توقفت جثة الجندى اليابانى أمام المسئول اليابانى الذى كان لا يزال ممسكًا بحبل كلبه. ثم ظهر جنديان من جيش العملاء، يسحبان الجد لوو خان إلى الوتد المخصص لربط الدواب. ولم يتعرف أبى فى الحال على الجد لوو خان. رأى أبى شبح إنسان شبه قتيل. كان الجد مصلوبًا ورأسه يترنح صوب اليمين واليسار، وقد بدا الدم يتساقط من رقبته وظهر مثل قطع الطمى التى تترسب على ضفة النهر، وتعرض جسده لضوء الشمس التى كشفت عن جروح تملأ جسده. تجمع حوله حشد من المارة. وأحس أبى أن يد جدتى تقبض بشدة على كتفه. وبدا الجميع أمامه وقد قصرت قاماتهم، فرأى وجوه بعضهم مثل الطمى الأصفر، ووجوه البعض الآخر مثل الطمى الأسود. وفجأة عم الصمت المكان، وسمع الكلب يلهث، بينما صاحبه يرقد إلى جواره، ثم رأى جنود جيش العملاء يسحبون ذلك الشبح المنهك بقوة نحو الوتد، وما إن أرخى الجندى يده، حتى سقط الشبح على الأرض محدثًا صوتًا.

هنا انتبه أبى مفزوعًا: "إنه الجد لوو خان!"

فعاودت جدتى إجباره على السكوت.

كان الجد لوو خان يجاهد ليتحرك أسفل الوتد، وقد بدا وجهه متورمًا وعيناه ترسلان شعاعًا ينم عما به من تعب شديد. وعندما أصبح أبى فى مواجهة الجد لوو، كان واثقًا أن الجد لوو قد رآه جيدًا. وظهر التوتر على وجهه، ولم يعرف إذا ما كان هذا التوتر بسبب فزعه من منظر الجد لوو أم من السخط على ما حل به. فكر فى أن يصيح بأعلى صوته، ولكن جدتى كانت لا تزال تكتم صوته.

صاح المسئول اليابانى صاحب الكلب فى الجمع المحتشد، وقام رجل صينى أصلع بترجمة ما صاح به المسئول اليابانى وأذاعه على مسامع الجمع.

ولم يسمع أبى ما أذاعه ذلك المترجم. فكان لا يزال تحت قبضة جدتى.

قام شخصان صينيان فى زى أسود بتجريد الجد لوو خان من ملابسه تمامًا، ثم قاما بربطه إلى الوتد. ولوح المسئول اليابانى بيده، فظهر شخصان صينيان آخران فى زى أسود، ظهرا وهما يسحبان السيد سون وو الجزار المعروف فى قرية دونغ بيى.

وكان الجزار سون وو رجلاً قصير القامة، ممتلئ البطن، ذا كرش كبير، ورأس أصلع، ووجه أقرب إلى الحمرة، وعينين صغيرتين تظهران أعلى أنفه الأفطس. ظهر الجزار وهو يحمل فى يده اليسرى سكينًا حادًا وفى يده اليمنى دلوًا ممتلئًا بالماء، وتقدم إلى أمام الجد لوو خان وهو يتمتم بكلمات غير مفهومة.

وقال المترجم: "يأمرك السيد المسئول بأن تسلخه سلخًا جيدًا، وإذا لم تفعل ما أمرت به، فسيتركك لهذا الكلب يشق صدرك".

رد الجزار فى الحال بالسمع والطاعة، وجفناه يرتعشان فى توتر واضح. ثم أخذ بالسكين فى فمه، وحمل دلو الماء، وسكبه على رأس الجد لوو خان. فارتجف الجد لوو من الماء الذى سال على جسده مرورًا بوجهه ورقبته حتى أخمص قدميه. وقام أحد العمال بملء الدلو ثانية من مياه النهر، وأخذ الجزار بقطعة قماش بالية، وبللها بالماء، وراح يغسل ويجفف جسد الجد لووخان. وبينما هو يفعل ذلك تحدث إلى الجد لوو قائلاً: "أخى الأكبر".

فرد الجد لوو: "أخى الحبيب، أرجو أن تقضى على بـضربة واحـدة، ولن ينسى لك الجميع صنعك الكريم".

فصاح المسئول اليابانـي.

وقال المترجم: "ابدأ بسرعة!"

تغيرت ملامح وجه الجزار سون، ومد أصابعه الـصغيرة، وأمـسك بأذنى الجد لوو، ثم قال: "أخى الأكبر، اعذرنى فإنه ليس لى حول ولا قوة.".

رأى أبى سكين الجزار سون تنزل على أذن الجد لووخـان وكأنهـا منشار حاد. ولم يتوقف الجد لوو حينها عن الصياح بجنون، حتى بالٍ علـى نفسه. وبدا أبى يرتعش بشدة. ثم تقدم جندى يابانى يحمل بين يديه طبقًا مـن الخزف الأبيض، ووقف إلى جوار الجزار سون، وقام بوضع أذن الجد لـوو السميكة، ثم قام الجزار بقطع أذن الجد لوو الأخرى، ووضعها داخل الطبـق الأبيض. ورأى أبى أذنى الجد لوو تقفزان داخل الطبق الأبـيض وتحـدثان صوتًا مسموعًا.

وحمل الجندى اليابانى الطبق الخزفى الأبيض، ومر ببطء أمام جمـع الفلاحين، فنظر إليه الجمع مـن الرجـال والنـساء والـشيوخ والأطفـال. ونظر أبى إلى أذنى الجد لووخان الجميلتين، فرآهما تتراقصان داخل الطبق الأبيض.

تقدم الجندى اليابانى بالطبق إلى المسئول اليابانى، فهز القائد رأسه. ثم قام الجندى بوضع الطبق الذى توضع فيه أذنا الجد لووخان إلى جانب جثـة ذلك الجندى اليابانى، وتركه قليلاً من الوقت، ثم عاد فحملـه وقدمـه إلـى فم الكلب.

راح الكلب يلهث ويشم الصيد الملقى أمامه. ثم هز رأسـه، وأخـرج لسانه، وقعد القرفصاء.

وخاطب المترجم الجزار سون وو قائلاً: "يا هذا، استمر فى عملك!"

كان الجزار لا يزال واقفًا فى مكانه، وهو يتمتم بكلمات غير مفهومه، فنظر أبى إلى وجهه، كان متصببًا بالعرق، وعيناه ترتعشان بسرعة فائقة، تمامًا مثل الطير فى بحثه عن الحب.

وبعد أن انتهى الجزار من قطع أذنىّ الجد لوو خان، نزف الجد لوو قليلاً من الدم، وتغير شكل رأسه كثيرًا بدون الأذنين.

عاود المسئول اليابانى صياحه.

فقال المترجم: "أسرع يا هذا!"

فانحنى الجزار سون وو، وقام بقطع عضو الجد لوو خان الذكرى، ووضعه داخل الطبق الخزفى الأبيض. فحمل الجندى اليابانى الطبق مرة ثانية، وهو يدقق النظر فى الشيء الذى بداخله، وراح يعرضه على الجمع. وهنا أحس أبى بأن أصابع جدتى الباردة كادت تنغرس فى فروة رأسه.

قام الجندى اليابانى بوضع الطبق أمام الكلب، فعض الكلب ما بداخله عضتين، ثم ألقى به جانبًا.

وكان الجد لوو لا يتوقف عن الصياح بأعلى صوته، وهو يخبط جسده بشدة فى الوتد.

وهنا ألقى الجزار سون وو بالسكين على الأرض، ثم سارع بالسجود وهو لا يتوقف عن البكاء الشديد.

وأرخى المسئول اليابانى الحبل قليلاً، فانقض الكلب يعدو نحو الجزار سون، وراح يمسك برأسه، فسارع الجزار سون، ورفع يديه محاولاً إخفاء وجهه.

وما إن سمع الكلب صوت صفارة المسئول اليابانى، حتى عاد مسرعًا إلى جواره.

قال المترجم: "واصل عملك أيها الجزار بسرعة!"

فنهض الجزار سون، وأخذ بالسكين، وتوجه إلى أمام الجد لوو خان.

وهنا كان الجد لوو خان لا يتوقف عن السب بأعلى صوته، والجمع يرفعون رؤوسهم ناظرين إليه.

فقال الجزار سون وو: "أخى الأكبر.. أخى الأكبر.. فلتتحمل قليلاً.".

فبصق الجد لوو خان بعض الدم على وجه الجزار سون وو.

"استمر فى السلخ، اللعنة على أسلافك، استمر!"

فأخذ الجزار سون وو سكينه، واستمر فى تنفيذ أوامر المسئول اليابانى.

كان أبى قد حدثنى عن منظر الجد لوو خان، وعما أصابه من سكين الجزار سون وو، ذلك الجزار الشرس الذى سلخه سلخًا لا هوادة فيه. وقد ركع الأهالى المحتشدون آنذاك أمام ما تبقى من جسد الجد لوو خان. فى تلك الليلة هطلت أمطار غزيرة، غسلت ساحة الدواب ونظفتها جيدًا، حتى لم يعد هناك أى أثر لما أصاب الجد لوو خان. وتناقل أهل القرية سر اختفاء جثة الجد لوو خان، ثم تناقلتها الأجيال المتعاقبة من أبناء القرية حتى أصبحت قصة الجد لوو خان حكاية أسطورية.

"إذا جرؤ على خداعى فسأقطع رأسه وأجعله قدرًا أتبول فيه!" وبينما كانت الشمس تقترب من الغروب، وقد طارت جماعة كبيرة من البط البرى،

وظهرت جماعة أخرى، ولم تكن قوات القائد لينغ ماتزه قد وصلت بعد، وقد بدا الطريق العام خاليًا تمامًا إلا من بعض الأرانب البرية. ثم ظهر بعد ذلك ثعلب أحمر اللون يتسلل عبر الطريق. وبعد أن انتهى القائد يو من سب القائد لينغ ماتزه، صاح قائلاً: "انهضوا جميعًا، فيبدو أننا قد وقعنا فى الفخ الذى نصبه لنا الملعون لينغ ماتزه".

كان أفراد عصابة القائد يو قد أصابهم التعب منذ وقت طويل، ومن ثم فلم يرقهم سماع هذا الخبر، وأمرهم القائد يو أن ينهضوا على الفور، وفى تلك الأثناء كان بعض منهم يجلس يدخن السجائر على الحاجز الترابى إلى جانب النهر، والبعض الآخر يقضى حاجته خلف هذا الحاجز.

قفز أبى بسرعة إلى خلف الحاجز الترابى، وكان لا يزال يفكر فى بعض المشاهد التى وقعت فى العام الماضى، وتكاد لا تفارقه صورة الجد لوو خان وما تعرض له فى ذلك اليوم العصيب. وانزعجت جماعات البط البرى من هؤلاء الأفراد الذين نهضوا مرة واحدة، وطارت حتى استقرت ثانية عند الحاجز الترابى.

تقدم الأخرس إلى أمام القائد يو وهو يحمل خنجره وبندقيته. وقد بدا عليه الحزن الشديد وهو يرفع ذراعيه ويشير إلى الشمس، وما إن مالت الشمس نحو الجنوب الشرقى، حتى خفض ذراعيه وأشار نحو الطريق العام. وصمت القائد يو قليلاً، ثم صاح فى الأفراد الذين كانوا فى الجهة الغربية أن: "اتجهوا غربًا!"

فعبر جميع الأفراد الطريق العام، وتجمعوا أعلى الحاجز الترابى.

صاح القائد يو: "أيها الرفاق، إنه إذا جرؤ لينغ ماتزه ورفاقه على خداعنا، فسآتى إليكم برأسه! ولا يزال الوقت مبكرًا، فلننتظر قليلاً حتى الظهيرة، وإذا لم تظهر العربات، فسنعدو نحو منخفض تانجيا لنصفى حساباتنا مع لينغ ماتزه ورفاقه. ولتستريحوا داخل حقول الذرة لبعض الوقت، وسأرسل ابنى دوِوقوان ليستعجل لنا الطعام. "دووقوان!"

رفع أبى وجهه ونظر إلى القائد يو.

قال القائد يو: "عد إلى المنزل، وأخبر والدتك لتأمر بإعداد الطعام. وأن تأتى به إلينا بنفسها فى الظهيرة".

هز أبى رأسه، ورفع بنطاله قليلاً، وأحكم وضع مسدسه. ونزل مسرعًا من أعلى الحاجز الترابى، وسار بمحاذاة الطريق العام. واختبأ فجأة وسط حقول الذرة. وبينما كان يسير وسط الذرة، اصطدمت قدماه ببعض جماجم الخيل والبغال. كان يركلها بقدمه ويفسح الطريق أمام نفسه، وكان من بين الجماجم التى ركلها بقدميه جماجم زوج من الفئران البرية، نظر إليها أبى نظرة سريعة ثم استمر فى سيره. ثم عاد يفكر فى زوج البغال التى كانت تملكها العائلة، وتذكر بعد أن تم إصلاح هذا الطريق العام بفترة طويلة، فكان أهل القرية لا يزالون يشمون رائحة الجثث مع هبوب الرياح الجنوبية الشرقية. وفى العام الماضى، كانت قد طفت على سطح مياه النهر عشرات من جثث الخيل والبغال. كانت قد توقفت فى المنطقة الممتلئة بالعشب على جانب النهر. كانت تلك الجثث تطفو على السطح شيئًا فشيئا، ثم تمضى تسير فى عرض النهر.

(٥)

عندما بلغت جدتى الثامنة عشرة، زوجها أبوها إلى دان بيان لانغ الابن الوحيد للسيد دان يان شيو أحد أشهر الأثرياء فى قرية دونـغ بيـى بمدينـة قاو مى. كانت عائلة دان تمتلك فرنا لصناعة نبيذ الذرة، حيث كانت تستخدم الذرة الرفيعة التى تشتهر بها هذه البلدة كمادة خام رخيصة فى صناعة نوع من النبيذ الأبيض، له شهرة واسعة فى محيط القرية. كانت قرية دونغ بيـى تشتهر بإنتاجها الوفير جدًا من الذرة الرفيعة. وكانت عائلة دان تستخدم هـذه المادة الخام فى صناعتها التى كانت تدر عليها ربحًا وفيرًا، فكانـت أيـسر عائلة على مستوى القرية. ولهذا السبب كان من عظيم الفخر لأسلافى مـن ناحية جدتى أن تتزوج جدتى من الثرى دان بيان لانغ. كان هناك الكثير من العائلات آنذاك تتمنى أن تتشرف بعلاقة نسب مع عائلة دان الثريـة، علـى الرغم من إصابة دان بيان لانغ بالبرص. أما والده السيد دان يان شيو فقـد كان شيخا نحيفا، تتدلى خلف رأسه ضفيرة صغيرة. وعلى الرغم من الكنوز التى كان يمتلكها، فإنه كان دائمًا ما يظهر فى ثياب باليـة، ويـربط حـول خصره حبلاً من القش. كان زواج جدتى من الابن الوحيد لعائلة دان الثريـة ترتيبًا من السماء.

فى ذلك اليوم الذى صادف عيد تشينغ مينغ[١]، كانت جدتى تلعب مـع بعض الفتيات من سنها، وقد بدت أشجار الخوخ فى حمرة تجذب الأنظـار،

---

(١) عيد تشينغ مينغ والذي يعنى اسمه عيد الصفاء والنقاء، وهو أحد الأعياد التقليدية المهمة التي تعطل فيها الهيئات في إجازة عامة بالبلاد لمدة ثلاثة أيام. وموعد هذا العيد في الخامس مـن شهر أبريل كل عام. ويرجع تاريخ هذا العيد إلي عصر أسرة جوو الصينية أي حوالى ٢٥٠٠ عام. ويسمي أيضًا عيد زيارة الموتى، حيث يخرج الكثيرون في هذا العيـد لزيـارة قبـور موتاهم. (المترجم).

وكان المطر خفيفًا، وتنعكس أزهار الخوخ على وجوه الجميع، والفتيات تلهو بكل حرية. وفى ذلك العام كان طول جدتى ١٦٠ سم ووزنها ٦٠ كيلوجرامًا، وكانت ترتدى جلبابًا مزركشًا، يظهر تحته سروال من الحرير الأخضر، ويحيط بكاحل قدمها شريط من الحرير الأحمر. وبسبب ذلك الجو الممطر، فقد كانت جدتى تنتعل حذاءً مزركشًا من المشمع، يحدث صوتًا مسموعًا أثناء السير به. وتتدلى خلف رأسها ضفيرة طويلة لامعة، وحول رقبتها قلادة فضية ثقيلة الوزن، فقد كان والدها أحد الحرفيين العاملين فى صناعة الأدوات الفضية. أما عن والدتها، فكانت سليلة أسرة إقطاعية انهارت وفقدت ممتلكاتها، كانت على دارية كبيرة بأهمية أن تمتلك المرأة قدمًا صغيرة. كانت جدتى قد بدأت عملية الضغط على قدميها حتى لا تصبح كبيرة الحجم، حيث كانت والدتها تستخدم قطعة قماش لتلف بها قدمى صغيرتها، يبلغ طولها ما يزيد على واحد تشانغ (حوالى ثلاثة أمتار ونصف المتر)، وكانت تحكم ربطها حول قدمى جدتى بطريقة كانت تؤلمها كثيرًا! كانت والدتى أيضًا تمتلك قدمين صغيرتين، حتى أننى عندما كنت أرى قدميها أشعر بالأسف الشديد، وأود أن أصيح بأعلى صوتى: لتسقط الأعراف الإقطاعية! وتحيا حرية أقدام البشر! فلكم تألمت جدتى من ذلك الصنيع بقدميها، حتى أصبحت تملك قدمين مقاس ثلاثة تسون[١]. وعندما بلغت جدتى السادسة عشرة، كان عودها قد اشتد وأصبحت تتمتع بجسد جميل، وقوام ممشوق ملفت للانتباه. وكان السيد دان يان شيون قد اختار جدتى من بين الكثير من الفتيات الحسناوات أثناء جولته فى القرية التى كان يعيش فيها والد جدتى. وبعد ثلاثة أشهر من تلك الجولة، حضر الهودج الذى حمل جدتى إلى دار عائلة دان الثرية.

---

(١) تسون: وحدة لقياس الأطوال في الصين قديمًا، والمتر الواحد يعادل ٣٠ تسون. (المترجم).

جلست جدتى داخل الهودج المغلق وهى تشعر بدوار شديد. وقد حجب الشال الأحمر الضوء عن عينيها، وفاحت منه رائحة طعام فاسد. فرفعت يدها وأزاحت الشال الأحمر قليلاً - علمًا بأن والدها كان قد أوصاها مرارًا وتكرارا بألا تحرك من تلقاء نفسها ذلك الشال الأحمر الذى سينزل من على رأسها - وبقيت الأسورة الفضية الثقيلة فى يديها، وعندما رأت جدتى النقوش فى شكل الحية التى تزين تلك الأسورة، شعرت باضطراب شديد. وهنا هبت رياح دافئة حركت سيقان الذرة الممتدة على جانبى الطريق الترابى. وجاء من وسط حقول الذرة صوت هديل الحمام. أما سنابل الذرة التى كانت قد ازهرت منذ وقت قريب، فقد تطاير غبار طلعها فى جميع الأرجاء. وظهرت رسوم العنقاء التى كانت تزين ستارة الهودج، أما قماش الهودج ذو اللون الأحمر، فقد بدا باهتًا بسبب طول كثرة تأجيره لمدة طويلة. كان حاملو الهودج يسيرون تحت شمس الخريف بخطوات سريعة، والرياح تحرك الجلد المربوط به ذراع الهودج الرئيسى، حتى سرى بعض الضوء إلى داخل الهودج. وفى تلك الأثناء كانت جدتى تتصبب عرقًا، وقلبها يدق بسرعة، وازداد خوفها وقلقها عندما سمعت صوت وقع خطوات حاملى الهودج وأنفاسهم السريعة.

منذ اليوم الذى وقع فيه اختيار السيد دان يان شيو على جدتى لتكون زوجة لابنه الوحيد، بدأ يتوافد الكثير من الأهالى على منزل والدها ليقدموا التهانى لوالد ووالدة العروس. وعلى الرغم من أن جدتى كانت قد تمنت قبل تلك الأيام السعيدة بعد الزواج أن تتنعم فى الذهب والفضة، فإنها كانت تتمنى من أعماق قلبها أن تفوز بزوج متعلم وسيم يحسن الاهتمام بزوجته وأهل بيته. وقد رسمت جدتى بثياب عرسها المطرز لوحة جميلة لمستقبل ذلك العريس الذى أصبح جدى فيما بعد. ولكم تمنت الزواج المبكر،

ولكنها شعرت بخوف شديد من ذلك اليوم بعد أن سمعت من رفيقاتها عن برص الابن الوحيد لعائلة دان. وقد شكت جدتى إلى والديها ما يساور قلبها من مخاوف. وكان والدها يتهرب من الإجابة على تساؤلاتها، أما والدتها فقد اكتفت بسب رفيقاتها، ظناً منها أنهن يحسدن ابنتها على هذا الزوج الثرى. تحدث والدها إليها فيما بعد عن أن الابن الوحيد لعائلة دان مثقف واسع الاطلاع، لا يفضل البقاء خارج منزله، رجل وسيم وذو أخلاق حميدة. وهكذا أصبحت جدتى فى حيرة من أمرها، وهى تعتقد أنه لا يوجد فى هذا العالم والدان يضمران الشر لأبنائهما. وربما يكون ما سمعته مجرد مزاح من رفيقاتها. ومن ثم فقد عاودت التطلع إلى يوم العرس. كانت تعيش آنذاك وحدة قاسية، وكم تمنت أن تقضى على هذه الوحدة بين أحضان زوج عظيم. وأخيرًا جاء يوم الزواج، وجلست جدتى داخل الهودج الذى يحمله أربعة أشخاص، ويسير أمامه الطبالون والزمارون، ويترك خلفه الكثير من الأحزان، حتى أنها لم تتمالك نفسها وأجهشت بالبكاء. ومع تحرك الهودج، عمت الفرحة الجميع، وحيا أهل القرية هودج العروس بالتصفيق والتهليل، وانتهى ذلك مع ابتعاد الهودج خارج حدود القرية، وتسارعت خطوات حاملى الهودج. وتسللت رائحة الذرة إلى الأنوف. وتعالت أصوات الطيور وسط حقول الذرة. ومع كثرة الضوء المنبعث إلى داخل الهودج، بدأت صورة الزوج تتضح أكثر فأكثر عند جدتى. وبدأ القلق يساورها من جديد.

بدأت شفتا جدتى تتمتم بالدعاء أن "احفظنى يا إلهى!" وكانت شفتاها طريتين نضرتين. وبدت أدعيتها مسموعة داخل الهودج الذى يميزه السكون التام. وسحبت الغطاء وغطت ركبتيها، وحسب تقاليد الزواج التى كانت متبعة آنذاك، كان عليها أن ترتدى سترة وسروالاً قطنيًا جديدًا فى ذلك اليوم

السعيد. وقد بدا الهودج باليًا غير نظيف من الداخل. بدا وكأنه تابوت حمل الكثير من العرائس اللائى سيصبحن حتمًا فيما بعد جثثًا تزف إلى القبور. نفذت خمس ذبابات إلى داخل الهودج، ركزت ثلاث منها على وجه جدتى، بينما وقفت الرابعة والخامسة على ستارة الهودج. ولم تعد جدتى تتحمل ذلك الجو الخانق داخل الهودج، فدفعت ستارة الهودج بقدمها، وتمكنت من الكشف عن فتحة صغيرة تنظر من خلالها إلى الخارج. حيث رأت. أول ما رأت، أقدام حاملى الهودج الكبيرة السوداء الجميلة، ينتعلون أحذية من القش، تطأ الطريق الترابى محدثة صوتًا مسموعًا. ومضت جدتى تتخيل النصف الأعلى من جسد هؤلاء الحمالين، وودت أن تكشف عن ذلك الجزء الخفى. ورأت ذراع الهودج وأكتاف الحمالين تتدلى تحته. ورأت حقول الذرة الممتدة على جانبى الطريق، ورأت سنابل الذرة تغطى سطح المكان وسط الحقول الممتدة إلى ما لا نهاية، وكأنها نهر يخر ماؤه خريرا. كان الطريق يضيق أحيانًا، حتى أن عيدان الذرة تقترب أكثر فأكثر وتخبط حواف الهودج.

شمت جدتى رائحة عرق الرجال التى تفضلها، وقد جاءتها الآن من تجاه حاملى الهودج، الذين كانوا يسيرون فى خطوات سريعة واسعة متزنة، كأنهم "يدكون الطريق". كانت هذه الحركات تهدف من جانب إلى جذب انتباه الطرف الذى استأجرهم، لعله يجزل لهم العطاء، ومن جانب آخر كانت دليلاً على عملهم الجاد المتقن. وكانت خطواتهم السريعة ووقع صوتها على الأرض دليلاً على قوتهم، كما كانت هذه الأصوات تلتحم مع أصوات البوق التى تسير مع الركب، لتنسج معًا لحنًا أشبه ما يكون بلحن حزين يشير إلى المعاناة التى تعقب كل لحظة سعادة يعيشها الإنسان. وعندما وصل الركب إلى منطقة عراء فسيحة، بدأ حاملو الهودج يتصرفون تصرفات مريبة وبها بعض القسوة، وكان هدفهم من ذلك تسلية أنفسهم خلال هذه الرحلة الطويلة،

وأيضًا بهدف إرهاب العروس لبعض الوقت. فى مثل هذا الموقف، كانت بعض العرائس يصحن بأعلى صوت، ويصبن بالإغماء الشديد حتى التقيؤ الذى يملأ ثيابهن المزركشة، وأحذيتهن المطرزة بالقاذورات، فى حين أن حاملى الهودج يكونون فى غاية السرور بوصول العروس إلى هذه المرحلة من الخوف. وبالتأكيد فإن هؤلاء الرجال الأشداء لم يكن يروقهم حمل مثل هذه الضحية إلى غرفة العريس.

من بين هؤلاء الرجال الأربعة الذين كانوا يحملون جدتى فى تلك الليلة، كان ذلك الرجل الذى أصبح جدى فيما بعد - إنه القائد يو جان آو. كان وقتها قد بلغ العشرين من عمره، وكان يعتبر أفضل الشباب العاملين فى مجال حمل توابيت الموتى وهوادج الزفاف - وكان جيل جدى من شباب قرية دونغ بيى بمدينة قاو مى آنذاك، خير من يمثل صفات أهل هذه البلدة من الشجاعة والقوة والجسارة والإقدام، تلك الصفات التى لا مجال لأن يقارن بها ذلك الجيل مع جيلنا الضعيف الجبان - وكان من بين الأعراف المتبعة آنذاك، أن يقوم حاملو هودج العروس بالمزاح معا أثناء الرحلة، مثل ما قام به حاملو هودج جدتى، حيث ذكروا لها أنه كما يحق للعاملين فى صناعة النبيذ تذوقه كما يحلو لهم، فإن حاملى هودج العروس يحق لهم أيضًا إرهابها والمزاح معها كما يحلو لهم.

كانت أوراق الذرة تخبط بين الحين والآخر حواف الهودج، وفجأة جاء صوت بكاء مسموع من مكان بعيد وسط حقول الذرة، وكسر الصوت حاجز الصمت الذى كان يخيم على الطريق الترابى. كان صوت البكاء يشبه كثيرًا الألحان التى كان تشدو بها جماعة الطبالين والزمارين فى بداية سير الهودج. هنا أدركت جدتى أن هذا الصوت الكئيب بالتأكيد هو صوت الآلات التى يمسك بها هؤلاء. ودفعت جدتى ستارة الهودج قليلاً لترى من خلالها خصر

أحد الحمالين وقد تصبب عرقًا. كما رأت جيدًا قدميها فى الحـــذاء الأحمـــر المطرز، رأت قدميها الصغيرتين النحيفتين وقد غشاهما الضوء القـــادم مـــن خارج الهودج. رأتهما وكأنهما برعمان من أزهار اللوتس، أو كأنهمـــا زوج من صغار السمك ينام فى القاع. وهنا تدلت على جفنى جدتى دمعتان رقيقتان كحبات الذرة البراقة، وسارت حتى استقرت عند حافة فمها. بدت جدتى وقد شعرت بكثير من الحزن، حيث تجلت أمامها صورة الزوج التى كثيـــرًا مـــا رسمتها فى خيالها مثل صورة أبطال الأعمال المسرحية، وبدت صورة هـــذا الزوج غامضة ومريبة. وعندما رأت جدتى وجه بيان لانغ الابـــن الوحيـــد لعائلة دان، رأته وجه رجل مصاب بالبرص، شعرت ببرودة شديدة تتـــسلل إلى جميع أجزاء جسمها. وراحت تفكر فى قـــدميها الجميلتـــين، ووجههـــا الوردى الوديع، وشخصيتها الرومانسية، أليس هذا كله سيـــضيع مـــع هـــذا الزوج المصاب بالبرص؟ إنها لتفضل الموت عن أن تواجه هـــذا المـــصير. وسمعت بعض الكلمات القادمة من ناحية صوت البكاء وسط حقول الـــذرة، سمعت صوتًا يردد: يا لزرقة السماء، يا لجمال الأزهار، آه من حزنى على رحيلك أخى الأكبر - لقد ضاعت أختك الصغيرة بموتك يا عزيزى - إننى مضطرة لأن أبوح لك بأن صوت نحيبنا نحن نساء قرية دونغ بيى بمدينة قاو مى لهو فى جمال صوت الغناء الرقيق العذب. فى العام الأول بعد تأســـيس جمهورية الصين الوطنية[1]، جاءت إلى هنا جماعة من "النائحات" من عائلة الفيلسوف الحكيم كونفوشيوس من مدينة تشيو فو لدراسة نغمة النواح التـــى تتميز بها نساء بلدتنا. وشعرت جدتى بأن مصادفة هذه المرأة النائحة فى يوم عرسها فأل غير طيب، وهكذا زاد شعورها بالحزن والكآبـــة التـــى بـــدأت

(١) ويقصد به العام الذى أعلن فيه تأسيس سلطة سياسية جديدة، ويشير هنا إلـــى عـــام ١٩١٢. (المترجم).

تسيطر عليها. وفى تلك اللحظة خاطبها أحد حاملى الهودج قائلاً: "أيتها العروس، فلتشاركى أخواتك الكبار الحديث، حتى لا يقتلك الشعور بالوحدة خلال هذه الرحلة الطويلة".

سارعت جدتى بسحب الشال الأحمر وغطت وجهها جيدًا، وسحبت أيضًا قدميها إلى داخل الهودج، ليغشاه الظلام من جديد.

"فلتتغنى بأنشودة بسيطة لإخوتك الذين يحملونك طوال الطريق!"

عندئذ نهض أحد الزمارين وكأنهم أفاقوا من حلم طويل، وأخذ بالبوق:

دنغ --- دنغ

"مينغ دونغ --- مينغ دونغ"، بدأ أحد الرجال أمام الهودج يقلد صوت البوق، وعم الضحك.

تصبب جسد جدتى عرقاً. وتذكرت توصيات والدتها لها قبل أن تصعد إلى هذا الهودج، بأنه مهما حدث فإنها لا يجب أن تنخرط فى الثرثرة مع حاملى الهودج. هؤلاء الحمالين والزمارين مجرد صعاليك، يجرؤون على فعل أقبح ما يتخيله المرء.

وهز الحمالون الهودج بقوة، لدرجة أن جدتى لم تكن قادرة على الجلوس بثبات داخله، وراحت تمسك بالمقعد الذى تجلس أعلاه.

"لا يوجد أى صوت؟ استمروا، فإن لم نسمع صوتها، فإننا حتمًا سنسمع صوت جريان بولها!"

بدأ الهودج يتحرك بقوة وكأنه قارب صغير تقذفه الأمواج العاتية، وجدتى تتشبث بكل ما فى وسعها بحواف المقعد، وبدأت تسمع أصوات طعام

الإفطار فى بطنها، وأحست بإغماء شديد. لا يمكن أن أتقيأ! لا يمكن أن أتقيأ! وراحت تأمر نفسها بضرورة أن تتماسك حتى النهاية وهى تحدث نفسها، عزيزتى جين ليان يذكر الجميع أن التقيؤ داخل هودج الزفاف فأل غير طيب على الإطلاق، وأنك إذا وقعت فى هذا الخطأ، فلن تنعمى طيلة حياتك بالحظ السعيد.

بدأ كلام الحمالين يصبح أكثر همجية، فمنهم من كان يلعن والدها بأنه إنسان وضيع يضحى بأغلى ما يملك أمام المال، ومنهم من كان يردد: الغراب زوجوه من أحلى يمامة، ومن كان يردد أن العريس دان بيان لا شيء مجرد أبرص لا حيلة له ولا قوة. وراحوا يرددون معًا أنه يمكن للواقف فى فناء دار عائلة دان أن يشم رائحة اللحوم المتعفنة، وأن هذا الفناء يعج بالذباب فى جميع أرجائه.

"أيتها العروس الصغيرة، حذار أن تسمحى لذلك الأبرص أن يقترب منك، فأنت الخاسرة إذا وقع ذلك!".

اشتد صوت البوق، وكانت جدتى لا تزال تجاهد الصراع داخل بطنها خوفًا من التجشؤ أو التقيؤ، وفجأة انهارت عزيمتها، وأخرجت جميع ما فى جوفها، امتلأ داخل الهودج بالقاذورات.

"استمروا، استمروا!" فإنها ستنطق إن عاجلاً أم آجلاً".

وأخيرًا سمعوا صوت جدتى تستغيث "أيها الأخوة الأعزاء.. ارحمونى"، ثم أجهشت بالبكاء بصوت مرتفع. وأحست بأنها ليست سوى امرأة مظلومة، وأنه ينتظرها مستقبل مظلم، ولن يكون بإمكانها أن تنجو منه إلى الأبد. وراحت تولول يا أبتاه، يا أماه، أيها الأب الطماع، أيتها الأم القاسية، لقد دمرتم مستقبلى.

ومع ارتفاع صوت بكاء جدتى، واهتزاز عيدان الذرة بقــوة، توقــف هؤلاء الحمالون والزمارون عن المزاح والسخرية من العروس والعــريس. وبقى فقط صوت بكائها الذى كان أجمل من صوت بكاء أى امرأة أخــرى. وفجأة توقفت عن البكاء وراحت تستمتع بصوت الموسيقى القادم من مكــان بعيد. فى تلك الأثناء، تناثرت المساحيق على وجهها وترقــرق الــدمع فــى عينيها، وأحست فى هذا الجو الكئيب بأنها سمعت صوت المــوت، وشــمت رائحته، ورأت وجه ملك الموت الباسم.

هنا سكت الحمالون، وتثاقلت خطاهم. وتلاقت أصوات تلك الــضحية المسكينة داخل الهودج مع الألحان الحزينة خلف الهودج، مما جعل هــؤلاء فى حيرة واضطراب شديد. وبدا هذا الركب وكأنه ليس لزفاف عروس إلــى بيت عريسها، وإنما هو أشبه بتشييع جنازة. أما ذلك الرجل الذى كان علــى مقربة من أقدام جدتى، والذى أصبح جدى فيما بعد، فقد أحس بإحساس لــم يعهده من قبل، إحساس حار سرى فى داخله وأنار مستقبله. وأخيــرًا أثــار صوت بكاء جدتى مشاعر الشفقة فى أعماق قلبه.

وفى منتصف الطريق وقف الركب للراحة، وأنزل الحمالون الهــودج على الأرض. وأحست جدتى بالدوار من كثرة البكاء وشدته، حتى ســقطت إحدى قدميها إلى خارج الهودج. فنظر الحمالون على الفور إلى هذه القــدم الصغيرة الجميلة، وتاهوا فى سحر هذا الجمال الرائع. وتقدم يــو جــان آو وأمسك بقدم جدتى بكل رفق وحنو، وكأنه يمسك بعصفور صغير لم يجتمــع ريشه بعد، ثم أعادها برفق إلى داخل الهودج. وتأثرت جدتى كثيــرًا بهــذا اللطف، وودت أن تزيح ستارة الهودج لتنظر إلى هذا الحمال صاحب اليــد الكبيرة الحانية.

أعتقد أن القدر كان قد شاء ورتب لهذا اللقاء، فلقد تسببت لمسات ذلك الحمال يو جان آو فى تفجير طاقات الإحساس الكامنة داخل جدتى، ومنذ تلك اللحظة تغيرت حياتهما معًا.

وواصل الركب السير، وبدأ الزمار عمله، ثم عم الصمت من جديد. وهبت رياح شمالية شرقية، وتجمعت الغيوم وامتلأت السماء بالسحب الداكنة، وحجبت الضوء عن الهودج الذى بدا مظلمًا. وسمعت جدتى حركة عيدان الذرة تتحرك بشدة بفعل الرياح العاتية، ثم سمعت صوت رعد. وأسرع الحمالون الخطى. لم يكونوا قد اقتربوا بعد من منزل عائلة دان، ولم تكن جدتى تعلم عن ذلك شيئًا، فقد كانت مثل دابة مربوطة، يزداد سكونها وصمتها كلما اقترب موعد ذبحها. كانت جدتى تدس داخل صدرها مقصًا حادًا، ربما كانت قد أعدته للعريس دان بيان لانغ، وربما أعدته لنفسها.

أما حكاية اختطاف هودج جدتى عند نفق الضفادع، فكان حدثًا مهمًا فى تاريخ حكايات العائلة. كانت منطقة نفق الضفادع عبارة عن منخفض كبير يتميز بخصوبة أرضه ووفرة مياهه، وكانت الذرة فى تلك المنطقة كثيفة أكثر منها فى غيرها من المناطق المجاورة. وعندما وصل هودج جدتى إلى هذا المكان، كانت الغيوم قد غطت السماء، واشتد دوى البرق. وكان الحمالون يلهثون وقد تصببت أجسادهم بالعرق. وعندما دخلوا فى نفق الضفادع، انعكس الظلام داخل المكان وعم الظلام حقول الذرة المجاورة، وكأن الأعشاب البرية قد سدت الطريق. كانت هناك مساحة كبيرة من نبات الأقحوان، ظهرت سيقانه بالألوان البنفسجى والأزرق والوردى والأبيض. وكان صوت نقيق الضفادع داخل حقول الذرة مرعبًا، ثم صاحبه صياح الثعالب. شعرت جدتى داخل الهودج برجفة شديدة، أحست وكأن جسدها قد تغير وظهر على جلدها ورم لم تره من قبل. لم تكن تعلم أى شىء عما

يحدث حولها، وهنا سمعت صوت رجل يصيح أمام الهودج بصوت مرتفع قائلاً:

"ادفعوا رسوم عبور الطريق!"

دق قلبها، ولم تدر أتفرح أم تحزن، يا إلهى، أخيرًا صادفنا بشرًا!

كانت جماعات قطاع الطرق تنتشر بكثرة فى قرية دونغ بيى، حتى أن ظهورهم وسط حقول الذرة كان أمرًا عاديًا، وكان لديهم العدة والعتاد، وكانوا لا يتورعون عن فعل أى شر، بل كانوا أيضًا يفعلون شتى الأفعال الخيرة. فى يوم من الأيام، شعر أفراد إحدى عصابات قطاع الطرق بالجوع، فهموا بالقبض على شخصين، واعتقلوا أحدهما، وأطلقوا سراح الآخر، وجعلوا الشخص الذى أطلقوا سراحه يرجع إلى القرية لينشر خبر القبض على زميله، ويحضر لهم فطيرتين كبيرتين محشوتين بالبيض والبصل. وكانوا أثناء تناول هذا النوع من الفطائر يمسكون قطع الفطير بكلتا يديهم، ومن ثم فقد أطلق على هذا النوع من الفطائر: الفطائر التى تؤكل باليدين".

صاح أحدهم: "عليكم بتقديم رسوم عبور الطريق!"، فتوقف حاملو الهودج، وراحوا ينظرون إلى قاطع الطريق بكل ذهول. وكان ذلك الرجل قصير القامة، أسمر الوجه، يرتدى أعلى رأسه قبعة مصنوعة من شرائح عيدان الذرة، ويلبس معطفًا كبيرًا من القش، وترك معطفه مفتوحًا، وكشف عن لباس أسود وحزام عريض ملفوف حول خصره، مشبوك به شىء ما ملفوف بقطعة قماش من الحرير الأحمر. وقد استخدم ذلك الرجل إحدى يديه وضغط على تلك اللفافة.

هنا، وفى لمح البصر، أحست جدتى بأن الأمر لا يدعو للخوف، فماذا تخشى بعد أن أصبحت لا تخشى الموت ذاته؟ أزاحت الستارة قليلاً ونظرت إلى قاطع الطريق.

وعاد الرجل يصيح ثانية: "عليكم بتقديم رسوم عبور الطريق! وإلا فإننى سأقضى عليكم!"، وراح يضرب على ذلك الشىء الملفوف حول خصره.

أخرج الزمارون على الفور رزم النقود النحاسية التى كانوا قد حصلوا عليها من والد جدتى، وألقوا بها أمام ذلك الرجل. وأنزل الحمالون الهودج وأخرجوا جميع ما فى جيوبهم من نقود، وألقوا بها أمام الرجل.

ومد الرجل قدمه، وسحب بها النقود الملقاة أمامه، وعيناه لا تكاد تتوقف عن النظر إلى جدتى التى كانت لا تزال داخل الهودج.

وعاد يضرب على ذلك الشىء المختبئ بيده وهو يصيح "أسرعوا جميعًا خلف هذا الهودج، وإلا بادرت بإطلاق النار!".

سار الحمالون ببطء وتردد إلى حيث أمرهم. وكان يوجان آو يسير فى مؤخرتهم، وقد استدار بجسده بشجاعة، ونظر إلى ذلك الرجل آكل الفطائر باليد. فتغيرت ملامح الرجل للتو، وراح يقبض على ذلك الشىء المختبئ، ثم صاح: "لا تنظر إلى الخلف، وإذا فعلتها ثانية سأقتلك فى الحال!".

وضغط الرجل على الشىء المختبئ عند خصره، وتقدم خطوة إلى الأمام نحو الهودج، ومد يده وأمسك بقدم جدتى. فأشرقت الابتسامة على شفتيها، ثم خطف الرجل يده بسرعة وكأنها قد لامست نارًا حامية.

وقال الرجل "انزلى عن الهودج، واتبعينى!"

بقيت جدتى جالسة فى مكانها، وتجمدت الابتسامة على وجهها.

"انزلى عن الهودج!"

نهضت جدتى قليلاً، وتحركت عن مقعدها، وتجاوزت عمود الهــودج، ثم وقفت عند أزهار الأقحوان المشرقة. وكانت تنظر بعينها اليمنى إلى ذلك الرجل آكل الفطائر، وباليسرى إلى الحمالين والزمارين.

وضغط الرجل على ذلك الشيء، ثم قال: "اتجهى إلى داخــل حقــول الذرة!"

فوقفت جدتى فى مكانها، وقد اختفت ابتسامتها المشرقة.

راح الرجل يحثها على التوجه إلى داخل حقول الذرة، ويــده لا تكــاد تفارق ذلك الشيء المختبئ عند خصره. فراحت جدتى تنظر إلى يو جان آو نظرات تعبر عن قلقها وخوفها من قاطع الطرق.

فتوجه يو جان آو نحو الرجل وهو منتصب القامة، وشفتاه النحيفتــان مشدودتان، واحدة إلى أعلى والأخرى إلى أسفل.

"قف مكانك!". صاح الرجل بقوة، ثم استمر فى تهديــده، "إذا تقــدمت خطوة ثانية فسأطلق عليك النار!". وكانت يده تضغط بشدة على ذلك الشيء.

فسار يو جان آو فى هدوء نحو الرجل، وكلما تقدم يــو خطــوة إلــى الأمام، تراجع الرجل خطوة إلى الخلف. وتطاير الشرر من عينيــه، وبــدأ العرق ينزل على وجهه. وعندما كان يو جان آو على بعد ثــلاث خطــوات منه، صرخ صرخة مؤلمة ثم فر هاربًا. فلاحقه يو جان آو وركله بقدمه فى مؤخرته ركلة قوية. فتخبط الرجل قاطع الطريق فى الأعشاب البرية، وقفــز على نبات الأقحوان، وطار مثل الطفل البرئ إلى داخل حقول الذرة.

"العفو يا سيدى" إن من بين أفراد أسرتى عجوزًا بلغت الثمانين تنتظرنى أعود لها بهذه الوجبة. وهكذا كان قاطع الطريق يطلب العفو من يو جان آو بعد أن وقع فى قبضته. فأمسك به يو جان آو، ودفعه إلى أمام الهودج، ثم ألقى به على الأرض، وأتبعه بركلة قوية فى فمه. فتألم الرجل ألمًا شديدًا، وراح ينزف دمًا من أنفه.

فانحنى يو جان آو قليلاً واستل الشيء الذى خبّأه قاطع الطريق فى خصره، ونفض تلك القماشة الحمراء عند خصر الرجل، ليخرج منها كتلة من الأعشاب الصغيرة. وهنا لم يتوقف الجمع عن التأوه.

وسقط الرجل على الأرض، وراح يسجد أمام يو جان آو يطلب منه الصفح. فقال يوجان آو: "جميع قطاع الطرق يذكرون أن هناك عجوزًا فى الثمانين تنتظرهم فى منازلهم". ثم تراجع إلى الخلف، ونظر إلى الحمالين والزمارين، وكأنه قائد مجموعة من الكلاب يتشاور مع رفاقه حول أمر ما.

تجمع الحمالون والزمارون وكونوا دائرة صغيرة، ثم التفوا حول قاطع الطريق، وأوجعوه ضربًا وركلاً. حتى لم يعد أحد يسمع صوت بكائه وطلبه الصفح كما كان عليه منذ قليل. ووقفت جدتى على جانب الطريق تستمع إلى صوت الهجوم على الرجل. ونظرت إلى يو جان آو نظرة خاطفة، ثم راحت تنظر إلى البرق فى السماء، والابتسامة تكاد لا تفارق وجهها.

ورفع أحد الزمارين البوق وضرب به قاطع الطريق على رأسه، فانغرست حافة البوق داخل رأس الرجل، حتى استلبها الزمار بعد معاناة. فراح الرجل يصرخ ويتلوى، ثم ارتمى على الأرض. وبدأ الدم يتدفق ببطء من جرحه الغائر.

قال الزمار وهو ممسك بالبوق: "هل مات الرجل؟"

"نعم مات، فلم يستطع هذا الوضيع أن يتحمل كل هذا الضرب!"

وبدت على وجوه الحمالين والزمارين علامات الحزن والقلق.

نظر يو جان آو إلى الميت، ثم إلى الأحياء من حوله، ولم ينبس ببنت شفة. ومد يده إلى حقول الذرة وقطع ورقة من عيدان الذرة الطويلة وراح ينظف بها تلك القاذورات التى كانت تقيأتها جدتى داخل الهودج، ثم عاد يتفحص تلك الكتلة التى كانت تختبئ عند خصر قاطع الطريق، ثم دفعها بقوة حتى سقطت قطعة القماش التى كانت تلف بها على الأرض، وظهرت وكأنها طبق كبير أحمر اللون سقط أعلى سيقان الذرة الخضراء.

وساعد يو جان آو جدتى حتى صعدت إلى الهودج، ثم قال: "لقد بدأت السماء تمطر، هيا نسرع!".

مدت جدتى يدها وقطعت جزءًا صغيرًا من ستارة الهودج، وألقت بها إلى زاوية داخل الهودج، وراحت تتنفس هواء الحرية، وتنظر عبر هذا الثقب إلى كتفى يوجان آو العريضة وخصره النحيل. فلقد كان يو على قرب منها، فما إن تمد قدمها، حتى يكون فى استطاعتها ملامسة رأسه القوى الأسمر.

وزادت شدة الرياح، وبدأت سيقان الذرة تتلاطم بقوة، ودفعت الرياح سيقان الذرة إلى وسط الطريق، وكأنها جاءت لتقدم التحية إلى جدتى داخل هودجها. كان الحمالون يطيرون بأقصى سرعة، ولكن الهودج على غير العادة كان يبدو متزنًا وكأنه قارب صغير ينزلق بفعل الموج. وبدأت تسمع صوت نقيق الضفادع، التى راحت تعبر عن ترحيبها بالمطر الغزير. ونظرت إلى أعلى حقول الذرة لترى البرق يضىء ويلمع سماءها، وزلزل صوت الرعد أرجاء المكان. أثر هذا كله فى جدتى، وراحت تنظر بشجاعة

إلى حقول الذرة الممتدة أمامها. كانت أول موجة من مياه المطر قـد هـزت سيقانها هزًا عنيفًا، واقتلعت الحشائش الصغيرة من مكانها، وحملـت معهـا التراب الذى تجمع فى كتل صغيرة راحت تضرب سقف الهودج. وراحـت مياه الأمطار تضرب حذاء جدتى ورأس يوجان آو، ثم وصلت إلـى وجـه جدتى.

وفر يوجان آو ورفاقه مسرعين مثل الأرانب الجبانـة، ولكـنهم لـم يستطيعوا التخفى من نوبة المطر الشديدة وقت الظهيرة. والتى أسقطت عددًا كبيرًا جدًا من سيقان الذرة. كانت قطرات المطر تنـزل بجنـون، وكانـت جماعات الضفادع تختبئ تحت سيقان الذرة، والثعالب تجلس متربصة فـى كهوفها، وهى تنظر إلى قطرات المطر التى تنزل بشدة على حقول الـذرة. وتحول الطريق بسرعة إلى بركة من الوحل، وانحنت الأعشاب على جانبى الطريق، وغرقت نباتات الأقحوان. واشتد تلاصق سراويل الحمالين الكبيرة الفضفاضة بأجسادهم، حتى بدوا جميعًا ممشوقى القوام. أما رأس يوجان آو فقد غسلته مياه الأمطار جيدًا، حتى أصبحت تبرق مثل بريق عينى جـدتى. وبللت الأمطار ملابس جدتى. وعلى الرغم من أنه كان بإمكانهـا أن تنـزل ستارة الهودج لتحمى نفسها من المياه، فإنها لم تفعل ذلك، اسـتطاعت مـن خلال هذه الفتحة أن ترى عالمًا كبيرًا يعج بالفوضى.

(٦)

مضى أبى يقتلع بعض أعواد الذرة مفـسحًا الطريـق أمـام نفـسه، وهو يسير بسرعة نحو قريتنا صوب الشمال الغربى. ولم يكن أبـى يبـالى بأعواد الذرة الكثيرة التى كانت تعترض طريقه. وعندما بلغ الطريق الترابى،

تحرر من مضايقة أعواد الذرة، وانطلق مسرعًا إلى وجهته، ومسدسه الثقيل لا يزال مربوطًا عند خصره. وقد كان المسدس يتسبب له فى بعض المعاناة أثناء سيره وسط حقول الذرة، التى اجتازها أبى بنجاح، مما جعله يشعر بأنه قد أصبح رجلاً قويًا يشق طريقه وسط الصعاب رافعًا سلاحه. لاحت أمامه قريته من بعيد، وأحس كأن أشجار الفواكه العتيقة تقترب منه لتستقبل هذا البطل العائد من الرحلة الطويلة. أخرج أبى مسدسه ورفعه بيده وراح يجرى وينظر إلى الطيور التى كانت تحلق فى السماء.

بدت شوارع القرية خالية تمامًا من البشر، غير أنه رأى حمارًا أعرج أعمى مربوطًا هنالك إلى إحدى الحيطان المصنوعة من الطين، وكان الحمار متسمرًا فى مكانه يبدو كئيبًا مهمومًا. سقط من السماء زوج من الغربان، وكان أهل القرية يتجمعون هنالك فى ساحة واسعة أمام فرن النبيذ الخاص بعائلتى، وكانت هذه الساحة دائمًا ممتلئة بأكوام الذرة التى تقوم عائلتى بجمعها من الفلاحين، كانت جدتى تظهر ممسكة بالمنشة وتنشغل بتنظيف الذرة المكومة داخل هذه الساحة، وتشاهد العمال الذين كانوا يقومون بحمل الذرة على ألواح خشبية، بينما تنعكس السحب الورية على وجهها. ولم يكن أى من الأطفال الذين هم فى عمر أبى آنذاك يجرؤ على إثارة الفوضى فى هذا المكان.

كان أبى قد تسلل إلى هذه الساحة، وفى مواجهته الجزار سون وو الذى كان قد تولى فى العام الماضى سلخ الجد لوو خان. وكان الجزار سون قد أصيب عقب فعلته هذه باضطراب نفسى شديد، دائمًا يرقص ويصفق، وعيناه ذاهلتان، ولعابه يسيل، ولا يتوقف عن الهذيان وهو منبطح على الأرض يصيح بأعلى صوته: "أخى الأكبر، أخى الأكبر، أخى الأكبر، أجبرنى القائد المعتدى على ما فعلت، ولم أكن أجرؤ على عدم الطاعة..

صعدت بموتك إلى السماء، لتكون مع القديسين". وعندما رآه أهل القرية بهذه الحالة، تناسوا ما كانوا يضمرونه له من كراهية شديدة. كان الجزار سون قد أصيب بأعراض جديدة بعد جنونه ببضعة أشهر، عيناه دائمًا تبدو شاردة ومخاطه يسيل بلا توقف، ويهذى بكلام غير مفهوم. وكان أهل القرية يقولون إن هذا الذى حل به إنما هو عقاب السماء.

تسلل أبى إلى داخل الساحة ممسكًا بمسدسه، وقد غطى رأسه بدقيق سنابل الذرة. أما الجزار سون فقد ألقى بنفسه إلى داخل الساحة فى ثياب بالية قذرة، وجسده ممتلئ بالتجاعيد، وهو فى غاية التعب، ولم يهتم أحد بظهوره. اهتموا فقط بأبى هذا البطل الشجاع.

وتقدمت جدتى إلى أمام هذا البطل الصغير. وكانت قد بلغت منذ وقت قريب الثلاثين من عمرها، على رأسها بعض دبابيس الشعر، وخصلات شعرها تنزل على جبهتها الجميلة. أما عيناها فقد كانتا على الدوام تبدوان صافيتين مثل مياه الخريف، ويذكر البعض أن السبب فى ذلك هو أنها كانت لا تفيق من السكر بنبيذ الذرة. تحولت جدتى خلال هذه الأعوام الخمسة عشرة من صبية فاتنة إلى سيدة ماجنة.

وسألت جدتى ابنها: "ما الذى جاء بك؟"

فراح أبى يحكم وضع المسدس داخل حزامه وهو يلهث بشدة.

عاودت جدتى تسأله: "ألم يأت اليابانيون؟"

فرد أبى: "إنها قوات القائد الملعون لينغ ماتزه، وإننا لن نرحمه!"

سألت جدتى: "ما الذى حدث؟"

فأجاب أبى: "يأمر القائد يو بإعداد الفطائر".

قالت جدتى: " لن نسمع صوت أى مصادمات!"

وقال أبى: "نطلب إعداد الفطائر، وأكثروا من الحشو بالبيض والبصل".

فسألته جدتى: "لم يأت الشياطين اليابانيون بعد؟"

"يأمر القائد يو بإعداد الفطائر، وأن تحضريها بنفسك إلى هناك!"

قالت جدتى: "فلتعدن الآن أيتها الأخوات وتبدآن فى جمع الدقيق لإعداد الفطائر التى يحتاجون إليها".

استدار أبى بجسده قليلاً، وهم أن يفر مسرعًا، فأعاقته جدتى بيدها وقالت: "يا صغيرى دوو قوان، فلتخبر والدتك، ماذا حدث من القائد لينغ ماتزه؟"

تخلص أبى من يد جدتى، ثم قال بلهجة عنيفة: "لم نعثر على أى أثر لقوات لينغ ماتزه، وتوعدهم القائد يوجان آو بأنه لن يرحمهم".

وفر أبى مسرعًا. ومضت جدتى تلاحقه، وهى تلهث بشدة. وفرغت الساحة ممن فيها، وبقى الجزار سون متسمرًا فى مكان يركز النظر إلى جدتى، ويداه لا تتوقفان عن الحركة، ولعابه يسيل بغزارة.

ولم تعره جدتى أدنى اهتمام، وتوجهت نحو فتاة ذات وجه طويل كانت تقف هنالك إلى جانب الحائط. فابتسمت الفتاة صاحبة الوجة الطويل لجدتى. وعندما اقتربت منها جدتى، جلست الفتاة فجأة على الأرض، وراحت تضغط بكلتا يديها على حزام بنطالها، ثم أجهشت بالبكاء. بينما كان الشرر واللهب ينبعث من عينيها المتقدتين. لمست جدتى وجهها برفق، ثم قالت: "حبيبتى لينغ تزه، لا تخافى يا حبيبتى".

كانت الفتاة لينغ تزه ذات السبعة عشر عامًا أجمل فتاة فـــى قريتنـــا. وعندما بدأ القائد يو جان آو فى تجهيز قواته، كان قد جمع فريقًا قوامه مـــا يزيد على خمسين رجلاً من رجال القرية، كان من بينهم شاب نحيف فى زى أسود، ينتعل حذاء جلديًا أبيض اللون، ذو وجه شاحب، وشعر طويل أســود. ويحكى أن الفتاة الجميلة لينغ تزه كانت تعشق هذا الــشاب. وكـــان الـــشاب يتحدث بلهجة بكين الجميلة الواضحة، كان دائمًا ما يبدو عبوس الوجه، وقد ملأت التجاعيد وجهه من كثرة لباكشير، وكان الجميع ينادونـــه بالـــسيد رن نائب القائد. وكانت الجميلة لينغ تزه تشعر بأن خلف مظهره الخارجى الوسيم قوة جذب فائقة تشدها إليه، فى ذلك الحين كانت فرقة القائد يو تداوم يوميًـــا على التدريب أعلى الهضبة التى تستخدمها عائلتى فى جمع الذرة لصناعة النبيذ. وكان السيد الزمار ليو سه شان يقوم بعمل جندى الإشارة بفرقة القائد يو. ويقوم بالنفخ فى البوق ليجمع أعضاء الفرقة قبل كل تدريب. وكانت الجميلة لينـــغ تزه بمجرد أن تسمع صوت البوق، تخرج من منزلها مـــسرعة نحـــو هـــذه الساحة، وتتسلق السور الترابى وتنتظر رؤية نائب القائد رن. كان نائب القائد هو المدرب المسئول لأعضاء الفريق، وكان يضع حول خصره حزامًا جلديًا واسعًا يعلق فيه المسدس الخاص به.

تقدم نائب القائد أمام أعضاء الفريق نافخًا صدره، وصاح أن استعدوا جميعًا، فلبى الجمع نداءه، واصطفوا جيدًا فى صفين متوازيين تمامًا.

قال نائب القائد: "عند الاستعداد يجب أن تكون أرجلكم مـــستقيمة مـــع شفط البطن للداخل، ويكون الـــصدر منفوخًـــا ومـــشدودًا جيـــدًا، والعينـــان مفتوحتان، مثل الفهد فى حالة انقضاضه على الفريسة".

"آه منك أيها الحيوان!" ركل نائب القائد وانغ بيى ون ركلة، ثم قال: "انظر إلى فتحة رجلك، وكأنك بغل يستعد للتبول، ليس صعبًا أن أكسرها لك أيها الحيوان".

كانت الجميلة لينغ تزه تحب أن ترى نائب القائد وهو يضرب أعضاء فريقه، وتحب أيضًا سماع توبيخه وسبابه لهم. كانت تعبيرات وجهه تسيطر عليها تمامًا. وعندما يكون نائب القائد غير منشغل بأى عمل من أعمال التدريب، كنت دائمًا ما تراه داخل هذه الساحة الفارغة فى فناء عائلتى وهو يتمشى واضعًا يديه خلف ظهره، بينما الجميلة لينغ تزه تختبئ خلف السور الترابى لتتمتع برؤيته عن قرب.

سألها نائب القائد: "ما اسمك أيتها الفتاة؟"

"لينغ تزه".

"وماذا تفعلين خلف السور؟"

"أنظر إليك".

"هل تجيدين القراءة والكتابة؟"

"لا أجيد".

"هل ترغبين فى العمل كجندية؟"

"لا أرغب".

"أوه، لا ترغبين!"

وقد شعرت لينغ تزه بعد ذلك بالندم الشديد، وقالت لأبى إنه إذا عاد نائب القائد يسألها نفس السؤال، فستجيب بأنها ترغب فى العمل كجندية. ولكنه لم يسألها هذا السؤال مرة ثانية.

وانبطحت لينغ وتزه مع أبى أعلى السور، وراحا ينظران إلى نائب القائد وهو يقوم بتعليم أعضاء الفريق التغنى بالأغانى الثورية، كان أبى قصير القامة، يقف أعلى ثلاث قطع من الطمى حتى يتمكن من رؤية المشهد داخل السور. أما لينغ تزه فكانت تسند ذقنها على السور الترابى وتحدق النظر فى نائب القائد. بينما نائب القائد ينشغل بتعليم أعضاء الفريق أنشودة:

**"لقد نضجت الذرة، لقد احمرت الذرة، وجاء الشياطين اليابانيون، وجاء الشياطين اليابانيون. وتدمرت البلاد، وهلك العباد، فانهضوا أيها الرفاق، احملوا خناجركم وأسلحتكم، قاتلوا الشياطين واحموا بلادكم".**

كان جميع أعضاء الفريق ثقيلى اللسان، لا يستطيعون إتقان كلمات هذا النشيد الثورى. أما الأطفال الذين كانوا يراقبون التدريب من أعلى السور، فكانوا يتقنون هذه الكلمات جيدًا. وكان أبى طيلة حياته يحفظ هذا النشيد جيدًا.

ذات يوم تجرأت الجميلة لينغ تزه وخرجت تبحث عن نائب القائد، ودخلت بطريق الخطأ إلى غرفة رئيس قسم المهمات العسكرية بالفرقة. كان الرجل يدعى يودا يا العم الشقيق للقائد يو جان آو، تجاوز الأربعين من عمره، وكان رجلاً شهوانيًا يعشق الخمر والمال، وفى ذلك اليوم كان قد أفرط فى الشراب حتى بلغ أقصى درجات السكر، فما إن رأى الجميلة لينغ تزه فى غرفته، حتى انقض عليها مثل الثور الهائج.

وأمر نائب القائد بعض رجاله بالقبض على السيد يودا يا الذى اعتدى على الفتاة لينغ تزه.

خلال وقوع هذه الواقعة، كان القائد يو جان آو يستريح فـــى منزلـــه، وعندما ذهب نائب القائد السيد رن إليه ليخبره بما حدث، كان القائد يو نائمًا فى غرفة جدتى. وأثناء انشغال جـــدتى بإعـــداد بعـــض الطعـــام والنبيـــذ، دخل نائب القائد فجأة إلى فناء الدار، فانتفضت جدتى مذعورة.

وسألها نائب القائد: "أين القائد يو؟"

فأجابت: "نائم بالداخل!"

"أيقظيه على وجه السرعة".

فراحت جدتى توقظ القائد يو.

خرج القائد يو من الغرفة، ولم يكن قد أفاق من نومـــه تمامًـــا، وراح يميل بجسده ويتثاءب، ثم قال: "ماذا حدث؟"

فسأله نائب القائد: "أيها القائد، ما قولك إذا اعتدى أحد اليابانيين علـــى أخواتى، أليس يحق لى أن أقتله؟"

أجاب القائد يو: "اقتله!"

"أيها القائد، وما قولك إذا اعتدى أحد الصينيين على أخواته، أليس يحق لنا قتله؟"

"نعم يحق لنا ذلك!"

"حسنًا أيها القائد، وقد كنت أنتظر ردك هذا". ثم قال نائب القائد: "لقـــد اغتصب يودا يا المواطنة تساو لينغ تزه، وقد أمرت الرفاق بأن يقبضوا عليه ويحكموا وثاقه".

قال القائد يو: "هل حدث هذا بالفعل؟"

"أيها القائد، متى ننفذ الحكم؟"

تثاءب القائد يو، ثم قال: "أن يقضى الرجل وقتًا بجوار امرأة، فإن هذا لا يعد قضية كبرى".

"أيها القائد، إذا ارتكب الملك خطأ فلابد أن يحاسب على خطئه مثل الرعية!"

فسأل القائد يو وقد بدا عابسًا: "وماذا ترى فى الحكم عليه إذًا؟"

رد نائب القائد فى الحال: "الرمى بالرصاص!"

تأوه القائد يو، وراح يتقدم نحوه وهو فى غاية القلق. وعاود الابتسامة مرة أخرى، ثم قال: "السيد رن نائب القائد، ما رأيك فى أن نحكم عليه بالجلد خمسين جلدة أمام أعين الناس، ونقدم لعائلة المواطنة لينغ تزه عشرين دا يانغ(١)؟"

قال نائب القائد بلهجة ساخرة: "أهذا الحكم لأن الجانى عمك أيها القائد؟"

"نحكم عليه بالجلد ثمانين جلدة، ونحكم عليه بأن يتزوج الفتاة لينغ تزه، وأعترف بها أنا شخصيًا عمة لى!"

فك نائب القائد حزامه، وأخرج مسدسه، وألقى به إلى القائد يو. وانحنى نائب القائد أمام القائد يو وهو يضم يديه مقدمًا له التحية، ثم قال: "أيها القائد يو، فلنفترق!" ثم خطا خطوات سريعة إلى خارج فناء عائلتى.

---

(١) دا يانغ: وحدة عملة من الفضة كانت تستخدم فى الصين قديمًا. (المترجم).

حمل القائد يو المسدس، ونظر إلى ظل نائب القائد، ثم قال وهو يعض على أسنانه: "فلترحل إلى الجحيم، لست سوى تلميذ حقير، وتود أن تتدخل في اختصاصاتي! لم يجرؤ أحد على هذا منذ أن توليت مهامي قبل عشر سنين مضت".

قالت جدتي: "جان آو، يجب أن توقف نائب القائد ولا تدعه يرحل، إنه يتمتع بكفاءة وخبرة يصعب تعويضها".

فرد القائد يو بصوت متذمر: "وماذا تفهم تلك المواطنة البسيطة!"

فأجابته جدتي: "كنت أحسبك رجلاً شهمًا، ولم أتوقع أنك أيضًا مجرد شخص تافه ليس له في العير ولا في النفير!"

سحب القائد يو المسدس، ثم قال: "هل سئمت حياتك أيتها المرأة؟"

فسارعت جدتي وقطعت حمالة صدرها، وكشفت له صدرها، وواجهته بشجاعة قائلة: فلتطلق الرصاص إذًا!"

هنا صاح أبي على أمه بصوت عال، ثم ارتمى في حضنها.

وعندما رأى القائد يو جان آو حسن خلق أبي وحنو وجمال جدتي، تداعت إلى ذهنه الكثير من الأحداث والذكريات الماضية. فتنهد قليلاً، واستعاد مسدسه، ثم قال: "استري نفسك!" وأخذ سوطه وخرج إلى الفناء، ووصل إلى إسطبل الحيوانات وفك حصانه الأصفر، وركبه في عجالة متوجهًا إلى ساحة التدريب.

كان أعضاء الفرقة يجلسون على سور الساحة، وما إن رأوا القائد يو جان آو حتى انتفضوا وقاموا لتحيته، وخيم عليهم الصمت.

كان يودا يا المتهم بالاعتداء على الفتاة مربوطًا من ذراعيه إلى جذع شجرة.

ونزل القائد يو عن حصانه، وترجل أمام يودا يا، ثم قال: "أحقًا فعلت ما ذكروا لى؟"

فرد يودا يا: "ابن أخى الحبيب، فك وثاق عمك، وسأغادر هذه الجماعة على الفور!"

نظر جميع أعضاء الفرقة إلى القائد يو.

وقال القائد يو: "عمى، إننى سأرميك بالرصاص".

صاح يودا يا: "أيها اللعين، أتجرؤ على قتل عمك؟ فلتعمل حسابًا لعمك الذى رعاك فى طفولتك، وتذكر أن أباك مات وأنت طفل صغير، وأنا عمك الذى عملت على إعالتك وأمك الأرملة، ولو لم أفعل ذلك، لأصبحت لقمة سائغة للكلاب الضالة!"

رفع القائد يو يده إلى أعلى، ثم نزل بها على وجه يودا يا، وراح يسبه قائلاً: "يا لك من وغد حقير!" ثم سجد على ركبتيه ومضى يقول: "عماه، لن ينسى ابنك جان آو أفضالك إلى الأبد، وسأحزن عليك بعد مماتك وألبس ثياب الحداد، وسأزور قبرك وأقدم لك القرابين فى كل عيد".

قفز القائد يو جان آو بسرعة على ظهر حصانه، وضربه بالسوط، وأسرع فى اتجاه نائب القائد، وكان الحصان يسير بأقصى سرعة، ويزلزل الأرض تحت قدميه.

حضر والدى مشهد رمى يودا يا بالرصاص. قاد الأخرس ورجلان آخران من أعضاء فرقة القائد يو، المتهم يودا يا إلى المدخل الغربى للقرية،

واختاروا مكان الإعدام، منطقة تتجمع حولها المياه الراكدة، وممتلئة بالبعوض والصراصير. توجد بها شجيرة صفصاف يتيمة، تقفز حولها جماعات الضفادع.

وحمل اثنان من أعضاء الفرقة يودا يا إلى أعلى الجرف، وأرخوا وثاقه، ونظروا إلى الأخرس. فهز الأخرس مسدسه، واستعد جيدًا.

فاستدار يودا يا بجسده تجاه الأخرس، ثم ابتسم له. واكتشف أبى أن ابتسامته آنذاك كانت ابتسامة صادقة طيبة، تمامًا مثل الشمس الغاربة.

"أخى الأخرس، فك وثاقى، لا يمكن أن أموت وأنا مربوط بهذا الحبل!"

ففكر الأخرس قليلاً، ثم تقدم خطوة والمسدس فى يده، ونزع الخنجر من حزامه، وقطع الحبل. فمد يودا يا ذراعيه إلى الأمام يريحهما قليلاً، ثم استدار بجسده وراح يصيح: "أطلق الرصاص، أطلق الرصاص أخى الأخرس، ولا تدعنى أتعذب بما فعلت!"

ويعتقد أبى أن أى إنسان قبيل مماته، يجعل الجميع يشعرون تجاهه ببعض المهابة والاحترام. وعلى كل حال فإن يودا يا يعد أحد أبناء قرية دونغ بيى بمدينة قاو مى، وارتكب جريمة كبرى، والموت أخف عقاب له، غير أنه قبيل مماته عبر عن روح بطولية هو أهل لها، وتأثر أبى كثيرًا بذلك المشهد، وود أن يقفز إليه.

أعطى يودا يا وجهه للمياه الراكدة المتعفنة، نظر إلى أسفل قدميه حيث الطحالب الكريهة، ونظر حوله إلى حقول الذرة، وراح ينشد: "لقد نضجت الذرة، لقد احمرت الذرة، وجاء الشياطين اليابانيون، وجاء الشياطين اليابانيون. وتدمرت البلاد، وهلك العباد".

كان الأخرس يرفع سلاحه ثم ينزله، وينزله ثم يرفعه.

فقال الرجلان الآخران المصاحبان له: "أيها الأخرس، فلتشفع له عند القائد يو لكى يصفح عنه!"

اتكأ الأخرس على سلاحه، وانتظر حتى انتهى يودا يا من الغناء.

واستدار يودا يا بجسده ثانية، وراح يطلق نظرات غريبة ومريبة، ثم صاح بصوت عال: "أطلق الرصاص يا أخى الأخرس! ألست ترغب فى أن تجعلنى أقضى على نفسى؟"

فحمل الأخرس سلاحه، وحدد هدفه جيدًا صوب جبهة يودا يا، وشد زناد سلاحه.

ورأى أبى أن جبهة يودا يا قد تناثرت فى شكل قطع صغيرة، وكان الأخرس قد طأطأ رأسه مع صوت إطلاق الرصاص، وقد خرج الدخان بكثافة من فوهة المسدس. وتحامل جسد يودا يا قليلاً، ثم سقط داخل المياه الراكدة.

سحب الأخرس مسدسه وغادر المكان، ثم تبعه الرجلان الآخران.

أما أبى ومن كان بصحبته من الأطفال، فقد تجمعوا على حافة الترعة وهم فى غاية الذعر. وراحوا يتأملون جثة يودا يا الملقاة فى عرض المياه. ونظروا إلى وجهه، فرأوا أن فمه لا يزال موجودًا كما هو، فى حين تشوهت جميع أجزاء الوجه الأخرى. كانت جثته قد حطمت أثناء سقوطها الطمى المترسب على الحواف، وتقطعت سيقان أزهار اللوتس. وهنا شم أبى رائحة أزهار اللوتس العطرة.

وجاء بعد ذلك مباشرة نائب القائد وهو يحمل معه قطعة من الستان الأصفر، وتابوتًا من خشب السرو ملصقًا أعلاه بعض النقود الفضية، وألبس يودا يا ثياب الحداد، واختار أن يكون قبره أسفل شجرة الصفصاف الصغيرة على حافة الترعة. وفى يوم تشييع الجنازة، اتشح نائب القائد بالسواد، وعلق بذراعه قطعة من الحرير الأحمر. هذا بينما كان القائد يو يظهر وقد لبس ثياب الحداد، يبكى بصوت عالٍ. وما إن تجاوز حدود القرية، حتى أخذ بجرة من القرميد وحطمها على كسرة طوب.

فى ذلك اليوم، لفت جدتى أبى بثوب من ثياب الحداد البيضاء، ارتدت هى ثياب الحداد حزنًا على يودا يا، وكان أبى يسير خلف القائد يو وجدتى ممسكًا بعصا من أغصان شجرة الصفصاف، ورأى أبى بأم عينيه مشهد تحطم تلك الجرة أعلى كسرة الطوب، وتذكر مشهد تحطم رأس يودا يا. واعتقد أبى أن هناك علاقة حتمية بين هذين المشهدين المتشابهين. وأن المصادفة التى جمعت بين هذين المشهدين، قادرة على أن تنتج مشهدًا ثالثًا.

ولم تسقط من أبى الذى كان ينظر بفتور إلى مشيعى الجنازة دمعة واحدة. وعندما التف المشيعون فى حلقة واحدة تحت شجرة الصفصاف، رأوا ستة عشر شابًا من الشباب الأقوياء ينزلون التابوت الخشبى برفق إلى القبر العميق. وأخذ القائد يو بحفنة من التراب ونثرها على التابوت الخشبى اللامع، فأحدثت صوتًا اهتزت له مشاعر جموع الحاضرين. وقام بعض الرجال الممسكين بخوازيق حديدية، بغرز هذه الخوازيق فى الطمى الأسود، وألقوا بها على التابوت الذى بدا كأنه يصيح بأعلى صوته، وهكذا راح التابوت يختفى تدريجيًا تحت كتل الطمى الأسود. وعلت كتل الطمى حتى

تساوى القبر بسطح الأرض، وأصبح تلاً كبيرًا فى شكل واحدة المـــانتو(١).
أخرج القائد يو مسدسه وأطلق ثلاث رصاصات لأعلى شجرة الصفـصاف. واخترق الرصاص أعواد الشجرة، فتساقط بعض من أوراقها الرقيقة الذابلة، وراحت تتطاير فى عنان السماء. أما أغلفة الرصاص، فقد ســقطت داخــل الترعة ذات المياه الراكدة. فقفز أحد الصبية إلى الترعة، وراح يدوس فــى الوحل، حتى عثر على تلك الأغطية وعاد إلى حيث كان. وأخذ نائب القائــد بمسدسه وأطلق أيضًا ثلاث رصاصات. أحدثت عند خروجها من بيت النار صوتًا مدويًا اهتزت له جنبات الذرة المجاورة. فحمل كل من القائد يو ونائبه الشاب رن مسدسه، وراحا ينظران فى جميع الأرجاء. وهز نائب القائد رأسه قائلاً: "إنه بطل عظيم ماجن!"، ثم أعاد مسدسه إلى جرابه ومضى بخطوات سريعة فى اتجاه القرية.

اكتشف أبى حينها أن يد القائد يو التى تحمل السلاح، كانــت ترتفــع رويدًا رويدًا، وتلاحق فوهة السلاح ظل نائب القائد. فذهل جميع الحــضور، ولكن لم يجرؤ أحد منهم على التفوه بكلمة واحدة. بينما كان السيد رن نائــب القائد يتقدم مرفوع الرأس بخطوات واسعة غير واع بما يحدث خلفه، وهــو يمضى تجاه القرية فى محاذاة قرص الشمس. رأى أبى المسدس يهتز قلــيلاً فى يد القائد يو. ولم يكد يسمع صوت إطلاق النار الذى كان ضعيفًا وعلــى

---

(١) المانتو: أحد أنواع المأكولات الصينية المعروفة داخل الصين، ويصنع مــن الــدقيق والمــاء والــسكر وبعض المكونات الأخرى، ويكون على شكل نصف كرة أو مستديرًا. وهناك المانتو المحشو الذى يــتم حشوه بقطع من اللحوم أو الخضراوات، وهناك أيضًا المانتو السادة أو الأبيض الــذى يخلــو مــن أى حشو. وينتشر طعام المانتو بشكل كبير فى مناطق جنوب الصين ووسط الطبقات الفقيرة، وذلك لرخص سعره وبساطته. (المترجم).

مسافة بعيدة منه. رأى تلك الطلقة تحلق على ارتفاع منخفض وتمر من أعلى شعر رأس نائب القائد. غير أن نائب القائد لم ينظر إلى الخلف، وواصل السير بخطوات واسعة. وسمع أبى صوت صافرة تأتى من ناحية نائب القائد، كان أبى يعرف هذا الصوت جيدًا، إنه صوت "لقد احمرت الذرة، لقد احمرت الذرة!" وامتلأت عينا أبى بالدموع. كان شبح نائب القائد يصبح أكبر حجمًا كلما ابتعد عن مرمى البصر. وأطلق القائد يو رصاصة ثانية. فزلزلت الأرض والسماء، وقد أحس أبى جيدًا بهذا الصوت المدوى. كانت الرصاصة قد أطلقت أعلى حقول الذرة، فتساقط على إثرها بعض من سنابل الذرة. وخلال تساقط هذه السنابل، إذا برصاصة ثالثة تحطمها تحطيمًا. وأحس أبى أن نائب القائد يظهر هنالك يحنى ظهره ليقتطف زهرة من الأزهار البرية ويشمها لفترة طويلة.

كان أبى قد أخبرنى بأن نائب القائد كان على الأرجح ينتمى للحزب الشيوعى، من الصعب العثور على مثل هذا البطل فى مكان سوى الحزب الشيوعى. ولكن للأسف كان عمر هذا البطل نائب القائد قصيرًا، كان البطل الشجاع قد أطلق النار على نفسه، وأنهى حياته خلال قيامه بتنظيف مسدسه، وذلك بعد مضى ثلاثة أشهر من رؤية أبى له عندما كان يسير مرفوع الرأس بخطوات واسعة. دخلت الرصاصة من ناحية عينه اليمنى لتخرج من فتحة أذنه اليمنى، وامتلأ هذا الشطر من وجهه بالدماء، ونزفت أذنه اليمنى كمية كبيرة من الدم، وما إن سمع أهل القرية صوت إطلاق الرصاص، حتى هبوا فزعين يتتبعون مصدر الصوت، وعندما وصلوا إلى نائب القائد وجدوه ملقى على الأرض وقد فارق الحياة.

مال القائد يو على الجثة وأخذ بالمسدس، وبقى صامتًا لفترة طويلة.

(٧)

وحملت جدتى الفطائر، بينما حملت زوجة وانغ ون إى برميلين من حساء البازلا الخضراء، وسارتا فى اتجاه الجسر الكبير أعلى نهر موا شوي. كانتا ترغبان فى الحقيقة فى اختراق حقول الذرة، والمضى فى اتجاه الجنوب الشرقى، غير أنه بعد نجاحهما فى الدخول إلى حقول الذرة، اكتشفتا أن من الصعب عليهما السير داخل الذرة وهما يحملان ما يحملانه من طعام وشراب. فقالت جدتى مخاطبة رفيقتها: "زوجة أخى، أرى أن نسير فى الطريق المستقيم، ففى التأنى السلامة فى هذا المكان على وجه الخصوص".

مضت جدتى وزوجة وانغ ون إى تتحركان فى هذا الخلاء، كأنهما زوج طيور كبير يحلق فى عنان السماء. كانت جدتى ترتدى سترة قرمزية اللون، بينما بدا شعر رأسها الأسود لامعًا براقًا، وقد وضعت عليه بعض الزيت وأحسنت تمشيطه. وكانت زوجة وانغ ون إى تتسم بأنها قصيرة القامة نشيطة، رشيقة الحركة. وعندما كان القائد يو يقوم بتجميع قواته، كانت قد أرسلت بزوجها وانغ ون إى إلى دار عائلتى، وطلبت من جدتى أن تتوسط له عند القائد يو ليستخدمه كأحد الفدائيين فى عصابته، وقد استجاب جدى لرغبتها من أول مرة. وقبل القائد يو وانغ ون إى حرصًا على حفظ ماء وجه جدتى. كان القائد يو قد سأل الرجل: "هل تهاب الموت؟" فرد وانغ ون إى قائلاً: "نعم أهابه". وقالت زوجته: "أيها القائد يو، حتى إذا كان يهاب الموت فإنه لن يهابه هذه المرة، فلقد قصفت الطائرات اليابانية أبناءنا الثلاثة وتطايرت أشلاؤهم فى شكل قطع صغيرة".

ولم يكن هذا الرجل وانغ ون إى طينة صالحة للعمل كجندى، فقد كان رد فعله بطيئًا جدًا، ولا يميز بين اليمين واليسار، وأثناء التدريب على الخطة فى الساحة، كان لا يقدر المسافة التى بينه وبين نائب القائد. وقد اقترحت عليه زوجته اقتراحًا جميلاً، بأن يمسك فى يده اليمنى عقلة من عود الذرة، وعندما يستمع إلى نداء نائب القائد بالدوران صوب اليمين، عليه فقط أن يدور ناحية اليد التى تمسك بعقلة الذرة. ولم يسمح لوانغ ون إى بحمل السلاح بعد اختياره جنديًا بقوات القائد يو، وكانت جدتى قد أعطته بندقية الصيد التى كانت تمتلكها عائلتى.

سارت جدتى ورفيقتها بمحاذاة نهر موا شوى، ولم تباليا برؤية أزهار الأقحوان الكثيفة والذرة الرفيعة الحمراء الدامية، ثم انعطفتا صوب الشرق. كانت زوجة وانغ ون قد ذاقت خلال حياتها شتى أنواع الصعاب، فى حين عاشت جدتى شتى أنواع السعادة. فبدت جدتى وقد تصببت عرقًا، فى حين لم ينزل من زوجة وانغ ون إى قطرة عرق واحدة.

كان أبى قد عاد منذ وقت طويل إلى أقصى طرف الجسر. وأخبر القائد يو بأن الطعام سوف يصله فى أقرب وقت، فضربه القائد يو ضربة بسيطة على رأسه فرحًا ومزهوًا بأبى الذى أنجز المهمة التى كلفه بها. وكان معظم أعضاء الفرقة آنذاك يرقدون على ظهورهم وسط حقول الذرة شاخصين بأبصارهم إلى السماء. فأحس أبى بالضيق والوحدة، فتوجه إلى داخل حقول الذرة على حافة الناحية الغربية للطريق، ذهب إلى هناك لمراقبة الأخرس. كان الأخرس منشغلاً بشحذ خنجره، وهنا وضع أبى يده على مسدسه، ثم وقف أمام الأخرس تعلو وجهه ابتسامة البطل المنتصر. فعندما رأى الأخرس أبى بهذه النشوة، ابتسم ابتسامة خفيفة. وفى تلك الأثناء كان هنالك أحد أعضاء الفريق يغط فى نوم عميق، وقد سمع أبى صوت شخيره العالى. حتى أولئك الأعضاء الذين لم يروحوا فى النوم، كانوا جميعًا

يضطجعون وسط حقول الذرة، ولم يكن أحد منهم يرغب فى تبادل أطراف الحديث مع أبى. فقفز أبى ثانية إلى الطريق العام، وقد بدا الطريق العام أيضًا فى غاية التعب. لاحظ أن مسحاة الطريق وغيرها من الأدوات قد أصابها الإرهاق الشديد. وبدا الجسر الحجرى مستندًا إلى صفحة المياه وكأنه مريض. ثم ذهب أبى ليستريح على حافة النهر. ومضى ينظر تارة إلى الشرق وتارة إلى الغرب، وهو يتأمل مياه النهر وجماعات البط التى كانت تسبح وسط مياه النهر الجارية. بدا النهر جميلاً، وهو يمتلئ بالحشائش النضرة، وبدت أمواجه وكأنها تخفى الكثير من الأسرار. ورأى أبى بعض قطع من عظام بغال أو خيل تختفى خلف تلك الحشائش الكثيفة. فتذكر على الفور هذين البغلين اللذين كانت تمتلكهما العائلة. فعندما كان يحل الربيع، وتمتلئ الحقول بالأرانب البرية، كانت جدتى تخرج على ظهر البغل ممسكة ببندقية الصيد لتلاحق جماعات الأرانب البرية، وكان أبى يركب على ظهر البغل متشبثًا بخصر أمه. وكان البغل يطارد الأرانب ويفزعها فزعًا شديدًا، وتسارع جدتى بملاحقة تلك الأرانب واصطيادها. وعندما كانا يعودان إلى المنزل، كنت دائمًا ترى رقبة البغل وقد علق بها بعض الأرانب البرية. رأى أبى أسراب النمل على حافة النهر. كانت هناك وفود من النمل الأحمر تقوم بنقل الطمى. كان يأخذ كتلاً من التراب ويضعها وسط جماعة النمل، فيقوم النمل بالتجمع حولها وتسلقها، ثم يحمل التراب ويلقى به فى النهر. وفى وقت الظهيرة، كان أبى يحس بحرارة الجو وانعكاس الشمس على صفحة مياه النهر. ويمضى يستمتع بحمرة الذرة الرفيعة التى تغطى ما بين السماء والأرض، وبالرائحة الذكية لنبيذ الذرة. ويريح جسده على حافة النهر، فيدق قلبه دقات متتالية خلال لحظات قليلة، وقد اكتشف أن هذه الأحداث كانت لها نتائجها، وعندما ستتجلى هذه النتائج ستكون نتائج عادية وطبيعة. اكتشف أبى أن هناك أربعة أشياء غريبة فى شكل الخنفس تسير على الطريق العام فى هدوء تام.

"إنها سيارات!" هكذا صاح أبى بصوت غامض، غير أن أحدًا لم يبال بحديثه.

انتفض أبى، ثم قال: "إنها سيارات الشياطين اليابانيين"، ومضى ينظر إلى تلك السيارات التى تخترق الطريق، معلقًا فى مؤخرتها ذيل أصفر طويل، وفى المقدمة ترسل بعض الضوء المتوهج.

"وصلت السيارات!"، كان وقع صوته يبدو كأنه خنجر حاد قطع جميع أعناق أعضاء الفريق، بينما كان الصمت يخيم على حقول الذرة.

صاح القائد يو مسرورًا: "أيها الرفاق، لقد جاءوا أخيرا. أيها الأخوة، فلتستعدوا جيدًا، وأطلقوا النيران بمجرد أن آمركم بذلك".

قفز الأخرس من الناحية الغربية من الطريق. بينما كان عشرات الرجال من أعضاء العصابة يحنون ظهورهم حاملين أسلحتهم، منبطحين على حافة النهر فى انتظار أوامر القائد يو.

لقد سمعوا بالفعل صوت السيارات القادمة من بعيد. وكان أبى منبطحًا إلى جوار القائد يو، ممسكًا بمسدسه الثقيل، تبللت راحة يديه بالعرق الغزير، وبدت عليه علامات التوتر، ورأى قطعة لحم من كف يده تقفز قفزات غير منتظمة. وتعجب أبى كثيرًا من هذا المنظر الذى كأن أشبه ما يكون بعصفور صغير قد خرج لتوه من البيضة. لم يكن أبى يرغب فى أن تستمر كف يده فى القفز، فضغط عليها ببعض القوة، حتى سيطر على ذراعه كاملاً. وضغط القائد يو على ظهره قليلاً، فتوقفت هذه القفزات فى الحال، فنقل أبى مسدسه من يده اليمنى إلى اليسرى، وبدت أصابع يده اليمنى الخمسة وقد أصابها بعض التشنج، ولم يستطع مدها لفترة غير قصيرة.

تحركت السيارات اليابانية بسرعة ملحوظة راحت تتزايد شيئًا فشيئا، وبدت السيارة التى كانت فى المقدمة ترسل ضوءًا أبيض عبر مصابيحها الأمامية، بينما كانوا يسمعون وقع صوت محركها كصوت الريح العاتية التى تسبق نوبة المطر الغزيرة، ويحمل هذا الصوت شعورًا غريبًا يضغط على الأنفاس. كانت هذه هى المرة الأولى التى يشاهد فيها أبى سيارة فى حياته، مضى يفكر فى أمر هذا الشىء العجيب وهل يتغذى على النبات أم على المواد الأخرى؟ وهل يشرب الماء أم الدم؟ لاحظ أن تلك الكائنات العجيبة تفوق سرعتها سرعة البغلين اللذين كانت تمتلكهما عائلته. أما إطارات السيارات التى تشبه القمر، فقد كانت تدور بسرعة فائقة، يتطاير معها الكثير من كميات التراب بالطريق العام. وشيئًا فشيئًا استطاع أبى رؤية الشىء الذى كان موجودًا داخل السيارات. وعند اقترابها من الجسر الحجرى، أبطأت السيارات سرعتها، وراح بعض الدخان يتطاير من خلف السيارات إلى أمامها، حتى غطى الدخان الكثيف ما يزيد على عشرين شخصًا كانوا يقفون أعلى سطح السيارة الأولى فى زى أصفر، ويرتدون قبعات حديدية سوداء، عرف أبى فيما بعد أن تلك القبعات السوداء يطلق عليها خوذة فولاذية. جدير بالذكر أنه خلال دعوة صهر الحديد فى عام ١٩٥٨[١]، كانت عائلتى قد قدمت جميع الأوانى الحديدية التى تمتلكها، وكان أخى الأكبر قد سرق خوذة

---

(١) دعوة صهر الحديد: وتعود إلى قرار لجنة الحزب الشيوعى الصينى فى نوفمبر عام ١٩٥٧ ودعوة الزعيم الصينى المعروف ماو تسى تونج إلى حملة شعبية شاملة لصهر أكبر كم من الحديد للحصول على كمية كبيرة من إنتاج الحديد سنويًا، وذلك للتحول خلال فترة ١٥ عامًا إلى دولة متقدمة صناعيًا ولديها مخزون من الحديد يعادل بل ويفوق مخزون بريطانيا. وقد استجابت جماهير الشعب الصينى العريضة لهذه الدعوة، وقدمت الأسر الصينية ما لديها من أشياء من الحديد لصهرها لتحقيق الهدف من دعوة الزعيم ماو. حيث وصل إجمالى إنتاج الحديد فى أغسطس ١٩٥٨ إلى ١٠ ملايين و٧٠٠ ألف طن، وهو ضعف ما كان عليه عام ١٩٥٧ قبل هذه الدعوة. وعلى الرغم من النجاح الذى حققته هذه الحملة، فإنه كان لها تأثير سلبي على الزراعة والصناعات الخفيفة وأضعفت القوة الجسدية للأيدى العاملة وغير ذلك من الآثار السلبية. (المترجم).

فولاذية من وسط أكوام الحديد، وعلقها على الفحم المشتعل، واستخدمها في طهى الطعام. ونظر أبى إلى تلك الخوذة التى تغير لونها أعلى النار المشتعلة، وانتابه بعض الحزن. أما السيارتان الثانية والثالثة واللتان كانتا فى المنتصف، فقد كانتا محملتين بتل من الأجولة، فى حين كانت السيارة الأخيرة مثلها مثل الأولى يقف على سطحها ما يزيد على عشرين من الجنود اليابانيين يرتدون الخوذات الفولاذية.

وعندما اقتربت السيارات الأربعة أكثر فأكثر من حافة النهر، ظهرت عجلاتها الكبيرة، وبدا لأبى أن السيارة التى كانت فى المقدمة كما لو كانت جرادًا ضخمًا للغاية. وبدأ التراب الذى كان يغطى المكان يتضاءل شيئًا فشيئا، وظهر عند ذيل السيارة دخان أزرق داكن.

بدأ الخوف يدب فى قلب أبى، راح يضغط على رأسه بقوة، وسرت داخل معدته برودة لم يعهدها من قبل، وبدأت هذه البرودة تتجمع حتى سيطرت على جسمه كاملاً. وأحس بأنه فى حاجة شديدة لقضاء حاجته، بل وجد صعوبة فى التحكم فى بوله الذى كان يتناثر فى كل مكان. وهنا خاطبه القائد يو بصرامة شديدة: "اثبت أيها الأرنب الجبان!"

ولم يكن أمام أبى أى اختيار آخر، فراح يتوسل لأبيه القائد يو أن يسمح له بالنزول لقضاء حاجته.

وبمجرد أن حصل أبى على موافقة القائد يو، تراجع بسرعة ونزل إلى داخل حقول الذرة ليقضى حاجته التى حبسها بشدة. وبعدها أحس براحة كبيرة. واختلس نظرة إلى أعضاء الفريق الآخرين، فوجدهم وقد علا وجوههم شيء من الرعب. كان وانغ ون إى يخرج لسانه من شدة خوفه. ونظره يبدو جامدًا مثل السحلية.

ومضت تلك السيارات الأربعة تسير إلى الأمام مثل وحش حذر كاتمة الأنفاس، وشم أبى تلـــك الرائحـــة العطـــرة التـــى كانـــت تتبعـــث منهـــا. وهنا ظهرت جدتى بسترتها الحمراء وزوجة وانغ ون إى التى كانت تلهث، ظهرتا هناك على حافة نهر موا شوى المتعرج.

ظهرت جدتى وهى تحمل سلة الفطائر المحشوة بالبيض، وزوجة وانغ ون إى وهى تحمل سلة من حساء البازلا الخضراء، تنظران بارتيـــاح إلـــى الجسر الحجرى الكبير الكئيب على نهر موا شوى. قالت جدتى لزوجة وانغ ون إى بلهجة سعيدة: "أخيرًا وصلنا يا زوجة أخى". بعد أن تزوجت جدتى، كانت تحافظ دائمًا على التنعم بحياة رغيدة، وقد أثرت هذه الـــسلة المحملـــة بالفطائر على كتفها، وتركت عليه علامة بنفسجية، لازمتها هذه العلامة حتى فارقت الحياة وصعدت إلى السماء. بل كانت هذه العلامة دليلاً على بطولـــة جدتى فى حرب المقاومة ضد اليابان.

كان أبى هو أيضًا أول من اكتشف ظهور جدتى آنذاك، اعتمد على قوة عجيبة فى لحظة كان يحدق فيها الجميع إلى السيارات اليابانية التى تقتـــرب منهم شيئًا فشيئا، كان أبى فى تلك الأثناء قد استرق النظـــر إلـــى الناحيـــة الغربية، ليرى جدتى تقترب منهم بسرعة فائقة كأنها فراشة حمـــراء كبيـــرة وسط حديقة مليئة بالأزهار، فراح أبى يناديها بصوت مسموع:

"أماه".

بمجرد سماع هذا الصوت، قام الجنود اليابـــانيون بـــإطلاق ســـيل مـــن الرصاص. كان اليابانيون ينصبون ثلاثة رشاشات أعلى سياراتهم، وكان صوت إطلاق النار مدويًا، أشبه ما يكون بنباح الكلاب فى ليلة ممطرة. وانتبه أبى إلـــى ثقبين يظهران فى قميص جدتى. وسمع صوت جدتى وقـــد صـــاحت بـــصوت

مبتهج، ثم مالت ميلاً شديدًا حتى سقطت وأعطت وجهها لسطح الأرض. أما الفطائر التى كانت تحملها، فجزء منها سقط ليستقر عند جنوب حافة النهر، والجزء الآخر عند شمالها. فنظر أبى إلى تلك الفطائر البيضاء الكبيرة المحشوة بالبصل والبيض، وقد تناثرت أجزاؤها على الأعشاب الخضراء. وبعد سقوط جدتى، إذا بأبى يرى جثة زوجة وانغ ون إى والدم يسيل من جبهتها حتى تهاوت تمامًا، وسقطت إلى داخل الذرة على حافة الطريق. رأى أبى هذه المرأة قصيرة القامة، تأثرت بشدة مما أصابها من طلقات نارية، حتى سقطت جثة هامدة. أما برميلا الحساء اللذان كانت تحملهما هذه المرأة قصيرة القامة، فقد سقطا معًا على الأرض، وسال الحساء فى كل مكان وكأنه دم جماعة من الشهداء سقطوا فى توقيت واحد. راح أحد البرميلين يجرى ثم يجرى حتى سقط داخل النهر، واستمر فى جريانه داخل مياه النهر، مرورًا من أمام عينى الأخرس، ليصطدم بركيزة الجسر الحجرى، ثم ليمر من داخل إحدى فتحات الجسر، ثم يمضى فى رحلته ليمر من أمام القائد يو وأبى ووانغ ون إى والأخوين فانغ ليو وفانغ تشى.

راح أبى ينادى أمه بصوت يعتصره الألم، حتى سقط على حافة الحاجز الترابى. وحاول القائد يو أن يسحبه بعيدًا عن هذا المكان، لكنه لم يستطع. وخاطبه القائد يو: "عد يا صغيرى!"، ولكنه لم يسمع أمر القائد، ولم يسمع أى نداء آخر. وهكذا سقط جسم أبى النحيل الضعيف داخل هذا المجرى المائى الضيق، وكان أثناء سقوطه إلى داخل النهر قد ألقى بمسدسه بعيدًا عنه، حتى استقر المسدس أعلى بعض أزهار الأقحوان. وبدأ أبى يقاوم ويسبح بسرعة الطيور فى اتجاه والدته. كان الطريق على جانبى النهر ساكنًا تمامًا، ومياه النهر راكدة تمامًا، وحقول الذرة على الجانبين نائمة فى طمأنينة وهدوء تامين. ومضى أبى يسبح فى مياه النهر، وراح يصيح ثانية بأعلى

صوته: "أماه – أماه – أماه"، امتزج صياحه ببكاء شـــديد تخالطـــه مـــشاعر سامية. وأخيرًا نجح أبى فى العبور من الضفة الشرقية للنهر إلـــى الـــضفة الغربية، وتجاوز تلك الدعامات الحديدية التـــى كانـــت تعتـــرض طريقـــه. وبمحاذاة الحاجز الترابى، سمع أبى وقع أقدام الأخرس وجماعته يمرون على مقربة منه، انقض أبى على جثة أمه، ونادى عليها بصوت يملـــؤه الحـــزن والحنين فى آن. كانت جدتى حينها ترقد مرتاحة على حافـــة النهـــر، وقـــد التصق وجهها الغض بالأعشاب الكثيفة. ولاحظ أبـــى علـــى ظهرهـــا أثـــر طلقتين، وشم رائحة دمائها الذكية تتدفق عبر الفتحتين اللتين أحدثتهما هاتان الطلقتان. مد أبى يديه وسحب جثة أمه، حتى نجح فى قلبها علـــى ظهرهـــا، ورأى أن وجهها لم يصب بأى جرح، بدت ملامحها صارمة تمامًا، وشعرها لا يزال على هيئته مرتبًا لم يطله أى تغيير. حاجباها مالا إلى الأسفل، وبدت شبه مغمضة العينين، شفتاها حمراوان كالورود. أمسك بيدها الرقيقـــة وراح يناديها: "أماه". فتحت جدتى عينيها، وابتسمت له ابتسامة بريئة، وسلمت لـــه يدها الثانية.

وتوقفت سيارات الشياطين اليابانيين، وصوت محركاتها تارة يرتفـــع وتارة ينخفض.

وفجأة ظهرعلى حافة النهر طيف إنسان طويل قوى البنيـــة، ســـحب جدتى وأبى إلى أسفل الحافة، كان هذا الصنيع الجيد صنيع الأخرس. وتوقف أبى عن التفكير تمامًا وسلم نفسه وأمه للأخرس، وهنا سمع صـــوت طلقـــة نارية حطمت الكثير من أعواد الذرة التى كانت تظللهما.

اقتربت السيارات اليابانية أكثر فأكثر، واستقرت أخيرًا خارج حـــدود الجسر الحجرى. وبدأت الرشاشات التى كانت مثبتة أعلى الـــسيارة الأولـــى

والسيارة الأخيرة ترسل نحوهم سيلاً من الطلقات النارية، تارة نحو شرق الطريق، وتارة أخرى فى اتجاه غرب الطريق، خيم السكون تمامًا على حقول الذرة المجاورة. وحطمت الطلقات النارية أوراق وسنابل الذرة التى راحت تتطاير فى كل مكان، وامتلأت سماء المكان بالدخان الكثيف.

أما أعضاء عصابة القائد يو، فقد كانوا ملتصقين بالأعشاب البرية والحاجز الترابى بمحاذاة النهر. واستمر دوى إطلاق اليابانيين النار لمدة ثلاث دقائق، ثم توقف فجأة، وقد امتلأ المكان المحيط بسياراتهم بفوارغ الطلقات النارية التى زلزلت المكان.

قال القائد يو بصوت منخفض: "غير مسموح بإطلاق النار!"

وساد الصمت بين الشياطين اليابانيين. وبدأ الدخان الكثيف يتطاير شرقًا بفعل الرياح الشرقية.

كان أبى قد أخبرنى أنه فى تلك اللحظة التى عم فيها الصمت، كان العم وانغ ون إى قد حاول الوصول إلى ضفة النهر، حتى نجح فى الوقوف أعلاها، وأخذ ببندقية الصيد التى كانت بحوزته، وراح يصيح بصوت يملؤه الحزن والحسرة: "زوجتى، أم أطفالى!" وتسمر فى مكانه بعض الوقت، حتى ناله سيل من الرصاص فى بطنه. وكانت تلك الطلقات النارية الكثيفة التى تطايرت إلى بطن وانغ ون إى على مقربة من القائد يو.

سقط وانغ ون إى إلى داخل النهر، والتقى بزوجته إلى جانب الجسر الحجر. وعندما سقط وانغ ون إى كان قلبه لا يزال يدق، ورأسه لم تصب بأى أذى، وأحس بشعور عميق لم يعهده طيلة حياته.

وكان أبى قد أخبرنى أيضًا أن زوجة العم وانغ ون إى كانت قد ولدت له ثلاثة ذكور. كبر الأبناء الثلاثة، وترعرعوا على طعام الذرة. وذات يـــوم كان وانغ ون إى وزوجته قد خرجا للعمل فى حقول الذرة، وتركوا الأطفال الثلاثة يلعبون فى فناء المنزل، وفجأة حلقت طائرة يابانية أعلى سماء القرية الصغيرة. وألقت الطائرة بقذيفة سقطت داخـــل فنـــاء العـــم وانـــغ ون إى، وحطمت تلك القذيفة الأطفال الثلاثة تحطيمًا لم يبق علـــى أى جـــزء مـــن أشلائهم، وهكذا وبمجرد أن أعلن القائد يو تكوين عصابته لمقاومة المعتـــدى اليابانى، سارعت زوجة وانغ ون إى بإرسال زوجها ليكون عضوًا بين أفراد هذه العصابة الوطنية.

هنا راح القائد يو يعض على أسنانه، ويحدق إلى جثـــة وانـــغ ون إى التى سقطت فى عرض النهر، ثم قال بصوت منخفض: "عليكم بالثبات!"

(٨)

راحت حبات الذرة تتطاير على وجه جدتى، حتى استقرت حبة عنـــد أسنانها البيضاء. ورأى أبى شفتيها وقد تغيرت تمامًا، وأصبحت باهتة بعـــد حمرتها التى كانت تجذب الأنظار، وراح ينادى أمه فـــى حـــسرة شـــديدة. وفى تلك الأثناء فتحت جدتى عينيها، وقالت: "ابنى العزيز، أين أبوك بـــالتبنى.". فرد أبى: "إنه فى أرض المعركة". فقالت جدتى: إنه أبوك.".. فهز أبى رأسه.

حاولت جدتى أن تجلس فى مكانها، وكانت كلما حاولت ذلك زاد تدفق الدم الذى كان يسيل من جرحها الغائر.

فقال أبى: "أماه، سأذهب لأنادى أبى".

لوحت جدتى بذراعها، وفجأة نجحت فى الجلوس بمفردهـا، وقالـت: "صغيرى دوو قوان.. اسند أمك. فلنعد إلى المنزل، لنعد إلى المنزل.".

ركع أبى قليلاً، وحاول أن يأخذ بذراع أمه حول رقبته، حتـى نجـح أخيرًا فى حمل أمه على كتفيه. وبللت دماء جدتى رقبة أبى، كان أبى يـشم من هذه الدماء الذكية رائحة نبيذ الذرة القوية. وكان يتمايل ويجاهد فى حمل أمه إلى داخل حقول الذرة، والطلقات النارية تكاد لا تتوقف عن مطاردتهما. مد أبى يده واقتلع عودًا من الذرة، وراح يتكئ عليه، وقد اختلط عرق أبـى ودموعه بدماء أمه على ظهره، حتى غطى الدم وجهه تمامًا. أحس أبى بأن جسد أمه يتثاقل شيئًا فشيئا، وعيدان الذرة لا تتوقف عن مضايقته واعتراض طريقه، وأوراقها لا تتوقف عن ضرب وجهه، فسقط علـى الأرض داخـل حقول الذرة، والتصق وجه جدتى بوجهه، فألقت إليـه بابتـسامة غامـضة، تركت داخله أثرًا لا ينسى.

رقدت جدتى داخل الذرة، وقد بدأت تتحسن بعض الـشىء. وأحـست فجأة بأن ابنها يفك ملابسه، وهو يمد يده ليغطى الفتحتين اللتـين أحـدثتهما الطلقات النارية فى صدر أمه. وأصبحت يده مخضبة بدمائها، واختلط هـذا الدم بصدرها. كانت الطلقات النارية قد تجاوزت صدرها العـالى، لتـصيب المنطقة المحيطة به، وتركت هذه الفتحة الغائرة. ونظر أبى إلـى صـدرها، وهو فى غاية الحزن على ما أصابها. لم يستطع أن يسد تلك الفتحة جيـدًا، فاستمرت الدماء تسيل بغزارة منها، حتى بدت جدتى أكثر شـحوبًا، وبـدأت تضعف شيئًا فشيئا، وكأنها تنتظر أن تفارق هذا العالم بين اللحظة واللحظة.

راحت جدتى تنتظر بسعادة إلى أبى الذى كان ثمرة لقائها بالقائـد يـو داخل حقول الذرة، وهكذا بدأت تسترجع صفحة ذكرياتها فى هذا المكان.

تذكرت ذلك العام، عندما كانت تعبر النهر فى ذلك اليوم شديد المطر، وعندما دخلت إلى قرية عائلة دان يان شيو، وكانت الشوارع تمتلـئ بمياه الأمطار الغزيرة، وتمتلئ صفحة مياه النهر بسنابل الذرة. وعندما وصل الهودج إلى مدخل منزل عائلة دان، كان قد خرجت لاستقباله عجوز بمفردها. وبعد توقف المطر الغزير، كانت لا تزال هناك بعض قطرات المياه تتساقط متفرقة على سطح الأرض. وعلى الرغم من عدم توقف جماعة الزمارين والطبالين عن الضرب على آلاتهم، فإن أحدًا من أهل القرية لم يسارع ليشاهد هذا الجمع والطبل والزمر، عرفت جدتى على الفور أن هذا إنما يدعو إلى عدم التفاؤل بهذا الزواج. وساعد جدتى على تقديم التحية للسماء والأرض(١) اثنان من الرجال، أحدهما يزيد عمره عن الخمسين، والآخر فوق الأربعين. كان الرجل الذى تجاوز الخمسين هو الجد ليو لوو خان، أما ذلك الذى تجاوز الأربعين فهو أحد العمال فى فرن صناعة النبيذ.

وقف الحمالون والطبالون والزمارون وسط الفناء الذى أغرقته مياه الأمطار الغزيرة، وراحوا ينظرون إلى الرجلين اللذين حملا جدتى إلى داخل غرفتها المظلمة. شمت جدتى رائحة نبيذ الذرة القوية التى كانت تفوح من جسدى هذين الرجلين، وكأنهما كانا قد انغمسا فى النبيذ لفترة طويلة.

وعندما دخلت جدتى العروس إلى غرفتها، قامت بتقديم التحية للغرفة وهى لا تزال تغطى رأسها بذلك الوشاح الأحمر. وتحت ضوء الشموع، أحست جدتى بأن يدًا تسحبها إلى مكان داخل الغرفة. وكانت هذه المسافة

---

(١) تقديم التحية للسماء والأرض: حيث يقوم العروسان وفق تقاليد الزواج فى الصين بتقديم ثلاث تحيات يوم الزفاف. التحية الأولى السجود للسماء والأرض، اعترافًا بشمولهما بالرعاية حتى كبرا ووصلا إلى سن الزواج. والتحية الثانية للشيوخ الكبار، اعترافًا بفضلهم. والتحية الثالثة للوالدين شكرًا لهم وتعبيرًا عن البر بهما. (المترجم).

القصيرة التى سارت خلالها جدتى مع هذه اليد، مسافة ألقت على قلبها برعب شديد. فقد سحبتها تلك اليد لتستريح عند مصطبة التدفئة. ولكن لم يبادر أحد بنزع ذلك الوشاح الأحمر من فوق رأسها، فقامت بنزعه بنفسها. رأت على الفور رجلاً يبدو أنه مصاب بتشنج عصبى يجلس إلى أسفل المصطبة. ورأت رأس الرجل الطويل، ولاحظت احمرار عينيه. ووقف الرجل ومد يده إليها، فصرخت جدتى وأخرجت على الفور ذلك المقص الذى كانت تخبئه داخل ملابسها، ووقفت إلى جانب المصطبة، تنظر إلى ذلك الرجل بغضب شديد. فتراجع الرجل ثانية وجلس على المصطبة. ولم يفارق المقص يدها طوال تلك الليلة الصعبة، ولم يفارق ذلك الرجل مكانه الذى كان قد استقر فيه أعلى المصطبة.

فى صباح اليوم التالى، استغلت جدتى نوم زوجها الأبرص وتسللت من جانب المصطبة لتهرب من تلك الغرفة الكئيبة، وعندما أوشكت على فتح باب المنزل لتلوذ بالفرار، اعترضتها يد ما. كانت تلك العجوز النحيفة صاحبة الضفيرة على شكل حبات الفاصوليا، أمسكت العجوز بيدها وراحت ترميها بنظرات حادة.

وسعل العجوز دان يان شيو، وأخفى غضبه ونظر إلى جدتى بابتسامة خفيفة قائلاً: "ابنتى الغالية، لقد أصبحت بعد زواجك مثل ابنتى من لحمى ودمى، ولتعلمى أن ابنى بيان لانغ ليس مصابًا بذلك المرض، فلا تستمعى لما يهذى به الآخرون. أسرتنا تستند إلى تجارة كبيرة، ويتميز ابنى بيان بحسن سلوكه، ولتكونى مسئولة عن هذا البيت منذ اليوم". ومد الرجل إليها سلسلة من المفاتيح النحاسية، ولكن جدتى أبت أن تأخذها من يده.

فى الليلة الثانية داخل منزلها الجديد، سهرت جدتى حتى بزوغ الفجر وهى تمسك بالمقص.

وفى صباح اليوم الثالث، جاء والدها وهو يجر حمارًا صغيرًا، لكى يحمل العروس لتعود لزيارة بيت والدها وفقًا لتقاليد الزواج آنذاك، كان والد العروس يأتى ليصطحب ابنته فى اليوم الثالث من الزواج، لكى تعود إلى بيته للزيارة. وجلس والدها يشرب النبيذ بصحبة العجوز الثرى دان يان شيو حتى وقت الظهيرة، ثم عزم والدها على اصطحابها إلى المنزل.

وركبت جدتى على ظهر الحمار الذى كان والدها قد وضع أعلى ظهره لحافًا خفيفًا، وسارت على ظهر الحمار حتى خرجت من حدود القرية. وعلى الرغم من مرور ثلاثة أيام على سقوط الأمطار الغزيرة، فإن الطريق كان لا يزال مبللاً بالمياه، والبخار يتصاعد من داخل حقول الذرة، حتى غطى الدخان حقول الذرة الخضراء. خرج والدها وجيوبه مثقلة بالنقود الفضية، وكان الرجل قد شرب حتى الثمالة، وبدت عيناه غائمتين. ومضى الحمار يسير ببطء ورقبته مرفوعة إلى أعلى، وقد تركت حوافره أثرها على سطح الأرض المبللة بمياه الأمطار. كانت جدتى تركب على ظهره، وقد بدا عليها الإرهاق الشديد، حيث تورم جفناها وتبعثرت ضفيرتها. ولاحت نباتات الذرة التى ارتفعت مقدار عقلة خلال ثلاثة الأيام الماضية تنظر إلى جدتى نظرات تملؤها السخرية.

قالت جدتى: "أبتاه، لن أعود إلى منزله ثانية، نعم، أفضل الموت على أن أعود إليه ثانية".

رد الأب: "ابنتى الحبيبة، ما أسعد حظك، انظرى إن حماك سيهدى لنا هذا الحمار، سأبيعه وأحصل على ثمنه".

ومد الحمار رأسه فى اتجاه مستقيم ليقضم بعض الحشائش من على جانب الطريق.

وتابعت جدتى: "أبتاه، إنه مصاب بالبرص".

فرد الأب: "إن حماك سيهدى لنا بغلاً".

كان أبوها قد شرب حتى لم يعد لديه عقل يفكر، وكان لا يتوقف عن البصق بالقاذورات هنا وهناك. حتى شعرت جدتى بالامتعاض الشديد. وصدرها يغلى حقدًا على هذا الأب الجشع المجرد من المشاعر الإنسانية.

وسار الحمار حتى وصل إلى نفق الضفادع، الرائحة الكريهة التى كانت تملأ هذا المكان جعلته يخفض أذنيه اللتين كانتا مرفوعتين طوال الطريق. ورأت جدتى جثة ذلك الرجل قاطع الطريق الذى كان قد اعترض الهودج فى طريقها إلى منزل دان يان شيو. رأته وقد انتفخت بطنه، وتجمعت على جثته كميات كبيرة من الذباب الأخضر. وسار الحمار بجدتى من أمام هذه الجثة المتعفنة، ورأت الذباب يحلق بكثرة حول هذه الجثة الكريهة. ومضى أبوها يسير وراء الحمار، وقد بدا جسده عريضًا أكثر مما كان عليه من قبل، ولاحظت أنه كان يسير وهو يتخبط فى سيقان الذرة والحشائش على جانبى الطريق. توقف أمام الجثة وراح يلعن صاحبها قائلاً: "أيها الشيطان الوضيع، يا لك من شيطان فقير.. هل غلبك النوم فى هذا المكان"؟ لم تستطع جدتى أن تنسى ملامح هذا الرجل قاطع الطريق، بدت ملامحه الصفراء الآن على العكس تمامًا من ملامح أى قاطع طريق آخر لا يزال على قيد الحياة. وتقدمت جدتى وهى تقطع المسافة على ظهر الحمار، حتى طلع النهار، وتقدم الحمار فى السير حتى لم يستطع أبوها العجوز ملاحقته، ومضى الحمار مسرعًا يحمل جدتى عائدة إلى منزل أبيها، كان الحمار يعرف هذا الطريق جيدًا. ومع انحدار الطريق قليلاً، سار الحمار مع هذا الانحدار، بينما كانت جدتى تهتز على ظهره، وهناك امتد إليها ساعد قوى مفتول فى صمت وسحبها من على ظهر الحمار الصغير إلى داخل حقول الذرة.

لم تكن لديها القوة لتعترض هذا الساعد القوى، بل لم تكن ترغب في ذلك. كانت حياتها الجديدة خلال ثلاثة الأيام الأخيرة مثل حلم كبير تحطم، فهناك من يكتب له أن يصبح زعيمًا عظيمًا خلال دقيقة واحدة، إلا أن جدتي أدركت خلال ثلاثة أيام حقيقة الحياة الإنسانية. حتى أنها مدت ذراعيها وتشبثت بذلك الرجل صاحب الساعد القوى المفتول، لعله يسرع فى خطوته. كان الرجل يضرب أثناء سيره ما يعترضه من أوراق الذرة التى كانت لا تتوقف عن إحداث أصوات مسموعة، ووسط هذا كله سمعت أباها ينادى بصوت مبحوح: أين أنتِ يا ابنتى الحبيبة؟"

فجأة سمعت صوت بوق حزين وطلقًا ناريًا غير واضح بالقرب من الجسر الحجرى. كان دم جدتى لا يتوقف عن التدفق، فراح أبى يحذرها: "أماه، إن دمك لا يتوقف عن التدفق بغزارة، وأخشى أن يسيل كاملاً وتتعرضى للوفاة". ومد يده إلى أسفل عيدان الذرة، وأخذ ببعض الطين وحاول أن يسد فوهة الجرح، ولم يتوقف الدم، فراح يأتى بكمية أكبر من الطمى. نظرت إليه جدتى نظرة يملؤها الرضا، ثم راحت تحدق فى السماء الزرقاء، وفى نباتات الذرة التى بدت لها وكأنها أم لطيفة وحنون. ومر بذهنها طيف طريق صغير تحيط به الأزهار البيضاء الصغيرة، كانت جدتى قد سلكته فى صباها على ظهر حمار صغير. وكانت أثناء سيرها فى ذلك الطريق تستمع إلى صوت رجل قوى البنية، يغنى بصوت يخترق هالة صمت تخيم على حقول الذرة المجاورة. سارت تتبع هذا الصوت متغلغلة وسط حقول الذرة.

تملك ذلك الرجل من جدتى وأسقطها على الأرض، وجدها شابة ذات جسم أبيض طرى كعجين الذرة، تنظر إليه بنظرات مثل الحمل الوديع. قام الرجل بنزع الوشاح الأسود الذى كان يغطى عينيها وكشف لها الحقيقة التى

كانت تنتظرها. إنه هو! وراحت عيناها تذرفان دموع الفرحة التي غابت عنها خلال الأيام الثلاثة الماضية.

نزع يو جان آو لباس القش الذى كان يرتديه، وانقض كالوحش يكسر بقدميه عيدان الذرة، ثم فرش لباسه وسط حقل الذرة. وحمل جدتى بين يديه ليلقى بها على هذه المصطبة التى صنعها بيديه. بينما هى فى ذهول تام مما يحدث أمامها، وراحت تسترق النظر إلى صدره العارى، فأحست وكأنها رأت دماءه تغلى بشدة أسفل هذا الجلد الذى تراه بأم عينيها. ثم انفجرت أحاسيسها وشهوتها التى كانت تكتمها منذ زمن طويل.

وهكذا التقت جدتى وجدى وتحابا وسط حقول الذرة، وعاشا نشوة لم يذقها كلاهما من قبل. استطاعا فى هذا المكان أن يبدآ لحظات فارقة فى تاريخ قرية دونغ بيى بمدينة قاو مى. ويمكن القول بأن أبى كان ثمرة لهذا اللقاء الذى اختلطت فيه مشاعر الحزن بلذة النشوة، وارتفع صوت نهيق الحمار الصغير، وراح يتغلغل وسط حقول الذرة، وهنا عادت جدتى من عالم الأحلام الذى عاشت فيه أجمل لحظات حياتها إلى هذا العالم الوحشى. ونهضت لتجلس وسط الذرة قلقة، وراحت عيناها تذرفان الدموع. وقالت: "إنه حقًا أبرص". كان جدى لا يزال راكعًا، وفجأة اكتشف أن بحوزته سيفًا صغيرًا. وما إن لوح بيديه، حتى أطاح السيف بعودين من عيدان الذرة القريبة منه، قال: "عليك أن تفكرى فقط فى العودة إلى هنا بعد ثلاثة أيام!" فنظرت إليه جدتى وهى فى غاية الحيرة. فنهض جدى وارتدى ملابسه. وقامت هى بترتيب ملابسها وشعرها. ولم تعرف أين أخفى سيفه الصغير بتلك السرعة. قام وودعها حتى حافة الطريق، ثم اختفى من أمامها تمامًا.

وبعد مضى ثلاثة أيام، عادت جدتى على ظهر حمارها الصغير. وما إن دخلت حدود القرية حتى سمعت بأن هناك من يردد أن الثرى

دان يان شيو وابنه الأبرص قد قتلا، ألقيت جثتهما وسط الترعة التى تقع فى الناحية الغربية من القرية.

اضطجعت جدتى قليلاً، وغرقت فى دفء الذرة واللحظات الجميلة التى عاشتها بين أحضانها، وأحست بأنها أصبحت أكثر رشاقة مثل طائر سنونو يحلق أعلى سنابل الذرة. وبدأت حركة تلك الصور الخاطفة تصبح أكثر بطئًا، وراح يظهر أمامها ويتلاشى الحقد والامتنان والقسوة والإخلاص صور دان بيان لانغ ودان يان شيو ووالدها ووالدتها والجد لوو خان و... كتبت جدتى آخر كلمة فى تاريخ حياتها التى امتدت ثلاثين عامًا. مر الماضى بسرعة خاطفة وكأنها ثمرة ذات رائحة عطرية فواحة أصابها سهم قاطع فأسقطها على الأرض، أما المستقبل، فإنها كانت ترى بغموض بعض الدوائر الضيقة التى توشك على الاختفاء. يبقى لديها فقط هذا الحاضر الذى تجاهد لأجل الحفاظ عليه. وأحست جدتى بيدى أبى الصغيرتين تمسحان على جبينها، وهو يناديها بصوت يملؤه الخوف، هذا الصوت الذى جعل وعيها الذى اختلطت فيه مشاعر الحب والكراهية والفضل والحقد يستعيد الأمل فى الحياة مرة أخرى. جاهدت لترفع ذراعها لأعلى لتمسح على وجه صغيرها، لكنها لم تستطع أن تفعل ذلك. وعندما كانت تحاول النهوض، رأت ضوءًا شديدًا يأتى من السماء، وسمعت صوت موسيقى ولحنًا جميلاً تعزفه آلات البوق الصغير والبوق الكبير.

شعرت جدتى بالتعب الشديد، وأحست أن الأمل فى الحاضر قد بدأ يتضاءل. هل هو الموت؟ هل سأموت؟ هل سأفتقد النظر إلى هذه السماء وهذه الأرض وإلى الذرة وإلى ابنى وإلى حبيبى الذى يقود الآن جيشه لملاقاة المعتدين؟ كانت تسمع دوى طلقات نارية على مسافة بعيدة عنها، وبدت السماء أمامها مليئة بالدخان والضباب الكثيف. فنادت على صغيرها:

دوو قوان، دوو قوان، ابنى الحبيب، تعال وساعدنى لأنهض، ساعدنى لأستند عليك، فأمك لا تتمنى الموت، يا إلهى! يا آلهة السماء.. أنعمى على وعلى حبيبى وطفلى وثروتى وعلى حياتى هذه الحياة القوية مثل الذرة. أيتها الآلهة، لا تسلبينى شيئًا منحتنى إياه، فلتصفحى عنى، فلتمنحينى الحياة! أيتها الآلهة هل تعتقدين أننى مذنبة؟ ما رأيك فى أننى رفضت أن أكون زوجة لذلك الأبرص، رفضت أن أهبه نفسى وأنجب منه شيطانًا مريضًا يفسد هذا العالم الجميل؟ أيتها الآلهة، ما العفة؟ وما الاستقامة؟ ما الخير؟ ما الشر؟ لم تخبرينى عن هذا كله من قبل؛ لذا فإننى تصرفت وفق فكرتى ورؤيتى فى هذه الحياة، إننى أعشق السعادة، أعشق القوة، أعشق الجمال، إننى حرة فى جسدى، أهبه لمن أشاء، لا أخشى الجريمة، لا أخشى العقاب، لا أخشى الجحيم، فعلت جميع ما يجب على فعله. لكننى لا أرغب فى الموت، أريد الحياة، أتمنى أن أنعم بالنظر إلى هذا العالم، يا إلهى.

تأثرت السماء بإخلاص جدتى وصدقها، غرقت جدتى فى دموعها، واستمر نزيف جرحها الغائر، وانعكست أشعة الشمس على عينيها، وراحت تنظر فى عينى طفلها شديد الشبه بأبيه. وبدأت شفتاها تتحركان بصعوبة وهى تنادى على صغيرها، فراح أبى يصيح بصوت مرتفع: "أماه، هل أنت بخير! لن تموتى، لقد أحكمت السيطرة على مصدر النزيف، توقف النزيف بالفعل! سأذهب لأنادى أبى، أناديه ليأتى لرؤيتك. أماه، لا تموتى الآن، لابد أن تنتظرى قدوم أبى!"

غادر أبى المكان مسرعًا. وبدا وقع خطواته مثل همسات خفيفة، مثل تلك الموسيقى التى كانت تأتى من كبد السماء منذ قليل. وسمعت جدتى صوت هذا الكون المحيط بها، إنه صوت نباتات الذرة. راحت تحدق النظر إليها، بدت هذه الذرة أمام عينيها شبه النائمة وكأنها شبح غامض. أحست بأن الذرة تتأوه وتتمايل وتصيح وتلتف حول نفسها، كانت تبدو لها تارة مثل

عفريت مخيف، وتارة أخرى مثل حبيب قريب إلى قلبها، بدت لها حقول الذرة مثل أفعى، وهكذا حتى عجزت جدتى عن وصف حقول الذرة. رأت عيدان الذرة حمراء وخضراء وسوداء وزرقاء، رأتها تضحك بصوت مرتفع، ورأتها تبكى بصوت أعلى، ورأت دموعها وكأنها أمطار غزيرة تسيل على شاطئ قريب منها. كانت ترى عبر عيدان الذرة تلك السماء مرتفعة عنها وقريبة منها. أحست أن هذه السماء قد التحمت مع الأرض مع الإنسان مع الذرة، أحست بأن غطاء واحدًا يلفها معًا. ومرت على وجه جدتى سحابة بيضاء، وراحت السحابة البيضاء تتجول فوق حقول الذرة حرة طليقة. هبط إلى أعواد الذرة سرب من الحمام الأبيض. وأيقظ صوت هديل الحمام جدتى، راحت تنظر إلى سرب الحمام وقد بدا جليًا أمام عينيها. كما راح الحمام ينظر إليها عن قرب بعيونه الصغيرة فى حجم حبة الذرة. ابتسمت جدتى للحمام ابتسامة يعلوها الصدق، كما بادلها الحمام ابتسامة رقيقة، كانت أقل ما يمكن أن يقدم لسيدة مثلها تقديرًا لعشقها للحياة والإنسانية وهى على فراش الموت. راحت جدتى تصيح بأعلى صوتها: أحبائى، إنه ليعز على فراقكم! ومضى الحمام ينقر بعض حبات الذرة، فى محاولة منه للرد على ندائها الصامت. وكان الحمام يحوم حولها تارة ينقر بمنقاره بعض حبات الذرة، وتارة يبتلع حبات أخرى، انتفخت بطونه بينما كان يبسط أجنحته الجميلة. وبدا ريش الحمام الجميل كأنه نتف صغيرة تهزها الرياح. كانت عائلتى قد ربت من قبل مجموعة كبيرة من طيور الحمام. وكانت جدتى تقوم فى فصل الخريف بوضع حوض كبير ممتلئ بالمياه الصافية داخل فناء المنزل، وبمجرد أن يعود الحمام من رحلته اليومية للبحث تراه يجلس بانتظام داخل الحوض الكبير، ثم ينظر إلى صورته على صفحة الماء الصافى وهو يقضم ما فى حلقه من حبات الذرة. كنت ترى الحمام وقد خرج فى جماعات تسير وسط الفناء الكبير. ونظرت جدتى أمامها لترى هذا السرب الكبير من الحمام

الذى استقر فوق أعواد الذرة بعد أن جاء فرارًا من اضطرابات الحرب التى أصبحت تطارده فى كل مكان، وكأن هذا السرب الكبير إنما جاء ليقدم التعازى فى وفاة جدتى.

وأصيبت عينا جدتى بشىء من الغموض مرة أخرى، لترى جماعات الحمام تطير بعيدة عنها، وهى تعزف لحنًا معروفًا لها، ثم ارتفع الحمام بعيدًا فى عنان السماء.

وأوشك أن ينقطع آخر حبل يربط بينها وبين هذه الحياة، وسقطت جميع شكوكها وأحزانها وتوترها وكآبتها داخل حقول الذرة الممتدة على جانبى الطريق، تجمع كل ذلك على أعواد الذرة. وراحت تغرس جذورها داخل هذه الأرض السوداء، ليجنى ثمارها أبناؤها جيلاً بعد جيل. وهكذا طارت جدتى مع جماعات الحمام، طارت لتكتب نهاية حياتها وتحررها، طارت وقد أحست الآن بمشاعر الفرح والسكون والدفء والراحة والانسجام. وبدت جدتى راضية بهذه النهاية، فراحت تنادى بصدق وإخلاص:

"يا إلهى، يا إلهى".

(٩)

استمرت الرشاشات المثبتة على سطح السيارات اليابانية فى إطلاق الرصاص بكثافة، واستمرت محركات هذه السيارات فى الدوران بسرعة بينما هى تستمر فى صعود الجسر الحجرى. حاصرت الطلقات النارية جدى وفريقه حصارًا شديدًا. لقى بعض أعضاء الفريق الذين أطلوا برءوسهم بدون حذر إلى حافة الطريق حتفهم بعد أن أصابتهم الطلقات النارية التى ترمى بها هذه الرشاشات فى كل مكان. كاد جدى ينفجر غضبًا من هول هذه الفاجعة.

وبعد أن صعدت السيارات اليابانية إلى أعلى الجسر الحجرى، أصبحت الطلقات النارية تطير على ارتفاع ملحوظ. قال جدى: "أيها الرفاق، فلنبدأ الهجوم الآن!"، وبادر هو وأطلق ثلاث طلقات، فأصابت طلقاته اثنين من جنود الشياطين اليابانيين، ولطخت دماؤهم السيارة التى كانت تسير فى المقدمة. ومع هذه المبادرة التى بدأها جدى، انتشر صوت إطلاق النار على الجانبين الشرقى والغربى من الطريق، ليسقط حوالى سبعة أو ثمانية من جنود الشياطين. كما سقطت أقدام وأذرع اثنين آخرين من جنود الشياطين إلى داخل المياه على جانبى الجسر الحجرى. ورفع الأخوة من عائلة فانغ العصيان وهم يصيحون بصوت مرتفع، ألقوا بالمشاعل الملتهبة، ليفزعوا العدو المرابط أمامهم، ألقوا بالكرات الحديدية المشتعلة على الأجولة البيضاء التى كانت تحملها السيارة الثانية. وبمجرد أن ارتفعت ألسنة اللهب، راحت تسيل كميات كبيرة من الذرة البيضاء. وجاء أبى زاحفاً من داخل حقول الذرة حتى وصل إلى حافة النهر، وراح يتحدث بتوتر شديد مع جدى، فنظر جدى فى عجالة إلى سلاحه وما به من طلقات نارية. وأسرعت السيارة الأولى من السيارات اليابانية الأربعة بالصعود إلى سطح الجسر الحجرى، غير أن عجلاتها الأمامية اشتبكت بطاقم التروس، فتعطلت العجلات الأمامية. اشتد الصوت المنبعث من السيارة، وامتدت سلسلة من الأمشاط الحديدية تقبض على السيارة، وأحس أبى أن السيارة تبدو مثل أفعى كبيرة ابتعلت قنفذاً، وأنها الآن تتلوى من هول ما أصابها. وهنا بدأ جنود الشياطين يقفزون من أعلى السيارة التى كانت تسير فى المقدمة. وقال جدى مخاطبًا رجاله: "يا لاو ليو، بلغ الإشارة!" فنفخ لاو ليو فى البوق الكبير ليصدر منه صوت حزين ومفزع. وصاح جدى: "اهجموا!"وقفز حاملاً سلاحه، ولم يكن قد حدد هدفه بعد، بينما كان عدد من الجنود اليابانيين ينحنون أمام فوهة سلاحه. كما سارع رجاله الذين كانوا يرابطون فى الناحية الغربية بالهجوم على السيارات

اليابانية، واشتبكوا معهم فى الحال، بينما راح الجنود اليابانيون الذين كـــانوا يراقبون المكان من على السيارات الخلفية يطلقون الرصاص فى الهواء. كان هناك اثنان من الجنود اليابانيين لا يزالون على سطح السيارة التى كانت فى المقدمة، وهنا رأى جدى الأخرس، وقد انقض على هــذه الــسيارة، فقابلـــه الجنديان بالخناجر، رفع الأخرس خنجره، واشتبك معهم فى معركة حاميـــة، حتى أسقطهم بضربة قوية. وراح أبى يفكر فى قوة الأخرس وحدة خنجـــره. ورأى أيضًا التعبيرات التى كانت تعلو وجه الجنديين اللذين قـــضى عليهمـــا الأخرس، رأى خدودهم التى كانت لا تزال ترتعش، وأنوفهم المفتوحة والدم الذى كان لا يتوقف عن التدفق من جراحهم الغائرة. وفى ذلك الوقت، جاءت جماعة الجنود اليابانيين الذين كانوا يستقلون السيارات الخلفية، وبدءوا فـــى إطلاق سيل من الطلقات النارية، فسارع رجال جدى، وألقوا بأنفسهم فـــوق جثث القتلى اليابانيين، بينما سارع الأخرس، واحتمى بسطح السيارة والدماء لا تزال تسيل من صدره.

ألقى أبى وجدى بنفسيهما على الأرض، وراحا يزحفان متوجهين إلى داخل حقول الذرة، محاولين أن يرفعا رءوسها ببطء لمراقبة ما يحدث علـــى حافة النهر. وهنا بدأت تتراجع آخر السيارات اليابانية، فسارع جدى بإصدار أوامره إلى رجاله قائلاً: "فانغ ليو، أطلقوا المدافع! اضربوا هؤلاء الكـــلاب!" فألقى الأخ فانغ ليو بالقذيفة صوب حافة النهر، بينما كان أخوه فـــانغ تـــشى يمضى إلى إشعال النار فى فتيل جديد، وقد أصيب بطلقة فى بطنه خرجـــت معها معدته. راح فانغ تشى يتأوه وينادى على أمه، ثم سارع بالزحف إلـــى داخل الذرة. وعندما لاحظ جدى أن السيارة اليابانية أوشكت علـــى تخطـــى الجسر الحجرى، راح يصيح وقد بدا عليه التوتر: "أطلقوا النيران!" فأخذ فانغ ليو الفتيل، ولكنه واجه صعوبة كبيرة فى إشعاله. فانقض عليه جدى مسرعًا،

وانتزع منه الفتيل، راح ينفخ فيه بفمه حتى نجح أخيرًا فى إشعاله. غير أن السيارة اليابانية كانت قد نجحت فى الهروب من أعلى الجسر الحجرى، بل لحقت بها السيارة الثانية والثالثة. تبعثرت كميات كبيرة من الأرز الذى كانت تحمله تلك السيارات، وسقط الأرز داخل المياه أسفل الجسر الحجرى. وظهرت بعض جثث الجنود اليابانيين تطفو وتسبح صوب الشرق والدم يسيل من أجزاء متفرقة منها. وأخيرا تمكن رجال جدى من إشعال النيران فى تلك السيارة اليابانية.

توقفت السيارات التى نجحت فى الهروب، وبدأ الجنود اليابانيون يقفزون من أعلاها، وسارعوا وانبطحوا على حافة النهر المقابلة، وأحكموا وضع مدافعهم، وراحوا يقصفون الجزء المقابل لهم. وأصيب فانغ ليو بطلقة فى وجهه، وتحطم أنفه تمامًا، حتى أن دماءه تطايرت لتصل إلى وجه أبى الذى كان على مسافة قريبة منه.

أما الجنديان اللذان كانا لا يزالان على سطح السيارة المشتعلة، فقد دفعا باب السيارة وقفزا إلى خارجها، ثم ألقيا بنفسيهما داخل النهر. والسيارة التى كانت تحمل الأرز، وجدت نفسها محتجزة فى منتصف الطريق، وراحت كميات الأرز التى كانت على سطحها تتساقط بكميات كبيرة مثل مياه الأمطار الغزيرة.

فجأة توقفت مدافع الشياطين اليابانيين على حافة النهر المقابلة، وبقى فقط عدد من الرشاشات التى كانت تطلق بعض الطلقات هنا وهناك. وانقض ما يزيد على عشرة من الجنود اليابانيين حاملين أسلحتهم صوب الشمال. فصاح جدى أن أطلقوا النيران، غير أن عدد الجنود الذين لبوا نداءه كانوا قليلين جدًا. والتفت أبى لينظر إلى جثث أعضاء فريق جدى الملقاة أسفل وأعلى حافة النهر، سمع تأوهات المصابين منهم، الذين نجحوا فى الزحف إلى داخل حقول

الذرة المجاورة. فراح جدى يطلق طلقات متتالية حتى نجح فى إرغام بعض الشياطين على مغادرة الجسر الحجرى. سمع دوى طلقات نارية على الناحية الغربية من الطريق، نجحت فى إسقاط بعض الشياطين. حتى اضطروا إلى التراجع، وفجأة تطايرت قذيفة صوب حافة النهر الجنوبية لتصيب ذراع جدى اليمنى، وتأثر ذراعه بهذه الطلقة حتى سقط منه سلاحه. فسارع جدى بالتراجع إلى داخل الذرة، وراح ينادى على أبى: "دوو قوان، هلم لمساعدتى". وشق جدى كمه، وطلب من أبى أن يساعده فى ربط الجرح مستخدمًا قطعة القماش البيضاء التى كان يلفها حول خصره. واستغل أبى هذه الفرصة، وقال: "أبى، إن أمى تشتاق إليك". فرد جدى: "ابنى العزيز! فلتقف الآن إلى جوار أبيك للقضاء على هؤلاء الكلاب!". ومد يده إلى خصره، وأخرج المسدس الذى كان قد ألقى به أبى وسلمه له من جديد. وجاء العم ليو دا خاو من جانب النهر وقدمه مخضبة بالدماء، وسأل جدى: أيها القائد، هل أسرع بتبليغ الإشارة لرجالنا؟"

فرد جدى "نعم يا رفيقى!"

فوقف ليو دا خاو ورفع البوق وراح ينفخ فيه ليخرج منه صوتًا مليئًا بالحماس الشديد.

وراح جدى يصيح بصوت مرتفع: "اهجموا أيها الرفاق!"

سمع بعض الأصوات التى كانت تردد كلامه من داخل حقول الذرة على الناحية الغربية من الطريق. وأخذ جدى السلاح بيده اليسرى، وعندما هم أن يقفز إلى خارج الذرة، إذا ببعض الطلقات النارية المتواصلة تتطاير من جانب خده، فألقى بنفسه على الأرض، ثم زحف مسرعًا إلى حيث كان. وسمع صوت إنسان يتأوه بشدة على حافة النهر عند الناحية الغربية من

الطريق. فعرف أبى على الفور أن جنديًا آخر من رجالهم قد أصيب بطلق نارى.

مضى العم ليو دا خاو ينفخ فى البوق، اختلط صوت حماسه مع صوت احتكاك أوراق وأعواد الذرة بعضها ببعض.

فأمسك جدى بيد أبى قائلاً: "ابنى الحبيب، اتبعنى إلى الناحية الغربية من الطريق لنلتحم مع بقية الرفاق".

وابتعدت السيارات التى كانت على سطح الجسر الحجرى، بينما بدت حبات الأرز وكأنها حبات جليدية صغيرة تتحرك أعلى صفحة مياه النهر. وسحب جدى ابنه وعبر بسرعة إلى الطريق العام، بينما كانت الطلقات النارية لا تتوقف عن مطاردتهم وقد زلزلت المكان. وصادفوا فى طريقهم اثنين من رجالهم امتلأت وجوههم بحبات الأرز المحترقة وجلودهم مليئة بالتشققات، فراحا يشكوان حالهما لجدى قائلين: "أيها القائد، لقد انتهينا!"

جلس جدى داخل حقل الذرة مهمومًا، ولم يرفع رأسه عن الأرض لمدة طويلة، بينما توقفت قذائف الشياطين على ضفة النهر المقابلة. وسمع صوت انفجار السيارة التى كانت على سطح الجسر، وسمع صوت البوق الذى كان ينفخ فيه العم ليو دا خاو على الناحية الشرقية للطريق.

لم يعد أبى يشعر بالخوف، فسار بمحاذاة حافة النهر وتسلل قليلاً ناحية الغرب، ومد رأسه من خلف بعض الأعشاب الذابلة. ورأى أبى أحد الجنود الشياطين يقفز من أعلى مظلة تلك السيارة التى لم تنفجر بعد. ثم قام ذلك الجندى بمساعدة جندى آخر كبير فى السن، ساعده على الخروج من داخل السيارة. كان هذا الجندى الكبير نحيفًا جدًا، ويرتدى قفازًا أبيض، ويعلق عند ردفه خنجرًا طويلاً، وينتعل حذاء جلديًا أسود. سارا معًا إلى جانب السيارة،

حتى تسللا إلى أسفل الجسر. فرفع أبى مسدسه، غير أن يده لم تتوقف عن الارتعاش، بينما كانت مؤخرة ذلك الجندى اليابانى العجوز تتمايل أمام فوهة مسدسه. فعض أبى على أسنانه، وأغمض عينيه قليلاً، ثم ضغط على زناد مسدسه، فسمع دوى الطلقة، وقد استقرت داخل المياه، وأصابت بطن سمكة داخل مياه النهر. وسقط الجندى العجوز إلى داخل المياه. فصاح أبى: "أبتاه، هناك مسئول كبير!".

سمع أبى صوت طلقة نارية تمر من خلف رأسه، حتى وصلت إلى رأس الجندى العجوز لتحطمه تمامًا، وامتلأت مياه النهر على الفور بدماء الجندى اليابانى. بينما لاذ الجندى الآخر بالفرار إلى خلف الجسر الحجرى.

ثم عاود الجنود اليابانيون إطلاق قذائفهم مرة أخرى، فقام جدى بحماية ابنه. وكان اليابانيون يطلقون النيران بصورة عشوائية أعلى أعواد الذرة. فقال جدى: "أحسنت، هكذا تكون من صلبى!"

لم يكن أبى وجدى يعلمان أن ذلك الجندى اليابانى العجوز الذى تمكنا من قتله، هو اللواء الشهير جونغ قانغ نى قاو.

لم يتوقف العم ليو دا خاو عن النفخ فى البوق، وقد بدت السماء من فوقه مليئة بالدخان المتطاير من لهيب السيارة المشتعلة.

قال أبى: "أبتاه، إن أمى تشتاق إليك، وتطلب منك الذهاب إليها".

فسأله جدى: "هل لا تزال أمك على قيد الحياة؟"

فأجاب أبى: "نعم، إنها لا تزال حية".

سحب القائد يو ابنه وسارا معًا إلى داخل حقول الذرة.

كانت جدتى لا تزال ترقد أسفل أعواد الذرة، وقد ظللت الذرة وجهها، بينما لا تزال تشرق أعلى وجهها ابتسامة رقيقة تنتظر بها جدى. بدا وجهها أبيض على نحو لم تعهده من قبل، وعيناها لا تزالان مفتوحتين.

كانت هذه هى المرة الأولى التى يرى فيها أبى دموع جدى القائد يو.

ركع جدى إلى جانب جثة جدتى، وراح يمد يده السليمة ليغمض عينيها.

عندما توفى جدى فى عام ١٩٧٦، كانت أمى قد أغمضت عينيه بيدها التى كانت تحتوى على ثلاثة أصابع فقط. وعندما عاد جدى من التلال والقمم الجرداء فى جزيرة بيى خاى اليابانية، كان لم يعد يحسن نطق الكلمات. وكان أهل القرية قد أقاموا له احتفالاً كبيرًا فور عودته من اليابان، شارك فيه الجميع بمن فيهم رئيس المدينة. وكنت آنذاك قد بلغت الثانية من عمرى. وأذكر أن القرية أعدت فى ذلك الاحتفال المهيب ثمانى طاولات كبيرة تم وضعها أسفل أشجار التفاح عند مدخل القرية، وضع على كل طاولة جرة من النبيذ وما يزيد على عشرة أوانٍ صغيرة لشرب النبيذ. وكان السيد رئيس المدينة قد حمل جرة النبيذ وملأ قدحًا وقدمه إلى جدى قائلاً: "أيها البطل الشيخ، فلنشرب جميعًا فى صحتك، فأنت فخر لشعب هذه المدينة!". وجاهد جدى نفسه حتى وقف بين الجمع ومقلتاه لا تكادان تكفان عن الحركة هنا وهناك، وأخذ القدح الذى كان يهتز بين يديه، حتى أن معظم النبيذ ضل الطريق إلى فمه وجرى إلى مكان آخر.

أذكر أنه عندما كان جدى يسحبنى معه للتجول، وكنت أسحب معى كلبًا صغيرًا أسود، نطوف معًا حقول القرية. كان أكثر مكان يفضل جدى الذهاب إليه هو الجسر الذى يقع أعلى نهر موا شوى، حيث يقف عند رأس

الجسر ويمسك بدعامته ويتسمر فى مكانه وقتًا طويلاً. وكنت ألاحظ أن عينيه تتوقفان كثيرًا عند بعض الأجزاء المتصدعة فى جسم الجسر. وعندما كانت تعلو الذرة، كان يصطحبنى معه إلى داخل حقول الذرة، والحقل الذى كـان يتردد عليه كان أيضًا قريبًا جدًا من نهر موا شوى. أخمن أن هذا المكان هو بالضبط المكان الذى صعدت فيه روح جدتى إلى السماء، وأن تلك البقعة من أرض هذا الحقل هى التى تشربت يومًا ما بدمائها الذكية. حتى ذلك الحين لم يكن منزل العائلة قد تهدم بعد، وكان جدى قد وقف ذات يوم أسفل الـشجرة التى فى وسط الفناء وراح ينبش بيديه التراب. حتـى عثـر علـى بعـض الحشرات الصغيرة وقدمها لى، وألقيت بها على الفور لكلبى الصغير الـذى راح يعضها حتى ماتت، ثم ألقى بها بعيدًا ولم يأكلها. فسألته أمى التى كانت تستعد للذهاب إلى المطبخ لإعداد الطعام قائلة: "ماذا تفعل يا أبى؟" فرفع جدى يديه وراح ينظر إلى أمى بنظرة مباغتة. فغـادرت أمـى المكـان وسـعت لحاجتها، بينما استمر هو فى نبشه أسفل الشجرة. واستمر حتى نجح فى حفر حفرة كبيرة، وأتى ببعض جذور الأشجار وحمل صـندوقًا حديـديًا أصـابه الصدأ. وما إن وقع الصندوق على الأرض حتى تحطم تمامًا. ثم أتى بقطعة حديد حمراء أطول من قامتى آنذاك، فسألته عن هذا الشىء الذى آراه بيـده، فأجابنى قائلاً "وه، وه، بندقية. بندقية".

وضع جدى البندقية تحت أشعة الشمس، وجلس أمـام بندقيتـه وراح يتأملها بدقة. ثم نهض من مكانه وراح يبحث حوله حتى عثر علـى فـأس كبيرة كنا نستخدمها فى تقطيع الحطب، وراح يضرب بها البندقية. واسـتمر يضربها حتى حطمها وجعلها مجرد قطع حديدية صغيرة، وأخذ بهذه القطـع الصغيرة وراح يلقى بها هنا وهناك حتى ملأ بها جميع أرجاء الفناء.

فسأله أبى: "أبتاه هل ماتت أمى؟"

فهز جدى رأسه.

فقال أبى: "أبتاه!"

مسح جدى على رأس ابنه، ومد يده إلى مؤخرتـه، وأخـرج سـيفًا صغيرًا، وقطع بعض عيدان الذرة وغطى بها جثة زوجته.

سمع صوت طلقات نارية وصياحًا وانفجارات هناك علـى جنـوب الحاجز الترابى. فأخذ جدى بابنه وألقى به إلى أعلى الجسر.

واتجهت جماعة تزيد على المائة رجل فى لباس عسكرى رمادى إلى داخل حقول الذرة الواقعة على جنوب الجسر. وجاء إلى حافة النهر ما يزيد على عشرة من الجنود اليابانيين، كان من بينهم من لقى حتفـه بالرصـاص ومن قتل بطعنات الخناجر. ورأى أبى القائد لينغ الذى كان يـضع الحـزام الجلدى حول خصره، والذى كان معلقًا فيه مسدسه، رأى القائد لينـغ وهـو يحيط به بعض الجنود ذوى القامات العالية، رآهم جميعًـا يـدورون حـول السيارات اليابانية، قادمين نحو شمال الجسر. فما إن رأى جدى القائد لينـغ حتى ابتسم ابتسامة يملؤها الغـضب، ثـم أمـسك بـسلاحه ووقـف عنـد رأس الجسر.

جاء إلينا القائد لينغ مزهوًا مغـرورًا، ثـم قـال: أيهـا القائـد يـو، لقد أحسنت القتال!"

فلعنه جدى " أنت، أيها اللعين ابن الكلاب!"

"لو كنت قد تأخرت خطوة واحدة!"

"ابن الكلاب!"

"لو لم نكن لحقنا بكم، لكنتم انتهيتم تمامًا!"

"ابن الكلاب!"

ووجه جدى فوهة سلاحه تجاه القائد لينغ. وبمجرد أن أعطى القائد يو إشارة صغيرة، كان هناك اثنان من رجاله الأشداء استوليا على سلاح جدى.

رفع أبى مسدسه، وأصاب به ذلك الجندى الذى كان يحكم قبضته على مؤخرة جدى.

فمد أحد الجنود قدمه فى حركة سريعة لتطرح أبى أرضًا، ثم سلب منه المسدس.

قام الجنود بالسيطرة على جدى وأبى.

"أيها الكلب لينغ ماتزه، افتح عينيك وانظر إلى رفاقى!"

كان هناك على ضفة النهر، وعلى جانبى الطريق العام وداخل حقول الذرة، جثث قتلى وجنود مصابين. وكان العم ليو دا خاو لا يزال ينفخ فى البوق والدماء تنزف من فمه وأنفه.

خلع القائد لينغ ماتزه قبعته، وسجد سجدة لحقول الذرة الواقعة على الناحية الشرقية للطريق العام، ثم أتبعها بسجدة للحقول الواقعة على الناحية الغربية.

وقال القائد لينغ ماتزه: "فلتطلقوا سراح القائد يو وابنه الأمير الصغير!"

قام الجنود على الفور بإطلاق سراحهما. بينما كانت الدماء لا تزال تسيل من جرح ذلك الجندى الذى أصابه أبى.

مد القائد لينغ يده، وأخذ البندقية من يد الجندى، وأعادها إلى القائد يو.

عبر جنود القائد لينغ الجسر، واتجهوا صوب السيارات اليابانية وجثث الجنود اليابانيين. وقاموا بجمع المدافع والرشاشات والأعيرة النارية وصناديق الزخيرة والخناجر والمحافظ وغيرها من الغنائم. حتى أن بعضهم نزل إلى داخل النهر وأمسك بأحد الشياطين اليابانيين الذى كان لا يزال حيًا مختبئًا خلف دعامة الجسر، ورفع أيضًا جثة أحدهم.

قال الجندى الصغير: "أيها القائد لينغ، إنه القائد!"

فتقدم القائد يو إلى الأمام متأثرًا بما سمع، ثم قال: "جرده من لباسه العسكرى، واستولِ على جميع ما لديه".

وقال القائد لينغ مخاطبًا جدى: "أيها القائد يو، سنلتقى يومًا ما!"

فأحاط بعض الجنود بالقائد لينغ، وغادروا فى اتجاه الجنوب.

صاح جدى قائلاً: "قف يا لينغ!"

فالتفت القائد لينغ إليه، ثم قال: "أيها القائد يو، سأسامحك لأنك لن تستطيع النيل منى!"

فقال القائد يو: "أما أنا فلن أسامحك!"

رد القائد لينغ: "يا وانغ خو، اترك للقائد يو رشاشًا!"

فقام بعض الجنود بحمل رشاش ووضعوه أمام جدى.

"وسنترك لك أيضًا هذه السيارات بما تحمله من الأرز".

قام جميع رجال القائد لينغ بعبور الجسر، وساروا فى صف واحد فى اتجاه الشرق بمحاذاة النهر.

عند غروب الشمس، كانت تلك السيارة قد احترقت تمامًا، وبقى منها فقط بعض القطع الحديدية السوداء، وكانت رائحة الإطارات المحترقة خانقة للغاية. أما السيارتان اللتان لم تحترقا، فكانتا لا تزالان أعلى الجسر. وقد امتلأ النهر بالمياه السوداء، وبدت على جانبى الطريق حقول الذرة الحمراء.

مد أبى يده إلى حافة النهر ليمسك بقطعة فطير سليمة بعض الشىء، وقدمها لأبيه قائلاً: "فلتأكل يا أبى، إنها من صنع أمى".

قال الأب: "فلتأكل أنت يا صغيرى!"

فدس أبى قطعة الفطير داخل يد والده، ثم قال: "سأذهب لأبحث عن قطعة أخرى".

عاد أبى وقد عثر على قطعة فطير جديدة، وراح يلتهمها بشراهة.

# الباب الثانى

# نبيذ الــذرة

(١)

كانت أمى قد أخبرتنى بأنها لا تعلم السبب الذى جعل من الذرة الرفيعة الحمراء بريف دونغ بيى بمدينة قاو مى- مادة خامًا رئيسية لنبيذ الذرة ذى الرائحة العطرة الذكية والطعم اللذيذ الذى لا يصيب خلايا المخ بأدنى ضرر، كانت أمى دائمًا تكرر على مسامعى: إن العائلة تتوارث هذه الوصفة الخاصة، وأنه غير مسموح بإفشاء سر هذه الوصفة إطلاقًا؛ لأن فى إفشائها إضرارًا بسمعة عائلتى الطيبة أولاً، ثانيًا: لأنه فى يوم من الأيام ستقوم الأجيال اللاحقة بإدارة شركة لصناعة النبيذ، وإذا تم إفشاء سر هذه الوصفة، فإن تلك الأجيال ستفتقد إلى الأبد تلك السمات المميزة لهذه الصناعة. كما أن جماعة الحرفيين فى بلدنا، إذا ما كانت لديهم وصفات خاصة، فإنهم كانوا يفضلون توريثها لزوجات أبنائهم وليس لبناتهم، حتى أن هذا الأمر كان فى غاية الجدية، ولابد من الالتزام به كما تلتزم بعض الدول بقوانينها.

قالت أمى: إنه عندما كان السيد دان يان شيو وابنه الأبرص دان بيان لانغ يشرفان على فرن صناعة النبيذ، حققا نجاحًا معقولاً. وعلى الرغم من أن نبيذ الذرة الذى كانت تنتجه العائلة آنذاك كان ذا طعم جيد، فإنه لم يكن بنفس الدرجة الممتازة التى أصبح عليها فيما بعد، ولم يكن إطلاقًا بنفس الطعم اللذيذ الذى أصبح يتميز به خلال السنوات الأخيرة. والسبب الحقيقى الذى كان وراء تفرد نبيذ الذرة الذى اشتهرت به عائلتى عن جميع ما كانت تنتجه العائلات الأخرى على مستوى البلدة، يرجع إلى حكاية قيام جدى بقتل السيد دان يان شيو وابنه الأبرص دان بيان لانغ، وما قامت به جدتى من استعادة شهرة ومكانة نبيذ عائلة دان بعد فترة قصيرة

من الهلع والرعب وقدرتها على التقدم وإثبات موهبتها فى هذا المجال. فكما تكون المصادفة والأمور الهزلية سببًا فى العديد من الاكتشافات العظيمة، فإن قيام جـدى بالتبول داخل قدر النبيذ كان هو السبب وراء تفرد وذيوع شهرة نبيذ الـذرة الـذى تخصصت فى صناعته عائلتى. إذا فلماذا أصبح ذلك القدر الذى امتلأ ببول جـدى ينتج نوعًا متفردًا من نبيذ الذرة؟ فى الحقيقة هذا أمر علمى، ولـيس بإمكـانى أن أتعرض له، وقد قررت أن أترك هذا الأمر لأهله من العلماء المتخصـصين فـى صناعة النبيذ لدراسته والوقوف على حقيقته. كانت جدتى والجد لوو خان قد قامـا بعد ذلك بمزيد من التجارب فى مجال صناعة النبيذ، قاما بتلخيص التجارب السابقة للعائلة، وقاما باستخدام ذلك القدر الذى امتزج بالبول ليحل محل الطريقـة القديمـة التى كنت تعتمد على خلط مختلف أنواع النبيذ لصناعة نبيذ الذرة. كانت طـريقتهم هذه تعتبر سرًا مهمًا، ولم يكن يعرف هذا السر آنذاك سوى ثلاثة أشخاص فقط هم جدتى وجدى والجد لوو خان. ويحكى أن طريقة الخلط السرية كانت تتم فى ساعة متأخرة من الليل والناس نيام، كانت تقوم جدتى بإشـعال البخـور وحـرق عـدد ثلاثمائة ورقة من النقود الورقية، ثم تأتى ببعض الأعشاب وتلقى بها داخل القـدر الكبير. كما يقال إنها كانت تتعمد القيام بهذه الأمور أمام جمع من الحاضرين، لكى تستعرض أمامهم ما بجعبتها من طرق سحرية تتفرد بها هذه العائلة، حتى تـراهم فى ذهول شديد معتقدين بأن السماء تبارك هذه الصناعة وهذه الطريقة التى تنفـرد بها العائلة. وهكذا حازت العائلة شهرة واسعة فى مجال صناعة نبيذ الذرة، وكانت تسيطر على هذه السوق خلال السنوات الماضية.

## (٢)

عادت جدتى إلى منزل أبيها، ومكثت به ثلاثة أيام حتى حـل موعـد العودة إلى منزل زوجها الأبرص. وخلال هذه الأيام الثلاثة، كانت تـرفض

الطعام والشراب، وتبدو شاردة طوال الوقت، حتى عندما كانت تقـوم أمهـا بإعداد ما لذ وطاب من الطعام والشراب، وتداعب ابنتها لكى تأكل أقل قـدر من الطعام، كانت جدتى لا تزال ثابتة على موقفها محجمة تمامًا عن الإقبال على الطعام والشراب، حتى أصابها ضعف وإرهاق شديد. وعلى الرغم من قلة ما دخل جوفها من طعام وشراب خلال تلك الأيام الثلاثة، فإن ملامحها لم تتغير، كنت لا تزال ترى جبهتها البيضاء، ووجنتيها الحمـراوين وعينيهـا السوداوين. وبالطبع كانت أمها لا تتوقف عن توجيه اللوم لها قائلة: "أيتهـا الابنة، إلى متى ستستمرين هكذا ممتنعة عن الطعام والشراب؟ هل ارتقيـت إلى مصاف الآلهة أو أصبحت فى مكانة بوذا؟ لقد أوشكت أن أموت حزنًـا على حالك! "ثم تنظر الأم إلى صغيرتها القابعة فى مكانها ممتنعة عن الزاد، حتى لا تتمالك الأم نفسها، وتذرف الدموع على حال صـغيرتها المـسكينة. بينما كانت الابنة تسترق النظر إلى أمها بعينين تملؤهما الحيرة. وكأنها سمكة كبيرة تراقب ظلام النهر من أعلى حافة عالية. وفى اليوم الثانى من عودتها إلى منزل أبيها، كان أبوها قد أفاق من سباته، وتذكر جيدًا وعد حما ابنته له، حيث وعده بأن يهديه بغلاً كبيرًا أسود اللون، فراح الأب يسرح بخياله بعيدًا يرى البغل وهو يعدو بسرعة بين الحقول. بغل أسـود اللـون، ذو عينـين بارقتين وحوافر قوية. قال الأب مخاطبًا نفسه وهو فى غاية القلـق: "أيهـا العجوز، إن ابنتك تمتنع عن الطعام والشراب، فما العمل إذا؟ "ثم قال: "دعها فى عنادها حتى تهلك".

ووقف الأب أمام ابنته وقال وهو يهلث: "أيتها الصغيرة، ماذا تنوين أن تفعلى؟ إن الزواج قسمة ونصيب. وستتزوجين من يختاره لك هذا النصيب. وعليك أن تعلمى أننى لست مسئولاً كبيرًا ذا مال وفير وجاه عريق، وأنـك لست جميلة الجميلات، من عظيم حظك أن يكون لك هذا الزوج الثرى، بـل من عظيم حظى أنا أيضًا. انظرى لقد قرر حموك الثرى أن يهـدينى بغـلاً كبيرًا، فما أجوده من حمٍ عظيم".

وكانت جدتى لا تزال قابعة فى مكانها مغمضة عينيها. وقد بدا عليها التعب الشديد من قلة النوم. فراح الأب يحدق فيها ثم قال غاضبًا: "إلى متى ستستمرين فى عنادك، اعلمى جيدًا أنه حتى ولو أصبحت جثة هامدة، فأنت زوجة لابن عائلة دان، وأنه ليس لك نصيب فى مقبرتى الخاصة!".

فابتسمت جدتى ابتسامة تعلوها السخرية مما سمعته.

فرفع الأب يده وصفعها على وجهها صفعة قوية.

وبدت جدتى حزينة، وقد ظهر الشحوب على وجهها الذى كان متوردًا، واستمر وجهها فى الشحوب حتى بدا مثل شمس الأصيل. فراحت تعض على أسنانها، وتضحك ضحكات ساخرة، وتنظر إلى أبيها بكل قسوة، ثم قالت: "إنك تخشى فقط.. إذا حدث أن.. فإنك لن ترى حتى شعرة من بغلك الكبير!".

طأطأت جدتى رأسها، وخطفت عصا الطعام، ثم أخذت بسلطانية الطعام الذى كان لا يزال دافئًا بعض الشيء، وألقت بها بعيدًا، ثم أخذت بسلطانية أخرى ورمتها لأعلى، فراحت السلطانية تبرق أمامها حتى اصطدمت بسقف الحجرة، ثم سقطت قطع صغيرة ملأت أرجاء الحجرة. ثم ركلت سلطانية ثالثة، ركلتها ركلة قوية لتصطدم بالحائط لتتكسر إلى نصفين. فأصيب الأب بذهول شديد من هول ما رأى، وبقى مكانه صامتًا لفترة طويلة. فقالت الأم: "ابنتى الحبيبة، أخيرًا انتبهت إلى الطعام!".

كانت جدتى قد بدأت نوبة بكاء شديدة بعد أن قامت بتحطيم آنية الطعام، وكان بكاؤها بكاء عذبًا رقيقًا، يفيض بالمشاعر، بكاء بدموع غزيرة، وتجاوز بكاؤها حدود الحجرة الصغيرة، ليسمع دويه فى الحقول الممتدة خارج المنزل، وليمتزج صوت بكائها مع صوت اهتزاز أعواد الذرة فى نهاية الصيف. وخلال استغراقها فى هذا البكاء الحار المفجع، كانت تتنازعها

الكثير من الأفكار، وهى غارقة فى الذكريات التى مرت بها خلال هذه الأيام الثلاثة منذ أن صعدت الهودج، وغادرت منزل أبيها حتى عادت إليه ثانية على ظهر ذلك الحمار الصغير. فكانت جميع الصور التى مرت أمام عينيها خلال هذه الأيام الثلاثة، وجميع الأصوات التى سمعتها، والروائح التى شمتها، كان ذلك كله ينال قدرًا كبيرًا من تفكيرها، بما فى ذلك الرياح التى هبت على حقول الذرة، والأمطار التى هطلت أثناء رحلتها، والعواصف وجميع ما عاشته خلال هذه الأيام الثلاثة، تذكرت الحركات البطولية التى قام بها ذلك الشاب عندما اعترض طريقهم قاطع الطريق، كان ذلك الشاب أقوى وأشجع هؤلاء الشباب الذين كانوا يحملون الهودج، كان زعيم هؤلاء الكلاب. وكان عمره لا يزيد على أربعة وعشرين عامًا، وقد بدا لها وجهه القوى يخلو من التجاعيد. وتذكرت أيضًا عندما كان ذلك الوجه القوى قريبًا جدًا من وجهها، وعندما التقت شفتاهما. وهنا احمر وجهها وسرى الدم فى عروقها. كانت الذرة هى الشاهد الوحيد على لقائهما، لفتهما أعوادها وامتلأت سماؤهما برحيق ثمارها. حاولت هى كثيرًا أن تكبح جماح رغبتها، ولكن باءت محاولاتها بالفشل أمام إصرار ذلك الرجل الذى كان يبدو لها مثل فجلة متعفنة. تذكرت أصابع يده العشرة التى كانت طويلة وقوية مثل مخالب الطيور. وشعر رأسه الذى كان قد تركه فى ضفائر صغيرة، وسلسلة المفاتيح النحاسية التى كانت معلقة فى الحزام الملفوف حول خصره. جلست جدتى تتذكر، وعلى الرغم من بعد المسافة التى كانت تفصلها عن ذلك المكان الذى شهد لقاءهما، فإنها كانت تشعر وكأنها تشم رائحة ذلك المكان جيدًا. تذكرت ذلك الرجل عندما استل سيفه الصغير وقام بتقطيع عدد كبير من أعواد الذرة، تذكرت تلك الرائحة التى كانت تشمها من أعواد الذرة المتقطعة وكأنها رائحة دماء ذكية. وتذكرت أيضًا ما قاله لها ذلك الرجل: عليك أن تفكرى فقط فى العودة إلى هنا بعد ثلاثة أيام! لا تزال تذكر جيدًا ذلك الشرر الذى لمحته فى

عينيه حينما كان يوجه حديثه إليها. وأحست جدتى أن المستقبل الذى ينتظرها لهو تغيير كبير لم تعهده طيلة حياتها.

يعلم الكثيرون أن البطولة موهبة طبيعية يولد الإنسان وهو مزود بها، وأن الروح البطولية روح كامنة داخل الإنسان، وأنها تتحول إلى تصرف بطولى عندما يصادف الإنسان إغراءات من العالم الخارجى. كانت جدتى آنذاك قد بلغت السادسة عشرة من عمرها، وكانت منذ صغرها تداوم على مختلف أنواع اللعب المحببة لدى الفتيات الصغيرات من القص والتطريز والتصفيف. ولم تكن علاقاتها تتعدى الأخت الكبرى والأخت الصغرى من بنات جيرانهم من الناحية الشرقية والغربية، فأين لها القوة التى تمكنها من تحمل ومواجهة هذه التغيرات الكبيرة التى تشهدها حياتها؟ وأين لها القوة التى تجعلها تتحلى بالبطولة فى مثل هذه المواقف الخطيرة؟ هذه أمور يصعب توضيحها.

وخلال نوبة البكاء الطويلة التى قضتها جدتى فى حجرتها بمفردها، أقول: لم تشعر خلال ذلك بحجم المعاناة التى تعرضت لها، بل وتنتظرها فيما بعد، ولكنها على العكس تمامًا أحست وأدركت أن بداخلها شعورًا بالسعادة، نعم فقد كانت تبكى وهى تتذكر مشاعر السعادة والسرور والمعاناة والحزن التى عاشتها خلال الأيام الثلاثة الأخيرة، وأحست أن صوت البكاء الذى تسمعه إنما هو صوت موسيقى تعزف من مكان بعيد. وأخيرًا راحت تفكر فى أمر هذه الحياة، أدركت أنها قصيرة مثل حياة الأزهار الصغيرة التى تنتهى بانتهاء فصل الربيع، فلماذا كل هذا الخوف الذى يسيطر عليها؟

وسمعت صوت أبيها يناديها باسمها قائلاً: "حان وقت الرحيل يا جيو إر!"

هيا بنا هيا بنا هيا بنا!

طلبت جدتى بعض الماء وغسلت وجهها، ثم وضعت عليه بعض المساحيق. ونظرت إلى المرآة، وفكت دبابيس الشعر التى كانت تثبت بها شعرها الطويل المرسل، فتفرق شعرها الكثيف، وانساب على ظهرها. ووقفت أعلى المصطبة، وأخذت المشط الخشبى بيدها اليمنى، وبدأت تمشط شعرها الطويل، بينما كانت يدها اليسرى تقوم بتجميع خصلات الشعر ولفها أمام صدرها. وكان شعرها يتميز بأنه شعر أسود ناعم طويل ذو لمعان قوى. وهكذا مضت ترتب خصلات شعرها التى انتهت من تمشيطها جيدًا، وراحت تثبتها ببعض الدبابيس الصغيرة. كما قامت بتهذيب خصلات الشعر التى تنزل على جبينها. ثم قامت بربط قدميها الصغيرتين، وارتدت زوج الجوارب الصغير الأبيض، وارتدت سروالها الطويل، وانتعلت الحذاء المطرز، وانتبهت إلى ضرورة أن تكون قدماها الصغيرتان بارزتين.

كانت قدماها الصغيرتان أول ما لفت انتباه السيد الثرى دان يان شيو، كانت هاتان القدمان الصغيرتان أيضًا أول ما حرك شهوة الشاب حامل الهودج يو جان آو. وكانت جدتى شديدة الفخر والاعتزاز بقدميها الصغيرتين. فإذا كانت الفتاة تمتلك قدمين صغيرتين فإنها ستفوز بالزوج المناسب مهما كان قبح وجهها، أما إذا كانت الفتاة تمتلك قدمين كبيرتين، فإنها ستظل عانسًا حتى لو كانت فى جمال الحور العين. كانت جدتى تمتلك قدمين صغيرتين ووجهًا جميلاً، كانت جميلة الجميلات، أعتقد أن أقدام النساء قد تحولت خلال فترة زمنية طويلة إلى عضو جنسى مهم، فلقد كانت الأقدام الصغيرة تمنح الرجل قوة وشهوة جامحة. وأخيرًا انتهت جدتى من لباسها وزينتها وخرجت إلى خارج الحجرة. وكان الأب قد جهز حماره، ووضع على ظهره حاشية مناسبة. وراح الحمار ينظر إلى جدتى. وانتبهت جدتى إلى نظراته، وأحست بأن هذا الحيوان لديه القدرة على إدراك ما يدور

بداخلها الآن. فرفعت رجلها وصعدت إلى أعلى ظهر الحمار الصغير. ولـم تجلس على ظهر الحمار كما تجلس النساء على ظهـور الحميـر والبغـال والخيل فى ذلك الحين، ولكنها جعلت ظهر الحمار بـين رجليهـا الاثنتـين. فطلب منها أبوها أن تجلس كما تجلس النساء على جانب من ظهر الحمـار، فرفضت وركلت الحمار فى بطنه حتى يسرع فى السير. ونفخـت صـدرها وراحت تنظر إلى الأمام غير عابئة بما كان وبما سيكون.

وهكذا ذهبت جدتى ولم تعد. وفى البداية كان أبوها هو الـذى يمـسك بالحبل ليجر الحمار، وما إن وصلوا إلى خارج حدود القرية، قامت جـدتى بسحب الحبل وجعلت تقود الحمار بمفردها. وراح الأب يجرى خلف الحمار. وخلال الثلاثة أيام الأخيرة، كانت قد هطلت نوبة مـن الأمطـار الرعديـة، ونظرت جدتى إلى يمين الطريق فوجدت بعض الذرة التى بـدت أوراقهـا ذابلة. فعرفت على الفور أن هذه المنطقة قد تأثرت بالرعد الشديد، وتذكرت زميلتها تشينغ إر التى كانت قد توفيت فى العام الماضـى بـسبب عاصـفة رعدية شديدة، كانت زميلتها شابة فى السابعة عشرة من عمرهـا، احتـرق شعرها وتمزقت ملابسها، وامتلأ ظهرها بالكثير من التجاعيد، وهنـاك مـن ذكر أن هذه التجاعيد لم تكن بسبب هذه العاصفة الرعديـة، وإنمـا كانـت تجاعيد ولدت بها الفتاة. وانتشرت الأقاويل فى البلدة لتقـول إن تـشينغ إر أودت بحياتها بسبب طمعها فى الأموال، وأنها قد قضت أيضًا على حياة طفل صغير. يذكر أن تشينغ إر أثناء سيرها فى الطريق سمعت صوت بكاء طفل صغير، فاقتربت منه لتتصفح أمره، فوجدت طفلاً صغيرًا ملفوفًا فى صـرة. فراحت تفتح الصرة لترى الطفل، فظهر لها طفل ذكر وإلى جانبه قـصاصة صغيرة مكتوب عليها: أبى عمره ثمانية عشر عامًا، وأمى فتاة فى الـسابعة

عشرة من عمرها، وأنجبا طفلاً اسمه لو شي. وتزوج أبى بالأخت الكبرى جانغ إر صاحبة القدمين الكبيرتين من القرية الغربية، وتستعد أمى للزواج من با يان تزه من القرية الشرقية، هان عليهما أن يلقيا برضيعهما، وكانا قد غرقا فى دموعهما من شدة الموقف، وحاولا أن يخفيا دموعهما حتى لا يفتضح أمرهما. وأعلنا أن الأسرة التى ستحتضن لو شى وتقوم بلفه بقطعة من الحرير ستحصل على مكافأة قدرها عشرون دا يانغ، فليخبر القاصى والدانى، ولتنقذوا هذا الرضيع. وحكى الكثيرون أن الفتاة تشينغ إر كانت قد أخذت بقطعة من الحرير لفت بها الطفل، وحصلت على المكافأة الكبيرة، غير أنها قامت بإلقاء الطفل داخل حقول الذرة، ومن ثم فقد أصابتها لعنة السماء. وبما أن جدتى كانت صديقة حميمة للفتاة تشينغ إر، لم تصدق ما تداوله الناس حول موت صديقتها، ولكن بمجرد أن فكرت فى أمر هذه الحياة الإنسانية، وأنه من الصعب التكهن بالحياة والموت، لم تستطع إخفاء ما بداخلها من حزن وخوف.

كان الطريق لا يزال رطبًا بعد توقف تلك الأمطار الرعدية، نظفت مياه الأمطار الطريق جيدًا، وتركت بعض النتوءات فى مناطق مختلفة من الطريق. وهكذا قام الحمار الصغير بترك أثر أقدامه مرة ثانية على هذا الطريق الذى يعرفه جيدًا. وظهرت أزهار الأقحوان الكبيرة وأوراقها مغطاة بطبقة من الطين. بينما كانت بعض الجنادب تملأ أعواد الأعشاب البرية وأعواد الذرة، وهى تهز أجنحتها مصدرة صوتًا حزينًا. اقتربت نهاية الصيف الطويل، وبدأت تنتشر تباشير الخريف، فبدأت جماعات من الجراد التى أحست بقرب حلول الخريف، بدأت تخرج من داخل حقول الذرة ببطونها الممتلئة لتتجمع وتتركز فى عرض الطريق، لتعلن استعدادها للبيض وسط هذا الطريق العام.

مد الأب يده وكسر غصنًا من أعواد الذرة، وراح يضرب به الحمار ليحثه على السير، فرفع الحمار ذيله قليلاً، وأسرع بعض الشيء، ثم عاد ثانية إلى مشيته المعهودة بين السرعة والبطء. وبدا أن الأب كان مسرورًا من أعماق قلبه، حيث كان يسير خلف الحمار وهو يتغنى بأغنية "خاى ماو تزه تشيانغ" المعروفة فى ريف دونغ بيى بمدينة قاو مى. فكان الأب ينشد: "شرب وو دا لانغ السم وشعر بألم شديد.. وأحس باضطراب شديد شمل أمعاءه ورئته.. تزوج الرجل القبيح من حسناء فاتنة، فحلت مصيبة كبيرة على العائلة.. آه... آه، وأحس وو دا بامتعاض شديد فى بطنه فراح يأمل فقط فى حل مشكلة أخيه الصغير.. فعاد إلى المنزل لرفع الظلم عن أخيه ورماه بنظرات ساخرة..".

اشتد خفقان قلبها عند سماعها غناء أبيها العجوز، وسيطرت عليها حالة من السكون. وظهرت أمامها فجأة صورة ذلك الشاب الذى التقت به قبل ثلاثة أيام، والذى كان ممسكًا بسيف صغير وهو ينظر إليها نظرات عابسة. وراحت تفكر فى أمره، فمن يكون ذلك الشاب؟ وما هدفه؟ وعلى الرغم من أنها لم تكن تعرفه من قبل، فإن ما تراه الآن ليس إلا حالة من التقاء السمك بالماء بعد رحلة طويلة على الشاطئ، وبعد معركة داخلية من التردد فى الاستجابة إليه والتسليم له، فإنها استجابت لترتيبات القدر، وتنهدت تنهدات عميقة.

أطلقت العنان لحمارها الصغير، بينما كانت تستمع إلى صوت غناء أبيها الشيخ الكبير، وأخيرًا وصلت بعد رحلة من المعاناة إلى نفق الضفادع. فراح الحمار يطأطئ رأسه ويرفعها، وأنفه مغلق تمامًا، ثم راح يقفز ثابتًا فى مكانه. فضربه الأب بعود الذرة على مؤخرته ليواصل السير، ثم ضربه على قدميه الخلفيتين وهو يلعنه: "إلى الأمام أيها الحمار الخسيس! إلى الأمام أيها الحيوان الهجين! وهكذا استمر فى ضربه حتى سمعت جدتى صوت عود

الذرة على ظهر الحمار، غير أن الحمار لم يستجب للشيخ الكبير وتحذيراته، بل كان يبطئ الخطا ويتراجع نحو الخلف. وشمت جدتى رائحة كريهة، فنزلت من على ظهر الحمار، ووضعت كمها على أنفها لعلها تتقى شر هذه الرائحة الكريهة، ومدت يدها لتسحب الحمار. فرفع الحمار رأسه ومضى خلف الفتاة، وقد فاضت عيناه بالدموع. فخاطبته جدتى قائلة: "أيها الحمار الشجاع، تحمل قليلاً وامضِ إلى الأمام، واعلم جيدًا أنه لا مستحيل عند أهل العزيمة". تأثر الحمار بكلامها، ورفع رأسه ونهق بصوت مرتفع، ثم مضى يشق طريقه بسرعة فائقة، حتى أنها شعرت بصعوبة كبيرة فى اللحاق به. وعندما مر الحمار وصاحبته بجثة قاطع الطريق، حاولت جدتى أن تنظر إليها نظرة خاطفة، لاحظت تكوم أعداد كبيرة من الذباب والحشرات حول الجثة.

وسحبت جدتى الحمار لتتخطى نفق الضفادع، ثم صعدت على ظهره من جديد، وتركت لأنفها العنان فى شم رائحة نبيذ الذرة القادمة مع الرياح الشمالية الشرقية. كانت جدتى فخورة جدًا بشجاعتها التى أظهرتها مؤخرًا، غير أن الحيرة عادت تتملكها من جديد. فلا تزال قرية زوجها دان بيان لانغ تبعد عنها كثيرًا، وبينما هى مستغرقة فى شم رائحة نبيذ الذرة الذكية التى كانت تشتد شيئًا فشيئا، أحست بأن عظامها بدأت تتجمد من شدة البرد. وانتبهت إلى صوت رجل داخل حقول الذرة على الناحية الغربية للطريق يتغنى بصوت خشن قائلاً:

تقدمى أيتها الأخت الصغيرة

تقدمى بكل شجاعة وجرأة

فالطريق أمامك طويل جدًا

تقدمى أيتها الأخت الصغيرة

ستسكنين من اليوم المقصورة الحمراء

وتضربين رأسى بالكرات المطرزة الحمراء

فلتشاركينى شراب كأس من نبيذ الذرة الرفيعة الحمراء

راح الأب الشيخ يصيح بصوت مرتفع موجهًا صياحه إلى صاحب ذلك الصوت قائلاً: أنت يا هذا، يا من تتغنى داخل الذرة! اخرج لمواجهتى، فما هذا الهراء الذى تصيح به!

(٣)

وبعد أن انتهى أبى من أكل قطعة الفطير، راح يدوس على بعض الحشائش البرية التى انعكست عليها أشعة الغروب فى طريقه للنزول من أعلى حافة النهر، ثم مضى حتى وقف على ضفة النهر. ونظر إلى السيارات الأربعة، وقد تحطمت إطارات السيارة التى كانت فى المقدمة تمامًا، والتى لا تزال فى مكانها أعلى الجسر الحجرى على نهر موا شوى، بينما يظهر على سطح السيارة وعلى جسمها بقايا دم. رأى الجزء الأعلى من جسد أحد الجنود اليابانيين معلقًا على سطح السيارة، وقد بدا رأسه وكأنه كاد ينفصل عن رقبته. وقد امتلأت خوذته بدمائه. واستمع إلى صوت مياه النهر التى بدت كأنها تبكى بشدة. وحدق فى حقول الذرة المجاوة التى لا تتوقف عن النمو. وفى ضوء الشمس الذى بدا غير واضح أعلى صفحة مياه النهر الحزين. واستمع إلى صوت بكاء الحشرات الصغيرة التى كانت تختفى أسفل الحشائش

البرية. ونظر إلى السيارتين الثالثة والرابعة اللتين كادتا أن تحترقا بالكامل. وسط كل هذه الأصوات والمناظر التى سمعها وشاهدها، راح أبى ينظر ويستمع إلى صوت نزيف الدم الذى كان يسيل من جثة الجندى اليابانى. كان أبى حينذاك يزيد قليلاً عن الرابعة عشرة من عمره. فإذا به ينظر إلى شمس اليوم التاسع من شهر أغسطس لعام ١٩٣٩ حسب التقويم القديم، وقد توارت تمامًا، وإلى الجثث التى تركت دماؤها أثرًا واضحًا على جميع الأشياء المحيطة به، وإذا به ينظر إلى وجهه النحيف وقد تلطخ بقطع صغيرة من الطين الممزوج بدماء تلك الجثث. ثم جلس على موقع متقدم من النهر إلى جوار جثة زوجة العم وانغ ون إى، وعندما لامست شفتاه مياه النهر، إذا به يشعر بامتعاض شديد من مياهه، وقد أحس بطعم ورائحة الدماء، وأحس بتشنج شديد سيطر على حلقه تمامًا، ومضى يجاهد نفسه حتى عاد حلقه إلى حالته الطبيعة. وعندما دخلت مياه نهر موا شوى حلقه، رطبت جفافه فشعر ببعض السعادة الممتزجة بالمعاناة، فعلى الرغم من رائحة الدم القوية التى تفوح من مياه النهر، فإنه لم يتوقف عن الشرب حتى ارتوى بعد ظمأ شديد. وعندما اقترب حلول الظلام، وبقى بصيص من أشعة الشمس الحمراء، بدأت رائحة احتراق السيارتين الثالثة والرابعة تتضاءل بالتدريج. وفجأة سمع صوتًا جعله يشعر بذهول شديد، رفع رأسه وراح يتتبع الصوت، فإذا به صوت انفجار بقايا إطارات السيارات، استمر فى مشاهدتها وهى تطير أعلى وحول الجسر الحجرى مثل الفراشات السوداء حتى سقطت داخل مجرى النهر، كما شاهد أجولة الأرز اليابانى، وقد ملأت صفحة مياه النهر. واستدار بجسمه ليرى جثة تلك المرأة القصيرة زوجة وانغ ون إى الملقاة إلى جانب النهر، بدت غارقة فى دمائها. فصعد أبى إلى أعلى حافة النهر، وراح ينادى على أبيه بصوت مرتفع: "أبى!"

كان جدى يقف آنذاك أعلى حافة النهر، وقد بدا عليه الإرهاق الشديد، ونظر أبى إلى شعر والده فوجده قد ابيض، فشعر بمزيد من الحزن والأسف على ما أصابه، ثم اقترب منه ودفعه برفق قائلاً:

"أبى! أبى! ماذا بك؟"

فلاحظ على وجهه خطين من الدموع، وسمع صوت بكاء يأبى أن يخرج من حلقه. ورأى ذلك الرشاش الذى تركه له القائد لينغ شفقة به، رأى الرشاش اليابانى ملقى أمام جدى وكأنه ذئب كبير يحرسه، ونظر إلى فوهة الرشاش وقد بدت وكأنها عين كلب.

"أبى، فلتتحدث إلى، ولتأكل هذه القطعة من الفطير، ثم لتذهب لتروى ظمأك ببعض الماء، وإلا فإنك ستموت من الجوع والعطش".

فمد الأب رقبته إلى الأمام، وقد بدا فى غاية الإرهاق. ثم جلس على حافة النهر، ووضع يديه حول رأسه وصمت لحظات قليلة، ثم رفع رأسه. وراح ينادى أبى قائلاً: "دوو قوان! ابنى الحبيب، هل ترى أننا منينا بهزيمة نكراء؟".

فنظر أبى إليه وهو فى ذهول تام. وكانت عينا أبى مفتوحتين وقد أظهرتا بعض الشجاعة التى ورثها عن أمه، أضاءت هذه النظرات التى تبعث على الأمل فى هذه الظروف الصعبة، قلب جدى الحزين.

قال الابن:أبى، أرجو منك ألا تشعر بالحزن الشديد، فسأتعلم إطلاق الرصاص، وسأتقنه كما كنت تتقن الصيد فى صباك، ثم سآخذ بثأرك من ذلك الكلب اللعين لينغ ماتزه!"

قفز الأب فى مكانه، وأصدر صوتًا ما بين البكاء والضحك. وقد سالت بعض الدماء من بين شفتيه.

"أحسنت يا صغيرى! نعم لقد أحسنت ابنى العزيز!"

مد جدى يده والتقط قطعة الفطير التى كانت قد أعدتها جدتى بيديها، وراح يلتهمها بشراهة، وقد ظهرت بعض آثار الدم حول شفتيه. وعندما سمع أبى صوت الطعام وقد اختنق داخل جوف أبيه، خاطبه قائلاً:

"أبى، فلتنزل إلى النهر لتروى عطشك وحتى ينزل الطعام بسهولة إلى معدتك".

نزل جدى عن حافة النهر وهو يتمايل، ثم جثا بركبتيه على بعض الحشائش على ضفة النهر، ومد رقبته الطويلة يشرب من مائه، وكأنه بغل أو حصان. ونظر إليه أبى، فإذا به بعد أن ارتوى من مياه النهر يغطس رأسه حتى النصف الأعلى من رقبته داخل المياه، وراح يحركه داخل المياه. وترك رأسه داخل المياه لوقت غير قصير، كان أبى يراقب جدى وقد نسى رأسه فى المياه، فانتابه بعض القلق على أبيه، وأخيرًا رفع الأب رأسه، وأخذ نفسًا عميقًا، ثم وقف وصعد إلى أعلى حافة النهر، حتى وقف أمام ابنه. فنظر الابن إلى رأس أبيه، كانت لا تتوقف عن التقطير. الأب رأسه، فتطايرت حوله كمية كبيرة من قطرات المياه التى بدت وكأنها حبات من اللؤلؤ.

وقال الأب مخاطبًا ابنه: "دوو قوان، فلترافقنى حتى نذهب للاطمئنان على أعضاء الفريق!"

سار جدى يتمايل داخل حقول الذرة الواقعة على الجانب الغربى من الطريق، ثم تبعه أبى فى عجالة. وقد داسا بأقدامهما الكثير من أعواد الذرة، ومضيا داخل حقول الذرة، وكانا ينحنيان بين الحين والآخر لمشاهدة أعضاء الفريق الذين كانوا يرقدون داخل الذرة فى صمت تام. لقد ماتوا جميعًا، راح

جدى وأبى يحركان جثث أعضاء الفريق لعلهم يجدون من بينها أحياء، لكن باءت محاولتهم بالفشل، حيث مات جميع أعضاء الفريق. ورفع جدى وأبى أيديهما، وقد بدت ملطخة بالدماء. نظر أبى إلى اثنين من أعضاء الفريق كانت جثتاهما ملقيتين هناك فى أقصى الطرف الغربى، واكتشف أن هناك مسدسًا محلى الصنع يغلق فم إحدى الجثتين، بينما كانت الجثة الثانية ملقاة على الأرض وبها خنجر معلق فى بطنها. راح جدى يقلب فى الجثتين، بينما اقترب أبى منهما لينظر إلى أقدامهما المكسورة ومعدتيهما المحطمتين. فأخذ جدى نفسًا عميقًا، ثم مد يده لينتزع المسدس من داخل فم الجثة الأولى، والخنجر من بطن الجثة الثانية.

تبع أبى جدى فى السير على الطريق العام الذى بدا منيرًا وسط السماء المكفهرة، ومضيا يقلبان النظر فى جثث أعضاء الفريق التى كانت ملقاة فى مناطق متفرقة داخل حقول الذرة على الناحية الشرقية من الطريق. لاحظا أن جثة العم ليو دا خاو لا تزال فى مكانها وعلى هيئتها، وبدا العم ليو ممسكًا بالبوق وكأنه فى وضع الاستعداد للنفخ فيه. فدنا منه جدى، وقال بصوت متأثر: "يا ليو دا خاو!". فلم يرد عليه العم ليو. فتقدم أبى ودفع العم ليو دفعة بسيطة ثم صاح: "عمى الكبير!" فسقط البوق على الأرض، وعندما أحنى أبى رأسه ليلتقط البوق، رأى وجه العم ليو قد أصبح جامدًا تمامًا وكأنه قطعة حجرية.

وأخيرًا عثر جدى وأبى على بعد عشرات الخطوات من حافة النهر وداخل حقول الذرة التى لم تتعرض للتخريب الخطير، على اثنين من أعضاء الفريق هما فانغ تشى و"الأخ الرابع المسلول" (وقد أطلقت عليه هذه التسمية لأن ترتيبه بين أخوته هو الرابع، كما أنه أصيب فى صغره بمرض السل الرئوى)، ولاحظا أن قدم المسلول مصابة بطلق نارى، وأنه قد أغمى عليه

تمامًا بسبب شدة النزيف. فوضع جدى يده الملطخة بالدماء على شفتى المسلول، أحس بالرائحة والنفس الجاف القادم من أنفه. أما أمعاء فانغ تشى فقد بدت محشورة داخل بطنه، حاول سد الجرح بورقة من أوراق أعواد الذرة. فما إن انتبه فانغ تى إلى القائد يو وابنه حتى راح يخاطبهما: "أيها القائد يو.. انظر إلى لقد انتهيت.. وإذا قابلت زوجتى.. فأعطها بعض المال.. ولا تدعها تتزوج من بعدى.. فإنه ليس لدينا أبناء.. فإذا ما غادرت زوجتى.. فستنتهى عائلة فانغ.". كان أبى يعلم أن فانغ تشى لديه ابن يبلغ عمره ما يزيد على عام واحد، وأن زوجته كان لديها ثدى كبير ممتلئ باللبن، وكان كافيًا لإشباع طفلهما.

قال جدى: "أخى العزيز، دعنى أحملك على ظهرى لتعود إلى منزلك".

فجلس جدى مقرفصًا، ثم شد ذراع فانغ تشى ليجعله خلف ظهره، فسمع صوت صراخ فانغ تشى، فنظر أبى إلى فانغ تشى، فإذا به يتألم من سقوط ورقة الذرة التى كانت تسد فوهة الجرح، وشم رائحة الدماء المنبعثة من داخل بطنه. وضع جدى فانغ تشى على الأرض، فراح فانغ تشى يواصل صراخه قائلاً: "أخى الأكبر.. هذا يكفى هذا يكفى.. أرجو ألا تجعلنى أتألم أكثر من ذلك.. فلترحنى برصاصة واحدة.".

قرفص جدى ثانية، وأمسك بيد فانغ تشى، ثم قال: "أخى العزيز، دعنى أحملك لنبحث عن السيد جانغ شين إى، فإن بإمكانه أن يعالج مثل هذه الجروح".

"أخى الأكبر.. فلتسرع.. ولا تدعنى أعانى كل هذه المعاناة.. فإنى أصبحت إنسانا لا حول له ولا قوة.".

زر جدى عينيه، وراح يتأمل سماء شهر أغسطس المصفرة والمزينة بالكواكب اللامعة، ثم قال لأبى: "دوو قوان، هل لا يزال هناك طلقات نارية داخل مسدسك؟"

رد أبى: "نعم لا يزال يوجد بعض الطلقات".

فأخذ جدى المسدس من يد أبى، وفتح بيت النار، ثم نظر إلى السماء المصفرة، ولف عجلة المسدس. ثم قال: "أخى فانغ تشى، فلتطمئن كثيرًا، فلن تجوع زوجتك وطفلك ما دمت أمتلك قوت يومى".

هز فانغ تشى رأسه ثم أغمض عينيه.

ورفع جدى المسدس، وقد أحس أنه أصبح ثقيلاً جدًا، بالضبط كما لو كان يرفع بيده صخرة تزن ما يزيد على خمسمائة كيلو جرام، وارتجفت جميع فرائصه.

ففتح الأخ فانغ تشى عينيه ونظر إلى جدى قائلاً: "أخى الأكبر".

وفجأة حرك جدى وجهه قليلاً، فخرجت كرة من اللهب من فوهة المسدس، أضاءت رأس فانغ تشى الناعمة. فتهاوى جسده بسرعة خرجت أمعاؤه تمامًا، ونظر أبى إلى أمعاء فانغ تشى، ولم يكن يصدق بأن بطن الإنسان تحوى داخلها هذا الكم من الأمعاء.

نظر جدى إلى المسلول نظرة، ثم قال: "وأنت أيضًا أيها الأخ المسلول. فلتسترح مبكرًا، حتى لا ندع فرصة لهؤلاء اليابانيين الملاعين ينهون حياتك بأيديهم!". وأطلق جدى الرصاصة الأخيرة على المسلول.

وبعد أن قتل جدى هذا القاتل الذى اعتاد أن يزهق الأرواح بلا حساب. بعد أن قتل المسلول لم يستطع أن يتمالك نفسه من شدة الموقف، فسقط من

يده المسدس، وأحس بأن يده شُلت تمامًا، ولم يستطع أن ينحنى قليلاً ليأخذ المسدس ثانية.

مال أبى على الأرض، والتقط المسدس ووضعه داخل حزامه الملفوف حول خصره، وحاول أن يشد أباه الذى كان شاردًا تمامًا قائلاً: "أبى، فلنعد إلى المنزل. فلنعد إلى المنزل".

وهكذا سحب أبى جدى وصعدا إلى حافة النهر، وسارا بخطى بطيئة صوب الغرب. ونظرا إلى السماء، فإذا بقمر اليوم التاسع من شهر أغسطس وقد لاح فى الأفق، وأضاء القمر ظهرهما، وانعكس ضوؤه على نهر مواشوى العظيم. وراحت جماعات الأسماك الصغيرة تنطلق وتحوم حول نفسها بعد أن استفزتها مياه النهر الممتزجة بالدماء. امتزجت نسمات برودة مياه النهر مع نسمات الدفء المنبعثة من داخل حقول الذرة، لتكونا معًا هالة من الضباب الخفيف الصافى. وتذكر أبى الضباب الذى شاهده فجر ذلك اليوم عند بدء الرحلة، وأحس بأن هذا اليوم مر عليه كأنه عشر سنين كاملة، بل مر كلمح البصر. وتذكر أمه عندما خرجت تودعه وسط ذلك الجو الضبابى، وبدا له مشهد توديعها بعيدًا وقريبًا فى آن. وتذكر الصعوبات التى لاقاها خلال السير وسط حقول الذرة، ومشهد نزيف أذن العم وانغ ون إى، ومشهد تقدم أعضاء الفريق الأربعين إلى الطريق العام، وخنجر العم الأخرس، وروس الشياطين اليابانيين، ومؤخرة ذلك الشيطان العجوز، ومشهد سقوط أمه على حافة النهر.. ومشهد سقوط وتناثر سلة الفطائر.. وسقوط أعواد الذرة الحمراء.. ومشهد سقوط أعواد الذرة وكأنها أبطال تتساقط فى أرض المعركة..

حمل جدى أبى الذى كان قد غلبه النعاس أثناء سيره، ثم أحس جدى بأن المسدس الذى كان يعلقه أبى عند خصره يوخزه فى صدره، فتألم الأب كثيرًا، ثم مضى يفكر فى أن هذا المسدس هو فى الأصل مسدس الرفيق رن نائب القائد، ذلك الشاب الأسمر النحيف الوسيم الذى كان يحمل مؤهلاً جامعيًا. ثم تذكر الأب أن هذا المسدس هو نفسه الذى قتل نائب القائد والرفيق فانغ تشى والرفيق"المسلول" وود لو ألقى به فى عرض نهر موا شوى، آه من هذا المسدس المشئوم! نعم إنه يفكر فقط فى التخلص من هذا المسدس، فانحنى قليلاً، ورفع ابنه النائم على ظهره، ليخفف عن نفسه الألم الذى يسببه له المسدس.

استمر جدى فى السير وهو تائه لا يعرف أين يكون، ولا حتى إلى أين يمضى. وبينما هو تائه وقد غلبه الدوار، سمع صوتًا قويًا. فرفع رأسه يتحقق من الصوت، فإذا به يرى تنينًا يتلوى على حافة النهر البعيدة.

ركز جدى انتباهه قليلاً، وقد بدت أمامه صورة مرتبكة غامضة حينًا وواضحة حينًا آخر، وعندما كانت الصورة تبدو غامضة كان يرى هيئة التنين المفزعة وهو يعدو بسرعة رهيبة، ويهز جسمه الضخم الممتلئ بالحراشف محدثًا صوتًا مسموعًا، ويصيح بصوت قوى جدًا، وقد اختلطت الأصوات من حولى متجمعة فى صوت قوى مفزع، وكأنه رياح عاتية تهلك جميع ما يقابلها، أما عندما كانت الصورة تبدو واضحة، فكانت عيناى تميز أن ما تراه عبارة عن تسعة وتسعين مشعلاً ناريًا، وقد بدأت المشاعل تقترب نحوى تحملها مئات البشر. انعكس ضوء المشاعل النارية على مساحات الذرة الرفيعة جنوب النهر وشماله. حيث سطع ضوء مجموعة المشاعل الأمامية على هؤلاء الذين كانوا يسيرون فى الخلف، بينما سطع ضوء

المشاعل الخلفية على السائرين فى المقدمة. فأنزل جدى أبى من فوق ظهره، وهزه بقوة، ثم قال: "دوو قوان! دوو قوان! استيقظ! استيقظ! لقد خرج أهل البلدة لاستقبالنا، انظر إنهم أهل البلدة جاءوا لاستقبالنا..".

سمع أبى صوت جدى المبحوح. ثم نظر إلى عينيه وقد نزلت دمعتان تعبران عن رضاه وسروره بقدوم أهل البلدة.

(٤)

عندما قام جدى بقتل دان يان شيو وابنه، كان قد بلغ الرابعة والعشرين من عمره. وعلى الرغم من أن لقاء جدتى به وسط حقول الذرة قد خالطه شعور بالحزن والسعادة فى آن، وعلى الرغم من أن جدتى قد ارتكبت تلك الجريمة، وحملت بأبى الذى أصبح فيما بعد ممثلاً لجيل من أجيال قرية دونغ بيى بمدينة قاو مى، على الرغم من ذلك كله فإن جدتى كانت حينها تعتبر زوجة شرعية لأحد أبناء عائلة دان الثرية، لقاؤها بجدى كان لقاءً غير شرعى، كان لقاءً عفويًا اعتراضيًا، بالإضافة إلى أن أبى لم يكن قد ولد بعد، ومن ثم فإننى سأكتب عن ذلك الرجل هنا باسم يو جان آو أدق من أن أطلق عليه جدى.

كانت جدتى قد واجهت يو جان آو آنذاك حزينة من أن زوجها الشرعى دان بيان لانغ مريض بالبرص، فراح يو جان آو يقطع بسيفه الصغير بعض أعواد الذرة، ثم طلب من جدتى أن تنشغل فقط بأمر العودة إلى هذا المكان بعد ثلاثة أيام، لم تكن جدتى تعى آنذاك ما يرمى إليه قوله، فقد أسكرتها نشوة الحب التى أحاطها بها. كان قد أضمر نية التخلص من الزوج الأبرص. وقام

ليودع جدتى إلى خارج حقول الذرة، ونظر إليها وإلى الحمار الصغير وإلى أبيها الذى كان فى سكر شديد. وسمع صوته وهو يناديها بصوت إنسان ثمل من كثرة الشراب: "ابنتى.. أنت.. قضيت كل هذا الوقت الطويل لقضاء حاجتك داخل الذرة.. إن حماك.. سيهدى لنا بغلاً كبيرًا".

لم تعبأ جدتى بهذيان والدها، وصعدت على ظهر الحمار، وجعلت وجهها تجاه حقول الذرة الممتدة على الجهة الجنوبية من الطريق. كانت تعرف جيدًا أن ذلك الحمال الشاب يراقبها من داخل الذرة. وفجأة استطاعت أن تخرج عن الحالة التى كانت تسيطر عليها منذ قليل، وانتبهت إلى أن أمامها الآن طريقًا جديدًا وغريبًا ممتلئًا بحبات تشبه كثيرًا حبات الذرة، وعلى جانبى هذا الطريق تفوح رائحة نبيذ الذرة. ولا تزال هناك مساحات شاسعة من الذرة، ثم اختلطت الذرة الموجودة فى الواقع على جانبى الطريق مع الذرة التى كانت تظهر فى خيالها، حتى أصبح من الصعب تمييز الواقعى والخيالى.

كان يو جان آو لا يزال يمسك بأعواد الذرة، وعيناه تودع جدتى وهى تنعطف يمينًا ويسارًا. ثم بدأ يعود إلى محرابه الذى نصبه داخل الذرة، وسقط بقوة وراح فى نوم عميق. ونام حتى الغروب، وما إن فتح عينيه رأى سيقان وسنابل الذرة وقد انعكست عليها شمس الغروب. فلبس رداءه المصنوع من القش، وهم بالخروج من داخل حقول الذرة التى بدأ يلفها الظلام، وبينما هو كذلك هبت رياح خفيفة تبعها صوت ارتطام أعواد الذرة بعضها ببعض. وأحس ببرودة الجو، فشد رداءه عليه. واصطدمت يده ببطنه الخاوية التى سمع شكواها من شدة الجوع والعطش. وبينما هو شارد هكذا، تذكر أنه قبل ثلاثة أيام مضت، وعندما كان يسير من هذا المكان حاملاً تلك المرأة على ظهره، كان قد رأى لافتة مطعم بالية أسفل أحد المساكن عند مدخل القرية.

وهكذا أرغمه الشعور بالجوع والعطش على كسر حاجز الخوف والتردد، فهم بالخروج من حقول الذرة، وأسرع الخطى يقصد ذلك المطعم. وراح يفكر فى أنه قد جاء إلى هذه البلدة قرية دونغ بيى ليعمل فى شركتها لخدمات الأفراح والجنائز منذ أقل من عامين، وأن سكان المنطقة القريبة من القرية لن يتعرفوا عليه. وعزم على الذهاب بسرعة إلى الحانة التى يوجد بها المطعم ليسد جوعه ويروى عطشه، ثم العودة بأسرع ما يمكن إلى مأواه داخل حقول الذرة. وما إن فكر فى هذه الخطة التى رسمها لنفسه، حتى راح يتأمل منظر الغروب والظلمة التى بدأت تلف المكان. ثم توجه صوب اليسار، ثم سار يقصد قرية دان بيان لانغ الزوج الشرعى لجدتى. وكانت الحقول قد أصبحت فى سكون تام، نام جميع أهل القرية من الفلاحين الذين يعملون فى هذه الحقول، فلم يكن أحد منهم يجرؤ على الوجود خارج منزله ليلاً، وبمجرد دخول الظلام، كانت الحقول تتحول إلى فضاء يلفه ظلام الليل وسكونه. وقد حالفه الحظ فى تلك الأيام، حيث لم يعترض طريقه أى من قطاع الطرق. وعندما دخل يو جان آو القرية كان الدخان يتصاعد من مطابخ منازلها، ورأى شابًا وسيمًا يأتى من ناحية البئر وهو يحمل جرتين ممتلئتين بالمياه الصافية. ودلف يو جان آو إلى داخل الحانة التى كانت خالية من الأسوار، فيما عدا بسطة صغيرة من الطين تقسم المكان إلى نصفين، ورأى بالداخل موقدًا ومرجلاً وجرة كبيرة. وخارج الحانة توجد منضدتان قديمتان، تحيط بهما فى غير انتظام مجموعة من المقاعد الصغيرة الضيقة. وأعلى البسطة يوجد مجموعة من أدوات النبيذ. وهناك شيخ ممتلئ يقف عند الموقد. وما إن نظر يو جان آو إلى الرجل حتى عرفه على الفور، كان ذلك الرجل يدعى "قاو لى بانغ تزه" وقد اشتهر بقتل الكلاب. وتذكر يو جان آو أنه رأى هذا الرجل فى منطقة ما جيان جيى شانغ، وقد تمكن من قتل كلب خلال أقل من نصف دقيقة، حتى أن جميع الكلاب فى ذلك المكان كانت ترهبه ولا تجرؤ على التقدم نحوه.

وجلس يو جان آو على أحد المقاعد، ثم قال: "أعطنى كأسًا من النبيذ أيها المعلم!".

فلم يتحرك الشيخ السمين من مكانه قيد أنملة، وراح يحرك مقلتيه الرماديتين.

فصاح يو جان آو: "يا معلم!".

فنزل العجوز من أعلى المصطبة وفتح جلد كلب. كان يتغطى بجلد كلب أسود، ويفترش جلد كلب أبيض. رأى يو جان آو جلودًا لكلاب خضراء وزرقاء وملونة معلقة على الحائط.

ومد الشيخ يده، وأخرج من أسفل البسطة سلطانية حمراء بنية، وراح يصب داخلها بعض النبيذ.

فسأله يو جان آو: "ما هذا الشيء الذى تستخدمه فى صب النبيذ؟"

فأجابه العجوز بلهجة قاسية: "رأس كلب!"

فقال يو جان آو: "إذا أرغب فى أكل لحم الكلاب!"

فرد العجوز: "لا يوجد سوى لحم رأس الكلب!"

فقال يو جان آو: "فليكن لحم الرأس!"

فتح العجوز غطاء القدر، ليرى يو جان آو أن بداخله رأس كلب يغلى.

فصاح يو جان آو: "أرغب فى أكل لحم الكلاب!"

فلم يعره الشيخ أدنى اهتمام، وانشغل بالبحث عن سكين، وراح يقطع الرأس الذى كان يغلى داخل القدر، ثم وضع ما انتهى منه أعلى البسطة. فراح يو جان آو يسبه قائلاً: أخبرتك أننى أرغب فى أكل اللحم!"

فدفع الشيخ الرأس أمامه قائلاً: "إما أن تأكل، وإما أن تنصرف!".

"هل تجرؤ على سبى؟".

فرد الشيخ: "فلتجلس أيها الشاب!"، "هل ترى أنك تستحق أكل اللحم؟ لقد تركت اللحم ليأكله السيد خوا بوه تزه".

كان هذا السيد خوا بوه تزه زعيم عصابة قطاع طرق مشهور فى قرية دونغ بيى، حتى أن يو جان آو قد ذهل بمجرد سماع اسمه. وتقول الإشاعات المختلفة إن خوا بوه تزه بارع فى إطلاق الرصاص، حتى أنه يلقب "بملك النار"، وما إن تسمع رصاصة فى أى مكان داخل القرية، حتى يؤكد الجميع أنه هو الذى أطلقها. وعلى الرغم من أن يو جان آو لم يكن ليستسلم لقول العجوز، فإنه اضطر للسكوت، ومد يده وحمل سلطانية النبيذ وأمسك بلحم الرأس، وبدأ يلتهمها بشراهة. كان يشعر بجوع شديد. فأكل حتى شبع، وراح يتجشأ.

فقال العجوز: "دا يانغ واحدا!".

"معى سبع عملات نحاسية فقط". أخرج يو جان آو العملات النحاسية السبعة ووضعها أعلى المنضدة.

"دا يانغ كاملاً!"

"معى سبع عملات نحاسية فقط!".

"أيها الشاب، هل جئت إلى هنا.....".

"معى فقط سبع عملات نحاسية!"، وقام يو جان آو ليغادر المكان، فتقدم الشيخ إلى أمام البسطة وجذبه إليه. ودخل آنذاك رجل ضخم البنية.

فتساءل الرجل الضخم: "يا معلم قاو لى بانغ تـزه، كيـف لا تـشعل المصابيح؟".

فأجاب الشيخ: "لقد تعرضت لأحد الذين يرغبون فى الأكل بالقوة!"

فبدا الرجل الضخم عابسًا، ثم قال: "فلتقطع لسانه أشعل المصباح!"

ترك الشيخ يو جان آو من بين يديه، وتقدم نحو البسطة، وأشعل فتيل المصباح. فانعكس ضوؤه على ذلك الرجل الضخم، ليرى يو جان آو الرجل بوضوح، كان يلبس حلة من الحرير الأسود، وحذاء مصنوعًا من القمـاش، وبدا الرجل ضخم البنية، ذا رقبة طويلة فخمن يو جان آو أنه بالتأكيد زعـيم عصابة قطاع الطرق خوا بوه تزه.

راح خوا بوه تزه يحدق النظر فى يو جان آو، ووضع فجـأة ثلاثـة أصابع من أصابع يده اليسرى على جبهته.

فنظر يو جان آو إليه وهو فى حيرة من أمره.

هز خوا بوه تزه رأسه، ثم قال: ".....

قال يو جان آو: "أنا أحد الحمالين المأجورين".

فقال خوا بوه تزه بازدراء: "إذا فإنك تأكل من طعام موائد المناسبات. وكيف تجرؤ على أن تأكل من الطعام المخصص لى؟".

رد يو جان آو: "إطلاقًا".

فقال خوا بوه تزه: "فلتغرب عن وجهى، ولأرحم شبابك حتـى أمـنح لسانك هذا فرصة تقبيل النساء!".

فتراجع يو جان آو بسرعة إلى الخلف، ثم إلى خارج الحانـــة، وهـــو لا يعرف حقيقة الشعور الذى يسيطر عليه فى تلك اللحظة. فعلى الرغم مـــن أنه يتحلى بالسمات الأساسية للعمل كأحد أفراد عـــصابات قطـــاع الطـــرق، فإنه لا تزال هناك مسافة كبيرة بينه وبين أن يكون قاطع طريـــق بـــالمعنى الحقيقى للكلمة. ومن ثم فقد كانت هناك أسباب كثيرة جعلته يتأخر فى العودة إلى مأواه داخل حقول الذرة. ويمكن تلخيص هذه الأسباب فى ثـــلاث نقـــاط أساسية: أولاً خضوعه لثقافة وأخلاقيات المجتمع، واعتقاده بأن العمل كقاطع طريق يعتبر اعتداء وسرقة ومخالفة للتعاليم السماوية. بالإضافة إلى تقديسه للسلطات المحلية وعدم زعزعة ثقته فى ضرورة الحـــصول علـــى الثـــروة والزوجة بالطرق "الشرعية". ثانيًا: أنه لم يتعرض بعد لأى ضغوط تجبـــره على العمل كقاطع طريق أو القيام بما شابه ذلك من أعمال. ثالثًا: أن وجهـــة نظره فى الحياة الإنسانية فى مرحلة التطور، وأنها لم تصل بعـــد للمـــستوى الذى يرى به قطاع الطرق هذه الحياة. أما فيما يتعلق بالموقف الذى كان قد تعرض له قبل ستة أيام مضت عندما قام بقتل قاطع الطريق الذى اعتـــرض الهودج، نقول على الرغم من أنه قد أظهر شجاعة ملحوظة فى هذا الموقف وتصدى لقاطع الطريق، فإن الدافع الرئيسى لما قام به كـــان انطلاقًـــا مـــن الشعور بالعدل والعطف والشفقة، وعدم بروز ما يشير إلى صـــفات قـــاطع الطريق. أما قيامه بخطف جدتى قبل ثلاثة أيام مضت إلى داخل حقول الذرة، فإن ذلك قد وقع منه انطلاقًا من عشقه للنساء الجميلات، ولم يبرز فى هـــذا الموقف أيضًا ما يعبر عن روح وصفات قـــاطع الطريـــق. وتعتبـــر قريـــة دونغ بيى بمدينة قاو مى منطقة تفشى فيها ظهور عصابات قطاع الطـــرق، بل إن العناصر المكونة لهذه العصابات كانت على درجة كبيرة من التعقيـــد، كما أننى كنت قد قمت بتأليف كتاب كبير كسجل ضـــخم لعـــصابات قطـــاع

الطرق فى قرية دونغ بيى بمدينة قاو مى، وبذلت فيه مجهودًا كبيرًا إلى حد ما، وها أنا أشير إلى الخطوط العامة فى هذا المقام حتى أحدد ما إذا كنت قادرًا على خداع أو تضليل عدد من القراء.

وقد امتزج شعور يو جان آو تجاه زعيم العصابات خوا بوه تزه بالاحترام الكبير وكراهيته والحقد عليه فى آن واحد.

كان يو جان آو قد ولد لأسرة مطحونة، مات أبوه وهو لا يزال صغيرًا، فاعتمد على مساعدة أمه فى زراعة مساحة ثلاثة مو(١) من الأرض الزراعية للعيش من خيرها. وقد قبل عمه يو دا يا الذى كان يعمل فى تجارة الخيل والبغال مساعدة الأم وابنها، ولكنها مساعدة فى أضيق الحدود. وفى حوالى الثالثة عشرة أو الرابعة عشرة من عمره، ارتبطت أمه بعلاقة ما مع راهب بمعبد تيان تشى مياو(٢)، وكان ذلك الراهب ثريًا، فكان يداوم على مساعدتهم بالحبوب والدقيق. وكانت أمه على علاقة غير سوية بهذا الراهب، كان يداوم على زيارتها فى المنزل، والاختلاء بها بطريقة كان ابنها غير راض عنها تمامًا، حتى إنه كان يود لو أحرق عليهما المنزل ليتخلص منهما معًا، وعندما بلغ السادسة عشرة من عمره، كانت علاقة أمه بالراهب قد شهدت تطورًا كبيرًا، وكثر الكلام فى القرية عن هذه العلاقة السيئة، وكان أحد أصدقائه الذى كان يعمل حدادًا قد أهدى له سيفًا، فاستخدم يو جان آو السيف وطعن به الراهب مساء ليلة ربيعية على ضفة جدول بحدود القرية، كانت توجد على جانب ذلك الجدول الكثير من أشجار

---

(١) مو: وحدة لقياس الأراضى فى الصين. ويساوى المو الواحد حوالى ٦٦٦ متر مكعب، وتساوى ١٥ مو مساحة ١ هيكتار. (المترجم).

(٢) معبد تيان تشى: معبد لمذهب الطاوية، يقع فى مدينة فيبى تشينغ بمقاطعة شان دونغ شرقى الصين. وقد تهدمت أجزاء كبيرة من هذا المعبد منذ عام ١٩٥٢، وهو الآن فى حالة سيئة. (المترجم).

الكمثرى، قتل الراهب فى موعد تفتح أزهار أشجار الكمثرى، وبعد أن قام بقتل الراهب لاذ بالفرار من القرية، وأدمن بعدها لعب القمار وعشق المال عشقًا كبيرًا، وأثناء تولى تساو مينغ شئون مدينة قاو مى، كان يو جان آو قد قُبض عليه بتهمة لعب القمار ليل نهار وتم الحكم عليه بضربه مائتى ضربة بنعال الأحذية، وأن يطوف شوارع المدينة لمدة شهرين مرتديًا بنطالاً قدم منه باللون الأحمر والأخرى باللون الأسود، وبعد إطلاق سراحه، انتقل إلى قرية دونغ بيى للعمل أجيرًا، وبعد مغادرته المدينة، كان قد سمع أن أمه حكم عليها بالإعدام على باب المنزل بعد موت الراهب، فرجع إلى بلدته ليلاً ليرى أمه، بعدها وقعت على الفور حادثة انفراده بجدتى داخل حقول الذرة.

بعد مغادرته الحانة الصغيرة، عاد يو جان آو إلى حقول الذرة مرة أخرى، وراح يراقب من داخل الذرة تلك الحانة والضوء الذى كان مشتعلاً داخلها، واستمر فى مراقبتها حتى ظهور الهلال فى السماء ثم اختفائه، وبينما هو قابع فى الخلاء داخل حقول الذرة، أحس ببرودة الجو التى ازدادت عما كانت عليه قبل مغادرة الذرة إلى الحانة، وفى منتصف الليل، سمع صوت حركة داخل الحانة الصغيرة، وقد انطفأ ضوء المصباح، ولاحظ ظل رجل ضخم يظهر خلف الضوء، وتقدم إلى المصباح ثم عاد ثانية، فعرف يو جان آو أن ذلك الظل هو ظل الشيخ السمين صاحب الحانة، ودخل العجوز غرفته، وبعد أن قام بإطفاء المصباح، رأى يو جان آو لافتة الحانة من جديد، ورأى زعيم العصابات خوا بوه تزه قادمًا على جانب الطريق، فكتم يو جان آو أنفاسه وبقى قابعًا فى مكانه، وتوقف الزعيم أمام المكان الذى كان يختبئ داخله بالضبط ليقضى حاجته، ومسح يو جان آو على سيفه، محدثًا نفسه بأنه إذا تقدم خطوة واحدة، فإنه سيتمكن من القضاء على هذا الزعيم المعروف، وبدأت ترتعد جميع فرائصه، ومضى يفكر فقط فى أنه لا يوجد

أى عداء بينه وبين الزعيم خوا بوه تزه، بل إن هذا الزعيم عدو لدود للسيد تساو مينغ رئيس المدينة، وهذا الرئيس هو الذى حكم عليه بالضرب مائتى ضربة بنعل الحذاء، وإنه لا يجد أى مبرر يحمله على قتل الزعيم خوا بوه تزه، ثم عاد ليفكر فى أنه: كان فى الأصل يملك الفرصة لقتل هذا الزعيم المعروف خوا بوه تزه، لكنه تعمد ألا يقتله.

وبالطبع فإن الزعيم خوا بوه تزه لم يكن يعرف الخطر الذى ينتظره على مقربة منه، بل لم يكن يعرف ما سيحدث من أمر قتله فى نهر موا شوى على يد هذا الشاب، وغادر الزعيم المكان بعد أن انتهى من قضاء حاجته.

وعندها سارع يو جان آو بالخروج من داخل مخبئه وسط حقول الذرة، وتسلل إلى داخل القرية، ومضى يتسلل بحذر شديد لم يثر أيًا من أهل آو كلاب القرية، وعندما وصل إلى فناء دار عائلة دان، حبس أنفاسه وركز انتباهه جيدًا، وراح يراقب الوضع بحذر شديد، كانت دار عائلة دان تتكون من عشرين غرفة فى صف واحد، يفصل بينها سور يقسمها إلى نصفين، به بوابتان كبيرتان، الجزء الشرقى من الدار مخصص لفرن لصناعة النبيذ، أما الجزء الغربى فكان مخصصًا لإقامة أهل البيت، وكان داخل هذا الجزء الغربى ثلاث غرف جانبية، وبالجزء الشرقى ثلاث غرف جانبية يسكنها عمال الفرن، كما كانت هناك خيمة صيفية كبيرة داخل الجزء الشرقى من الفناء، تحتها رحى حجرية كبيرة، أمامها زوج من البغال السوداء الكبيرة، كان هناك داخل هذا الجزء الشرقى أيضًا ثلاث غرف جنوبية، تفتح على باب صغير؛ كان يتم داخل هذه الغرف بيع النبيذ الذى ينتجه الفرن الكبير المملوك لعائلة دان، ولم يستطع يو جان آو رؤية منظر الفناء بالكامل، كان السور عاليًا جدًا، حتى إنه فشل فى تسلق السور، فراح يقفز لأعلى

محاولاً صعود السور، ولكن صوت قفزاته أيقظت الكلاب التى كانت داخل الفناء فراحت تنبح بصوت مرتفع، فتراجع بعيدًا عن نظر الكلاب، واختبأ هنالك إلى جانب الجزء المخصص لجمع وتشميس الذرة المستخدمة فى صناعة النبيذ، وراح يدبر خطة الهجوم، وكان هذا الجزء الذى يختبئ به ممتلئًا بكميات كبيرة من أعواد الذرة، وكانت هذه الأعواد مكدسة فى هذا المكان لتشميسها، وقد نشرت رائحة عطرة عمت جميع أرجاء المكان، وبينما هو مقرفص إلى جانب أعواد الذرة، قام بإشعال النيران فى تلك الأعواد، وعندما شارفت النيران على التوهج، تذكر أمرًا ما، فقام على الفور بإخمادها ثانية، ثم عاود وأشعل النيران مرة ثانية فى كومات أعواد الذرة التى كانت على بعد بضع وعشرين خطوة من المكان الذى أشعل فيه النيران فى المرة الأولى، وبسبب هدوء الرياح فى ذلك اليوم، اشتعلت النار بسرعة، ثم انطفأت أسرع، واستمر فى محاولاته حتى نجح فى إشعالها، لتشتعل بقوة وتغطى سماء القرية برمتها.

راح يو جان آو يصيح بأعلى صوته: "أطفئوا النيران، أطفئوا النيران"، ثم قفز بسرعة ليختبئ داخل الجزء الغربى من فناء دار عائلة دان، وارتفعت ألسنة اللهب، وعم الصخب القرية، ولم يتوقف نباح الكلاب، وأفاق عمال فرن صناعة النبيذ من مخادعهم فى الجزء الشرقى من الفناء، وراحوا يصيحون فى صوت واحد أن أطفئوا النيران، وتم فتح بوابة الفناء الكبيرة، لتظهر جماعة تزيد على عشرة أشخاص يرتدون ملابس غير مرتبة، وتم أيضًا فتح بوابة الفناء الغربية؛ ليظهر الشيخ الثرى دان يان شيو مستندًا على البوابة، وهو غارق فى البكاء والصياح، وخرج فى نفس الوقت زوج من الكلاب الكبيرة ذات الشعر الأصفر، وراحت تحيط باللهب وهى لا تتوقف عن النباح.

سمع صوت صياح الشيخ الثرى وهو ينادى: "النجدة.. النجدة."، فلبى العمال نداءه مسرعين، وأخذوا بالجرادل وتوجهوا صوب البئر كما أسرع الشيخ عائدًا إلى منزله، وخرج ممسكًا بجرة كبيرة ولحق بالعمال إلى البئر.

وخلع يو جان آو رداءه المصنوع من القش، وتسلل عبر سور الفناء؛ ليجد نفسه أخيرًا داخل الجزء الغربى من الفناء الكبير، فوقف هنالك خلف السور يراقب الجمع الغفير من العمال وهم يهرولون نحو مصدر الحريق؛ ورأى أحد العمال وقد حمل دلوًا من الماء، ثم مضى ليسكبه بسرعة على ألسنة اللهب، وهكذا كان العمال يحاولون جاهدين لإخماد النار التى كانت تشتعل أحيانًا وتخمد أحيانًا أخرى، مكونة لوحة فى غاية الجمال.

سمع صوت أحد الحكماء يقول: "يا معلم دان، لا داعى لإخماد هذه النيران، دعها تخمد من نفسها".

فرد المعلم الشيخ باكيًا: "أطفئوا النيران.. أطفئوا النيران." ، "فلتسرعوا فى إطفاء النيران.. إن هذه الكومة حصيلة شتاء هذا العام كاملاً.".

ولم يكن يو جان آو مهتمًا بمشاهدة ما يحدث بالخارج، فمضى يتسلل حتى نجح فى دخول غرف الجزء الغربى من الفناء، وما أن دخل إلى الغرف الداخلية، حتى شعر برطوبة شديدة، وسمع صوتًا تفوح منه رائحة تعفن قادم من إحدى الغرف الداخلية يقول: "أبى.. ما الذى احترق.".

وانعكس لهيب النار إلى داخل الغرفة، فتسمر يو جان آو فى مكانه، وراح يحاول التخفى عن صاحب الصوت، بينما كان صاحب الصوت لا يزال يوجه أسئلته لأبيه، وقد دخل الضوء إلى الغرفة عبر ستارة النافذة المصنوعة من الورق، فنظر إلى أرجاء الغرفة، فإذا برأس إنسان ترقد هنالك على الوسادة، فمد يده يتحسس الرأس، فقبض صاحبها على يده وقال

مذعورًا: " من.. من أنت"، ثم حاول القبض على يده بقوة، فاستل يو جان آو سيفه الصغير وضرب تلك الرقبة البيضاء الطويلة، فطرطش الدم على يديه، وشعر بامتعاض شديد، فرفع يديه عن الجثة مفزوعًا، بينما كانت الرأس لا تزال تجاهد فى مكانها، وبدأت الدماء تنزف بكثرة، فراح يو جان آو يمسح يديه بملاءة المصطبة وهو يشعر بالاشمئزاز، ثم استعاد سيفه الصغير وجرى إلى خارج الغرفة، وانتزع بعض الحشائش من داخل القدر وراح يدعك بها يديه وسيفه وخنجره، حتى بدا السيف يلمع وكأنه دبت فيه الحياة من جديد..

كان منذ أن أهدى له صديقه الحميم الحداد تشينغ هذا السيف، يداوم على اللعب به يوميًا، وكان يحركه بشدة فى كل مرة يزور فيها الراهب منزلهم ويختلى بأمه، وكان الكثير من أهل القرية يضايقونه ويقولون بأنه راهب صغير، الأمر الذى كان يجعله ينظر إليهم بغضب شديد، ومنذ ذلك الحين، كان السيف لا يكف عن الحركة أسفل الوسادة، حتى إنه لم يكن يقدر على النوم، فعرف حينها أن الوقت قد أزف، وحسب المعتاد فإن تلك الليلة كانت من المفترض أن تكون ليلة مقمرة، إلا أن الغيوم الكثيفة حجبت القمر تمامًا، ونام أهل القرية مبكرًا، وهطلت أمطار خفيفة تركت آثارها على سطح الطريق، ودخل الراهب إلى منزلهم وهو يحتمى بمظلة من القماش الأصفر، وبينما كان يرقد داخل حجرته الصغيرة، رأى الراهب وهو يلم المظلة، وانشغل بمسح الطين العالق بحذائه، وسمع صوت أمه تسأل الراهب: "لماذا تأخرت هكذا؟" فرد الراهب: "كنت منشغلاً بزيارة القبر فى اليوم السابع لوفاة زوجة "دا ياو رن" من غرب القرية؛ حيث ذهبت إلى هناك لتلاوة بعض الترانيم"، "كنت أحسب أنك لن تأتى هذه الليلة"، و"كيف أستطيع ذلك؟!"، "سآتى إليك حتى ولو سلط السيف على رقبتى"، فلتدخل بسرعة!"، وعندما دخل الراهب عتبة المنزل سألها بصوت منخفض: "هل لا تزالين تشعرين

بألم فى معـــدتك؟"، "لقـــد زال الألـــم بعـــض الـــشىء،...". "فـــيم تفكـــر؟" "لقد مرت عشرة أعوام على رحيل زوجى.. بالإضافة إلى أنه قد تقـــدم بـــى العمر، من الصعب أن يحدث ما تفكر فيه الآن"، "حسناً، اصعدى إلى جوارى لأتلو عليك بعض الترانيم".

ولم تغمض عيناه فى تلك الليلة، بقى ساهرًا يستمع إلى حركة الـــسيف تحت الوسادة، وإلى صوت تساقط المطر خارج النافذة، حتى اســتمع إلـــى صوت شخير الراهب بعد أن غط فى نوم عميق ثم صوت همهمات أمه وهى غارقة فى عالم الأحلام، وفجأة انتفض مذعورًا إثر سماع صوت البومة التى كانت تعشش أعلى الشجرة القريبة من نافذته، فقام مـــن ســـريره وارتـــدى ملابسه، ثم حمل سيفه الصغير، ومضى حتى وقف خارج الحجرة التى ينـــام داخلها الراهب وأمه وجعل يتصنت عند باب الغرفة، ومد يده وفـــتح بـــاب غرفته، ثم مضى إلى الفناء، ونظر إلى السماء، فرأى بعض الغيوم الخفيفة، ونظر إلى ضوء الفجر الذى بدأ ينبثق ليضيء الفناء، ولم تكن الأمطار قـــد توقفت بعد؛ حيث كان يسمع صوت تساقط حبات المطر داخل بركة المياه، ثم مضى يسير ناحية الطريق المتعرج الصغير المؤدى إلى معبد تيان تشى مياو، وكان هذا الطريـــق يمتـــد طولـــه حـــوالى واحـــد ونـــصف كيلـــو متـــر، يمر الطريق بجدول صغير، يمتلئ الجـــدول بـــبعض الـــصخور الـــسوداء، وفى النهار، كانت مياه الجدول تبدو صافية تمامًا، لترى عبرها عددًا كبيـــرًا من الأسماك الصغيرة تتراقص فى قاع الجدول الصغير، أما الآن فقـــد بـــدا الجدول وقد لفه الضباب، فى مشهد يجعل الناظر إليه يشعر ببعض الخوف، فوقف أعلى الصخور، وأحنى رأسه وراح يتأمل الموج الذى لا يتوقف عـــن الاصطدام بالصخور، وبقى يشاهدها وقتًا طويلاً، وعلى جانبى الجدول، كانت هناك مساحة من الأراضى الرملية المزروعة بأشجار الكمثرى، التى كان قد

حان موعد تفتح أزهارها، فعبر الجدول الصغير، ليجد نفسه وسط أشجار الكمثرى، وراح يسير أسفل تلك الأشجار على الأراضى الرملية، ويستمتع برائحة أزهار أشجار الكمثرى العطرة.

وفى عمق غابة أشجار الكمثرى، عثر على قبر أبيه، وقد نمت بجانبه مجموعة من الحشائش البرية، ثم رأى عدة فتحات لدخول وخروج الفئران بين تلك الحشائش، وراح يركز تركيزًا شديدًا لكى يستعيد صورة أبيه المرسومة فى ذاكرته؛ حيث كان يذكر أنه كان رجلاً طويل القامة نحيفًا ذا بشرة صفراء، وشارب أصفر.

عاد إلى طريق فرعى بالقرب من الجدول الصغير، وراح يتأمل الموج الذى كان يصطدم بتلك الصخور الموجودة داخل الجدول، وكانت الغيوم قد بدأت تتلاشى شيئًا فشيئًا، وبدا الطريق واضحًا أمامه، ثم رأى الراهب قادمًا فى عجالة وهو يحتمى بمظلته الصفراء، ولم يتمكن من رؤية رأس الراهب التى كانت تختفى تحت المظلة، ولاحظه وهو يعبر الجدول الصغير وقد رفع ملابسه الطويلة ومظلته، استطاع حينها أن يرى وجهه الأبيض النظيف، فضرب على سيفه ليسمع حركة السيف وكأنه يرد له التحية، وبعد أن عبر الراهب الجدول الصغير، أنزل ملابسه مرة أخرى، ولاحظ أن هناك بعض الطين قد علق بملابسه الطويلة، فأخرج منديلاً وراح ينظف بقع الطين، كان ذلك الراهب الأبيض النظيف يعشق النظام والنظافة، كنت دائمًا تشم رائحة صابون عطرة تفوح من جسده الأبيض النظيف.

اقترب يو جان آو ليشم رائحة الصابون العطرة، وينظر إلى الراهب وهو يلم مظلته الصفراء - كان يقوم أثناء ذلك بهزها لتصفية قطرات المياه التى علقت بها - ثم وضع المظلة تحت إبطه، ونظر إلى رأس الراهب كانت تلمع، وتذكر عندما كانت أمه تمسح بكلتا يديها هذه الرأس، بينما يكون

الراهب نائمًا على حجرها وكأنه طفل رضيع، وعندما اقترب من الراهب، سمع صوت تنهداته، بينما كان السيف لا يتوقف عن الحركة داخل الجراب، فتصبب وجه يو جان آو عرقًا، وشعر بدوار شديد، وكاد أن يهوى على الأرض، ومضى يلاحق الراهب فى كل تحركاته، فإذا به يميل إلى بعض الحشائش ويتفل ثم يمضى فى طريقه، وفجأة أحس بأن السيف كما لو كان قد اتخذ قراره بنفسه وانغمس داخل ضلع الراهب، فتمايل الراهب قليلاً ثم راح يتكئ على إحدى الأشجار القريبة، ثم التفت إليه، وبدت عينا الراهب ممتلئتين بالحزن والشفقة، فشعر يو جان آو حينها ببعض الندم على ما فعل، ثم غاب الراهب فى صمت تام، وسقط أسفل الشجرة.

مد يده وانتزع السيف من ضلع الراهب، بينما راحت دماء الراهب تسيل فى مشهد يثير الشفقة، حتى إن حبات المطر التى كانت مُختزنة أعلى أشجار الكمثرى لم تعد تقوى على تحمل هذا المشهد المثير للشفقة، تساقطت مياه الأمطار على الأرض الرملية، وامتلأت الأرض ببراعم أزهار أشجار الكمثرى، وهبت رياح باردة، يذكر أنه قد شم حينها رائحة أزهار أشجار الكمثرى العطرة..

لم يشعر بأى ندم أو دهشة بعد قتل الأبرص دان بيان لانغ، فقط شعر آنذاك ببعض الاشمئزاز من منظر القتيل، وكانت النيران قد بدأت تهدأ تدريجيا، لكنها كانت لا تزال تضيء جنبات المكان، ولم تكن الكلاب قد توقفت عن النباح الذى غمر القرية بأكملها، وسمع صوت غطاء برميل الماء المصنوع من الحديد، وصوت سكب المياه داخل النيران المشتعلة.

كان قد غرق هو ورفاقه من الحمالين خلال الأمطار الشديدة التى تساقطت قبل ستة أيام، كما تبلل وجه تلك الفتاة، وكان قد وقف ومن معه من

الحمالين والطبالين والزمارين داخل هذا الفناء، وقفوا يدوسون علـــى ميـــاه الأمطار التى غطت سطح المكان، فإذا برجل كبير فى السن يخـــرج إلـــيهم ليصحب الفتاة إلى داخل الغرفة، ولم يأتِ فرد واحد من هذه القرية الكبيـــرة لمشاهدة ذلك الموكب الصاخب، ولم يلمح أى ظهور للعريس، وشم رائحـــة غير طيبة تأتى من ناحية تلك الغرفة التى دخلت إليها العروس، فراح يغمغم ومن معه من الحمالين: "من المؤكد أن يكون هذا العـــريس الـــذى يختبـــئ بالداخل مصابًا بالبرص، وعندما انتبه الطبالون والزمارون إلى أن أحدًا لـــم يخرج لرؤية الموكب، لم يهتموا بعملهم وراحوا ينفخون ويزمرون بشىء من عدم الاهتمام، وخرج إليهم ذلك الشيخ حاملاً صرة من العمـــلات النحاســـية وراح يصيح فيهم: "هذه مكافأتكم! هذه مكافأتكم!" فلتأخـــذوا هـــذه العمـــلات النحاسية وتصعدوا لأعلى"، فنظر الحمالون والطبـــالون والزمـــارون إلـــى العملات النحاسية وهى تسقط إلى أعلى مياه الأمطار التى غطت سطح أرض الفناء، ولم يهتم أحد منهم بجمعها، فنظر إليهم العجوز ثم أحنى ظهره وراح يجمع تلك العملات النحاسية، حتى جمعها كاملة، وكان يو جان آو قد فكـــر آنذاك فى أن يجهش على رقبة ذلك الشيخ النحيفة، والآن بدت أمامه النيران وقد أضاءت جميع أرجاء الفناء الكبير، وانعكست على الملـــصقات المعلقـــة على باب غرفة العروس، ثم راح يحاول قراءة الكلمات المكتوبة على هـــذه الملصقات، محا غضبه فى تلك اللحظة شعوره بالبرد والرجفة، وراح يسوق الأعذار لنفسه؛ مضى يفكر أن القتل وإشعال النيران وغيرها من هذه الطرق الشرسة هى وحدها الطريق إلى الثراء والجاه، وأنه ما دام رغب فـــى تلـــك العروس، فلم لا يقدم على قتل والد العريس؟ حتى لا يتركه يتوجع ويحـــزن على ابنه، وحتى يساعد تلك الفتاة على أن ترى عالمًا جديدًا غير عالم ذلـــك الأبرص، راح يغمغم فى داخله: "أيها الشيخ دان، أيها الشيخ دان، ســـتكون الذكرى السنوية لك فى نفس اليوم من العام القادم!"

وبدأت النيران تنحسر، وعم الظلام أرجاء المكان، ورأى سماء الفناء وقد امتلأت بالنجوم، وكانت لا تزال هناك بعض بقايا الرماد التى لا تزال مشتعلة بعض الشيء، فراح العمال يسكبون الماء على الرماد، ثم حملوا جرادل الماء ووضعوها على الأرض.

سمع صوت ذلك الشيخ الحكيم يقول: "يا معلم دان، لا تحزن، لقد انتهت هذه النكبة".

فرد عليه المعلم دان يان شيو وهو يثرثر بكلمات تحمل تأنيب الرجل: "أظن أنه من الأدب أن نراعى التعاليم السماوية ولا نشمت فى غيرنا.. نعم لا داعى للشماتة".

"يا معلم دان، فلتدع هؤلاء العمال يعودون إلى أماكن راحتهم؛ ليستريحوا بعض الوقت، فإنهم سيعاودون العمل ثانية صباح الغد".

"التزم تعاليم السماء.. التزم تعاليم السماء ولا داعى لهذا الهراء.".

قصد العمال العودة إلى أماكن راحتهم داخل الجزء الشرقى من الفناء وهم متعثرو الخطى، وبينما كان يو جان آو يختبئ خلف السور، أحس بأن المكان قد لفه الصمت تمامًا بعد آخر صوت سمعه عند قيام العمال بوضع جرادل المياه على الأرض، وبعد أن تعب المعلم صاحب الفرن دان يان شيو من تكرار "التزم التعاليم السماوية"، "التزم التعاليم السماوية"، عاد إلى داخل الفناء ممسكًا الجرة المصنوعة من الطين، وسبقه إلى الداخل كلبان كبيران، وقد بدا عليهما شدة التعب، حتى إنهما لم يصدرا أدنى صوت عندما سمعا صوت حركة يو جان آو، وسمع يو جان آو صوت حركة أسنان وحوافر زوج البغال فى الجزء الشرقى من الفناء، واقترب طلوع الفجر، وكان لا يزال قابعًا فى مكانه ينتظر خروج المعلم لينقض عليه عندما يكون على بعد

ثلاث إلى خمس خطوات من باب الفناء، وقد هجم على العجوز بقوة، حتى إن السيف انغمس كاملاً داخل صدر الشيخ الكبير، فحاول الشيخ أن ينظر خلفه قليلاً، ثم سقطت الجرة التى كان ممسكًا بها، ثم تهاوى على الأرض، فسمع صوت نباح خفيف أصدره الكلبان، ثم هدأ تمامًا ولم يهتم بما حدث، فمد يو جان آو يده واستل السيف، ومسحه فى ملابس القتيل، وعدل ملابسه ليغادر المكان، لكنه توقف ثانية.

دخل إلى الغرفة وسحب جثة الابن الأبرص دان بيان لانغ إلى وسط الفناء، وعثر على حبل من ناحية السور، وربط القتيلين معًا، ثم حملهما وخرج إلى الشارع، واستمر فى جر القتيلين والدماء لا تزال تنزف من جرحيهما، وسحبهما إلى جانب ترعة عند الناحية الغربية للقرية، كانت مياه الترعة ساكنة فى ذلك الحين، وعندما قام الأخرس بقتل عم يو جان آو السيد يو دا يا بعد مرور ثلاثة عشر عامًا من هذا اليوم، كانت مياه الخليج قد جفت إلى حد كبير، وقام يو جان آو بإلقاء الجثتين داخل الخليج لتحدثا صوتًا مسموعًا، واستقرت الجثتان فى قاع المياه، ثم مال يو جان آو إلى مياه الخليج ليغسل يديه ووجهه وسيفه، ولكن لم يستسغ أن يستخدم هذه المياه التى تعكرت بدماء الجثتين، ومضى إلى الناحية الغربية من الطريق، وقد نسى أن يرجع إلى منزل عائلة دان ليأخذ ملابسه، وعندما كان على بعد مائتين وخمسين مترًا من الخروج عن حدود القرية، انعطف إلى داخل حقول الذرة، وقد عاقته أعواد الذرة بعض الشيء، فسقط وسط الذرة، وشعر حينها بتعب شديد شمل جميع فرائصه، وانقلب على ظهره ولم يبال ببرودة الجو، ونظر من خلال أعواد الذرة إلى السماء، ثم راح فى نوم عميق.

(٥)

كان السيد دان وو خوه تزه عمدة القرية قد عزم على الذهاب للمشاركة فى إطفاء الحريق؛ ليقوم بدوره عمدة لهذه القرية، إلا أن المرأة "شياو باى يانغ "تاجرة القنب اعترضت طريقه ومنعته من الذهاب إلى منزل دان يان شيو، كانت سيدة سمينة بيضاء، عوراء، وكانت قد تسببت فى قتال شديد بين جماعتين من عصابات قطاع الطرق استخدمت فيها الخناجر والأسلحة من أجل الفوز بهذه السيدة السمينة، من قبيل ما يطلق عليه "الصراع على الأوكار بين قطاع الطرق".

وقبل أن يمر ثلاثة أعوام على تولى السيد تساو مينغ جيو رئيس مدينة قاو مى رئيسًا معيناً من حكومة الشمال(١)، كان قد اشتهر بقراره حول المحظورات الثلاثة.

ويعتبر السيد تساو مينغ جيو واحدًا من الشخصيات الشهيرة فى تاريخ مدينة قاو مى، وعلى الرغم من أن سمعته وإنجازاته لم تصل لمستوى سمعة وإنجازات السادة يان يينغ (الذى عمل رئيسًا للوزراء فى عصر مملكة تشى) والسيد جينغ شيوان (أحد العلماء البارزين فى عصر أسرة خان الشرقية) وغيرهم من أبناء مدينة قاو مى، فإن شهرة السيد تساو قد فاقت بكثير كبار الموظفين فى مدينة قاو مى خلال فترة" الثورة الثقافية الكبرى"، كان قد أطلق عليه لقب" نعل الحذاء تساو إر"، وذلك بسبب حبه لاستخدام نعال الأحذية فى

---

(١) حكومة الشمال: ويطلق عليها أيضًا " حكومة بكين " وهى الحكومة التى كانت تمثل شمال الصين منذ عام ١٩١٢ أى منذ مطلع تأسيس جمهورية الصين الوطنية حتى عام ١٩٢٨. (المترجم)

تطبيق العقوبات على المجرمين، وقد التحق بالمدارس الخاصة آنذاك لمدة خمسة أعوام، وعمل عدة سنوات جنديا، وكان تساو ينظر إلى عصابات قطاع الطرق وتجار الأفيون والمقامرين على أنهم يعملون على نشر الفوضى بين أبناء الشعب، ويعتقد أنه لكى تستقيم أمور البلاد فإنه لا بد من القضاء على قطاع الطرق ومنع المخدرات والقمار، كان لديه الكثير من الطرق الشريرة التى يستخدمها لإجبار المتهمين على الرجوع عن الجريمة، وقد تناقل شعب مدينة قاو مى الكثير من الحكايات حول هذا الرجل، لم تنقطع حتى يومنا هذا، كان تساو شخصية معقدة؛ من الصعب أن تنعته بكلمة واحدة مثل كونه "طيب" أو "شرير" أو غيرها من الصفات، وكانت تربطه علاقة وثيقة بعائلتى، ومن ثم فإننى سأقحمه الآن داخل السرد المتعلق بالعائلة ليكون" خيطًا " للأحداث التالية.

أما عن المحظورات الثلاثة التى اشتهر بها السيد تساو رئيس مدينة قاو مى، فهى منع القمار، ومنع المخدرات، والقضاء على عصابات قطع الطرق، نفذها على مدى عامين، وحقق خلالها نتائج كبيرة داخل المدينة، ولكن لم تكن قراراته تنفذ بصرامة فى قرية دونغ بيى، بسبب بعد هذه القرية عن مركز المدينة، ورافق العمدة دان وو خوو تزه شياو باى يانغ حتى صباح اليوم التالى، واستيقظت شياو باى يانغ قبله، وأشعلت الأرجيلة وملأتها بالمخدرات وقدمتها إلى العمدة دان، فاستلمها وراح يدخنه حوالى دقيقة واحدة، وجذبته رائحة المخدر الموضوع فى الأرجيلة، فاستمر فى التدخين دقيقتين، حتى جاءه أحد العمال الذين يعملون فى فرن صناعة النبيذ المملوكة لعائلة دان وأخبره:

"أيها العمدة! أيها العمدة! حدثت كارثة كبرى، وقعت حادثة قتل!".

فتبع العمدة دان وو خوو تزه العامل حتى وصل إلى فناء عائلة دان الكبير، وتبعه عدد كبير من عمال الفرن.

قال العمدة دان: "من المؤكد أن الجثث الآن فى الخليج!".

فلم يرد عليه أحد.

سأل العمدة دان بصوت مرتفع: "من يتشجع للنزول إلى الخليج لانتشال الجثث؟".

فنظر الجميع بعضهم إلى بعض، ولم يتشجع أى منهم على الرد عليه.

وكانت مياه الخليج تبدو آنذاك خضراء مثل الجاديت الصافى الخالى من أى عيوب، أما نباتات النيلوفر فقد كانت ثابتة فى أماكنها، وقد تغطت أوراقها ببعض قطرات المياه، كانت تبرق وكأنها حبات من اللؤلؤ الجميل.

"سأرصد لمن يقوم بذلك مكافأة مقدارها واحد دا يانغ، فمن قال أنا؟".

ولا يزال الجميع واجمين.

شم الجميع رائحة مصدرها داخل الخليج، وبدت الحشائش التى كانت على جانبى الخليج ممتلئة بالدماء البنفسجية، كانت واضحة تمامًا بعد أن انعكست عليها أشعة الشمس، ثم تجاوزت الشمس حقول الذرة المجاورة لتسطع أعلى الخليج.

راح العمدة دان وو خوو تزه يصيح بأعلى صوته: "من سينزل لانتشال الجثث؟ رصدت له واحد دا يانغ أصرفه له فى الحال!".

وأخبرتنى عجوز فى الثانية والتسعين من أهل القرية قائلة: ومن يجرؤ على القيام بمثل هذا العمل؟ إن الخليج ممتلئ بدم مريض بالبرص، فالنازل

إلى هذه المياه سيصاب حتمًا بالبرص، ومهما عرضتم من مال فلن يجرؤ أحد على قبوله والقيام بهذا العمل.. إن كل ذلك كان وراءه إثم اقترفته جدتك وجدك!"، وحيث ألقت تلك العجوز بالمسئولية كاملة على جدتى وجدى، ولم أكن سعيدًا بسماع ذلك منها، ولكننى حافظت على ابتسامة خفيفة أمامها احترامًا لشيبتها.

"لا يوجد أى منكم يرغب فى قبول العرض والنزول لانتشال الجثتين؟ اللعنة عليكم جميعًا، لا أحد يجرؤ على ذلك، إذًا فلندع السيد دان وابنه داخل المياه بعض الوقت يستمتعان ببرودة مياه الخليج! أيها الأخ ليو لوو خان، إنك أقدم عامل لدى هذه العائلة، فلتذهب إلى المدينة لتخبر السيد "نعل الحذاء تساو إر" بهذه الحادثة!".

قام الجد ليو لوو خان وأكل بعض الطعام فى عجالة، ثم شرب قليلاً من النبيذ وهم بالذهاب إلى المدينة، وسحب بغلاً أسود، ووضع أعلى ظهره جوالاً من الخيش، وصعد على ظهر البغل، وسار بمحاذاة الطريق الواقع فى الناحية الغربية من القرية قاصدًا مدينة قاومى.

وبدا الجد ليو لوو خان فى صباح ذلك اليوم واجمًا، ولم يعرف أحد سبب وجومه، وهل كان غاضبًا أو حزينًا؟ وكان هو أول من اكتشف مقتل السيد دان يان شيو صاحب عمله وابنه الأبرص دان بيان لانغ، كان قد ساوره الشك فى أمر الحريق الذى أصاب فناء العائلة فى تلك الليلة، وبمجرد أن استيقظ فى الصباح التالى، كان قد نوى البحث وتقصى حقيقة حريق الفناء، وفجأة لاحظ أن بوابة الجزء الغربى من الفناء كانت مفتوحة، فشعر بغرابة شديدة، فدخل إلى قلب الفناء ليرى بركة من الدماء، ثم تقدم إلى الغرفة الداخلية ليرى المزيد من الدماء، فأصيب بذهول شديد، ولكن فكر خلال تلك اللحظات البسيطة أن هناك شخصًا واحدًا وراء جريمتى القتل والحرق.

كان الجد لوو خان وغيره من العمال الذين كانوا يعملون لدى العائلة، كانوا يعلمون أن المعلم دان يا شيو لديه ابن مصاب بالبرص، وكانوا لا لا يرغبون فى الدخول إلى الفناء لرؤيته، وفى حالة قيامهم بذلك كانوا ينثرون على أجسادهم بعضًا من النبيذ؛ حيث كان الجد لوو خان يقول بأن نبيذ الذرة قادر على الوقاية من وعلاج آلاف الأمراض، وعندما تزوج الابن الأبرص دان بيان لانغ، لم يجرؤ أحد من أهل القرية على المشاركة فى العرس؛ حيث كان الجد لوو خان وعامل آخر هما اللذان قاما باستقبال جدتى وأنزلاها من الهودج؛ وكان الجد لوو خان قد قام آنذاك بمساعدة جدتى ومسكها من ذراعها، ورأى خلسة ذراعها الأبيض، وعلى الرغم من حادثة مقتل السيد دان يان شيو وابنه وما أصاب العائلة من مصيبة كبرى، فإن الجد لوو خان وسط دهشته من هذا الأمر وحزنه على ما حدث كان دائم التفكير فى قدمى جدتى الصغيرتين وذراعها الأبيض، وعندما رأى الدماء داخل فناء المنزل، لم يكن يعرف إن كانت هذه الدماء تحمله على أن يشعر بالحزن أم السعادة.

وخلال رحلته إلى المدينة، لم يكن الجد لوو يتوقف عن ضرب البغل لحثه على السير بأقصى سرعة ممكنة، وود لو طار البغل إلى المدينة طيرًا، فقد كان يعلم أنه لا يزال هناك مسلسل رائع ينتظره بعد هذا الحادث، فالزوجة الشابة الجميلة سوف تعود إلى الدار فى صباح الغد على ظهر الحمار، وترى إلى من ستنتقل كل هذه الأملاك الخاصة بعائلة دان؟ وهكذا انشغل الجد لوو خان فى التفكير فى جميع هذه الأمور، وأن هذه الأمور سيحسمها السيد تساو مينغ جيو رئيس مدينة قاو مى، وكان أهل البلدة يطلقون على السيد تساو خلال السنوات الثلاث التى قضاها رئيسًا للمدينة، لقب "الحاكم العادل تساو"، وكان الجميع يتحاكى عن نزاهته وعدله وحكمته فى معالجة الأمور وعدم ميله للمحاباة، وعدم تردده فى إنزال العقاب على من

يستحق، وهنا ضرب الجد لوو خان البغل ليحثه على السير بسرعة ليصل إلى هذا الحاكم العادل.

راح البغل الأسود يجرى بسرعة ويدك بأقدامه الطريق الترابى المؤدى إلى مدينة شى تونغ، بينما أردافه تلمع وقد انعكست عليها أشعة شمس النهار، ومضى البغل فى طريقه وهو يتقدم بجسمه كاملاً إلى الأمام وأقدامه تتلوى فى انسجام تام، وهى تدك الأرض غير عابئة بصلابتها، وبينما كان البغل يمضى بهذه السرعة، كانت تظهر وراءه كميات كبيرة من التراب الذى ملأ سماء الطريق، وعند منتصف النهار، كان الجد لوو خان قد وصل ببغله إلى منطقة سكة حديد جياو جى، امتنع البغل عن عبور السكة الحديد، فنزل الجد لوو خان من على ظهر البغل، وراح يسحبه بقوة، ولكن البغل لم يستسلم وظل يتراجع للخلف، وعرف الجد لوو خان أنه لن يقوى على التصدى للبغل القوى العنيد، فجلس يستريح ويفكر فى تجاوز هذه المشكلة، ونظر إلى قضبان السكة الحديد الممتدة من الشرق وقد انعكست عليها أشعة الشمس، حتى لم يعد يستطيع النظر إليها جيدًا، وخلع الجد لوو خان جلبابه، وغطى به وجه البغل، ثم جعل يسحب البغل ليدور فى مكانه بضع دورات، ثم سحبه بعدها ليتخطى قضبان السكة الحديد.

وعند المدخل الشمالى للمدينة، كان يقف شرطيان فى زى أسود وقد حمل كل منهما بندقية صنع خان يانغ، صادف ذلك اليوم يوم سوق المدينة؛ حيث رأى حشودًا من أهل المدينة خرجوا إلى الشارع بين من يدفع بعربته أو يحمل بعض الأشياء أو يركب الحمير أو السائرين على أقدامهم، ولاحظ أن الشرطيين كانا فى معزل تام عن مراقبة تلك الحشود، فلم يهتموا بسؤال المارة عن وجهتهم، وشغلوا أنفسهم فقط بمراقبة الحسناوات من بين جموع المارة.

بعد أن نجح الجد لوو خان فى الدخول إلى داخل سور المدينة، جعل يسير بين الهضاب، حتى استطاع أخيرًا أن يسحب البغل ويسير على الطريق الحكومى المرصوف بالأحجار الزرقاء، فمضى البغل يسير على ذلك الطريق محدثًا صوتًا مسموعًا، وكان البغل قد شعر ببعض الخجل فى بداية السير على هذا الطريق المرصوف بالأحجار الزرقاء، وكانت جموع السائرين على هذا الطريق قليلة ومتفرقة، وتعلو وجوههم الصرامة والقسوة، أما المساحة الفارغة التى تقع جنوب الطريق المرصوف بالأحجار الزرقاء، فكانت تعج بجموع الأهالى من مختلف الطوائف، وكانوا يقفون وسط الساحة يتساومون فى أسعار السلع المختلفة، وينادون على بضاعتهم ما بين بائعين ومشترين، ولم يكن لدى الجد لوو خان المتعة ليقف أمامهم يشاهد هذا السوق المزدحم، فسحب بغله ومضى فى طريقه حتى وصل إلى أمام المدخل الكبير لمقر حكومة المدينة، وكان المقر عبارة عن معبد قديم يحتوى على بعض الممرات التى تحتوى بدورها على عدد من الحجرات القديمة المبنية من القرميد، وكانت تنمو داخله بعض الحشائش الصفراء والخضراء، وقد تساقط الدهان الذى كان يزين بوابة المدخل الحمراء، حتى بدت مزركشة ببعض ما بقى من الدهان الأحمر، وإلى يسار المدخل، كان يقف جندى ممسكًا ببندقية، أما على يمينه، فرأى شخصًا ذراعه عار، وقف منحنيًا ممسكًا بعصى خشبية، أسفلها جرة ممتلئة بقاذورات مقززة.

سحب الجد لوو خان بغله وتقدم إلى أمام الجندى، ثم انحنى أمامه للتحية وقال: "سيدى الفاضل، جئت لأقدم شكوى إلى السيد تساو رئيس المدينة".

فرد عليه ذلك الجندى قائلاً: "لقد اصطحب سيادة رئيس المدينة السيد بيه وذهبا إلى السوق".

فسأل الجد لوو خان: "ومتى يعود سيادة رئيس المدينة؟".

قال الجندى: "وكيف لى أن أعرف، إذا كانت لديك حاجة ملحة، فاذهب لتبحث عنه فى السوق".

فانحنى الجد لوو خان لتحية الجندى مرة ثانية ثم قال: "عظيم الشكر لتوجيهكم الكريم".

وعندما رأى ذلك الشخص المخيف الواقف إلى يمين المدخل الجد لوو خان ينوى الانصراف، تحرك فجأة؛ وراح يستخدم عصاه ويعبث بالجرة المملوءة بالقاذورات ثم صاح: "فلتقتربوا جميعًا، فلتقتربوا جميعًا لمشاهدتى، أنا أدعى وانغ خاو شان، متهم فى قضية تزوير عقود رسمية، ولقد حكم على السيد تساو رئيس المدينة بأن أحمل هذه الجرة المملوءة بالقاذورات وأعبث داخلها هكذا.".

سحب الجد لوو خان بغله ومضى إلى سوق المدينة، وعندما وصل إلى السوق راح ينظر إلى جموع الأهالى الذين احتشدوا داخله ما بين بائعى أغطية المواقد، وبائعى الفطائر، وبائعى الأحذية المصنوعة من القش، وبائعى الكتب، والعرافين، والشحاذين، والقائمين على استعراضات القرود، وبائعى الحلوى، وبائعى العرائس المصنوعة من الصلصال، والمغنين، وبائعى الخضراوات والثوم والخيار، وبائعى أدوات التدخين، وبائعى الشعرية الباردة، وبائعى سم الفئران، وبائعى الكيوى، وبائعى الأطفال حيث كان هناك "سوق أطفال" مخصص لهذا الغرض، وكانوا يعلقون عودًا من العشب الجاف فى رقبة الطفل الذى يتم بيعه. كان البغل الأسود يسير وسط جموع الأهالى وهو يرفع رأسه بين الحين والآخر؛ ليصدر بعض الأصوات من احتكاك القيود الحديدية المعلقة بجسده، وكان الجد لوو خان يخشى كثيرًا أن يهيج البغل فيؤذى أحد الأهالى داخل السوق.

وأخيرًا عثر الجد لوو خان على السيد رئيس المدينة داخل سوق الدجاج.

كان السيد تساو رئيس المدينة رجلاً ذا وجه متورد، يرتدى زيًا صينيًا أزرق اللون، وقبعة من الصوف بنية اللون، ممسكًا بعصا جميلة، كان يقف داخل سوق الدجاج لحل بعض النزاعات، وقد تجمع حوله حشد كبير من الأهالى، ولم يجرؤ الجد لوو خان على التقدم إليه، فسحب بغله ووقف خارج حلقة الأهالى المحتشدين حوله، وقد تعذر عليه أن يشاهد ما يجرى داخل الحلقة من كثرة المحتشدين، فاهتدى الجد لوو خان بسرعة إلى حيلة بارعة، فقفز أعلى ظهر البغل وراح يشاهد ما يجرى داخل الحلقة بوضوح تام.

ورأى السيد تساو فإذا به رجل طويل القامة، يقف إلى جواره رجل نشيط قصير القامة، فخمن الجد لوو خان على الفور أن ذلك الرجل قصير القامة هو بالتأكيد ذلك "السيد بيه" الذى تحدث عنه الجندى، وكان يقف أمام السيد رئيس المدينة رجلان وامرأة مكبلى اليدين، وقد تصببت وجوههم عرقًا، ولم تكتف المرأة بالعرق الذى ملأ وجهها، بل كانت عيناها تذرفان الدموع، بينما كانت هناك دجاجة سمينة تجلس أمام قدمى المرأة.

وسمع صوت المرأة تقول وهى منخرطة فى البكاء: "سيدى الحاكم العادل، لقد أصيبت حماتى بنزيف الدم وليس لدينا من المال الكافى لشراء ما تحتاجه من دواء، ولذا فقد حضرت إلى السوق لبيع هذه الدجاجة التى تبيض لنا.. هو يصر على أن هذه الدجاجة تخصه هو.".

"هذه الدجاجة تخصنى، وهذه المرأة تريد أن تغتصبها منى، فلا تصدقها يا سيادة رئيس المدينة، ويشهد جميع جيرانى على كلامى هذا".

قال الرجل الذى كان يرتدى قبعة من قشر البطيخ: " سـيادة رئـيس المدينة، أنا خادمك جار المدعى وو سان لاو، ودجاجته هذه تأتى إلى منزلى كل يوم للتنافس على الطعام مع الدجاج الذى أملكه، وكثيرًا ما تعبر زوجتى عن استيائها تجاه هذا".

فبدا القلق على وجه تلك المرأة، وغشيها الصمت، ثم أجهشت بالبكـاء وهى تغطى وجهها.

خلع رئيس المدينة قبعته، وثبتها على إصبعه الوسطى وجعل يلفها عدة مرات، ثم وضعها فوق رأسه مرة أخرى.

وسأل رئيس المدينة وو سان لاو: "ماذا أطعمت دجاجك صباح اليوم؟".

فأجاب وو سان لاو وهو يحرك مقلتيه: "أطعمته اليوم بعض الحبـوب المخلوطة بقليل من النخالة".

قال الرجل الذى كان يرتدى قبعة من قـشر البطـيخ: "حقـًا حقـًا، وعندما ذهبت إلى منزله أستعير الفأس، رأيت بعينىّ زوجته وهـى تخلـط طعام الدجاج".

وسأل رئيس المدينة المرأة التى كانت لا تزال تبكى: "أيتهـا الأخـت الريفية، لا عليك بكل هذا البكـاء، هـل لـى أن أسـالك مـاذا أطعمـت دجاجتك اليوم؟"

فأجابت المرأة وهى تنشج: "أطعمتها بعض الذرة".

فقال رئيس المدينة: "أخى يان، فلتذبح هذه الدجاجة!"

أمسك يان بالدجاجة وقطع حوصلتها بمهارة فائقة؛ ليخرج منها بعض حبات الذرة.

فضحك السيد رئيس المدينة وقال: "أنت أيها المكار وو سان لاو، لقد ذبحنا لك هذه الدجاجة، فلتأت بثمنها، ثلاثة دا يانغ كاملة فى الحال!".

انتفض وو سان لاو مذعورًا، وأخرج من جيبه اثنين دا يانغ وعشرين وحدة من العملات النحاسية، ثم قال: "سيادة رئيس المدينة، لا أملك الآن غير هذا القدر من المال!".

فقال رئيس المدينة: " تبًا لك أيها الطماع!".

فأخذ رئيس المدينة النقود وقدمها للمرأة.

فقالت المرأة: "سيادة رئيس المدينة، إن دجاجتى لا تستحق كل هذا السعر، ولن أقبل ما يزيد على سعرها".

فوضع السيد تساو مينغ جيو رئيس المدينة يديه على جبهته، متعجبًا من أمر المرأة ثم قال: "نعم المرأة الطيبة المتسامحة، أما أنا تساو مينغ جيو فأنحنى أمامك لأحيى تسامحك وشهامتك!" فتقدم إلى الأمام وخلع قبعته، وانحنى أمام المرأة.

ذهلت المرأة القروية، وراحت تنظر إلى رئيس المدينة وعيناها تذرفان الدمع، ثم أفاقت بعد لحظات، وسجدت على الأرض لتحية رئيس المدينة وهى تقول: "سيادة الحاكم العادل! سيادة الحاكم العادل!".

فلمس تساو مينغ جيو ذراع المرأة بعصاه الخشبية، ثم قال: انهضى، انهضى".

فقامت المرأة القروية ووقفت أمامه.

قال السيد رئيس المدينة تساو مينغ جيو: "بالنظر إلى ملابسك القديمة المهترئة، وإلى نحافة وجهك، وأنك جئت إلى المدينة لبيع الدجاجة لأجل

شراء الدواء الذى تحتاجه حماتك، فإننى أثق فى أنك زوجة ابن بارة بحماتها، وإن حكمى هذا حكم عادل احترامًا منى لطيبتك وكونك بارة بحماتك، فلتأخذى هذه النقود كاملة، لأجل أن تشترى الدواء اللازم لحماتك، ثم خذى هذه الدجاجة أيضا، لتطعمى العجوز المريضة".

فتقدمت المرأة وأخذت النقود وحملت الدجاجة بين يديها، وغادرت المكان وهى لا تتوقف عن شكر السيد تساو.

هذا بينما كان المحتال وو سان لاو وجاره شاهد الزور يرتجفان خوفًا أسفل الشمس الحارقة.

فقال السيد تساو مينغ جيو: "أيها الطماع وو سان لاو، فلتخلع بنطالك".

بدا وو سان لاو فى غاية الخجل من أن يفعل ذلك.

فقال السيد تساو مينغ جيو: "ألم تشعر بالخزى لأن تظلم هذه المرأة الطيبة فى وضح النهار؟ وهل تعرف سعر "الخزى"؟ أسرع بخلع بنطالك!".

فخلع وو سان لاو بنطاله.

وخلع السيد رئيس المدينة حذاءه وألقى به إلى السيد يان الذى كان واقفًا إلى جواره ثم قال: "اضربه مائتى جلدة، وأوجعه ضربًا حتى يتقطع إلى أشلاء منفصلة!".

فأخذ السيد يان بحذاء رئيس المدينة، وجعل الطماع وو سان لاو يوجه مؤخرته تجاه السماء، ثم راح يضربه مائة ضربة، بينما وو سان لاو لا يتوقف عن البكاء، وبعد أن انتهى من ضربه على مؤخرته، بدأ يضربه مائة أخرى على وجهه، حتى لم يعد وو سان لاو يقوى على البكاء.

وضرب السيد تساو مينغ جيو الطماع وو سان لاو بالعصا على جبهته قائلاً: "أيها الطماع، هل ستجرؤ على النصب والاحتيال مرة أخرى؟".

فإذا بالطماع وو سان لاو ملقى على الأرض ووجهه محمر من كثرة الضرب.

ثم أشار السيد رئيس المدينة إلى الجار شاهد الزور قائلاً: "وأنت!"، "لقد قمت بتزوير الحقيقة، وما أشد خطر الكذابين أمثالك، ولا أرغب في ضربك أيها الكذاب، أخشى أن تلوث مؤخرتك حذائى النظيف، وسأجعلك تلعق فقط، ثم طلب من السيد يان أن يذهب لشراء سلطانية من العسل".

قام السيد يان مسرعًا متوجهًا إلى حيث أمره السيد رئيس المدينة، فأفسح له الأهالى الطريق، بينما كان شاهد الزور ساجدًا على الأرض.

قال السيد تساو مينغ جيو: "انهض انهض انهض، فإننى أولاً لن أضربك، ثانيًا لن أعاقبك، وسأشترى لك العسل لتأكله، فلماذا تسجد هكذا!".

وعاد السيد يان بسلطانية العسل، فأشار السيد تساو مينغ جيو إلى الطماع وو سان لاو ثم قال: "ادهن مؤخرته بهذا العسل!".

فقلب السيد يان الرجل على وجهه، ثم جاء بقطعة خشب وجعل يدهن مؤخرته بالعسل.

ثم وجه السيد تساو حديثه إلى شاهد الزور قائلاً: "العق، ألم تكن تنوى جنى بعض الفائدة من وراء شهادة الزور؟ العق!".

راح الرجل يسجد أمام السيد تساو، ويقول: "سيادة رئيس المدينة، سيادة رئيس المدينة، لن يجرؤ خادمكم على الكذب ثانية.".

فقال السيد تساو مينغ جيو: "أيها الأخ يان، جهز الحذاء، واضرب هذا الكذاب ضربًا مبرحًا".

فقال شاهد الزور: " لا داعى للضرب، لا داعى للضرب، سألعق، سألعق".

فسجد الرجل على الأرض وراح يفعل ما أمره السيد تساو مينغ جيو رئيس المدينة.

بينما كان الجمع يشاهدون ما يحدث أمام أعينهم وهم فى ذهول تام.

جعل الرجل يستمر فيما أمر به، حتى ظهر عليه التعب الشديد، فقال رئيس المدينة: "كفاك أيها الحيوان!".

فنهض الرجل ورفع جلبابه ليغطى وجهه.

وعندما هم السيد تساو مينغ جيو أن يغادر المكان مع السيد يان، إذا بالجد لوو خان يستغل هذه الفرصة وينزل من على ظهر البغل، وينادى بصوت مرتفع: "سيادة الحاكم العادل! إن هناك مظلومًا يحتاج إلى نصرتكم".

(٦)

وعندما همت جدتى أن تنزل من على ظهر حمارها الصغير، أوقفها السيد دان وو خوو تزه عمدة القرية قائلاً: "أيتها المرأة، لا تنزلى عن الحمار، فإن السيد رئيس المدينة يدعوكِ للذهاب إليه".

مضت جدتى على حمارها وقد تبعها جنديان يمسكان بسلاحهما يحرسانها وهى فى طريقها إلى خليج المياه الذى يقع فى غرب القرية، بينما كان والد جدتى يقف هناك منهكًا لا يقوى على الحركة، فوخزه الجندى بالبندقية فى ظهره، فجعله يمضى مسرعًا خلف الحمار.

ونظرت جدتى إلى شجرة صغيرة إلى جانب الخليج، فرأت بغلاً أسود صغيرًا مربوطًا بجذع الشجرة، ثم نظرت إلى سرج البغل وإلى القلادة الحمراء التى كانت معلقة فى جبهته. وعلى بعد خطوات من البغل، رأت منضدة مربعة وقد وضع أعلاها براد شاى وعدد من الأكواب، ورأت أن هناك رجلاً يجلس إلى جوار المنضدة، ولم تكن جدتى تعرف آنذاك أن هذا الرجل هو السيد تساو مينغ جيو رئيس المدينة المعروف، كما كان يقف إلى جوار المنضدة رجل آخر، ولم تكن جدتى أيضًا تعرف أن هذا الرجل هو السيد يان لوا قو الشجاع والماهر والصديق المقرب للسيد رئيس المدينة، وأمام المنضدة، كان يقف جميع أهل القرية وقد ظهر على وجوههم الوجوم، يحيطهم ما يزيد على عشرين جندى من رجال رئيس المدينة.

ووقف الجد لوو خان أمام المنضدة وقد تبلل جسده بالكامل.

رأت جثتى زوجها وحماها موضوعتين على لوح خشبى إلى أسفل شجرة الصفصاف بالقرب من ذلك البغل الأسود الصغير، وشمت رائحة تعفن الجثتين، ورأت مياهًا ملوثة صفراء تنزل من حواف اللوح الخشبى الذى يحمل الجثتين، بينما كانت هناك عشرات الغربان تحوم فوق شجرة الصفصاف، وكأن قمة الشجرة تحولت إلى قدر كبير ممتلئ بالحساء.

وعندئذ انتبه الجد لوو خان ورأى وجه جدتى بوضوح تام، ظهر وجهها ممتلئًا، وكانت أهدابها جميلة ورقبتها طويلة بيضاء، وشعرها الطويل الجميل ينزل خلف رأسها، وتوقف الحمار أمام المنضدة، بينما كانت جدتى لا تزال تركب على ظهر حمارها رافعة الرأس فى أناقة وسحر جذاب، ورأى الجد لوو خان عينى السيد تساو مينغ جيو رئيس المدينة السوداوين لا تتوقفان عن النظر إلى وجه وصدر جدتى، وفجأة طرأت على ذهن الجد

لوو خان فكرة خاطفة: إن هذه المرأة حتمًا وراء موت السيد المعلم دان يان شيو وابنه الأبرص! وأنها بالتأكيد تواطأت مع القاتل، وأشعلت النيران فى الفناء، لإغراء السيد يان وابنه على الخروج إلى النار المشتعلة، ثم تم قتل الرجل وابنه، وهى الآن تقوم بهذه الخدعة، ومن اليوم فصاعدًا ستصبح..

نظر الجد لوو خان إلى جدتى نظرة خاطفة، وكأنه يشك فى هذه الفكرة التى طرأت عليه فجأة، إن أى قاتل مهما حاول أن يخفى جريمته، لن يستطيع أن يخفيها حتى النهاية، غير أن هذه المرأة التى تركب الحمار.. كانت جدتى تجلس على ظهر الحمار وكأنها حسناء من الشمع تحرك قدميها، وقد ظهر على وجهها الاتزان والحزن، إلى درجة تفوق بوذا نفسه، كما زاد والدها من الهالة التى كانت تحيط جدتى، حيث كان...

قال السيد تساو رئيس المدينة: " فلتنزل تلك المرأة عن حمارها لتجيب عن أسئلتى".

كانت جدتى لا تزال على ظهر حمارها، فتقدم نحوها السيد دان وو خوو تزه عمدة القرية ووبخها قائلاً: "فلتنزلى عن حمارك! سيادة رئيس المدينة يأمرك بالنزول!".

فرفع السيد تساو يده ليوقف توبيخ العمدة لجدتى، ثم قال رئيس المدينة بصوت رقيق: "أيتها المرأة، فلتنزلى عن حمارك، لتنزلى عن حمارك، إن رئيس المدينة لديه بعض التساؤلات لكِ".

فقام والدها بإزاحتها عن ظهر الحمار.

وسأل السيد تساو رئيس المدينة: "ما لقبكِ وما اسمك أيتها المرأة؟"

كانت جدتى لا تزال واقفة فى مكانها مغمضة العينين، ولم تنبس ببنت شفة.

فقال والدها مرتجفاً: "فلتجيبى على سيادة رئيس المدينة، سيدى الفاضل إن لقبها داى واسمها فينغ ليان، وكنيتها جيو إر، وقد ولدت فى اليوم التاسع من الشهر السادس حسب التقويم القديم".

فصاح السيد رئيس المدينة: "يا لك من ثرثار!"

فسأل السيد دان وو خوو تزه عمدة القرية موبخاً إياه: "ومن أذن لك بالكلام أيها العجوز؟".

فخبط رئيس المدينة بيده على المنضدة قائلاً: "مزعج!" فأرهب كلا من عمدة القرية ووالد جدتى العجوز، ثم استعاد رئيس المدينة قناع الرقة والحنو، وراح يشير بيده إلى الجثتين الموضوعتين أسفل شجرة الصفصاف، وسأل جدتى: "أيتها المرأة هل بإمكانك أن تتعرفى على هذين الشخصين؟".

فنظرت إليهما جدتى بطرف عينيها وقد بدت حزينة، ثم هزت رأسها بدون أن تتكلم.

فصرخ السيد رئيس المدينة بشدة قائلاً: " إنهما زوجكِ وحموكِ، لقد تم اغتيالهما!".

تمايلت جدتى قليلاً ثم سقطت على الأرض، فتقدم جماعة الحاضرين نحوها لمساعدتها، فاصطدمت أيديهم ببنس شعرها الملفوف، وغطت السماء سحابة سوداء، وكان وجه جدتى فى غاية الشحوب، كانت تارة تبكى وتارة تضحك، ثم سالت بعض الدماء من شفتها السفلى.

ضرب السيد تساو رئيس المدينة بيده على المنضدة ثانية، ثم قال: "استمعوا أيها الحضور الكرام، هذا هو حكم رئيس المدينة: إننا وجدنا أن المرأة داى سيدة ضعيفة، حليمة واسعة الصدر، لا تميل إلى التذلل أو التكبر، وأنها شعرت بالحزن الشديد بمجرد سماع خبر وفاة زوجها وحميها، وتأثرت

بهذا الخبر كثيرًا، واسودت الدنيا فى عينيها، وأنها نعم الزوجة البارة، فكيف لمثل هذه الزوجة الطيبة أن تتواطأ مع مجرم لقتل زوجها وحميها؟ أما فيما يخص السيد دان وو خوو تزه عمدة القرية، فإننى أرى أنه يظهر عليه جميع علامات الجوع والطمع، وأنه بالتأكيد مدمن مقامر وضيع، وأنه باعتباره عمدة لهذه القرية خالف قوانين المدينة التابعة لها قريته، وأنه ليس فقط تسبب فى هذه الجريمة، بل أنه كان يخطط لإلصاق التهمة بالأبرياء، فزاد جريمة جديدة على جريمته، وأنه بعد التحقيقات الجادة والصارمة التى يأمر بها ويتابعها رئيس هذه المدينة، فإنه لا أحد فوق القانون، وأنت أيها العمدة من المؤكد أن لك علاقة ما بقتل السيد دان وابنه؛ حيث إنك أولاً تحسد السيد دان وابنه على ثروتهما الكبيرة، ثانيًا أنك تطمع فى المرأة الشابة داى، ومن ثم فإنك تسعى إلى خداعى اعتمادًا على منصبك فى هذه القرية، ويبدو أنك أخطأت وجئت ترفع فأسك أمام منزل لوو بان، وتهز سيفك أمام قوان ييه، وترتل " كتاب الجمل الثلاث" للفيلسوف الحكيم كونفشيوس، وجئت تقرأ "كتاب الطب" على مسامع الطبيب لى شه جين، أقول إنك: " تبيع المياه فى حارة السقايين"، فاخلع عنك هذا الرداء!".

فصعد بعض الجنود وقاموا بتشبيك يدى العمدة دان وو خوو تزه وأوثقوه، فراح دان وو خوو تزه يصيح: "مظلوم، مظلوم أيها الحاكم العادل."..

"ائتوا بنعال الأحذية واصفعوه على وجهه!".

"مظلوم مظلوم مظلوم.".

"إذا لم تكن أنت وراء هذه الجريمة، فمن القاتل إذا؟".

"نعم.. لا أعلم، لا أعلم.".

"منذ قليل تحدثت إلى بكلام واضح، والآن تقول: إنك لا تعلم، أسرعوا بصفعه على وجهه!"

فقام شياو يان برفع نعل الحذاء وصفعه ما يزيد على عشر صفعات على وجهه، حتى تشققت شفتاه وامتلأ وجهه بالدماء، فراح عمدة القرية يتألم قائلاً: "سأتكلم.. سأتكلم....".

"من القاتل؟ "

"إنه.. إنه.. إنه قاطع طريق، إنه خوا بوه تزه!".

"وأنت الذى استأجرته للقيام بهذه الجريمة؟".

"إطلاقًا! نعم نعم نعم، أبى الفاضل، أرجوك لا تصفعنى ثانية".

وبينما كان الحضور يستمعون إلى العمدة دان وو خوو تزه، قال السيد تساو مينغ جيو رئيس المدينة: "إنه منذ تولى رئيس هذه المدينة مهام عمله، فإنه يسعى جاهدًا إلى تحقيق ثلاثة أهداف كبرى: منع المخدرات والقمار والقضاء على قطاع الطرق، وقد حققنا نتائج كبيرة فى مجالى منع المخدرات ومنع القمار، ولم نحقق نتائج مرجوة فى مجال القضاء على ظاهرة قطاع الطرق. وتعتبر قرية دونغ بيى معقل قطاع الطرق فى هذه المدينة، وإننا نهيب بالمواطنين الصالحين فى هذه المدينة أن يتعاونوا مع الحكومة لأجل المعلومات السرية الخاصة بقطاع الطرق والإخبار عنهم، للعمل على تحقيق الأمن والأمان فى جميع ربوع المدينة! وبما أن المرأة داى هى الزوجة الشرعية فى عائلة دان، فإن جميع ثروات عائلة دان ستئول إليها، وإننا سوف نعامل كل من يسعى لظلم هذه المرأة الضعيفة ويحوك لها المؤامرات، نقول: فإننا سوف نعامله كما لو كان أحد أفراد عصابات قطاع الطرق!"

تقدمت جدتى ثلاث خطوات إلى الأمام، وركعت أمام سيادة رئيس المدينة، ثم رفعت وجهها قليلاً ونادت: "أبى! أبى!".

فرد السيد رئيس المدينة قائلاً: "أنا لست أباكِ، إن إباكِ هنالك يسحب الحمار!".

فقامت جدتى على ركبتيها وأمسكت بقدمى السيد تساو مينغ جيو رئيس المدينة وصاحت: "أبى، أبى، كيف لا تعترف بابنتك بعد أن أصبحت رئيسًا للمدينة؟ فقبل عشرة أعوام مضت، كنت قد بعت ابنتك بسبب المجاعة آنذاك، وإذا كنت لا تعرف ابنتك الآن، فإنها تعرفك جيدًا".

"كيف يحدث هذا؟ إنه مجرد افتراء!".

"أبى، هل ما زالت أمى بخير وبصحة جيدة؟ وهل بلغ أخى الصغير ثلاثة عشر عامًا؟ وهل التحق بالمدرسة لتعلم القراءة والكتابة؟ أبى، لقد بعتنى آنذاك بمقدار عشرين دوو[1] من الذرة الرفيعة، أمسكت حينها بيديك وودت ألا تفارقنى حتى قلت لى: ابنتى العزيزة جيو إر، عندما تتحسن ظروف أبيك فسأعود لأخذك.. واليوم بعد أن أصبحت رئيسًا للمدينة تنكر ابنتك؟!".

"يا لك من مجنونة أيتها المرأة، لقد أخطأت فى معرفتى!".

"لم أخطئ! لم أخطئ! أبى، أبى العزيز!" وأخذت جدتى تتشبث بقدمى السيد رئيس المدينة ولا تتوقف عن هزهما، وقد فاضت دموعها، وانخرطت فى نوبة بكاء عميق.

فمد رئيس المدينة يده وسحب جدتى قائلاً: "سأعترف بك ابنة لى!".

---

(١) دوو: وحدة وزن تساوى ١٠ ليتر. (المترجم)

"أبى العزيز!" فمالت جدتى لتركع ثانية أمام رئـــيس المدينـــة الـــذى اعترضها وأمسك بذراعيها، فقبضت جدتى على يديه، وقالت بتدلل: "أبـــى، متى ستصحبنى معك لرؤية أمى؟".

فرد السيد تساو مينغ جيو رئيس المدينة قائلاً: "فورًا، فورًا، فلترخـــى يديكِ، فلترخى يديكِ".

خففت جدتى من قبضتها على يدى رئيس المدينة.

وأخرج رئيس المدينة منديلاً وراح يمسح عرقه.

وراحت جموع الحاضرين تنظر إلى رئيس المدينة وإلى جدتى بغرابة.

وخلع رئيس المدينة قبعته، ثم ثبتها أعلى إصبعه الوسطى وراح يلفها بسرعة، وقال وهو يتهته: "أيها الأخوة الريفيون، أيهـــا الإخـــوة الريفيـــون، إن رئيس هذه المدينة يدعو دائمًا إلى منع المخدرات ومنع القمار ومحاربـــة قطاع الطرق"

صمت السيد رئيس المدينة صمتًا تامًا، ثم سمع صوت طلـــق نـــارى، كان مصدره حقول الذرة الواقعة خلف خليج المياه، جاءت ثلاث طلقات نارية استطاعت أن تصيب تلك القبعة البنية التى كان يعبث بها رئيس المدينة أعلى إصبعه الوسطى، فطارت القبعة فى الهواء وكأنها أصابتها روح عفريت، ثم سقطت على الأرض ثانية وراحت تلف حول نفسها.

وخلال ذلك الصخب، لم يتوقف جمع الحاضرين عن الصفير، حتى إن بعضهم راح يصيح بأعلى صوته قائلاً: "لقد جاء قاطع الطريق خوا بوه تزه!".

"لقد جاءت العنقاء الثلاثية!".

ودخل رئيس المدينة أسفل المنضدة، وراح يصيح: "الهدوء! الهدوء!".

بينما كانت جموع الحاضرين فى هرج ومرج تام.

أسرع شياو يان بفك الحصان الذى كان مربوطًا إلى أسفل شجرة الصفصاف، وسحب رئيس المدينة إلى الخارج، وأحكم وضع السرج على ظهر الحصان، ثم ضرب الحصان بنعل الحذاء، فاستسلم الحصان للسيد رئيس المدينة وطار به حتى توارى عن عيون الجميع، بينما انشغل ما يزيد عن عشرين جنديًا بإطلاق الرصاص عشوائيًا تجاه حقول الذرة، ثم انطلقوا ليلحقوا بالسيد رئيس المدينة.

وعم الصمت جانبى الخليج.

وبقيت جدتى فى مكانها عابسة، تضع يدها على ظهر الحمار بينما هى منشغلة بالتحديق إلى مصدر الطلقات الثلاث التى هرب فور سماعها رئيس المدينة، أما والدها السيد داى، فقد اختبأ أسفل بطن الحمار، واضعًا يديه على أذنيه ساكنًا فى مكانه، كما كان الجد لوو خان لا يزال أيضًا قابعًا فى مكانه وقد بدت ملابسه متبخرة.

هدأت مياه الخليج، وبدت نباتات النيلوفر هادئة فى أماكنها، وبتلاتها قوية صامدة مثل العاج.

أما عمدة القرية السيد دان وو خوو تزه الذى تورم وجهه من كثرة الضرب بنعال الأحذية فقد راح يصيح:

"أطلقونى! أطلقونى! أنقذنى يا خوا بوه تزه!".

وما أن أنهى العمدة دان وو خوو تزه كلامه، حتى سمع دوى ثلاث طلقات نارية مكثفة، ورأت جدتى بأم عينيها الطلقات الثلاث وهى تصيب

مؤخرة رأس عمدة القرية، وأثناء دوى الطلقات النارية، كان قد وقف شعر رأسه رعبًا، ثم سقط على الأرض، ورأسه لأعلى وهى تنزف سائلاً أبيض.

لم يطرأ أى تغير على ملامح جدتى، استمرت فى النظر إلى حقول الذرة مصدر الطلقات النارية، وكأنها تنتظر شيئًا ما، وهبت نوبة رياح، راحت تهتز على إثرها نباتات النيلوفر فى خليج المياه، وانعكست الأضواء داخل المياه، أما الغربان التى كانت تقف أعلى شجرة الصفصاف، فقد سقط نصفها على جثتى السيد دان يان شيو وابنه الأبرص دان بيان لانغ، بينما بقى نصفها الآخر واقفًا أعلى شجرة الصفصاف محدثة بعض الضوضاء، وبدت أجنحة الغربان فوق الشجرة تهزها الرياح مفتوحة وكأنها مراوح تتطاير بفعل الرياح، وكانت الغربان تكشف عن مؤخراتها الزرقاء.

خرج من داخل حقول الذرة رجل ضخم، وبدأ يسير بمحاذاة خليج المياه، وكان يرتدى لباسًا من القش، وقبعة مصنوعة من أوراق الذرة، يتخلل حبل القبعة حبات من الزجاج الأخضر، ويربط حول رقبته وشاحًا من الحرير الأسود، وتقدم الرجل نحو جثة عمدة القرية السيد دان وو خوو تزه، ونظر إليها نظرة خاطفة، ثم مضى إلى أمام قبعة السيد تساو مينغ جيو رئيس المدينة، والتقط الرصاصة الفارغة ولفها بيده عدة لفات ثم ألقى بها بعيدًا، وألقى بالقبعة التى راحت تلف حتى استقرت داخل المياه.

ونظر الرجل إلى جدتى، فالتقت عيناه بعينيها.

"وسألها الرجل " هل ضاجعكِ دان بيان لانغ؟".

فردت جدتى: "نعم".

فسب الرجل " اللعنة على أمه "، ثم استدار بجسده ومضى إلى داخل حقول الذرة.

وكان الجد لوو خان فى حيرة وارتباك تام من سلسلة الأحداث التى وقعت أمام عينه، حتى أنه أصبح حائرًا تائهًا لا يقوى على تحديد يمينه من يساره.

وكانت الغربان قد غطت جثتى السيد دان يان شيو وابنه، وكانت تدور بمناقيرها الحادة حول الجثتين تبحث عن عينيهما.

وتذكر الجد لوو خان عندما كان ينادى بالأمس داخل سوق مدينة قاو مى السيد رئيس المدينة ليستمع إلى بلاغه، وكان السيد تساو رئيس المدينة قد اقتاده إلى مقر حكومة المدينة، وراحا يتجاذبان أطراف الحديث على ضوء الشموع فى بهو المقر الحكومى، وقد أمسك كل منهما برأس فجلة يقضمها، وفى صباح اليوم التالى، ركب بغله عائدًا إلى قريته دونغ بيى، بينما ركب السيد رئيس المدينة حصانًا أسود اللون، وسار خلفه مساعده شياو يان وما يزيد على عشرين جنديًا، ووصل الركب إلى القرية فى فترة الصبيحة ما بين السابعة والتاسعة صباحًا، وقام السيد رئيس المدينة بتفقد مكان الحادث. ثم استدعى عمدة القرية السيد دان وو خوو تزه ليقوم بجمع أهل القرية، لأجل تنظيم أعمال انتشال الجثث من داخل مياه الخليج.

فى تلك الأثناء كانت مياه الخليج تلمع، وبدت عميقة إلى درجة لا يمكنك الوقوف على مدى عمقها، وأمر السيد رئيس المدينة عمدة القرية دان وو خوو تزه بالنزول إلى المياه لانتشال الجثث، فتعلل العمدة بأنه لا يتقن السباحة بينما كان يرجع إلى الخلف. فتقدم الجد لوو خان وقال بشجاعة: "سيادة رئيس المدينة، هؤلاء عمال لدى المتوفيين، فلتأذن لهم بالنزول إلى المياه لانتشال جثة السيد دان وابنه"، ثم طلب الجد لوو خان من أحد العمال سرعة العودة إلى المنزل ليحضر نصف دلو من النبيذ، ويدهن به جسده، ثم

لينزل إلى المياه، وكان عمق مياه الخليج حوالى طول عصا البـــامبو، وقـــام الجد لوو خان بحبس أنفاسه، ومد أطراف قدميه إلى داخل طمى مياه الخليج، وراح يعبث داخل مياه النهر كالأعمى الذى يبحث عن شىء ما، ولم يتوصل إلى أى نتيجة، ثم حبس أنفاسه أكثر وتوغل إلى طبقة أعمق، وأحـــس بـــأن المياه عند هذه الطبقة أشد برودة من الطبقة الأعلى، وفتح عينيه ليجد أمامـــه شرائح صفراء، وسمع طنين أذنيه، وإذا بكائن غامض يقترب منه، فمد يـــده يتحسسه، فأحس أن أظافره تتألم كأنه قد لدغته نحلة، وصاح صيحة ليلقى من فمه بكمية من المياه المشبعة برائحة الدم، وعندها لم يعد الجد لوو خان يهتم بأى شىء سوى محاولة الصعود إلى سطح المياه، ثم مضى يقاتل للـــسباحة حتى شاطئ الخيلج، وتسلق إلى حافة المياه، وجلس على الأرض وهو يلهث.

سأله السيد رئيس المدينة " هل لمست الجثث؟".

فرد ووجهه مصفر: "لا.. لم ألمسهما بعد."، ثم قـــال " هنـــاك كـــائن غريب.. داخل المياه.".

نظر السيد رئيس المدينة إلى مياه الخليج، ثم خلع قبعتـــه وراح يلفهـــا أعلى إصبعه الوسطى، ثم أعاد القبعة إلى رأسه، واستدار بجسمه ونادى على أثنين من الجنود قائلاً: "ألقوا بالقنابل داخل المياه!".

وقام مساعد رئيس المدينة شياو يان بإبعاد الأهالى عن حافة الخلـــيج بحوالى ما يزيد على عشرين خطوة.

وعاد رئيس المدينة وجلس إلى جانب المنضدة.

وانبطح هذان الجنديان إلى جانب حافة خليج المياه، واضعين بندقيتهما إلى الخلف، ثم أخرج كل منهما من حول خصره قنبلة سوداء فى شكل ثمرة الشمام، وخلعا منها مسمارًا ثم قاما بتثبيت القنبلة على غطاء البندقية وألقيـــا

بها إلى داخل المياه. فكونت القنبلة عددًا كبيرًا من الدوائر أعلى سطح المياه، فأحنى الجنديان رأسيهما خشية أن يصابا بأى أذى، وخيم الصمت على أرجاء المكان، بعد مضى وقت غير قصير، ساد الصمت داخل المياه، وتفرقت تلك الدوائر التى نتجت عن اصطدام القنابل بالمياه إلى حافة المياه، حتى بدت صفحة المياه غامضة.

قال السيد رئيس المدينة وهو يعض على أسنانه: "فلتلقيا المزيد من القنابل!".

فأخرج الجنديان قنابل جديدة وألقيا بها إلى داخل المياه بنفس الخطوات التى اتبعاها فى المرة الأولى، فأحدثت القنابل السوداء صوتًا أثناء تطايرها إلى داخل المياه، مخلفة دخانًا أبيض على جانبى المياه، وفى لحظة سقوط القنابل إلى داخل المياه سُمع صوت مكتوم من أعماق المياه؛ تساقط هذان العمودان المنتصبان داخل مياه الخليج، كان يبلغ ارتفاعهما حوالى ثلاثة أو خمسة أمتار، لهما قمة غير منتظمة كالأشجار المصنوعة من الثلج.

فر السيد رئيس المدينة إلى جانب المياه، وتبعه الأهالى، بينما كانت كتل المياه المتجمعة لا تزال فى غليان شديد، حتى توقفت بعد وقت طويل، وتلاشت أعداد كبيرة من فقاعات المياه، ثم ظهر على سطح المياه ما يزيد على عشرة من صغار الشبوط، وبدأت أمواج المياه تتلاشى شيئًا فشيئًا، ثم امتلأت المياه برائحة كريهة، وسطعت أشعة الشمس على صفحة المياه، واهتزت سيقان وأوراق نباتات النيلوفر، وقد بدت فى غاية الأناقة والروعة. أضاءت الشمس وجوه الحاضرين، وبدأ وجه السيد رئيس المدينة يلمع تحت

أشعة الشمس، ووقف الجميع ينتظرون متجهمين، وكانوا يمدون رقابهم إلى الأمام لمشاهدة مياه الخليج التى بدأت تهدأ شيئًا فشيئًا.

وفجأة انطلقت فقاعتان ورديتان فى منتصف خليج المياه، فتوقفت أنفاس الجميع، وبدأوا ينصتون إلى صوت تلاشى هاتين الفقاعتين، واشتدت أشعة الشمس، وتغطت صفحة المياه بطبقة من القشور الذهبية الباهرة، ولحسن الحظ ظهرت آنذاك غيمة سوداء حجبت ضوء الشمس، ليختفى اللون الذهبى الباهر، ويسيطر اللون الأخضر على مياه الخليج، وظهر شبح كائنين أسودين يبرزان من منطقة الفقاعتين الورديتين اللتين كانتا قد ظهرتا فى منتصف المياه، وزادت سرعة هذين الشبحين بمجرد اقترابهما من سطح المياه، لتظهر عندها مؤخرتان، ثم تنقلب المؤخرتان ليظهر السيد دان وابنه الأبرص، ووجههما يكاد يختفى أسفل المياه وكأنهما فى خجل شديد من الظهور على سطح المياه.

أمر السيد تساو رئيس المدينة بسرعة انتشال الجثتين، فعاد بعض عمال فرن النبيذ إلى منزل السيد المرحوم دان يان شيو وأتوا بلوح خشبى، وربطوا به خطافًا من الحديد، وأمسك الجد لوو خان باللوح الخشبى ومد الخطاف ليمسك بقدمى السيد دان وابنه، وعندما سمع الحضور صوت الخطاف ينغمس داخل جسدى السيد دان وابنه تأثروا تأثرًا شديدًا.

ورفع الحمار رأسه تجاه السماء وراح ينهق بصوت مسموع.

وسأل الجد لوو خان: "ما العمل يا سيدتى؟".

ففكرت جدتى لبعض الوقت ثم أجابت: "فلتأمر العمال بأن يذهبوا إلى متجر الأخشاب ويأتوا بتابوتين من الخشب الخفيف، ونسرع بوضع الجثتين بداخلهما، ثم لنبحث عن موضع لدفنهما، ويفضل أن نقوم بهذا العمل على

وجه السرعة، وبعد الانتهاء من عملية الدفن، أريدك أن تقصدنى فى الفناء الغربى؛ حيث إن لدى بعض الأمور أود مناقشتها معك".

فأجاب الجد لوو خان باحترام ووقار: "حسنًا يا سيدتى".

قام الجد لوو خان بوضع جثة السيد دان يان شيو وابنه الأبرص داخل التابوتين، ودفنهما وسط حقول الذرة، وساعده فى ذلك ما يزيد على عشرة من عمال فرن النبيذ الذين كانوا فى صمت تام خلال عملية الدفن، وانتهوا من عملية الدفن فى ساعة الأصيل، وراحت جماعات الغربان تحوم حول القبر، وقد بدت أجنحة الغربان مصطبغة بلون شمس الأصيل، وقال الجد لوو خان مخاطبًا عمال فرن النبيذ: "أيها الرفاق، فلتعودوا إلى أماكنكم وتنتظروا إشارتى، والتزموا قلة الكلام فى هذا الموضوع".

وجاء الجد لوو خان إلى الجانب الآخر من الفناء ليستمع إلى توجيهات جدتى، كانت تفترش آنذاك الحاشية التى كانت تجلس عليها أعلى ظهر الحمار، بينما كان والدها ينشغل بإطعام الحمار بكومة من الأعشاب الجافة.

قال الجد لوو خان: "سيدتى، لقد انتهينا من مراسم الدفن، وهذا هو المفتاح الذى كان يحمله المعلم دان يان شيو".

فأجابت جدتى قائلة: "فلتحتفظ بالمفتاح معك الآن، ودعنى أسأل هل يوجد فى هذه القرية من يبيع فطائر باو تزه[1]؟".

فرد الجد لوو خان: "نعم سيدتى".

فقالت جدتى: "إذًا فلتذهب لشراء سلتين من فطائر باو تزه وتوزعها على جميع عمال الفرن، وبعد أن ينتهوا من أكل الفطائر، ائتنى بهم إلى هنا، وأحضر لى معك عشرين فطيرة باو تزه".

---

(١) باو تزه: أحد أنواع المأكولات الصينية التقليدية، التى تتميز بأنها رخيصة السعر، وتصنع من الدقيق وتكون محشوة بالخضراوات أو اللحم أو الحلوى. (المترجم)

جاءها الجد لوو خان بعشرين فطيرة من فطائر باو تزه ملفوفة داخل ورقة من أوراق اللوتس النضرة، فمدت جدتى يدها لتأخذ الفطائر قائلة: "فلتذهب إلى الفناء الشرقى وتنادى جميع العمال ليأتوا إلى هنا لنأكل معًا الفطائر".

فانصرف الجد لوو خان من أمامها وهو لا يتوقف عن قول نعم نعم سيدتى.

حملت جدتى الفطائر ووضعتها أمام والدها ثم قالت: "فلتحمل معك هذه الفطائر لتأكلها فى طريق عودتك!"

فقال الوالد: "جيو إر، إنك ابنتى من لحمى ودمى!".

فقالت جدتى: "فلتغادر بسرعة، ودعك من كثرة الكلام فى هذا الموضوع!".

فقال الوالد بلهجة قاسية: "اعلمى جيدًا أننى والدك!".

فردت جدتى: "إننى أتبرأ منك، ومن الآن فصاعدًا غير مسموح لك بأن تخطو عتبة هذا المنزل!".

"إننى والدك!".

"ألم تسمع بأن والدى الحقيقى هو السيد تساو رئيس المدينة؟".

"ليس الأمر بهذه البساطة، وهل يعقل أن تتخلى عن والدك القديم بمجرد العثور على والد جديد؟ وكم عانيت أنا وأمك فى تربيتك!".

فأمسكت جدتى بالفطائر وألقت بها فى وجه والدها؛ لتحدث صوتًا مسموعًا عند اصطدامها بوجه الرجل العجوز.

سحب الرجل حماره وجعل يخطو إلى خارج باب المنزل وهو لا يتوقف عن السباب: "ابنة حرام! ابنة حرام، حيوانة! حيوانة تتبرأ من لحمها ودمها! سأذهب إلى حكومة المدينة لشكواكِ، سأشتكيكِ بأنك ابنة عاقة لوالديك! وأنك مارستِ جريمة الزنا مع قاطع الطريق! وأنك تواطأت معه بقتل زوجكِ!.".

وبينما والد جدتي يغادر المنزل وهو لا يتوقف عن سب ولعن ابنته، إذا بالجد لوو خان يدخل وبصحبته ثلاثة عشر رجلاً من عمال فرن النبيذ.

رفعت جدتي يدها وراحت ترتب خصلات شعرها، ثم مدت يدها وجعلت تفرد ملابسها وقالت بكرم واضح: "لقد أجهدتم أنفسكم أيها الرفاق! إنكم ترونني أمامكم شابة ترملت بعد أيام من أول زواج لها، وليس لي علم بهذه الدنيا الكبيرة، وأتمنى أن أجد منكم المساعدة والدعم، وأنت أيها العم لوو خان، إنك تعمل لدى عائلتنا منذ ما يزيد على عشرة أعوام، واسمح لي أن أعتمد عليك من اليوم في أمور فرن النبيذ، وكما ترون فقد رحل المعلم دان يان شيو وابنه، وأتمنى أن نتعاون معًا لأجل استعادة العمل بهذا الفرن، وكما تعلمون أننا من الممكن أن نستند إلى مساعدة أبي في المدينة، وإنني على ثقة بأننا سننجح في عملنا هذا إذا راعينا التعاون الجاد مع الأصدقاء في المزارع، وإذا لم نسئ التعامل مع أقربائنا في هذه البلدة والتجار الذين يتعاملون معنا، وسيتوقف العمل بالفرن لمدة ثلاثة أيام بدءًا من الغد، وأتمنى أن تساعدوني في إعادة ترتيب المنزل، وأن نتخلص من الأشياء القديمة التي كان يستعملها المعلم دان وابنه زوجي دان بيان لانغ، وذلك بحرق ما يمكن حرقه ودفن ما يصعب عليكم حرقه، ولتستريحوا هذا المساء مبكرًا بعض الشيء، فما رأيك أيها العم لوو خان؟".

رد الجد لوو خان قائلاً: "سنعمل وفق توجيهاتك سيدتي".

فقالت جدتى: "هل يوجد من لا يرغب فى العمل معنا؟ وإذا كان أى منكم لا يرغب فى العمل مع هذه المرأة الأرملة، فلن نجبره على البقاء، وبإمكانه أن يبحث له عن عمل فى مكان آخر".

تبادل العمال النظر بعضهم إلى بعض، ثم قالوا فى صوت واحد: "نرغب جميعًا فى العمل معك".

فقالت جدتى: "إذًا فلتتفرقوا الآن".

فتجمع العمال داخل غرفتهم فى الفناء الشرقى، وراحوا يتهامسون فيما بينهم، فقال الجد لوو خان: "فلتناموا الآن، فلتناموا الآن، سنستيقظ غدًا مبكرًا".

وفى منتصف الليل، نهض الجد لوو خان من فراشه ليقدم بعض الحشائش للبغلين، فسمع جدتى تبكى بصوت منخفض داخل الفناء الغربى.

وفى اليوم التالى، نهض الجد لوو خان من فراشه مبكرًا، وراح يلف خارج باب المنزل الكبير، فرأى باب الفناء الغربى موصدًا وقد خيم السكون على جميع أرجاء الفناء، فعاد الجد لوو خان إلى الفناء الشرقى، وصعد أعلى كرسى عالٍ وجعل ينظر إلى داخل الفناء الغربى، فإذا بجدتى تنام جالسة على حاشية وظهرها تجاه حائط الفناء.

خلال تلك الأيام الثلاثة، حدثت تغيرات كبيرة جدًا فى منزل عائلة دان، تصببت أجساد الجد لوو خان وعمال الفرن بالنبيذ، وقاموا بتنظيف المكان من الألحفة والملابس والأوانى والأطباق والخيوط وغيرها من الأشياء والأدوات التى كان يستخدمها المعلم دان يان شيو وابنه الأبرص، وحملوا هذه الأشياء إلى ميدان الفناء، وسكبوا عليها النبيذ وأضرموا فيها النيران، ثم دفنوا الرماد الذى تخلف عن عملية الحرق.

وبعد أن أفرغوا الحجرة مما كان بداخلها من أشـياء وأدوات تخص المعلم دان وابنه الأبرص، جاء الجد لوو خان بسلسلة المفاتيح وقد وضعها داخل سلطانية ممتلئة بنبيذ الذرة، وقال مخاطبًا جدتى: "سيدتى، لقد غمسنا هذا المفتاح فى النبيذ ثلاثة مرات".

فقالت جدتى: "أيها العم لوو خان، فلتتول أنت أمر هذا المفتاح، فثروتى تعتبر ثروتك ولا فرق بيننا".

ذهل الجد لوو خان ولم يستطع أن ينطق بكلمة واحدة.

ثم قالت جدتى: "أيها العم لوو خان، الآن ليس وقت الاعتذار، ولتسارع بشراء بعض القماش والقطن، حتى نتمكن من إعادة تهيئة المنزل من ألحفة وخيام وغيرها، واستدعِ بعض العمال للقيام بذلك ولا تقلق بشأن التكاليف، واطلب من عمال الفرن أن يحملوا بعض النبيذ ويرشوه داخل الغرف وخارجها وعلى سور المنزل".

سألها الجد لوو خان: "وما كمية النبيذ التى تأمرين بها؟".

فأجابت جدتى: "فليستخدموا الكمية التى يرونها مناسبة".

فجاء العمال بالنبيذ وجعلوا يرشونه فى جميع أرجاء المنزل، بينما وقفت جدتى تراقبهم وهى تبتسم.

استخدموا هذه المرة مقدار تسعة أوانٍ من النبيذ، وبعد الانتهاء من رش النبيذ، أمرت جدتى العمال بأن يحملوا القماش الجديد والنبيذ، وأن يمسحوا به جميع الأشياء التى يمكن مسحها، ثم ليقوموا بعد ذلك بدهان السور بالجير، وطلاء الأبواب والنوافذ وفرش المنطقة المحيطة بمصطبة التدفئة بالأعشاب الجديدة وتغيير الحصير القديمة بأخرى جديدة، وهكذا حتى يجعلوا المكان يبدو فى صورة جديدة تمامًا عما كان عليه من قبل.

وبعد انتهاء المهمة، قامت جدتى بصرف مبلغ ثلاثة دا يانغ مكافأة لكل عامل من العمال الذين اشتركوا فى هذه المهمة.

وهكذا سارت تجارة النبيذ على ما يرام، وحققت نتائج فائقة تحت إشراف جدتى والجد لوو خان.

وفى اليوم العاشر من القيام بتعقيم جميع أرجاء المنزل بالنبيذ، وبعد زوال رائحة النبيذ التى كانت تعبق المكان، بدأت تسرى داخل المكان رائحة الجير الذى تم استخدامه فى طلاء سور المنزل، وبدت جدتى فى غاية السعادة، وخرجت إلى متجر الخرداوات بالقرية واشترت مقصا وكمية من الورق الأحمر وإبرة وخيوطًا ذهبية وغيرها من الأدوات التى تستخدمها المرأة، وبعد العودة إلى المنزل، صعدت إلى أعلى مصطبة التدفئة وجلست أمام النافذة وأخذت بالورق الأبيض المدهون بالغراء، وراحت تستخدم المقص فى عمل بعض الأشكال، كانت جدتى معروفة بمهارتها الفائقة، وأثناء إقامتها فى منزل أبيها قبل الزواج، كانت كثيرًا ما تتعاون مع جاراتها فى أعمال القص وينتجن الكثير من الأعمال الجيدة، كانت جدتى فنانة شعبية من الدرجة الأولى، وقد قدمت إسهامات بارزة فى مجال تطور فن قص الورق فى قرية دونغ بيى بمدينة قاو مى.

وكان فن قص الورق بمدينة قاو مى يتميز بالروعة والدقة والتفرد والأسلوب الخاص الذى يميزه عن فن قص الورق فى المناطق الصينية الأخرى.

أخذت جدتى بالمقص وراحت تقص ورقة حمراء مربعة، وفجأة انتابها شعور بالاضطراب، وأحست للحظة أن جسدها لا يزال هنا أعلى مصطبة التدفئة، بينما طار قلبها إلى خارج النافذة إلى حقول الذرة وكأنها حمامة لا

حمامة لا تتوقف عن التحليق فوق الذرة.. وقد كانت جدتي منذ صغرها محبوسة فى منزل أبيها لا تغادر عتبة البيت، وكأنها كانت فى عزلة تامة عن العالم الخارجي، ومع تقدم سنها والتزامًا منها بطاعة والديها، قبلت الزواج من العريس الذى أتت به إليها الخاطبة، وخلال الأيام القليلة الماضية، هبت رياح وأمطار، وامتلأت الترع بأوراق اللوتس...... وخلال تلك الأيام الأخيرة مرت جدتي بالكثير من الأحداث التي لم تتعرض لها من قبل بما فيها الخوض فى المياه الباردة والانغماس فى نبيذ الذرة وغيرها، ولم تعد تعرف، ما الذى تتطلع إليه، فأخذت بالمقص وتكاد لا تعرف ماذا تنوى أن تفعل به، تلاشت جميع أحلامها وتخيلاتها قبل الزواج، ووسط هذه الحالة من الاضطراب والتشتت التي كانت تسيطر عليها، سمعت جدتي صوت جندب حزين وجميل فى نفس الوقت قادم من داخل حقول الذرة، كان الوقت بداية الخريف، وأحست جدتي وكأنها رأت تلك الحشرة الخضراء تتحرك فوق سنابل الذرة الحمراء وهى لا تتوقف عن الهز بجناحيها، وتخيلت أن الصوت الجميل الذى سمعته إنما يصدر عن هذه الحشرة الصغيرة.

وبعد أن انتهت جدتي من قص صورة الجندب وهو يخرج من داخل القفص، قامت أيضًا بقص غزالة صغيرة، وقد نمت على ظهرها زهرة حمراء، وكانت الغزالة تسير شامخة الرأس مرفوعة الصدر وسط هذا الكون الحر وهى تبحث عن حياتها الجميلة الخالية من الأحزان والقيود.

كانت جدتي طيلة حياتها فتاة "..........". كانت حالمة لديها الكثير من الأحلام، ولكنها كانت فى الوقت ذاته عاجزة عن تحقيق هذه الأحلام، كانت تمتلك الشجاعة لتعبر عن رفضها لما تتعرض له، ومما لا شك فيه أن ما يعرف بتطور الشخصية يحتاج إلى ظروف موضوعية تدفع هذا التطور، ولن يتحقق هذا التطور ولن تغنى هذه الظروف الموضوعية فى غياب

الظروف الداخلية للشخصية، تمامًا كما ذكر الرئيس ماو تسى تونغ[١]: "إن درجات الحرارة يمكنها أن تجعل البيض يتحول إلى دجاج، ولكن لا يمكن أن تجعل الأحجار تتحول إلى دجاج، وكما قال كونفشيوس[٢]: "لا يمكن النقش على الأخشاب المتعفنة البالية، ولا يمكن طلاء السور المبنى من الروث"، وأرى أن هذه مبررات مناسبة لهذه القضية.

ولا شك أن تلك الأفكار والتخيلات التى تسيطر على جدتى أثناء قيامها بقص الورق، إنما توضح أنها فى الأصل سيدة شجاعة، يمكن لمثلها فقط القيام بإضافة أزهار المايخوا إلى ظهر الغزالة، وكلما رأيت أعمال الورق التى أبدعتها جدتى، أشعر بمزيد من الاحترام والتقدير لهذه المرأة الموهوبة، فلو كانت جدتى مارست الكتابة الأدبية، كانت ستطيح بعدد كبير من الأدباء، إنها حقًا مبدعة أصيلة صادقة فيما تقول وتبدع.

جدتى، أشعر أمامك كأننى حشرة صغيرة هزيلة.

وبينما كانت جدتى مشغولة بقص الورق، سمعت فجأة صوت الباب، ثم سمعت صوتًا يبدو معروفًا لها وغريبًا عنها يصيح داخل الفناء:

"أيها المعلمة، هل أنتم بحاجة إلى عمال؟".

فسقط المقص من يدها أعلى مصطبة التدفئة.

---

(١) وهو الزعيم الصينى المعروف ماو تسى تونج المولود فى مقاطعة خونان جنوب الصين عام ٢٦-١٢-١٨٩٣ والمتوفى فى ٩-٩-١٩٧٦ بالعاصمة الصينية بكين، وهو ثورى ومفكر وشاعر كبير، ويعد الزعيم والرائد الرئيسى للحزب الشيوعى الصينى وجيش التحرير الصيني وجمهورية الصين الشعبية، ومؤسس فكر ماوتسى تونج، تولى رئاسة الصين عقب تأسيس جمهورية الصين الشعبية فى عام ١٩٤٩ حتى وفاته فى عام ١٩٧٦. (المترجم).

(٢) الفيلسوف الصينى الكبير كونفشيوس: واسمه الأصلى تشيو جونغ نى (٥٥١ – ٤٧٩ قبل الميلاد) عاش فى بلدة زوو إى (جنوب شرق مدينة تشيو فو بمقاطعة شان دونغ حاليًا) فى عصر دولة لو خلال أواخر فترة الربيع والخريف المعروفة فى التاريخ الصينى، وهو مفكر ورجل تعليم ومؤسس المدرسة الكونفشيوسية فى أواخر فترة الربيع والخريف، له ما يزيد على ثلاثة آلاف من التلاميذ والحواريين الذين تعلموا على يديه، وقاموا بعد وفاته بجمع عصارة حكمته فى الكتاب المعروف " محاورات كونفشيوس" أو " كتاب الحوار". (المترجم)

(٧)

استيقظ أبى متأثرًا بالقلق الذى كان يسيطر على جدى، استيقظ ليرى أمامه ذلك التنين الطويل الممتد على حافة النهر يدنو منهم بسرعة، وسمع صوت تشجيع وحماس يصاحب المشاعل، وكان من الصعب على أبى أن يفسر آنذاك مدى تأثر جدى ذلك القائد الذى لا تهتز له شعرة من قتل الأنفس، لم يستطع أبى تفسير تأثره برؤية المشاعل والصوت المصاحب لها، وراح جدى يبكى بصوت منخفض، ثم بدأ يتمتم قائلاً: "دوو قوان.. ولدى.. لقد جاء أهالى القرية".

ظهر أهالى القرية متجمعين، ظهر المئات من الشباب والشيوخ والرجال والنساء، ظهروا يحملون بأيديهم المشاعل والمعاول والمجارف والعصى، وكان أصدقاء أبى المقربون يقفون فى الصفوف الأمامية، حاملين المشاعل المرفوعة على أعواد الذرة.

"لقد انتصرنا أيها القائد يو!".

"أيها القائد يو، لقد قام أهالى القرية بذبح الأغنام، وأعدوا مأدبة للاحتفال بالنصر، وهم الآن فى انتظار عودة الرفاق".

سجد جدى أمام تلك المشاعل التى كان ضوؤها ينعكس على حقول الذرة الممتدة على جانبى النهر بصورة مهيبة، ثم قال بصوت يغلبه البكاء: "أهلى وعشيرتى الأفاضل، لقد وقعت أنا المجرم يوجان آو فريسة أمام غدر لينغ ماتزه.. أيها الرفاق.. لقد ضاع كل شىء!".

وتجمعت المشاعل أكثر فأكثر، وعلا الدخان فى الأفق، ولم تتوقف قمم المشاعل عن الحركة، بينما كانت تتساقط بعض من كرات اللهب المشتعلة

على الأرض، حتى بدت الأرض تحت أقدام الجمع المحتشدين مفروشة بكرات اللهب، وسمع صوت ضباح ثعالب داخل حقول الذرة المجاورة، وتجمعت أعداد كبيرة من الأسماك وسط النهر محدثة صوتًا مسموعًا، ولف الجميع صمت تام، وفجأة سمع صوت قوى قادم من داخل حقول الذرة.

وظهر شيخ كبير، أسود الوجه، أبيض اللحية، إحدى عينيه كبيرة والأخرى صغيرة جدًا، وقدم المشعل الذى كان يحمله بيده إلى إنسان كان يقف إلى جواره، ثم أحنى ظهره، وأمسك ذراع جدى بكلتا يديه وقال: "أيها القائد يو، انهض، انهض، انهض".

فصاح الجميع فى صوت واحد: "انهض أيها القائد يو، انهض، انهض".

قام جدى على مهل، وقد أحس بدفء شديد من خلال تشبث ذلك الشيخ العجوز بذراعه، وقال: "أيها الأهل الكرام، هيا بنا إلى أعلى الجسر".

وسار جدى وأبى فى المقدمة، وتبعهم جموع الأهالى حاملين المشاعل، وقد أضاءت ألسنة لهب المشاعل المنطقة المحيطة بالنهر وحقول الذرة، وصولاً إلى المنطقة القريبة من الجسر الكبير، وظهرت فى سماء اليوم التاسع من شهر أغسطس بعض الغيوم المحيطة بالقمر، وأضاءت المشاعل الجسر، ليروا اصطدام تلك العربات البالية، ثم شمت أنوفهم رائحة الدماء التى كانت تملأ ساحة المعركة، والتى كانت تختلط برائحة الذرة النهر الخالد.

بكت عشرات النساء فى صوت واحد، وتساقطت قطرات من زيت المشاعل الملتهبة على أيدى وأقدام الجمع المحتشدين، وبدت وجوه هؤلاء الرجال تحت ضوء المشاعل مثل قطع حديد ملتهبة، بينما بدا الجسر الحجرى الكبير وكأنه قوس قزح.

وصاح الشيخ العجوز ذو الوجه الأسمر واللحية البيضاء: "ما الذى يبكيكن أيتها النساء؟ أليس ما تم تحقيقه يعد انتصارا كبيرًا؟ فالصين يبلغ تعدادها حوالى أربعمائة مليون نسمة، بينما يعتبر تعداد الأقزام اليابانيين ضئيلا أمام إجمالى تعداد المواطنين الصينين، وإذا واجهناهم وجهًا لوجه، فمن أين لهم بالعدد الكافى لمواجهتنا؟ فإذا تركنا مائة مليون من الصينين للقضاء عليهم تمامًا، فسيبقى لدينا عدد ثلاثمائة مليون مواطن صينى، ألا ترون أن هذا انتصار كبير؟ أيها القائد يو، ما أعظمه من انتصار!".

فرد جدى القائد يو جان آو: "أيها الأب الفاضل، إن كلامك هذا إنما يهدف إلى طمأنتى".

قال الشيخ العجوز: "ليس كما تقول، أيها القائد يو إنه حقًا لانتصار عظيم، فلتسرع بإصدار الأوامر، وأمر بما ترى، فالصين ليس لديها شىء سوى هذا التعداد السكانى الكبير".

فنصب جدى قامته ثم قال: "أنتم هذا الجمع، عليكم بجمع جثث الرفاق الذين لقوا مصرعهم خلال المعركة!".

فتفرق الحشد وراحوا ينشغلون بجمع جثث أعضاء فرقة القائد يو جان آو من داخل حقول الذرة الممتدة على جانبى الطريق العام، ويحملونها إلى حافة النهر عند الناحية الغربية للجسر الحجرى، وبدأ فى رصها وجعلوا رءوس الجثث ناحية الجنوب والأقدام إلى ناحية الشمال، ورصوها فى صف طويل، وسحب جدى أبى من يده وتقدما إلى الأمام لإحصاء الجثث، فتعرف أبى من بين تلك الجثث على وانغ ون إى وزوجته، وفانغ ليو وشقيقه فانغ تشى، والعم ليو دا خاو و"المسلول" وغيرها من الوجوه المألوفة وغير المألوفة له، ولاحظ أبى التشنج والضيق الذى ملأ وجه جدى، إذ راحت الدموع تتساقط من عينيه.

قال جدى: "وأين الأخرس؟ يـا صـغيرى دوو قـوان، هـل رأيـت عمك الأخرس؟".

فتذكر أبى على الفور ذلك المشهد عندما كان قد رأى العم الأخـرس يجهش بخنجره الحاد على أحد العفاريت اليابانيين ليقطع رأسه، لتطير رأس القتيل إلى السماء، وقال أبى: "إنه داخل العربات اليابانية".

فتجمع بعض من حاملى المشاعل حول العربات اليابانية، وقفز ثلاثـة رجال من بينهم إلى داخل إحدى العربات، وحملوا العم الأخرس إلى خـارج العربة، ومضى نحوهم جدى القائد يو، وتقدم ليـساعد فـى حمـل ظهـر الأخرس، ثم تقدم رجلان آخران، وأمسك أحدهم برأس الأخـرس وأمـسك الآخر برجليه، ومضوا إلى حافة النهر، ثم قاموا بوضع الجثة فـى أقـصى شرق صف الجثث الطويل، وبدا ظهر الأخرس منحنيًا، وكانت يده لا تـزال تقبض على ذلك الخنجر الملطخ بالدماء، وعيناه مفتوحتان، وفمه أيضًا وكأنه فى حالة استعداد للصياح بأعلى صوته.

سجد جدى أمام الجثة، وأمسك بركبة العم الأخـرس وصـدره وراح يضغط عليهما بقوة، حتى سمع أبى صوت عظام الأخرس، وأخيرًا استقامت جثة الأخرس بفعل حركة جدى، ثم راح جدى يتقدم ليأخذ الخنجـر، ولكنـه عجز عن سحبه من يد الأخرس؛ لذا فقد قام بلم ذراعى الجثة، ليجعل الخنجر يلتصق أكثر فأكثر برجل الأخرس، وتقدمت سيدة وسـجدت أمـام الجثـة، وجعلت تفرك عينىّ الأخرس المفتوحتين، وهى تقول: "فلتغلق عينيـك أيهـا الرفيق الحميم، فلتغلق عينيك، وسيأخذ لك القائد يوجان آو بثأرك.".

قال أبى باكيًا: "أبى، إن جثة أمى لا تزال ترقد داخل الذرة.".

فلوح جدى بيده، ثم قال: "فلتذهب.. فلتذهب بصحبة بعض من الأهالى لحمل جثتها.".

غاص أبى إلى داخل الذرة، وتبعه بعض من حاملى المشاعل، واصطدمت المشاعل بأعواد الذرة لتتساقط قطرات الزيت الملتهبة داخل الذرة؛ لتشتعل أوراق الذرة شبه الجافة، وبدأت أعواد الذرة تحنى رؤوسها متأثرة بما حل بها.

راح أبى يزيح أعواد الذرة التى تعترضه، حتى نجح فى الكشف عن جثة جدتى التى كانت ترقد داخل الذرة ناظرة إلى سماء قرية دونغ بيى بمدينة قاو مى اللامعة، وكانت جدتى قبيل موتها اجتهدت فى مناداة السماء التى عاشت تحت ظلها، حتى تأثرت السماء بمناداتها، وبدا وجه جدتى بعد موتها وجهًا جميلاً كأحجار الجاد الجميلة، وبدت أسنانها بيضاء جميلة، وصدرها الذى أصابته الطلقات النارية منتصبًا فى زهو، فى إشارة منه لازدراء أخلاقيات البشر والمواعظ الكبرى، لتعبر عن ذلك الشرف والكبرياء العظيم الذى تمتلكه، من قوة وحرية وحب عظيم للحياة!

ثم وصل جدى إلى حيث ترقد جثة زوجته، وكانت تحيط بجثتها عشرات من المشاعل، وكانت تتطاير كميات من أوراق الذرة التى اشتعلت بفعل قطرات الزيت المتساقطة من المشاعل، وبدت سنابل الذرة متأثرة بما أصابها.

قال جدى: "فلتحملوها.".

وتجمعت زمرة من النساء الشابات حول جثة جدتى، وقد أحاطت بهن المشاعل من أمامهن وعن اليمين وعن اليسار، ليغطى ضوء المشاعل جميع الأرجاء داخل حقول الذرة.

حُملت جثة جدتى إلى حافة النهر، ووُضعت فى أقصى يسار صف الجثث المصطفة هنالك.

وسأل الشيخ العجوز ذو الوجه الأسمر واللحية البيضاء جدى قائلاً: "أيها القائد يو، من أين ستدبر هذا العدد من التوابيت لدفن هذه الجثث؟".

فأجاب جدى بعد أن فكر قليلاً فى سؤال الشيخ العجوز: "لا داعى لأن نعود بهذه الجثث، ولا حاجة لنا بالتوابيت، ولنقم بدفن الجثث هنا داخل حقول الذرة، وسنقيم جنازة مهيبة لهؤلاء الرفاق بعد أن نعيد ترتيب صفوفنا!".

أبدى الشيخ العجوز موافقته على اقتراح جدى، وراح يطلب من البعض سرعة العودة إلى القرية لتجهيز المشاعل والاستعداد لدفن الجثث ليلاً، فقال جدى: "ولتأتوا ببعض الدواب لجر هاتين العربتين وتعودوا بهم إلى القرية".

بدأ الجمع فى حفر القبور تحت ضوء المشاعل الملتهبة، حتى انتهوا من الحفر عند منتصف الليل، وأمر القائد يو بعضًا من الرجال بقطع عدد من أعواد الذرة وفرش جزء منها داخل القبور ثم تغطية الجثث بالبعض الآخر، ثم ليهيلوا عليها التراب فى شكل تلال صغيرة.

كانت جثة جدتى آخر الجثث التى واروها التراب، تغطت الجثة تمامًا بأعواد الذرة، وراح أبى يتأمل مشهد تغطية جثة أمه بأعواد الذرة وقلبه يتمزق ألمًا وكأنه قد جرح جرحًا غائرًا، ولم يلتئم هذا الجرح الغائر طيلة حياته، كان جدى أول من أهال التراب على جدتى، أحدثت ذرات التراب الأسود صوتًا عند اصطدامها بأعواد الذرة التى كانت تغطى الجثة، وبدا هذا الصوت مسموعًا ليكسر حالة السكون التام التى خيمت على المشهد، وأحس أبى بانقباض قلبه، وبأن الدماء تسيل بشدة من جرحه الغائر، وراح يعض شفته السفلى الرقيقة بثناياه.

وأخيرًا تم الانتهاء من تشييد قبر جدتى؛ ليظهر داخل حقول الذرة ما يزيد على خمسين قبرًا، فقال ذلك الشيخ العجوز: "فلتسجدوا أيها الإخوة تحية لهذه القبور!".

فسجد جميع أهل القرية من الكبار أمام هذه القبور الجديدة، ثم علت أصوات البكاء والنحيب لتملأ جميع الأرجاء، وانطفأت المشاعل، وهبط كوكب من السماء وملأ ضوؤه المكان، حتى اختفى هذا الضوء عند ملامسة الكوكب لقمة أعواد الذرة.

ثم قام الجمع بحمل مشاعل جديدة، لتملأ أضواؤها المكان من جديد، واختلطت الدواب التى أتى بها الأهالى من القرية مما يزيد على عشرة رؤوس من الخيل والبغال والحمير والأبقار، ثم راحت تلك الدواب تقضم أعواد وسنابل الذرة بنهم شديد.

أمر جدى بجمع الآلات التى استُخدمت فى حفر القبور، ثم أمر بأن يتم سحب العربة الأولى التى تم تحطيم إطاراتها بواسطة تلك الآلات إلى الطريق العام، وإلقائها إلى داخل المياه، ثم أخذ جدى ببندقية وصوبها نحو تنك الزيت الخاص بتلك العربة؛ لينفجر التنك وتمتلئ المنطقة المحيطة بالعربة بعدد كبير من القطع الحديدية الصغيرة، وعمت رائحة الزيت جميع أرجاء المكان، ثم أخذ جدى مشعلاً من أحد أهالى القرية القريبين منه وتراجع بضع خطوات إلى الخلف، ثم ألقى بالمشعل تجاه العربة؛ لتشتعل النار فى بدن العربة لتصبح قطعة حديدية متفحمة.

ونادى جدى على الجمع المحتشدين، وأمرهم بأن يسحبوا العربة الثانية التى كانت ممتلئة بالأرز إلى قمة الجسر، ثم إلى الطريق العام، وأمرهم أيضًا أن يقوموا بإلقاء الهياكل التى تبقت من العربتين الثالثة والرابعة إلى داخل المياه، كما قام بتصويب طلقة نارية تجاه تنك الزيت الخاص بالعربة

الخامسة، وألقى عليها مشعل، لتحترق فى الحال، وخلا الجسر الكبير من الأجسام الكبيرة التى كانت تظهر أعلاه، وبقى فقط بعض من بقايا ترابية وبقايا الأشياء المحترقة، وسمع دوى أصوات انفجارات متلاحقة لتلك الأشياء على جنوب وشمال النهر، وتفحمت الجثث اليابانية التى كانت داخل تلك العربات تفحمًا، وعمت رائحة تلك الأجساد المحترقة المكان، وقد بدت تلك الرائحة خانقة.

عاود الشيخ العجوز سؤال جدى: "أيها القائد يو، ماذا ستفعل فى هذه الجثث اليابانية؟".

فرد جدى: "هل نقوم بدفنها؟ إنها ستصيب هذه الأرض الذكية بالتعفن! هل نلقى بها داخل النار؟ إنها ستلوث سماء بلادنا! سنقوم بإلقائها داخل عرض النهر ونجعلها تسبح حتى تصل إلى اليابان".

فأمسك الأهالى بالصنارات الحديدية، وقاموا بسحب ما يزيد على ثلاثين جثة من جثث جنود الشياطين اليابانيين إلى أعلى الجسر، بما فيها جثة ذلك القائد اليابانى الكبير الذى قام لينغ ماتزه بتجريده من زيه العسكرى.

وقال جدى: "فلتختفِ النساء بعض الوقت".

وأخرج سيفًا صغيرًا، قام بقطع الأعضاء التناسلية لجميع جثث الشياطين اليابانيين، ثم نادى على بعض الرجال وقاموا بحمل تلك الجثث ليلقوا بها إلى داخل النهر وهم يصيحون: "فلترجعوا إلى حيث أتيتم أيتها الكلاب اليابانية"، فامتلأت صفحة النهر بجثث الشياطين اليابانية التى سارت جميعها فى اتجاه الشرق.

وعند ظهور ضوء الفجر الباهت، بدا على الأهالى جميعًا التعب والإرهاق، وتضاءل ضوء المصابيح، لترى زرقة السماء الصافية فى بعض الأماكن التى لم يصل إليها ضوء المشاعل، وأمر جدى بعض الأهالى بسحب

الدواب من الخيل والبغال والحمير والأبقار أمام تلك العربة المحملة عن آخرها بالأرز، وأمر بعض الرجال بأن يلازموا الدواب لحثها على سحب تلك العربة المحملة بالأرز، وأحكمت الدواب قوتها وراحت تسحب ذلك الحمل الثقيل، حتى أخذت العربة تتلوى مثل الخنفساء، وبدت عجلات السيارة الأمامية تسير بدون انتظام، فأمر جدى بإيقاف الدواب التى كانت تسحب العربة، وفتح باب العربة ودخل إلى كابينة السائق وراح يقلد حركات قائد السيارة وهو يحرك عجلة القيادة يمينًا ويسارًا، بينما كانت الدواب تقفز أمام العربة، وراح يحرك عجلة القيادة حتى عرف أن العربة خالية تمامًا، وتقدمت العربة بشكل مستقيم إلى الأمام، وتبعها جموع الأهالى وهم يرتجفون خوفًا، وكان جدى يجلس داخل الكابينة وقد جعل إحدى يديه تمسك بعجلة القيادة والأخرى تعبث هنا وهناك، حتى عبثت هذه اليد بمفتاح ما، فإذا به مفتاح الإضاءة حيث رأى الضوء الأبيض المنبعث من المصابيح الأمامية.

وسمع صوتًا يصيح خلف السيارة قائلاً: "افتحوا أعينكم! افتحوا أعينكم!".

وأضاء نور المصابيح مسافة طويلة من الطريق العام، وكان الضوء شديدًا حتى إن الناظر باستطاعته أن يميز كل شعرة من شعر الخيل والبغال والحمير والأبقار، وعندئذٍ بدا على جدى السرور والرضا، وقد راح يستمر فى العبث بالمفاتيح المجاورة لمفتاح الإضاءة، فإذا به يضغط على مفتاح الكالكس الذى أحدث صوتًا قويًا انتفضت على إثره الخيل والبغال والحمير والأبقار مذعورة، ومضى جدى يفكر فى نفسه: هل لا زلت قادرة على الصياح! وفجأة تقدمت العربة إلى الأمام بسرعة جنونية وصدمت الحمير والأبقار وقلبت الخيل والبغال، وأرعبته هو رعبًا شديدًا وتصبب جسده عرقًا.

وأصيب الجميع بالذهول الشديد عندما رأوا العربة تتقدم بهذه السرعة الجنونية وتصطدم وتقلب هذه الدواب القوية، وتقدمت العربة إلى الأمام لمسافة عشرات الأمتار حتى وصلت إلى الخندق الذى يقع غربى الطريق، ونجح جدى فى الخروج من داخل العربة بعد أن قام بكسر زجاج الكابينة، وقد تلطخت يداه ووجهه بالدماء.

وراح جدى يتأمل هذا الشىء الساحر وهو فى غاية الذعر، وفجأة علت وجهه ابتسامة حزينة.

وقام الأهالى بنقل حمولة الأرز التى كانت على ظهر العربة، وأخذ جدى ببندقيته وأطلق طلقة تجاه تنك الزيت ثم ألقى إليها بأحد المشاعل لتحترق ويملأ دخانها الكثيف عنان السماء.

(٨)

قبل أربعة عشر عامًا مضت، كان يو جان آو قد وقف وسط فناء منزل عائلتى وهو يلتحف بعباءة صغيرة ويرتدى سروالاً من القماش، وقف وسط الفناء وراح يصيح بأعلى صوته: "أيتها المعلمة، هل أنتم بحاجة إلى عمال جدد؟".

فجاشت داخل صدر جدتى كل الأحاسيس، وشعرت ببعض الاضطراب، حتى سقط المقص الذى كانت تمسك به أعلى حصيرة مصطبة التدفئة، وشعرت ببعض الهزال، وسقطت على الغطاء الذى انتهت من صناعته مؤخرًا من القماش الملون.

وشم يو جان آو رائحة ماء الكلس الظازجة ورائحة نسوية قادمة من داخل الغرفة، فتجرأ ودفع باب الغرفة.

"أيتها المعلمة، هل أنتم بحاجة إلى عمال جدد؟".

وكانت جدتى مضطجعة أعلى الغطاء الملون، وراحت تنظر إليه نظرات غامضة.

وألقى يو جان آو بعباءته، وتقدم بضع خطوات إلى جانب مصطبة التدفئة، ومال بنصف جسده الأعلى فى مواجهة جدتى، وبدا يو جان آو فى تلك اللحظة التى اقترب فيها من جدتى فى غاية الرفق، وفى تلك اللحظة وعندما اقترب وجهه كثيرًا من وجه جدتى، إذا بها ترفع يدها عالية وتصفعه صفعة على صلعته البيضاء، ثم قامت جدتى وأخذت بالمقص وراحت توبخه بلهجة قوية: "من أنت؟ يا لك من وقح! كيف تجرؤ على دخول غرفتى بدون سابق معرفة وتصطنع هذه الرقة أمامى!".

أصيب يو جان آو بذهول شديد، وتراجع بضع خطوات إلى الخلف ثم قال: "أنت.. هل حقًا لا تعرفيننى؟".

فأجابت جدتى: "يا لك من إنسان وقح، كيف لى أن أعرفك وقد كنت ألزم منزل أبى فى صغرى، ولم يكد يمر خمسة عشر يومًا على زواجى؟".

فقال يو جان آو مبتسمًا: "فلتنكرى معرفتى كما يحلو لك، سمعت أن حضرتك تحتاجين لبعض العمال للعمل فى فرن النبيذ الذى تمتلكينه، وها أنا جئت لأبحث عن عمل أتحصل منه على قوت يومى!".

قالت جدتى: "موافقة، موافقة ما دمت قادرًا على تحمل الصعاب، ما لقبك؟ وماذا تدعى؟ وكم عمرك؟".

"لقبى يو، وأدعى جان آو، وعمرى أربعة وعشرون عامًا".

قالت جدتى: "فلترتدِ عباءتك ولتخرج إلى خارج هذه الغرفة".

أطاعها يو جان آو وخرج إلى خارج الغرفة، ووقف ينتظر أوامرها، وسطعت أشعة الشمس على البرية، وبدا الطريق الموصل إلى مدينة شى تونغ ضيقًا وطويلاً جدا وسط حقول الذرة التى تحيطه من الجانبين، وكانت لا تزال توجد بقايا براعم الذرة المحترقة، وانتظر يو جان آو خارج باب المنزل لمدة نصف ساعة كاملة، ساوره خلالها الاضطراب والقلق، وود أن يقتحم الباب ويدخل إلى تلك المرأة ويتناقش معها، ولكنه منع قدميه من الدخول، وفى ذلك اليوم الذى قام فيه بقتل السيد دان يان شيو وابنه الأبرص دان بيان لانغ، لم يكن يو جان آو قد هرب إلى مكان بعيد، ولكنه اختبأ داخل حقول الذرة القريبة وراح يتابع تلك المسرحية الرائعة التى حدثت إلى جانب الخليج، وكان عرض جدتى البارز كفيلاً بأن جعله يشعر بكثير من الدهشة، يعرف جيدًا أن جدتى على الرغم من صغر سنها، فإنها شابة ذات أنياب طويلة، ماهرة فى رسم الخطط، وأنها امرأة خطيرة للغاية، وربما تكون معاملتها له اليوم بهذه الطريقة، إنما لتجنب نظرات الآخرين، وانتظر مدة أخرى، ولم تخرج جدتى لملاقاته، بدا الفناء فى غاية السكون، إلا من صياح طائر العقعق الذى كان يقرفص أعلى سقف الغرفة، وأضمر يو جان آو نيته الشريرة بضرورة أن يقوم باقتحام الباب، وقبيل تنفيذ نيته الشريرة، إذا به يسمع صوت جدتى تناديه من وراء ستارة الشباك قائلة: "اذهب إلى المسئول فى الفناء الشرقى وأفصح له عن طلبك!".

فانتبه يو جان آو فجأة، وعرف أنه يجب ألا يتعدى توجيهات المرأة الأهم فى هذا المكان، فهدأ بعض الشيء، والتحف عباءته وخرج قاصدًا الفناء الشرقى، وما أن دلف إلى الفناء الشرقى حتى رأى أعدادًا كبيرة من أوعية النبيذ، وأكوامًا من الذرة، والفرن تعج بالكثير من العمال الذين كانوا جميعًا

منشغلين فى أعمالهم، فدخل يو جان آو تلك الخيمة الصيفية وسأل أحد العمال الذى كان يقف أعلى مقعد مرتفع ويقوم بإلقاء كميات الذرة داخل دلو مربع فى الفرن، سأله يو جان آو: "آى، أيها العامل، أين الشخص المسئول فى هذا المكان؟".

نظر إليه العامل بطرف عينه، واستمر فى عمله إلى جانب فرن النبيذ، ثم نزل من أعلى المقعد المرتفع بعد أن انتهى من إلقاء كمية الذرة إلى داخل الفرن، نزل وإحدى يديه تأخذ بالجاروف والأخرى تسحب المقعد المرتفع من جانب الفرن، وراح العامل يصيح بصوت مرتفع، وما أن سمع ذلك البغل الذى كانت عيناه مغطاة بقطعة قماش سوداء الصياح حتى استدار بجسده وجرى مسرعًا، وقد طبعت أقدام البغل على حجر طاحونة الفرن، وكان صوت الرحى عاليًا؛ كانت تدور بسرعة لتخرج من أسفلها كميات من مسحوق الذرة، تنزل داخل الإناء الخشبى الكبير المعد لذلك، وقال ذلك عامل الطاحونة: "إن العم المسئول داخل المتجر". وأشار العامل إلى الغرف الثلاث الواقعة على الجانب الغربى لمدخل الفناء.

حمل يو جان آو عباءته ودخل إلى تلك الغرف من الباب الخلفى، وما أن دلف إلى داخل الغرف حتى رأى ذلك العجوز المعروف له جالسًا خلف الخزينة وقد انشغل بمراجعة بعض الحسابات على المحسب(١)،

(١) المحسب أو كما يطلق عليه بالصينية **suan pan**: وهو آلة حسابات صينية تقليدية، تم اختراعها فى الصين قديمًا وانتشرت انتشارًا واسعًا قبل معرفة الأرقام العربية، وهناك من يقول بأن لها علاقة بالاختراعات الصينية الأربعة الكبرى (الورق- البارود - الطباعة- البوصلة)، وهى عبارة عن آلة حسابات مستطيلة الشكل، لها حواف خشبية من الجهات الأربعة، مثبت بداخلها دعائم خشبية، معلق عليها حبات خشبية تشبه حبات المسبحة، وهناك عمود خشبى يقسمها إلى نصفين، ولا تزال هذه الآلة التقليدية موجودة فى الصين حتى يومنا هذا، بل ويتم استخدامها داخل مختلف المتاجر الكبرى؛ حيث يعتقد أصحابها أن استخدامها ليس فقط من أجل سهولة استخدامها لديهم، بل إنها تساعد على التدريب على القدرات الفكرية للمستخدم، حيث يتطلب استخدامها تركيزًا كبيرًا تتواصل خلاله العين مع المخ والأيدى، فهى طريقة مهمة لتشغيل العقل. (المترجم).

وقد وضع جرة من النبيذ إلى جوار المحسب، يحتسى ما بداخلها من نبيذ خلال انشغاله بحساباته.

فسأله يو جان آو: "أيها المدير، هل أنتم فى حاجة إلى عمال جدد؟".

نظر الجد لوو خان إلى السائل وكأنه يساوره بعض الشك فى أمره، ثم سأله: "هل ترغب فى العمل لفترة طويلة أم لفترة قصيرة؟".

فرد يو جان آو: "ما ترونه سيادتكم، أما أنا فأتمنى العمل لأطول فترة ممكنة".

قال الجد لوو خان: "أنا أملك الحق فى الموافقة على مدة العمل القصيرة حوالى عشرة أيام، أما الفترات الطويلة فلا بد من موافقة المعلمة حتى نقبلك فى هذا المكان".

قال يو جان آو: "إذًا فلنسارع بسؤال المعلمة".

وخرج يو جان آو إلى خارج غرفة الحسابات، وسحب مقعدًا وجلس يرتاح بعض الوقت. وترك الجد لوو خان المحسب، واستدار بجسده وغادر المكان من الباب الخلفى للغرفة، ثم عاد ثانية ليأخذ سلطانية من الخزف كانت ممتلئة بالنبيذ إلى حد المنتصف، ووضعها على الخزينة ثم قال: "فلتروِ عطشك باحتساء بعض النبيذ".

أخذ يو جان آو السلطانية وجعل يشرب ما بداخلها، ومضى يفكر فى حيل ومكائد تلك المرأة، والتى أعجب بها كثيرًا، وعندئذٍ دخل إليه الجد لوو خان وقال: "إن المعلمة ترغب فى رؤيتك".

وسارا معًا حتى وصلا إلى الفناء الغربى، وعندها قال الجد لوو خان: "فلننتظر قليلاً".

خرجت جدتى إليه، وقد بدت فى غاية الوقار والاتزان، وغاية الغرور، وراحت تسأل يو جان آو بعض الأسئلة، وأخيرًا لوحت بيدها قائلة: "فلتأخذوه إلى الفرن، وليعمل مدة شهر تحت التدريب، وليحسب له راتبه من الغد".

ومنذ ذلك اليوم أصبح يوجان آو أحد عمال فرن النبيذ المملوكة لعائلتى، وكان الرجل قوى البنية، بارعًا وماهرًا، يؤدى عمله على خير وجه، وكان الجد لوو خان كثيرًا ما يثنى عليه أمام جدتى، وبعد مرور شهر من عمله فى الفرن، استدعاه الجد لوو خان إلى غرفة الخزينة، وأخبره: "إن المعلمة راضية عنك كل الرضا، وقد قررت الإبقاء عليك لتكون أحد عمال هذا الفرن"، ثم قدم له الجد لوو خان كيسًا من القماش قائلاً: "وهذه مكافأة من المعلمة"، ففتح يوجان آو الكيس القماشى، ليجد بداخله زوجًا جديدًا من الأحذية المصنوعة من القماش، قال يوجان آو: "أيها المعلم الثانى، أستأذنك فى أن تخبر المعلمة بأننى يوجان آو أشكرها عظيم الشكر"، فقال الجد لوو خان: "فلتذهب الآن، ولتجتهد فى عملك".

قال يوجان آو: "أعدك بأننى سأجتهد فى عملى".

ومرت سريعًا فترة ستة أشهر من عمل يوجان آو فى فرن المعلمة جدتى، بينما كان يوجان آو يشعر بشىء من عدم الصبر وعدم الرضا تجاه بعض الأمور فى الفرن، كانت المعلمة تأتى كل يوم إلى الفناء الشرقى لتقصى أحوال العمل والعمال، وكانت تروح وتجىء بصحبة الجد لوو خان، ولا تهتم بهؤلاء العمال الذين كانوا يبدون فى غاية التعب والإرهاق، وهكذا شعر يوجان آو ببعض الظلم من تصرف المعلمة تجاه عمال الفرن.

وحينما كان السيد دان يان شيو وابنه الأبرص دان بيان لانغ يتوليان إدارة الفرن، كانا يعتمدان على بعض المطاعم فى القرية لإعداد وجبات

الطعام اللازمة لعمال الفرن، أما بعد تولى المعلمة جدتى شئون الفرن، فقد قامت باستئجار سيدة فوق الثلاثين من العمر تدعى العمة ليو بواتزه، وفتاة فى حوالى الرابعة عشرة أو الخامسة عشرة من العمر تدعى ليان إر؛ كانت العمة ليو بواتزه والفتاة ليان إر تقيمان داخل الفناء الغربى، وتتوليان مهام إعداد الطعام، كما قامت جدتى بشراء ثلاثة كلاب جدد، كلب أسود وآخر أخضر وثالث أحمر، وذلك بالإضافة إلى كلبين آخرين كانت تملكهم العائلة من قبل، وهكذا فقد أصبح الفناء الغربى عالمًا خاصًا يسكنه ثلاث سيدات وخمسة كلاب، وإذا ما هبت أدنى رياح فى الليل، أو حدث أدنى حركة قريبة من الفناء، فإن الكلاب الخمسة كانت تنبح بصوت عال، ولم يكن يفلت منهم أحد، فكانوا إما يتغلبون عليه بعضه، أو أن يموت اللص من شدة الخوف من الكلاب الخمسة.

وعندما مر شهران على عمل يوجان آو فى الفرن، كان قد حل شهر سبتمبر، نضجت محاصيل الذرة التى كانت تملأ أرجاء القرية، وأمرت جدتى الجد لوو خان باستئجار بعض عمال اليومية للقيام بتنظيف ساحة الفرن؛ لتكون جاهزة لتخزين كميات جديدة من الذرة تشتريها جدتى هذا الموسم، سطعت شمس سبتمبر على الساحة الكبيرة، وظهرت جدتى ترتدى ثوبًا من الحرير الأبيض، وتنتعل زوجًا من الأحذية الحمراء المصنوعة من الستان، تمسك بعصا من خشب الصفصاف نزعت قشرتها، تتبعها زمرة من الكلاب، هكذا راحت جدتى تروح وتجىء فى جميع أرجاء الساحة، حتى كان جميع أهالى القرية فى عجب شديد من زينتها وتبخترها بهذه الطريقة، ولكن أحدًا منهم لم يجرؤ على التفوه بكلمة واحدة، وقد حاول يوجان آو التقرب منها أكثر من مرة، إلا أن جدتى كانت تبدو فى غاية الصرامة، ولم تتحدث إليه بكلمة خارج حدود العمل.

فى تلك الليلة تجرع يوجان آو أكثر من سلطانية من النبيذ، حتى وصل به الأمر إلى بعض الثمالة، فألقى بنفسه على مصطبة التدفئة وراح يتقلب كثيرًا عاجزًا عن النوم. وانعكس ضوء القمر إلى داخل الغرفة عبر نافذتى الفناء الشرقى، ورأى اثنان من عمال الفرن ينشغلان بإصلاح وترقيع ثيابهما تحت ضوء القمر.

كان العم لاو دو الماهر فى العزف على آلة بانخو(١)، يعزف على آلته مقطوعة من الألحان الحزينة، حتى إن الآلة كانت ترتجف متأثرة بهذه الألحان الشجية، وقد راح أحد العاملين اللذين كانا ينشغلان بإصلاح ثيابهما يستجيبان إلى ألحان العم دو، وراح ذلك العامل ينشد بصوت مبحوح: "ما أصعب حياتك أيها العزب، ما أصعب حياتك أيها العزب، وليس لك من أحد يساعدك فى إصلاح وترقيع ثيابك.....".

"فلتطلب من المعلمة أن تساعدك فى إصلاحها!".

"تقصد المعلمة؟ تلك الأوزة السمينة، يا ترى من ذا سعيد الحظ الذى سينعم بأكلها".

"إن العم المسئول فى هذا الفرن يأمل فى الفوز بتلك الأوزة السمينة، وتقديم حياته فى سبيل تحقيق أمنيته".

"آى، لقد سمعت أن المعلمة أقامت علاقة غير شرعية قبل زواجها بأحد الحمالين!".

---

(١) بانخو: آلة موسيقية صينية يرجع تاريخها إلى حوالى ثلاثة آلاف عام، وتتميز بألوانها الجميلة وأنواعها المتعددة، وهى واحدة من الآلات الموسيقية التى تستخدم فى عروض الأوبرا الصينية والفنون المسرحية الصينية خاصة فى شمال الصين. (المترجم)

"إذا فإن كلامك هذا يؤكد أن السيد دان وابنــه قــد قــتلا علــى يــد ذلك الحمال؟".

"فلتسكتوا عن الخوض فى هذا الحديث، فإن الحيطان لها آذان!".

وعندها ضحك يوجان آو الذى كان يرقد على مصطبة التدفئة.

فسأله أحد العمال: "وما الذى يضحك يا يو؟".

فأمسك يوجان آو بغطاء سلطانية النبيذ وشرب جرعة ثم قال: "أنا الذى قتلت السيد دان وابنه!".

"لقد سكرت يا يوجان آو!".

انتصب يو جان آو وراح يرد على ذلك العامل الذى اتهمه بالــسكر، فقال "سكرت؟ إنك أنت السكران! وأنا القاتل!"، ثم مد يده إلى صرة ملابــس معلقة على الحائط، وأخرج منها خنجرًا صغيرًا، وكان يلمع تحــت ضــوء القمر وكأنه سمكة فضية، ثم قال بلهجــة شــديدة: "ولأخبــركم أننــى...... أننى ضاجعت هذه المعلمة...... ضاجعتها هناك وسط حقول الذرة.....".

ساد الجميع صمت تام، ثم تقدم أحد العمال ونفخ نفخة ليطفئ ضــوء المصباح؛ ليلف الغرفة ظلام دامــس، ويــزداد بريــق الخنجــر الــصغير أكثر وأكثر.

"فلتناموا الآن، فلتناموا الآن، فلتناموا الآن، فستستيقظون غــدًا مبكــرًا للعمل داخل الفرن!".

راح يوجان آو يغمغم: "اللعنة عليكِ...... تنكريننى بعــد أن ارتــديت الثياب الجميلة...... وترغبين فى أن أكون خادمًا لك...... ليس الأمر سهلاً

كما تتخيلين...... وسأذبحك الليلة....." ثم قفز من أعلى المصطبة، وأمسك بخنجره ومضى إلى خارج الغرفة، فانتفض العمال وفتحوا أعينهم داخل الظلام، وراحوا ينظرون إلى بريق الخنجر، ولم يجرؤ أحد منهم أن ينبس ببنت شفة.

ووصل يوجان آو إلى ساحة الفرن، ليرى ظلمة الليل وقد لفت جميع أرجاء الساحة، حتى بدت جرات النبيذ تلمع وكأنها كنوز نفيسة، وشعر ببعض البرودة التى كان مصدرها الرياح الجنوبية القادمة من الخلاء البعيد والمحملة برائحة الذرة الناضجة، وسمع صوتًا نسائيا قادمًا من الفناء الغربى، وتسلل إلى داخل الخيمة الصيفية، ونقل ذلك المقعد العالى ذا الأرجل الأربعة، وكان أول ما رأى فور تسلله إلى داخل الخيمة، ذلك البغل الأسود الذى كان يغط فى نوم عميق، ولم يبال يوجان آو بالبغل، ومضى يرفع المقعد إلى جانب الحائط، ثم صعد إلى أعلى المقعد، وانتصب لتتساوى قامته مع حافة الحائط، ورأى ضوء المصباح الذى كان ينعكس على ورق النافذة الأبيض، وقد لصق أعلاه بعض الرسومات الحمراء، كانت المعلمة تنشغل بالحديث مع الفتاة الطباخة ليان إر فوق مصطبة التدفئة، ثم سمع صوت العمة الطباخة ليو بواتزه تقول: "يا لكم من ثرثارتين، فلتناما، فلتناما!" ثم قالت العمة ليو بواتزه: "يا ليان إر، فلتذهبى إلى القدر لتنظرى إلى الخميرة، وترى هل نضجت أم لم تنضج بعد؟".

وأخذ يوجان آو الخنجر بفمه، وجعل يتسلق الحائط، فشعرت به الكلاب الخمسة، فرفعت رؤوسها وراحت تنبح، فدهش يوجان آو اندهاشًا شديدًا من تلك الكلاب اليقظة، ثم ألقى بنفسه إلى داخل الفناء الغربى ورأسه ثقيل وقدماه متخاذلتان، وفى الحقيقة أنه لو لم تكن قد خرجت جدتى فى تلك اللحظة مسرعة إلى الفناء، لكانت تلك الكلاب كفيلة بأن تلتهم اثنين فى قوة يوجان آو.

قامت جدتى بتوبيخ الكلاب لإقصائها عن المكان، ثم نادت: "يا ليان إر، أوقدى المصباح وائتينى به!".

وجاءت العمة ليو بواتزه وهى تمسك بالمطرقة التى تستخدمها فى عجن الخبز، وراحت تصيح بأعلى صوتها: "حرامى، حرامى!".

وجاءت ليان إر بالمصباح؛ لينعكس ضوءه على وجه يوجان آو الذى كان فى رعب شديد، وهنا ضحكت جدتى ضحكة باردة وقالت: "إنه أنت!".

ومدت جدتى يدها والتقطت الخنجر، وراحت تقلبه وتتفحصه، ثم وضعته إلى داخل جيبها، وقالت: "يا ليان إر، اذهبى لتنادى الجد لوو خان".

وما أن فتحت الفتاة ليان إر باب الفناء، حتى دخل الجد لوو خان، وراح يسأل: "ما الذى حدث يا سيدتى؟".

ردت جدتى: "يبدو أن هذا العامل سكران".

فقال الجد لوو خان: "نعم إنه سكران".

قالت جدتى: "يا ليان إر، ائتنى بالعصا!".

فخرجت الفتاة ليان إر وأحضرت عصا جدتى الخشبية البيضاء، ثم قالت جدتى: "أما أنا فسأجعلك تفيق من سكرك!".

رفعت جدتى العصا عالية وراحت تضرب بها يوجان آوعلى مؤخرته.

وأحس يوجان آو وسط هذا الضرب المبرح ببعض السرور يدخل إلى قلبه، حتى وصل السرور إلى حنجرته، ثم أسنانه، وتجمع السرور ليخرج فى كلمات من الهذيان: "يا أمى يا أمى...... يا أمى...... يا أمى.....".

وبعد أن تعبت جدتى من ضربه، اتكأت على عصاها وراحت تلهث من شدة التعب.

وقالت جدتى: "احملوه إلى حيث كان!".

فتقدم الجد لوو خان ليسحبه، غير أن يوجان آو كان ملتصقًا بالأرض وأبى أن يقوم من مكانه، وهو لا يتوقف عن: "يا أمى...... فلتستمرى فى ضربى...... فلتستمرى فى ضربى.....".

وجهت جدتى العصا نحو رقبته، وضربته ضربتين مبرحتين، فراح يوجان آو يلملم قدميه ويتلوى مثل الأطفال، واستدعى الجد لوو خان اثنين من العمال، ليقوموا بحمله إلى غرفة العمال، ويلقوه على المصطبة، فراح يتلوى أعلى المصطبة كالضفدعة، وهو لا يتوقف عن الهذيان بالكلام القبيح، فأتى الجد لوو خان بسطل من النبيذ، وأمر بعض العمال أن يمسكوا بذراعيه وقدميه، ثم قام بسكب سطل النبيذ داخل فمه، فأرخى العاملان أيديهما عنه، فراح يهز رقبته دون أن يتفوه بكلمة واحدة أو يصدر عنه أدنى نفس، فصاح أحد العمال مفزوعًا: "هل مت؟"، ثم راح يأتى بالمصباح فى عجالة، ونظر إلى وجهه إذا به يتحرك، ونفخ فى المصباح نفخة قوية أطفأت ضوءه.

ونام يوجان آو فى ذلك اليوم حتى وقت متأخر من الصباح، وبعد أن استيقظ من نومه، راح يسير إلى داخل فرن النبيذ، حيث محل عمله بخطى بطئية، بينما كان العمال ينظرون إليه باستغراب شديد، وراح يوجان آو يتذكر مشهد تعرضه للضرب ليلة أمس، ومد يده يتلمس مؤخرته، فلم يحس بأدنى ألم، وكان فى غاية العطش، فأخذ بمغرفة من الحديد وجعل يغرف بها النبيذ، ومضى يشرب وهو رافع رقبته لأعلى.

قال العم لاو دو العازف علـى آلـة بـانخوا مخاطبًـا يوجـان آو: "أخى الصغير يو، هل ستجرؤ على القفز أعلى السور مـرة ثانيـة بعـد أن أوجعتك أمك ضربًا؟".

قبل وقوع تلك الحادثة، كان عمال فرن النبيذ يشعرون ببعض الخوف من هذا الشاب المتجهم، غير أن هذا الخوف قد زال عـنهم تمامًـا بعـد أن سمعوا بآذانهم صراخه وصياحه فى تلك الليلة، وكانوا بعدها يتحدثون عـن جنونه ويهزأون منه بكل حماس، ولم يرد عليهم يوجان آو، غير أنه سـارع بسحب أحدهم وأوجعه ضربًا، فتلاقت أعينهم، ثم تقدموا معًا نحوه، وطرحوه أرضًا، وانهالوا عليه ضربًا، وبعد أن كلوا من ضربه، فكوا حزامه، وقـاموا بوضع رأسه داخل بنطاله وجعلوا يديه متشابكتين خلف ظهره، ثم طرحـوه أرضًا، فسقط يوجان آو مغشيًا عليه كالنمر القوى الذى خارت قوتـه، وراح يجاهد لفك أسر رأسه الذى حُشر داخل حجر بنطاله، بينما كان جسده يتلوى على الأرض مثل الكرة التى تتزحلق هنا وهناك، وبعد مجاهدته لمدة كافيـة لإشعال سيجارتين، إذا بالعم لاو دو لم يتمالك رؤيته على هذا النحو، فتقـدم ليخلصه من ورطته، وأخيرًا نجح فى تخليص رأسه من داخل حجر البنطال؛ ليظهر وجه يوجان آو وكأنه ورقة ذهبية ذابلة ترتفع أعلى كومة حطب، أو كأنه مثل أفعى ميتة، وأخيرًا استطاع أن يلتقط أنفاسه بعد وقت طويل، أخـذ العمال ببعض الأشياء فى أيديهم واستعدوا للانتقام منه، غير أنهم رأوه يتمايل ويسير بصعوبة نحو قدِر النبيذ، ثم راح يرفع غطاء القـدر وبـدأ يـشرب بجنون، وبعد أن ارتوى من النبيذ، جعل يتسلق كومة الحطب وراح يـصيح حتى غلبه النعاس.

ومنذ ذلك الحادث، كان يوجان آو يُرى يوميًا سكران يرقد فوق كومة الحطب، وعيناه الزرقاوان شبه مغمضتين، وتظهر على أساريره ابتسامتان:

ابتسامة تنم عن البلاهة وأخرى عن المكر والخداع، وخلال اليومين الأولين من تغيره إلى هذا الحال، كانت جموع العمال تتلذذ برؤيته على هذا الحال، ثم بدأوا يتذمرون منه تدريجيًا، وبدأ الجد لوو خان يجبره على النهوض من فوق كومة الحطب للعمل، بينما كان يوجان آو ينظر إلى الجد لوو خان بطرف عينيه قائلاً: "ومن أنت حتى تأمرني هكذا؟ أنا المسئول الحقيقي في هذا المكان، وأنا أيضًا أبو ذلك الطفل الذي هو في بطن المعلمة".

كان أبي – ذلك الجنين في بطن جدتي – قد أصبح في حجم الكرة الجلدية، كان صوت تقيؤ جدتي صباحًا داخل الفناء الغربي يدوي داخل أرجاء الفناء الشرقي، كان من يعرف سبب هذا الصوت من العمال يتناقشون حول هذا الأمر بصوت خفيض، وفي ذلك اليوم، سأل أحد العمال العمة ليو بواتزه التي جاءت إلى الفناء الشرقي لتقديم الطعام لجموع العمال، سألها ذلك العامل قائلاً: "أيتها العمة ليو بواتزه، هل المعلمة حامل؟".

فرمته العمة ليوبواتزه بنظرة ازدراء ثم قالت: "الزم حدودك وإلا سيُقطع لسانك!".

"ما أشد المعلم دان بيان لانغ!".

"وربما كان الذي فعلها المعلم الكبير".

"لا تخمن كما يحلو لك! فهل تعتقد أن طباعها تسمح لأحد من أسرة دان بمواقعتها؟ فمن المؤكد أن ذلك الحمال هو الذي وراء هذا الحمل".

وهنا قفز يوجان آو من فوق كومة الحطب، وراح يصيح في سعادة بالغة: "إنني أنا الذي فعلتها! ها ها! أنا الذي فعلتها!".

فنظر إليه العمال وراحوا يضحكون ويسبونه في صوت واحد.

وكان الجد لوو خان قد اقترح أكثر من مرة أن تقوم المعلمة بفصل يوجان آو من العمل، غير أن جدتى كانت تقول دائمًا: " دعه يعانى بعض الوقت، وسترى كيف أوقفه عند حده".

وفى ذلك اليوم، كانت جدتى قد أتت إلى الفناء الشرقى وهى تنصب ظهرها، أتت للحديث مع الجد لووخان.

ولم يجرؤ الجد لوو خان على رفع رأسه ليرى جدتى الواقفة أمامه، وقال ببرود: "أيتها المعلمة، لقد حان وقت نصب الموازين لجمع كميات من الذرة".

سألته جدتى: "وهل تم تجهيز الساحة والقدور المخصصة لتخزين الذرة؟".

فأجاب الجد لوو خان قائلاً: "نعم تم تجهيزها".

سألت جدتى: "ومتى كنتم تنصبون الموازين فى الأعوام الماضية؟".

فقال الجد لوو خان: "فى مثل هذا التوقيت".

قالت جدتى: "فلنؤخر هذا الأمر العام الحالى".

فقال الجد لوو خان: "ولكننى أخشى ألا نستطيع جمع ما يكفينا إذا ما تأخرنا بعض الوقت، ولقد بدأت اليوم بعض الأفران الأخرى فى جمع ما تحتاجه من الذرة".

فقالت جدتى: "إن محصول الذرة هذا العام يبدو وفيرًا، وهم لن يسيطروا على كل هذه الكمية، ولتكتب إعلانًا تذكر فيه أننا لم نستعد بعد، ولنبدأ فى جمع ما نحتاج إليه بعد أن يشتروا هم ما يكفيهم من الذرة،

وعنها سنحدد السعر الذى نرغب فيه، بل إن الذرة ستكون حينها أخف بكثير".

فقال الجد لوو خان: "أحسنت يا معلمة".

ثم سألته جدتى: "هل هناك أمور أخرى تود فى مناقشتها معى؟".

"فى الحقيقة ليست هناك أمور كبيرة، فقط موضوع ذلك العامل، الذى يبدو يوميا سكران تمامًا، وأرى من الأفضل أن نعطيه بعض المال ونتركه يغادر هذا المكان وننتهى منه".

ففكرت جدتى قليلاً، ثم قالت: "فلتقودنى إلى الفرن لرؤيته".

سار الجد لوو خان أمامها، حتى دخلت المعلمة إلى داخل الفرن، كان العمال ينشغلون بوضع كميات الذرة التى خمرت إلى داخل القدر الكبير المعد لتبخير الذرة، بينما كانت تسمع صوت الذرة داخل الأوانى وكأنها كميات من الحطب تحترق، ويصل ارتفاع هذا القدر الكبير إلى ما يزيد على مائة متر، مصنوع من الخشب، موضوع أعلى الغلاية، فى أسفله حصيرة مصنوعة من البامبو، كان هناك أربعة من العمال يحملون مغرفة خشبية ويقومون بنقل كميات من الذرة المتخمرة التى تفوح منها رائحة حلوة من الأوعية إلى القدر الكبير، وكانوا يقومون بتقليب كميات الذرة داخل المناطق الأكثر حرارة فى القدر الكبير.

وعندما انتبه العمال إلى مجىء جدتى، هبوا يعملون بهمة وحماسة، بينما كان يوجان آو يرقد فوق كومة الحطب، وقد بدا ذا شعر أشعث ووجه غير نظيف، يرتدى ثيابًا مهلهلة تمامًا مثل المتسول، راح ينظر إلى جدتى نظرات باردة.

قالت جدتى: "أود أن أرى اليوم كيف تتحول الذرة إلى نبيذ؟".

فأحضر الجد لوو خان مقعدًا، وطلب من جدتى أن تستريح.

وبينما جلست جدتى فى وسط ساحة فرن النبيذ، إذا بجموع العمال يتنافسون فى بذل أقصى ما فى وسعهم من جهد، ويظهرون ما لديهم من مهارات خاصة، راح العمال المسئولون عن إشعال النيران ينهمكون فى إلقاء كميات من الحطب داخل النار، حتى اشتعل لهيبها داخل القدر الكبير، وراحت المياه تغلى بشدة داخل ذلك القدر الكبير، بينما اختلط صوت غليانها مع أصوات تنهدات العمال، وامتلأ القدر الكبير بكميات كبيرة من الذرة، وقد تم تغطية فوهته بغطاء مستدير به عدة فتحات فى حجم فوهة القدر، وبعد أن زاد اشتعال النار، ظهرت رائحة اللهب تفوح من خلال تلك الفتحات التى تملأ غطاء القدر، ثم جاء العمال بشىء غريب مصنوع من القصدير، مكون من طبقتين، به بروز من أعلى، فقال الجد لوو خان مخاطبًا جدتى: هذا هو تزينغ(١)، فنهضت جدتى وتقدمت إلى الأمام قليلاً لتنظر إلى ما أشار إليه الجد لوو خان، ونظرت بدقة إلى تركيبة تزينغ، ثم عادت لتستريح فوق المقعد دون أن تسأل عن أى شىء.

حمل العمال تزينغ وقاموا بتغطية القدر الكبير، حتى اختفت رائحة التبخر من القدر، كانوا يسمعون فقط صوت اشتعال النيران بداخله، وراحوا ينظرون إلى القدر الخشبى الكبير أعلى النيران المشتعلة، كانت النار تبدو أحيانًا بيضاء وأحيانًا أخرى صفراء، كانوا يشمون رائحة خفيفة وحلوة أشبه ما تكون برائحة النبيذ تنبعث من خلال القدر الخشبى الكبير.

قال الجد لوو خان: "أضيفوا الماء البارد".

---

(١) تزينغ: نوع من الآنية فى الصين قديمًا مستدير الشكل، يكون له يد يمسك بها أو بدون يد، كان يستخدم فى تخزين النبيذ خلال مراحل التصنيع. (المترجم)

فصعد العمال أعلى بعض المقاعد العالية، وقاموا بسكب دلـوين مـن المياه الباردة إلى داخل وعاء محدب فى القدر الكبير، ثم أخذ أحـد العمـال بعصا خشبية فى شكل المجداف، وصعد أعلى مقعد عال وراح يقلب الميـاه الباردة داخل الوعاء المحدب، وبعد وقـت قـصير شـمت جـدتى رائحـة النبيذ العطرة.

قال الجد لوو خان: "استعدوا لاستقبال النبيذ".

فقام اثنان من العمال بحمل سلة النبيذ المصنوعة من شـرائح الـشمع والملفوفة بالورق والمدهونة بالزيت، ووضعوها أمام مجرى النبيذ فى شكل فم البطة الذى يتدفق من القدر الكبير.

قامت جدتى ثانية، وراحت تحدق فى مجرى النبيذ، واختار ذلك العامل الصغير بعض الحطب كبير الحجم المدهون بزيت الصنوبر وألقى به إلـى داخل الفرن المتوهج، فاستعرت النار ثانية وامتد لهيبها الأبيض، وانعكـس اللهيب على صدر ذلك العامل الذى كان يتصبب عرقًا.

فقال الجد لوو خان: "فلتغيروا المياه".

أسرع اثنان من العمال إلى داخل الفناء، وجاءوا بأربعة جرادل ممتلئة بالماء البارد، وقام العامل الواقف أعلى المقعد العالى بتحريك مفتاح تزينـغ، لتتدفق كميات المياه المغلية، وقام بسكب المياه الباردة وانهمك فـى تقليـب المياه داخل تزينغ.

وهكذا انشغل العمال بالقيام بمهامهم حول فرن النبيذ الضخم بنظام تام، بينما راحت جدتى تتابع هذا العمل المهيب المقدس، متأثرة بمـا تـرى بـأم عينيها، شعرت فى تلك اللحظة أن أبى يتحرك داخل بطنها، ثم ألقت نظـرة خاطفة على يو جان آو الذى كان يرقد فوق كومة الحطب ويحدق إليها بعينيه

الغائرتين، كانت هاتان العينان هما العينين الباردتين فى هذا الفرن الحامي، هذا وقد بدأ هذا البرود يهدئ من حماس جدتى، راحت تنظر بهدوء إلى العاملين اللذين كانا ينشغلان بالإمساك بسلة النبيذ الكبيرة فى انتظار استقبال النبيذ من فوهة القدر الكبير.

بدأت تشتد رائحة النبيذ العطرة، وقد انساب أريجها من خلال فتحات ذلك القدر الخشبى، ونظرت جدتى إلى الضوء المنبعث من مجرى النبيذ الأبيض، تجمع هذا الضوء راح يتحرك ببطء، مكونًا فى النهاية بعض قطرات المياه اللامعة، مضت تسيل إلى داخل سلة النبيذ وكأنها قطرات من الدمع.

فنادى الجد لوو خان أن: "غيروا المياه، وزيدوا النار اشتعالاً!".

وانشغل العاملان المنوطان بحمل المياه الباردة بحمل مزيد منها، وقد انفتح صنبور تغيير المياه فى تزينغ، وبدأوا فى سكب كميات المياه الباردة من أعلى، بينما كانت تتدفق كميات المياه المغلية من أسفل، كانت تزينغ لا تزال تحافظ على درجة حرارة المياه الباردة داخلها، وقد تجمع البخار عند طبقات القدر ليخرج من عند مخرج النبيذ.

كانت أول كمية نبيذ تخرج من القدر ملتهبة للغاية، شفافة، تغلى بشدة، وأتى الجد لوو خان بمغرفة نظيفة، وجمع بداخلها قدرًا من النبيذ وقدمه إلى جدتى قائلاً: "أيتها المعلمة، فلتتذوقى هذا النبيذ".

راحت جدتى تشم رائحة النبيذ النفاذة، كان لسانها لا يتوقف عن الحركة على حواف فمها، وعندئذ عاود أبى الحركة داخل بطنها، فكأن أبى يود أن يشاركها فى شرب النبيذ، أخذت جدتى المغرفة الممتلئة بالنبيذ، وراحت تشمه، ثم مدت لسانها تلعقه، ثم أخذت قليلاً منه بشفتيها، وراحت تتذوقه على مهل، كان هذا النبيذ ذا رائحة ذكية جدًا، وحارا جدًا، فأخذت

جدتى رشفة منه، واحتفظت بها فى فمها، وأحست بأن وجنتيها ناعمتان، وكأنهما قد حفتا بقطنة رقيقة، وأرخت شفتيها لينساب النبيذ بسرعة إلى داخل حلقها، وتصبب جسمها عرقًا، وغمرتها نشوة غريبة، وشربت ثلاث رشفات متواصلة، وأحست أن هناك يدًا صغيرة تعبث داخل بطنها، فرفعت رقبتها، وشربت الكمية المتبقية داخل المغرفة، وبعد أن انتهت جدتى من شراب النبيذ، إذا بوجهها يبدو متوردًا، وعيناها بارقتان، مشرقتان جذابتان، فراح العمال ينظرون إليها باستغراب شديد، وقد تناسوا أعمالهم من شدة انبهارهم بما يرون.

قال أحد العمال بوقار شديد: "أيتها المعلمة، يا لكِ من امرأة قادرة على الشراب!".

فردت جدتى فى تواضع: "إنه لم يسبق لى الشراب من قبل".

قال العامل بمزيد من الوقار: "لم يسبق لكِ الشراب من قبل وتشربين هكذا، إنكِ إذا تدربت قليلاً فبالتأكيد ستكونين قادرة على شرب سلة كاملة من النبيذ".

وهكذا انهمك العمال فى استقبال سلة وراء سلة من النبيذ، وقاموا بوضع ما يستقبلونه من النبيذ الجديد إلى جانب كومة الحطب، ونهض يوجان آو من فوق كومة الحطب، وفك بنطاله وراح يتبول داخل إحدى السلال الممتلئة بالنبيذ، بينما انشغل العمال شاردين بملاحقة ذلك البول الصافى وهو يجرى وينساب داخل سلة النبيذ، وقد بدأت تتكون بعض الفقاعات أعلى سطح سلة النبيذ، وبعد أن انتهى يوجان آو من قضاء حاجته، إذا به يبتسم لجدتى ابتسامة عريضة، وبدأ يدنو منها وهو يتمايل، فاحمر وجه جدتى، وتسمرت فى مكانها، ومد يوجان آو ذراعيه واحتضنها، ثم طبع قبلة على وجهها، فتغيرت ملامح وجهها للتو، ولم تتمالك نفسها، وهبطت لتجلس فوق المقعد.

قال يوجان آو بأسلوب حاد: "ما قولك فى أن هذا الطفل الذى فى بطنك هو ابنى؟".

فأجابت جدتى باكية: "إذا كنت تزعم أنه ابنك، فليكن ابنك.....".

فلمعت عينا يوجان آو، وانتفض مثل الحصان، فخلع ملابسه وأبقى فقط على سرواله، وقال لجدتى: "انظرى إلىّ وأنا أقوم بتقطير النبيذ(١)!".

كانت عملية تقطير النبيذ من أصعب مراحل العمل داخل فرن صناعة النبيذ، فبعد أن تم تدفق كميات النبيذ المتجمعة داخل القدر، تم تحريك القدر وفتح غطائه، ثم تم الكشف عن كميات حثالة الذرة داخل القدر، وكانت هذه الحثالة صفراء اللون ساخنة جدًا. ووقف يوجان آو أعلى مقعد مربع الشكل، وأخذ بمغرفة خشبية صغيرة وراح يغرف الحثالة المتجمعة داخل القدر، ويكومها داخل سلة كبيرة معدة لذلك، ظهرت حركته بطيئة جدًا، كأنه كان يعتمد على طرف ذراعه فقط، وانعكس لهيب الحثالة على جسده، حتى بدا ظهره ينز عرقًا، كانت رائحة النبيذ تفوح من عرقه الغزير.

استطاعت مهارة جدى يوجان آو فى تقطير النبيذ أن تنال إعجاب جميع عمال الفرن والجد لوو خان، وهكذا استطاع جدى يوجان آو أن يستعيد قوته ومهارته البارعة التى خمدت لعدة شهور، وبعد أن انتهى جدى من عملية تقطير النبيذ، استراح ليشرب قدرًا من النبيذ، ثم قال مخاطبًا الجد لوو خان: "أيها المعلم الثانى، ما زالت لدى مهارة ثانية، فعند تدفق كميات النبيذ من داخل القدر، يكون النبيذ ساخنًا جدًا، وإذا استطعنا تركيب قدر صغير آخر عند فوهة تدفق النبيذ، فإننا بالتأكيد سنتمكن من الحصول على تجميع كميات من أفضل أنواع النبيذ".

---

(١) وهى مرحلة مهمة من مراحل صناعة النبيذ آنذاك، حيث كان يتم خلالها تقطير النبيذ وفصله عن حثالة الذرة المستخدمة فى عملية الصناعة. (المترجم)

فهز الجد لوو خان رأسه قائلاً: "وربما لا يمكننا ذلك؟".

فأجاب جدى: "فلتقطع رأسى إذا فشلت هذه التجربة!".

نظر الجد لوو خان إلى المعلمة الأولى جدتى، وقالت جدتى بصوت يخالجه البكاء: "أنا غير مسئولة عن ذلك، أنا غير مسئولة عن ذلك، وليفعل ما يريد".

ثم عادت جدتى إلى الفناء الغربى وهى تبكى.

ومنذ ذلك الحين، دبت مشاعر الحب فى قلبى جدى يوجان آو وجدتى، وقد صدمت هذه التصرفات الغريبة لجدى وجدتى جموع العمال والجد لوو خان، فلم يعودوا يعيرونهما الاهتمام الأكبر، وساورتهم مختلف الشكوك حول هذه التصرفات الغريبة التى لا يجدون لها أية مبررات تذكر، وقد تحولوا جميعًا بكل احترام إلى مطيعين لجدى يوجان آو، وهكذا اجتمع وتحقق ذلك التجديد الكبير الذى قصده جدى، ومنذ ذلك الحين ظهر فى قرية دونغبيى بمدينة قاو مى نبيذ القدر الصغير من الدرجة الأولى، ولم يجرؤ عمال الفرن على التعامل المباشر مع تلك السلة الكبيرة الممتلئة بالنبيذ التى بال داخلها يوجان آو، فقاموا بنقلها إلى داخل الفناء ووضعوها فوق سور بداخل الفناء الكبير، وفى وقت الأصيل ذات يوم، وبينما كانت السماء غائمة، هبت رياح جنوبية شرقية عاتية، وشم جموع العمال رائحة عطرة قوية تختلف عن رائحة نبيذ الذرة التى تعودت عليها أنوفهم، وكان الجد لوو خان يتميز بحاسة شم قوية، فراح يتتبع تلك الرائحة الغريبة، حتى اكتشف فى النهاية أن مصدر هذه الرائحة القوية هى تلك السلة الممتلئة بالنبيذ الممزوج ببول يوجان آو الموضوعة أعلى السور داخل الفناء، وعندها صمت الجد لوو خان صمتًا تامًا، ثم قام بنقل تلك السلة خلسة إلى داخل المتجر، وأحكم إغلاق الباب

الأمامى والخلفى، وكذا أوصد النافذة الأمامية والخلفية، وأشعل مصباح الزيت عاليًا وبدأ فى فحص السلة الممتلئة بالنبيذ الممزوج ببول جدى يوجان آو، وجاء الجد لوو خان بوعاء لشرب النبيذ، وملأه من داخل السلة، ثم سكبه إلى داخل السلة، فتفرق النبيذ داخل السلة مكونًا فقاعات خضراء، ذابت داخل النبيذ، وقد كونت تلك الفقاعات بعض أشكال زهور الأقحوان على سطح النبيذ، بينما كانت تلك الرائحة تزداد خلال تكون تلك الأشكال، فأخذ الجد لوو خان ببعض من النبيذ، وقربه إلى فمه وتذوقه بطرف لسانه، وأخيرًا شرب رشفة منه بلا تردد، ثم أتى ببعض من الماء البارد ومضمض فمه، ثم سكب قدرًا من النبيذ من قدر النبيذ الخالص وشرب منه رشفة كبيرة، وألقى بوعاء النبيذ من يده، وهم بفتح باب الفناء، وضرب النافذة إلى الخارج وراح يصيح بأعلى صوته: "أيتها المعلمة، لدى خبر سار جدًا!".

(٩)

كان والد جدتى قد جر حماره وعاد إلى بلدته بعد تناوله وجبة فطائر ساخنة فى منزل جدتى، ولم يتوقف الرجل فى طريق عودته عن سب ابنته ولعنها، وبعد أن وصل إلى منزله، راح يشكو إلى زوجته كيف أن جدتى اعترفت أمام الجميع بذلك السيد تساو رئيس المدينة، اعترفت به أبًا لها بالتبنى، فى حين أنكرته هو كأب لها فى طرفة عين، فراحت والدتها تسبها وتلعنها فى غضب شديد، وجلس العجوزان معًا وهما فى غاية الغضب والسخط على جدتى وكأنهما زوج من الضفادع التى تتقاتل على أسبقية الصعود أعلى شجرة ما، ثم قالت والدة جدتى: "لا عليك أيها العجوز، فلن تدوم هذه الزوبعة طويلاً، كما لن يطول النزاع بين أبناء الأسرة الواحدة،

ولتسترح يومين ثم تذهب إليها ثانية، ولتحاول أن تأتى لنا بما يكفى لطعامنا منها بعد أن أصبحت تتنعم فى هذا الثراء الكبير"، فقال الرجل: "حسناً، فسأنتظر خمسة عشر يومًا أو عشرين يومًا ثم أذهب إلى هذه الوغدة".

وبعد مضى خمسة عشر يومًا، ركب الرجل حماره وجاء إلى منزل عائلتى لمقابلة جدتى، كانت جدتى قد أوصدت أبواب المنزل، فراح الرجل ينادى بأعلى صوته خارج باب المدخل الكبير، حتى تعب من كثرة الصياح، فركب حماره وعاد إلى حيث أتى.

وعندما جاء والد جدتى لمقابلتها ثانية، كان جدى يوجان آو قد بدأ العمل فى فرن النبيذ، وكانت الكلاب الخمسة التى تمتلكها جدتى قد تجمعت مكونة قوة لا يستهان بها، وما أن طرق والد جدتى الباب الكبير، حتى انقضت الكلاب إلى مصدر الطرق وراحت تنبح بصوت عال، وبمجرد أن فتحت العمة ليوبواتزه الباب، اندفعت الكلاب الشرسة وأحاطت بوالد جدتى العجوز، وراحت تنبح دون أن تعضه، فاحتمى الرجل بالحمار، وراح يحاول التودد إلى تلك الكلاب الشرسة، بينما كان الحمار يرتعش من خلفه.

وسألت العمة ليوبواتزه: "من أنت؟".

فقال والد جدتى بلهجة غاضبة: "بل من أنتِ؟ لقد جئت لمقابلة ابنتى!".

"ومن تكون ابنتك؟".

"إنها المعلمة فى هذا المكان الذى تعملين فيه!".

"فلتنتظر فى هذا المكان، وسأدخل إليها لإبلاغها".

"إذاً فلتخبريها أن أباها قد جاء لمقابلتها!".

فخرجت إليه العمة ليوبواتزه تحمل فى يدها مبلغ واحد دا يانغ، وقالت للرجل: "أيها الشيخ الكبير، لقد قالت المعلمة: إنه ليس لديها أب، وأرسلت إليك هذا المبلغ، فلتشتر به بعضًا من الفطائر لتسد جوعك".

فراح الرجل يلعنها غاضبًا: "آه منكِ أيتها الوغدة، فلتخرجى لملاقاتى! هل أصبحت تنكرين أباكِ بعد أن أصبحت ميسورة الحال، تبًا لكِ!".

فألقت العمة ليوبواتزه بالمبلغ على الأرض، وقالت: "يا لك من شيخ عنيد، فلتنصرف بسرعة، وإلا فسنقوم بتأديبك إذا تسببت فى مضايقة وإزعاج المعلمة".

فقال الرجل: "إننى أبوها! فهل ستجرؤ على قتل أبيها كما قتلت حماها؟".

فردت العمة ليوبواتزه قائلة: "فلتنصرف، فلتنصرف، وإذا لم تفعل فسآمر الكلاب لتنقض عليك!".

أوعزت العمة ليوبواتزه إلى الكلاب، فتجمعت الكلاب بسرعة. ثم تقدم الكلب الأخضر وعض الحمار عضة فى قدمه، فراح الحمار يتوجع، ويجاهد للتخلص من قيده، حتى نجح فى ذلك وفر هاربًا، ثم انحنى والد جدتى والتقط المبلغ الذى عرضته عليه العمة ليوبواتزه، وفر مسرعًا محاولاً أن يلحق بحماره، وطاردته الكلاب وهى لا تتوقف عن الصياح والقفز، حتى خرج عن حدود القرية.

وفى المرة الثالثة التى جاء فيها والد جدتى إلى منزل العائلة، طلب من جدتى أن تقدم له بغلاً كبيرًا أسود اللون، وأخبرها بأن هذا البغل كان قد وعده به حماها قبل قتله، وأخبرها أنه على الرغم من موت الرجل، فإن هذا الدين لا يموت، وأنها إذا لم تنفذ طلبه، فسيشكوها إلى حكومة المدينة.

قالت جدتى: "إننى أساسًا لا أعرفك، وقد جئت إلى منزلى أكثر من مرة لإثارة الشغب ولإرهابى، وأنا التى تنوى أن تشكوك إلى حكومة المدينة".

وقد أثار صياح والد جدتى غضب وسخط جدى يوجان آو، خرج من غرفته يجر حذاءه، وقام بمساعدة بعض من الرجال بإلقاء الرجل العجوز إلى خارج المنزل.

بحث والد جدتى عمن ساعده فى كتابة شكوى، وركب حماره قاصدًا المدينة، حتى وصل إلى السيد تساو رئيس المدينة، وتقدم إليه بشكواه.

كان السيد رئيس المدينة قد تعرض خلال زيارته السابقة لقرية دونغبيى، لإطلاق الرصاص عليه من قبل أحد اللصوص الأوغاد حتى أصيب بذعر شديد، وتسبب ذلك فى وعكة صحية شديدة ألمت به، فما أن رأى أن هذه الشكوى ذات علاقة بقضية القتل التى كان قد ذهب للتحقيق فيها هناك، حتى تصبب جسده عرقًا.

سأل رئيس المدينة الرجل العجوز الشاكى: "أيها العجوز، جئت تشتكى ابنتك بممارسة الزنا مع أحد قاطعى الطريق، فهل لديك أدلة على ذلك؟".

فقال والد جدتى: "سيادة رئيس المدينة، إن قاطع الطريق الذى أقصده ينام الآن فوق مضجع ابنتى، وأنه هو ذلك اللص الوغد الذى أطلق عليك الرصاص وأصاب قبعتك".

فقال رئيس المدينة: "أيها العجوز، عليك أن تعرف أنه إذا كان ما تقوله حقيقة، فإن حياة ابنتك ستكون معرضة للخطر؟".

فأجاب والد جدتى: "سيادة رئيس المدينة، إننى لا أبالى ببيع أقرب الأقربين إلىّ لتحقيق العدالة،...... غير أن...... تلك الثروة التى تمتلكها ابنتى....".

فصاح رئيس المدينة غاضبًا: "يا لك من عجوز وغد طماع! لا تتورع فى التضحية بابنتك أمام قدر من الثروة، إذًا فلا غرابة أن ابنتك تنكرك، وإنك لا تستحق أن تكون أبًا! اضربوه خمسين ضربة بنعل الحذاء، ثم ألقوه خارج هذا المكان!".

وهكذا لم تنجح شكوى والد جدتى، بل إنه تعرض للضرب بالنعال، حتى تورمت مؤخرته، لدرجة أنه لم يستطع الجلوس فوق ظهر حماره، فراح يجر الحمار ويسير وهو يعرج ويشعر بحزن شديد مما ألم به.

وقبل أن يبعد كثيرًا عن حدود المدينة، إذا به يسمع وقع أقدام خيل تسير خلفه، فما أن نظر خلفه، رأى أحد الأشخاص جاء لملاحقته راكبًا ذلك الحصان الأسود الخاص بالسيد رئيس المدينة، وهنا أحس والد جدتى أن الأمر جد خطير وأن حياته أصبحت معرضة للخطر، ولم يتمالك نفسه وخارت عزيمته، وخر راكعًا.

كان ذلك الشخص الذى جاء لملاحقته هو السيد يان أقرب الأقربين إلى السيد رئيس المدينة، وخاطبه السيد يان قائلاً: "أيها العجوز، انهض أنهض، لقد اعترف السيد رئيس المدينة أن ابنتك هى ابنته بالتبنى، إذًا فإن هناك علاقة قرابة تربط بين ثلاثتكم، وضربك بالحذاء إنما كان لتوجيهك وتعليمك كيف أن تكون إنسانًا، والسيد رئيس المدينة يقول: إن كل شىء له قانونه، وإنه يكافئك بعشرة دا يانغ، فلتأخذها وتعد إلى بلدتك وتستخدمها فى تجارة صغيرة تعيش منها، ولا تعاود القيام بمثل هذه الأمور الشريرة طمعًا فى المال".

تلقى والد جدتى المبلغ بكلتا يديه، وسجد على الأرض وراح يعبر عن عظيم شكره لرسول السيد رئيس المدينة، ولم يقم من سجوده إلا بعد أن تخطى الحصان طريق السكة الحديدية.

جلس السيد تساو رئيس المدينة داخل بهو مبنى حكومة المدينة، وفكر فى هذا الأمر نصف الساعة، وبعد أن عاد رسوله السيد يان من مهمة تقديم مبلغ عشرة دا يانغ إلى والد جدتى، استدعاه السيد تساو رئيس المدينة إلى حجرة سرية، ثم قال له: "إننى أجزم أن ذلك الشخص الذى يرقد فوق مضجع تلك المرأة داى لهو ذلك اللص الوغد، وأن هذا هو أكبر علم بين جموع قطاع الطرق فى قرية دونغ بيى بمدينة قاومى، وإذا تمكنا من القبض عليه فستنهار قوة قطاع الطرق فى قرية دونغ بيى بأكملها، وأننى أمرت اليوم بضرب ذلك العجوز فى مبنى حكومة المدينة، إنما لأجل خداع الناس".

قال السيد يان مساعد رئيس المدينة: "ما أعظم حكمة وذكاء السيد رئيس المدينة".

فرد السيد تساو رئيس المدينة قائلاً: "كما أن تلك السيدة داى قد خدعتنى فى ذلك الحين".

قال السيد يان: "لكل عالم هفوة، ولكل جواد كبوة".

فقال رئيس المدينة: "فلتصطحب الليلة عشرين من الرجال، وتركبوا أسرع الخيول، وتذهبوا إلى قرية دونغبيى؛ لتأتونى بذلك اللص زعيم قطاع الطرق".

"وهل سنقبض أيضًا على تلك المرأة؟".

فرد السيد تساو رئيس المدينة: "لا، لا، لا، حذار أن تقبضوا على تلك المرأة، أليس فى ذلك إهانة لسمعتى؟ بالإضافة إلى أننى فى ذلك اليوم الذى

ذهبت للتحقيق فى تلك القضية، إنما كنت أقصد مساعدتها، ولتنظر إلى امرأة جميلة مثلها تتزوج من مريض بالبرص، فما أتعسها من امرأة! لذا فإن هناك مبررًا لأن تقع فى الزنا، لا عليك إذًا، فلتقبض على ذلك اللص قاطع الطريق، وتترك المرأة لشأنها، ولتدعها تتمتع بأيام سعيدة".

قال السيد يان: "إن منزل عائلة دان ذو سور عال وفناء كبير، ولديهم مجموعة من الكلاب الشرسة، وذلك اللص قاطع الطريق يتمتع بيقظة عالية، ألسنا إن تسللنا إلى داخل الفناء فى منتصف الليل إنما نسلم أنفسنا لسلاح ذلك اللص؟".

فقال رئيس المدينة: "ما أبسط تفكيرك، ما أبسط تفكيرك! لقد فكرت فى هذا الأمر جيدًا".

وهكذا خرج السيد يان على رأس عشرين من الجنود ليلاً وفق حيلة السيد تساو رئيس المدينة، وساروا بسرعة بطيئة يقصدون قرية دونغبيى بمدينة قاو مى، وقد صادف ذلك فصل الخريف فى شهر أكتوبر؛ حيث امتلأت الحقول بمحاصيل الذرة الرفيعة، التى عمت أزهارها جميع الأرجاء، وعندما وصل الركب إلى المدخل الغربى لقريتنا، كان ذلك وقت انبلاج ضوء الصباح، حيث غطت قطرات الندى تلك الأعشاب الذابلة، شعر الجميع ببرودة الصباح، ونزل الجنود عن خيولهم، ووقفوا ينتظرون أوامر السيد يان، وأمر السيد يان جنوده بجر الخيول إلى خلف كومة من أعواد الذرة، وأن يتم ربط الخيول بحبل متصل، وأن يتولى اثنان من الجنود الاهتمام بالخيول، وأن يسارع باقى الجنود بتغيير ملابسهم والاستعداد لتنفيذ المهمة التى جاءوا من أجلها.

علت شمس الصباح، وامتلأ الطريق بالغبار الشديد، وظهرت آثار برودة الجو على وجوه الجنود والخيل، بينما انشغلت الخيول فى قضم أوراق الذرة.

وأخرج السيد يان ساعة جيبه ونظر إليها نظرة سريعة ثم قال: "فلتبدأوا الهجوم!".

فتبعه ثمانية عشر جنديًا وراحوا يتسللون صوب قرية دونغبيي، وكانوا يتسلحون بالمسدسات، وعندما وصلوا إلى مدخل القرية، نصب اثنان منهم كمينًا عند مدخل القرية، وعندما تقدموا إلى مدخل أحد الشوارع، قام اثنان آخران من الجنود بنصب كمين عند مدخل ذلك الشارع، ثم نصب جنديان آخران كمينًا ثالثًا عند مدخل شارع آخر، وعندما وصل الفريق إلى مدخل منزل عائلتى، كان قد تبقى منهم فقط السيد يان وستة من الجنود الذين كانوا يرتدون لباس أهل القرية، وقام أحد هؤلاء الجنود ضخم البنية بحمل سلتين من سلال النبيذ الفارغة.

فتحت العمة ليوبواتزه باب المنزل، فغمز السيد يان بعينيه، ليدخل على إثر غمزته ذلك الجندى الذى كان يحمل سلتى النبيذ الفارغتين، فسألت العمة ليوبواتزه غاضبة: "من أنتم، وماذا تبغون؟".

فرد ذلك الجندى الذى كان يحمل سلتى النبيذ الفارغتين قائلاً: "جئنا لمقابلة المعلمة فى هذا المكان؛ حيث كنا قد اشترينا منكم سلتين من النبيذ أول أمس، وقد مات عشرة أشخاص فور شرابهم من النبيذ الذى كان داخل هاتين السلتين، فما ذلك السم الذى وضعتموه داخل النبيذ الذى تنتجونه فى هذا الفرن؟".

وهنا استغل السيد يان ومن معه من الجنود الموقف وولجوا إلى داخل الفناء، واختبأوا إلى جانب سور الفناء فى صمت تام، بينما أحاطت الكلاب الخمسة بهاتين السلتين الفارغتين وراحت تنبح بصوت مرتفع.

خرجت جدتى شبه نائمة، وهى تحاول إحكام عراوى لباسها. وقالت بغضب شديد: "إذا كان لديكم أمر ما، فهيا بنا إلى المكتب لمناقشته".

قال ذلك الجندى ضخم البنية: "ما ذلك السم الذى تضعونه فى النبيذ الذى ينتجه هذا الفرن، لقد قتل ذلك السم عشرة أشخاص منا، وهذا الأمر لا بد أن نناقشه مع المعلمة دون غيرها".

فقالت جدتى غاضبة: "ما هذا الهراء؟ إننا نقوم بتسويق منتجنا من النبيذ إلى جميع أرجاء البلاد، ولم يصب أحد بالتسمم جراء تناول هذا النبيذ، فكيف يصاب عشرة أشخاص منكم بالتسمم جراء تناوله؟".

واستغل السيد يان تلك الفوضى التى حدثت بسبب الاشتباك بين ذلك الجندى الضخم وجدتى والكلاب الخمسة، وأعطى إشارته لخمسة جنود فتبعوه بسرعة فائقة إلى داخل الغرفة، وعندها قام الجندى الذى كان يحمل سلة النبيذ الفارغة بإلقائها، وسارع بإخراج مسدس من حول خصره وصوبه نحو جدتى.

كان جدى ينشغل بارتداء ملابسه داخل الغرفة، فانقض عليه السيد يان وجنوده وألقوه على المصطبة، وأحكموا وثاق ذراعيه من الخلف، ثم سحبوه إلى الفناء.

وما أن رأت الكلاب الخمسة جدى وقد تم القبض عليه ويجر إلى الفناء، حتى انقضت على الجنود تحاول إنقاذه، فقام السيد يان وجنوده بإطلاق بعض الطلقات نحو الكلاب، لتمتلئ أرض الفناء بشعر ودماء كلاب العائلة.

كانت العمة ليوبواتزه ملقاة على الأرض، وقد تبللت ملابسها الداخلية تمامًا.

قالت جدتى: "أيها الإخوة، لم يكن بيننا وبين أحد عداء فيما مضى، ولم نظلم أحدًا خلال الفترة الأخيرة، فإذا كنتم تريدون مالاً أو حبوبًا فلتطلبوا بشكل مباشر، وما الحاجة إلى استخدام السلاح وإرهاب الغير؟".

فرد السيد يان: "كفى عن هذا الهراء، اقبضوا عليه!".

وما أنِ التفتت جدتى بعينيها حتى تعرفت على السيد يان، فقالت فى عجالة: "ألستَ أحد رجال أبى بالتبنى؟".

فرد السيد يان: "ليس لكِ علاقة بهذا الأمر، ولتنعمى بحياتك!".

وعندما سمع الجد لوو خان دوى إطلاق الرصاص داخل الفناء الغربى، خرج مسرعًا من متجره داخل الفناء الشرقى، وما أن ظهر الرجل داخل الفناء الغربى، حتى مرت إلى جوار أذنه طلقة، فأرعبته رعبًا شديدًا فر مسرعًا إلى حيث كان، كانت الطرقات داخل القرية ساكنة وخالية تمامًا، إلا من نباح كلاب القرية، وخرج السيد يان وجنوده إلى شوارع القرية وهم يقبضون على جدى، وما أن رأى الجنديان المكلفان برعاية الخيول السيد يان وجنوده قادمين، حتى أسرعوا بفك الخيول وتقدموا بها إلى السيد يان ورجاله، وكذلك تجمع الجنود الذين كانوا ينصبونُ الأكمنة عند مدخل القرية ومداخل الشوارع المختلفة داخل القرية، وقفز كلُ منهم فوق ظهر حصانه، وتم ربط جدى أعلى ظهر حصان بنفسجى اللون، وجعلوا بطنه ملتصقة بظهر الحصان. وما أن صاح السيد يان صيحة، حتى فر الحصان مسرعًا نحو المدينة.

عندما وصل الركب إلى أمام مبنى حكومة المدينة، قام الجنود بفك جدى وأنزلوه من فوق ظهر الحصان البنفسجى اللون، وراح السيد تساو مينغ جيو رئيس المدينة يمسك بلحيته، ثم تقدم مبتسمًا إلى الأمام، وقال: "أيها

الوغد قاطع الطريق، لقد طيرت قبعة هذه المدينة بثلاث طلقات من مسدسك، واليوم سترد هذه المدينة لك الجميل بضربك ثلاثمائة ضربة بالنعال".

وتأثرت عظام جدى تأثرًا كبيرًا من طول مدة ربطه فوق ظهر الحصان، وشعر بدوار شديد، ولم يكد يتوقف عن التقيؤ، حتى إنه عندما أنزلوه من فوق ظهر الحصان، بدا مغشيًا عليه وكأنه شبه ميت.

وهنا قال السيد يان: " ابدأوا ضربه بالنعال!".

تقدم بعض الجنود نحو جدى وقاموا بربطه من قدميه، ثم أخذوا بنعل حذاء كبير للغاية، كان معلقًا على عصا خشبية، وراحوا يضربونه ضربات متلاحقة مسموعة. تألم جدى كثيرًا من شدة الضرب، وراح يصرخ مستغيثًا بأمه وأبيه.

فسأله السيد تساو مينغ جيو رئيس المدينة: "أيها الوغد قاطع الطريق، هل عرفت مدى شدة نعالى؟".

وكان جدى قد أفاق بعض الشىء، فراح يصيح بصوت متواصل: "لقد أخطأتم فى القبض علىّ، لقد أخطأتم فى القبض علىّ، فأنا لست زعيم قطاع الطرق.....".

زجره السيد تساو وقال غاضبًا: "أما زلت تجرؤ على المكر! فلتضربوه ثلاثمائة ضربة جديدة!"

فقام الجنود بطرحه أرضًا، وانهالت عليه النعال وكأنها أمطار شديدة كادت تغرقه، وضربوه ضربًا مبرحًا حتى فقدت مؤخرته الإحساس، فجاهد ليرفع رأسه لأعلى وراح يصيح من جديد: "أيها السيد تساو مينغ جيو،

الجميع يطلقون عليك لقب الحاكم العادل، وأنت فى الأصل لست إلا مسئولاً أحمق! زعيم قطاع الطرق الذى تقصده والذى تسميه (ذو الرقبة الملونة)، هناك علامة فى رقبته، ولتنظر إلى رقبتى هل بها هذه العلامة؟".

فدهش السيد تساو، وأشار بيده ليتراجع هؤلاء الجنود ويكفوا عن ضرب جدى، وقام اثنان من الجند برفع جدى، ثم تقدم السيد تساو إليه؛ ليفحص رقبته ويرى إن كان بها تلك العلامة أم لا.

وسأل السيد تساو مينغ جيو: "وكيف عرفت أن رقبة زعيم قطاع الطرق بها علامة؟".

فأجاب جدى" لقد رأيته بأم عينى".

"ما دمت تعرفه، فإنك قطعًا أحد عصابة قطاع الطرق، ونحن لم نخطئ فى القبض عليك!".

"إن هناك عددًا كبيرًا جدًا من أبناء قرية دونغبيى يعرفون زعيم قطاع الطرق، فهل لا بد من أن يكونوا جميعًا من جماعة قطاع الطرق؟".

"وكونك تنام فى هذا الوقت المتأخر من الليل فوق مضجع سيدة أرملة، فإنك إن لم تكن قاطع طريق فأنت حتمًا وغد حقير، ونحن لم نخطئ أبدًا فى القبض عليك!".

"لقد كان هذا وفق رغبة ابنتك بالتبنى".

"هل كانت راضية بذلك؟".

"نعم كانت راضية".

"من أنت؟"

"إننى أحد العمال لديها!".

فقال السيد تساو: "آه، آه" ثم قال "يا سيد يان، فلتحتجـــزه الآن لنبحـــث فى أمره".

وعند ذلك جاءت جدتى والجد لوو خان إلى أمام مدخل حكومة المدينة، يمتطيان البغلين الأسودين اللذين كانت تمتلكهما عائلتى. وأمسك الجد لوو خـــان بالبغلين ووقف خارج المدخل، بينما راحت جدتى تبكى بكاءً حـــارًا، حتـــى تمكنت من الدخول إلى داخل المبنى، فتقدم الحراس ليمنعوهـــا مـــن ذلـــك، فاصطدموا بها وقـــد أمطـــرتهم بالبـــصق علـــى وجـــوههم، وقـــال الجـــد لوو خان: "إنها ابنة السيد رئيس المدينة بالتبنى"، وعندها لم يجرؤ أحد مـــن الحراس على اعتراض طريقها، فتقدمت جدتى واقتحمت المدخل......

وبعد ظهر ذلك اليوم، أرسل السيد تساو مينغ جيو رئيس المدينة أحـــد رجاله ليأتيه بعربة ذات ستارة مناسبة للطقس، وأمر بتوديـــع جـــدى إلـــى قرية دونغبيي.

وقد رقد جدى مدة شهرين فوق مضجع جدتى حتى تلتئم جراحه.

كما قامت جدتى بامتطاء البغل الأسود وذهبت مرة ثانية إلى المدينـــة؛ حيث قامت هذه المرة بزيارة أمها بالتبنى وأهدت إليها حقيبة هدايا ثقيلة.

(١٠)

فى شهر ديسمبر عام ١٩٢٣ حسب التقويم القمرى، تـــم توديـــع إلـــه الطهى إلى السماء العليا(١)، وقامت جماعة زعيم قطاع الطـــرق باختطـــاف

(١) توديع إله الطهى: أو كما يطلق عليه أيضًا طقس "توديع الجـــد إلـــه الطهـــى" أو "الاحتفـــال بالـــسنة الصغيرة"؛ حيث كان العامة فى الصين قديمًا يعتقدون أن إله الطهى يصعد فى ذلك الموعد من العام=

جدتى، جاء ذلك الرجل الذى اختطفها فى الصباح، جاء بعد ظهر نفس اليوم إلى منزل العائلة لتوصيل رسالة إلى من يهمه أمر جدتى، حيث طلب من الفرن أن يدبروا مبلغًا من المال قدره ألف دا يانغ(١) لافتدائها، وإنه إذا عز عليهم دفع هذا المبلغ، فعليهم أن يذهبوا إلى معبد الأرض عند المدخل الشرقى لقرية لى قو لاستلام جثتها.

راح جدى يقلب فى خزنة الفرن، حتى تمكن من جمع مبلغ ألفى دا يانغ، وقام بوضعها داخل جوال، ثم طلب من الجد لوو خان أن يحمل الجوال إلى المكان الذى حددته عصابة قطاع الطرق لافتداء جدتى.

فسأله الجد لوو خان: "هل طلبوا مبلغ ألف دا يانغ فقط؟".

فأجاب جدى قائلاً: "كفى من هذا الهراء، وافعل ما أمرتك به".

فقام الجد لوو خان باللحاق بالبغل ومضى إلى حيث أمره جدى.

وفى أصيل اليوم، عاد الجد لوو خان بجدتى على ظهر البغل الأسود، وقد صحبهم اثنان من قطاع الطرق حاملين السلاح لحماية جدتى حتى منزلها.

وعندما التقى الرجلان بجدى أخبراه: "أيها المعلم، لقد قال زعيمنا، إنك من الآن فصاعدًا بإمكانك أن تنام وبابك مفتوح على مصراعيه!".

فأمر الجد لوو خان بحمل قدر من النبيذ الممزوج بالبول، وتقديمه إلى رسولى زعيم قطاع الطرق، ثم قال جدى: "احملا هذا القدر لزعيمكما ليتذوق صنع أيدينا".

---

= إلى السماء لتقديم التقارير الخاصة للسماء العليا، وحيث كانوا يقومون بإحياء مأدبة شراب فى مغرب يوم الثالث والعشرين من شهر ديسمبر حسب التقويم القمرى لوداع هذا الإله، الذى كانوا يبجلونه فى الأيام العادية أيما تبجيل، أملاً فى أن يذكرهم بالخير فى السماء العليا. (المترجم)

(١) دا يانغ: وحدة عملة من الفضة كانت تستخدم فى الصين قديمًا. (المترجم)

وأمسك جدى بأيدى الرجلين وودعهما حتى خارج حدود القرية.

وبعد أن عاد من توديع الرجلين، قام بإغلاق باب المنزل الرئيسى، ثم أغلق باب الغرف الداخلية، ثم باب الغرفة، وراح يعانق جدتى عناقًا حارًا، وسألها: "هل ضايقكِ زعيم عصابة قطاع الطرق؟".

فهزت جدتى رأسها، وراحت تذرف الدموع.

"ماذا؟ هل تعرضت للأذى على يده؟".

دفنت جدتى وجهها داخل صدر جدى، ثم قالت: "إنه...... إنه لمس صدرى.....".

فانتفض جدى غاضبًا، ثم قال: "وهل الطفل بخير؟".

فهزت جدتى رأسها بالإيجاب.

وفى ربيع عام ١٩٢٤ امتطى جدى بغلاً وسافر إلى تشينغ داو[١] دون علم أحد، واشترى من هنالك مسدسين فئة مسدس شياتزه تشيانغ[٢]، واشترى أيضًا خمسة آلاف طلقة نارية، وكان أحد هذين المسدسين "مسدس

---

(١) تشينغ داو: وهى مدينة تشينغ داو الواقعة ضمن الحدود الجنوبية الشرقية لمقاطعة شان دونغ شمال شرق الصين، ويرجع تاريخ هذه المدينة إلى زمن بعيد، وحيث كانت ميناء عسكريًا مهمًا خلال فترة سيطرة الألمان على المنطقة، واستمر دورها هذا على مدار التاريخ الصينى الحديث، فبعد تأسيس جمهورية الصين الشعبية عام ١٩٤٩ ولا تزال مدينة تشينغ داو أحد أهم المواقع العسكرية المهمة فى الصين، وتعتبر المدينة أكبر مدينة صناعية فى مقاطعة شان دونغ، وحيث تشتهر بإنتاج عدد كبير من المنتجات التى يتم تصديرها إلى مختلف دول العالم أهمها: الغزل والنسيج، الآلات والمعدات والسيارات، المواد البتروكيماوية، المطاط، النبيذ، الأجهزة الكهربائية ومنتجات التبغ وغيرها من المنتجات المهمة. (المترجم)

(٢) شياتزه تشيانغ: أحد أنواع المسدسات المستخدمة فى الصين آنذاك، والذى يتميز بأن له علبة خشبية من الخارج يتم لفها إلى الخلف عند استخدامه فى إطلاق الرصاص. (المترجم)

الطبلة الكبيرة" صناعة ألمانية، والآخر "مسدس رأس الأوزة" صناعة إسبانية.

وبعد أن عاد جدى بهذين المسدسين، أغلق على نفسه باب غرفته لمدة ثلاثة أيام كاملة، قام خلالها بفك جميع أجزاء المسدسين، ثم قام بتجميعها مرة ثانية، وفى فصل الربيع من كل عام، كانت مياه الخليج تتخلص من حالة التجمد التى كانت عليها، وكانت أسماك الخليج التى اختبأت طيلة الشتاء تخرج إلى خارج المياه لتتشمس، وخرج جدى إلى هناك حاملاً أحد المسدسين، وحمل معه سلة مليئة بالطلقات النارية، وذهب إلى شاطئ الخليج للصيد، وبعد تعب يوم كامل، لم يتمكن جدى من صيد أسماك كبيرة الحجم، ونجح فقط فى صيد بعض الأسماك الصغيرة، كانت عادة جدى أنه لا ينجح فى صيد أى شىء من الأسماك إذا وجدوا أحدًا إلى جواره يراقبه، وعندما يكون بمفرده، كان يقوم بإطلاق الرصاص على رؤوس الأسماك، وفى فصل الصيف، كانت الذرة الرفيعة قد نضجت، فأتى جدى بمبرد مصنوع من الحديد، وقام ببرد الجزء الأعلى من المسدسين.

فى مساء السابع من شهر يوليو، هطلت أمطار غزيرة، وسمع دوى رعد وبرق شديد، كانت جدتى قد قامت بتسليم أبى الذى كان قد اقترب من إكمال أربعة أشهر حينها، قامت بتسلميه للفتاة ليان إر لتساعدها فى حمله، وجاءت جدتى مع جدى إلى متجر النبيذ داخل الفناء الشرقى، وقاما بإغلاق الأبواب والنوافذ، وطلبا من الجد لوو خان أن يضىء المصابيح، وقامت جدتى بعرض سبعة ألواح من النحاس أعلى منصة خزينة الفرن، عرضتهما فى شكل زهرة المايخوا، ثم تراجعت إلى الخلف، كان جدى يسير خارج المنصة متبخترًا، ثم قام بإخراج كلا المسدسين من حول خصره، ثم استعد جيدًا، وأطلق الرصاص، حتى طارت تلك الألواح النحاسية المعروضة أعلى

المنصة إلى أعلى السور، وسقطت ثلاث طلقات على الأرض، بينما اخترقت أربعة أخرى السور.

وتقدم كل من جدتي وجدى معًا إلى أمام المنصة، وهما يرفعان المصباح لمشاهدة المشهد أعلى المنصة، وجدا أن أعلى المنصة خالٍ تمامًا من آثار أى طلق نارى ولم يتأثر أدنى شيء بما حدث.

وهذه هى "الطلقات السبعة على شكل أزهار المايخوا" والتى كان جدى يتقنها ببراعة فائقة.

وركب جدى بغله الأسود، وأتى إلى إحدى الحانات الصغيرة عند مدخل القرية الشرقى، فإذا به يجد أن باب الحانة مغلق، وهناك عدد من شباك العنكبوت معلقة أعلى عتبة باب الحانة، وعندما اقتحم باب الحانة وولج إلى الداخل، شم رائحة جثة متعفنة تزكم الأنوف، فراح يرفع كمه على فمه يتقى الرائحة النتنة ومضى إلى الأمام يتتبع مصدر الرائحة، فإذا بالعجوز السمين يجلس أعلى عمود المنزل، بينما تضغط قدماه على مقعد صغير، ورأى حبلاً أسود يلتف حول رقبة العجوز، وقد بدت عيناه جاحظتين، ولسانه الأسود الطويل يتدلى إلى خارج فمه، وقد اهتز جزء من الحبل الذى كان يلتف حول رقبته متأثرًا بدفعة جدى للباب.

بصق جدى مرتين متتاليتين، وسحب بغله ومضى حتى وقف عند مدخل القرية، بينما بدا البغل فى حركة دائمة، وهو لا يتوقف عن الهز بذيله الخالى من الشعر محاولاً أن يبعد عنه جماعة الذباب الكبيرة فى حجم حبة البازلاء، وبعد أن استغرق جدى وقتًا طويلاً فى التفكير، قرر أن يركب بغله متوجهًا إلى جهة منزله، غير أن تلك السلسلة الحديدية القوية التى كانت تقبض على فم البغل أرغمته على تغيير وجهته للخلف، فضربه جدى بقبضته على ظهره، فتقدم البغل للأمام وسار بمحاذاة طريق الذرة الرفيعة.

كان الجسر الخشبى الصغير أعلى نهر مواشوى لا يزال بحالتـــه دون أن يصيبه أدنى خلل، صادف ذلك موسم هطول الأمطار، فبدا النهر ممتلئًــا بالماء، وكانت صفحة المياه تتساوى مع سطح الجسر، وراحت تتلاقى علـــى سطح الجسر بعض من كرات الثلج البيضاء، بينما كان صوت المياه يرن فى الآذان، وأحس البغل ببعض الخوف، حتى إنه راح يضرب بحـــوافره علـــى سطح الجسر ولم يجرؤ على التقدم خطوة إلى الأمام، فضربه جدى قبضتين على ظهره، ولكن البغل كان لا يزال مترددًا، ولم يتخل عن موقفه إلا بعد أن رفع جدى نفسه من على ظهره وراح يدفعه بقوة إلى الأمام، وعندها اضطر لطاعته وقفز قفزة سريعة ليجد نفسه فى منتصف الجسر الخشبى، فشد جدى سرجه ونجح فى أن أوقفه فى مكانه، كانت هناك كميات من المياه الـــصافية تجرى على سطح الجسر، وظهرت هنالك سمكة من أسماك الـــشبوط[1] فـــى طول ذراع الإنسان كانت تقفز عند غرب الجسر، وترسم بذلك لوحة جميلـــة بقفزها من الناحية الغربية من الجسر إلى ناحيته الشرقية، قفز جـــدى فـــوق ظهر البغل وراح يتأمل مياه النهر المتدفقة من ناحية الغرب، فغرزت حوافر البغل داخل المياه، غسلت مياه النهر الجزء الذى يعلو الحوافر من قدم البغل ونظفته جيدًا، وراح البغل يحاول جاهدًا أن يمد فمه لملامسة تلـــك الأمـــواج التى تتهادى على سطح المياه، فطرطشت المياه على وجهه الطويل، فـــأغلق البغل أنفه وكشف عن أسنانه البيضاء المتسقة.

وعلى ضفة النهر الجنوبية، كانت تمتد حقول الذرة الرفيعة الواســـعة، وكأنها صفحة بحيرة مياه زرقاء مترامية الأطراف، فركب جدى بغله وسار

---

(١) أسماك الشبوط: وهى نوع من أهم الأسماك الموجودة فى المياه العذبة فى الصين، وتتميز بأن ظهرهـــا يكون أسود اللون وبطنها صفراء وهناك ما يشبه الشنب حول فمها. (المترجم)

صوب الشرق بمحاذاة ضفة النهر، وفى منتصف النهار[1] بالضبط، قام جدى بسحب بغله إلى داخل حقول الذرة، وبدت التربة السوداء التى تشبعت بمياه الأمطار وكأنها كتل النشا، حتى إنها غاصت فيها حوافر البغل وقدما جدى، فراح البغل يهز جسده الثقيل، وينفض حوافره الممتلئة بالطين، وخرج من أنفه الكبير هواء أبيض ومسحوق أزرق، فراح جدى يعطس بشدة، وشق جدى وبغله حارة داخل حقول الذرة الخضراء، وبعد أن سار جدى والبغل مسافة غير قصيرة، وصلا إلى منطقة جديدة من الذرة كانت أعوادها منتصبة لم تصب بأدنى أذى.

ترك جدى وبغله آثار أقدامهما على جميع المناطق التى داستها أقدامهما داخل حقول الذرة، وكان الجزء الأسفل من جسد جدى ومنطقة بطن البغل قد امتلأ بآثار الوحل، كان جدى يستمع إلى صوت اصطدام أقدامه وأقدام البغل بالوحل داخل الذرة، وبعد وقت قصير، ازدادت حركة تنفس جدى، وأحس بأن حلقه جاف تمامًا، وأن لسانه لزج وكريه، مضى يفكر فى أن حلق البغل بالتأكيد سيكون جافًا مثل حلقه، وأن لسانه لزج وكريه مثل لسانه، سال جميع العرق الذى كان يسيل على جسده، وبدأ جسده ينزف سائلاً لزجًا مثل زيت الصنوبر الذى كان يبدو حارًا على جلده، وراحت أوراق الذرة الحادة تضرب رقبة جدى العارية، بينما كان البغل يرفع رأسه غاضبًا ويحاول أن يطير بسرعة أعلى حقول الذرة الممتدة، وربما كان ذلك البغل الثانى الذى تمتلكه عائلتى منشغلاً بجر الرحى وهو مغشى العينين، أو ربما كان يقف منهكًا يأكل أوراق الذرة وبعض الذرة المحمصة.

عقد جدى العزم وقرر فى داخله أن يمضى فى طريقه بمحاذاة الخندق، بينما كان البغل يحاول أن يسترق النظر إلى صاحبه الذى يقوده إلى الأمام بعينيه اللتين كانتا متأثرتين بمضايقة أوراق الذرة.

---

(١) ويقصد بهذه الفترة فى اللغة الصينية توقيت الساعة الثانية عشرة ظهرًا. (المترجم)

وظهرت آثار أقدام منذ وقت قريب جدًا داخل حقول الذرة، وشم جدى رائحة كان ينتظرها منذ وقت طويل، بينما ظهر التوتر على البغل، كان لا يتوقف عن هز رقبته والتمايل بجسده الضخم على أعواد الذرة، وهنا راح جدى يسعل بصوت مبالغ فيه، وجاءت من أمامهما رائحة زكية، تعرف عليها جدى، واعتمادًا على خياله الصادق، ما أن تقدم جدى خطوة إلى الأمام حتى وطأت قدماه ذلك المكان الذى كان يتطلع إليه منذ فترة طويلة.

كانت آثار الأقدام التى اكتشفها جدى تلقى بقدر من المياه أمام جدى والبغل، كان يبدو أن جدى لا ينظر إليها، بل يتقدم إلى الأمام متتبعًا هذه الأقدام، وفجأة علا صوته وهو يتغنى بمقطوعة: "غادر الحصان الحدود الغربية".

وسمع جدى وقع أقدام خلفه، غير أنه استمر فى السير إلى الأمام كالأحمق، وهنا أحس أن شيئًا صلبًا خبط رقبته، فرفع يديه مستسلمًا، ثم امتدت يدان إلى أمام صدره وأخرجت منه المسدسين اللذين كان يحملهما، ثم تم تغطية عينىّ جدى بقطعة قماش سوداء.

قال جدى: "إننى أرغب فى مقابلة زعيمكم".

وانقض أحد أفراد عصابة قطاع الطرق على جدى وأحاطه بذراعيه، ثم أرخى يديه بعد حوالى دقيقتين، فسقط على الأرض، حتى امتلأت جبهته بالطين، كما غاصت يداه فى الوحل عندما حاول الاعتماد عليهما لينهض من مكانه، واتكأ على الذرة حتى نهض واقفًا، بينما كانت رأسه تدور وقد رأت عيناه هالة من السواد تلف حقول الذرة، ثم سمع صوت تنفس ذلك الرجل الفظ الواقف إلى جواره، ومد ذلك الرجل الفظ يده وقطع عود ذرة، وراح يمده لجدى تارة ويمسكه هو تارة أخرى، ثم قال: "هيا بنا!".

وهنا سمع جدى وقع أقدام أحد أفراد عصابة قطاع الطرق وصوت حوافر البغل التى كانت تدوس فى الوحل.

ومد قاطع الطريق يده وأزال تلك العصابة السوداء التى كانت ملفوفة فوق عينىّ جدى، فرفع جدى يده ليغطى عينيه ولم ينزلها إلا بعد أن ذرفت عيناه كمية كبيرة من الدمع، وكان أول ما رآه جدى أمامه معسكر؛ حيث رأى مجموعة كبيرة من الذرة محطمة، ينتصب أعلاها خيمتان، يقف خارج الخيمتين ما يزيد على عشرة من الرجال ملتحفين بعباءات من القش، ثم رأى رجلاً ضخمًا يجلس أعلى مقعد خشبى عند مدخل الخيمة، ولاحظ أن هناك وشمًا فى رقبة ذلك الرجل الضخم.

قال جدى: "أرغب فى مقابلة الزعيم".

فرد عليه ذلك الرجل أبو شامة(١) "هل أنت المعلم فى فرن النبيذ؟".

فأجاب جدى قائلاً: "نعم".

"وما الذى جاء بك إلى هنا؟".

"جئت لأتعلم على يديكم".

فضحك أبو شامة ضحكة باردة، ثم قال: "ألست ترابض يوميًا على حافة الخليج للصيد؟".

فقال جدى: "دائمًا ما أفشل فى التصويب".

فأخذ أبو شامة بمسدسى جدى وراح ينظر إلى فوهتهما ويضغط على زنادهما، ثم قال: "ما أجود هذا السلاح، ولكن لماذا ترغب فى تعلم إطلاق النار؟".

---

(١) أبو شامة: حيث كانت هناك بقعة ملونة فى رقبته، وكانوا ينادونه بالزعيم أبو شامة. (المترجم)

فأجاب جدى قائلاً: "لقتل تساو مينغ جيو".

فسأله أبو شامة: "أليس هو والد زوجتك بالتبنى؟".

فقال جدى: "لقد ضربنى ثلاثمائة وخمسين ضربة بالنعال! وقد ضربت كل هذه النعال نيابة عنك".

فضحك أبو شامة، ثم قال: "لقد قتلت رجلين، واستوليت على امرأة، وتستحق قطع رأسك".

فقال جدى: "لقد ضربنى ثلاثمائة وخمسين ضربة بالنعال!".

فما أن رفع أبو شامة يده اليمنى، حتى أطلق ثلاث طلقات، ثم رفع يده اليسرى لتطلق ثلاث طلقات أخرى، فتقرفص جدى على الأرض، ووضع يديه على رأسه ولم يتوقف عن الصياح، بينما انخرط أعضاء عصابة قطاع الطرق فى الضحك.

قال أبو شامة بغرابة واضحة: "آه من هذا الرجل، جبان مثل الأرانب ويستطيع أن يقتل؟".

فقال أحد أفراد العصابة: "ولكنه شجاع فى أمور النساء!".

فقال أبو شامة: "فلترجع لتعتنى بأمر تجارتك، فلقد مات أصحاب العصا الكورية(١)، ومن الآن فصاعدًا سيكون منزلك نقطة تواصل مهمة".

---

(١) أصحاب العصا الكورية: لقب معروف فى الصين، كان الصينيون قد أطلقوه على الكوريين الذين استقدمتهم الجيوش اليابانية إلى الصين خلال الغزو اليابانى للصين، بالتحديد خلال فترة سقوط المقاطعات الصينية الثلاث بشمال شرق الصين فى أيدى المعتدى اليابانى فى حادثة ١٨-٩-١٩٣١؛ كان الجنود الكوريون آنذاك يمسكون بعصا يضربون بها من يقابلهم من العامة فى الشوارع، كانت القوات اليابانية قد منعتهم من حمل السلاح لعدم الثقة فيهم، وهكذا فقد أطلق عليهم عامة الصينيين سرًا لقب " العصا الكورية" لشدة بطشهم. (المترجم)

قال جدى: "إننى أرغب فى تعلم إطلاق النار لضرب تساو مينغ جيو!"

أجاب أبو شامة: "إن حياة ذلك تساو جيو مينغ فى أيدينا، وبإمكاننا أن نربيه فى أى وقت نشاء".

فقال جدى بنبرة بها بعض الشكوى: "إذاً فهل رحلتى هذه راحت هباءً؟".

فألقى أبو شامة بمسدسى جدى، فانقض جدى وأمسك بأحدهما، بينما سقط الآخر على الأرض، فغاصت ماسورته داخل الوحل، فالتقطه جدى وراح يزيح الوحل من على المسدس وينظفه بطرف ثيابه.

وهنا تقدم أحد أفراد العصابة ليربط تلك العصابة السوداء على عينى جدى، فأشار له أبو شامة بيده قائلاً: "لا داعى لذلك!".

وقف أبو شامة وقال: "هيا بنا، هيا بنا لنسبح فى النهر، ولتكن فرصة لأن نرافق المعلم فى طريقه".

فتقدم أحد أفراد العصابة وراح يجر البغل نيابة عن جدى، بينما راح جدى يسير خلف البغل، ثم سار خلفه أبو شامة وجماعة من أفراد عصابته.

وبينما كانوا يسيرون على حافة النهر، راح أبو شامة ينظر إلى جدى نظرات باردة، فرأى جدى وقد انشغل بمسح الوحل والعرق الذى كان يملأ وجهه، ثم قال: "ليس هناك أدنى فائدة من رحلتى هذه، ليس هناك أدنى فائدة من رحلتى هذه، لقد كدت أن أموت من شدة الحر".

وقام جدى بخلع ملابسه المتلطخة بالوحل، ثم ألقى فوقها المسدسين، وسار بضع خطوات ثم نزل إلى النهر، وما أن نزل إلى النهر، حتى راح يرتعش؛ حيث كانت رأسه تغطس داخل المياه أحياناً وترتفع أحياناً أخرى، بينما كانت يداه لا تتوقفان عن الارتعاش.

سأل أحد أفراد العصابة: "أترى أن هذا الرجل لا يعرف العوم؟".

فأحدث أبو شامة صوتًا معبرًا عن نفى هذا الكلام.

فجاءهم صوت مجاهدة جدى وصوت المياه، وحيث كانت المياه ترمى به صوب الشرق.

فراح أبو شامة يسير فى اتجاه المياه نحو الشرق.

"أيها الزعيم، حقًا إنه يكاد يغرق!".

فقال الزعيم أبو شامة: "انزلوا لإنقاذه!".

ققفز أربعة من أفراد العصابة إلى داخل النهر، وأتوا بجدى الذى كانت بطنه ممتلئة بالمياه وكأنه قد شرب جرة كبيرة من الماء دفعة واحدة، ورقد جدى على حافة النهر مثل الجثة الهامدة.

فقال الزعيم أبو شامة: "ائتوا بالبغل".

أتى أحد أفراد العصابة مسرعًا بالبغل.

فقال أبو شامة: "ارفعوه على ظهر البغل".

فقام عدد من أفراد العصابة برفعه على ظهر البغل، بينما بدت بطنه المنتفخة غير مستقرة على ظهر البغل.

قال أبو شامة: "اضربوا البغل لعله يفر مسرعًا!".

فتقدم أحد أفراد العصابة يجر البغل، بينما راح آخر يحثه على السير بسرعة، وانشغل اثنان آخران بسند جدى على ظهر البغل، فراح بغل العائلة الأسود الكبير يجرى بسرعة على حافة النهر، وما أن جرى مسافة غير طويلة، حتى راح جدى يتقيأ ما بداخل بطنه من مياه.

سارع أفراد العصابة بإنزاله من على ظهر البغل، فرقد جدى على حافة النهر، وراح يقلب عينيه المنهكتين مثل عينى سمكة ميتة فى ذلك الزعيم الضخم أبو شامة.

فخلع أبو شامة عباءته، وراح يضحك ضحكات طيبة، ثم قال: "أيها الرجل، لقد كتب لك عمر جديد".

بدا وجه جدى شاحبًا، وبدت عظام خديه فى حالة يرثى لها.

وخلع أبو شامة وجميع أفراد العصابة ملابسهم كاملة، وقفزوا معًا إلى داخل النهر، كانوا جميعًا يتقنون السباحة إلى درجة كبيرة، وكان نهر مواشوى آنذاك يفيض بالماء الوفير، فراحوا يستمتعون بالسباحة داخل النهر الكبير.

وراح جدى يتسلق حافة النهر ببطء وتردد، ثم التحف عباءة أبى شامة، ومخط أنفه، وحاول تسليك حنجرته، وفرد ذراعيه وقدميه، أمسك بملابس أبى شامة وراح ينظف بها سرج البغل الذى كان مبللاً، ثم مد البغل رقبته اللامعة مثل الحرير وراح يلمس بها جسد جدى بلطف شديد، فما كان من جدى إلا أن جعل يمسح على رقبة البغل، ثم قال: "أيها البغل العجوز، انتظر، انتظر".

وعندما رفع جدى المسدسين، كان أفراد العصابة يحاولون التقدم نحو حافة النهر مثل البط، فأطلق جدى سبع طلقات بإيقاع متناغم، فسالت دماء أفراد العصابة واختلطت بمياه نهر مواشوى القاسية.

ثم أطلق جدى سبع طلقات جديدة.

كان أبو شامة قد نجح فى الصعود إلى ضفة النهر، وكانت مياه نهر مواشوى قد نظفت جلده تنظيفًا جيدًا فجعلته أبيض بياض الثلج، فوقف بلا خوف هناك وسط بعض الحشائش على ضفة النهر، وراح يخاطب جدى بإعجاب وتقدير قائلاً: "تصويب بارع!".

سطعت الشمس الحامية على قطرات المياه التى كانت تتحرك وتسكن على جسده.

فسأله جدى: "أيها الزعيم أبو شامة، هل اعتديت على زوجتى؟".

فرد أبو شامة: "نعم للأسف حدث ذلك!".

فسأل جدى: "وكيف تجرأت على هذه الفعلة الشنيعة؟".

فقال أبو شامة: "أعلم أنك لن تهنأ بنهاية طبيعية".

وسأله جدى: "وهل ستكون هذه النهاية بعيدًا عن المياه؟".

فتراجع أبو شامة بضع خطوات إلى الخلف، ووقف فى منطقة مياه ضحلة على حافة المياه، وراح يشير بيده إلى قلبه ثم قال: "فلتصوب نحو هذا المكان، فما أقبح أن تحطم رأسى!".

فقال جدى: "حسنًا".

وهكذا أصابت طلقات جدى السبعة قلب أبى شامة وجعلته مثل خلية نحل، فتأوه الرجل قليلاً ثم سقط داخل مياه النهر، ثم راحت قدماه الكبيرتان تطفوان قليلاً على سطح الماء قبل أن تغوص إلى الأعماق مثل الأسماك.

وفى صباح اليوم التالى، ركب كل من جدى وجدتى بغلاً، وتوجهوا إلى منزل والد جدتى، وكان والد جدتى مشغولاً آنذاك بصناعة قلادة "العمر المديد حتى مائة عام" من الفضة(١)، وما أن رأى جدى وجدتى وقد اقتحما المكان، حتى سارع الرجل بلم الفضة والآنية الموضوعة أمامه.

---

(١) قلادة العمر المديد أو قفل العمرالمديد: عبارة عن قلادة من الفضة كانت تصنع فى الصين قديمًا، ويرجع تاريخها إلى عصر أسرة خان الصينية (٢٠٦-٢٢١ قبل الميلاد)، وشهدت تطورًا كبيرًا على مر العصور الصينية، وفى عصر أسرة مينغ (١٣٦٨-١٦٤٤) أصبح تعليق هذه القلادة مقصورًا على الأطفال لحمايتهم من الشرور، وانتشر تقليد هذه القلادة انتشارًا واسعًا منذ عصر أسرتى مينغ وتشينغ (١٦٤٤-١٩١١)، وكان الوالدان وأهل الطفل يسارعون بالذهاب إلى الحرفيين المتخصصين فى أعمال الفضة لصناعة هذه القلائد للحفاظ على عمر الطفل، ومن أهم التعبيرات المباركة التى انتشر نقشها على هذه القلادة " العمر المديد حتى المائة العام"، " السعادة والعمر المديد"، "السعادة الدائمة والعمر المديد" وغيرها من العبارات. (المترجم)

قال جدى مخاطبًا إياه: "سمعتُ أن تساو مينغ جيو كافأك بعشرة دايانغ؟".

ركع الرجل العجوز على ركبتيه وراح يتوسل إلى جدى قائلاً: "العفو والصفح يا زوج ابنتى المحترم.....".

أخرج جدى من جيبه عشرة دايانغ، وكومها أعلى صلعة والد جدتى اللامعة.

وراح جدى يصيح بقسوة شديدة "ارفع رقبتك، واثبت جيدًا!".

ثم تراجع بضع خطوات إلى الخلف، ومسح على مسدسيه، ثم أطلق النار ليطير اثنين دايانغ.

أطلق جدى طلقتين جديدتين، أسقط بهما اثنين دايانغ.

كان جسد والد جدتى العجوز ينكمش، ولم ينتظر حتى ينتهى جدى من إسقاط العشرة دايانغ، سقط الرجل على الأرض.

فأخرجت جدتى مبلغ مائة دايانغ من صدرها، وألقتها على الأرض لتملأ جميع أرجاء المكان.

(١١)

عاد جدى وأبى إلى منزلهما الذى تحطم تحطيمًا كاملاً، وأخرجا مبلغ خمسين دايانغ من داخل شق فى حائط المنزل، وتنكرا فى صورة شحاذين حتى وصلا إلى المدينة، وتوصلا إلى سيدة تملأ وجهها بالمساحيق داخل

دكان صغير معلق داخلها فانوس مصباح أحمر بالقرب من محطة القطار، واشتريا من هذه المرأة خمسمائة وخمسين رصاصة، وبعد ذلك حاولا التخفى فى المدينة عدة أيام، حتى نجحا فى الخروج من المدينة بما يحملانه من الرصاص، واستعدا للبحث عن القائد لينغ ماتزه لتصفية حسابهما معه.

وبعد ظهر اليوم السادس عقب معركة كمين جسر نهر مواشوى - أى بعد ظهر الخامس عشر من أغسطس حسب التقويم القديم لعام ١٩٣٩، استطاع جدى وأبى الإمساك بخروف جبلى صغير وقد حبس بوله ووصلا إلى حقول الذرة الواقعة عند حدود القرية الغربية، كان هناك ما يزيد على أربعمائة من الشياطين اليابانيين، وما يزيد على ستمائة من قوات العملاء فرضوا حصارًا مطوقًا على قريتنا، فسارع جدى وأبى بقطع رأس فتحة مؤخرة الخروف؛ ليسقط الخروف كمًا كبيرًا من الروث ثم يسقط خمسمائة وخمسين رصاصة كانت مختزنة داخله، ولم يبال جدى وأبى بالقاذورات الكريهة التى خرجت من الخروف، وراحا يجمعان الرصاص ويستعدان للتسلح، واشتبكا مع الغزاة فى معركة قاسية، وعلى الرغم من أنهما نجحا فى قتل عشرات من الشياطين اليابانيين، وكذا عشرات من العملاء الخونة، فإنهما لم يستطيعا العودة إلى القرية بسبب ضعف عتادهما، وفى أصيل ذلك اليوم، خرجت جموع أهالى القرية للسباحة فى جنوب القرية الذى لم يشهد إطلاق نار، إلا أنهم تعرضوا لإطلاق نار كثيف وبطريقة جنونية من قبل المدافع والرشاشات اليابانية؛ الأمر الذى أدى إلى مقتل مئات من الرجال والنساء داخل حقول الذرة، بينما سارع ما تبقى منهم بالاختفاء داخل حقول الذرة الممتدة هنالك.

وعندما قرر الشياطين اليابانيون الانسحاب من المكان، قاموا بإشعال النيران فى جميع مساكن القرية، فامتلأت سماء القرية بالنيران المشتعلة، التى استمرت فترة طويلة حتى تم إخمادها، حتى إن قمر تلك الليلة الذى كان من المفترض أن يكون قمرًا مكتملاً أحمر، جعلته هذه الحرب البشعة يبدو قمرًا شاحبًا مهترئًا، وكأنه قصاصة ورق فقد لونها، وقد تعلقت فى السماء حزينة مكتئبة.

"إلى أين سنذهب يا أبى؟".

فلم يرد جدى على سؤال صغيره.

# الباب الثالث

# موقعة الكلب

(١)

يزخر تاريخ الإنسان بالكثير من الأساطير والذكريات المرتبطة بالكلاب، بما فيها الكلاب الشريرة والمخلصة والمرعبة والمسكينة! وخلال مشوار جدى وأبى الطويل، هناك مئات الكلاب التى داست بأقدامها الصلبة مختلف الطرق الرمادية خلال مذبحة الذرة التى وقعت فى جنوب قريتنا، وقد تشجعت تلك الكلاب على ذلك تحت قيادة كلاب عائلتى الثلاثة الأسود والأخضر والأحمر، كانت عائلتى قد ربت فيما مضى خمسة كلاب، مات منها الكلبان الأصفران فى نفس العام الذى بلغ فيه أبى الثالثة من عمره بعد أن عاشوا حياة مليئة بالصعاب ومحفوفة بالمخاطر، بينما عمر الكلاب الثلاثة المتبقية الأسود والأخضر والأحمر خلال ظهورهم فى مذبحة الذرة الشهيرة وقيادتهم لجماعة الكلاب آنذاك، من الخامسة عشرة من عمرهم، وبالطبع فإن هذا العمر بالنسبة للإنسان يعنى عمر الصبا، إلا أنه بالنسبة للكلاب إنما يعنى أنها قد بلغت الأربعين.

خلال الأيام التى أعقبت تلك المذبحة الكبرى، كانت برك الدماء السوداء قد غطت صفحة ذكريات جدى وأبى خلال نصبهم الكمائن لملاقاة العدو عند الجسر الممتد أعلى نهر مواشوى، وصفحة ذكرياتهم كانت أشبه ما تكون بسماء غطتها السحب السوداء، غير أن اشتياق أبى لجدتى كان دائمًا مثل ضوء الشمس الذى ينبعث من خلال تلك السحب السوداء، وهذه الشمس المحتجبة بهالات من السحب السوداء كانت بالتأكيد فى معاناة كبيرة، والضوء الذى كان يخترق تلك السحب الكثيفة، كان يجعلنى فى حالة غير

مستقرة، كما أن تلك الأوقات التى كان يسترقها أبى خلال تلك المعركة الحامية للتفكير فى جدتى، أقول: كان اشتياق أبى لأمه يجعلنى فى غاية الحيرة مثل الكلب الذى فقد جميع أفراد عائلته.

المذبحة الكبرى التى وقعت فى مساء يوم عيد منتصف الخريف لعام ١٩٣٩، تكاد تكون قد أبادت جميع أهل قريتنا، ومن ثم قد جعلت مئات من كلاب القرية تفقد عائلاتها بالمعنى الحقيقى للكلمة، كان جدى قد راح يطلق وابلاً من الرصاص على تلك الكلاب التى استغلت رائحة الدماء التى ملأت المكان، وجاءت لتأكل فى الجثث الملقاة فى كل مكان، كنت تسمع دوى مسدسه من نوع "مسدس تزه لاى ده[١]" فى كل مكان، كانت تفوح رائحته الملتهبة فى جميع الأرجاء، يخرج من ماسورته لون أحمر داكن، يختلط بلون قمر منتصف الخريف الأبيض بياض الثلج والبارد مثل الجليد، أما حقول الذرة فقد بدت بعد تلك الحرب الضارية فى غاية السكون والوحشة، وقد لفها لون قمر منتصف الخريف الحزين، وامتلأت القرية بالمشاعل النارية، وعلت ألسنة اللهب تملأ سماء القرية، وبعد قيام قوات الجيش اليابانى والقوات الصينية المعاونة له بمهاجمة القرية، قاموا بإضرام النيران فى جميع منازلها، ثم انسحبوا منها من جهة المدخل الشمالى، كان ذراع جدى الأيمن الذى أصيب قبل سبعة أيام من الهجوم على القرية، فى حالة سيئة للغاية غير قادرة

(١) مسدس تزه لاى ده أو كما يطلق عليه أيضًا مسدس بوا كه: هو اسم درج على إطلاقه عامة الشعب الصينى على مسدس ماوزر **C96** عياره: (٧. ٦٣ *٢٥ ملم)، (٩*١٩ ملم بارابيليوم)، الذى كان قد انتشر استخدامه فى مطلع عصر جمهورية الصين الوطنية (١٩١١-١٩٤٩) بين القوات العسكرية المحلية غير الحكومية، غير أن معظم الكميات التى كانت تباع داخل الصين من هذا النوع من المسدسات لم يكن من صنع شركة ماوزر الألمانية العريقة، وإنما كان يتم تصنيعه فى إسبانيا، كما أن المهندسين الإسبان كانوا قد عدلوا فيه بعض التعديلات وجعلوه مسدسًا آليًا ذا جودة عالية. (المترجم)

على الحركة تمامًا، وقد انشغل أبى حينها بمساعدة أبيه فـــى ربـــط ذراعـــه المصابة، وكان جدى قد ألقى بمسدسه على التربة السوداء داخل حقول الذرة، وبعد أن أحكم أبى ربط ذراع جدى، جلس جدى يستريح على الأرض، وهو يستمع إلى أصوات الخيول اليابانية التى كانت تصيح بصوت عال، وســمع وقع أقدامها التى كانت تهز المكان وكأنها رياح عاتية، كانت وقتها تجـرى بسرعة تدريجية وتتجمع عند المدخل الشمالى للقرية، ثم اختفت فى النهايـــة داخل حقول الذرة الواقعة فى شمال القرية، كان يسمع أيضًا وقع أقدام البغال التى كانت تعدو بسرعة جنونية، بالإضافة إلى صوت أفراد القوات المعاونة للجيش اليابانى التى كانت قد بلغ بها التعب والإرهاق مداه.

ووقف أبى إلى جانب جدى الذى كان جالسًا يـستريح داخــل حقــول الذرة، يجاهد نفسه ويحاول تتبع وقع أقدام الخيول اليابانية، بعد ظهــر ذلــك اليوم، أصيب أبى بفزع شديد عندما رأى ذلك الحصان اليابــانى ذا اللـــون الأحمر الداكن يقترب منه، ورأى بأم عينيه حوافر الحصان الكبيرة التى بدت له وكأنها سهام مصوبة نحو رأسه، وراحت حوافر الحصان تنير أمامه مثل البرق، لم يتمالك أبى نفسه من الخوف فراح يصيح وينادى جدى، ثم جعــل يغطى رأسه بيديه، ثم جلس فى وضع القرفصاء علـــى بعــض مــن أوراق الذرة، وغطت رائحة البول الكريهة المحبوسة داخل بطن الحصان ورائحـــة عرقه المنطقة المحيطة بأبى، ثم تقدم الحصان إلى الأمام مقتحمًا الذرة بجسده الممتلئ، بينما راحت أعواد الذرة الممتلئة بالحب تتساقط فوق أبـــى، حتـــى امتلأت الأرض بكميات كبيرة من أعواد الذرة المسكينة، عاد أبى بذاكرتـــه إلى الوراء، وتذكر مشهد تساقط كميات كبيرة من أعواد الذرة فـــوق جثـــة والدته التى كانت ملقاة وسط الذرة، وقبل سبعة أيام مضت، كانـــت أعـــواد الذرة قد نضجت نضجًا كاملاً، غير أنها لم تكن قد أصـــبحت يابـــسة بعـــد،

وهكذا تساقطت كميات من الحب على الأرض بفعل هجوم جماعات الحمام على سنابل الذرة الناضجة، حتى امتلأت الأرض بحبات الذرة الجميلة التى بدت وكأنها قطرات أمطار تملأ أرضية حقول الذرة، كانت شفتا جدتى تكشفان عن أسنانها الجميلة فى جمال الصدف، وقد ظهر على أسنانها الجميلة بضع حبات من الذرة التى ظهرت لأبى وكأنها تكمل لوحة جميلة تسر الناظرين، ثم اختفت تلك اللوحة سريعًا، وجد الحصان اليابانى الذى اقترب من أبى صعوبة فى العودة إلى حيث جاء، كانت أعواد الذرة لا تتوقف عن ضرب مؤخرته، وكان بعضها ينكسر فور اصطدامه بمؤخرة الحصان، وبعضها ينحنى والبعض الآخر ينحنى ثم ينتصب ثانية، وهكذا ومع هبوب الرياح الخريفية عمت حالة من الفوضى الشديدة حقول الذرة التى مر بها الحصان اليابانى الممتلئ، ولاحظ أبى كمية السائل التى كانت تسيل من أنف وفم الحصان اليابانى الذى كان فى غاية التوتر أثناء تعجله فى الفرار من داخل حقول الذرة، حتى إنها سالت لتغطى جزءًا كبيرًا من المنطقة المحيطة بفمه، بدت عينا الحصان وقد فاضتا بالدموع بسبب كميات المسحوق الأبيض الذى تناثر إلى داخلها أثناء السير وسط الذرة، ولمع جسد الحصان، ثم ظهرت أعلى سنابل الذرة رأس جندى يابانى شاب وسيم كان يرتدى فوق رأسه قبعة صغيرة مربعة، ووسط تلك الحرب الحامية داخل حقول الذرة، راحت سنابل الذرة تضرب ذلك الجندى اليابانى الوسيم وتضايقه وتعوق طريقه أينما توجه، حتى اضطر إلى أنه يغمض عينيه بين الحين والآخر لتفادى مضايقتها له، رآه أبى وهو يأخذ بخنجره ويقطع سنابل الذرة، كان بعضها يسقط على الأرض باستسلام تام، ثم تبقى أعواد الذرة ثابتة فى مكانها عاجزة عن المقاومة، كانت بعض سنابل الذرة تزأر بأعلى صوتها؛ وتتمايل تلك السنابل التى تم قطعها، وتبقى معلقة فوق سيقان الذرة التى لم تكن

أوراقها تتوقف عن الحركة، بدت بعض أعواد الذرة أكثر صلابة؛ كانت تميل مع الخنجر إلى الأمام ثم تعود بسرعة لتنتصب فى مكانها، وكأنها حزمة من خيوط الكتان كانت تلتصق على سطح الخنجر، رأى أبى الجندى اليابانى الوسيم يتقدم مرة ثانية على ظهر حصانه رافعًا خنجره، وهنا استجمع أبى كل قوته الشريرة إلى جانب قوة مسدسه البرونينج وصوبه نحو وجه الحصان المستطيل، فاتجه المسدس فى خط مستقيم وبأقصى سرعة تجاه جبهة الحصان، وخرج منه صوت طلق مكتوم، وما أن رفع الحصان الأحمر رقبته، حتى هوت ركبتاه على الأرض، ولامست شفته التراب، ثم لحقت بها رقبته، حتى سقط رأسه كاملاً على الأرض، وسقط الشاب من على ظهر الحصان، ومن المؤكد أن ذراعه الذى كان يمسك بالخنجر قد كسر تمامًا؛ حيث رأى أبى حينها الخنجر وقد سقط على الأرض، ثم سمع صوت سقوط ذراعه المبتور على الأرض، خرجت عظمة من عظامه الصلبة من داخل جيب ملابسه، بينما بدا ذراعه السليم وكأنه كائن حى مستقل راح يتمايل بصورة غير منتظمة، ولم يلاحظ أبى خروج دماء فى تلك اللحظة التى سقط فيها ذراع الجندى اليابانى من داخل جيبه، وخيمت على المكان رائحة المقابر، غير أنه بعد قليل لاحظ الدم الأحمر الفاتح يسيل من جرح الجندى الشاب، وكان الدم يسيل بشكل غير متوازن؛ كان تارة يسيل بغزارة وتارة أخرى يبدو دقيقًا، وتارة بسرعة وتارة أخرى ببطء، كان أشبه ما يكون بعنقود الخوخ الأحمر الذى يظهر باستمرار ثم يختفى بنفس الصورة التى ظهر بها، كانت إحدى قدميه قد انحشرت أسفل بطن الحصان، بينما كانت الأخرى تجاوزتها إلى أمام رأسه، وظهرت القدمان مكونتين زاوية مستقيمة، وكان أبى فى غاية الدهشة من أمر ذلك الحصان اليابانى الكبير وذلك الجندى اليابانى المهيب اللذين لم يكن أبى يتصور أنهما من الممكن أن يسقطا من

أول ضربة، وهنا أطل جدى حانيًا ظهره من داخل أعواد الذرة، وراح ينادى أبى بصوت خفيض قائلاً:

"يادوو قوان".

وقف أبى وقد ساوره كثير من عدم الاطمئنان، وراح ينظر إلى جدى، وخرجت جماعة كبيرة من الخيول اليابانية مندفعة من قلب حقول الذرة، واختلط صوت وقع أقدام الخيول القوية وهى تعدو داخل الحقول مع صوت تحطيمها لأعواد الذرة، كان الجنود اليابانيون يندفعون إلى الأمام وقد أزعجهم صوت إطلاق النار الذى صدر من مسدسى جدى وأبى، حتى اضطروا إلى التخلى عن مهاجمة القرية التى أعلنت عن التصدى لهجومهم بكل قوة، وراح الجنود اليابانيون يعسكرون داخل حقول الذرة لصد الغارات المفاجئة التى يتعرضون لها.

واحتضن جدى أبى ومضيا يزحفان داخل حقول الذرة، سمعا أنات تربة الحقول وهى تتوجع من ثقل أقدام الخيول اليابانية التى كانت تدكها دكًا شديدًا، ورأيا سنابل الذرة وهى تهتز اهتزازًا عنيفًا، وقد امتلأت الأرض بما تساقط منها رعبًا من الخيول الشرسة.

وما إن ابتعدت الخيول اليابانية حتى هدأت أعواد الذرة المسكينة، وانتفض جدى واقفًا داخل حقول الذرة، وعندما حاول أبى أن يقف على قدميه، أدرك مدى القسوة والشدة التى كان يضغط بها جدى عليه وهما منبطحان داخل حقول الذرة.

لم يمت ذلك الجندى اليابانى، استطاع أن يفيق من الألم الشديد الذى أصابه، وراح يعتمد على ذراعه الذى لم ينكسر، وحاول جاهدًا أن يلم قدمه

التى كانت ممدودة إلى أمام الجسر، وراح يحرك قدمه المصابة التى بدت وكأنها لا تخصه وهو يتأوه بصوت خفيض، ولاحظ أبى قطرات العرق وهى تنزل من على جبين الجندى اليابانى، وقد اختلطت قطرات العرق بطين الأرض وغبار الطلقات النارية، بدا وجهه شاحبًا، لم يمت أيضًا ذلك الحصان اليابانى، كان لا يزال يهز رقبته مثل الحية بينما كانت عيناه الخضراوان الممتلئتان بالحزن تنظران إلى المنطقة الغريبة المحيطة به فى ريف دونغ بى بمدينة قاو مى، وبعد أن استراح الجندى اليابانى قليلاً، حاول جاهدًا أن يسحب قدمه التى كانت محشورة أسفل بطن الحصان.

وتقدم جدى إلى الأمام ناحية الجندى اليابانى؛ ليساعده على سحب قدمه المحشورة، ثم أحكم جدى قبضته حول رقبة الجندى وأجبره على النهوض، كانت قدماه فى غاية التعب، حتى إنه راح يميل بجسده كاملاً على جدى، وما أن أرخى جدى ساعديه قليلاً، سقط الجندى اليابانى على الأرض مثل التمثال المصنوع من الصلصال، مد جدى يده وأخذ الخنجر اللامع، وصوبه تجاه بعض أعواد الذرة، وراح يحركه يمينًا ويسارًا وهو يقصف أعواد الذرة قصفًا شديدًا، حتى امتلأت الأرض بكمية كبيرة من سائل أعواد الذرة المتساقطة.

أحكم جدى حد الخنجر اليابانى حول رقبة الجندى ناصعة البياض، ثم خاطبه بصوت منخفض: "أيها العفريت اليابانى! أين ذهبت شجاعتك؟!

لم تتوقف عينا الجندى اليابانى السوداوان عن الحركة، وهو يتمتم بكلمات سريعة، عرف أبى أنها كانتت عبارة عن كلمات توسل يطلب بها الرحمة من جدى، ومد الجندى يده التى كانت تهتز بشدة إلى جيبه مخرجًا حافظة جلدية شفافة، ثم قدمها إلى جدى وهو يغمغم بكلمات غير مفهومة.

تقدم أبى لينظر إلى تلك الحافظة، إذا بها تحتوى على صورة شخصية ملونة، يظهر أعلاها سيدة شابة جميلة ذات ذراع بيضاء ناصعة تحتضن طفلاً ممتلئ الجسم، وترتسم على وجه الأم وطفلها ابتسامة رقيقة.

سأله جدى: "هل هذه زوجتك؟".

فراح الجندى اليابانى يغمغم بكلمات غير مفهومة.

فعاود جدى سؤاله: "وهل هذا ابنك؟".

فاستمر الجندى يغمغم بكلماته غير المفهومة.

فحشر أبى رأسه إلى الأمام ليتفحص الصورة، وراح يتأمل وجه المرأة المبتسمة والطفل اللطيف.

فمد جدى يده وانتزع الحافظة بقوة قائلاً: أيها الحيوان، هل تريد أن تستعطفنى بهذه الصورة؟"، وتطايرت الحافظة بعيدًا، ليستقبلها خنجر جدى قبل أن تسقط على الأرض وقد أصبحت نصفين مستقرة أمام قدم أبى.

سادت هالة من الظلام أمام عينى أبى، وراح يرتعش من برودة الجو، انعكست على عينيه أشعة الضوء الخضراء والحمراء، وشعر حينها بحزن شديد، ولم يعد قادرًا على أن يفتح عينيه وينظر إلى صورة المرأة الجميلة والطفل اللطيف التى انقسمت إلى نصفين أمام عينيه.

ارتمى الجندى اليابانى أمام قدمى أبى وهو فى غاية التعب، وراح يمد يده غير المصابة التى كانت تهتز بشدة ليلتقط بها صورة المرأة والطفل التى انقسمت إلى نصفين، حاول بالتأكيد أن يعتمد أيضًا على يده المصابة لكنه فشل فى ذلك، وكانت لا تتوقف عن النزيف. فراح يعتمد على يده غير

المصابة ليتمكن من أن يلتقط صورة زوجته وطفله وهو لا يتوقف عن التمتمة بكلمات غير مفهومة.

راحت تتساقط دموعه لتملأ جبينه الملطخ بالطين والغبار. نجح في رفع الصورة بيده المصابة ووضعها أمام شفتيه وراح يقبلها وهو يشعر بكثير من الحزن.

سمع صوت جدى يسبه بصوت مسموع قائلاً: "تبًا لك أيها الحيوان، هل تعرف الدموع؟ وتعرف أن تقبل زوجتك وطفلك؟ إذا فكيف تجرأت على قتل نسائنا وأطفالنا؟ هل تعتقد أنك هكذا ستنجح فى استعطافى وأنى سأعدل عن قتلك؟" ثم مد جدى يده ورفع الخنجر اليابانى عاليًا.

فاستوقفه صوت أبى وهو يصرخ بصوت عال "أبى.". ومد أبى يديه وأمسك بذراع جدى ثم قال: "أبى، أتوسل إليك ألا تقتله!"

فراحت ذراع جدى تهتز بين يدى أبى، ثم رفع أبى عينه وراح يتأمل أباه، صاحب القلب القاسى.

فطأطأ جدى رأسه قليلاً، فإذا به يسمع صوت المدافع والرشاشات اليابانية وقد اختلطت بصوت استغاثة أهل القرية، ثم سمع صوت وقع أقدام الخيول اليابانية وهى تهز الأرض متقدمة داخل حقول الذرة. وهنا رفع جدى ذراعه بقوة وأزاح يدى أبى من أمامه.

راح جدى يوبخ ابنه بلهجة قاسية قائلاً: "أيها الجبان، ماذا بك؟ وعلى من تذرف هذه الدموع؟ هل تذرفها حزنًا على أمك؟ هل تذرفها حزنًا على الجد لوو خان؟ هل تذزفها حزنًا على العم الأخرس ورفاقه؟ هل تذرف الدموع حزنًا على هذا الكلب اليابانى؟ ألست أنت الذى أسقطت

فرسه بمسدسك؟ أليس هو الذى كان ينوى أن يجهز عليك بخنجره ليقتلـك؟ امسح دموعك يا صغيرى، وتقدم لتأخذ هذا الخنجر وتقتل هذا الحيوان!"

فتراجع أبى خطوة إلى الوراء، بينما لا تزال دموعه تنهمر بشدة.

"تقدم!"

"لا أستطيع يا أبتاه.. لا أستطيع".

"أيها النذل الجبان!".

وركل جدى ابنه ركلة قوية، ثم تراجع خطوة إلى الوراء، وجعل بينه وبين الجندى اليابانى مسافة قصيرة، قبل أن يرفع الخنجر عاليًا.

ولاحظ أبى النور الذى كان يظهر أمامه وقد تحول إلى ظلام دامس. وقد فاق صوت قطع رقبة الجندى اليابانى بخنجر جدى، صوت المدافع والرشاشات اليابانية القادم من بعيد، حتى شعر أبى برعشة شديدة تسللت إلى أحشائه. وعندما أفاق من رعشته، رأى ذلك الجندى اليابانى الشاب الوسيم وقد فصلت رقبته عن جسده. تأثر أبى مما رأى حتى راح يتقيأ سائلاً أخضر. ثم استدار بجسده وفر هاربًا من أمام الجندى اليابانى.

لم يستطع أبى أن ينظر إلى عينى الجندى اليابانى المفتوحتين، وإلى مشهد فصل رقبته إلى نصفين بواسطة الخنجر، حيث إن خنجر جدى قد استطاع أن يفصل جميع الأشياء إلى نصفين، حتى أن جدى نفسه قد انقسم إلى نصفين. وشعر أبى فجأة أن هناك خنجرا تمتلئ حافتاه بالدماء قد قسم جدى وجدتى والجد لوو خان، والجندى اليابانى وزوجته وابنه، والعم

الأخرس، وليو دا خاو، والأخوين فانغ، والأبرص، ونائب القائد رن، قسمهم جميعًا إلى نصفين تمامًا كما تقطع الخضراوات..

وهنا ألقى جدى بالخنجر الذى بدا ملطخًا بالدماء، وراح يجرى وسط حقول الذرة ليلاحق أبى الذى فر هاربًا من أمامه. وسمع صوت وقع أقدام الخيول اليابانية التى جاءت تدك الأرض مثل العاصفة. وسمع صوت المدافع من داخل حقول الذرة، يبدو أنها كانت لا تتوقف عن قصف الأهالى الذين كانوا يهبون لمواجهتها.

وأخيرًا نجح جدى فى القبض على ابنه، وأمسك برقبته وهزها هزًا عنيفًا قائلاً: "يا دوو قوان، هل جننت أيها الجبان؟ هل تريد أن تنهى حياتك بنفسك؟ هل سئمت الحياة؟".

وحاول أبى أن يفلت من قبضة جدى، وهو يصيح بصوت مرتفع: "أبى! أبى! أبى! أرجوك خذنى من هذا المكان! خذنى من هذا المكان! فإننى لا أرغب فى القتال! لا أرغب فى القتال! لقد رأيت أمى! ولقد رأيت أعمامى! ولقد رأيت الجد لوو خان!"

وهنا هوت يد جدى لتصفع وجه أبى صفعة قوية تخلو من أى معانى الشفقة. نعم، لقد كانت صفعة قوية جدًا، انهارت على إثرها رقبة أبى، وراحت رأسه تهتز بشدة، ثم سالت الدماء من فمه.

(٢)

انسحبت القوات اليابانية المرابضة داخل حقول الذرة، وبدأ القمر الذى كان يرتفع فى سماء حقول الذرة يتضاءل شيئًا فشيئا. ولف الصمت حقول

الذرة التى شهدت كوارث كثيرة؛ كان قد تساقط الكثير من أعواد الذرة ذارفة الدموع الغزيرة خلال غارات القوات اليابانية المتلاحقة. وانتشرت رائحة الدم فى أرجاء الجزء الجنوبى من القرية. وبدت ألسنة النيران تلف القرية مثل ذيل ثعلب لا يتوقف عن الحركة باستمرار، بينما لا تتوقف أصوات الانفجارات هنا وهناك، اختلطت رائحة الدماء المنبعثة من داخل حقول الذرة برائحة نيران المدافع والرشاشات، مكونة رائحة غريبة خانقة.

عاود جدى شعور بالألم إثر ذلك الجرح القديم الذى أصاب ذراعه؛ بدأ الجرح ينزف بشدة، احتاج جدى لمساعدة أبى فى سد فوهة الجرح لمنع النزيف القوى. فمد أبى إصبعه الصغير البارد ليسد فوهة النزيف. واستطاع جدى أن يعثر على ورقة ذابلة كانت ملقاة عند مقبرة على مسافة بعيدة عنهما، وطلب من أبى أن يساعده فى الحصول على قليل من مسحوق أعواد الذرة ليضعه فوق الورقة الذابلة، فمد أبى يده التى كانت تحمل الورقة الذابلة وقد وضع فوقها كمية من مسحوق أعواد الذرة، وقدمها لجدى. فمال جدى بأسنانه وفتح إحدى الطلقات النارية، وأفرغ ما بداخلها من بارود، وخلط البارود بمسحوق أعواد الذرة، وخلطهما جيدًا ثم هم أن ينثر المسحوق المخلوط على فوهة الجرح، فسأله أبى بصوت خفيض:

"أبى، ألا ترغب فى إضافة قليل من التراب؟".

فكر جدى قليلاً ثم قال: "حسنًا، فلنضع قليلاً من التراب".

فمد أبى يده وأتى بكمية من التراب من أسفل عود من أعواد الذرة، وقلب التراب جيدًا، ثم نثره أعلى الورقة الذابلة. وخلط جدى المساحيق الثلاثة جيدًا، ثم وضع الورقة بما عليها من مساحيق على فوهة الجرح، ثم ساعده أبى فى إحكام وضع هذه اللفافة غير النظيفة على فوهة الجرح.

سأل أبى: "أبى، هل زال الألم بعض الشيء؟"

فحرك جدى ذراعه قليلاً ثم قال: "تحسن كثيرًا، صغيرى دوو قوان، إن هذه الوصفة الفعالة قادرة على علاج أخطر الجروح.

فسأله أبى ثانية: "لو حصلت أمى على مثل هذه اللفافة وقتها لم تكن قد تعرضت للموت، أليس كذلك؟".

فأجابه جدى بصوت يملؤه الحزن قائلاً: "نعم يا صغيرى، لم تكن لتموت".

"أبى، لو كنت قد أخبرتنى من قبل عن هذه الوصفة الطبية، لكنت استطعت أن أستخدمها فى سد فوهة جرح أمى، ولو أننى قمت بخلط مسحوق الذرة مع البارود لكانت النتيجة أفضل بكثير".

ووسط همسات أبى، راح جدى يضغط بيده المصابة على مسدسه ليطلق بعض الطلقات النارية ردًا على صوت مدافع اليابانيين التى تهز أرجاء القرية.

كان مسدس أبى الفرنسى برونينج لا يزال ملقى أسفل بطن الحصان اليابانى، كان أبى قد استطاع خلال آخر معركة حدثت بعد ظهر ذلك اليوم، الحصول على بندقية يابانية يصل طولها إلى أصغر من طوله بقليل، وكان جدى لا يزال يستخدم مسدسه الألمانى الصنع. إن كثرة الهجمات اليابانية المتلاحقة وكثرة استخدام جدى لهذا المسدس الألمانى الحديث إلى حد ما، جعلته يتحول بسرعة إلى قطعة خردة. وشعر أبى أن ماسورة مسدس جدى الألمانى الصنع بدت ملتوية بعض الشيء. وعلى الرغم من أن سماء القرية كانت ممتلئة بالنيران، فإن حقول الذرة كانت لا تزال تبدو هادئة وسط ظلمة الليل. كما بدا الهلال يعلو سماء حقول الذرة. حمل أبى بندقيته وسار خلف

جدى، وراحا يلفان حول موقع المذبحة وقد غاصت أقدامهما في الوحل الممتلئ بالدماء، كانت الجثث الملقاة على الأرض مختلطة بأعواد الذرة المتساقطة فى كل مكان. وبدت الدماء تبرق تحت ضوء الهلال الذى ينير سماء الحقول. وهكذا لفت هذه المناظر الدميمة الوحشية آخر مراحل صبا أبى. وأحس كما لو كانت أعواد الذرة تتوجع من هول ما أصابها، وكما لو كانت هناك حركة لأحياء وسط هذه الكومة من الجثث، وفكر أبى أن ينبه جدى لكى ينظرا إلى هؤلاء الأهالى الذين لم يلفظوا أنفاسهم الأخيرة بعد. وما إن رفع وجهه بعض الشيء، حتى اصطدم بوجه جدى المكفهر القاسى الخالى من أية مشاعر إنسانية، فعدل أبى عن رغبته فى الحال.

وفى اللحظات الحاسمة، كان أبى دائمًا أكثر يقظة من جدى، كانت أفكاره دائمًا تركز على ظاهر الظواهر المختلفة، ليست عميقة إلى حد كبير، ومن ثم فقد انساق بسهولة وراء فرقة العصابات! بينما كانت أفكار جدى تركز على نقطة معينة ببلادة تامة، وكانت هذه النقطة ربما تتمثل فى وجه معين أو بندقية معينة أو طلقات نارية معينة. لم يكن يحسن التركيز فى رؤية أشياء أخرى أو سماع أصوات أخرى. هذا العيب أو هذه السمة التى كان يتمتع بها جدى، كانت قد شهدت تطورًا كبيرًا بعد ما يزيد على عشر سنوات، فبعد عودته إلى الصين قادمًا من المرابضة عند قمم مدينة هوكايدو اليابانية، كانت عيناه تحملقان فى الشيء وكأنها نيران مسلطة عليه سوف تحرقه حرقًا، غير أن أبى لم يستطع أبدًا أن يصل إلى هذا العمق الفكرى الفلسفى، ففى عام ١٩٥٧، وعندما استطاع أبى أن يخرج من ذلك الكهف العميق الذى وضعته داخله جدتى بعد مروره بالكثير من المتاعب والصعاب، كانت عيناه لا تزالان كما كانتا فى عهد الصبا مفعمتين بالحياة محتارتين لا يهدأ لهما بال، كما أنه لم يستطع طيلة حياته أن يستوضح تلك العلاقة التى

تربط بين الإنسان والسياسة والإنسان والمجتمع والإنسان والحروب، وعلى الرغم من أنه قد دار كثيرًا مع عجلة الحروب، وعلى الرغم من أن حياته كانت رحلة دائمة للتحرر من الدروع الحديدية، وعلى الرغم من تمكنه في التحرر بعض الأحيان، فإن حياته كانت حياة فاترة تحمل الكثير من الصفات الحيوانية.

وعندما قام جدى وأبى بالدوران حول موقع المذبحة التى وقعت داخل حقول الذرة، إذا بأبى يخاطب أباه بصوت حزين: "أبى.. لم أعد أقوى على السير.".

أفاق جدى من حركاته الآلية، وسحب أبى وتراجعا عشرات الخطوات إلى الخلف، حتى جلسا على بقعة من تراب لم تصل إليه دماء الجثث، وزاد صوت النيران الذى يلف القرية وحدة وكآبة حقول الذرة، وبدت ألسنة اللهب الذهبية وكأنها فى صراع مع ضوء القمر الأبيض، وبعد أن استراح جدى قليلاً، سقط إلى الخلف محدثًا صوتًا مسموعًا مثل السور لحظة انهياره، وأسند أبى رأسه إلى بطن جدى، وراح فى نوم عميق، وأحس بأن يد جدى الكبيرة تمسح على رأسه، وعندها راح يتذكر ذلك المشهد قبل ما يزيد على عشرة أعوام، عندما كان ينام على صدر جدتى للرضاعة.

كان قد بلغ الرابعة من عمره، وشعر بعد ارتياح بثدى جدتى فى فمه. كان لا يشعر بالرضا أثناء الرضاعة من ثديها. حتى أنه كان ينظر إلى وجهها بينما هو ينام على صدرها ثم يعض ثديها بقوة. كان يشعر حينها بانقباض ثديها وجسدها الذى يتأثر من قوة عضته. وقتها كان يحس بسائل ذى مذاق حلو ينعش فمه. كانت جدتى حينها تهم بضربه ضربة قوية على مؤخرته ثم تبعده عن ثديها. وبعد أن يسقط من على حجرها، يجلس على

قدميه، ويروح يتأمل قطرات الدم التى تتساقط من ثديها، ثم يـصدر بعـض الأصوات دون أن تذرف عيناه الدموع. وعندها كانت جدتى تشعر ببعض الألم الذى كان يبدو على وجهها. وكان يسمع صوتها وهى تسبه بأنه مجرد جرو شرير، وأنه حيوان شرير من نفس فصيلة أبيه. كان أبى قد عرف فيما بعد أن جدى كان على علاقة عاطفية بالفتاة ليان إر التى كانت تساعد جدتى فى أعمال المنزل. وفى الوقت الذى كان أبى يعض ثدى جدتى، كان جدى قد هرب من قسوة جدتى وأشترى لفتاته منزلاً جديدًا فى القرية المجاورة. وقد قيل إن تلك الفتاة، التى تعتبر جدتى الثانية لم تكن هى أيضًا امرأة سهلة. وأن جدتى كانت تخشاها كثيرًا – وسوف نتحدث عن ذلك بالتفصيل فيما بعد – وكانت هذه الجدة الشابة قد وضعت لى فيما بعد عمة أصغر منى. وفى عام ١٩٣٨، كان الجنود اليابانيون قد كشفوا عن هذه العمة الصغيرة بعد أن تناوبوا اغتصاب جدتى الثانية، وسوف نتحدث عن ذلك أيضًا بشىء من التفصيل فيما بعد.

كان جدى وأبى قد غلبهما النعاس الشديد، وأحس جدى بألم شديد فى ذراعه المصابة، وأحسا أن راحة قدميهما تستند إلى حذاء من القماش، غير أنهما لا يستطيعان خلعه من شدة الإرهاق والتعب.

واضطجعا على الأرض بين النوم واليقظة. واستدار أبى بجسده قليلاً، ليجد رقبته تستند إلى بطن جدى، وهو غارق فى تأملاته نحو السماء، سمع صوت أمواج نهر موا شوى، الهادئة، ورأى بعض السحب السوداء فى المجرة فى السماء. وتذكر أبى ما قاله له الجد لوو خان من أن المجرة طائشة، وأن أمطار الخريف لا تنقطع. كان أبى قد رأى نوبة واحدة من أمطار الخريف الحقيقية، وقتها كان قد اقترب موعد حصاد الذرة، وفاضت

مياه نهر موا شوى، وتصدع السد الذى يعلو النهر، ووصلت مياه الفيضان إلى الحقول والقرى. ووسط كل هذا التيار الجارف، كانت أعواد الذرة قد جاهدت فى التصدى للفيضان، وجاهدت الفئران والأفاعى فى التخفى وسط الذرة. وكان أبى قد سار خلف الجد لوو خان إلى أعلى تبة وسط حقول الذرة، وراحا يتأملان المياه العاتية وهما فى غاية القلق. وبما أن أمطار الخريف كانت تستمر لفترة طويلة، كان الأهالى قد قاموا بعمل بعض الدعامات الخشبية وحملوها إلى حقول الذرة، وراحوا يقطعون سنابل الذرة التى كانت تبدو ممتلئة بالبراعم الخضراء. بدت مجموعات من سنابل الذرة الممتلئة بالحب، وقد أثقلت الدعامات الخشبية. وظهر مجموعة من الرجال سمر اللون نحيفين عراة الظهر حفاة الأقدام يرتدون قبعات بالية من البامبو، ظهروا واقفين على المجاديف الخشبية وهم يلوحون بعصى خشبية، كما امتلأت شوارع القرية بالمياه، وظهرت جماعات البغال والخيل والأبقار والأغنام تسبح داخل المياه، وقد طفا على السطح نفايات تلك الحيوانات. لو سطعت شمس الخريف على هذه البقعة، فسوف تتصهر صفحة المياه، وسوف تظهر أعلاها صفحة حمراء من تلك السنابل التى لم تحصد بعد. راحت جماعات البط البرى تحلق فوق أعواد الذرة، وهى تهز بأجنحتها محدثة لفحة من الهواء البارد الذى انعكس على المياه المنسابة وسط حقول الذرة. ورأى أبى كمية كبيرة من المياه الصافية تنساب وسط حقول الذرة، مختلفة تمامًا عن تلك المياه الصفراء خارج الحقول، فعرف على الفور أنها مياه نهر موا شوى. وهنا تنفس الرجال الذين كانوا يمسكون بالمجاديف الخشبية الصعداء، وراحوا يتساءلون فيما بينهم، وبدأوا يقتربون من السور المكون من الطمى ومن جدى المرابض عنده. وظهرت سمكة من أسماك مبروك الحشائش تنام على مجداف أحد الفلاحين الشباب، وقد اخترق بطنها عود من أعواد الذرة. ورفع الشاب السمكة، وراح يلوح بها أمام الجمع

المحتشدين عند السور الترابى، وكانت السمكة كبيرة يصل طولها إلى نصف طول قامة الإنسان، كان الدم يسيل من وجنتها، وكانت تفتح فمها، وتنظر فى حزن إلى أبى..

مضى أبى يفكر كيف استطاع الجد لوو خان أن يشترى مثل هذه السمكة، وكيف استطاعت جدتى أن تقطعها بيديها، وتطهوها لتصنع منها قدرًا كبيرًا من الحساء، وأثار التفكير فى هذا القدر من الحساء شهوة أبى فى تناوله. فجلس أمام جدى وسأله: "أبى، ألم تشعر بالجوع بعد؟ أبى، إننى أشعر بجوع شديد، فلتصنع لى شيئًا من الطعام، وإلا سأموت جوعًا".

جلس جدى أعلى السور الترابى، وراح يتحسس خصره، وأخرج عددًا من الطلقات النارية. ثم مد يده وجاء بمسدسه وفتح خزنته، ووضع داخلها مجموعة من الطلقات النارية، وأحكم غلق الخزنة ثم ضغط على الزناد ليحدث صوتًا مسموعًا، خرجت طلقة من داخل الخزنة. قال جدى مخاطبًا أبى: "يا دوو قوان، هيا بنا.. هيا بنا نبحث عن أمك".

فذهل أبى من كلامه وسأله بلهجة حادة: "لا، لا يا أبى، لقد ماتت أمى، ونحن لا نزال على قيد الحياة، أشعر بالجوع الشديد، فلتأخذنى إلى أى مكان أجد فيه بعض الطعام لسد جوعى".

وهنا حث أبى جدى على النهوض. فراح جدى يتمتم قائلاً: "وإلى أين سنذهب؟ إلى أين سنذهب؟" فأخذ أبى يسحب يد جدى وهما يمضيان وسط حقول الذرة وكأنهما يسيران فى خط متعرج بمحاذاة القمر.

وبينما يسيران فى طريقهما، سمعا صوت حيوان برى يزأر بين كومة الجثث. فاستدار جدى وأبى على الفور ونظرا إلى مصدر الصوت، فإذا بهما يريان ما يزيد على عشرة أزواج من العفاريت ذوى أعين خضراء مثل أعين

اللهب وأشباحًا زرقاء. فأخرج جدى مسدسه ولوح به نحو العينين الخضراوين، وما إن انطلقت النيران حتى اختفت تلك العينان، ثم سمع صوت نباح الكلاب القادم من أعماق حقول الذرة. فاستمر جدى فى إطلاق النيران حتى أطلق سبع رصاصات، لتصيب جماعة من الكلاب كانت تحوم حول الجثث. وبعد أن انتهى جدى من إطلاق جميع الأعيرة كانت بمسدسه، إذا بعدد من الكلاب التى لم تصبها تلك الطلقات النارية تقفز بعيدًا عن الجثث، ثم راحت تنظر إلى جدى وأبى نظرات مخيفة وفى غاية الغضب.

كانت آخر الطلقات النارية التى أطلقها جدى من مسدسه الألمانى قد سقطت على بعد يزيد على ثلاثين خطوة. وكان أبى قد راقب الطلقات النارية وهى تطير فى الجو، وكان بإمكانه لو مد يده أن يقبض عليها قبل أن تنزل على الأرض. كانت الطلقات النارية قد فقدت صوتها القوى وبدا صوتها ضعيفًا مثل صوت سعال، وبصق شيخ عجوز. فرفع جدى مسدسه يتفحصه، وإذا به يعلو وجهه تعبير ينم عن الحزن والأسف.

سأله أبى: "أبى، هل فرغت جميع الطلقات النارية؟".

انتهت خلال ما يزيد على عشر ساعات خمسمائة وخمسون طلقة نارية كانا قد جاءا بها من المدينة داخل بطن الخروف الصغير. وهكذا أصبح المسدس بين ليلة وضحاها عجوزًا متهالكًا مثل الشيخ الطاعن فى السن. وأحس جدى بأن هذا المسدس بدأ يخالف رغبته شيئًا فشيئًا، وأنه قد حان وقت التخلى عنه.

مد جدى ذراعه وراح يتأمل ضوء القمر المنعكس على جسم المسدس، ثم أرخى يده قليلاً ليسقط المسدس على الأرض.

عادت الكلاب ذات العيون الخضراء تتجمع حول الجثث، فى البداية كانت الكلاب تبدو خائفة، وقد لاح فى عيونها شعاع الخوف والترقب. وبسرعة اختفت الأعين الخضراء، وانعكس ضوء القمر على أجساد الكلاب الزرقاء، وسمع جدى وأبى صوت أسنان الكلاب وهى تنهش فى الجثث المكومة داخل الذرة.

قال أبى: "أبى، هيا بنا إلى القرية".

فتردد جدى قليلاً قبل أن يستجيب لأبى الذى سحبه من يده ومضيا نحو القرية.

كانت كمية كبيرة من ألسنة اللهب المشتعلة فى القرية قد انطفأت، وملأ الدخان سماء القرية ليشعر المارة بحرارة الجو فى كل مكان، لف الحر جميع الشوارع، وبدا الجو خانقًا، واختلطت ألسنة اللهب البيضاء والسوداء المنبعثة، وراحت تتبعث وسط أعواد الأشجار المحترقة. وكانت تصدر بعض الأصوات عن احتراق الأخشاب، كما سقط بعض من أسقف المساكن التى فقدت توازنها أمام غزو ألسنة اللهب، مخلفة وراءها كميات كبيرة من الغبار والدخان ملأ سماء القرية. وامتلأ أعلي السور الترابى وجميع الطرقات بالجثث الملقاة فى كل مكان. وهكذا فُتحت صفحة جديدة فى تاريخ قريتنا. كانت هذه القرية من قبل عبارة عن منطقة برية مقفرة، تملؤها الأعشاب والأدغال، كانت جنة للثعالب والأرانب البرية، ظهر فيها فيما بعد عدد من أكواخ الرعاة، ثم فر إليها عدد من المجرمين والصعاليك بنوا لهم بعض المساكن بالقرية وبدءوا فى استصلاح أراضيها المقفرة، حتى كشفوا عن وجه جديد لهذه القرية، فقد هجرتها الثعالب والأرانب البرية، وكنت تستمع فى بعض الأحايين إلى أصواتها عندما كانت تأتى لزيارة القرية شاكية مما فعله الإنسان بها. أما الآن فقد أصبحت هذه القرية عبارة عن منطقة أطلال، قرية

أسسها الإنسان ودمرها بيده. أصبحت عبارة عن فردوس حزين يجمع بين الأفراح والأتراح تم تأسيسه على الأطلال القديمة فحسب. وعندما حلت تلك المجاعة الكبيرة بمقاطعة شان دونغ فى عام ١٩٦٠، وعلى الرغم من أننى كنت آنذاك فى الرابعة من عمرى، كنت أشعر أن أهل ريف دونغ بيى بمدينة قاو مى يعيشون على الدوام وسط هذه الأطلال، وأنهم لن يتخلصوا يومًا من هذا التاريخ الأسود ويعيشوا فى مساكن جديدة تليق بكونهم بشرًا.

فى مساء ذلك اليوم وبعد أن خمدت ألسنة اللهب التى كانت تغطى جميع منازل القرية، كانت حجرات منزلنا التى تزيد عن عشر حجرات لا تزال مشتعلة لم تخمد نيرانها بعد. كان يصدر عن اشتعالها ألسنة لهب خضراء ورائحة نبيذ نفاذة، كانت رائحة النبيذ المعتق تنفذ وسط ألسنة اللهب. أما أحجار المنزل الزرقاء، فقد كان يتغير لونها شيئًا فشيئًا إلى اللون الأحمر الداكن تحت تأثير ألسنة اللهب، ثم كانت تتطاير مثل شذرات القنابل المتفجرة. وانعكس اللهب على شعر رأس جدى، الذى كان قد ابيض شعره الأسود الكثيف خلال سبعة أيام. وبدأت تتساقط أسقف غرفات منزلنا، بينما كانت ألسنة اللهب تنحسر بعض الوقت، ثم تعاود اشتعالها من جديد. أصيب جدى وأبى آنذاك بذعر شديد من أصوات التدمير التى كانت تعصف بالمنزل الكبير. كانا فى غاية الحزن على هذه الغرف المتجاورة التى تنهى الآن "مهمتها التاريخية" بعد أن آوت عائلة السيد دان وابنه الأبرص حتى أصبحا من أثرياء المنطقة، وآوت من بعدهم جدى هذا المجرم قاطع الطريق، ثم آوت جدى وجدتى وأبى والجد لوو خان وعمال فرن النبيذ. أعلن أننى أكره هذا الملجأ كرهًا شديدًا، لأنه فى الوقت الذى كان يأوى ويحمى الخير ومشاعر اللذة بشرب النبيذ المعتق، فإنه كان يحمى أيضًا الشر والجريمة. أبى، فى عام ١٩٥٧ وعندما كنت تختبئ داخل السرداب الداخلى فى منزل

العائلة الكبير، كنت تفكر طوال يومك فى تلك الأعوام الماضية، كنت تفكر فيما حل بهذا المنزل من دمار وخراب. كنت تفكر فى أبيك وجدى وما كان يشغله فى ذلك الحين، تخيلاتى تلاحق تخيلاتك، وتخيلاتك تلاحق أفكار جدى.

إحساس جدى وهو يرى أمام عينيه هذا الدمار الذى يصيب منزل العائلة، يشبه ذلك الإحساس الذى شعر به بعد ارتباطه بالفتاة ليان إر، عندما قرر أن يصحب فتاته إلى القرية المجاورة تاركًا جدتى تعانى آلام الوحدة، كنت قد سمعت فيما بعد أنها أعلنت بعد الحرب وارتبطت بأحد الرجال داخل الفرن، ولكننى لا أستطيع أن أجزم إن كان ارتباطها نتج عن عاطفة أم عن حقد وثأر مما لحق بها. كان جدى قد عاد فيما بعد إلى أحضان جدتى مرة ثانية، ولكن مشاعره تجاهها كانت قد تغير لونها وطعمها كثيرًا. وحيث إن معاركنا الفدائية فى الناحية العاطفية تركز أولاً على تحطيم قلب الواحد منا قبل أن يصل إلى تحطيم قلب خصمه. لم يشعر جدى بمدى قسوة العقوبة التى أعدتها له الحياة إلا عندما رأى تلك الابتسامة التى واجهته بها جدتى وهى تلفظ أنفاسها الأخيرة. كان قد بدا آنذاك فى حرصه وتعلقه وحبه لأبى تمامًا مثل طائر العقعق الذى يحرص أشد الحرص على آخر بيضة فى عشه، ولكن حرصه كان جاء متأخرا، فلقد أعد له القدر نهاية مأساوية، وهذه النهاية تنتظره عند مفرق الطريق الأمامى.

خاطبه أبى قائلاً: "أبى، لقد ضاع منزلنا".

فمسح جدى على رأس ابنه، وألقى نظرة على المنزل الذى أصابه الدمار والخراب، ثم سحب ابنه من يده ومضيا فى طريقهما إلى غير هدف محدد.

وعند ناصية القرية، استوقفه صوت عجوز وهو يسأله: "هل أنت شياو سان؟ كيف لم تأت بالعربة التى تجرها البقرة؟"

فما إن سمع جدى وأبى هذا الصوت حتى شعرا بشيء من الألفة ونسيا ما كانا يشعران به من تعب وإرهاق، ومضيا مسرعين إلى مصدر الصوت.

وهناك استقبلهما عجوز قد انحنى ظهره، وركز بصره على وجه جدى يتفحصه تفحصًا دقيقًا. كان جدى غير مطمئن لنظـرات العجـوز، وشـعر بامتعاض شديد من تلك الرائحة الكريهة المنبعثة من فمه.

عاد العجوز يجلس إلى حيث كان، وقد شعر بخيبة الأمل وهو يقـول" إنه ليس ابننا شياو سان". وكان يجلس على كومة من الأغراض المختلفـة، كان من بينها صندوق كبير ودولاب ومنضدة طعام وأدوات تـستخدم فـى الزراعة وأدوات تستخدمها البهائم وسترة قطنية بالية وقدر معدنى وغيرهـا من الأشياء.. بدا العجوز وهو يجلس فوق هذا التل من الأغراض وكأنه ذئب مرابض لحماية فريسته. أما شجرة الصفصاف التى كانت خلفه فقـد كـان مربوطًا بها عجلان من الأبقار وثلاثة رؤوس من الأغنام وأتان صغير.

أعلن جدى عن غضبه من العجوز وراح يسبه فى غضب شديد: "أيها الكلب العجوز! اغرب عن وجهى!".

فانتفض العجوز عن الكومة التى يجلس أعلاها، وراح يتودد إليه قائلاً: "يا أخى الفاضل، لا داعى لهذا الغضب الشديد، هذه الأغراض هى كل مـا استطعنا أن نتحصل عليه من وسط ألسنة النيران التى أصابت القرية!".

فسبه جدى فى غضب شديد: "انـزل عـن هـذه الأغـراض أيهـا العجوز اللعين!".

فراح العجوز يلوم جدى بلهجة مؤدبة قائلاً: "أيها الأخ الفاضل، لمـاذا تتكلم بهذا الأسلوب الفج، وأنا بداية لم أتهجم عليك ولم أثر غضبك، فكيـف تسبنى بهذا الكلام القبيح؟".

"أسبك؟ إننى سوف أذبحك ذبحًا! إننا قاومنا الغزاة اليابانيين وتصدينا لهم وأنقذنا البلاد من شرهم، وها أنتم تستغلون الفرصة وتخرجون لسرقتنا! أيها الحيوان، أيها الحيوان العجوز! يا دوو قوان، أين سلاحك؟".

فأجابه أبى: "لقد تركته أسفل بطن الحصان اليابانى!".

قفز جدى بسرعة إلى أعلى كومة أغراض العجوز، وركل العجوز ركلة أسقطته من أعلى الكومة.

فسجد العجوز على ركبتيه وراح يتوسل إلى جدى قائلاً: "العفو والسماح أيها القائد من الجيش الثامن(١)، العفو والسماح أيها القائد.".

فقال جدى: "إننى لست من أفراد الجيش الثامن أو التاسع. إننى قاطع الطريق الأشهر يو جان آو!"

"العفو والسماح أيها القائد يو، أيها القائد يو هذه الأغراض كانت ستحترق تمامًا إذا أصابتها ألسنة اللهب.. ولست الوحيد من أهل قريتى الذى قام بجمع مثل هذه الأغراض، قام هؤلاء اللصوص بالسيطرة على كل الأشياء الثمينة، أنا العجوز الضعيف تمكنت فقط من الحصول على هذه الأشياء البالية".

أمسك جدى منضدة خشبية صغيرة وألقى بها فى وجه العجوز، فتألم الرجل ألمًا شديدًا وراح يمسك رأسه التى بدأت تسيل منها الدماء بغزارة،

---

(١) الجيش الثامن: وهو الجيش الثامن من الجيش الثورى الوطنى الصينى، الذى يعرف فى اللغة الصينية بجيش با لو، وهو أصل جيش التحرير الشعبى الصينى أو الجيش الأحمر الحالى، وقد تكون الجيش الثامن فى ٢٢ من أغسطس عام ١٩٣٧ بتوحيد قوات الجيش الأول والثانى والرابع من قوات الجيش الأحمر للعمال والفلاحين الصينيين، الذى تولى قيادته آنذاك القائد والزعيم جو ده، وكان قد تغير اسمه فى سبتمبر عام ١٩٣٧ إلى السرية الثامنة عشرة، إلا أنه قد اعتاد الجميع على تسميته الجيش الثامن، وخلال الحرب الأهلية التى نشأت بين الحزب الوطنى والحزب الشيوعى فيما بين عام ١٩٤٥-١٩٤٩، أطلق عليه جيش التحرير الشعبى الصينى. (المترجم)

وراح يتلوى على الأرض من شدة الألم، فأمسك به جدى من ياقته وجذبه إليه حتى انتفض واقفًا، وخاطبه قائلاً: "أيها اللص الشجاع!"ثم أجهز عليه بلكمة قوية، فأحدثت صوتًا قويًا على وجه ذلك العجوز الضعيف، فارتمى على الأرض لا حول له ولا قوة، ثم تقدم جدى نحوه ثانية وركل وجهه ركلة قوية.

(٣)

كانت أمى قد اصطحبت خالى الصغير البالغ من العمر ثلاثة أعوام ومكثت إلى جوار بئر المياه يومًا كاملاً. صباح يوم أمس، كانت أمى قد حملت جرتين فارغتين قاصدة البئر، وما أن انحنت بظهرها لملء الجرة الأولى، رأت وجهها على صفحة مياه البئر الساكنة، ثم سمعت صوتًا قادمًا من عند السور الترابى، كان صوت العم شينغ وو أحد الحمالين يصيح بأعلى صوته: "لقد حاصر الشياطين اليابانيون القرية! لقد حاصر الشياطين القرية". ذُهلت أمى ذهولاً شديدًا، حتى سقطت من يدها الجرة إلى بطن البئر، واستدارت بسرعة فارة إلى منزلها، وقبل أن تصل إلى المنزل صادفت فى طريقها أباها وأمها التى كانت تحتضن خالى الصغير، فمنذ أن أعلنت فرقة جدى القتال عند جسر نهر موا شوى، بدأ أهل القرية يشعرون بأن هناك مصيبة كبرى ستحل بهم عما قريب، وكان من بينهم ثلاث أو خمس عائلات فقط اختفت عن المشهد تمامًا، بينما بقيت عائلات القرية الأخرى على الساحة فى انتظار الدمار والخراب الذى سيصيب القرية. وخلال تلك الأيام السبعة، كان جدى قد اصطحب أبى ونزلا إلى المدينة لشراء كمية من الطلقات النارية، كان جدى حينها يرغب فى شراء كمية كافية من الطلقات النارية

تكفى لتصفية حسابه مع القائد لينغ ماتزه، ولم يكن يتوقع قط أن يأتى الشياطين اليابانيون لغزو القرية وتحويلها إلى بركة من الدماء. وفى مساء اليوم التاسع من شهر أغسطس، كان السيد جانغ روا لو - ذلك الرجل المثقف الذى لعب دورًا محوريًا فى دفن الجثث التى امتلأت بها طرقات القرية، - الرجل الطموح الذى كانت إحدى عينيه كبيرة والأخرى صغيرة، كان قد جمع الأهالى فى اجتماع طارئ ليلة التاسع من أغسطس، وعبأهم بضرورة تدعيم السور الترابى الذى يلف القرية وصيانة الباب الكبير، وضرورة أن يكون هناك من يسهر فى نوبات ليلية للحذر وإيقاظ الأهالى عند ملاحظة أى هجوم على القرية. كان الأهالى ما إن يستمعوا إلى الصوت الذى يصدر من باب القرية الكبير، حتى يهبوا رجالاً ونساءً أطفالاً وشيوخًا إلى السور الترابى للاستعداد لملاقاة العدو، كانت أمى قد ذكرت أن صوت السيد جانغ فى ذلك الحين كان يبدو صوتًا جهوريًا خشنًا، كان يقف ويصيح قائلاً: "أيها الأهالى، إذا توحدنا معًا فسيكون بإمكاننا تحريك جبل تاى شان الشامخ، ولن نتمكن من حماية قريتنا من هجوم الشياطين اليابانيين، إلا إذا توحدنا معًا وقاتلنا بقلب رجل واحد".

كانت أصوات الطلقات النارية قد بدأت تدوى فى الحقول الواقعة خارج حدود القرية، وتدافع على إثرها رجال القرية نحو السور الترابى ليرابضوا عنده. وبدأ الهرج والمرج يسيطر على جميع ما فى القرية من بشر وحيوانات. أما السيد جانغ روا لو فقد وقف فى منتصف الطريق وراح يصيح فى الأهالى قائلاً: "أيها الأهالى، احذروا الفوضى! وتحركوا وفق الخطة التى رسمناها معًا، واندفعوا بسرعة إلى السور الترابى! أيها الأهالى، لا تخشوا الموت، فإن من يخشاه سيلاقيه، ومن يواجهه بشجاعة سينجو منه! ولن نتركوا الفرصة أمام الشياطين اليابانيين حتى لو تعرضتم للموت!"

رأت أمى رجال القرية وهم يتدافعون نحو السور الذى أشار إليه المنادى، ورأت أمها التى كانت واقفة أمامها وقد أصابها الرعب الشديد من هول الموقف، وقفت فى مكانها ثابتةً لا تقوى على أن تخطو خطوة إلى الأمام. فراحت تصيح باكية: "أبتاه، يا أبتاه، ماذا ستفعل صغيرتك؟" فجاءها أبوها وهو يحمل بندقيته، وراح يوبخ زوجته بلهجة قاسية: "ما الذى يبكيكن؟ بوصولنا إلى هذا المكان أصبح الموت والحياة سيان بالنسبة لنا جميعًا! "، لم تقو الزوجة على أن تنبس ببنت شفة، وراحت الدموع تتساقط من عينيها. فراح أبوها ينظر خلفه إلى السور الترابى الذى لم تصل إليه ألسنة اللهب بعد، ثم مد يديه ليجذب أمى بيد وزوجته باليد الأخرى، وسحبهما خلفه حتى وصلوا إلى الحقل المزروع بالفجل والخس خلف مسكن العائلة. كان فى وسط ذلك الحقل بئر قديمة، لا يزال أعلاها بكرة قديمة لجلب المياه من بطن البئر. فراح الرجل ينظر إلى داخل البئر، ثم خاطب زوجته قائلاً: " البئر خالية من المياه، فلنضع ابنتنا داخل البئر، ولنعد لالتقاطها فور مغادرة الشياطين للقرية". فوقفت الزوجة جامدة فى مكانها مستسلمة استسلامًا تامًا لأوامر زوجها.

وهكذا بدأ جدى لأمى فى فك الحبل من الرافعة التى كانت موجودة أعلى فوهة البئر، وربط به خصر أمى، ثم سمع صوتًا عاليًا يرن إلى جواره، فإذا شيء أسود اللون يسقط داخل حظيرة حيوانات الجيران، كان الصوت مدويًا وكأن المنزل قد سقط بأكمله، فإذا به يرى ألسنة اللهب تمتد إلى شجرة داخل الحظيرة، وقد تطايرت إليه بعض من بقايا نفايات الحيوانات وأشلاء الأغنام، ثم سقط خروف أمام أمى، أحدث سقوطه صوتًا مدويًا، كانت أول مرة تسمع أمى البالغة من العمر خمسة عشر عامًا صوت قذيفة. أما الحيوانات التى لم تتعرض للموت، فقد راحت تقفز إلى خارج الحظيرة

وكأنها قد أصيبت بالجنون. فغرقت أمى وخالى الصغير فى نوبة بكاء شديد. قال جدى لأمى موضحًا: "لقد أطلق الشياطين اليابانيون مدافعهم! يا صغيرتى تشيغ إر، لقد بلغت الخامسة عشرة من عمرك وأصبحت كبيرة تفهمين كل شيء حولك، فلتهتمى بأخيك الصغير فى بطن البئر، وبمجرد أن ينسحب الشياطين، سآتى لأصحبكما إلى المنزل". استمرت قذائف الشياطين تدوى فى سماء القرية، وأمسك جدى لأمى بالرافعة وأنزل أمى إلى داخل البئر. فراحت قدمها تصطدم بحواف البئر وهى تنزلق إلى الأسفل حتى استقرت ببطن البئر، ثم سمعت أباها يناديها بصوت عال: "فكى الحبل عن خصرك". فقامت أمى على الفور بفك الحبل الذى كان مربوطًا حول خصرها، ثم راحت تراقب الحبل بينما يسحبه أبوها إلى أعلى. ثم سمعت بعد ذلك صوت شجار بين أبيها وأمها هناك عند فوهة البئر، وسمعت صوت القذائف اليابانية وصوت بكاء أمها، ثم رأت وجه أبيها وسط الضوء المشع حول فوهة البئر، كان الأب يصيح قائلاً: "يا صغيرتى تشينغ إر، فلتستعدى جيدًا لاستقبال أخيك الصغير"، نظرت أمى إلى أعلى فإذا بها ترى خالى الصغير البالغ من العمر ثلاثة أعوام وهو ينزل إليها مربوطًا بالحبل، لا يتوقف عن البكاء بصوت مسموع، بينما كان الحبل يهتز بشدة. وأصدرت الرافعة صوتًا مسموعًا، فإذا بجدى لأمى يقترب من فوهة البئر وينظر إلى أسفل، ثم راح يصيح باسم خالى الصغير قائلاً: "يا آن تزه، يا صغيرى آن تزه"، ورأت أمى جيدًا قطرات الدمع التى كانت تنزل من عينى جدى لأمى. وأخيرًا وصل الحبل إلى قاع البئر، وسقطت قدما خالى إلى أرض البئر، وراح يبكى بصوت عال مناديًا على أمه وأبيه قائلا: "أماه، أريد الصعود ثانية، لا أريد الهبوط إلى هذا المكان، أريد الصعود يا أماه".

ثم رأت أمى أمها وهى تسحب الحبل بشدة، وسمعت صوت بكائها وهى تقول: "يا صغيرى آن تزه.. يا قلبى.. يا ابنى الحبيب".

رأت أمي يدى أبيها الكبيرتين وهما تسحبان أمها بعيدًا، بينما كانت الأم لا تزال تتشبث بالحبل رافضة أن تفلته من بين يديها، فدفعها الأب دفعة قوية، حتى سقطت على الأرض وتخلت عن الحبل، وهنا سقط خالى الصغير فى حضن أمى.

ثم سمعت أمى صوت أبيها وهو يصيح بصوت عال موبخًا أمها: "أيها السفيهة! هل تريدين أن يصعدوا إلينا لانتظار الموت معنا؟ فلتسرعى إلى السور الترابى، فإذا دخل الشياطين القرية، فإنه لن يبقى أحياء بين أهل هذه القرية!"

سمعت أمى صوت نحيب أمها وهى تنادى على طفليها قائلة: "يا صغيرتى تشينغ إر، يا صغيرى آن تزه، يا تشينغ إر، يا آن تزه"، ثم عاد صوت القذائف من جديد، كان هذه المرة صوتًا قويًا تساقطت على إثره كتل من التراب المتجمع على حواف البئر. وبمجرد أن سكت صوت القذائف غاب صوت جدتى لأمى، وغاب كل شىء عن أمى وخالى الصغير فيما عدا صفحة السماء الكبيرة والرافعة القديمة أعلى سطح البئر.

كان خالى لا يزال يبكى أمه وأباه، فراحت أمى تفك الحبل الملفوف حول خصره، وتداعبه قائلة: "أخى وحبيبى آن تزه، لا تبك هكذا، فإن بكاءك هذا قد يأتى إلينا بالشياطين، فما أقسى قلوبهم، وإنهم سيخرجون علينا من معاقلهم إذا ما سمعوا بكاءك".

سكت خالى عن البكاء، وراح ينظر إلى وجه أمى بعينيه السوداوين. بينما لم تكن حنجرته قد توقفت عن إصدار الصوت بعد، ثم مد يديه الصغيرتين ولفهما حول أخته متشبثًا بها. واستمر دوى القذائف والرشاشات فى كل مكان، كانت تنطلق على دفعات. فرفعت أمى وجهها تنظر إلى السماء البعيدة، وراحت تجهد نفسها لتستمع إلى الحركات المحيطة بسطح البئر، حتى

استطاعت أن تستمع إلى صياح الجد جانغ روا لو وأصوات الأهالى من حوله. كان قاع البئر جافًا تمامًا مظلمًا باردًا، تهدمت قطعة من حوافه لتكشف عن الجدار الترابى الأبيض وبعض من جذوع الأشجار المستخدمة فى جدرانه. كانت هناك بعض الطحالب الخضراء تنمو بين كتل الأحجار التى لم تتساقط بعد. وقد راح خالى يهتز فى حضن أمى ثم عاود البكاء قائلاً: "أختى الحبيبة.. أريد العودة إلى أمى.. أريد الصعود من هنا".

راحت أمى تهدئ من روع أخيها الصغير قائلة: "أخى الحبيب آن تزه.. لقد ذهبت أمك بصحبة أبيك لمقاتلة الشياطين اليابانيين، وبمجرد أن يتمكن الجميع من طرد الشياطين فسوف يأتون إلينا ويصحبوننا إلى المنزل". وهنا لم تتمالك أمى نفسها وراحت تبكى وهى تحتضن أخاها بشدة.

وعرفت أمى من خلال فتحة البئر المؤدية إلى السماء أن الصبح قد تنفس، والليل قد أدبر، كان البئر حينها ساكنًا إلى درجة الخوف الشديد من سكونه وظلمته، ثم رأت شعاعًا أحمر ينعكس على سطح البئر البعيد عنها كثيرًا، وهنا عرفت أن الشمس قد طلعت. وراحت تستمع إلى أى صوت قريب منها، كانت القرية آنذاك ساكنة تمامًا مثل البئر الذى تحتمى فيه، فقط كانت تتخيل صوت الرعد الذى كان يضرب فى السماء بين الحين والآخر، ولم تكن تعرف هل سيأتى أبوها وأمها إلى هنا فى هذا اليوم الجديد، ليصحباها وأخاها الصغير إلى المنزل وينقذاهما من هذه الوحدة، يأخذانهما إلى ذلك العالم المضيء الذى تملؤه أشعة الشمس المبهرة، إلى ذلك العالم الخالى من الأفاعى المخيفة والضفادع السوداء النحيفة. بدا لها أن ما حدث صباح الأمس قد حدث منذ زمن بعيد جدًا، وشعرت أنها قد مكثت فى هذا البئر زمنًا طويلاً، ومضت تفكر فى صمت وهى تتحدث إلى نفسها قائلة، والدىّ إنكما

إذا لم تأتيا لإنقاذنا، سنموت فى بطن هذا البئر المخيف. كانت أمى تشعر بالكره الشديد تجاه والديها اللذين ألقيا بطفليهما فى هذا البئر ثم اختفيا عنهما تمامًا، ولم يشغلهما إذا ما كانا على قيد الحياة أم فارقا الحياة فى بطن البئر. ومضت تفكر أنها إذا ما قابلتهما فإنها حتمًا ستنفجر فى البكاء الشديد، حتى تفرغ ما بداخلها من شعور بتعرضها وأخيها الصغير للظلم. وكيف كان بإمكان أمى أن تعرف أنها فى الوقت الذى كانت تفكر فيه فى كره والديها وشعورها بأنهما ظلماها وأخاها الصغير، لم تكن تعرف أن أمها كانت فى تلك الأثناء قد أصابتها إحدى القذائف اليابانية وقسمتها إلى أشلاء، ولم تكن تعرف أيضًا أن أباها كان قد تعرض عندما ظهر جسده خارج السور الترابى لطلقة من أحد الشياطين اليابانيين أصابت رأسه (كانت أمى قد أخبرتنى أن الجنود اليابانيين كانوا رماة بارعين قبل عام ١٩٤٠).

راحت أمى تتضرع فى صمت قائلة: "أبى! أمى! فلتأتيا فى أسرع وقت، إننى أشعر بالجوع والعطش الشديد، مرض أخى الصغير، إذا لم تأتيا لإنقاذنا فإننا حتمًا سنهلك!

وسمعت أمى صوت بوق ضعيف أعلى السور وربما بعيد عن السور، وبعد أن سكت الصوت، سمعت رجلاً يصيح قائلاً: "هل لا يزال هناك أناس آخرون، هل لا يزال هناك أناس آخرون، لقد انسحب اليابانيون، ولقد جاء القائد يو"

وهنا احتضنت أمى أخاها الصغير ووقفت منتفضة، وراحت تصيح فى صوت مبحوح: "نعم يوجد، يوجد أحياء فى هذا المكان، إننا فى بطن البئر، فلتسرعوا لإنقاذنا"، كانت أمى تصيح بصوتها المبحوح وهى تحاول هز بكرة البئر بإحدى يديها، وبعد أن شعرت بالتعب أفلتت يدها الأخرى من حول أخيها الصغير ليسقط على الأرض، ثم راح الطفل يتنهد بشدة حتى انقطع

صوته تمامًا. فاستندت أمى إلى سور البئر، وسقط جسدها كاملاً إلى جانب السور حتى أصبحت وكأنها جثة هامدة ملقاة أعلى كومة من الطوب، وعندها شعرت بيأس شديد.

وراح أخوها الصغير يتسلق على ركبتها، ثم خاطبها بصوت خال من المشاعر قائلاً: "أختاه.. أريد أمى".

شعرت أمى بحزن شديد، ثم مدت يديها وضمت أخاها فى حضنها وقالت له: "يا آن تزه.. إن أبانا وأمنا تخليا عنا.. وسوف نموت معًا فى بطن هذا البئر".

فارتجف الطفل وسرت سخونة شديدة فى جسده، حتى أحست أمى وهى تحتضنه وكأنها تحتضن موقدًا من الفحم.

"أختى الكبرى.. أشعر بالعطش".

نظرت أمى إلى أحد أركان البئر، وانتبهت إلى بركة صغيرة من الماء المتسخ، ولاحظت أن ذلك المكان كان أعلى وأشد ظلمة من المكان الذى تجلس فيه. ورأت ضفدعًا نحيفًا يرقد وسط الماء، ثم انتبهت إلى أن الضفدع ينظر إليها غاضبًا. فراحت أمى تجمع كل قوتها، وأغلقت عينيها. كانت هى الأخرى تشعر بالعطش الشديد، ولكنها كانت ترى أنها لن تقبل الشرب من هذه المياه القذرة حتى لو ماتت من العطش.

وكانت حرارة جسم خالى الصغير قد بدأت فى الارتفاع من بعد ظهر الأمس؛ لم يكن قد توقف عن البكاء منذ أن وطأت قدمه بطن البئر، وقد بكى بكاءً شديدًا حتى راح صوته، وبدا مثل القط الصغير الذى شارف على لفظ أنفاسه الأخيرة.

في صباح يوم أمس، عاشت أمي في ذعر واضطراب شديد، وكان مصدر الذعر أصوات القذائف القادمة من القرية القريبة، أما سبب اضطرابها فقد كان خوفًا على حالة أخيها الصغير التي بدأت تسوء كثيرًا، كانت أمي ذات الخمسة عشر عامًا تتمتع ببنية جسدية ضعيفة، مما جعلها تتألم كثيرًا من حمل أخيها الصغير في الأوقات العادية، فما بالها الآن وهي تسعى جاهدة للصعود به إلى سطح البئر، وكانت قد ضربته ضربة خفيفة على مؤخرته، فردها لها خالي النذل عضة قوية تخلو من أدنى عاطفة تجاهها.

وبعد أن ارتفعت حرارة خالي، وبدأ يشعر بالإغماء المتواصل، احتضنته أمي وجلست إلى جدار البئر، جلست وقد صارت منهكة القوى شاردة الذهن. كان صوت القذائف لا ينقطع. وبدأ ضوء الشمس ينحسر شيئًا فشيئا عن الجدار الغربي للبئر ويسطع على الجدار الشرقي، حتى بدأ الظلام يملأ بطن البئر. وكانت أمي تعرف جيدًا أنها قد مكثت في بطن البئر طيلة يوم كامل، وأنه لابد أن يكون حان الوقت ليأتي والداها لإنقاذها وأخيها من هذه المحنة. فمدت يدها وراحت تمسح على وجه أخيها الصغير، وأحست بأن حرارته قد ارتفعت كثيرًا، ثم وضعت يدها على قلبه لتستمتع إلى دقات قلبه المضطربة. مضت تفكر لبعض الوقت أن أخاها قد شارف على الموت، وعندها سرت في جسدها رعشة شديدة، فراحت تبعد هذه الفكرة عن بالها قدر استطاعتها، ثم راحت تواسي نفسها قائلة: "لقد حان الوقت، لقد حان الوقت، لقد أوت العصافير إلى أعشاشها، واقترب موعد مجيء أبي وأمي.

تحول الضوء المنعكس على جدران البئر إلى اللون البرتقالي ثم إلى اللون الأحمر الغامق، وسُمع صوت صرصار هنالك بين جدران البئر، وبدأت تتحرك جماعة من البعوض المندس داخل شقوق الجدران. وفي تلك الأثناء، كانت أمي قد سمعت صوت القذائف تدوي بالقرب من السور

الترابى، وسمعت هرجا كبيرا فى الناحية الشمالية من القرية، أعقبه صوت الرشاشات يدوى فى الناحية الجنوبية. وهنا عمت الفوضى جميع أرجاء القرية، وسمعت صوت جماعات غفيرة من الخيول والبشر تدك الأرض حول البئر، سمعت أمى أيضًا صوت صياح اليابانيين. وهنا لم يتمالك خالى الصغير نفسه من شدة الألم، فراح يتنهد بصوت مسموع، فسارعت أمى ووضعت يدها على فمه ليسكت عن إصدار الصوت، حاولت هى أن تكتم أنفاسها قدر استطاعتها. وأحست أن وجه أخيها يتحرك تحت قبضتها، وسمعت صوت نبضات قلبها التى كانت تدق دقات سريعة. وتلاشى بعد ذلك الضوء الذى كان ينعكس على بطن البئر، فراحت تنظر من فوهة البئر إلى صفحة السماء العالية. وسمعت صوت القذائف ورأت الأتربة تتطاير إلى داخل البئر، وسمعت أصوات الأطفال والنساء الذين أرعبهم صوت القذائف فراحوا يبكون بصوت مرتفع، كما سمعت أصوات أغنام وأبقار تشاركهم البكاء والإحساس بالرعب الشديد الذى سيطر على المكان. وعلى الرغم من أنها كانت تقبع فى بطن البئر، فإنها شمت رائحة تلك الحيوانات الكريهة.

لا تذكر أمى المدة التى قضتها وهى ترتجف تحت دوى القذائف حولها، كان مفهوم الزمن قد اختفى من قاموسها، ولكنها كانت تعى جيدًا كل ما حدث لها خلال الساعات الماضية. عرفت من خلال تلك الفتحة أن النيران المشتعلة قد بدأت تخمد تدريجيًا. بدأ ضوء النيران ينعكس على جدران البئر، كانت قد سمعت فى البداية أصوات القذائف تدوى فى القرية وأصوات سقوط المنازل، حتى هدأت تلك الأصوات وعم السكون. ثم لاحت فى سمائها المظلمة عدد من النجوم.

كانت أمى تنام وتستيقظ وسط ذلك الجو البارد فى بطن البئر، كانت عيناها قد تكيفت مع ظلمة البئر، شعرت بالدوار الشديد عندما رفعت عينيها

ونظرت إلى صفحة السماء أعلى سطح البئر. كانت رطوبة البئر قد جففت ملابسها، حتى أصيبت بالبرد الشديد، وراحت تحتضن أخاها بشدة، كانت حرارته قد بدأت تنخفض منذ منتصف الليل، ولكنها كانت على أى حال أعلى من حرارة جسمها بكثير. راحت أمى تحصل على الدفء من جسد خالى، بينما كان هو يحصل على البرودة من جسدها، وهكذا ارتبطت حياتهما معًا خلال تلك المدة الطويلة التى قضياها معًا فى بطن البئر، وفى ذلك الحين لم تكن أمى تعرف أن والديها قد توفيا منذ وقت طويل، كانت ما تزال تتطلع لرؤيتهما وسماع صوتهما يرن داخل البئر. وإلا فإنها حقًا لا تعرف إذا ما كانت تستطيع الصمود داخل البئر ثلاثة أيام وثلاث ليال أخرى.

عندما أعيد النظر إلى تاريخ عائلتى، أكتشف أن جميع الشخصيات المحورية فى هذا التاريخ كانت تربطها علاقة متشابكة بالأماكن المظلمة. كانت البداية من أمى، ووصلت إلى ذروتها عند جدى لأبى، الذى حطم الرقم القياسى فى ذلك، إلى أن كانت النهاية عند أبى. الذى كان بإمكانه أن يلوح فى الظلام بذراعه الوحيد ويخطو نحو أمى وأخى الأكبر وأختى الكبرى ونحوى شخصيًا.

سرت البرودة فى أطراف أمى، بينما كانت تشعر بسخونة شديدة من داخلها، ولم تقدم على أى طعام أو شراب منذ صباح يوم أمس، بدأت تتألم من الشعور بالعطش الشديد منذ امتداد النيران إلى القرية فى مساء أمس. ووصلت ذروة الشعور بالعطش فى منتصف الليل. وقبيل طلوع الصباح، كانت قد بدأت تشعر بألم شديد فى معدتها. والآن بمجرد أن تفكر فى الإقدام على الطعام، يغالبها الشعور بالغثيان. أصبح الشعور بالعطش الشديد أخطر شعور تعجز عن تحمله، أصبحت تشعر بأن رئتها تحولت من شدة العطش إلى ورقة من أوراق أعواد الذرة الجافة الذابلة، وأصبحت تشعر بألم شديد

فى حنجرتها. كان أخوها الصغير يحرك شفتيه المتشققتين من شدة العطش قائلاً: "أختاه.. إننى عطشان."، ولم تعد أمها قادرة على مجرد النظر لوجه خالى الصغير الذى بدت عليه ملامح الذبول الشديد، ولم يعد لديها أية كلمات تواسيه بها. وفى مساء أحد الأيام، كانت قد ضاعت جميع الآمال التى وعدت أمى بها أخاها الصغير، حيث إن تأخر والديهما وعدم مجيئهما حتى الآن جعلها تكذب على أخيها المسكين وعلى نفسها. وكانت قد اختفت أصوات الأبواق التى كانت تسمعها تدق فى القرية، وسكتت الكلاب عن النباح. ووسط ذلك السكون مضت أمى تفكر فى أن والديها ربما يكونان قد تعرضا للموت، وربما يكونان قد تعرضا للأسر من قبل القوات اليابانية. وشعرت بحرقة شديدة فى مقلتيها، إلا أنها لم تذرف الدموع، وهكذا بدأت أمى تتضج وهى ترى أخاها المسكين يتوجع أمام عينيها. فراحت تتناسى بشكل مؤقت الآلام الجسدية، ورفعت أخاها ووضعته أعلى قطعة من الطوب ووقفت تدقق النظر فى جدران البئر. كانت جدران البئر جافة تمامًا، إلا أن الطحالب التى كانت تنمو بين الجدران بدت خضراء، ولكنها لا يمكن أن تروى عطشهما أو أن تكون طعامًا يسد جوعهما. جلست أمى القرفصاء، وراحت تسحب قطعة وراء قطعة من الطوب، بدا الطوب ثقيلا جدًا وكأنه كان مشبعًا بالماء، وهنا أطلت عليها حشرة أم أربعة وأربعين حمراء من بين جدران البئر، فراحت أمى تراقبها وهى تصعد إلى أعلى حيث كانت ترقد الضفادع باحثة عن أى فتحة تحتويها. لم تعد أمى تجرؤ على تحريك الطوب كما لم تعد تجرؤ على الجلوس؛ حيث إن الموقف المخزى الذى كانت قد تعرضت له صباح الأمس قد جعلها تنتبه لأنوثتها.

بعد زواجى، كانت أمى قد تحدثت مع زوجتى عن الموقف الذى تعرضت له آنذاك فى بطن البئر، كانت أول دورة شهرية تتعرض لها.

وكانت زوجتى قد أخبرتنى عن مدى التعاطف الذى أظهره الجميع تجاه أمى التى كانت تبلغ آنذاك الخامسة عشرة من عمرها.

وهكذا اضطرت أمى أن تعلق آخر آمالها على تلك المياه القذرة التى كانت ترقد بها الضفادع. وعلى الرغم من أن صورة تلك الكائنات كانت تجعلها تشعر بالخوف والاشمئزاز، فإنها كانت تدرك جيدًا أن تلك الكائنات تحتل مساحة ممتلئة بالمياه. إن الشعور بالعطش الشديد والذبول الذى أصاب أخاها المسكين من نقص المياه، قد جعلها تضطر للتفكير ثانية فى هذه البقعة من المياه القذرة. كان كل شيء كما كان عليه بالأمس تمامًا، كانت الضفادع لا تزال قابعة فى مكانها لا تتحرك، محافظة على هيئتها التى كانت عليها بالأمس، لا تزال تقترب من أمى وتنظر إليها تلك النظرات الغريبة التى جعلت أمى تشعر بالخوف الشديد من تلك الكائنات. وفجأة اختفت الشجاعة التى كانت تتمسك بها أمى فى محنتها، شعرت فجأة أن نظرات الضفدع تكاد تكون سهامًا حادة تخترق جسدها النحيف. فأشاحت عنها بوجهها، وأحست أنه من الصعب عليها التغاضى عن التفكير فى صورة هذا الكائن المخيف الذى يكاد يحملها على الصراخ بأعلى صوت علها تجد من ينقذها منه.

وأدارت أمى وجهها ثانية، ومضت تنظر إلى أخيها الصغير الملقى إلى جوارها بين الحياة والموت، وأحست بحرارة شديدة تخترق صدرها وحرارة أشد تكتم على حنجرتها. وفجأة اكتشفت بعضًا من نبات عيش الغراب الأبيض ينمو داخل الفجوات التى تتخلل جانبًا من سور البئر. فأحست أن قلبها يدق دقات سريعة من شدة الفرح، فمدت يدها بحذر شديد إلى داخل تلك الفجوات والتقطت نباتات عيش الغراب، وما إن رأت بعينيها هذا الشيء الصالح للأكل حتى شعرت بألم فى معدتها، وأخذت بأول نبتة من عيش الغراب وألقت بها فى فمها حتى ابتلعتها بسرعة شديدة، وأحست بأنها حلوة المذاق، وأنها كانت مغرية لها كثيرًا. فأخذت بالنبتة الثانية وألقت بها داخل

فمها. وهنا سمعت صوت أخيها المسكين. فراحت تواسى نفسها: من المفروض أن أبدأ بإطعامك بهاتين النبتتين من عيش الغراب، ولكننى خشيت أن تكون هذه النباتات مسمومة، فقررت أن أجربها بنفسى، أليس كذلك؟ نعم إنه كذلك. فأخذت نبتة وألقت بها فى جوف أخيها، فراح الصغير المسكين يمضغها بشدة وهو ينظر إلى أمى بعينيه المتعبتين. فراحت تشجعه قائلة: "يا أخى آن تزه، فلتأكل هذا الطعام الجيد الذى استطاعت أختك أن توفره لك". وراحت تمسك ببعض عيش الغراب وتلوح به أمام عينيه. بينما كان خالى يحرك وجنتيه وكأنه يستمر فى مضغ الطعام الذى ألقت به داخل فمه. وهنا تشجعت أمى وألقت بنبتة جديدة فى فمه، فسمعت صوت سعاله، ثم إذا به يقذف الطعام إلى خارج فمه ثانية. ورأت شفتيه وقد تشققتا، ثم ألقى بنفسه أعلى بعض قطع الطوب غير المستوية جثة هامدة لا تكاد تكون قادرة على التقاط الأنفاس.

وهكذا انتهت أمى فى عجالة من أكل ما يزيد على عشر نبتات من عيش الغراب، حتى عادت إليها الروح ثانية بعد أن كانت منهكة تمامًا من شدة الجوع والعطش، ثم بدأت بطنها تصدر بعض الأصوات التى غابت عنها منذ دخول البئر. ونزل من جسمها أكبر كمية وآخر كمية من العرق منذ النزول إلى بطن البئر، وأحست بأن ملابسها الخفيفة مبللة. ثم أحست بأن ركبتيها أصبحتا مخدرتين لا تقويان على الحركة، وبدأت جميع أطرافها ترتعش، وقد سرت برودة البئر فى جسدها كاملاً. وهنا سقطت أمى إلى جوار أخيها الصغير، وأصيبت بالإغماء للمرة الأولى فى ظهر اليوم الثانى لنزولها البئر.

أفاقت أمى عند غروب شمس اليوم الثانى. رأت حمرة شمس الغروب من خلال جدار البئر من الناحية الشرقية. حيث حجبت الرافعة القديمة ضوء الشمس، لتكشف عن شعور متناقض. وكانت تسمع باستمرار أصوات طنين

النحل يرن فى أذنيها، يخالطه صوت وقع أقدام بشرية أعلى سطح البئر، كانت لا تعرف إذا ما كان هذا الصوت صوتاً حقيقيا أم من وحــي خيالهــا، وقــد أصبحت الآن منهكة القوى غير قادرة على الصراخ والصياح، أرهقها الشعور بالعطش الشديد، حتى إنها كانت عاجزة عن أن تأخذ نفسًا عميقًا، وكانت تتألم كثيرًا من ذلك. بينما كان خالى الصغير ملقى هنالك أعلى كومة الطوب، حتى كاد أن يتحول تدريجيًا إلى ورقة من أوراق أعواد الذرة الذابلة، ومــا إن رأت أمى هيئته وعينيه الغائرتين، عرفت أن شبح الموت قد بدأ يقترب مــن بطــن البئر.

مضت الليلة الثانية فى بطن البئر بسرعة شديدة، قضت أمى الليلة فى حالة غير مستقرة. كانت قد حلمت أكثر من مرة أن لها جنــاحين وراحــت تطير عالية تحوم حول فوهة البئر، كان البئر عميقًا جدًا. وفى منتصف الليل، كانت قد تيقظت فترة قصيرة، فراحت تتلمس جسد أخيها البارد جدًا، ولم تعد تجرؤ على التفكير فى إمكانية أن يكون أخوها المسكين قد فــارق الحيــاة، ومضت تفكر فى أنها قد أصابتها حرارة عالية. وانعكس شعاع من الــضوء على بطن البئر، ليضيء بقعة المياه الخضراء، وهنا بدا الضفدع وكأنه مثل قطعة من الجواهر الثمينة، لاحظت عينيه وجلده يلمعان بشدة تحــت أشــعة الضوء، بينما بدت المياه المحيطة به جميلة مثل أحجــار اليــشم الأخــضر الجميل. وأحست أمى حينها أنها قد غيرت رأيها فى تلك الكائنات، ورأت أنه يمكن أن تتوصل معها إلى اتفاق، فمدت يدها وأخذت حفنة ماء مــن أســفل الضفدع. ومضت تفكر فى أنها لو سمعت غدًا وقع أقدام أعلى سطح البئــر، فإنها بالتأكيد ستقوم بإلقاء قطعة حجر إلى أعلى سطح البئر، حتى ولو كــان هذا الصوت صوت وقع أقدام جنــود يابــانيين أو مــن الجنــود التــابعين للإمبراطور، فإنها بالتأكيد ستقدم على ذلك لكى تلفت انتباههم إليهــا داخــل بطن البئر.

وطلعت شمس صباح اليوم التالى، كانت أمى قادرة على تمييز جميع الكائنات والأشياء الدقيقة فى بطن البئر، وقد تحول هذا المكان جليًا أمام عينيها. واستغلت تلك الحيوية التى كانت تتمتع بها فى فترة الصباح، واقتلعت بعض الطحالب ووضعتها فى فمها، كانت رائحة الطحالب غريبة بعض الشيء إلا أنها كانت لذيذة. ولكنها لم تتمكن من بلعها حيث كان حلقها قد جف تمامًا من شدة العطش، فوجهت نظرها إلى بركة المياه القذرة فى بطن البئر، وهنا عاد الضفدع إلى هيئته الأولى وراح يرمقها بنظراته الشريرة. فلم تستطع أن تتحمل نظراته الشريرة المخيفة، فأشاحت عنه بوجهها وانخرطت فى البكاء.

وفى وقت الظهيرة استمعت إلى وقع أقدام حقيقية أعلى سطح البئر، بل استمعت إلى صوت حوار بين أشخاص قريبين منها، عندها شعرت بسعادة بالغة حتى كادت تطير من شدة الفرحة، وحاولت أن تصيح بأعلى صوتها، ولكن يبدو إن أحدًا كتم صوتها فلم تستطع تنفيذ رغبتها فى الصياح والتعبير عن سعادتها. وأمسكت بقطعة طوب لكى تقذف بها إلى أعلى سطح البئر، ولكن ما إن رفعتها إلى أعلى حتى سقطت قطعة الطوب من يدها. لقد ضاعت الفرصة، انتبهت إلى أن الصوت الذى سمعته أعلى سطح البئر قد ابتعد عنها كثيرًا. فجلست إلى جوار أخيها المسكين وقد لفها حزن شديد من ضياع هذه الفرصة، وراحت تنظر إلى وجهه الشاحب، حتى عرفت أنه قد فارق الحياة. فوضعت يدها على وجهه البارد، فأحست على الفور بشيء من الاشمئزاز، نعم لقد باعد الموت بينها وبين أخيها الوحيد، والضوء الذى ينعكس من عينيه شبه المغلقة قد أصبح يعبر عن عالم آخر غير هذا العالم الذى تنتمى إليه.

وهكذا قضت تلك الليلة فى رعب شديد. شعرت بأنها ترى أفعى سوداء كبيرة الحجم مثل المعول، انعكست ظلمة البئر وبرودته على تلك الحية، شعرت أكثر من مرة أن الحية تتسلق جسدها النحيف وترمى إليها من فمها برسالة حمراء، وتنفث تجاهها نسمات باردة.

كانت أمى قد شعرت بعد ذلك أن الحية بدأت تتسلق جدران البئر، وراحت تحدق فيها. أغمضت أمى عينيها وراحت تتراجع إلى الخلف مبتعدة عن الحية، ولم تعد بعدها تفكر أدنى تفكير فى الشراب من تلك المياه القذرة.

(٤)

أما الأشخاص الستة الذى كانوا قد نجوا من تلك الكارثة الكبيرة بمن فيهم أبى والعم وانغ قوانغ (كان حينها شابًا فى الخامسة عشرة من عمره، ذا قامة قصيرة ووجه أسمر)، والعم ده جه (شاب فى الرابعة عشرة من عمره، طويل نحيف ذو بشرة صفراء وعينين صفراوين)، والجد قوو يانغ (رجل فوق الأربعين، أعرج يستند على عكازين خشبيين)، والرجل الضرير (شخص مجهول الاسم والعمر، كان يحتضن عودًا قديمًا متهالكًا)، والجد ليو (رجل فوق الأربعين ذو بنية قوية وقامة عالية، وكان يظهر ورم ما فى قدميه)، نقول إن هؤلاء الأشخاص الستة فيما عدا الرجل الضرير راحوا ينظرون إلى جدى نظرات حمقاء. كانوا قد وقفوا أعلى السور الترابى وقد انعكست على وجوههم شمس الصباح. وكانت المنطقة المحيطة بالسور قد بدت ممتلئة بجثث المقاومين الشجعان والمهاجمين من أبناء القرية الذين كانوا قد انقضوا لمهاجمة العدو بطريقة جنونية. أما الخندق الممتلئ بالمياه خارج السور الترابى، فقد ظهرت به عشرات الجثث وبعض من الخيول اليابانية

التى سقطت خلال المعركة. كانت القرية قد امتلأت بآثار الدمار والخراب فى جميع أرجائها، أما خارج حدود القرية فقد كانت تمتد حقول الذرة التى تم تدميرها بشكل فوضوى خلال المعركة، كانت الرائحة الأساسية التى ملأت جميع الأرجاء فى ذلك اليوم هى رائحة الدم والأشياء المحترقة، بينما كان اللون الأسود والأحمر هما اللونان الأكثر انتشارًا فى ذلك اليوم، وقد عم الجميع شعور بالحزن والأسى.

بدت عينا جدى محمرة، وشعر رأسه بدا وكأنه قد شاب عن آخره، يسير منحنى الظهر واضعًا يديه المتورمتين على ركبتيه.

وراح جدى ينادى فى الجمع بصوت متحشرج: "أيها الأهالى..، لقد تسببت لجميع أهل القرية فى هذه الكارثة.".

فتنهد الأهالى فى صوت واحد، حتى الجد الضرير بدت عيناه وكأنها توشك أن تذرف الدموع.

تقدم الأعرج مرتكزًا على عكازيه كاشفًا عن أسنانه السوداء وسأل جدى: "ما العمل أيها القائد يو؟".

وسأل العم وانغ قوانغ: "أيها القائد يو، هل سيأتى الشياطين اليابانييون؟"، قال الجد ليو بصوت يخالجه البكاء: "أيها القائد يو، فلتقودنا للفرار والنجاة من هذه الكارثة.".

فقال الضرير: "الفرار؟ وإلى أين ستفرون؟ فلتفروا أنتم، أما أنا فسأبقى فى هذا المكان حيًا أو ميتًا".

وجلس الرجل الضرير على الأرض وهو يحتضن العود القديم، وراح يعزف عليه، بينما كان فمه يبدو ملتويًا ورأسه لا تتوقف عن الحركة مثل طبلة البائع المتجول.

قال جدى: "أيها الإخوة، لا يمكننا الفرار، فكيف نفر الآن وقد مات هذا العدد الكبير من الرفاق، اليابانيون سيأتون مرة ثانية، ولنستغل هذه الفرصة قبل مجيئهم ونتقدم للحصول على الأسلحة التى هى فى حوزة القتلى، ولنخض أمام الشياطين اليابانيين معركة حياة أو موت!".

فتفرق أبى ومن معه من الرجال إلى الحقول المجاورة، وراحوا يفكون الأسلحة التى كانت بحوزة الجثث الملقاة فى عرض حقول الذرة، ثم عادوا إلى السور الترابى، كما كان الأعرج قوو يانغ والجد ليو الذى يظهر التورم على قدميه يبحثان عن الأسلحة فى المنطقة القريبة من جدى، وكان الرجل الضرير يجلس إلى جوار البنادق يتحسس الأصوات المحيطة وكأنه من أفراد جنود الإشارة.

وهكذا تجمع الأهالى بعد ذلك أعلى السور الترابى وراحوا ينظرون إلى جدى وهو يحصى الأسلحة التى نجحوا فى جمعها، كانت معركة الأمس قد استمرت حتى المساء، ومن ثم فلم يتمكن الشياطين من تنظيف ساحة المعركة، وكان هذا بلا شك فى صالح جدى.

نجح جدى ومن معه من الرجال فى جمع سبعة عشر مسدسًا من طراز سانباتى اليابانى الصنع، وأربع وثلاثين قنبلة من القنابل المغلفة بالجلد، وألف وسبع طلقات نارية، ونجحوا أيضًا فى جمع أربعة وعشرين رشاشًا صينية الصنع تقليد ماركة رشاشات ٧٩ التشيكية، وأربع وعشرين خزنة طلقات نارية، وأربعمائة واثنتى عشرة طلقة من طلقات رشاشات ٧٩ التشيكى، كما تمكنوا من الحصول على سبع وخمسين قذيفة يدوية يابانية الصنع، وثلاث وأربعين قذيفة يدوية صينية الصنع. مدفع مربع صنع يابانى وتسع وثلاثين طلقة نارية، وبندقية طراز **FN M1910 7. 65mm** الآلية وسبع طلقات نارية، وتسعة من الخناجر اليابانية؛ وسبع من البنادق القصيرة اليابانية وما يزيد على مائتى طلقة نارية.

وبعد أن انتهى جدى من حصر الغنائم من الأسلحة، كان هو والجد قوو يانغ قد طلبا بعض التبغ، وراحا يشربان لفافات التبغ وهما جالسان أعلى السور الترابى.

قال أبى: "أبتاه، هل بإمكاننا أن نقود جيشًا جديدًا!".

نظر جدى إلى ذلك التل من الأسلحة والذخيرة، والتزم الصمت التام، وبعد أن انتهى من سيجارته، رد على أبى قائلاً: "ابنى العزيز، فلتختر، وليختر كل منا سلاحًا من بين هذه الكمية التى جمعناها"، ثم قام هو نفسه بحمل المدفع المربع ذى الغلاف المصنوع من الجلد، ومسدس من طراز سانباتى اليابانى الصنع، أما أبى فقد استطاع أن يخطف بندقية طراز **FN M1910 7. 65mm**، بينما حصل كل من العم وانغ قوانغ والعم ده جه على بندقية من البنادق اليابانية القصيرة.

قال جدى: "فلتسلم البندقية طراز **FN M1910 7. 65mm** للعم قوو يانغ، هذا النوع من السلاح ليس من السهل استخدامه أثناء المعركة، ولتحمل بندقية من البنادق اليابانية القصيرة".

فقال العم قوو يانغ: "فلنستخدم بندقية كبيرة، ولنترك البندقية طراز **FN M1910 7. 65mm** للضرير".

فقال جدى: "وأنت أيتها الأخت، فلتساعدينا فى تجهيز شىء من الطعام، فلقد اقترب موعد عودة الشياطين".

فتقدم أبى واختار بندقية يابانية الصنع وراح يتدرب على استخدامها.

خاطبه جدى محذرًا إياه: "احترس من أن تخرج الطلقات النارية عن غير قصد".

فقال أبى: "لا عليك يا أبى، فأنا أتقن استخدامها جيدًا".

وقال الرجل الضرير بصوت خفيض: "أيها القائد يو، لقد جاءوا، لقد جاء الشياطين".

فقال جدى: "فلتنزلوا سريعًا إلى أسفل السور!".

انبطح الجميع أسفل السور الترابى، وراحوا يحدقون النظر فى حقول الذرة الممتدة خارج الخندق، بينما جلس الضرير إلى جانب كومة الأسلحة يعزف على عوده.

فصاح جدى مخاطبًا الضرير: "ولتنزل أنت أيضًا إلى أسفل السور!".

بدا الحزن الشديد على وجه الضرير، ولاحظ الجميع فمه يتحرك بسرعة وكأنه يمضغ شيئًا ما، وسمعوا صوت لحن متكرر يصدر عن عوده القديم المتهالك.

ولم يكن هناك ظل أى إنسان خارج الخندق، رأوا مئات الكلاب خرجت من عدة اتجاهات تنقض على الجثث الملقاة داخل حقول الذرة، كانت الكلاب تفر مسرعة إلى مكان الجثث، رأوا كلابًا ذات ألوان مختلفة تفر فى جماعات، وكانت كلاب عائلتى الثلاثة هى التى تصدرت جماعة الكلاب الفارة نحو حقول الذرة.

لم يستطع أبى المتحمس الصبر، فأطلق طلقة من بندقيته نحو جماعة الكلاب طارت الرصاصة عالية فى السماء حتى سقطت بعيدًا داخل حقول الذرة الممتدة أمامه.

نظر كل من العم وانغ قوانغ وده جه اللذان كانت هذه أول مرة يحملان فيها السلاح إلى أعواد الذرة التى تتحرك أمام أعينهما، ثم قاما بإطلاق

الرصاص من سلاحهما، كانت الطلقات التى خرجت طلقات عشوائية منها ما طار بعيدًا فى عنان السماء، ومنها ما سقط على الأرض على بضع خطوات منهما.

فقال جدى غاضبًا: "لا تطلقوا الرصاص! فهل لدينا القدر الكافى لكى نعبث به هكذا!"، ثم رفع جدى إحدى قدميه وركل بها أبى.

بدأت الحركة داخل حقول الذرة تهدأ شيئًا فشيئا. وسمع الجميع صوتاً جهوريًا يصيح: "لا تطلقوا النيران، لا تسيئوا الفهم، إلى أى فصيلة تنتمون.".

فصاح جدى: "إننا من فصيلة أجدادك، أيتها الكلاب الصفراء!".

ثم صوب جدى بندقيته تجاه مصدر الصوت، وأطلق طلقة مدوية.

فسمع ذلك الصوت الجهورى يصيح ثانية: "أيها الرفيق، لا تسئ فهمى، إننا من فريق جياو قاو التابع للجيش الثامن، إحدى الفرق المقاومة للشياطين اليابانيين، أرجو أن تتفضلوا بالرد، إلى أى فصيلة تنتمون!"

قال جدى: "تبًا لكم من جيش، تبًا لكم من جماعة تعرف الخداع".

ثم قام جدى بقيادة بعض من جنوده ووقفوا أعلى السور الترابى.

وعندها خرجت جماعة تزيد على ثمانين فردًا من فريق جياو قاو التابع للجيش الثامن، خرجوا من داخل حقول الذرة الممتدة حول السور الترابى، وقد بدوا فى ثياب بالية وذوى وجوه شاحبة، وكأنهم مثل الحيوانات البرية المخيفة، وظهر معظمهم عزلاً من أى سلاح، كانوا يلفون حولهم بعض القذائف اليدوية، بينما كانت المجموعة التى تتصدرهم يحمل كل منهم بندقية ماركة ماوزر الألمانية، وكان هناك أيضًا من يحمل بنادق محلية الصنع.

كان أبى قد رأى هذه الجماعة من الجيش الثامن بعد ظهر أمس، حيث كانوا مستخفين داخل حقول الذرة، وأطلقوا النيران تجاه القوات اليابانية التى كانت تجتاح القرية.

وتقدمت قوات الجيش الثامن حتى أعلى السور الترابى، وراح يصيح رجل طويل القامة كان فى مقدمة الفريق قائلاً: "فليتقدم أحد أعضاء الفريق لتولى مهام المراقبة، وليمكث الآخرون فى أماكنهم للراحة".

جلست قوات الجيش الثامن أعلى السور الترابى، وتقدم شاب وسيم ووقف فى المقدمة، ثم أخرج من حقيبة معلقة على ظهره قصاصة ورقية صفراء اللون، وراح ينفضها على ذراعه، وبدأ يشدو بهذا اللحن: الرياح تصفر، والشاب الوسيم يتغنى، الرياح الرياح الرياح تصفر، أيها الرفاق انتبهوا إلى إشارة يدى وغنوا معًا - الخيول تصهل - الخيول تصهل - والنهر الأصفر، يزأر النهر الأصفر يزأر - النهر الأصفر يزأر النهر الأصفر يزأر - نضجت الذرة الرفيعة على ضفتى النهر الأصفر الجنوبية والشمالية - نضجت الذرة الرفيعة على ضفتى النهر الأصفر - وارتفعت معنويات الأبطال لمقاومة المعتدى اليابانى - ارتفعت معنويات الأبطال لمقاومة المعتدى اليابانى - وحملوا البنادق والمدافع محلية الصنع -حملوا البنادق والمدافع محلية الصنع - ولوحوا بالخناجر الكبيرة - لوحوا بالخناجر- لحماية بلدتهم وحماية منطقة شمال الصين وحماية الصين قاطبة.

فراح أبى ينظر بإعجاب شديد إلى تعبيرات وجه ذلك الشاب من الجيش الثامن وقد بدا وجهه شاحبًا، وراح يستمع إلى نشيد الجيش الثامن، حتى بدأت حنجرته تحاكى النشيد، ومضى يتذكر الشاب الوسيم الذى يتولى مهام نائب القائد فى فرقة جدى، والذى كان يستطيع أيضًا أن يلوح بيده ويتغنى بالأناشيد الحماسية.

تقدم أبى وكل من العم وانغ قوانغ والعم ده جه حاملين أسلحتهم، ووقفوا ينظرون إلى قوات الجيش الثامن وهم يتغنون بالأناشيد الحماسية، بينما وقفت قوات الجيش الثامن تنظر إليهم وهم يغبطونهم على البنادق اليابانية حديثة الصنع، التى يمسكون بها فى أيديهم.

وكان قائد فرقة جياو قاو التابعة للجيش الثامن يلقب بالقائد جيانغ، كان رجلاً ذا قامة كبيرة وقدمين صغيرتين، يلقبونه فيما بينهم "جيانغ صاحب القدمين الصغيرتين"، وقد جاء القائد جيانغ أمام جدى وهو يقود شابًا فى السادسة عشرة أو السابعة عشرة من عمره.

كان القائد يو يعلق حول خصره مسدس ماوزر، ويرتدى قبعة من القماش رمادية، يظهر أعلاها زوج من العراوى السوداء، وكان يتمتع بأسنان ناصعة البياض، يتحدث بلهجة بكينية جيدة إلى حد ما، قال مخاطبًا جدى: "أيها القائد يو، يا لك من بطل! لقد شاهدنا المعركة البطولية التى خضتها أمس أمام القوات اليابانية والقوات الموالية للإمبراطور!".

ومد القائد جيانغ يده إلى جدى، بينما اكتفى جدى بالنظر إليه ببرود، ثم أصدر صوتًا من أنفه.

فسحب القائد يو يده ثانية وقد شعر بشىء من الحرج، وقال مبتسمًا: "لقد قدمت للتفاوض معكم بتفويض من المبعوث الخاص للحزب الشيوعى الصينى لمنطقة بين خاى؛ حيث عبر السيد المبعوث الخاص للحزب الشيوعى الصينى لمنطقة بين خاى عن عميق إعجابه بالروح البطولية والتضحية، التى قدمتموها خلال المعركة الطاحنة التى خضتموها أمام المعتدى اليابانى من أجل تحرير البلاد، أعطى السيد المبعوث الخاص للحزب توجيهاته لفرقتنا ببدء التعاون معكم أيها القائد يو، وذلك حتى نتمكن معًا من مقاومة المعتدى اليابانى، ونؤسس حكومة ديمقراطية متحدة.".

رد جدى قائلاً: "اللعنة عليكم جميعًا، إننى لا أثق فيكم أبدًا، تقولون الاتحاد الاتحاد، فلماذا لم تتحدوا معنا خلال ضرب سيارات القوات اليابانية؟ ولماذا لم تظهروا وتتحدوا معنا عندما حاصر الشياطين اليابانيون قريتنا؟ لقد انهارت قواتى خلال هاتين المعركتين، وسالت دماء جماهير العامة من أهل هذه البلدة، وتأتون الآن لتحدثونى عن الاتحاد!".

ركل جدى غاضبًا رشاشًا بقدمه ناحية الخندق، بينما كان الرجل الضرير لا يزال هنالك يعبث بعوده مصدرًا صوتًا أشبه ما يكون بتساقط قطرات المياه من أعلى المساكن عقب انتهاء نزول الأمطار داخل برميل مياه معدنى.

وهكذا تعرض القائد جيانغ من قوات الجيش الثامن التابع للحزب الشيوعى الصينى للسب المقذع من قبل جدى، غير أنه ظل يخاطبه بكل احترام قائلاً: "أيها القائد يو لا تخب الآمال التى وضعها حزبنا عليكم، ولا تقلل من شأن قوة الجيش الثامن، فمنطقة بين خاى كانت على الدوام تحت حكم الحزب الوطنى، وقد بدأ حزبنا العمل منذ وقت قريب، ولم تتعرف جماهير الشعب العريضة على حزبنا جيدًا حتى الآن، غير أننا نرى أن هذا الوضع لن يستمر طويلاً؛ حيث حدد لنا زعيمنا السيد ماو تسى تونغ الاتجاه الذى سنسير فيه منذ بداية العمل تحت راية الحزب الشيوعى، أيها القائد يو، دعنى أنصحك نصيحة صديق، إن المستقبل فى الصين سيكون للحزب الشيوعى الصينى، وإن جيشنا هو خير من يقدر الشجعان ويقدر من يتعاون معه، وإننا لن نخدع أحدًا أبدًا، وإن حزبنا على دراية تامة بالخلاف الذى نشأ بين قواتكم وقوات القائد لينغ، وإننا نعتقد أن القائد لينغ مخطئ تمامًا، وأن تصرفه تصرف غير أخلاقى تمامًا، وأن توزيع الغنائم التى تحصلتم عليها معًا لم يكن توزيعًا عادلاً، وثق تمامًا أن الجيش الثامن لن يتسبب أبدًا فى

الضرر لأصدقائه الذين سيتعاونون معه، وبالطبع فإن تسليحنا في الوقت الراهن ليس على ما يرام، ولكن قوتنا سوف تتعاظم بالتأكيد خلال الفترة المقبلة، وإننا نعمل بكل إخلاص من أجل مصلحة جماهير الشعب، ونقاتل الشياطين اليابانيين قتالاً حقيقيًا من أجل هذا الوطن، أيها القائد يو، لقد رأيت بنفسك أننا وقفنا أما المعتدى اليابانى طوال يوم أمس معتمدين على تلك المجموعة من الأسلحة المتهالكة، ولقد استشهد من قواتنا ستة رفاق فقط، أما تلك القوات التى كانت تمتلك كمية كبيرة من الأسلحة والذخيرة خلال معركة نهر موا شوى، والتى كانت فى موقف المتفرجين، فإنهم هم المسئول الأول عن تلك المذبحة الكبرى التى تعرض لها الأهالى، وهل تخفى عليكم حقيقة المقارنة بين الفصيلين؟".

رد جدى قائلاً: "فلتدخل فى الأمر مباشرة، ولتفصح عن قصدك، وماذا تريدون أن أقدم لكم؟".

أجاب القائد جيانغ: "إننا نأمل أن ينضم القائد يو للجيش الثامن، وأن نتوحد معًا لمقاومة العدو تحت قيادة الحزب الشيوعى".

فضحك جدى ببرود قائلاً: "تريدنى أن أعمل تحت قيادتكم؟".

فقال القائد يو: "يمكنك أن تشارك فى قيادة فريق جياو قاو".

"وما المنصب الذى سأتقلده فى هذا الفريق؟".

"نائب القائد العام!"

"تقصد أننى سأعمل تحت قيادتك؟"

"إننا جميعًا نعمل تحت قيادة المبعوث الخاص للحزب الشيوعى لمنطقة بين خاى، وجميعنا يعمل تحت قيادة الزعيم الرفيق ماو تسى تونغ".

"ماو تسى تونغ؟ إننى لا أعرفه! وإننى لن أعمل تحت قيادة أى إنسان على ظهر الأرض!"

"أيها القائد يو، هناك مقولة تقول " إن البطل الحقيقى هو من يكون على دراية بالأوضاع المحيطة به، وأن الإنسان النبيه هو من يحسن اختيار القائد الذى يساعده فى الكشف عن مواهبه وقدراته"، والرفيق ماو تسى تونغ هو البطل الأكبر على الساحة حاليًا، وعليك ألا تضيع هذه الفرصة!"

رد جدى قائلاً: "هل انتهيت من حديثك؟"

فابتسم القائد جيانغ ابتسامة صريحة ثم قال: "أيها القائد يو، هكذا لم أخفِ عليك أى شيء. ولتنظر إلى فرقتنا التى لا يزال لديها الرجال، ولكن ينقصنا العتاد، والأسلحة والذخيرة".

فقال جدى: "مستحيل ذلك الذى تفكر فيه!"

"فلنستعرها مؤقتًا، وسنعيدها لك كاملة عندما تجهز فريقك الجديد".

"تبًا لك، تحسبنى أنا القائد الشجاع يوجان آو طفلاً فى الثالثة من عمره؟"

"لقد أخطأت فهمى أيها القائد يو. إننا جميعًا مسئولون عن ازدهار البلاد وانهيارها، ويجب أن يقدم كل منا ما بحوزته لأجل الوقوف أمام المعتدى اليابانى وإنقاذ البلاد من شروره، سواء أفرادا أو سلاحًا، وإذا جعلت هذه الأسلحة تبقى هنا إلى جوارك دون أن يستخدمها أحد لصد الغزو اليابانى عن البلاد، فإنك ستكون قد أجرمت فى حق هذه الأمة".

"فلتسكت عن هذا الهراء، إذ إننى لن أسمع لهذا الهراء. وإذا كانت لديكم القوة فلتذهب للحصول على السلاح من أيدى اليابانيين!"

"لقد شاركت فرقتنا فى المعركة التى دارت بالأمس!"

فضحك جدى ببرود قائلاً: "وكم عدد المدافع التى أطلقتموها؟"

"لقد أطلقنا الطلقات النارية والقذائف اليدوية، ولقد ضحينا بستة رفاق من قواتنا! ويجب أن نحصل على الأقل على نصف الأسلحة التى جمعتموها!"

"لقد تم إبادة جميع أفراد فرقتى عند مدخل جسر نهر موا شوى، ولم أحصل إلا على رشاش قديم متهالك!"

"إنك تقصد قوات الحزب الوطنى!"

"ألن تفعل قوات حزبكم الشيوعى الأمر نفسه، إذا ما رأت الأسلحة؟ من الآن فصاعدًا لن يقدر أحد على خداعى ثانية".

"أيها القائد يو، يجب أن تفكر جيدًا! لقد قدمنا كل ما يمكن تقديمه!"

"ماذا تقصد، وهل تنوى أن تقاتلنى؟" ثم وضع جدى يده على مسدسه الماوزر.

فحول القائد جيانغ غضبه إلى ابتسامة رقيقة قائلاً: "أيها القائد يو، لا تسىء فهمى، إن الجيش الثامن لن يقدم أبدًا على خطف اللقمة من فم أصدقائه، فإذا لم نتوصل إلى اتفاق بيننا، فستبقى الصداقة قائمة".

ثم تقدم القائد جيانغ أمام الفريق وقال: "نظفوا ساحة المعركة، وادفنوا جثث الأهالى، وانتبهوا إلى جمع فوارغ الطلقات النارية".

تفرق أفراد فرقة القائد جيانغ إلى داخل حقول الذرة لتنفيذ أوامره. وخلال قيامهم بدفن جثث القتلى، وقعت معركة حامية بين جماعة الكلاب

وبين الأفراد الأحياء، الذين كانوا يقومون بدفن الجثث، مما أدى إلى تمزيــق عدد كبير من الجثث.

فقال القائد جيانغ: "أيها القائد يو، إننا نواجه مأزقًا صعبًا للغاية، إننـــا لا نملك السلاح ولا الذخيرة، ولقد قمنا بجمـــع فـــوارغ الطلقـــات الناريـــة وسنرسلها لمصنع حربى لاستبدالها برصاص حى، وأن هناك خمسًا من بين كل عشر طلقات هى عبارة عن طلقات غير صالحة للاستخدام. ولقد خدعنا الحزب الوطنى وهكذا فعلت القوات المعاونة للإمبراطور، أيها القائـــد يـــو، مهما يكن فإن عليك أن تجعل لنا جزءًا من هذه الكمية من الأسلحة والذخيرة، ويجب ألا تحتقر قوة الجيش الثامن وقدرته".

فراح جدى ينظر إلى أفراد الجيش الثامن الذين كانوا منشغلين بحمـــل الجثث داخل حقول الذرة، ثم قال: "سنجعل لكم الخناجر والبنادق قطـــر ٧. ٩ والقذائف اليدوية".

فأمسك القائد جيانغ بيدى جدى وقال بصوت مرتفع: "أيها القائد يو، ما أحسنك من صديق حميم! .. أما القذائف اليدوية فإننـــا يمكننـــا أن نـــصنعها بأيدينا، وأرى أننا لسنا فى حاجة لهذه القذائف اليدوية، ولتعطنا بعـــضًا مـــن بنادق سانباتى اليابانية".

فرد عليه جدى قائلاً: "لا يمكن".

"نريد خمس بنادق فقط".

"لا يمكن!"

"فلتعطنا ثلاث بنادق فقط، ثلاثًا فقط".

"لا يمكن!"

"إذًا فلتعطنا اثنتين فقط، أرى أن هذا العدد ممكن؟"

فقال جدى: "اللعنة، اللعنة عليك أيها القائد من الجيش الثامن، إنك تبدو مثل باعة البهائم المولعين بالمساومة".

"فلتتقدم مجموعة من السرية رقم ١ لحمل بعض البنادق".

"فقال جدى: "مهلاً، توقفوا بعيدًا!"

وهنا قام جدى بعزل ٢٤ بندقية صينية الصنع، تقليد البنادق التشيكية، وعدد من الطلقات النارية، وبعد تردد قليل، قام بإضافة بندقية من طراز سانباتى اليابانية.

قال جدى: "يكفيكم هذا، ولن أعطيكم أى عدد من الخناجر".

فرد القائد جيانغ: "أيها القائد يو، لقد قلت بنفسك إنك ستعطينا بندقيتين من بنادق سانباتى اليابانية".

فرماه جدى بنظرة حادة ثم قال: "إذا واصلت استفزازى هكذا فلن تنالوا شيئًا من هذه البنادق!"

فلوح القائد جيانغ بيديه قائلاً: "حسنًا حسنًا حسنًا، لا تغضب، لا تغضب أيها القائد!"

وهنا سمع جدى صوت ضحك هؤلاء الجنود من الجيش الثامن، الذين تقدموا لحمل البنادق. كان أفراد فريق "جياو قاو" التابع للجيش الثامن قد عثروا خلال عملية تمشيط أرض المعركة على عدد من الرشاشات، بالإضافة إلى المسدس الماوزر الذى رماه جدى والمسدس البرونينج الذى رماه أبى. بينما كانت جيوب هؤلاء الجنود خالية إلا من بعض الرصاصات الفارغة. وقد تقدم شاب قصير القامة أسمر اللون يحمل بين يديه زوجًا من المدافع وراح يتمتم أمامهم قائلاً: "أيها القائد جيانغ، لقد عثرت على زوج من المدافع!"

فقال القائد جيانغ: "أيها الرفاق، فلتعجلوا بــدفن الجثــث، واســتعدوا للانسحاب من هذا المكان، فإن الشياطين اليابانيين من الممكن أن يعودوا لنقل جثث قتلاهم، وإذا تمكنا من قتالهم فعلينا أن نبادر بذلك. وأنت أيها الأرنــب الأسمر احمل هذين المدفعين إلى المصنع الحربى للصيانة".

وعندما تجمع أفراد فريق جياو قاو التابع للجيش الثامن أعلى الــسور الترابى واستعدوا للانسحاب تنفيذاً لتوجيهات القائد جيانغ، رأوا ما يزيد على عشرين دراجة قادمة من الطريق الترابى الواقع فى الناحية الشرقية للقريــة، كانت الدراجات تضىء أنوارها لتكشف الطريق أمامها. وهنا أصدر القائــد جيانغ أوامره بأن يتفرق أعضاء الفريق وينصبوا كميناً على جانبى الــسور الترابى. وتقدم هؤلاء الأشخاص الذين كانوا يقودون الدراجات إلى الــسور الترابى حتى بلغوا مكان جدى. كانوا يرتدون زيًا عسكريًا رمــادى اللــون، ويلبسون أحذية من القماش، ويضعون فوق رءوسهم قبعات مربعــة الــشكل مرصعة فى مقدمتها علامة شمس بيضاء اللون مثل الترس.

كانت هذه المجموعة من أفراد فريق القائد لينغ، كان جميع الأفراد الــذين أتوا على ظهر تلك الدراجات يحملون البنادق القصيرة، مــن المــاهرين فــى استخدامها. ويقال إن القائد لينغ ماتزه يتمتع بمهارة عاليــة جــدًا فــى ركــوب الدراجات، حتى أنه يمكنه أن يسير بالدراجة لمسافة طويلة على قضيب حديدى.

وهنا صاح القائد جيانغ صيحة خرج على إثرها جميع أفــراد فريــق جياو قاو من مخبئهم، واصطفوا واقفين خلف جدى.

فانشغل أفراد فريق القائد لينغ ماتزه بالنزول عن دراجاتهم، وتقــدموا يدفعون درجاتهم حتى وقفوا أعلى السور الترابى. ثم تقدم القائد لينغ مــاتزه وحوله عدد من الأفراد الذين يحملون البنادق القصيرة.

وما إن رأى جدى القائد لينغ ماتزه حتى مد يده بسرعة ليستل مسدسه.

فصاح القائد جيانغ من الخلف منبهًا جدى: "أيها القائد يو، الهدوء، الهدوء".

فابتسم القائد لينغ ماتزه ابتسامة عريضة ثم مد يده ليصافح القائد جيانغ، حتى أنه لم يخلع عن يده القفاز الذى كان يرتديه. وابتسم أيضًا القائد جيانغ ابتسامة عريضة. وبعد أن مد يده وصافح القائد لينغ ماتزه، مد يده إلى وسطه وأخرج حشرة صغيرة وألقى بها داخل الخندق.

قال القائد لينغ ماتزه: "إن جيشكم الموقر يتمتع بمصادر ممتازة وواسعة!"

فرد القائد جيانغ: "إن أعضاء فرقتى يرابضون هنا من بعد ظهر الأمس لمراقبة جيش العدو".

فسأله القائد لينغ ماتزه: "وهل أنتم متأكدون من أنكم ستحققون نتائج مبهرة فى هذه المعركة؟"

فقال القائد جيانغ: "لقد استطعنا بالتعاون مع القائد يو قتل ستة وعشرين جنديًا من الجنود اليابانيين، وستة وعشرين جنديًا آخرين من الخونة، وتسعة من الخيول. ولا نعرف أين كان أفراد فريقكم الموقر بالأمس؟"

"لقد أشعلنا التوتر الكبير أمس فى مدينة بنيغ دو، وأجبرنا قوات الشياطين على الانسحاب بسرعة، وأرى أننا قد أنقذناكم أيها القائد جيانغ؟"

هنا تدخل جدى وأخذ يسب القائد لينغ ماتزه قائلاً: "اللعنة على أمك يا لينغ ماتزه، انظر جيدًا إلىّ: من الذى أنقذ الآخر! اسأل جميع أهالى القرية والموجودين جميعهم فى هذا المكان!"

وأشار جدى إلى الضرير والأعرج اللذين كانا واقفين أعلى السور الترابى.

فاحمر وجه القائد لينغ ماتزه، ثم قال: "إننا قدمنا تضحيات عظيمة بالأمس خلال المعركة الحامية التى دارت فى مدينة بينغ دو، وإننا نشعر براحة الضمير تجاه ما قدمنا من تضحيات".

فقال القائد جيانغ: "طالما أن جيشكم الموقر كان قد عرف أن قوات العدو قد بدأت تهاجم القرية، فلماذا لم تتقدموا لإنقاذ البلدة؟ ولماذا تتخلون عن القريب لصالح البعيد، وتذهبون إلى مدينة بينغ دو البعيدة لإظهار قوتكم؟ وقواتكم قد انسحبت من أرض مدينة بينغ دو، ولا أعرف كيف تصرفتم أيها القائد لينغ فى هذه المعركة؟"

فاحمر وجه القائد لينغ ماتزه وأذنه، ثم قال: "إننى لا أنوى أن أخوض معركة كلامية أمامك يا جيانغ! إذ إننى أعرف الغرض من قدومك إلى هنا، وأنت أيضًا تعرف الغرض الذى جئت أنا من أجله".

قال القائد جيانغ: "أيها القائد لينغ ماتزه، أعتقد أن قيامكم بمهاجمة المدينة أمس كان قرارًا خاطئًا. ولو كنت أملك حق توجيه قواتكم الموقرة، فإننى حتى إذا لم أتقدم لإنقاذ القرية، كنت سآمر بأن ينصب الأفراد كمينًا داخل المقابر القديمة الممتدة على جانبى الطريق العام. وأن يستعينوا بالرشاشات الثمانية التى حصلت عليها خلال معركة نهر موا شوى، ويتقدموا لقتال الشياطين. فلو اشترك اليابانيون معكم فى معركة لمدة يوم كامل، كان ذلك سيؤثر على أفرادهم وخيولهم وذخيرتهم، كما أنهم ليسوا على دراية واسعة بجغرافية المكان، والجو يبدو ملبدًا بالغيوم، وكان باستطاعتكم أن تنقضوا عليهم برشاشاتكم الثمانية، وعندئذ فلن يكون أمامهم أى مخرج للنجاة من قبضتكم. وهكذا فإنكم ستكونون أولاً قد قدمتم إنجازًا عظيمًا لصالح هذه الأمة، ثانيًا كنتم ستتمكنون من تحقيق أكبر فائدة لجيشكم الموقر، ويزداد

الشرف الذى حققته أيها القائد لينغ خلال معركة نهر موا شوى، فما أجمله من انتصار عظيم! ولكن للأسف، لقد ضاعت هذه الفرصة منك أيها القائد لينغ! ولم تسع لتحقيق الإنجاز العظيم، ولم تسع لتحقيق الفائدة الكبيرة لفريقك، ومكثت هنا مع اليتامى والأرامل تبحث عن أبخس الأشياء، وإننى أشعر بالخزى من أجلك أيها القائد لينغ!"

احمر وجه القائد لينغ ماتزه، وقال بصوت يملؤه الخوف: "أنت يا جيانغ.. لقد قللت من شأنى.. ولتنتظر حتى أخوض معركة حامية، لترى من أكون".

فرد القائد جيانغ قائلاً: "ولكنى أعتقد أنك ستكون آنذاك تصارع الموت وتطلب المساعدة يا أخى الفاضل!".

فقال القائد لينغ ماتزه: "لن أحتاج لمساعدتك، وسأقاتل بمفردى".

فقال القائد جيانغ: "عظيم، عظيم!"

وركب القائد لينغ ماتزه دراجته وهمَّ أن يتحرك للأمام، وهنا تقدم جدى وأمسكه من صدره وقال بغضب شديد: "أنت يا لينغ ماتزه، انتظر بعد أن أنتهى من قتال اليابانيين، وسأفرغ لتصفية حسابى معك أيها الوغد!"

فقال القائد لينغ ماتزه: "إننى لا أخشاك!"

وصعد لينغ ماتزه دراجته وفر مسرعًا، وتبعه ما يزيد على عشرين فردًا من فريقه، كانوا جميعًا ماهرين جدًا فى ركوب الدرجات بسرعة فائقة.

وقال القائد جيانغ: "أيها القائد يو، إن الجيش الثامن سيكون صديقك المخلص إلى الأبد".

ومد القائد جيانغ يده لجدى، فمد جدى يده على مضض وصافحه بسرعة. وشعر جدى أن يد القائد جيانغ الكبيرة كانت صلبة ودافئة.

(٥)

وبعد مضى ستة وأربعين عامًا، كان ذلك المكان الذى شهد المعركة البطولية التى شارك فيها كل من جدى وأبى وأمى والكلاب الثلاثة: الأسود والأحمر والأخضر، التى كانت ملك عائلتى، المكان الذى أصبح "مقبرة ألفية" تضم ما يزيد على ألف جثة من جثث رجال الحزب الشيوعى والحزب الوطنى وعامة الأهالى والجنود اليابانيين وجنود القوات الموالية للإمبراطور، كان ذلك المكان قد تعرض لموجة أمطار كبيرة فى ليلة رعدية شديدة، حتى تصدعت أسقف المقابرٍ، وتناثرت بعض عظام الجثث التى غسلتها مياه الأمطار ونظفتها تنظيفاً. كنت فى ذلك الحين قد عدت إلى بلدتنا لقضاء العطلة الصيفية، وما إن سمعت خبر فتح " المقبرة الألفية" حتى سارعت لكى أشاهد ما يحدث بأم عينىّ، وتبعنى الكلب الأزرق الصغير الذى كانت تربيه العائلة. كانت السماء لا تزال تمطر مطرًا خفيفاً، وقد راح الكلب الأزرق يجرى أمامى، وهو يركض بسرعة وسط مياه الأمطار. اصطدمنا بسرعة بتلك العظام التى كانت قد تطايرت من داخل المقابر، حيث راح الكلب يتتبعها بأنفه، ثم راح يلوح برأسه معبرًا عن عدم شعوره باللذة تجاه تلك العظام.

وكانت قد وقفت جماعة من الناس حول تلك المقبرة الكبيرة، علا وجوههم شعور بالرعب الشديد مما يرون. زاحمت حتى وقفت وسط الجمع، ورأيت تلك العظام التى رأت سطح الأرض مرة ثانية. ولم يكن أحد يستطيع أن يميز أيًا من هذه العظام تخص أفراد الحزب الشيوعى، وأيًا منها تخص أفراد الحزب الوطنى، وأيًا منها تخص الجنود اليابانيين، وأيًا منها تخص عامة الأهالى؛ حيث كانت جميع الرءوس تبدو ذات شكل واحد، تجمعت داخل حفرة واحدة، وغمرتها مياه الأمطار بكميات متساوية. فقد كانت تصدر بعض الأصوات الحزينة إثر اصطدام مياه الأمطار بتلك العظام. كما كانت الجماجم قد امتلأت بمياه الأمطار، حتى بدت المياه بداخلها صافية باردة مثل نبيذ الذرة المعتق لفترة طويلة.

قام الأهالى آنذاك بجمع العظام التى تطايرت فـــى جميـــع الأرجـــاء، وراحوا يلقون بها ثانية إلى داخل المقبرة. وعندما دققت النظر إلـــى داخـــل الحفرة، رأيت عظام رءوس عشرات الكلاب المختلفة، اكتشفت عقب ذلك أنه لا يوجد اختلاف بين جماجم البشر وجماجم الكلاب، كان فى الحفرة شـــعاع أبيض باهت، بدا لى كإشارة معبرة عن الرعب والفزع، وأن تاريخ الإنسان العظيم يرتبط بالأحاديث والذكريات الخاصة بـــالكلاب، وأن هنـــاك علاقـــة متشابكة بين تاريخ الإنسان وتاريخ الكلاب. شاركت فى أعمال جمع العظام المتطايرة فى كل مكان، وارتديت قفازًا أبيض فى يدى بدعوى المحافظة على الصحة، مما جعل جميع الأهالى الحاضرين ينظرون إلى نظرات غاضـــبة، فخلعت القفاز بسرعة ودسسته فى جيبى. سرت لأبعد حد فى الطريق الـــذى كنا نجمع منه العظام المتطايرة، سرت إلى حافة زراعات الذرة الرفيعة التى كانت تقع على بعد مائة متر من المقبرة الكبرى، كانت ترقـــد هنالـــك رأس محطمة شبه مستديرة وسط أعشاب خضراء غمرتها مياه الأمطار، وكانـــت جبهة تلك الرأس تشير أن صاحبها ليس شخصًا عاديًا. ومددت ثلاثة أصابع ورحت أحرك تلك الرأس، ثم سحبت أصابعى ثانية. انعكس شـــعاع ضـــوء أبيض على تلك الحشائش المحيطة بالرأس، مما جعلنى أدرك أنه ليس هناك ضرورة لأن ألتقط تلك الرأس، حيث كانت من نفس نوع رأس ذلك الكلـــب الأزرق الصغير الذى كان يجرى خلفى. وربما تكـــون رأس ذئـــب أو رأس حيوان هجين بين الكلب والذئب. ومن المؤكد أنها كانت قد تطايرت إلى هنا على إثر الانفجار الذى هز المكان، فالأتربة العالقة بها ولونها يشيران إلـــى أنها قد مكثت فى بطن المقبرة الكبرى لمدة عشرات السنين. وأخيرًا تمكنـــت من رفعها لأعلى. راح الأهالى يلقون بعظام الجثث التى قاموا بجمعها إلـــى داخل المقبرة دون أدنى حرص، كانت العظام تصطدم ببعضها البعض حتى تحطم معظمها إلى قطع صغيرة. قمت بإلقاء جمجمة الإنسان التى كانت فى

يدى، بينما رفعت جمجمة الكلب الكبيرة لأعلى وترددت لبعض الوقت. فقال شيخ كبير: فلتلق بها إلى داخل المقبرة، فالكلاب لم تكن أدنى قيمة من البشر آنذاك. فقمت بإلقاء جمجمة الكلب إلى داخل المقبرة. حتى تم إعادة "المقبرة الألفية" إلى ما كانت عليه قبل تصدعها وتطاير العظام من داخلها في كل مكان. ولمواساة أرواح تلك الأشباح التى قمنا بإزعاجها آنذاك، كانت أمى قد قامت بحرق ورقة صفراء أمام المقبرة.

وهكذا كنت قد شاركت فى أعمال إعادة تكوين المقبرة الكبرى، ورافقت أمى ووقفنا أمام عظام ما يزيد على ألف جثة وسجدنا أمامها.

قالت أمى: لقد مضى ستة وأربعون عامًا، وكانت آنذاك لا تزال شابة فى الخامسة عشرة من عمرها".

(٦)

عندما حاصرت القوات اليابانية القرية كنت فى الخامسة عشرة من العمر، وكان جدك وجدتك لأمك قد أودعانى وخالك الصغير فى بطن البئر، ولم نرهما بعد تلك اللحظة إلى الأبد. كنت قد عرفت بعد ذلك أنهما قتلا فى صباح ذلك اليوم الذى تركانا فيه فى بطن البئر..

لا أعرف طول المدة التى مكثتها داخل البئر، ومات خالك داخله حتى انبعثت رائحة جثته. وكان الضفدع والحية لا يتوقفان عن النظر إلىّ طوال اليوم، حتى كدت أن أموت من شدة الرعب. وكنت أفكر آنذاك أننى بالتأكيد سأفارق الحياة فى بطن هذا البئر، حتى جاء أبوك وجدك وأنقذانى من تلك الكارثة..

كان جدك قد لف خمس عشرة بندقية طراز سانباتى اليابانية جيدًا فى ورق مشمع، ثم ربطها بحبل وعلقها على حافة البئر. وقال مخاطبًا ابنه: "يا دوو قوان، انظر حولك جيدًا وتأكد هل يوجد أحد قريب منا".

كان جدك يعرف جيدًا أن كلاً من القائد لينغ ماتزه وفريق جياو قاو يرغبان فى الاستيلاء على هذه الأسلحة. وفى مساء يوم أمس، كان جدك ورفاقه نائمين فى الخيمة المؤقتة التى نصبوها أسفل السور الترابى، جلس الرجل الضرير عند مدخل الخيمة يستمع إلى أى صوت يدنو منهم. وفى منتصف الليل، سمع صوت انهيار السور، وارتطام الأشجار المحيطة به محدثة صوتًا مسموعًا. ثم أعقبها بعد ذلك صوت وقع أقدام خفيفة تقترب من الخيمة، استطاع الضرير أن يميز ذلك الصوت على أنه صوت وقع أقدام شخصين، أحدهما جرىء والآخر جبان. سمع صوت تنهد الرجلين، فأمسك بسلاحه جيدًا، ثم قال: "توقفا!" وسمع بعد ذلك صوت الرجلين وقد انبطحا على الأرض فى خوف شديد، وراحا يتهربان إلى الخلف، فراح الضرير يتحسس مكان الزناد حتى توصل إليه وأطلق طلقة فى الهواء. وسمع صوت الرجلين ينسحبان إلى حافة السور ويختفيان وسط الأشجار. فقارن الصوت الذى يسمعه ثم أطلق طلقة جديدة، حتى سمع صوت إنسان يناديه، كانت هاتان الطلقتان قد أيقظتا جدى ورفاقه، فحملوا أسلحتهم وهموا بمطاردة الرجلين، حتى رأوا صورة شبحين يفران إلى أعماق حقول الذرة المجاورة.

قال أبى: "أبى، لا يوجد أحد هنا".

فرد جدى قائلاً: "تذكر هذا البئر جيدًا".

فقال أبى: "تذكرته، إنه بئر عائلة تشينغ إر".

فقال جدى: "إذا ما تعرضت للموت، فعليك أن تأتى إلى هذا البئر وتخرج هذه الأسلحة وتقدمها هدية وتستسلم للجيش الثامن، فإن هؤلاء النفر أفضل بعض الشىء من فريق لينغ ماتزه".

قال أبى: "أبى، لن نستسلم أبدًا، وسنقود فريقًا خاصًا بنا! ولدينا أيضًا عدد من الرشاشات".

فابتسم جدى ابتسامة مصطنعة، ثم قال: "ابنى الحبيب، ليس الأمر سهلاً! ولقد تعب أبوك".

فأمسك أبى بالحبل المشدود على الرافعة، وقام جدى بربط البنادق جيدًا.

سأل جدى "هل هذا البئر جاف؟"

فرد أبى: "نعم، وقد نزلت إلى بطنه أنا ووانغ قوانغ من قبل للعب الاستغماية". ثم مد أبى جسده إلى فوهة البئر وراح ينظر إلى أسفل حتى رأى شبحًا أسود لكتلتين منزويتين إلى جانب سور البئر.

فصاح أبى" أبتاه، إن هناك بشرًا داخل البئر!"

جثيا عند فوهة البئر وراحا يدققان النظر فى ذلك الشبح.

وقال أبى متعجبًا " إنها تشينغ إر!"

فسأله جدى: "انظر جيدًا هل ما زالت على قيد الحياة؟"

فرد أبى قائلاً: "يبدو أنها لم تقطع النفس بعد، وهناك حشرة كبيرة ترقد إلى جوارها، وهناك أيضًا أخوها الصغير آن تزه"، كان صوت أبى يرن داخل البئر.

فسأله جدى ثانية: "هل تجرؤ على النزول إلى بطن البئر؟"

فأجاب أبى: "سأنزل يا أبى، فإن علاقتى بتشينغ إر علاقة طيبة للغاية!"

"احترس جيدًا من تلك الحية".

"إننى لا أخاف من الحية".

فك جدى حبل الرافعة من البنادق وربطه حول خصر أبى، وساعده على النزول إلى بطن البئر، حيث أمسك جدى برأس الرافعة، وترك الحبل يتدلى ببطء شديد.

وسمع أبى صوت جدى ينادى عليه بصوت مرتفع "احترس، احتـــرس". وبحث أبى عن قطعة حجر عالية بعض الشيء ووقف عليها. فرفعــت تلــك الحية رأسها عالية، وراحت تلعق بلسانها وأطلقت هواءً باردًا تجاه أبى. وكان أبى قد تدرب جيدًا على كيفية التعامل مع الأفاعى عندما كان يصيد الأســماك الصغيرة فى نهر موا شوى. كان قد أكل لحم الأفاعى، كان يطهوه بمــساعدة الجد لوو خان، كان الجد لوو خان قد أخبره أن لحم الحية مفيد لعلاج مــرض البرص. وكان أبى والجد لوو خان يشعران بسخونة شديدة تسرى فى جسدهما بعد أكل لحم الأفاعى. وتسمر أبى مكانه وانتظر تحرك الحية، وما إن نزلــت الحية برأسها إلى أسفل، حتى مد يده وأمسك بذيلها وهزه هزًا شــديدًا، حتـــى سمع صوت مفاصلها. ثم أمسك برقبتها وضغط عليها ضغطًا شديدًا، ثم صاح بصوت عالٍ: "أبى، سألقى بها إليك".

فمال جدى إلى جانب البئر، حتى صعدت الحية التى كانت شبة ميتــة إلى سطح الأرض، سقطت على الأرض إلى جانب فوهة البئر وكأنها قطعة لحم جامدة. وقف شعر رأس جدى لرؤية هذا المنظر المرعب، وراح يــسب أبى: "أنت أيها الذئب الجرىء جرأة اللصوص المتمرسين!"

وسند أبى أمى وهو يصيح: "يـــا تــشينغ إر! تــشينغ إر! إننـــى أنـــا دوو قوان، جئت لإنقاذك!"

فقام جدى بإدارة الرافعة بحذر شديد، حتى استطاع أن يــسحب أمـــى وجثة خالى من داخل البئر.

ثم سمع صوت أبى يناديه: "أبى، أرسل البنادق إلى أسفل!"

فرد عليه جدى قائلاً: "يا دوو قوان، ابتعد إلى جانب سور البئر".

وأدار جدى الرافعة حتى استطاع أن ينزل البنادق اليابانية إلى بطـــن البئر. وقام أبى بفك حبل الرافعة وربطه حول خصره.

وصاح أبى: "أدر الرافعة يا أبى".

فسأله جدى: "هل ربطت الحبل جيدًا؟"

"نعم".

"اربطه جيدًا، وحذار أن تتهاون فى ذلك".

"فلتدر الرافعة يا أبى".

"هل ربطتها ربطة سهلة الفك أم أحكمت ربطها؟"

"أبى، ماذا بك؟ ألست أنا الذى ربطت تشينغ إر حتى صعدت لأعلى؟"

راح أبى وجدى ينظران إلى تشينغ إر الملقاة على الأرض، وقد بدا على وجهها التعب والإرهاق الشديدان، بدت عيناها غائرتين وأسنانها بارزة للأمام وشعرها وقد ابيض بعض الشيء. بينما بدت أظافر أخيها زرقاء.

(٧)

استطاعت أمى أن تسترد عافيتها تدريجيًا تحت عناية المرأة ليو. كانت أمى وأبى صديقين قديمين، بالإضافة إلى قيام أبى بإنقاذها من بطن البئر، وهكذا كانت تربطهما علاقة حميمة مثل الإخوة. وكان جدى قد أصيب بنزلة برد شديدة، حتى أصبحت حياته فى خطر. وبينما هو فى سرير المرض، شم رائحة ذرة مطبوخة، كان أبى ورفاقه قد قاموا بجمع الذرة من الحقول المجاورة، وقامت المرأة ليو بطهيها أمام جدى. وبمجرد أن أكل جدى سلطانية من هذا الطعام، شعر بتحسن ملحوظ واستعاد شهيته وصحته. وحتى منتصف شهر أكتوبر، كان لا يزال يتوكأ على عصا لكى يستطيع الصعود إلى أعلى السور الترابى، ويتشمس بعض الوقت.

وخلال هذه المدة التى مرض فيها جدى، جاءت أخبار بحدوث اشتباك بين فريق القائد لينغ ماتزه والقائد جيانغ من الجيش الثامن بالقرب من سد وانغ با. وقد حدثت خسائر كبيرة فى قوات الفريقين، وكان جدى آنذاك يعانى من مرضه الشديد، حتى أنه لم يهتم بأمر هذا الاشتباك.

قام أبى ورفاقه بنصب عدد من الخيم المؤقتة داخل حدود القرية، وبحثوا بين الأطلال عن بعض الأثاث والأدوات اليومية، كما كانوا قد خرجوا إلى الحقول الفسيحة وقاموا بجمع كمية من الذرة تكفى لفصلى الشتاء والربيع. كانت أمطار الخريف قد اشتدت منذ نهاية شهر أغسطس، حتى تحول تراب حقول الذرة إلى وحل وسقطت كمية كبيرة من أعواد الذرة. وأنبتت سنابل الذرة التى أصابتها الأمطار. وبدت سنابل الذرة منحنية مثل ذيل الثعلب. وكانت الغيوم السوداء تخيم على حقول الذرة. وكانت مياه الأمطار الباردة الصلبة تنزل على أوراق الذرة محدثة صوتًا مسموعًا. بينما كانت مجموعة من الغربان ترفرف بأجنحتها وتحوم فوق الوادى الواقع عند مدخل القرية، وكان ظهور الشمس فى ذلك الحين نادرًا جدًا وكأنها مثل الكنوز الدفينة، وكان الضباب يظهر طوال اليوم أعلى ذلك الوادى ما بين ضباب خفيف وضباب كثيف.

وبعد مرض جدى، كان أبى قد نصب نفسه قائدًا، قاد كلاً من وانغ قوانغ، ده جه، الأعرج، الضرير وتشينغ إر، وحملوا الأسلحة واشتبكوا فى معركة حامية مع الكلاب التى جاءت لتأكل الجثث الملقاة وسط حقول الذرة، وكان أبى قد تدرب جيدًا على إطلاق الرصاص خلال تلك المعركة التى وقعت بين فريقه والكلاب.

كان جدى يتحامل على نفسه فى بعض الأحيان ويسأل ابنه: "ما خطتك يا بنى خلال المرحلة القادمة؟"

يجيبه أبى بلهجة تملؤها القسوة قائلاً: "خطط لقتال الكلاب يا أبى!"

فيجيبه جدى: "ويمكنك أيضًا أن تتراجع عن قتالها".

فيعترضه أبى" مستحيل، لا يمكن أن ندع هذه الكلاب تأكل جثث البشر".

تجمعت فى ذلك الوادى نحو ألف جثة، كان رجال الجيش الثامن قد قاموا فى ذلك اليوم بتكويمها، ولم يتمكنوا من دفنها دفنًا جيدًا، كانت قد ظهرت بعض الجثث متأثرة بمياه الأمطار التى أذابت التراب الذى كان يغطيها أو بسبب نهش الكلاب. وهكذا فقد استطاعت أمطار الخريف الشديدة أن تعبث بالجثث حتى فاحت رائحتها لتملأ أرجاء الوادى، واستغلت الغربان والكلاب الفرصة فانقضت على الجثث وراحت تنهش فيها نهشًا، حتى اشتدت رائحة الجثث وانتشرت انتشارًا واسعًا.

كان عدد الكلاب التى شاركت فى تلك المعركة يتراوح بين خمسمائة وسبعمائة كلب. وتزعم هذا العدد الكبير كلاب عائلتى الثلاثة الأحمر والأخضر والأسود. وكانت القوة الرئيسية لهذا العدد من الكلاب تعتمد على كلاب قريتنا، كان أصحاب تلك الكلاب على وشك أن يكونوا جميعًا بين هذه الجثث التى تفوح رائحتها فى كل مكان. وكانت الكلاب، التى تجرى هنا وهناك، فى حالة جنونية، فقد فقدت المأوى الذى كانت تأوى إليه.

وكان أبى قد قسم فريقه إلى ثلاث مجموعات، المجموعة الأولى تكونت من أبى وأمى، المجموعة الثانية من العم وانغ قوانغ والعم ده جه، والمجموعة الثالثة من الأعرج والضرير، كانت المجموعات الثلاثة قد تفرقت فى ثلاثة اتجاهات مختلفة داخل الوادى. وكانوا يرابضون عند الطرق الثلاثة الصغيرة التى خرجت من خلالها الكلاب من داخل الذرة. كان أبى يحمل بندقية طراز سانباتى اليابانية، بينما كانت أمى تحمل بندقية قصيرة. وسألت أمى أبى قائلة: "دوو قوان، لماذا أخطئ دائمًا فى التصويب؟"فأجابها أبى"لأنك دائمًا تكونين فى غاية الاستعجال، فيجب أن تحددى هدفك جيدًا ثم تحركى الزناد ببطء، وعندها لن يخيب تصويبك أبدًا".

أما الطريق الذى كان أبى وأمى يقومان بمراقبته فقد كان يمتد من ناحية الجنوب الشرقى، وكان طريقًا ضيقًا يصل عرضه إلى أقل من متر واحد، طريق متعرج تطل عليه من الجانبين أعواد الذرة التى كانت تمثل ستارة تحجب الرؤية، فما إن كانت تدخل إليه الكلاب حتى تختفى تمامًا. أما الكلب الذى كان يظهر فى مقدمة الكلاب التى تسير فى هذا الطريق، فهو الكلب الأحمر الذى يخص عائلتى، والذى كان يبدو كلبًا ثمينًا بفضل ما تمكن من أكله من تلك الجثث، كان كلبًا قويًا حكيمًا استفاد من خبرته الطويلة فى الصراع مع البشر.

وما إن صارت الشمس فى كبد السماء، حتى بدت الطرق الثلاثة التى صنعتها الكلاب ساكنة وهادئة تمامًا وقد لفها الضباب الكثيف. كانت أعداد الكلاب قد تضاءلت تدريجيًا خلال تلك المعركة التى طالت لأكثر من شهر، كان هناك نحو مائة كلب قتلت إلى جوار الجثث التى كانت ملقاة وسط حقول الذرة، وأصيب ما يزيد على مائتى كلب. كما كانت مهارة أبى ورفاقه فى التصويب قد ارتفعت خلال تلك المعركة الحامية، وكانت الكلاب خلال كل هجمة تلقى بعشرات الجثث من بين أسنانها. خلال ذلك الصراع القوى الذى دار بين الكلاب والبشر، أظهرت الكلاب بوضوح عيوبها من الناحيتين الذهنية والفنية. وكان أبى ورفاقه فى ذلك اليوم فى انتظار أول هجوم من قبل الكلاب، لأن الكلاب من الصعب أن تغير النظام الذى تعودت عليه خلال صراعها مع الإنسان، كانوا يهاجمون مرة فى الصباح ومرة فى منتصف النهار ومرة عند الغروب، وكأنهم كانوا يضبطون أوقات هجماتهم مع موعد تناول الطعام عند البشر.

رأى أبى أعواد الذرة تهتز من بعيد، فهمس إلى أمى قائلاً: "استعدى، لقد جاءوا". فاستعدت أمى ووضعت يدها على الزناد ولصقت خدها على

البندقية. وكان صوت اهتزاز أعواد الذرة قويًا، سمع أبـي صـوت لهـاث الكلاب، فعرف على الفور أن تلك الكلاب جاءت تقصد الأشلاء المتبقية فـي الوادى، سمع أيضًا صوت معدة الكلاب.

خرج ما يزيد على مائتى كلب من داخل حقول الذرة بصورة جنونيـة وكأنهم قد انقضوا فور سماعهم أمرًا من إحدى القيادات. وراحـت الكـلاب تنبح غاضبة، بينما كان شعرها يلمع تحـت الـضباب الأبـيض والـشمس المحمرة، وبدأت تنهش فى الجثث. وهكذا كانت الأهداف تتحرك أمام بنـادق أبى ورفاقه. وكان العم وانغ قوانغ والأعرج قد أطلقا الرصاص على الكلاب، فراحت الكلاب التى أصابتها الطلقات النارية تنبح بصوت حزين، أما الكلاب التى لم تصبها طلقاتهم فراحت تستغل الفرصة وتحاول أن تنهش أكبر قـدر قبل أن تلوذ بالفرار.

وضع أبى رأس كلب أسود هدفًا لطلقته الأولى، فأصـابت أذن أحـد الكلاب، فراح ينبح ثم فر مسرعًا إلى داخل حقول الذرة. ورأى أبـى رأس كلب أبيض وقد ظهرت بها علامة ما، كان معلقًا بفمه معدة سوداء، وكـان يسير فى صمت تام. فصاح أبى بصوت مرتفع" يا تشينغ إر، لقـد أصـبت الهدف!" فسألته أمى منفعلة: "هل أنا الذى أصبته؟" وأمسك أبى بندقيته وحدد هدفه نحو كلب عائلتى الأحمر، فجرى الكلب على مـسافة منخفـضة مـن الأرض، فارًا من بين مجموعة من أعواد الذرة إلى مجموعة أخرى. فأطلق أبى طلقة مرت من فوق ظهر الكلب الأحمر، ففر الكلب وهو يحمل فى فمه قدم سيدة بيضاء ممتلئة، كانت أسنانه تمسك بقدم المرأة وتمـضغها محدثـة صوتًا مسموعًا. ثم أطلقت أمى طلقة أخرى أصابت الطين الذى كان يقع أمام الكلب، فتناثر الطين ليملأ وجه الكلب، فراح ينفض رأسه ثم عـاود حمـل فريسته وانسحب من أمام أمى. استطاع كل من العم وانغ قوانغ والعم ده جه

إصابة عدد من الكلاب بجروح، حتى سالت دماء الكلاب على الجثث البشرية الملقاة على الأرض، بينما راحت الكلاب المصابة تنبح بصوت حزين ومخيف.

وهكذا انسحبت الكلاب، وتجمع أبى ورفاقه وراحوا يقومون بتنظيف أسلحتهم. ولم يعد لديهم كمية كبيرة من الطلقات النارية. فراح أبى ينبه عليهم بضرورة أن يتوخوا الدقة فى التصويب، ويجب أن يركزوا جيدًا على قتل الكلاب الثلاثة التى تتولى أمر قيادة ذلك العدد الكبير من الكلاب. فقال العم وانغ قوانغ: "إن ذلك الكلب يتمكن من الفرار قبل أن تصل إليه عين البندقية".

وحرك العم ده جه مقلته الصفراء قائلاً: "يا دوو قوان، ما رأيك أن نقوم هذه المرة بمباغتتهم؟"

فقال أبى: "كيف ذلك؟"

قال العم ده جه: "هذه الكلاب لديها بالتأكيد مكان ما للراحة، وأتوقع أن هذا المكان هو ضفة نهر موا شوى، هذه الكلاب التى تأكل لحم البشر ستذهب بالتأكيد إلى هناك لشرب المياه".

قال أبى: "هيا بنا".

فاعترضه العم ده جه قائلاً: "مهلاً، فلنرجع الآن ونأت بعدد من القذائف اليدوية، ولنقم بتفجيرهم بهذه القذائف".

وانقسم كل من أبى وأمى والعم وانغ قوانغ والعم ده جه إلى مجموعتين، وسلكت كل مجموعة طريقًا من الطرق التى صنعتها الكلاب وسط زراعات الذرة التى كانت ممتلئة بالوحل. وكانت تلك الطرق تؤدى بطبيعة الحال إلى نهر موا شوى، سمع أبى وأمى صوت مياه نهر موا شوى ونباح الكلاب عنده. وعندما اقتربا من حافة النهر، إذا بالكلاب تتجمع مع بعضها حتى بدا الطريق واسعًا ضعف مساحته الأولى. وهنا التقى أبى وأمى بكل من العم وانغ قوانغ والعم ده جه.

وعندما اقترب أبي ورفاقه من حافة النهر، رأى أبي ما يزيد على مائتي كلب متفرقة على ضفة النهر الممتلئة بالعشب، كما رأى عددًا كبيرًا من تلك الكلاب منبطحة على الأرض، ومنها ما كان يأكل في أطرافه، ومنها ما كان يبول في مياه النهر، ومنها ما كان يقف على حافة النهر ويمد لسانه يلعق مياه النهر. وشم رائحة ريح تلك الكلاب التي كانت قد شبعت من أكل جثث البشر. وقد امتلأت الأعشاب التي كانت تنمو على حافة النهر بفضلات الكلاب ذات الرائحة الكريهة. وبدت الكلابُ التي كانت منبطحة هادئة في أماكنها. أما كلاب عائلتي الثلاثة التي كانت تتزعم جماعة الكلاب، فكانت قد اختلطت وسط الكلاب الأخرى، إلا أنه كان من السهل جدًا تمييزها من بين هذا العدد الكبير من الكلاب.

وقال العم وانغ قوانغ: "دوو قوان، هل أرمي الآن؟"

فرد أبي: "استعدوا جيدًا، ولنرم معًا".

كان كل فرد منهم يمسك بزوج من القذائف اليدوية وانبطحوا في انتظار إشارة البدء، حتى صاح فيهم أبي قائلاً: "ارموا!"فسقطت ثماني قذائف يدوية وسط جماعة الكلاب، فراحت الكلاب تنظر بفضول إلى تلك الأشياء السوداء التي تنزل عليهم من السماء، ثم جلسوا صاغرين. وكان أبي قد اكتشف آنذاك مدى ذكاء كلاب عائلتي الثلاثة ومكرها، كانوا قد لصقوا أجسادهم بالأرض جيدًا. وكانت القذائف الثمانية اليدوية اليابانية ذات الجودة العالية، قد انفجرت في توقيت واحد، وامتلأت المنطقة المحيطة بشذرات انتشرت في كل مكان، تمزقت على الأقل أجساد ما يزيد على عشرة كلاب، بينما أصيب على الأقل ما يزيد على عشرين كلبًا آخرين. وتطايرت دماء الكلاب وأشلاؤها فوق صفحة مياه نهر موا شوي ثم امتزجت بالمياه الباردة، وتجمعت أسماك النهر العاشقة للدماء وراحت تتصارع للحصول على لحم الكلاب القتيلة ودمائها، بينما كانت الكلاب المصابة تقف متجمعة وهي تبكي

قتلاها في مشهد مرعب. في حين لاذت الكلاب التي لم تصب خلال المعركة بالفرار في جميع الأرجاء، فمنها ما جرى مسرعًا بمحاذاة النهر، ومنها ما سارع بالقفز داخل نهر موا شوي، وراح يقاتل للعبور إلى الضفة المقابلة للنهر. ولسوء الحظ لم يكن أبي يحمل آنذاك بندقيته، رأى عددًا من الكلاب التي أصيب في عيونها تحوم على ضفة النهر، امتلأت وجوهها بالدماء، في مشهد مؤثر جدًا. تمكنت كلاب عائلتي الثلاثة من العبور إلى الضفة المقابلة للنهر، وتبعهم ما يزيد على ثلاثين كلبًا آخرين، صعدت معًا إلى حافة النهر ووقفت هنالك وهي في مأزق خطير. وراحت الكلاب تهز جسمها بشدة وتنفض المياه التي امتلأت بها جميع أجزاء جسمها. وهنا راح كلب عائلتي الأحمر ينبح تجاه أبي في غضب شديد، وكأنه يلومه على نقض العهد معها، حيث إنه أولاً اقتحم معسكر راحتهم، ثانيًا استخدم في معركته معها أشرس الأسلحة الحديثة وأبشعها.

فقال أبي: "استمروا في رمي القذائف إلى الأمام!"

أخذ كل واحد من رفاقه بقذيفة في يده وراح يرمي بها بكل ما أوتي من قوة إلى الضفة المقابلة للنهر، وما إن رأت الكلاب تلك الأشياء السوداء تعبر النهر في اتجاهها، حتى راحت تنبح بصوت حزين جدًا، ثم بدأت تلوذ بالفرار، فنزلت من على حافة النهر قاصدة حقول الذرة الواقعة جنوب النهر. وهكذا استطاعت فرقة أبي قليلة العدد وضعيفة القوة أن ترمي بالقذائف في عرض النهر، حتى فجرت القذائف مقاييس المياه البيضاء الأربعة، فأحدث تفجيرها صوتًا مدويًا، وتدافعت على إثره أعداد من أسماك النهر.

أما مجموعة الكلاب التي كانت قد تعرضت للهجوم المباغت من قبل أبي ورفاقه، فلم تظهر في أرض المعركة خلال اليومين التاليين للهجوم. وخلال تلك الفترة لم تكن الكلاب أو فرقة أبي قد أخذوا قسطًا كافيًا من الراحة واستعدوا لمواصلة القتال.

وعندما أدرك أبى ورفاقه خطورة القذائف اليدوية، اجتمعوا معًا ليتناقشوا فى مسألة كيفية استخدامها استخداما جيدًا. وسارعوا بإرسال العم وانغ قوانغ إلى حافة النهر لاستطلاع الأحوال قبل قيامهم بالهجوم، فعاد العم وانغ قوانغ يقول إن هناك بعض الكلاب الميتة وشعر وفضلات كلاب، وتنتشر هنالك الروائح الكريهة، ولا يوجد أى أثر لكلاب أحياء، والكلاب قامت بنقل معسكرها إلى مكان جديد.

واستنتج العم ده جه من كلام وانغ قوانغ أن الكلاب قد تفرقت لفترة مؤقتة، ولكنَّ زعماءها لا يزالون موجودين ويؤدون دورهم، وأن مجموعة الكلاب ستعاود تجمعها خلال فترة قصيرة، وستستمر فى صراعها للحصول على هذه الجثث. وأن الجولة التالية من المعركة مع الكلاب ستكون جولة حامية جدًا، وذلك لأن الكلاب المتبقية الآن جميعها من الكلاب التى تتمتع بخبرة قتالية جيدة.

وفى نهاية الأمر، اقترحت أمى أن يقوم أعضاء الفريق بفتح القذائف ونصبها على الطرق التى تمر منها الكلاب. وقد حصلت خطة أمى على تأييد الجميع، وقام أعضاء الفريق على الفور بتقسيم أنفسهم إلى مجموعات، قاموا بنصب ثلاث وأربعين قذيفة يدوية على الطرق الثلاثة التى تمر من خلالها الكلاب إلى مكان الجثث. كان أبى ورفاقه يملكون سبعًا وخمسين قذيفة، استخدموا منها اثنتى عشرة قذيفة خلال الهجوم المباغت الذى شنوه على الكلاب عند نهر موا شوى، وتبقى منها خمس وأربعون قذيفة. وقد قام أبى بتوزيع القذائف المتبقية بالتساوى بين المجموعات الثلاث التى يضمها فريقه، حيث حصلت كل مجموعة على خمس عشرة قذيفة.

شهد اليومان الأخيران انقسامًا كبيرًا بين صفوف الكلاب، حدث نقص كبير فى عدد الكلاب، فقد قتل وأصيب عدد كبير منهم خلال الجولة الأولى من المعركة، كما فر عدد آخر، مما أدى إلى تناقص العدد الإجمالى إلى

حوالى مائة وعشرين كلبًا فقط. كانت فرقة الكلاب فى حاجة ملحة إلى إعادة التنظيم، ومن ثمَّ تم دمج المجموعات الثلاث فى مجموعة قتالية واحدة، وتم نقل المعسكر الأول الذى تم تدميره بواسطة ذلك الشيء الأسود، تم نقله على بعد كيلو ونصف الكيلومتر شرق حافة النهر، وتجمعت الكلاب فى فرقة واحدة على الضفة الجنوبية شرق الجسر الكبير الواقع أعلى نهر موا شوى.

كان صباح ذلك اليوم صباحًا مصيريًا، كانت الكلاب فى حيرة شديدة من أمرها وفى عجالة شديدة لأن تنفذ خطتها هذه المرة، فمضت تشق طريقها بصورة تعبر عن تحد كبير. وكانت كل مجموعة منها تراقب جيدًا حركات قائدها. فى حين ظلت كلاب عائلتى الثلاثة: الأحمر والأسود والأخضر، هادئة متزنة كعادتها فيما مضى، واكتفت بابتسامة ماكرة.

تجمعت الكلاب معًا عند الناحية الشرقية من الجسر، وجلست على أقدامها الخلفية ورفعت رقبتها لأعلى، وراحت تتأمل فى السماء الغائمة وهى تنبح بصوت مسموع. وقد ظهرت أعراض تشنج على كلبى عائلتى الأسود والأخضر، بدت أعين جميع الكلاب محمرة بسبب التهامها كميات كبيرة من جثث البشر. أصبحت الآن تضمر عداءً شديدًا للبشر. فعندما كانت تنقض لالتهام الجثث البشرية، لم يكن ذلك فقط بدافع الجوع والمجاعة التى تعرضت لها، فالأهم من ذلك كله أنها تشعر خلال قيامها بهذا العمل أنها تعلن عن تحديها للعالم الإنسانى، وأنها كانت تنتقم انتقامًا جنونيًا من هؤلاء الحكام المستبدين الذين استعبدوها لأزمنة طويلة. وبالطبع فإن كلاب عائلتى الثلاثة التى كانت تنظر إلى هذا التصرف الهمجى نظرة عقلانية تعلى من قيمتها وأهميتها بالنسبة لجنس الكلاب وثورتها على البشر. كان هذا هو السبب الرئيسى الذى جعل هذه الكلاب الثلاثة تحظى بتأييد جميع الكلاب

الأخرى. وبالطبع فإن البنية القوية والذكاء والمهارة الحركية والروح القتالية العالية التى كانت تتمتع بها الكلاب الثلاثة، نقول كان ذلك سببًا لا غنى عنه من الأسباب التى جعلتها تتزعم الكلاب الأخرى.

وهكذا استطاعت دماء البشر ولحومهم أن تغير من شكل الكلاب، بدت الكلاب التى تغذت على دماء الجثث البشرية ولحومها، ذات شعر جميل وقوية البنية، وكأن البروتينات فى أجسامها قد ارتفعت بنسب عالية، كما ازدادت رغبتها الجنسية وأصبحت أكثر شراسة وتحملاً للقتال، وعندما تتذكر تلك الحياة الكئيبة حين كانت عبيدًا للبشر تتغذى على فضلات الأطعمة التى تتبقى منهم، فإنها تشعر بالخزى الشديد تجاه تلك الحياة الوضيعة. وهكذا أصبح الهجوم على البشر رغبة جماعية تصدر عن جميع الكلاب. وقد زاد هجوم أبى ورفاقه عليهم من نزعة الانتقام التى تولدت لديهم تجاه البشر.

ومنذ ما يزيد على عشرة أيام مضت، ظهر عدم توافق بين مجموعات الكلاب الثلاثة، ولم يكن السبب فى ذلك أمرًا جللاً، تعود الواقعة إلى قيام أحد الكلاب من مجموعة الكلب الأسود خلسة بالتهام ذراع إنسان كان يخص كلبًا أبيض من مجموعة الكلب الأخضر، فراح الكلب الأبيض ليتناقش مع ذلك الكلب الذى التهم الذراع سرًا، فكانت النتيجة أن قام هذا الكلب اللص بعض الكلب الأبيض فى قدمه الخلفية. وقد أثار تصرف الكلب اللص غضب جميع الكلاب فى مجموعة الكلب الأبيض، فاتفقوا معًا وانقضوا عليه وأحدثوا به إصابات خطيرة، ولم تستطع كلاب مجموعة الكلب الأسود التى ينتمى لها الكلب اللص تقبل هذا التصرف الانتقامى، فاشتبك حوالى عشرين كلبًا من الفريقين فى معركة حامية بمحاذاة النهر. واستغل كلاب مجموعة الكلب الأحمر الفرصة، واشتبكوا فى المعركة للانتقام من بعض التصرفات السابقة مع أعضاء الفريقين. كان كلاب عائلتى الثلاثة يجلسون كعادتهم يراقبون الموقف فى هدوء تام، وقد امتلأت عيونهم بغضب شديد.

استمرت هذه المعركة الحامية ما يزيد على ساعتين، وأدت إلى إصابة سبعة كلاب بالشلل التام، وأصيب ما يزيد على عشرة كلاب أخرى بجـــروح خطيرة، وسقطت فى أرض المعركة تتألم من هول ما أصابها. وبعد انتهـــاء المعركة، وقفت جميع الكلاب تقريبًا على حافة النهر وراحت تلعق جروحها.

كانت الجولة الثانية من صراع الكلاب مع بعضها بعضًا قد وقعت فى منتصف نهار الأمس. كان كلب ذكر ذو شفتين سميكتين وعينين صـــغيرتين وشعر يخلط بين اللونين الأزرق والأصفر من مجموعة الكلب الأخضر، قد قام بكل جرأة بمعاكسة تلك الكلبة الجميلة التى كانـــت علـــى علاقـــة بقائـــد مجموعة الكلب الأحمر، مما أثار غضبه، فقام بإلقاء ذلك الكلب المتهم فـــى عرض النهر. خرج الكلب المتهم من النهر وراح ينفض المياه التى علقـــت به، ثم راح يسب الكلب الأحمر غاضبًا. سخرت مجموعة الكلب الأحمر من ذلك التصرف الوقح الذى قام به هذا الكلب النذل.

وقام قائد مجموعة الكلب الأخضر بالنباح أمام الكلب الأحمر، لم يعره الكلب الأحمر أدنى اهتمام، ثم قام بإلقاء الكلب المتهم فى النهر مرة ثانيـــة، فاكتفى الكلب المتهم بفتح منخاريه فى المياه وراح يسبح إلى الضفة مثل الفأر الجبان. وفى تلك الأثناء كانت الكلبة الجميلة تقف خلف الكلب الأحمر وهـــى تهز ذيلها.

صاح الكلب الأخضر فى وجه الكلب الأحمـــر، وكأنـــه يبتـــسم لـــه ابتسامة مصطنعة.

فرد عليه الكلب الأحمر بابتسامة مصطنعة.

ووقف الكلب الأسود بين صديقيه وراح يصيح فيهما وكأنـــه يـــسعى للتوسط بينهما.

وتجمعت الكلاب جميعها فى الاستراحة الجديدة، فكان من بنيها من يلعق المياه ومن يلعق جرحه، وقد سطعت الشمس أعلى صفحة نهر موا شوى، وظهر على حافة النهر أرنب برى كبير إلى حد ما، وما إن رأى الكلاب المتجمعة حتى فر هاربًا.

ظهرت الكلاب متكاسلة تحت شمس الخريف. وجلست كلاب عائلتى الثلاثة إلى جوار بعضها مكونة دائرة، وأغمضت عيونها وراحت تتذكر ماضيها.

استغرق الكلب الأحمر مفكرًا فى الحياة الهادئة عندما كان يقوم بحراسة فناء منزل العائلة للسيد صاحب فرن النبيذ، وكان الكلبان الأصفران لا يزالان آنذاك على قيد الحياة، وعلى الرغم من وجود بعض الخلافات بين كلاب العائلة الخمسة، فإنها كانت يدًا واحدة. ويذكر أنه كان هناك كلب نحيف ضعيف، جسمه ممتلئ بالقروح الجلدية، حتى تم طرده من حظيرة الكلاب. وكان قد تم علاجه فيما بعد فى فرن النبيذ بالفناء الشرقى، ولكنه بعد عودته إلى الحظيرة، كان لا يزال يشعر بعدم الوفاق مع الكلاب الأربعة الأخرى. وكان يكره ظلم الكلبين الأسود والأخضر وطعمهما، وكان يعلم جيدًا أنه لابد أن تحدث معركة بينها للتنافس على الزعامة. وهكذا فقد تحول الصراع بين مجموعات الكلاب الثلاثة إلى سلام، ولكن الكلب الهجين المتهم أبى ألا يغير طبعه، فراح يروج للإشاعات بين جميع الكلاب.

وحدثت بعد ذلك نقطة تحول مهمة فى هذا الصراع بين الكلاب بعضها بعضًا، رأت الكلاب مشهدًا عاطفيًّا يجمع بين الكلب الأسود وكلبة عجوز، وراحت جميع الكلاب تراقب ذلك المشهد دون أى تدخل يفسد الجو العاطفى الذى جمع بينهما. وهكذا حتى استطاعت معًا أن تنهى ذلك الصراع الجنونى الذى نشب بينها، وقد انتهى ذلك المشهد بانتحار الكلب الأسود غرقًا.

تسبب الاختفاء المفاجئ للكلاب فى توتر وفوضى كبيرة فى ترتيبات أبى ورفاقه، نزلت آنذاك أمطار خريفية شديدة، وفقد أبى ورفاقه حماسهم بانتهاء تلك المعركة الحامية التى خاضوها ضد الكلاب، وأصبحوا فى حالة تراخٍ وكسل شديد، مثل المدمن الذى اشتد به الإدمان.

وفى صباح اليوم الرابع من اختفاء الكلاب، تجمع أبى ورفاقه عند حافة الوادى وراحوا يشاهدون الضباب والرائحة الكريهة التى عبقت المكان، وهم يتناقشون حول أصل هذه الرائحة.

وكان العم الأعرج قد سلم بندقيته وانسحب من الفريق المكلف بصيد الكلاب، وعاد إلى قريته البعيدة للعمل مع ابن عمه الصغير فى المطعم الذى كان يديره. أما الأعمى فلم يكن بإمكانه العمل بمفرده، لكنه كان قد جلس فى الخيمة لمرافقة جدى المريض فى وحدته. وتبقى من أعضاء الفريق كل من أبى وأمى والعم وانغ قوانغ والعم ده جه.

قالت أمى مخاطبة أبى: "يا دوو قوان، إن الكلاب لن تأتى ثانية، إنها تخشى القذائف اليدوية". وراحت أمى تنظر إلى الطرق الثلاثة التى كانت تأتى منها الكلاب، وفى حقيقة الأمر أنها كانت أكثرهم شوقًا لأن تأتى الكلاب مرة ثانية، كانت القذائف الثلاث والأربعون التى نصبت على الطرق الثلاثة، تعبر جيدًا عن ذكائها وحكمتها.

فقال أبى: "يا وانغ قوانغ، فلتذهب ثانية لتقصى الوضع!"

فرد العم وانغ قوانغ قائلاً "لقد ذهبت بالأمس، وأخبرتكم بأن الكلاب كانت قد اشتركت فى معركة مع بعضها بعضًا شرق الجسر، ومات الكلب الأخضر. وأنها بالتأكيد قد تفرقت. وإننى أرى أنه لا فائدة من ضياع جهدنا فى هذا المكان، وعلينا أن نسارع بالاستسلام للجيش الثامن".

فقاطعه أبى قائلاً: "لا، إن الكلاب حتمًا ستأتى مرة ثانية، إنه يعز عليها كثيرًا أن تتخلى عن هذه الغنائم الشهية".

قال العم وانغ قوانغ: "وأى الأماكن تخلو حاليًا من جثث القتلى؟ والكلاب ليست بتلك الحماقة، وهل يعقل أن تعود لملاقاة القذائف اليدوية مرة ثانية؟"

فأجابه أبى: "إن عدد القتلى هنا كبير جدًا، ويعز على الكلاب أن تترك هذا المكان بهذه البساطة".

وقال العم ده جه: "إذا نوينا أن نستسلم فيجب أن نستسلم للقائد لينغ ماتزه، فإن فرقته فرقة قوية مسلحة جيدًا".

قاطعتهم أمى قائلة: "انظروا إلى هناك!"

فانحنى الجميع وراحوا ينظرون إلى الاتجاه الذى أشارت إليه أمى، إلى طريق الكلاب. وتحركت أعواد الذرة الكثيفة التى كانت تحف بالطريق من جانبيه، كانت أوراق الذرة تتلقى قطرات الأمطار الفضية. وامتلأ الطريق ببراعم الذرة المتساقطة التى اختلطت بمياه الأمطار وتراب الطريق. كما اختلطت رائحة براعم الذرة برائحة تعفن سنابل الذرة وكذلك برائحة الجثث الكريهة وفضلات الكلاب وبولها. وهكذا واجه أبى ورفاقه عالمًا مرعبًا قذرًا مليئًا بالشرور.

هنا صاح أبى منفعلاً " لقد عادت الكلاب!"

كانت أعواد الذرة المطلة على الطرق الثلاثة تهتز، بينما لم يصدر أى صوت عن تلك القذائف اليدوية المنصوبة على جانب الطريق.

وسألت أمى وهى فى قلق شديد: "ماذا حدث يا دوو قوان؟"

فأجابها أبى: "لا تتعجلى، ستنفجر بمجرد أن تلمسها الكلاب".

وقال العم ده جه: "فلنطلق رصاصة لإرهابهم".

فأطلقت أمى على الفور رصاصة من بندقيتها. فعم الهرج والمرج وسط حقول الذرة، وانفجر عدد من القذائف فى توقيت واحد، وتطايرت أعواد الذرة وأشلاء الكلاب إلى السماء، بينما سمعوا بكاء عدد من الكلاب المصابة داخل الذرة. وانفجر عدد أكبر من القذائف، وتطايرت كميات كبيرة من أجزاء القذائف والأشياء الأخرى فوق أبى ورفاقه.

وأخيرًا خرج ما يزيد على عشرين كلبًا من خلال الطرق الثلاثة، فأطلق أبى ورفاقه بضع طلقات، ففرت الكلاب هاربة وانفجر عدد من القذائف.

راحت أمى ترقص فرحًا.

ولم يكن أبى ورفاقه يعلمون ذلك التغيير الكبير الذى طرأ على صفوف الكلاب. فبعد أن تسلم الكلب الأحمر صاحب الحيل المتعددة قيادة الكلاب، سحب الكلاب إلى مكان يقع على بعد عشرات الكيلومترات، وأجرى لهم تدريبات صارمة. كانت خطته التى وضعها للهجوم خطة محكمة يعجز الإنسان الحكيم عن تخيلها، فقد كان الكلب الأحمر يعلم جيدًا أن خصومهم مجرد بشر وضيعين، وأن من بينهم شخصا يشك أنه يعرفه. إذا لم نقض تمامًا على هؤلاء الحيوانات، فإن الكلاب لن تتمتع بهذه الوجبة الشهية. كان الكلب الأحمر قد أمر كلبًا هجينًا ذا أذن حادة، أن يخرج على رأس نصف الكلاب الموجودة وتهاجم خصمهما من خلال نفس الطريق القديم، وأن عليها أن تقاتل قتالاً مستميتًا ولا تفكر فى الانسحاب مهما حدث. قام الكلب الأحمر بقيادة ستين كلبًا بنفسه، وعادت إلى خلف الوادى، واستعدت لشن هجوم مباغت على خصومها، ولكى تتمكن من القضاء على هؤلاء الحيوانات الأنذال المدينين لهم بالدم. وقبيل تحركه على رأس مجموعة الكلاب، قام الكلب الأحمر بهز ذيله وراح يلمس بأنفه أنوف جميع الكلاب، ثم قام بعد ذلك برفس قطعة طين صلبة أسفل قدمه، وقلده فى ذلك جميع الكلاب التى كانت تقف وراءه.

وعندما وصل إلى خلف الوادى، رأى هؤلاء الأنذال الذين كانوا فى فرحة غامرة، وعندها سمع صوت انفجار القذائف على الطرق الثلاثة التى سلكتها الكلاب، شعر بقلق شديد، وكذلك شعرت الكلاب الأخرى التى كانت تقف خلفه. لقد استطاعت تلك الأشياء السوداء الفتاكة أن تبيد جميع الكلاب. وكان يعلم جيدًا أنه إذا ظهر أمامهم جبانًا يخشى المواجهة، فإن الخطة التى وضعها ستفشل تمامًا. فحرك أسنانه الحادة وراح يصيح تجاه الكلاب التى كانت تقف خلفه وهى فى حيرة شديدة، ثم تقدم بعدها أحد الكلاب وتبعته الكلاب الأخرى، وانقضوا جميعًا بقلب كلب واحد وتجمعوا خلف أبى ورفاقه.

صاح أبى بصوت يملؤه الخوف "لقد حاصرتنا الكلاب من خلفنا"، ثم أدار بندقيته وأطلق رصاصة عشوائية، فأصابت الرصاصة كلبًا ذا شعر أحمر داكن، فتقدمت الكلاب إلى الأمام لمسافة مترين وأحاطت بالكلب المصاب.

قام العم وانغ قوانغ والعم ده جه وأمى بإطلاق الرصاص، فاندفعت أعداد أكبر من الكلاب صوبهم، حيث وصل كره الكلاب للإنسان إلى ذروته. ألقى وانغ قوانغ ببندقيته وفر هاربًا، فحاصره ما يزيد على عشرة كلاب. وهكذا اختفى هؤلاء البشر الوضيعون خلال لحظات قصيرة. كانت الكلاب آكلة لحوم البشر قد أصبحت منذ زمن طويل هى الحيوان البرى الحقيقى، وكانت تتمتع بحركات سريعة ومهارة فائقة، وانقضت الكلاب على العم وانغ قوانغ حتى أتت عليه تمامًا.

ووقف أبى وأمى والعم ده جه وهم فى رعب شديد من هول الموقف الذى تعرضوا له، حتى أن أمى بالت على نفسها من شدة الخوف، وقد اختفت تمامًا تلك الشجاعة التى كانوا يتحلون بها أثناء مواجهة الكلاب. وتقدمت الكلاب وحاصرتهم من جميع الاتجاهات. كانوا لا يتوقفون عن الدفاع عن

أنفسهم بإطلاق الرصاص حتى أصابوا بعض الكلاب بجروح، انتهت الذخيرة التي كانت بحوزتهم. كانت بندقية أبي السانباتي اليابانية مزودة بخنجر لامع، كان مصدر تهديد وتخويف كبير للكلاب، كانت أمي والعم ده جه يستخدمان بندقية قصيرة غير مزودة بمثل هذا الخنجر، ومن ثم فقد حاصرهم أكبر عدد من الكلاب. وهكذا تم حصار ثلاثتهم، فكانوا يرتعشون من شدة الخوف، فراحت أمي تنادي بصوت خفيض قائلة: "دوو قوان، يا دوو قوان".

فأجابها أبي: "لا تخافي، ولتنادي بصوت مرتفع، لتنادي أبي ليأتي لإنقاذنا".

فانتبه الكلب الأحمر إلى ذكاء أبي، فمال بعينيه وراح ينظر بازدراء إلى خنجر أبي.

ونادى أبي بصوت مرتفع: "أبي، أنقذنا أنقذنا"

وراحت أمي تنادي جدي باكية: "يا عمي، أسرع لإنقاذنا"

شنت الكلاب هجومًا جديدًا، تصدى له أبي ورفاقه باستماته، حتى أن أمي استطاعت أن تغرز مقدمة بندقيتها في فم أحد الكلاب حتى كسرت له نابين. كما استطاع أبي أن يغرز خنجره في وجه كلب آخر. وعندما شنت الكلاب هجومها، كان الكلب الأحمر القائد، يقف خارج جماعة الكلاب التي شنت الهجوم يراقب أبي.

وبعد أن تماسك أبي لبضع دقائق قليلة، شعر بانهيار قوته أمام هجوم الكلاب الشرس، فراح ينادي أباه من جديد بصوت مرتفع. وأحس أن جسد أمي كان مثل جدار سور ملتصق بجسده.

فقال العم ده جه بصوت خفيض: "يا دوو قوان.. سأحاول سحب الكلاب في اتجاه آخر لتتمكنا من الفرار".

فرد عليه أبي قائلاً: "مستحيل!"

فقال العم ده جه: "سأهرب أنا!"

فانفصل العم ده جه عن أبى وأمى ثم فر هاربًا إلى داخل حقول الذرة، فلاحقته عشرات الكلاب. ولم يكن أبى يستطيع النظر إلى العم ده جه، حيث كان الكلب الأحمر لا يزال يراقبه بكل دقة.

جاء صوت انفجار قذيفتين يدويتين من الاتجاه نفسه الذى فر منه العم ده جه، وقد أحدث صوت الانفجار جلبة فى أعواد الذرة، وهز صوت الانفجار أبى وكذلك تلك الكلاب المصابة. أما الكلاب التى كانت تحاصر أبى وأمى، فقد أرعبها صوت الانفجار فتراجعت بضع خطوات بعيدًا عنهما، فاستغلت أمى هذه الفرصة وأخرجت قذيفة وألقت بها على مجموعة الكلاب التى كانت تحاصرهما. وما إن رأت الكلاب ذلك الشىء الأسود يتطاير فى اتجاهها، حتى راحت تنبح بصوت مرتفع، راحت تنبح وتصيح بصوت غير مفهوم. وعندما هم أبى أن ينسحب من أرض المعركة، راحت الكلاب تضربه حول وجهه، وقد فشل الكلب الأحمر فى إصابة وجه أبى. تعرض خده لإحدى تلك الهجمات، فراحت الدماء تسيل من خده بغزارة. وانقض عليه الكلب الأحمر ثانية، فرفع أبى بندقيته يتقى شر الكلب، فأمسك الكلب الأحمر بالبندقية بمخلبيه، وطأطأ رأسه أسفل الخنجر حتى استطاع النفوذ إلى حضن أبى. وما إن رأى أبى خصلات الشعر البيضاء فى بطن الكلب الأحمر، حتى راح يرفسه بقدميه. وأخيرًا نجح الكلب الأحمر فى الوصول إلى بنطال أبى، ولكن أمى تمكنت من ضرب الكلب بالبندقية على رأسه الصلبة. فتراجع بضع خطوات، ثم هم بالهجوم ثانية، ولكنه تعرض لخبطة بندقية جديدة حطمت إحدى عينيه. ونظر أبى وأمى إلى جدى الذى كان يمسك فى يده اليسرى عصا خشبية، وتقبض يده اليمنى على بندقية يابانية الصنع، وقد بدا شيخاً ضعيفاً منحنى الظهر اشتعل رأسه شيبًا.

أطلق جدى بضع طلقات فى اتجاه تلك الكلاب، فما إن أحست بالخطر فرت إلى داخل حقول الذرة تلتمس النجاة.

ثم تقدم جدى إلى الأمام وهو يرتعد، وراح يضرب بعصاه على رأس الكلب الأحمر، ثم راح يلعنه قائلاً: "أيها الحيوان المتمرد!" ولم يكن الكلب الأحمر قد فارق الحياة بعد، كان لا يزال يتنفس، وقدماه الخلفيتان تضربان على الأرض، وبدا شعره الأحمر الجميل مثل قطع اللهب المشتعلة.

(٨)

لم تكن العضة التى تلقاها أبى من الكلب الأحمر قوية جدًا، ولكنها أصابته فى مكان خطير جدًا، تمكن الكلب الأحمر اللعين من عض أبى فى الطرف السفلى من جسمه وتحديدًا فى منطقة الفخذ بل أصاب الخصيتين، الأمر الذى جعل جدى يشتاط غضبًا من ذلك الكلب اللعين.

راح جدى يتابع جرح أبى المصاب فى هذا المكان الخطير من جسده وهو فى غاية القلق على مصير ابنه. فسألته أمى: "ما الذى حدث يا عماه؟"

كانت أمى قد لاحظت الحزن الشديد الذى بدا على وجه جدى وهو ينظر إلى ابنه الجريح.

فسمعت جدى يتحسر بلهجة حزينة وهو يقول: "لقد انتهيت.. نعم لقد انتهيت هذه المرة"...

أخرج جدى سلاحه وراح يسب الكلب الأحمر بصوت مرتفع: "أيها الكلب اللعين! لقد دمرتنى تدميرا!"

ثم رمى الكلب الأحمر المتهم بعدة طلقات أردته قتيلاً.

كان أبى يحاول النهوض والدم يسيل من بين فخذيه، ولكنه لم يكن يشعر بتعب شديد، وقال مخاطبًا جدى: "أبتاه، لقد انتصرنا".

وصاحت أمى: "عماه، أسرع بعلاج جرح دوو قوان!"

وعندما انتبه أبى إلى حقيقة إصابته فى خصيتيه، شعر بتقزز ودوار شديدين حتى سقط مغشيًا عليه.

ألقى جدى بالعصا الخشبية التي كان يتوكأ عليها، وانشغل بجرح ابنه انشغالاً كاملاً، ونادى على أمى قائلاً: "يا تشينغ إر، اهتمى به جيدًا، وهيا بنا نذهب إلى السيد جانغ شين إى". جلس جدى على الأرض وساعد أبى حتى وقف على قدميه وسارا يقصدان السيد الطبيب جانغ شين إى. بينما كانوا لا يزالون يسمعون صوت انفجار القذائف اليدوية القادم من الطرق الثلاثة التى تمر من خلالها الكلاب.

وكان السيد جانغ شين إى رجلاً فوق الخمسين، ذا شعر طويل مرسل، يرتدى جلبابًا أزرق طويلاً، ذا وجه أصفر، نحيفًا جدًا.

وهكذا استطاع جدى أن يصل بأبى الجريح إلى مكان السيد الطبيب جانغ شين إى، وقد بدا على جدى التعب والإرهاق الشديدان.

قال السيد جانغ شين إى: "أليس هذا القائد يو؟ لقد تغيرت كثيرًا أيها القائد يو".

فرد جدى: "سيدى الفاضل، لك كل ما تريد من المال".

كان جدى قد سارع بوضع أبى على سرير خشبى فى حجرة الطبيب جانغ. فقال الطبيب: "أليس هذا ابنك أيها القائد يو؟"

هز جدى رأسه.

فسأله الطبيب: "أليس هو ابنك الذى تمكن من قتل الضابط اليابانى عند جسر نهر موا شوى؟"

فأجابه جدى: "نعم، إنه ابنى الوحيد".

فقال الطبيب: "سيدى الفاضل، اعلم أننى سأبذل قصارى جهدى لإنقاذه!"ثم مد يده إلى حقيبته وأخرج ملقاطًا ومقصًا وزجاجة ميكروكروم. وانحنى قليلاً وبدأ فى فحص حالة أبى.

دنا منه جدى وقال بلهجة حازمة" أيها السيد، فلتفحص أولاً الجزء السفلى من جسمه"

فاستجاب السيد جانغ لطلب جدى، وراح يتفحص الإصابة الخطيرة فى خصيتى أبى. ثم قال" أيها القائد يو، لست معترضًا على علاج ابنكم، ولكن إصابته هذه ليست من صميم تخصصى، كما أننى لا أملك الدواء المناسب لهذه الإصابة.. أيها القائد يو، أرى أنه من الأفضل أن تقصد حكيمًا آخر بارعًا فى مثل هذه الإصابات".

أمال جدى ظهره قليلاً وراح ينظر إلى السيد جانغ بعينين يتطاير منهما الغضب، ثم قال بصوت أجش: "وأين سأبحث عن هذا الحكيم؟ فلتخبرنى أين يوجد هذا الحكيم؟ أتريد أن تجعلنى أقصد حكيمًا يابانيًا؟"

فقال السيد جانغ شين إى: "أيها القائد يو، لم يكن هذا قصدى إطلاقًا.. إن الجرح أصاب منطقة خطيرة جدًا من جسم ابنكم، وأى خطأ فى التعامل معه ستكون عاقبته القضاء على نسل أسرتكم الكريمة إلى الأبد".

فقال جدى: "طالما أننا قصدناك، فإن هذا يعنى ثقتنا فيك، فلتبدأ فى علاجه وإنقاذه".

فراح السيد جانغ يعض على أسنانه، ثم قال: "طالما أن هذا رأيكم أيها القائد يو، فإننى سأبدأ على الفور".

أخذ السيد جانغ قطعة من القطن ونظف الجرح جيدًا، حتى أفاق أبى من إغماءته. وراح أبى يحاول النزول عن المصطبة، لكن جدى منعه من ذلك، فراح أبى يضرب بقدميه معترضًا على منعه من النزول.

فقال السيد جانغ شين إى: "أيها القائد يو، اربطه جيدًا كى لا يتحرك!"

راح أبى يتوجع وهو يصيح: "أبتاه، إننى أتألم كثيرًا.".

فصاح فيه جدى غاضبًا: "تحمل يا بنى، وتذكر جرح الجد لوو خان!"

فسكت أبى على الفور، وراح يتماسك قدر استطاعته، بينما كان العرق يسيل بكثرة من جبهته.

أتى السيد جانغ بإبرة، وبدأ فى خياطة الجرح الغائر. وطلب من جدى أن يخيط الخصيتين جيدًا.

فقال السيد جانغ وهو يشعر بحرج شديد: "أيها القائد يو، إنه لا سبيل لذلك.".

رد عليه جدى وقد بدا وجهه عابسًا " أتريد أن تقضى على نسلى إلى الأبد؟"

فأجاب السيد جانغ والذى كان وجهه يتصبب عرقًا: "أيها القائد يو.. فلتشاركنى الرأى، إن الإصابة خطيرة للغاية، ولا سبيل لأن تستعيد هاتان الخصيتان وظيفتهما الطبيعة ثانية".

" فلتجتهد لوصلهما معًا".

"أيها القائد يو، لم أسمع بأى طبيب قام بذلك على مستوى العالم أجمع".

"أتظن أننى سأنتهى بهذه البساطة؟".

"من الصعب القول بذلك أيها القائد، وربما يكون الأمر عكس ذلك، وقد يكون بإمكاننا الإبقاء على واحدة فقط".

"وهل ينفع ذلك؟"

"نعم، من الممكن".

راح جدى يلعن أبى وقد بدا عليه الحزن الشديد: "اللعنة عليك، لقد جعلتنى أتعرض لكل المصائب".

وبعد أن انتهى السيد جانغ من علاج الجزء السفلى من جسم أبى، قام بعلاج وجهه، كان السيد جانغ قد أصيب بإرهاق شديد. فسأله جدى: "كم أتعابك أيها السيد جانغ؟"

فرد السيد جانغ بصوت متعب "لا تتحدث معى فى أية أموال أيها القائد يو، إن كل ما أتمناه أن أرى ابنكم يتعافى من إصابته".

"أيها السيد جانغ، إننى يو جان آو أمر الآن بفترة عصيبة فى حياتى، وثق تمامًا أنه سيأتى اليوم الذى أكافئك أعظم مكافأة على صنيعك هذا".

سند جدى ابنه وغادرا منزل السيد جانغ شين إى.

راح جدى ينظر بقلب مفعم بالأسى إلى ابنه الملقى مغشيًا عليه داخل الخيمة، كان وجه أبى مربوطًا بالشاش تمامًا إلا من فتحتين صغيرتين عند عينيه. وكان السيد جانغ شين إى قد زار أبى مرة ليطمئن عليه وقام بتغيير الدواء الذى وصفه له من قبل، وأخبر السيد جانغ شين إى قائلاً: "أيها القائد يو، من حسن حظنا أن الجرح لم يلتهب". فسأله جدى: "وهل ترى أنه لا يزال هناك أمل فى هذا الابن الوحيد؟" فقال السيد جانغ: "أيها القائد يو، دعنا الآن من التفكير فى ذلك الأمر، إن ابنكم تعرض لعضة خطيرة من قبل كلب مصاب بالجنون، ولنحمد السماء على أنه لا يزال على قيد الحياة". فقال جدى: "وماذا يجدى بقاؤه حيًا إذا كان يعجز عن الحفاظ على نسل العائلة؟" وما إن رأى السيد جانغ جدى على هذه الحالة، حتى حاول الانسحاب آمنًا.

وهكذا كان جدى مضطربًا للغاية، فحمل بندقيته وخرج ليختلى بنفسه بالقرب من الوادى، كان الجو خريفيًا. فمضى جدى يفكر أنهم الآن فى نهاية

شهر أكتوبر، وقد اقترب دخول الشتاء، وأنه لا يزال عليلاً ضعيفًا، وها هو ابنه الوحيد يرقد بين الحياة والموت، وقد تشتت شمل أسرته، وأصبح في مأزق شديد، مات وانغ قوانغ وده جه، وهجره الأعرج قوو يانغ إلى بلدته، ولازالت قدم المرأة ليو تنزف حتى الآن، وها هو الرجل الضرير يجلس إلى جواره طوال اليوم، وها هى الفتاة تشينغ إر فتاة صغيرة لا تفهم هذه الحياة الكبيرة، وها هو الجيش الثامن يسعى لضمه إليهم، وها هو لينغ ماتزه يسعى للقضاء عليه، وها هو قد أصبح الآن عدوًا لدودًا لليابانيين.. استند جدى على عصاه وراح ينظر إلى الذرة الرفيعة الممتدة أمامه والممتلئة ببقايا الجثث، وراوده شعور بالقلق والحزن الشديدين. ومضى يتذكر الأحداث الماضية التى مر بها، ما بين الثراء والنعيم الذى عاشه، والزوجة والعشيقة، والعدة والعتاد، وحياة المجون التى عاشها بالأمس البعيد، ضاع كل هذا فى لمح البصر. ضاع صراعه وكفاحه وبقى على هذه الحالة التى يرثى لها. كان جدى قد وضع يده على زناد بندقيته أكثر من مرة، ولكنه كان فى كل مرة يتردد رافعًا يده بسرعة.

لقد كان خريف وشتاء عام ١٩٣٩ هما أصعب فترة فى تاريخ حياة جدى المليئة بالأحداث الكبرى، شهدت تلك الفترة انهيار فرقته، وقتل زوجته المحبوبة، وإصابة ابنه الوحيد إصابة خطيرة، وتدمر منزله تدميرا، وأصابه مرض عضال، وهكذا دمرت الحرب كل شيء فى حياته. ووقف جدى هنالك أمام جثث البشر وجثث الكلاب، وراح يتأمل ذلك المشهد وهو فى غاية الاضطراب. عاود وضع إصبعه على زناد بندقيته من جديد راغبًا فى أن يودع هذا العالم الوغد، إلا أن الرغبة القوية فى الثأر سيطرت عليه. إنه يكره اليابانيين ويكره لينغ ماتزه وفرقته، ويكره فريق جياو قاو التابع للجيش الثامن كرهًا شديدًا. لقد استولى فريق جياو قاو على ما يزيد على عشرين

قطعة سلاح من عنده، واختفوا تمامًا، حتى أنه لم يسمع أنهم اشتبكوا مع القوات اليابانية أى اشتباك، بل سمع فقط أنهم اشتبكوا ذات مرة مع فرقة لينغ ماتزه، بل إن جدى كان يشك فى أنهم هم الذين سرقوا الخمس عشرة قطعة سلاح التى أخفاها هو وأبى فى بطن البئر.

جاءت المرأة ليو التي يزيد عمرها على الأربعين بقليل، والتى كان وجهها لا يزال يبدو جميلاً نضرًا، جاءت إلى الوادى تبحث عن جدى. وراحت تنظر إليه نظرات يملؤها الود والشفقة، ومدت يديها الغليظتين وراحت تمسك بذراعه قائلة: "أخى العزيز، لا تجلس هنا وتفكر بعيدًا.. هيا بنا نرجع معًا. لقد قال أجدادنا: "كل قضية ولها حل، ولتهتم الآن بطعامك وشرابك وراحتك حتى تتعافى من مرضك ثم نفكر بعد ذلك فى الخطوة التالية".

راح جدى ينظر متأثرًا إلى وجه تلك المرأة الطيبة، ثم قال: "زوجة أخى العزيزة.". ثم كادت عيناه تذرفان الدموع.

فراحت المرأة ليو تمسح على ظهره قائلة: " انظر إلى نفسك، كيف تبدو على هذه الحالة وأنت لا تزال فوق الأربعين بقليل".

سحبت المرأة ليو جدى لتعود به إلى الخيمة، فنظر إلى قدميها اللتين كانت بهما أثار عرج وسألها: "هل تحسنت قدماك؟"

فأجابته المرأة ليو قائلة: "لقد اختفت القروح تمامًا، ولكن هذه القدم أصبحت أكثر نحافة من أختها".

فقال جدى: "ستتحسن فيما بعد".

قالت المرأة ليو: "وأرى أنه ليست هناك خطورة كبيرة بشأن جرح دوو قوان".

فسألها جدى: "زوجة أخى العزيزة، هل تعتقدين أن هناك أملاً فى هذا الابن الوحيد؟"

قالت المرأة ليو: "نعم هناك أمل كبير، فكل ذى عاهة جبار".

فقال جدى: "أحقا كذلك؟"

قالت المرأة ليو: "ولقد ولد ابنك غلامًا، ولم يكن غير ذلك".

فقال جدى: "أليس كذلك!"

وفى المساء، أراح جدى رأسه المتعب فى حضن المرأة ليو، وراحت المرأة ليو تمسح على رأسه وعظامه النحيفة بيديها الغليظتين، ثم همست إليه: "أخى العزيز.. هل لا تزال بخير.. وهل لديك من القوة لتنسى كل همومك إلى جوارى".

وهكذا راح جدى يتقرب إليها حتى غط فى نوم عميق.

ولم تستطع أمى أن تنسى المشهد عندما كان السيد الطبيب جانغ شين إى يعالج جرح أبى، وقد بدأ فى خياطة ذلك الجرح الخطير فى الجزء السفلى من جسمه، فشعرت أمى حينها بخجل شديد.

ثم اكتشفت بعد ذلك أن جدى كان ينام جنبًا إلى جنب إلى جوار المرأة ليو.

وقد صارحتها المرأة ليو قائلة: "يا تشينغ إر، إنك الآن قد بلغت الخامسة عشره من عمرك ولم تعودى فتاة صغيرة، فاهتمى جيدًا بجرح دوو قوان، فإذا شفى من جرحه هذا، فستكونين زوجة له".

عندها كادت أمى أن تبكى من شدة الخجل.

وأخيرًا التأم جرح أبى.

وبينما كان أبى يرقد داخل الخيمة، كانت أمى تعمل جاهدة على خدمته. وذات مرة مدت يدها وراحت تلمس قضيبه كما كلفتها السيدة ليو، فانتبه إليها أبى وسألها متعجبًا: "ماذا تفعلين يا تشينغ إر؟"

صرخت أمى فى وجهه وفرت من أمامه حتى اصطدمت بجدى الذى كان قد أوشك على دخول الخيمة.

فأمسك جدى برأسها وراح يسألها: "ما الذى حدث يا تشينغ إر؟"

فراحت أمى تنشج بالبكاء. وخلصت رأسها من يدى جدى وفرت إلى خارج الخيمة.

ودخل جدى الخيمة ليطمئن على ابنه.

ثم خرج جدى بعدها مسرعًا وكأنه قد أصابه الجنون، راح يبحث عن السيدة ليو، حتى وجدها وأمسك بنهديها وراح يصرخ فى وجهها قائلاً: "لقد صدقت يا ليو، إنها رأس ثوم مفردة، رأس ثوم مفردة!"

ورفع جدى بندقيته وأطلق ثلاث طلقات فى عنان السماء. ثم رفع يديه ومضى يشكر السماء على شفاء ابنه الوحيد.

(٩)

راح جدى يطرق بيده على جدار منزل العائلة، وقد انعكس شعاع الشمس إلى داخل فناء المنزل، حتى أضاء ذلك التمثال المصنوع من الصلصال والموضوع أعلى منضدة المدفأة. وظهرت النافذة التى كانت ممتلئة بالقصاصات الورقية ذات الألوان الجميلة المتعددة، والتى كانت جدتى قد قصتها بيديها من قبل. وبعد خمسة أيام من هذه الزيارة لمنزل العائلة، كان كل شىء هنا قد تحول إلى رماد بفعل تلك الحرب الطاحنة. وفى ذات يوم من الأيام العشرة الأولى من شهر أغسطس عام ١٩٣٩، عاد جدى ثانية إلى المنزل قادمًا من الطريق العام، وقد أصيب ذراعه ويفوح جسده برائحة

الزيت. وقام بمساعدة أبى بدفن الرشاش الذى عادا به أسفل شجرة الكاتالبا وسط فناء المنزل، ثم دخلا إلى غرفة جدتى ليبحثا عن العملات الفضية التى كانت جدتى قد أخفتها داخل الغرفة.

وطرق جدى على جدار الغرفة فسمع صوت فراغ داخل الجدار، فسحب بندقيته وراح يضرب على الجدار، حتى أحدث فتحة فى جدار الغرفة. فمد يده إلى داخل الفتحة، ليخرج كيسًا قماشيًّا أحمر، وراح يهزه حتى أفرغ ما بداخله من عملات على الأرض، ثم بدأ فى عدها حيث بلغت خمسين عملة فضية.

أعاد جدى العملات الفضية إلى داخل الكيس، وقال: "هيا بنا يا بنى".

فسأله أبى: "إلى أين يا أبتاه؟"

فأجابه جدى: "إلى المدينة لشراء ذخيرة، ولنستعد لتصفية حسابنا مع لينغ ماتزه".

وعندما وصلا إلى شمال المدينة، كانت الشمس قد مالت إلى الغروب، وبدا شريط السكة الحديد فى مدينة جياو جى وسط أعواد الذرة مثل التنين الطويل، وكانت القطارات السوداء تروح وتجيء على شريط السكة الحديد محدثة صوتًا عاليًا. وقد غطى غبار القطارات سماء الذرة، وبدأ أبى يشعر بالفزع من صوت القطارات، فراح يتشبث بيد جدى.

سحب جدى ابنه حتى وصلا إلى أمام قبر عالٍ وكبير، أمامه شاهد يبلغ ارتفاعه طول شخصين، والكلمات المكتوبة عليه تبدو غامضة جدًا ويصعب التعرف عليها، وكان القبر محاطًا من الجهات الأربع ببعض أشجار السرو الضخمة، والظلام يخيم على تلك الأشجار التى كان يصدر عنها صوت مسموع حتى مع توقف الرياح. وكان القبر محاطًا بالذرة الحمراء حتى بدا كأنه جزيرة سوداء معزولة.

وقام جدى بحفر حفرة أمام القبر، وأنزل داخلها مسدسه الماوزر، كما أنزل أبى أيضًا مسدسه البرونينج.

عبر أبى وجدى شريط السكة الحديد وراحا ينظران إلى باب المدينة. وقد علق أعلى المدخل علم اليابان، وبدت الشمس التى تظهر على العلم جلية. وكان يقف عند فتحة الباب اثنان من جنود الحراسة، كان الجندى الذى يقف ناحية الشمال يابانيًّا، بينما كان الجندى الواقف ناحية اليمين صينيًّا. وكان الجندى الصينى مسئولاً عن سؤال العامة وتفتيش الذين يمرون عبر المدخل، وكان الجندى اليابانى يقف فى مكانه ممسكًا بسلاحه ومكتفيًا بالنظر إلى عمل الجندى الصينى وقيامه بتفتيش الصينيين.

كان جدى قد حمل أبى على ظهره بمجرد أن عبرا شريط السكة الحديد، ثم خاطبه قائلاً: تظاهر أن ألمًا يصيبك فى بطنك، وابدأ فى الصراخ بصوت مرتفع".

فأصدر أبى صوتًا مسموعًا ثم سأل جدى: "أليس هكذا يا أبتاه؟"

فأجاب الوالد: "يجب أن تصرخ بصوت أعلى".

ووصلا مع بقية العامة إلى المدخل. فسألهم الجندى اليابانى: "من أى قرية جئتم، وما الذى جاء بكم إلى المدينة؟"

فأجاب جدى بصوت مكتوم: "جئنا من قرية يو تان بشمال المدينة، وقد مرض ابنى وجئنا إلى المدينة نقصد السيد الطبيب وللعلاج".

اهتم أبى بسماع حوار جدى مع الحارس ونسى ما أمره به أبوه من التظاهر بالألم. فقرصه جدى قرصة مميتة فى قدمه، فصاح أبى بصوت مرتفع.

وأشار الحارس إيذانًا منه بالسماح لجدى وابنه المريض بعبور المدخل.

وعندما وصلا إلى منطقة هادئة داخل حدود المدينة، راح جدى يسب ابنه غاضبًا: "أيها الوغد، لماذا لم تتأوه كما أمرتك؟"

فرد أبى قائلاً: "أبتاه، ما أوجع قرصتك!"

اصطحب جدى ابنه وسارا عبر طريق ضيق ممتلئ بالحصى فى اتجاه محطة القطار. بدا الطريق مظلمًا والهواء محملاً بالأتربة. وانتبه أبى إلى وجود دشمتين عاليتين إلى جوار مبنى محطة القطار المتهالك. ورأى هالة حمراء لون الدم تتوسط علم اليابان المعلق أعلى الدشمتين، كما انتبه إلى اثنين من الجنود اليابانيين على رصيف المحطة يسحبان زوجًا من الكلاب، بينما كان هناك عشرات من الركاب يصطفون خارج سياج حديدى ما بين جلوس ووقوف. ورأى رجلاً صينيًا فى زى أسود يمسك بمصباح أحمر ويقف على الرصيف، بينما سمع صوت صافرة القطار القادم من ناحية الشرق. كان أبى فى رعب شديد، ثم انتبه فجأة إلى نباح الكلبين فى اتجاه القطار القادم من بعيد. ورأى عجوزًا تبيع ورق التبغ تقف حائرة بين المسافرين. وأخيرًا دخل القطار المحطة ووقف على الرصيف القريب منهم. ورأى أبى أن القطار يسحب خلفه ما يزيد على عشرين صندوقًا طويلاً، كانت الصناديق الأمامية مربعة لها باب ونافذة، بينما كانت الصناديق الخلفية خالية من السقف والأغطية، كان بداخلها كميات من الأشياء مغطاة بغطاء كبير من القماش الأخضر فى لون العشب. وكان يقف داخل القطار عدد من الشياطين اليابانيين راحوا يتمتمون ليحيوا الشياطين الواقفين على الرصيف.

سمع أبى صوت طلق نارى مدو قادمًا من حقول الذرة الواقعة إلى شمال شريط السكة الحديد، ثم انتبه إلى مشهد تمايل جندى يابانى ضخم الجثة، ظل يتمايل حتى هوى من فوق سطح قطار البضائع. دوى صوت صافرات الإنذار من أعلى الدشم العالية، بينما تفرقت جموع الركاب الذين نزلوا للتو من

القطار وهؤلاء الذين يستعدون لاستقلاله وراحو يفرون فى جميع الاتجاهات، وارتفع صوت نباح الكلاب بشكل مستمر، تم تصويب الرشاشات المثبتة أعلى الدشم العالية صوب الشمال. ووسط هذا الصخب والفوضى العارمة تحرك القطار مسرعًا وتناثر الدخان الأسود ليملأ سماء المحطة. وسحب جدى ابنه وفرا مسرعين داخل زقاق صغير مظلم.

دفع جدى بابًا شبه مغلق ودلفا إلى داخل فناء صغير. ورأى جدى فانوسًا أحمر صغيرًا معلقًا أسفل أحد المنازل، ينعكس منه ضوء أحمر باهت بعض الشىء. ورأى سيدة كبيرة فى السن إلى حد ما وقد امتلأ وجهها بالمساحيق تقف عند باب المنزل، تكشف شفتاها عن صفين من الأسنان البيضاء، ترتسم على وجهها ابتسامة مشرقة، ذات شعر أسود لامع مرسل.

نادت تلك المرأة عليه بصوت فيه دلال "أيها الأخ، أهكذا نسيت أختك الصغيرة بمجرد أن أصبحت قائدًا". ثم اقتربت من جدى والتصقت به.

رد عليها قائلاً: "فلتلتزمى الوقار أمام ابنى".

انصرفت المرأة من أمامه، ودفعت الباب الكبير ليسقط ذلك الفانوس الأحمر. ودخلت إلى المنزل وضمت شفتيها وقالت: "لقد أصاب مكتب الحرس أخى الخامس!"

فقال جدى: "أليس أن سونغ شون من مكتب الحرس هو الأخ الأكبر لهذا الأخ الخامس الذى تقصدينه؟"

فقالت المرأة: "وهل تعتقد أنه يمكن الاعتماد على مثل هذه الإخوة التى تكونت على مائدة شراب؟ بمجرد أن حدثت الحادثة هناك فى تشينغ داو، أصبحت هنا فى مأزق صعب للغاية".

قال جدى: "إن الأخ الخامس لن يضحى بك، إنه رجل شديد الحمية، وقد أبدى ذلك خلال عهد رئيس المدينة تساو مينغ جيو".

"وما الذى جاء بك إلى هنا؟ وقد سمعت أنك قاتلت اليابانيين؟"

"لقد منيت بخسارة فادحة! اللعنة كل اللعنة على لينغ ماتزه".

"ابتعد عن هؤلاء الشياطين، فإنهم آية فى المكر والدهاء، وأنت لست ندًا لهم".

أخرج جدى صرة العملات الفضية من جيبه وألقى بها على المنضدة، ثم قال: "لك هذا أيتها العاهرة".

"أى عاهرة تقصد، لقد انتهيت تمامًا منذ رحيل الأخ الخامس، كما أننى كما ترى لا أتقن استخدام السلاح".

"كفاك من اللف والدوران! ولتأخذى هذا المبلغ لتصريف شئون حياتك، ولتتذكرى جيدًا أننى لم أسيء معاملتك من قبل".

قالت المرأة: "أخى الفاضل، ما هذا الذى تقوله، أنا لست غريبة عنك".

رد جدى ببرود: "لا تثيرى غضبى!"

فقالت المرأة: "لن تتمكنا من الخروج من المدينة".

"لا شأن لك بهذا الأمر. عليك فقط أن تعطينى خمسمائة طلقة كبيرة وخمسين طلقة صغيرة".

خرجت المرأة إلى الفناء وراحت تتحسس الوضع هناك، عادت ثانية إلى الغرفة. ثم دفعت بابًا مظلمًا داخل جدار الغرفة، ومدت يدها لتأخذ من صندوق أصفر لامع الطلقات النارية التى تستخدم فى المسدسات والطبنجات.

وجاء جدى بجوال وعبأه بالطلقات النارية وربطه حول خصره ثم قال: "هيا بنا يا بنى!"

اعترضت المرأة طريقه قائلة: "ما خطتكم فى الخروج من المدينة؟"

فقال جدى: "سنخرج من خلال محطة القطار، سنقفز فوق شريط السكة الحديد".

قالت المرأة: "مستحيل، يوجد هناك دشم عالية مزودة بكشافات إضاءة كبيرة. وهناك أيضًا كلاب وجنود حراسة".

فابتسم جدى ثم قال: "فلنحاول، وإذا فشلنا سنعود ثانية".

وسار جدى وأبى بمحاذاة الزقاق الصغير المظلم حتى قريبًا من محطة القطار، لا يوجد هنا سور يلف المدينة. اختبآ أسفل جدار كشك عامل السكة الحديد، وراحا ينظران إلى الرصيف المضاء بالمصابيح الكبيرة، وإلى جنود الحراسة الواقفين على الرصيف. فهمس جدى لأبى همسة ثم سحبه واستدارا عائدين ناحية الغرب، كان يوجد هنا غرب مبنى المحطة سوق بضائع كبير مكشوف، يمتد حول شبكة أسلاك من مبنى المحطة حتى أعلى السور المحيط بالمدينة. وكانت الكشافات الكبيرة أعلى الدشم تضيء المنطقة لمسافات بعيدة. كما كان هناك عدد من المصابيح الكبيرة؛ مصابيح النيون مثبتة أعلى أعمدة عالية وسط السوق، أضاءت كل شبر داخل السوق إضاءة تامة.

وانبطح أبى إلى جوار جدى وراحا ينظران إلى جنود الحراسة الذين كانوا يذرعون السوق جيئة وذهابًا.

ثم دخلت من الناحية الغربية سيارة بضائع كبيرة، وأضاءت مصابيحها المكان ثم سلط السائق يده على بوق السيارة.

ونجح جدى وأبى فى الزحف إلى جانب السلك الشائك، وراحا يستخدمان أيديهما فى محاولة لفتح فتحة فى السلك يمكن الخروج من خلالها إلى خارج المدينة. ولكن السلك كان معقدًا جدًا، لدرجة أن قطعة منه أصابت كف يد أبى، فراح يتأوه بصوت ضعيف.

وسأله جدى بصوت خفيض: "ماذا بك؟"

فأجابه أبى بنفس الصوت: "لقد جرحت يدى يا أبتاه".

فقال الأب: "إذا لم نستطع العبور من خلال هذا السلك فعلينا العودة ثانية!"

قال أبى: "ليتنا نستخدم السلاح فى هذا الموقف".

فقال جدى: "لن ننجح فى الخروج من هنا حتى ولو كنا نمتلك سلاحًا".

قال أبى: "إذا كان لدينا سلاح فسنضرب به ذلك المصباح الكبير!"

تراجع جدى وأبى إلى منطقة مظلمة، وتحسس جدى قطعة طوب ثم رماها بما أوتى من قوة على شريط السكة الحديد. فصاحت صافرات الإنذار بطريقة جنونية، وسمع دوى طلقة نارية، تم تسليط الكشافات على جميع أرجاء المنطقة، ثم سمعوا صوت طلقات نارية بشكل متواصل، كادت تصاب أذن أبى بالطرش من شدة الصوت الذى زلزل المكان.

وفى الخامس عشر من شهر أغسطس الذى يوافق عيد منتصف الخريف(١)، ازدحمت مدينة قاو مى بالأهالى احتفالاً بالعيد. وعلى الرغم من الحرب الدائرة آنذاك فإن الأهالى كانوا يجب أن يعيشوا حياتهم، وبالتالى فهم فى حاجة للمأكل والملبس والتردد على الأسواق ليبتاعوا ما يلزمهم من

---

(١) عيد منتصف الخريف: الذى يوافق الخامس عشر من شهر أغسطس حسب التقويم القمرى الصينى من كل عام (الخامس عشر من سبتمبر حسب التقويم الميلادى)، هو أحد الأعياد الصينية التقليدية الأربعة الكبرى، التى تضم عيد الربيع وعيد منتصف الخريف وعيد الفوانيس وعيد قوارب التنين. يتم الاحتفال بهذا العيد أيضا فى اليابان وفيتنام وشبه الجزيرة الكورية فهو أحد الأعياد التقليدية المهمة فى منطقة شرق آسيا. ويعتبر من الأعياد التى تعطل فيها المصالح الحكومية لمدة يوم كامل فى الصين. ويتمتع هذا العيد ببعض العادات والتقاليد الخاصة مثل تناول الكعك وبعض الرقصات. (المترجم)

ضرورات الحياة. وهكذا كان الطريق يعج بالعائدين من المدينة والغادين إليها. وفى الثامنة صباح ذلك اليوم الموافق عيد منتصف الخريف، كان هناك شاب يدعى قاو رونغ استلم نوبة حراسته عند المدخل الشمالى لمدينة قاو مى، وكان يقوم بتفتيش الأهالى الغادين إلى المدينة تفتيشاً دقيقاً صارمًا، كان الشاب الصينى قاو رونغ قد انتبه إلى أن الجندى اليابانى الواقف أمامه يراقبه وينظر إليه نظرات مرتابة.

مر من أمامه شيخ فوق الخمسين معه صبى فوق العاشرة، وكانا فى طريق عودتهما من المدينة يجران خروفًا صغيرًا. وقد بدا وجه الشيخ متشحًا بالسواد ويبدو على عينيه التعب والإرهاق الشديد، بينما كانت عينا الصبى محمرة وقد امتلأ وجهه بالعرق من شدة التوتر.

وقف عدد كبير من الأهالى عند المدخل فى انتظار التفتيش، حيث بدأ الشاب قاو رونغ فى مزاولة عمله بصرامة شديدة.

"ما وجهتك؟"

فأجاب الشيخ الكبير" فى طريق العودة إلى منزلى".

"وهل ستتخلف عن السوق؟"

"لقد انتهيت من شراء ما أحتاج إليه، لقد اشتريت هذا الخروف الذى شارف على الموت من شدة المرض، إنه رخيص جدًا".

"ومتى دخلت المدينة؟"

"دخلتها بعد ظهر يوم أمس، وكنت أقيم فى منزل أحد أقربائى، وقد اشتريت هذا الخروف فى وقت مبكر جدًا".

"وإلى أين ستذهب الآن؟"

"سأغادر المدينة عائدًا إلى منزلى".

"مع السلامة!"

وهكذا استطاع جدى وأبى أن يخرجا من المدينة بهذا الخروف المريض. الذى كانت بطنه ممتلئة جدًا حتى كان يسير بصعوبة شديدة. كان جدى يمسك بورقة من أوراق الذرة ويضرب بها على مؤخرته ليحثه على السير، بينما كان الخروف يثغى بصوت مبحوح ويهز ذيله بصعوبة وهو يجرى صوب الطريق الترابى الواصل لقرية دونغ بى التابعة لمدينة قاو مى.

أخرج جدى وأبى الأسلحة التى كانا قد دفناها أمام القبر.

وسأل أبى: "أبتاه، هل سنطلق هذا الخروف؟"

فرد جدى: "لا، سنأخذه معنا ونقتله فور عودتنا إلى القرية ونقضى به عيد منتصف الخريف".

ووصل جدى وأبى إلى القرية فى وقت الظهيرة، وعندما نظرا من بعيد إلى السور الترابى العالى الذى تم تشييده مؤخرًا والذى يحيط بالقرية، سمعا صوت طلقات نارية تدوى داخل حدود القرية وخارجها، فتذكر جدى على الفور قلق السيد جانغ روا لو قبيل توجهه وأبى إلى المدينة، وتذكر أيضًا ما كان يدور برأسه خلال الأيام الأخيرة، وعرف على الفور أن المصيبة قد نزلت بهذه القرية. وعلى الرغم من المخاطرة الشديدة فى الخروج من المدينة، فإنه قد استطاع أن يخرج منها بهذا الخروف، وسيفعل ما يمكنه أن يفعله تجاه هذه القرية.

قام جدى وأبى بحمل الخروف شبه الميت إلى داخل حقول الذرة. ثم قام جدى بفك الحبل الذى يربط مؤخرة الخروف. وعندما قام جدى بفك الحبل تذكر مشهد قيام تلك المرأة بوضع الطلقات النارية داخل مؤخرة

الخروف، وقد نجحت فى وضع خمسمائة وخمسين طلقة داخل مؤخرته حتى تقوست مؤخرة الخروف من شدة ثقلها. وكان أبى فى غاية القلق طوال الطريق، فكان أحيانًا يساوره القلق لأن تنفجر الطلقات النارية داخل بطن الخروف، وأحيانًا أخرى يخشى أن يقوم الخروف المسكين بابتلاع هذا العدد الكبير من الطلقات النارية.

قام أبى بفتح مؤخرة الخروف لتنزل منها كمية كبيرة من الفضلات التى تخزنت لفترة طويلة، حتى شعر أبى باشمئزاز شديد من تلك الرائحة الكريهة التى ملأت المكان.

وساعد جدى الخروف على النهوض، ثم راح ينظر فى جميع الاتجاهات من حوله، ثم بدأت تتساقط الطلقات النارية من بطن الخروف.

وبدأ جدى وأبى فى جمع الطلقات النارية من على الأرض ووضعها داخل جوال، وقد انشغلا انشغالاً تامًا بجمع الطلقات النارية دون أن يهتما بأمر الخروف المسكين، ثم خرجا من حقول الذرة قاصدين القرية.

كان الشياطين اليابانيون قد نجحوا فى محاصرة القرية حصارًا تامًا، وامتلأت سماء القرية بدخان الطلقات النارية، وكانت هناك كرات من اللهب تبدو مشتعلة فى سماء القرية. وبدأ جدى وأبى بالنظر إلى المدافع الصغيرة التى كانت مدسوسة داخل حقول الذرة. والتى كان يبلغ عددها ثمانية مدافع، يصل طول ماسورة المدفع إلى نصف طول الإنسان، تتقدم الماسورة فتحة دقيقة. كان هناك ما يزيد على عشرين جنديًّا يابانيًّا فى زى عسكرى أصفر يقومون بإطلاق المدافع صوب القرية، وكان هناك أيضًا شيطان يابانى نحيف جدًا يقف هناك ويلوح بعلم صغير. وكان يقف خلف كل مدفع شيطان يابانى ممسكًا بدانة المدفع فى انتظار إشارة ذلك الشيطان النحيف الممسك بالعلم. وبمجرد أن أطلق الشياطين المدافع تزلزلت الأرض من حولهم وامتلأت

سماء المنطقة بالدخان الكثيف، كانت هناك أشياء سوداء صغيرة تطير إلى السماء محدثة صوتًا قويًا قبل أن تسقط على السور الترابى. ثم قام الشياطين بإطلاق كمية جديدة من المدافع، وعندها أصيب جدى بذعر شديد وكأنه قد أفاق من حلم طويل وأخذ بمسدسه وأردى ذلك الشيطان اليابانى النحيف قتيلاً. وبمجرد أن انتبه أبى إلى تساقط ذلك اليابانى النحيف مثل الفجلة الجافة عرف على الفور أنه قد دقت طبول الحرب. فأمسك بسلاحه وأطلق طلقة نحو قاعدة المدافع اليابانية. قام الشياطين بإطلاق النار تجاه جدى وأبى، حتى قام جدى بسحب أبى إلى داخل حقول الذرة.

وهنا بدأ هجوم الشياطين اليابانيين والقوات التابعة للإمبراطور، كانت القوات التابعة للإمبراطور فى المقدمة، بينما كان الشياطين من خلفهم.

وهكذا تم إطلاق عدد من القذائف داخل حقول الذرة. بينما كان السور الترابى ساكنًا تمامًا. وعندما تقدمت القوات التابعة للإمبراطور إلى السور الترابى، بدأت تدوى عشرات القذائف اليدوية على السور الترابى – ولم يكن جدى يعلم أن هذه قذائف غير جيدة اشتراها السيد جانغ روا لو من مصنع فريق لينغ ماتزه للأسلحة – وبمجرد أن انفجرت القذائف دفعة واحدة، سقط عشرات من جنود القوات التابعة للإمبراطور، بينما لاذ البعض الآخر منهم بالفرار، وقد تبعهم الشياطين اليابانيون. وظهر على السور الترابى عشرات الأشخاص يحملون أسلحة ومدافع محلية الصنع، وراحوا يطلقون النيران بسرعة ثم اختفوا ثانية. ليعم السكون فوق السور الترابى من جديد.

وقد عرف أبى وجدى فيما بعد، أن هذه المعركة الحامية كانت قد وقعت أيضًا فى شمال القرية وشرقها وغربها.

ثم بدأ الشياطين فى إطلاق المدافع من جديد، وقد حددوا هدفهم هذه المرة صوب مدخلى القرية، حتى استطاعوا تحطيمهما وأحدثا بهما فتحة كبيرة.

قام جدى وأبى بقصف الجنود اليابانيين. أطلق جدى أربع طلقات أسقطت اثنين من الشياطين. بينما أطلق أبى طلقة واحدة، وقد حدد أبى هدفه صوب جندى يابانى كان يقف فوق المدفع ممسكًا بدانته. ولمزيد من الأمان، كان أبى قد أمسك بمسدسه البرونينج بكلتا يديه وصوب نحو الجندى اليابانى طلقة أصابت مؤخرته. فراح الجندى اليابانى يتهاوى حتى وقع على المدفع الذى انفجرت دانته وكادت أن تفتك بأبى.

وبعد عدة سنوات من ذلك اليوم، كان أبى قد نسى ذلك الانتصار العظيم الذى حققته تلك الطلقة.

وهكذا تم تدمير الباب الرئيسى للسور الترابى، ثم بدأ الجنود اليابانيون الممتطون الخيول فى الهجوم على القرية شاهرين سيوفهم. وقد راح أبى ينظر إلى تلك الخيول الأجنبية الجميلة وهو فى غاية الإعجاب بها. وهكذا انطلقت الخيول اليابانية وسط الذرة حيث اعترضتها أعواد الذرة حتى كانت لا تستطيع أن تجرى بسرعتها المعهودة. وعندما هاجمت الخيول باب السور، كانت قد تجمعت هنالك وراحت تضرب بأقدامها وكأنها تقف أمام باب الإسطبل الخاص بها. وبينما هى كذلك، إذا بعدد كبير من المناجل الخشبية والأمشاط الحديدية وتقريبًا كميات كبيرة من الذرة المطبوخة تسقط فوق رءوس الجنود اليابانيين، الذى راحوا يضعون أيديهم فوق رءوسهم لحمايتها من تلك الأشياء التى تنزل عليهم من جميع الاتجاهات، وقد راحت الخيول تضرب بأقدامها مذعورة، فمنها ما حاول اقتحام السور ودخل إلى القرية ومنها ما لاذ بالفرار.

وعندما رأى جدى وأبى مشهد هجوم الخيول، ارتسمت على وجهيهما ابتسامة غريبة.

وهكذا أثارت مضايقات جدى وأبى تحرك الأعداد الغفيرة من القوات التابعة للإمبراطور، ثم شاركت بعد ذلك جموع كبيرة من الخيول. وكانت

السيوف اليابانية قد لمعت أكثر من مرة فوق رأس أبى، ولكن كانت تمنعها فى كل مرة أوراق الذرة وأعوادها التى كان أبى يحتمى بها. كما أصيبت ضلعة جدى بطلقة نارية أحدثت بها فتحة واضحة. استطاعت أعواد الذرة الكثيفة أن تحمى حياة جدى وأبى وتنقذهما، كانا يفران من أمام القوات اليابانية مثل الأرانب ويلجآن إلى أعواد الذرة لينزعا أسفلها زرعًا. وأخيرًا عند الظهيرة، استطاع جدى وأبى أن يفرا إلى ضفة نهر موا شوى.

وقد قاما هنالك بإحصاء ما تبقى معهم من طلقات نارية، ثم دلفا ثانية إلى داخل حقول الذرة. وما إن سارا مسافة حوالى نصف كيلومتر، حتى سمعا أمامهما صوتًا ينادى قائلاً: "أيها الرفاق، انقضوا، انقضوا للقضاء على الإمبريالية اليابانية".

وبعد أن سكت الصوت، سمعا صوت صافرة إنذار عسكرية، كان صوتها قويًا وكأنه صوت انفجار زوج من الرشاشات الثقيلة داخل حقول الذرة.

شعر جدى وأبى بإثارة وانقضا نحو مصدر الصوت. وما إن تقدما إلى الأمام، لاحظا أنه لا يوجد أحد فى هذا المكان، وشاهدا فقط زوجًا من علب الزيت الحديدية معلقة على أعواد الذرة، وهناك بداخلها زوج من عناقيد المفرقعات تنفجر بصوت مدوٍ.

ثم سمعا صوت الإنذار العسكرى وصوت الصياح ثانية.

فابتسم جدى ابتسامة ساخرة ثم قال: "تبًا لكم أبناء الجيش الثامن، لقد تعلمتم هذه الحيل".

وهكذا راحت العلب الحديدية تحدث صوتًا مدويًا استطاع أن يرغم حبات الذرة التى تعهدها جيدًا على التساقط.

كانت القوات اليابانية والقوات التابعة للإمبراطور تارة تطلق النيران وتارة أخرى تهاجم للأمام. وهنا سحب جدى أبى وتراجعا إلى الخلف. ثم تقدم عدد من أفراد الجيش الثامن إلى الأمام وهم يضعون القذائف اليدوية حول خصورهم. كان أبى قد رأى أحدهم يسجد على الأرض ممسكًا بمسدس، ثم أطلق طلقة تجاه أعواد الذرة التى كانت تهتز بشدة بسبب اصطدام الخيول اليابانية بها، كان صوت الطلقة ضعيفاً. ثم راح ذلك الرجل من الجيش الثامن الذى أطلق الطلقة يجر كمية من أغلفة الطلقات النارية، ولكنه بدا غير قادر على جرها. تقدم حصان يابانى نحو الرجل، وقد رأى أبى الجندى اليابانى الذى كان يركب الحصان يهوى على الرجل بخنجره، فألقى الرجل بمسدسه وفر هاربًا، فلاحقه الجندى اليابانى، وقد أصابه الخنجر فى رأسه إصابة خطيرة شقت رأسه نصفين، وسالت منها كمية كبيرة من الدماء ملأت أوراق الذرة المحيطة به. فأغمض أبى عينيه عن هذا المنظر البشع وانبطح على الأرض ليتفادى النظر إلى الرجل الجريح.

استطاعت الخيول اليابانية أن تفرق بين جدى وأبى. وغطت الشمس أعواد الذرة، ومرت ثلاثة ثعالب من أمام أبى، فمد أبى يده وأمسك بالذيل اللطيف لأحدهم، فسمع على الفور صوت صياح ثعالب داخل حقول الذرة، وقفز نحوه ثعلب كبير ذو شعر أحمر وأعلن عن غضبه تجاه أبى، فهب أبى للدفاع عن نفسه حتى استطاع طرد الثعلب الكبير والصغير.

ودوت أصوات الطلقات النارية فى شرق القرية وغربها وشمالها، فى حين بدت المنطقة الجنوبية من القرية هادئة وساكنة تمامًا. وراح أبى بداية ينادى جدى بصوت خفيض، ثم ارتفع صوت صياحه عاليًا. ولكنه لم يسمع صوت جدى. وظللت الغيوم رأس أبى، فراح يجرى قلقًا نحو مصدر الطلقات النارية. وقد بدت حقول الذرة أكثر ظلامًا، وبدا المنظر داخلها مرعبًا جدًا، وهنا أجهش أبى بالبكاء.

وخلال رحلة البحث عن أبيه، كان أبى قد صادف ثلاثة جثث لأفــراد من الجيش الثامن التابع للحزب الشيوعى، ولقوا حــتفهم بواســطة ســيوف الشياطين اليابانيين، وبدت وجوه الجثث الثلاثة مرعبة جـدًا. واقــتحم أبــى جماعة من أهالى البلدة كانوا يمسكون بحبال وسلاسل، جالسين داخل حقول الذرة وقد لفهم الخوف والرعب الشديدان.

سألهم أبى: "هل رأيتم أبى؟"

فسأله الأهالى: "أيها الابن الصغير، هل فتحت القرية بعد؟"

وقد عرف أبى لهجة مدينة جياو التى كانوا يتحدثون بها. وسمع صوت شيخ كبير يوصى ابنه قائلاً: "الأعمدة الفضية، الأعمدة الفضية، تــذكر هــذا جيدًا، وبالطبع فإننى أريد أيضًا الألحفة القطنية المتهالكة، وابــدأ بالحــصول على قدر صناعة الطعام فقد تهالك القدر الذى نستخدمه منذ مدة طويلة".

ولم يعرهم أبى أدنى اهتمام، واستمر فى طريقــه صــوب الــشمال. وعندما اقترب من القرية، ظهرت أمامه تلك المشاهد التى كثيرًا مــا راودت أمه وأباه وراودته هو شخصيًا فى أحلامه. ودوت أصوات الطلقات الناريــة فى شرق وشمال وغرب القرية، وخرج جميع الأهــالى، شــيوخ وأطفــال ورجال ونساء مذعورون، وراحوا يحتمون بحقول الــذرة الممتــدة خــارج حدود القرية.

دوت الطلقات النارية بالقرب من أبى، رأى حينها عددًا كبيــرًا مــن الطلقات النارية تطير أمامه وتزلزل حقول الذرة. حتى أسقطت تلك الطلقات النارية هؤلاء الأهالى الفارين وأعواد الذرة التى كانوا يحتمون بها. وســالت دماؤهم لتغطى مساحة كبيرة جدًا أمام مرمى بصره. أصيب أبــى بــذهول شديد، وجلس مكانه وراح ينظر إلى برك الدماء التى ملأت المكان من حوله.

وهكذا نجحت القوات اليابانية فى دخول القرية.

وغربت شمس ذلك اليوم مخضبة بدماء الشهداء، واقترب موعد طلوع قمر يوم عيد منتصف الخريف من شهر أغسطس فوق حقول الذرة الممتـدة أمام القرية.

وهنا سمع أبى صوت جدى يناديه بصوت مبحوح:

"يا دوو قوان!"

# الباب الرابع

# جنازة وسط الذرة

(١)

سطعت شمس أبريل الحارقة على نهر موا شوى، وبدت مياهه دافئة مثل زيت الصويا الذى تم عصره للتو. وبدأت تخرج من النهر جماعات من صغار الضفادع راحت تنتشر فى كل مكان. وامتلأت ضفة النهر بفضلات الكلاب. وكان هذا اليوم يومًا سارًا بالنسبة لجماعات الطيور المحلقة فوق النهر. فراحت العصافير تشدو بأصواتها الجميلة. وراحت طيور السنونو تسبح وسط النهر. وبدت التربة السوداء بقرية دونغ بيى بمدينة قاو مى فى حركة مستمرة تحت أجنحة الطيور المحلقة فوق سمائها. وهبت الرياح الجنوبية الغربية الحارة. وتناثرت كميات كبيرة من الأتربة على طريق جياو بينغ العام.

كان هذا اليوم من الأيام السعيدة فى حياة جدتى، كان جدى الذى تولى زعامة الجماعة الحديدية خلفًا للزعيم "أبو شامة"[١]، قد قرر أن يقيم جنازة كبيرة لجدتى التى توفيت منذ ما يقرب من عامين. وكان قد عبر عن رغبته هذه أمام القبر المؤقت الذى شيده لجدتى. ذاع خبر هذه الجنازة الكبيرة وانتشر فى جميع أرجاء قرية دونغ بيى بمدينة قاو مى قبل شهر من اليوم، وتم تحديد يوم موعد الجنازة لتكون فى اليوم الثامن من الشهر الرابع. وفى صباح اليوم السابع من الشهر الرابع، توافدت إلى القرية وفود كبيرة من

(١) الزعيم أبو شامة: حيث كانوا قد لقبوه "بأبو شامة"، بسبب تلك الشامة السوداء التى كانت تظهر إلى جانب عينه اليمنى. (المترجم)

الأهالى القادمين من أماكن بعيدة مستقلين العربات التـــى تجرهــا الحميــر والأبقار، وكانت محملة بالنساء والأطفال. كما جاء إلى القرية عدد كبير من صغار التجار والباعة المتجولين لاستغلال فرصة تجمع هذا الحشد الكبير من الأهالى وتحقيق الأرباح. امتلأت شوارع القرية وأسفل الأشجار الواقعة عند مدخل القرية بالأفران والقدور والخيم التى تم تجهيزها لاستقبال هذا اليــوم الكبير. كما امتلأت القرية بالشيوخ والرجال والنساء من كل الأعمار.

فى ربيع عام ١٩٤١، وخلال الاشتباك الذى وقع بين فرقة لينغ ماتزه التابعة للحزب الوطنى وفرقة جياو قاو التابعة للحزب الــشيوعى، وخــلال الهجوم الذى خطط له جدى زعيم التنظيمات الحديدية، وخلال الالتحام مــع القوات الموالية لليابانيين، تدهورت حالة لينغ ماتزه كثيرًا. وقيل إنه فر هاربًا إلى غابات منطقة سان خه الجبلية للراحة والاستشفاء، بينما اختبأت قــوات جياو قاو التابعة للحزب الشيوعى فى منطقة دا تــزه الجبليــة حتــى تلتــئم جراحهم. وعلى الرغم من التنظيمات الحديدية التى كونها جدى مع عدد من منافسيه القدامى، واستطاعوا خلال فترة زمنية قصيرة تطويرها ليكونوا قوة عسكرية تمتلك ما يزيد على مائتى بندقية وما يزيد على خمسين حصانًا من الخيول الأصيلة المدربة على الحرب- نقول على الرغم من ذلك فإنه بسبب غرابة هجماتهم والطابع الدينى الذى كان يغلب عليهم، لم يتمكنوا من جــذب انتباه القوات اليابانية والقوات الصينية الموالية لليابانيين. ويعتبر عام ١٩٤١ أكثر الأعوام التى شهدت فيها حرب المقاومة ضد اليابان وحشية وقسوة لــم يسبق لها مثيل خلال سنوات هذه الحرب، ولكن على الرغم من ذلك، كانــت قرية دونغ بيى بمدينة قاو مى كانت تبدو خلال هذا العام قرية هادئة يعمهــا السلام والأمان. إذ قام الأهالى ببذر محصول الذرة الجديد فوق الجثث الكثيرة التى امتلأت بها حقولهم. وبعد بذر البذور، كانت قد نزلــت نوبــة أمطــار

متوسطة، خضبت الأراضى الخصبة بقرية دونغ بيى، وسطعت الشمس حتى ظهرت براعم الذرة. وقبل موعد المرة الأولى لحرث الذرة، حل موعد اليوم الثامن من الشهر الرابع، موعد جنازة جدتى، التى صادفت موسم الفراغ من العمل فى مجال الزراعة.

وفى مغرب اليوم السابع وعشية يوم الجنازة، امتلأت القرية بالأهالى الذين خرجوا يلملمون الأشياء الكثيرة التى دمرتها النيران التى أصابت القرية فى الخامس عشر من الشهر الثامن عام ١٩٣٩. وقفت عشرات العربات التى تجرها الحيوانات فى عرض الطرقات التى امتلأت بالغبار الشديد، وقفت العربات الكبيرة لتفريغ حمولتها من البهائم: الحمير والأبقار والأشجار. وسطعت شمس الربيع على جلود تلك البهائم، واكتست أوراق الأشجار التى لم تنضج بعد بالحمرة، وبدت أوراقها مثل الأوراق النقدية القديمة التى كانت تبدو مطبوعة على ظهور البهائم المحيطة بها.

وعند غروب شمس ذلك اليوم، دخل القرية طبيب متخصص فى الطب التقليدى من خلال الطريق الواقع عند الناحية الغربية للقرية على ظهر بغل. وظهر رجل ذو أنف أسود كبير، يرمى جميع ما حوله بنظرات حادة. وما إن دخل الرجل القرية حتى نزل عن ظهر بغله النحيف، وراح يهز الجرس النحاسى اللامع المعلق فى رقبة البغل، ومضى يسحب البغل من الحبل الأزرق المربوط برقبته، ومضى إلى الأمام قاصدًا وسط القرية. وكانت قد بدت على البغل النحيف معالم الشيخوخة، فكان يسير بخطوات متباطئة وبدا جسده ممتلئًا بالقروح.

مضى الطبيب وبغله النحيف يتقدمان جموع الأهالى، حتى أثارا فضول تلك الجموع الكبيرة المحتشدة التى تجمعت لرؤية الطبيب عن قرب. بدا

الرجل وبغله غريبين تمامًا، وبدا صوت الجرس النحاسى صوتًا ساحرًا. وتبعه عدد من الأهالى الذين كانوا فى غاية الإثارة لمراقبة هذا الرجل، مضوا وراءه مسرعين حتى تطاير الغبار من تحت أقدامهم ليغطى الرجل. فراح الرجل يحرك عينيه ويمسح على أنفه التى بدت ملفتة للجميع. وعطس الرجل عطسة قوية، كما خرجت ريح كريهة من بطن البغل النحيف. فوقف الأهالى جامدين، ثم هموا بالضحك وتفرقوا وراح كل منهم يبحث لنفسه عن مأوى.

انشحت القرية بالظلام، وهبت عليها رياح باردة قادمة من الخلاء الواسع خارج حدود القرية، وسمع الأهالى أصوات نقيق الضفادع القادم من اتجاه نهر موا شوى، وبدأت جموع القادمين إلى القرية للمشاركة فى جنازة جدتى فى التجمع، لم تسعهم حِدود القرية، فخرجوا إلى حقول الذرة واتخذوها مأوى لهم حتى الصباح، تم تدمير مساحات شاسعة من حقول الذرة خلال الجنازة، دمرتها جموع الأهالى التى افترشت هذه الحقول طوال فترة الجنازة، واستمر هذا التدهور والدمار الذى أصاب هذه المساحات الشاسعة من الذرة حتى شهر مايو عندما نزلت الأمطار التى أعادت الحياة لهذه المساحات الكبيرة.

مضى الطبيب يتقدم إلى الأمام وهو يهز الجرس النحاسى. وبعد أن قطع الطريق الترابى الممتد وسط القرية، راح يلف حول الخيمة المؤقتة التى نصبتها عصابة جدى الحديدية. وكانت أكبر خيمة تشهدها القرية. تم وضع الصندوق الخاص بروح جدتى وسط الخيمة، وامتلأت الخيمة بالشموع التى أضاءتها تمامًا. وكان يقف عند المدخل اثنان من أفراد التنظيمات الحديدية مقلدين بالسلاح، وانعكس الضوء على صلعتهما، كانت رءوس جميع أفراد التنظيمات الحديدية على هذه الشاكلة، والإنسان يرواده الشعور بالخوف

بمجرد النظر إلى صلعة هؤلاء الأفراد. أحيطت الخيمة الكبيرة بما يزيد على مائتي رجل من أفراد التنظيمات الحديدية ذوى الرءوس الصلعاء، وربط بالأشجار المحيطة بالخيمة ما يزيد على خمسين رأسًا من الخيل المدربة على الحرب. وكانت الخيول آنذاك منهمكة فى تناول العلف الموضوع أمامها، تصدر أصواتًا وتهز ذيولها لإبعاد الذباب الذى كان يضايقها. وكان السايس منشغلاً بوضع المزيد من الأعشاب أمام الخيول، وقد انتشرت أسفل أشجار الصفصاف رائحة حبوب الذرة الرفيعة الذكية.

وأغرت هذه الأعشاب الخضراء ذات الرائحة الذكية البغل النحيف، فراح يجتهد فى التقرب من تلك الخيول المربوطة إلى أشجار الصفصاف، بينما راح الطبيب يتابع بغله بابتسامة مصطنعة، وأخذ يتمتم وكأنه يريد أن يتحدث إلى بغله: "هل اشتهيته أيها البغل؟ فلتسمع منى هذه الحكمة، فإننى قد تعرضت لمواقف مشابهة لما تتعرض له الآن، فالإنسان قد يقدم حياته ثمنًا لسعيه وراء المال والجاه، والحيوان مثلك قد يقدم حياته ثمنًا للسعى وراء الطعام، فلا يجب استعجال الأمور، فما أقصر عمر الزهور، وإذا كان بوسعك أن تصفح عن الآخرين فاصفح عنهم وامنحهم الفرص المناسبة، وثق تمامًا أن ذلك ليس بسبب ضعفك وحماقتك، وإنك ستجنى فيما بعد ثمرة ما تقدمه من معروف...

أثار كلام الطبيب وتصرفاته انتباه أحد أعضاء التنظيمات الحديدية كان متخفيًا فى زى العامة لمراقبة جميع ما يحدث خلال ذلك اليوم المشهود. تبعه اثنان من أفراد التنظيم، وانتظروه وهو يهذى بكلامه هذا حتى وصل قريبًا من تجمع الخيول، فوقف أحدهم أمامه والآخر خلفه وصوبوا نحوه مسدساتهم وقبضوا عليه.

ولم يبد على الرجل أدنى خوف أو ارتباك، راح يضحك بلهجة صارمة، بينما انشغل أفراد التنظيمات الحديدية بالحديث إلى بعضهم بعضًا.

انشغل ذلك الذى كان يقف أمام الطبيب بالنظر إلى عينيه اللتين بـدتا مثـل قطعة فحم مشتعلة، ونظر الآخر إلى رقبته السوداء التى كانت تبـدو صـلبة ومستقيمة. وهنا سقط البغل النحيف على الأرض محدثًا صوتًا مرتفعًا، ثـم سمعوا صوت صراع زوج من الخيول على بعض من العشب.

وأضيئت داخل الخيمة الرئيسية أربع وعشرون شمعة حمـراء، كـان ضوء الشموع لا يتوقف عن الحركة فى جميع الاتجاهات، حتى بدا كل شىء داخل الخيمة يتحرك بصورة مريبة. وكان الصندوق الذى وضعت فيه روح جدتى لا يزال وسط الخيمة، أحاطت به الشموع الحمراء التى اكتست بطبقة ذهبية وبدا لونها ساحرًا. وضع حول الصندوق بعض الأزهار وقـصاصات على هيئة صبى وفتاة. كانت هذه القصاصات من أعمال السيد "باو إن" فنان الورق المعروف وصنعها من سيقان الذرة، فقد كانت الأشياء العادية البسيطة تتحول تحت يدى هذا الفنان إلى أعمال فنية حية، وضع خلف الصندوق شاهد لجدتى مكتوب عليه: المرحومة داى كانت سيدة مطيعة للآلهة وكانت زوجة صالحة مخلصة للسيد يو وأمًا حنونًا للطفل دوو قوان. ووضع أمام الـشاهد مبخرة ذات رائحة ذكية ممتلئة بأعواد البخور المشمشية اللون، كانت تستمر لفترة طويلة حتى تحترق تمامًا. وظهر أبى آنذاك برأسه الصلعاء تعبيرًا عن أنه ينتمى للعصابة الحديدية. كان جدى قد رسم على صلعته شـكل نـصف قمر، وجلس هو والسيد أبو شامة رئيس التنظيم إلى جانب الخيمة، وراحـا ينظران إلى السيد الراهب سه شه العالم بأمور الجنازات، وجاء من مدينـة جياو شيان وكان منشغلاً بتدريب أبى على تقديم التحية لـروح أمـه. كـان الراهب سه رجلاً فى حوالى الستين من عمره، يطلق ذقنًا بيضاء تميل إلـى اللـون الفـضى، وذا أسـنان ناصـعة البيـاض، ولـسان حـاذق، تعرف من الوهلة الأولى أنه إنسان عليم واسع المعرفة ماهر فى أداء عمله؛ كان السـيد سه قد انهمك فى تدريب أبى غير عابئ بعدم اهتمامه، فقد كـان لا يحسن الانتباه إلى محاكاة حركات السيد الراهب سه.

كان جدى يعنف أبى بلهجة صارمة قائلاً: "دوو قوان، لا يمكن التساهل فى هذه الأمور، وأعلم أنه يجب أن تفعل أى شىء لأجل أن تكون ابنًا بارًا بروح أمك!"

فاستمع أبى إلى نصيحة جدى واهتم بالتدريبات لبعض الوقت، وما إن ينتبه إلى انشغال جدى بالحديث مع أبى شامة حتى يعاود التدريب بصورة عشوائية. دخل نفر إلى داخل الخيمة للتفاوض مع الراهب حول بعض الحسابات الخاصة بالجنازة، وخرج معهم الراهب بعد أن أذن له جدى بالخروج، وكانت التنظيمات الحديدية قد أنفقت مبلغًا كبيرًا من المال على هذه الجنازة المهيبة التى أقيمت لتأبين جدتى. ولكى يتمكن جدى من جمع هذا المبلغ الكبير بطريقته غير المشروعة، بعد أن انسحبت قوات لينغ ماتزه وقوات جياو قاو من البلدة، قام جدى بنشر عملة مالية ورقية مصنوعة من أوراق العشب داخل قرية دونغ بيى بمدينة قاو مى، استحدث ورقتين بفئة ألف يوان وعشرة آلاف يوان، كانت صورة هذه الأوراق النقدية بسيطة جدًا (كان يظهر عليها صورة مخلوق غريب شبيه بالإنسان يركب فوق نمر)، وكانت الطباعة غير دقيقة تمامًا (كانت تستخدم الألواح الخشبية المستخدمة فى طباعة ملصقات عيد الربيع). أيامها، كانت هناك على الأقل أربعة أنواع من الأوراق النقدية تنتشر فى قرية دونغ بيى بمدينة قاومى. أما قيمة كل نوع من هذه الأوراق النقدية وصعودها وهبوطها فى السوق، فقد كان يتوقف بشكل رئيسى على نفوذ الشخص الذى أصدرها. واعتماد الجهات المسلحة على السلاح لإصدار عملة معينة، كان نوعًا من الظلم الشديد للعامة. وقد اعتمد جدى على هذه الطريقة لكى يتمكن من توفير المبالغ الطائلة التى تكلفتها الجنازة المهيبة التى أقامها لجدتى. وبعد انسحاب قوات لينغ ماتزه التابعة للحزب الوطنى وقوات جياو قاو التابعة للحزب الشيوعى، كانت الأوراق المالية التى أصدرتها فرقة جدتى هى أكثر الأوراق المالية ثباتًا فى

قرية دونغ بيى بمدينة قاومى، غير أن هذا الوضع الجيد قد استمر لمدة بضعة شهور فقط، فبعد انتهاء المراسم الجنائزية المهيبة التى أقيمت لجدتى، كانت هذه الأوراق قد تحولت إلى أوراق مالية عديمة القيمة.

ودخل الطبيب الخيمة تحت قبضة اثنين من أفراد التنظيم، ضايقه ضوء الشموع التى كانت تمتلئ بها الخيمة.

وسألهم جدى غاضبًا " ماذا بكم!"

فسجد أحدهم على ركبة واحدة ووضع يديه على صلعته ثم قال: "جئنا لنعلمكم أيها النائب أننا قبضنا على هذا الخائن!"

فضرب رئيس التنظيم السيد أبو شامة، ذلك الرجل الأسود الضخم، المنضدة الممدودة أمامه، ثم صاح بصوت مرتفع: "اسحبوه إلى خارج الخيمة وقطعوه إربًا إربًا، آتونى بقلبه!"

فتحدث جدى إلى الرجلين قائلاً: "مهلاً مهلاً!"ثم توجه بحديث إلى السيد رئيس التنظيم قائلاً: "يا أخى الأكبر، ألا ترى أنه يجب علينا أن نستقصى حقيقة الأمر قبل أن نأمر بقتله؟"

فضرب أبو شامة إبريق الشاى الموضوع أعلى المنضدة والمصنوع من الصلصال ثم وقف وقال "عمَّ نسأله ابن اللعينة!" ثم استل بندقيته المربوطة حول خصره وراح ينظر غاضبًا إلى ذلك الرجل الذى دخل وأذاع عليهم خبر هذا الخائن.

قال الرجل عضو التنظيم وهو فى غاية الرعب: "أيها الرئيس.".

فراح أبو شامة يكيل له من السباب اللعين قائلاً: "اللعنة على أمك يا جو شيون، ألا تزال تعتبرنى رئيسًا؟ يا ابن اللعينة، حذار أن تجعلنى أراك ثانية، إننى أكره رؤيتك أيها اللعين ابن اللعينة!" ثم ضرب

أبو شامة الإبريق الذى سقط من أعلى المنضدة حتى تفتت إلى قطع صغيرة، تطايرت ودخلت فى قلب الأزهار التى كانت تحيط بتابوت جدتى.

قام رجل فى عمر جدى تقريبًا وانحنى قليلاً وراح يجمع القطع الصغيرة التى ملأت المكان وتطايرت إلى الأزهار الموضوعة حول التابوت، وألقى بها إلى خارج الخيمة.

وخاطب جدى ذلك الرجل الذى قام بجمع قطع الإبريق قائلاً: "يا فو لاى، ساعد السيد الرئيس واصحبه ليأخذ قسطًا من الراحة، لقد شرب حتى الثمالة!"

فتقدم السيد فو لاى وسند ذراعى الرئيس أبى شامة، الذى أزاحه بعيدًا عنه. ثم قال: "تقول إننى سكرت، من هذا الذى شرب حتى الثمالة؟ أيها الكلب الناكر للجميل! أنا الذى اجتهدت فى تكوين هذا التنظيم وبنيته بنفسى، هل تنوى أن تحصد ما زرعت يداى بهذه البساطة؟ فالنمور تأكل أولاً ثم تطعم الكلاب والدببة! لم أخدعك من قبل، وأنا لست طماعًا! كما أننى أعرف ما أفعل جيدًا! والأيام بيننا!"

فقال جدى: "أخى الفاضل، ألا تخشى أن تفقد شخصيتك أمام هذا الجمع الكبير من الإخوة؟"

ارتسمت على وجه جدى ابتسامة قاسية، وبدت تجاعيد وجهه المرعبة.

ومد أبو شامة يده إلى خصره وتحسس زناد مسدسه، وبدت حنجرته متعبة فراح يسب جدى بكلمات لاذعة: "اغرب عنى أيها الكلب اللعين! اغرب عنى أنت وكلبك الصغير أيها اللعين ابن اللعينة!"

فقال جدى: "دخول الحمام مش زى خروجه".

فأخرج أبو شامة مسدسه وراح يلوح به فى وجه جدى.

مد جدى يده وأخذ كوبًا من النبيذ وشرب منه شربة، ثم تجشأ بصوت مسموع، ثم ألقى بما فى جوفه من نبيذ فى وجه أبى شامة. وما إن رفع جدى يده قليلاً حتى سقط الكوب فى حجم البيضة الكبيرة على مسدس أبى شامة، فتحطم الكوب إلى قطع صغيرة سقطت على الأرض. وانشغل أبو شامة بمسدسه.

فخاطبه جدى بصوت قوى قائلاً: "اسحب سلاحك! فإن هناك حسابًا قديمًا لم أصفه معك، فلا تستعجل نهايتك".

راح أبو شامة يتمتم بكلمات غير مفهومه، ثم أعاد المسدس إلى حيث كان، وعاد ليجلس على مقعده الذى كان جالسًا عليه منذ قليل.

فرماه جدى بنظرة تمتلئ بالسخرية والازدراء الشديد، ورد هو على جدى بنظرة أشد سخرية وازدراء.

وفجأة سمعوا صوت ضحك ذلك الطبيب أو المتهم الخائن الذى كانت تعلو وجهه تعبيرات تسخر من جميع ما حوله، وقد استمر فى الضحك المميت وراح يضرب بذراعه بشكل عشوائى وكأن أحدًا يجبره على ذلك. وشعر جميع من فى الخيمة بالتوتر الشديد تجاه تصرف هذا الرجل، وقد أصبحوا فى حيرة من أمرهم. بينما كان الرجل لا يزال مستمرًا فى الضحك بشكل ملفت للنظر، وقد فاضت عيناه بالدموع من شدة الضحك.

فقال أبو العيون السود: "ما الذى يضحك يا ابن اللعينة؟"

وفجأة سكت الرجل عن الضحك، وقال بصوت صارم: "تسب أمى، فلتذهب إليها إذا كنت تشتهيها؟ لقد ماتت منذ زمن بعيد، وواراها التراب منذ عشر سنوات، فلتذهب إليها!"

فخرس لسان أبى شامة، ثم قفز أعلى المنضدة والمقاعدة المصفوفة حولها وضرب الطبيب لكمة فى وجهه. فسال الدم من وجهه مرورًا بأنفه ثم شفتيه حتى ذقنه.

سأله جدى: "ومن الذى أرسلك إلى هنا؟"

فراح الطبيب يهز رقبته وكأنه قد ابتلع بعض الدماء التى أغرقت وجهه ثم قال" أين بغلى؟ إلى أين أخذتم بغلى؟"

فقال أبو شامة: "إنه بالتأكيد أحد الخونة التابعين لليابانيين! آتونى بالسوط لكى أقوم بتأديب هذا الكلب!"

راح الطبيب يصيح بصوت مرتفع قائلاً: "بغلى! أعيدوا لى بغلى! أعيدوا لى بغلى.". ثم جرى مسرعًا نحو الخيمة، فاعترضه اثنان من أفراد التنظيمات الحديدية وأمسكوا بذراعيه، فراح يصارعهم بشكل جنونى. فرفع أحدهم يده عالية وضربة ضربه قوية على جبهته أحدثت صوتًا مسموعًا، حتى انحنت رقبته لأسفل مثل عود الذرة المكسور، ثم سقط على الأرض.

قال جدى: "فتشوه!"

فقام أفراد التنظيم بتفتيشه تفتيشًا دقيقًا، وعثروا معه على زوج من الكرات الزجاجية التى يلعب بها الأطفال الصغار، كرة خضراء والأخرى حمراء زاهية. وهناك فتحتان صغيرتان فى جانب كل كرة منهما. فأخذهما جدى وراح يتفحصهما أمام ضوء الشموع، وقد بدت الكرتان لامعتين جذابتين. فهز جدى رأسه بطريقة غير مفهومة، ووضع الكرتين فوق المنضدة. فتسلل أبى إلى جوار المنضدة حتى تمكن من سرقتهما.

وقال جدى: "أعطوا أحدهما للأخ فو لاى".

وهنا سارع جدى بمد يده أمام وجه فو لاى خادم أبى شامة وقال: "أيهما تريد؟"

فقال فو لاى: "أريد الكرة الحمراء".

قال أبى: "لا يمكن، سأعطيك الخضراء!"

فرد فو لاى: "إننى أريد الكرة الحمراء!"

أصر أبى على موقفه قائلاً: "سأعطيك الكرة الخضراء!"

فقال فو لاى مضطرًا: "حسناً فلتكن الكرة الخضراء". ثم مد يده وأخذ الكرة الخضراء.

واستطاع الطبيب أن يرفع رقبته رويدًا رويدا، ولم تتوقف عيناه عن إرسال تلك النظرات الحادة.

فسأله جدى: "فلتجب، هل أنت أحد الخونة التابعين لليابانيين؟"

فراح الطبيب يردد مثل الأطفال جملته المعهودة: "بغلى! بغلى! لن أتفوه بكلمة واحدة حتى تعيدوا لى بغلى!"

ضحك جدى ضحكة طفولية، وقال بصدر رحب: "فلتأتوا له ببغله، ولنر ماذا هو فاعل".

وجاءوا له بذلك البغل النحيف إلى الخيمة. وما إن نظر البغل إلى الشموع المضاءة والتابوت والأوراق التى تمتلئ بها الخيمة حتى شعر برعب شديد ولم يحتمل الوقوف أمام الخيمة. فتقدم إليه صاحبه ووضع يديه فوق عينيه وسحبه إلى داخل الخيمة. ووقف البغل أمام جدى وأمام أبى شامة وغيرهما من رجال التنظيم وأرجله النحيفة لا تتوقف عن الارتعاش، وأخرج ريحًا تجاه الصندوق الذى يحتوى على روح جدتى.

احتضن الطبيب رقبة البغل، وراح يمسح على جبهته التى بدت جامدة مثل لوح الخشب، وراح يخاطبه بود: "أيها الرفيق، هل أنت خائف؟ لا تخف، نعم أقول لك لا تخف، لا تخف حتى إذا أصروا على تقطيعك إربًا إربا وقدموك فى القدور!"

فقال أبو شامة: "ما أكبره من قدر!"

وقال الطبيب: "مهما يكن فلا تخف أيها البطل، فإنك مازلت بطلاً بعد عشرين عامًا مضت!"

فسأله جدى: "فلتخبرنا إذا! من الذى أرسلك إلى هنا، وما هدفك من هذه الزيارة؟"

فرد الرجل قائلاً: "لقد أرسلتنى روح أبى، أرسلتنى إلى هنا لأبيع لكم الدواء".ثم مد يده إلى زكيبة على ظهر البغل وأخرج كيس دواء وراح يتغنى قائلاً: "حبة بازلا وزوج من البادزهر(١)، ثلاث حبات من الذراريح وأربعة أعواد من المسك، سبع حبات من البصل وسبع حبات من التمر، وسبع حبات من الفلفل ومثلها من الزنجبيل".

وقف الجميع حائرين فى أمر هذا الرجل وراحوا ينظرون إلى وجهه وإلى فمه الذى لا يتوقف عن الغناء، وإلى ملامح وجهه وإلى يديه وإلى كيس الدواء الذى يمسك به. وقد بدأ البغل النحيف يتكيف تدريجيًا مع الجو المحيط، حيث توقفت أرجله عن الارتعاش، وراح يحرك حوافره المتهالكة الشاحبة باطمئنان.

وسأل أبو شامة: "ما هذا الدواء؟"

فضحك الطبيب ضحكة ماكرة ثم قال: "إنه دواء فعال لسرعة الطلق أثناء الولادة". ثم قال" إن هذا الدواء فعال للتعامل مع هذه الحالات مهما كانت صعوبتها، قرص واحد ثلاث مرات يوميًا، وإذا لم تحصل على النتيجة المرجوة، فإننى سأكون ملزمًا أمامك برد المبلغ المدفوع!"

---

(١) البادزهر: من المواد المستخدمة فى الطب الصينى التقليدى. (المترجم)

فراح أبو شامة يسبه قائلاً: "اللعنة عليك أيها الكلب ابن الكلب!"

ثم مد الطبيب يده إلى الزكيبة وأخرج كيسًا من الدواء وقال" ويوجد أيضًا أدوية أخرى!" ثم رفع الكيس لأعلى وراح يتغنى من جديد" دواء فعال صالح لعلاج جميع الأمراض".

فسأله أبو شامة "وماذا يعالج هذا الدواء؟"

"يعالج الضعف عند الرجال مهما كانت صعوبة الحالة، قرص واحد ثلاث مرات يوميًا، وإذا لم تحصل على النتيجة المرجوة، فسأكون ملزمًا أمامك برد المبلغ المدفوع!".

فراح أبو شامة يعبث بصلعته، ثم انخرط فى الضحك.

واصل أبو شامة سبابه قائلاً " يا ابن اللعينة، أنت أيها السيد المحتال الذى لا شأن لك بما يفعله الرجال!" هكذا راح يوبخ الطبيب لكى يحثه على إعطائه الدواء ليتعرف عليه.

فأخذ الطبيب الزكيبة وحملها إلى أمام جدى وأبى شامة. ثم أخرج منها بعض الأدوية، وكان يمد يده ليخرج بعض الأدوية وهو لا يتوقف عن تعريفهم بأسماء تلك الأدوية الغريبة. وفتح أبو شامة كيسًا من الأدوية وأخرج منه شيئًا يشبه أعواد الأشجار الجافة ووضعه عند فمه ليتذوقه ثم قال: "اللعنة، إنه من فضلات الكلاب!"

فقال الطبيب: " نعم إنه منتج حقيقى وذو فعالية حقيقية مستخرج من فضلات الكلاب السوداء!"

ثم قدم أبو شامة ذلك الشىء إلى جدى قائلاً: "أخى يو، فلتتعرف عليه، إنه بالتأكيد مستخرج من جذور الأشجار الجافة!" فأخذه جدى منه وقربه إلى الشموع المضاءة وراح يتفحصه جيدًا.

وفجأة بدأ الطبيب يرتجف بشدة، وبدأت ذقنه تهتـز ولمعـت أجـزاء وجهه التى لم تلحقها الدماء التى كانت تسيل من أنفه. فتوقف أبى عن اللعب بالكرة الزجاجية وبدأ قلبه يقفز بشدة، وهو ينظر إلى حركات جسم الطبيـب الغريبة. ورفع البغل الأسود العجوز رأسه عاليًا، وانعكس ضـوء الـشموع على رقبته الجامدة مثل قطعة الخشب، وبدت عليه معـالم الحيـرة وعـدم الاطمئنان، وسال من أنفه سائل أخضر اللون، وهنا عرف أبى أن البغل قـد أصيب بالتأكيد بداء الخيل الذى ذكره العم السايس من قبل.

وأثناء ارتجافه بشدة، مد الطبيب يده اليسرى إلى الزكيبة، ثم رفع يـده اليمنى عالية فتناثرت كمية الدواء الصينى التى كانت فى يده على وجه جدى. ثم لمع الضوء فى يد الطبيب اليسرى، ورأى أبى أن ضوء الشموع قد انعكس على خنجر صغير. وهنا أصيب الجميع بالذهول وراحوا ينظرون فى سـكون إلى الطبيب وحركاته البهلوانية، وإلى الضوء الأخضر الـذى سـلطه علـى حنجرة جدى. وبعد لحظات بسيطة من تلقى جدى للدواء الصينى الذى تنـاثر على وجهه، كان جدى قد فكر فى أن يقفز بعيدًا ليتجنب هذا الدواء العجيـب، ولكنه تمكن فقط من رفع ذراعه عاليًا ليحمى وجهه من هذا الدواء. فـضرب الطبيب بكمه ليرسل هواء شديدًا تجاه وجه جدى. اسـتطاع جـدى أن يتقـى الخنجر، إلا أن حد الخنجر أصابه بجرح كبير فـى ذراعـه. فركـل جـدى المنضدة بعيدًا، ثم أخرج مسدسه بمهارة فائقة وأطلق ثلاث طلقات. غيـر أن ذلك الدواء الذى تناثر على وجهه قد أجبره على أن يغمـض عينيـه بعـض الوقت، بدأ ذلك الدواء الغريب بما فيه من فضلات الكلاب والأغنام فى التجمع حول أنفه. ثم أطلق جدى طلقة أصابت الخيمة، وأخرى أصابت التابوت، غير أن التابوت المطلى بطبقات عديدة من الزيت كان قويًا جدًا، فسقطت الطلقة إلى جانبه وتفتت إلى ثلاث قطع صغيرة أو خمس تطايرت كلها إلى خارج الخيمة،

وطلقة ثالثة أصابت قدم البغل الأمامية اليمنى، فانحنى البغل إلى الأمام حتى لامست رأسه الأرض، ثم قفز على الفور وراح يتوجع من قدمه، وبدأ يتساقط من ركبته سائل أبيض. ثم قفز ثانية صوب الأزهار التى كانت تحيط بالتابوت، تساقطت أوراق الأزهار، واصطدمت بالشموع التى كانت مثبتة فوق غطاء التابوت، فاشتعلت الشموع فى أوراق الأزهار الورقية. وهكذا اشتعل شاهد جدتى الذى كان مظلمًا منذ قليل، وامتدت ألسنة اللهب للخيمة. فانتفض أفراد التنظيم وهبوا جميعًا مسرعين نحو الخيمة. وفى تلك الأثناء، انقض الطبيب الذى بدا جلده لامعًا مثل النحاس تمامًا على جدى. وقد رأى أبى ذلك الخنجر الذى كان يمسك به والذى كان يبدو ملتويًا مثل الأفعى، رأى الخنجر وهو يقترب من حنجرة جدى. وأمسك أبو شامة بمسدسه ولكنه لم يضغط على الزناد، وارتسمت على وجهه ابتسامة وكأنه يفرح فى مصائب الآخرين. وهنا أخرج أبى مسدسه واستعد جيدًا قبل أن يطلق منه طلقة لتصيب كتف الطبيب. رفع الطبيب ذراعه عاليًا ليسقط الخنجر من يده على المنضدة القريبة منه. ثم مال هو أيضًا ليتكئ على المنضدة. أمسك أبى بالمسدس وأوشك أن يخرج الطلقة الثانية. وهنا خاطبه جدى وقد بدت عيناه شديدتى الاحمرار قائلاً: "توقف!"

وقد سمعوا صوت مسدس "أبو العيون السود"، ثم رأوا رأس الطبيب وقد تفتت تمامًا مثل البيضة التى تم وضعها على النار لمدة طويلة جدًا.

فنظر إليه جدى نظرة ممتلئة بحقد دفين.

وتوافد على الخيمة عدد من أفراد التنظيم. امتدت ألسنة اللهب فى الخيمة، وعم الهرج والمرج داخلها. وقد ساعدت جثة البغل العجوز الملقاة داخل الخيمة فى إخماد النيران، ولكن ما إن تحركت الجثة قليلاً حتى نشبت النار ثانية. وامتدت النيران إلى جلد البغل لتفوح رائحته الكريهة داخل المكان.

فسارع الجمع بالانصراف من داخل الخيمة.

ثم سمعوا صوت أبى شامة يصيح بصوت مرتفع: "النجدة! النجدة! النجدة! أنقذوا التابوت، مكافأة قدرها خمسون مليون ورقة مالية لمن ينقذ التابوت!".

كانت الأمطار الربيعية قد انتهت منذ فترة قريبة، وبدا المصرف الواقع خارج القرية خاليًا من المياه، واجتمع أفراد التنظيم والأهالى الذين احتشدوا لحضور مراسم الجنازة، معًا لإنقاذ التابوت، حتى استطاعوا أن يخمدوا النيران المشتعلة داخل الخيمة.

حاصرت النيران تابوت جدتى حصارًا تامًا، وأخيرًا استطاع الجمع إطفاءه بعد أن سكبوا عليه عشرات البراميل من المياه. بدا التابوت وسط تلك الظلمة التى لفت المكان مهيبًا. وبدت جثة البغل النحيف، ملقاة إلى جوار التابوت، وانتشرت رائحتها الكريهة فى جميع الأرجاء، حاول الجميع إتقاء هذه الرائحة بأن وضعوا أكمامهم على أنوفهم، وراحوا يستمعون إلى صوت احتراق الزيوت التى كانت تغطى تابوت جدتى.

(٢)

على الرغم من الأحداث الخطيرة التى شهدتها ليلة البارحة، فإن موعد جنازة جدتى لم يتغير. كان السايس العجوز الذى لديه بعض الخبرة فى مجال الطب، قد قام ليلة أمس بتضميد جرح جدى وساعده فى لف ذراعه، كان أبو شامة واقفًا إلى جانبهم، وراح يقترح على جدى تأجيل موعد الجنازة، إلا أن جدى لم يعره أدنى اهتمام وراح ينظر بعيدًا عنه، ثم أعرب عن عدم موافقته على رأى أبى شامة بشأن تأجيل موعد الجنازة.

ولم ينم جدى طيلة هذه الليلة، وجلس على مقعد صغير داخل الخيمة وعيناه شديدتا الاحمرار شبه مفتوحتين، وكانت يده الباردة تضغط على زناد المسدس دون أن تتحرك وكأنها قد التصقت بهذا الجزء من المسدس.

رقد أبى إلى جوار أبيه، وراح يتابعه حتى غط فى نوم عميق. أفاق مرة قبيل الفجر، واختلس نظرة إلى جدى الذى كان لا يزال يجلس شاردًا أمام ضوء الشموع، ونظر إلى آثار الدماء السوداء، التى كانت تسيل من الشاش المربوط حول ذراعه، ولم يجرؤ على أن يتفوه بكلمة واحدة، ثم أغمض عينيه ثانية. وكان الزمار المسئول عن جنازة جدتى، والذى كان قد حضر بعد ظهر ذلك اليوم، قد بدأ يستخدم البوق الكبير فى إحداث صوت مرتفع ردًا على زملاء المهنة الذين يحسدونه على المشاركة فى هذه الجنازة المهيبة، وتسبب هذا الصوت المرتفع فى مضايقة أبى وإقلاقه. فنهض ومضى يفكر أنه قد بلغ هذا العام السادسة عشرة من عمره. وأنه لا يعرف متى ستنتهى هذه الحرب التى جعلته يعيش فى قلق مستمر. وراح أبى يفكر فى جرح جدى والدماء التى تسيل منه، وفجأة سيطر عليه شعور غريب بالحزن الشديد، الذى هو أكبر كثيرًا من عمره. ثم سمع صوت صياح الديكة فى جميع أرجاء القرية إيذانًا بطلوع صبح يوم جديد، وقبيل الفجر هبت رياح شهر أبريل الخانقة على الخيمة، حتى استطاعت أن تطفئ الشموع المشتعلة داخلها. واضطر أبى أن ينزوى داخل خيمته بعد أن استمع إلى أحاديث أهالى القرية وأصوات خيول الحرب وإلى صوت رياح الصبح الساكنة. راح أبى يفكر فى الفتاة تشينغ إر التى ستكون أمى فى المستقبل، وفى السيدة ليو التى أصبحت فيما بعد زوجة جدى الثالثة، واللتين كانتا قد فقدتا منذ ثلاثة شهور مضت. وقتها كان جدى وأبى قد انتقلا مع التنظيمات الحديدية إلى مكان ناء جنوب شريط السكة الحديد للتدريب على القتال. وعندما عادا إلى الخيمة اكتشفا أنها كانت خالية تمامًا، كانت الخيمة التى نصبوها فى شتاء عام ١٩٣٩ قد بدت مهجورة تمامًا..

وعند غروب شمس ذلك اليوم، بدأت القرية تزدحم وعلت أصوات الباعة الذين كانوا ينادون على بضائعهم، وانتشرت رائحة الأطعمة فى شوارع القرية. ونشب شجار بين أحد الباعة الذين يبيعون الفطائر، وأحد زبائنه، كان البائع قد رفض قبول العملة الورقية التى قدمها له الزبون الفلاح

والصادرة عن الجيش الثامن، فى حين أصر الفلاح على عدم قبول العملة الورقية التى أصدرتها عصابة جدى المسلحة. وكان الفلاح قد أكل بالفعل عشرين فطيرة من فطائر هذا التاجر. راح الفلاح يقول للبائع: "إذا أردت ثمن فطائرك فلك هذه الأوراق النقدية، وإذا لم تقبلها فلتحتسب أن الفطائر العشرين التى أكلتها قد ضاعت منك". وراح الأهالى المحتشدون لمشاهدة الشجار ينصحون البائع بأن يقبل الأوراق النقدية التى يقدمها له الفلاح، والصادرة عن الجيش الثامن التابع للحزب الشيوعى، ولتنتظر حتى تعود قوات الجيش الثامن إلى القرية ثانية، وعندها ستكون هذه الأوراق النقدية ذات قيمة كبيرة. وبعد هذا التدخل للوساطة بين التاجر والفلاح، تفرق الأهالى المحتشدون، وقبل التاجر هذه الأوراق النقدية ثم مضى يتمتم وينادى على بضاعته: "الفطائر! الفطائر، الفطائر المحشوة باللحم الساخنة جدًا!"وتجمع الأهالى الذين انتهوا من تناول الطعام حول الخيمة فى انتظار الجنازة، غير أنهم لم يجرؤوا على الاقتراب من الخيمة أكثر من ذلك بسبب أفراد التنظيم المسلحين الذين كانوا يطوقونها، كانت الخيمة قد تعرضت للدمار الشديد بسبب النيران التى امتدت إليها ليلة أمس، وقد تم إلقاء جثة الطبيب وبغله اللتين تفحمتا داخل الخيمة إلى المصرف الذى يبعد حوالى خمسين خطوة من الخيمة، وتجمعت على الجثتين أعداد كبيرة من الغربان راحت تحوم حول الجثتين ثم انقضت عليها، ووسط هذا الهجوم الشرس من الغربان، اختلطت جثة البغل بجثة الإنسان. ومضى الأهالى المحتشدون يفكرون فى أمر ذلك الطبيب وبغله، كانا حتى مغرب يوم أمس حيين يملآن هذا المكان، والآن قد أصبحا وجبة ثمينة لجماعة الغربان، وقد راودتهم أفكار ومشاعر مختلفة حول هذا الأمر، ولكنهم كانوا صامتين تمامًا.

وهكذا أحيط التابوت ببقايا الخيمة التى تهدمت ليلة أمس، وتقدم بعض أفراد التنظيم ممسكين بالمقشات وبدأوا فى تنظيف المكان المحيط بالتابوت. وسقط عدد من أكواب النبيذ على الأرض وتحولت إلى فتات صغيرة. بدا

تابوت جدتى فى صبيحة ذلك اليوم غريبًا ومرعبًا. زال اللون الأحمر الأورجوانى الذى كان يغطيه، كما احترقت قطع القماش الحريرية التى كانت تلفه، وتركت آثارها فى جسمه. أصبحت جميع الأدوات التى ستستخدم فى جنازة جدتى مدهونة بالشواء. كان هذا التابوت كبيرًا جدًا، فكان أبى – ذلك الشاب الذى فى سن السادسة عشرة – يبدو إلى جانب التابوت مجرد كائن صغير، أعاق التابوت قدرته على التنفس بحرية. ومضى يفكر فى أن يقوم بسرقة هذا التابوت.. رأى تلك السيدة العجوز ذات الأعوام المائة التى ترقد داخله وقد أمسكت بالتابوت بكل ما أوتيت من قوة، وراحت تصيح إنه تابوتى.. ولا أحد يمكنه أن يسلبنى إياه.. إننى مثقفة كبيرة من عصر أسرة تشينغ، كان يحترمنى الجميع بمن فيهم رئيس المدينة وينادوننى بالأخت الكبرى.. هل تنوون قتلى.. أيها اللصوص.. وبعد أن بكت العجوز راحت توجه لى سيلاً من الشتائم. ولم يخرج جدى فى ذلك اليوم ليشهد حمل التابوت، كان قد أناب عنه رئيس فرقة الخيول والذى يعتبر الصديق الحميم لجدى، وقد تبعه أبى. سمع أبى آنذاك أن هذا التابوت الضخم مصنوع من أربعة ألواح كبيرة من خشب السرو. كان هذا التابوت قد تم تجهيزه خلال العام الأول من تأسيس الصين الوطنية(١)، وكان يتم فى كل عام إضافة طبقة من الحرير المدهون بالزيت للتابوت الضخم، استمر هذا العمل لمدة ثلاثين عامًا.. كانت السيدة العجوز قبل وضعها فى هذا التابوت، تتمرغ فى الأرض مثل الحمار وهى تصيح بصوت مرتفع بين البكاء والضحك، وكأنها قد أصيبت بالجنون. وقام السيد رئيس فرقة الخيول بإلقاء مجموعة من الأوراق النقدية التى أصدرها التنظيم والتى يظهر أعلاها شخص يركب فوق ظهر

---

(١) الصين الوطنية: أى جمهورية الصين الوطنية التى تأسست منذ عام ١٩١٩، واستمرت حتى تأسيس جمهورية الصين الشعبية فى ١-١٠-١٩٤٩. (المترجم)

النمر، قام بإلقاء هذه الأوراق النقدية فوق التـابوت[1]، ثـم عـبس الرجـل بحاجبيه وقال، أيها الوغدة العجوز إننا نشتريكِ بهذا المبلغ الكبير من المال. وراح الرجل يفتح أكياس الأوراق النقدية بكلتا يديه، ثم راح يعـض بعـض الأوراق النقدية بقليل من أسنانه المتبقية داخل فمه وهو لا يتوقف عن السباب قائلاً، آهِ من قطاع الطرق، إن جنازتكم تفوق جنازة الإمبراطـور، آه مـنكم أيها اللصوص الأوغاد.. ثم راح السيد رئيس فرقة الخيـول يخاطـب روح جدتى فى التابوت قائلاً إننى أقول إنك وغدة عجوز، فلتستمعى جيـدًا، إننـا جميعًا مسئولون عن حماية بلادنا ومقاومة المعتدى اليابانى، وأنـت أيتهـا الحمارة، ماذا لو كنا أتينا بعدد من أوراق الذرة ونثرناها على تابوتك بدلاً من هذه الأوراق النقدية، فأنت غير جديرة بأن توضع روحكِ فى هذا التـابوت الضخم! إن مثل هذا التابوت يصلح فقط لأبطال المقاومـة ضـد اليابـان! وإذا سألتنى من هم هؤلاء الأبطال؟ فسأجيبكِ، إنهم من أمثال زوجك القائد يو آنذاك والسيد يو زعيم التنظيم الآن. آه منك أيتها الوغدة، إن السماء والأرض لن تغفرا لك هذا الجرم الكبير! ولن أقبل أن تحتل امرأة مثلك مكانى تحـت الأرض.. وهنا راح الرجل ينحنى على الأرض ويخبط نفسه بالتابوت. وقـد أحدثت رأسه صوتًا مسموعًا من قوة اصطدامها بحافة التابوت. وانتبه أبى إلـى حركات الرجل المريبة واصطدامه بتابوت جدتى، وراح أبى يفكر فى ضـرورة أن يخبر جدى بكل ما حدث من هذا الرجل، ولكن ما إن رأى الحالة التى كـان عليها وجه جدى من العبوس والحزن الشديد، حتى تخلى عن فكرته هذه.

كان جدى قد استخدم قطعة قماش سوداء وربط بها ذراعه المصابة إلى رقبته، وظهر على وجهه التعب والإرهاق الشديدان. ثم جاء إليه السيد رئيس

---

(١) فى الصين القديمة قبل عام ١٩٤٩، كان ينتشر تقليد إلقاء الأوراق النقدية على تـابوت المتـوفى عنـد تشييع الجنازة. (المترجم)

فرقة الخيول ذو الحاجبين الطويلين قادمًا من إسطبل الخيول، وسأله جـــدى عن أمر ما. كان أبى يقف آنذاك عند مدخل الخيمة التى يستريح فيها خـــلال الليل، وسمع جدى يرد على الرجل قائلاً: "يا أخى وو لوان تزه، لا تنتظـــر ردى بشأن هذا الأمر، ولتذهب على الفور!"

انتبه أبى إلى أن جدى قد أشار للسيد وو لوان تزه رئيس فرقة الخيول إشارة، فهز الرجل رأسه واستدار بجسده وتوجه صوب الإسطبل.

ثم خرج أبو شامة من خيمة مجاورة. ومد رجليه ووقف فـــى طريـــق وو لون تزه وقال بغضب شديد: "ماذا أنت فاعل؟"

فرد عليه وو لون تزه ببرود شديد: "إننى ذاهب لكى أمتطى جـــوادى وأخرج للحراسة".

فقال أبو شامة: "ولكننى لم آمرك بذلك!"

فقال وو لوان تزه متعجبًا "لم تأمرنى بذلك!"

ثم تقدم إليهما جدى وابتسم ابتسامة مصطنعة ثم قال: "أخى أبو شامة، هل تصر على الاختلاف معى؟"

فقال أبو شامة: "ليس لى شأن بهذا الأمر، ولكننى أساله سؤالاً اعتباطيًا بغرض المعرفة فحسب".

ضرب جدى بيده السليمة على كتف أبى شامة ثم قال: "إن لك علاقـــة وثيقة جدًا بجنازة زوجتى، فما رأيك أن نصفى حساباتنا بعد أن ننتهى مـــن مراسم الجنازة؟"

فسكت أبو شامة ولم ينبس ببنت شفة، فقط اكتفى بأن هز ذلك الكتـــف الذى ضرب عليه جدى بيده السليمة، ونظر إلى جموع الأهالى المحتـــشدين

بعيدًا وراح يسبهم قائلاً: "ابعدوا أيها الأوغاد! اللعنة عليكم جميعًا! هل تطمحون إلى استغلال هذه الفرصة لإثبات بركم تجاه المرحومة؟"

وقف السيد وو لوان تزه أسفل شجرة الصفصاف المربوط عندها خيول التنظيم، ثم أخرج من صدره صافرة نحاسية صفراء، وأطلق ثلاث صافرات ليخرج إليه فور سماع صوت الصافرة خمسون فردًا من أفراد التنظيم من داخل خيمة بالقرب من شجرة الصفصاف، سارع كل منهم بسحب حصانه. بينما راحت الخيول تصهل وهى تضرب الأرض بأقدامها، حتى كادت الخيول أن تقتلع شجرة الصفصاف من شدة الضرب على الأرض. كان هؤلاء الأفراد الخمسون رجالاً نشيطين ماهرين فى استخدام السلاح، أمسك كل منهم بسيف وعلق على ظهره بندقية يابانية الصنع. وكان السيد وو لوان تزه وأربعة من الرجال ذوو البنية القوية، لا يحملون البنادق اليابانية، ولكنهم كانوا يتسلحون برشاشات روسية الصنع. وقفز الجميع كل على فرسه، وانطلقوا فى مجموعتين، بدأت الخيول تضرب الأرض بأقدامها وهى تجرى بسرعة معقولة، كانت تجرى تجاه الطريق الترابى المؤدى إلى جسر نهر موا شوى. وقد بدت حوافر الخيول تهتز خلال الرياح الصباحية، وانعكس عليها ضوء الشمس، ثم ظهر أفراد التنظيم وهم يتحركون حركات متماثلة على سروج الخيول. وكان السيد وو لوان تزه يمتطى حصانًا ملونًا قويًا ويسير فى مقدمة المجموعة، وبعد لحظات قليلة نظر أبى أمامه، فإذا بالخيول قد فرت مسرعة مبتعدة عن مرمى بصره.

كان السيد الراهب سه شه الذى يرتدى جلبابا طويلاً ويتسم بروح فريدة وأخلاق يقف على مقعد عال، وهو يصيح بصوت مرتفع: "فرقة الزمارين والطبالين"

فخرجت فى لمح البصر مجموعة من الزمارين والطبالين فى زى أسود وقبعة حمراء وكأنهم قد خرجوا من باطن الأرض، وتجمعوا بسرعة

أعلى مسرح الزمارين والطبالين على جانب الطريق. صنع المسرح من عدد من الألواح الخشبية وحصير من القصب، ويبلغ ارتفاعه نحو ستة أمتار أو سبعة. امتلأت الشوارع عن آخرها بالمحتشدين، فراح الزمارون والطبالون يشقون طريقهم وسط الصفوف، ويصعدون على الألواح الخشبية حتى اعتلوا أماكنهم على المسرح.

فصاح الراهب سه شه: "ابدأوا"

فبدأت تعلو أصوات الأبواق. وبدأت الجموع المحتشدة تتزاحم لمشاهدة العرض، مد الجميع رقابهم إلى الأمام ليفوزوا بنظرة عن قرب. بينما جاءت تتدفق جماعات أخرى من الخلف، حتى عم الهرج والمرج بالقرب من المسرح وبدأ الزمارون والطبالون يصيحون كالمجانين، ووصل هذا الصخب إلى الأبقار والحمير المربوطة تحت الأشجار على جانبى الطريق والتى راحت تشاركهم الصخب.

قال جدى بتواضع شديد: "ما العمل يا أخى أبو شامة".

فصاح أبو شامة بصوت مرتفع: "أنت يا لاو سان، مر بسحب فرقة الزمارين والطبالين!"

ثم ظهر بين جموع الأهالى المحتشدين ما يزيد على خمسين فردًا من أفراد التنظيم المسلحين وكأنهم قد خرجوا أيضًا من بطن الأرض، وراحوا يرفعون بنادقهم ويشقون طريقهم وسط الأهالى المتزاحمين، كان قد احتشد فى ذلك اليوم عشرات الآلاف من الأهالى لمشاهدة هذه الجنازة المهيبة، حتى أن خمسين فردًا من أفراد التنظيم المسلحين، قد عجزوا عن التعامل مع هذا العدد الضخم من الأهالى.

أخرج أبو شامة مسدسه وأطلق طلقة فى الهواء لتفريق جموع المحتشدين، ثم أعقبها بطلقة ثانية فوق الرءوس. كما تبعه أفراد التنظيم وراحوا يطلقون عدة طلقات نارية فى الهواء. وما إن دوت أصوات الطلقات

النارية فى المكان، حتى عادت جموع المحتشدين الذين كانوا فى المقدمة إلى الخلف، بينما راح الذين كانوا فى الخلف يتزاحمون إلى الأمام، وارتفعت الجماعة التى كانت تقف فى الوسط، وكأنها طلعت فوق ظهور المحتشدين. وامتلأ المكان بصياح الأطفال الذين داسهم الأهالى المحتشدون تحت أقدامهم. ووسط هذا الصخب الكبير، سقط جزء من المسرح الذى يعتليه الزمارون والطبالون، فراح الزمارون والطبالون يتدافعون إلى أسفل المسرح وهم يصيحون مسرعين للتخفى داخل جموع الأهالى. وعمت أصوات صياح الزمارين والطبالين وأصوات صياح الأهالى الذين داستهم الأقدام وسط الزحام، وفجأة ارتفع فوق الأهالى المحتشدين حمار وكأنه قد غرس أقدامه داخل وحل المستنقعات، وراح يتابع الموقف بعينيه الجاحظتين. ووسط هذه الفوضى العارمة، لقى ما يزيد على عشرة أشخاص من كبار السن والمرضى والضعفاء، مصرعهم تحت أقدام الجموع المحتشدة. كما اكتشف بعد مضى عدة شهور رائحة جثث بعض الحمير والأبقار التى لقيت مصرعها فى ذلك اليوم.

وأخيرًا هدأت جموع المحتشدين تحت سيطرة أفراد التنظيم المسلحين. واختلطت أصوات بعض النساء اللائى كن يصحن خلال معركة التهدئة، مع صوت الموسيقى التى عاود الزمارون والطبالون إصدارها من أعلى المسرح. كما فر عدد من الأهالى خارج القرية خشية هذه الفوضى العارمة، وانتظروا هنالك على جانبى الطريق المؤدى إلى قبر جدتى لحضور مراسم الجنازة المهيبة ومتابعتها بعيدًا عن الصخب، حيث كان القائد الشاب الوسيم وو لوان تزه يعسكر بقواته فى ذلك المكان.

ووقف الراهب سه شه والذى قد بدأ يعاود هدوءه أعلى المقعد العالى وراح يصيح: "أعطونى الغطاء"

فحمل إليه اثنان من أفراد التنظيم غطاء صغيرًا أزرق اللـــون. بلـــغ ارتفاع هذا الغطاء ما يزيد على متر، وكان غطاءً مربعًا، بـــه فتحـــة مثـــل الصنبور، ويظهر أعلاه درة زجاجية حمراء داكنة.

صاح الراهب سه شه: "فلتتفضلوا بتقديم الشاهد"

كانت أمي قد أخبرتي أن الشاهد هو شاهد الروح، ولكنني اجتهدت بعد ذلك في التوصل إلى أن الشاهد ليس ذلك الشاهد الذي تقدم عليـــه القـــرابين، ولكنه ذلك الشاهد الذي يقدم أثناء الجنازة للتأكيـــد علـــى هويـــة المتـــوفى الموضوع جثمانه داخل التابوت، وأن أفضل تسمية له هي "صاحب الروح"، كان الشاهد الخاص بجدتي قد احترق تمامًا داخل الخيمة، والشاهد المؤقـــت الجديد الذي تم عمله لم تجف من عليه آثار الحبر بعد، وقد قدمه إلى الراهب اثنان من أفراد التنظيم ذوا وجه نضر، وكتب أعلى هذا الشاهد: ولدت فـــي الساعة السابعة حتى الساعة التاسعة من صباح اليوم الخامس مـــن الـــشهر الخامس من العام الثاني والثلاثـــين مـــن حكـــم تـــشينغ قوانـــغ شـــيو[(١)]. وتوفيت في ظهيرة اليوم التاسع من الشهر الثامن من العام الثامن والعشرين من عصر الصين الوطنية[(٢)]. شاهد روح السيدة داي زوجة قائـــد عـــصابة الفدائيين وزعيم التنظيمات الحديدية المسلحة يو جان آو بقرية دونـــغ بيـــي مدينة قاو مي بجمهورية الصين الوطنية. عاشت لمدة اثنين وثلاثين عامًـــا. وقد دفنت جنوب جبل باي ما شان وشمال نهر موا شوي.

---

(١) العام الثاني والثلاثين من حكم قوانغ شيو (١٨٧١-١٩٠٨) : ويقصد به عام ١٩٠٢ من حكم قوانغ شيو الإمبراطور الحادي عشر من أسرة تشينغ، آخر أسرة ملكية في تاريخ الصين. والتي انتهت عام ١٩١١ بتأسيس جمهورية الصين الوطنية (١٩١١-١٩٤٩). (المترجم)

(٢) العام الثامن والعشرون من عصر الصين الوطنية: ويقصد به عام ١٩٣٩. (المترجم)

تم لف شاهد جدتى بقطعة جذابة من الحرير الأبيض طولها حوالى متر، وقام رجلان من أفراد التنظيم بوضع الشاهد بحرص شديد داخل الغطاء الصغير، ثم تراجعا إلى مكانهما ووقفا ينتظران الأوامر من الراهب.

وهنا صاح الراهب سه شه: "الغطاء الكبير"

ووسط أصوات الزمر والطبل، تقدمت مجموعة من أفراد التنظيم يبلغ عددها أربعة وستين فردًا حاملين الغطاء الكبير الأحمر والمرصع بجزء فى أعلاه يشبه ثمرة البطيخ. كان يتقدم الغطاء أحد أفراد التنظيم وكان يرفع صاجه من النحاس على إصبعه، وكان يصدر لحنًا واضحًا، التزم أفراد التنظيم الأربعة والستون فى خطواتهم صوت هذا اللحن. وتوقفت جميع الأصوات التى كان يعج بها المكان منذ قليل، وبقى فقط صوت الآلات التى يستخدمها الزمارون والطبالون، بينما كانت بعض النساء اللائى مات أطفالهن تحت أقدام الجموع المحتشدة لا يزلن يبكين بكاءً شديدًا، وراح الجمع ينظر إلى الغطاء الكبير الذى بدا لهم مثل فضاء كبير يهتز ببطء، ثم خيم على المحتشدين جو صارم ولفت الجميع دوامة واحدة خلطت بين جميع الأفكار التى تراودهم فى تلك اللحظة.

كانت ذبابة كبيرة مقلقة تلف حول ذراع جدى المصاب، كانت لا تريد أن تبتعد عن الدم الأسود الذى كان يسيل من جرحٍ جدى. وعندما كان جدى يرفع ذراعه السليم لإبعادها عنه، كانت تطير قليلاً مرغمة ثم تحلق فوق رأسه غاضبة، وتصدر صوتًا مزعجًا جدًا. وود جدى آنذاك لو ينزل عليها بقبضة واحدة فيقطعها إربًا إربا، ولكنه كان فى كل مرة يفشل فى الإمساك بها، وفى كل مرة تنزل قبضته على ذراعه المصاب فيتألم ألمًا شديدًا.

وتم وضع الغطاء الكبير أمام شاهد جدتى، وأثار منظر الغطاء والموسيقى والأصوات التى صاحبت تلك اللحظات ذكريات جدى حول عمله فى مطلع حياته.

كان جدى قد بلغ الثامنة عشرة من عمره عندما قام بقتل الراهب، ثم فر بعدها من مسقط رأسه وتشرد فى مختلف الأماكن حتى الحادية والعشرين من عمره، عاد بعدها ليعمل فى " شركة خدمات الأفراح والجنائز" بقرية دونغ بيى بمدينة قاو مى. كان جدى قد مر وتمرس على جميع الصعاب، وتعرض لشتى أنواع الإهانة والذل فى الشارع، فأصبح قلبه جامدًا وبنيته قوية، وهكذا أصبح يتمتع بالصفات الرئيسية لقطاع الطرق وأفراد العصابات المسلحة، وكان يعرف جيدًا أن العمل فى شركات خدمات الأفراح والجنائز وحمل هودج العرس وتوابيت الموتى، ليس أمرًا يسيرًا، ولكنه لم يخش ذلك أبدًا. ولا يستطيع جدى أن ينسى أبدًا ذلك الذل الذى تعرض له حين صُفِع على وجهه فى منزل عائلة لين بقرية تشى خان بمدينة جياو شيان عام ١٩٢٠. وهنا نسى جدى تلك الذبابة التى كانت تضايقه منذ قليل، والتى استغلت الفرصة وراحت تقف على الشاش الأبيض الممتلئ بالدم، وانشغلت بفريستها التى توصلت إليها بعد عناء شديد. واستمر الزمارون والطبالون فى عملهم حتى بدت عليهم معالم التعب ونزل العرق من جباههم إلى رقابهم، وسال لعابهم ليملأ الأبواق التى كانوا يستخدمونها. وراح الأهالى المحتشدون لمشاهدة الجنازة يرفعون قاماتهم لأعلى لاختلاس النظر إلى ما يحدث فى المقدمة، وهم يحدقون فيما يحدث أمامهم بنظرات حادة، وأثارت هذه النظرات الحاقدة غضب أبى. كان أبى يرتدى آنذاك ثوب الحداد، وهو قميص من القماش الأبيض يغطى الركبة، كما يلف حول خصره ضفيرة من الكتان الرمادى والأبيض، ويرتدى قبعة الحداد الكبيرة التى كانت تغطى رأسه الصلعاء. شعر أبى بضيق شديد من رائحة العرق المنبعثة من أجساد جموع الأهالى المحتشدين ورائحة الزيت المدهون به تابوت جدتى. كما شعر بالضيق الشديد من جمع الأهالى الكبير والعيون التى كانت تلاحقه وأصوات الطبل والزمر التى ملأت المكان. وقد بدا تابوت جدتى من الوهلة الأولى

دميم الشكل، بدا قبيحًا بتلك الهيئة التى ظهر عليها حتى جعلته تلك الهيئة يبدو وكأنه حيوان ضخم، كان أبى يشعر دائمًا أن هذا التابوت الضخم قبيح الشكل سيقف فجأة، وينقض على جموع المحتشدين من حوله. وبدت أصوات هـذا التابوت الأسود فى وعى أبى تتضخم وتتعاظم شيئًا فشيئا، وجثمـان جـدتى المسجى بين ألواح الخشب السمكية ومسحوق الطوب الأحمر يظهـر أمـام عينيه. وفى صباح ذلك اليوم وعلى ضفة نهر موا شوى، كان جدى قد أخـذ بالفأس وراح يجهز قبر جدتى، وقد نظف القبر تمامًا من كثير مـن سـيقان الذرة التى كانت تملأ المكان، حتى مشهد جثمان جدتى الذى رآه آنذاك كـان يبدو حيًا لا يزال يتراءى أمام عينيه. وكما لا يستطيع أبى أن ينسى مـشهد وقوف جدتى وهى تراقب زراعات الذرة الحمراء الممتدة أمامهـا، فإنـه لا يستطيع أن ينسى أبدًا وجهها وهى تخرج من قبرها، وقد احتـضنتها ريـاح الربيع الدافئة. وهكذا كان أبى يتذكر هذه التفاصيل من ذكرياته مـع جـدتى بينما ينفذ تعاليم الراهب مرتديًا ثياب الحداد. وهنا سه شه الذى تأثر وجهـه بالشمس فأصبح مثل وجه ذئب، راح الراهب يصيح قائلاً: "ارفعوا التـابوت" فتجمع أربعة وستون رجلاً من أفراد التنظيم أمام التابوت، ثم صـاحوا فـى صوت واحد، غير أن التابوت كان مسمرًا فى مكانه لا يتحرك، ثـم التفـوا حول التابوت، وكأنهم جماعة من النمل أحاطت بجثة حيوان ميت. وأخيـرًا تمكن جدى من طرد تلك الذبابة، وراح ينظر بازدراء إلى هـؤلاء الأفـراد الذين كانوا يحملون التابوت بطريقة عشوائية، فأشار بيده إلى زعيم هـؤلاء الأفراد وقال له: "اذهب وأحضر قطعة من القماش القطنـى، وإلا سـتعانون حتى طلوع الصبح ولن تتمكنوا من إنجاز مهمتكم، كما أنـك لـن تـستطيع إدخال التابوت داخل الغطاء!" فراح الرجل ينظر بحيرة شديدة إلـى عينـى جدى، غير أن جدى وجه عينيه بعيدًا عنه، وكأنه وجهها لينظر إلى حـاجز نهر موا شوى الممتد فى السهول الفسيحة..

وضع أمام منزل عائلة تشى بمدينة جياو شيان ساريتا أعلام حمـــراء اللون، كان هذا يرمز إلى شرف عائلة تشى وحسبها ونسبها، كان السيد خان ليان من أواخر عصر أسرة تشينغ قد توفى، وأقام له أبناؤه وأحفـــاده الـــذين تمتعوا بالخير الكبير أثناء حياته جنازة مهيبة. وجهزوا له كـــل الترتيبـــات اللازمة على خير وجه، غير أنهم كانوا يؤجلون يـــوم تـــشييع الجنـــازة ولا يعلنونه على الملأ. وكانت العائلة تسكن فناء كبيرًا، وقد وضـــعوا التـــابوت داخل غرفة فى الجزء الداخلى من الدار الواسعة. وكان علـــيهم أن يمـــروا بسبعة مداخل ضيقة حتى يستطيعوا حمل التابوت إلى الشارع. وعلى الرغم من المبلغ الكبير الذى رصدته عائلة تشى لحمل التابوت، فإن أكثر من مدير من مديرى شركات خدمات الأفراح والجنائز قد رفضوا حمله بمجرد رؤيتهم حجمه والمكان الذى وضع فيه.

وصل الخبر إلى " شركة خدمات الأفراح والجنائز" بقرية دونغ بيـــى بمدينة قاو مى. وأغرى مبلغ خمسمائة جنيه فضة، والذى رصدته عائلة تـــشى لحمل هذا التابوت، جدى والفرقة التى يعمل معها، وجعلتهم يفكرون فى هذا الأمر ليل نهار، وأصبحوا وكأنهم مثل الصبية الصغيرة التى صادفت أميـــرًا وسيمًا وأعرب لها عن حبه وأهداها أسورة ذهبية نفيسة. وهكذا ذهب جـــدى ورفاقه لمقابلة السيد المسئول تساو إر، وأقسموا له أنهم سيسحقون مهابة قرية دونغ بيى بمدينة قاو مى ويكسبون هذا المبلغ الكبير البالغ خمسمائة جنيه من الفضة. فجلس السيد تساو إر على كرسيه وقد بدا عليه الجمود تمامًـــا. ولـــم يسمع جدى ورفاقه أى رد منه حول سؤالهم إياه، واكتفوا فقط بـــالنظر إلـــى مقلته الصارمة. واستمعوا إلى صوت اضطراب مياه النرجيلة التى أمسك بها بكلتا يديه. فتحمس جدى ورفاقه وبدأوا يخاطبونه من جديد: أيها السيد تساو إر، إننا لا ننظر فقط إلى المبلغ الذى رصدوه! فالإنسان خلال حياته يجب أن يثبت ذاته! وإننا نأمل ألا يستخفوا بنا، وأن يعتقدوا أن أهل قرية دونغ بيـــى

بمدينة قاو مى عاجزون! وهنا تحرك السيد تساو إر فوق كرسيه، وأصـــدر ريحًا ثم قال فلتعودوا الآن إلى أماكن راحتكم، فإنكم إذا فشلتم أو حدث لكـــم مكروه ستجلبون الخزى والعار لقرية دونغ بيى بمدينة قاو مى، وســتدمرون تجارتى، وإذا كنتم بحاجة للمال، فإننى سأمنحكم مكافأة وحسبكم من الحديث فى هذا الأمر. وبمجرد أن انتهى السيد تساو إر من حديثه أغمض عينيـــه، بينما زاد حماس جدى ورفاقه الحمالين، فقالوا فى صوت واحد، أيها الـــسيد تساو، لا تقض على طموحنا! فقال السيد تساو لا تفكروا فى أشياء هى أكبر بكثير من إمكاناتكم، وهل تعتقدون أن الحصول على مبلغ خمسمائة جنيه من الفضة بالأمر اليسير! إن هناك سبعة أبواب داخل فناء عائلة تشى، كمـــا أن التابوث ثقيل جدًا، كذلك فإن داخلـــه ممتلـــئ بـــالزئبق! الزئبـــق! الزئبـــق! ولتستخدموا عقولكم هذه التى هى مثل عقول الكلاب، ولتفكروا فى وزن هذا التابوت الممتلئ بالزئبق، وهكذا بعد أن انتهى السيد تساو من توجيه السباب لهم، راح يرميهم بنظرات ازدراء واضحة. فتبادل الرفاق النظـــرات فيمـــا بينهم، ولسان حالهم يقول إنهم لن يتراجعوا عن هذا الأمر، ولكـــنهم كـــانوا يخشون أيضًا الفشل فى مهمتهم. وما إن رأهم السيد تساو هكذا حتى ضحك ضحكة ساخرة ثم قال: "فلتعودوا إلى أماكنكم، انتظروا هؤلاء الأبطال الذين سيقومون بهذا العمل والذين سيربحون هذا المبلغ الكبير! أما أنـــتم، فمجـــرد صغار ليسوا مؤهلين لكسب هذا المبلغ الكبير ويكفيكم ثلاثـــون أو عـــشرون جنيهًا، ويكفيكم فخرًا أن تستطيعوا حمل توابيت العائلات الفقيرة الخفيفة!"

بدا كلام السيد تساو إر مثل السم اللاذع الذى أصاب قلـــوب هـــؤلاء الحمالين الطموحين. فتقدم جدى خطوة إلى الأمام ثم صاح فى وجـــه الـــسيد تساو قائلاً: "أنت أيها السيد تساو إر، إننا سئمنا العمل معك أيها الإنسان التافه الحقير، وستقضى على طموحاتنا وشجاعتنا واحدًا واحدًا! وإننى لن أعمـــل معك بعد اليوم!"

وهنا صاح جميع الحمالين الشباب فى صوت واحد مؤيدين لكلام جدى، فوقف السيد تساو إر بينهم وتقدم إلى أمام جدى بخطوات متثاقلة، وراح يضرب على كتف جدى بشيء من القوة، ثم خاطبه بلهجة يملؤها الإخلاص والحنان قائلاً: "ما أشجعك يا جان آو! إنك حقًا من رجال قرية دونغ بيى الشجعان! وإن المكافأة الكبيرة التى رصدتها عائلة تشى ستكون بالتأكيد من نصيبنا، وإذا استطعتم أيها الرفاق القيام بهذا العمل الكبير، فإنه سيكون شرفًا لقريتنا وفرصة لإعلاء اسمها بين القرى، فالشرف والمجد لا يمكن شراؤهما بالمال والكنوز. ولكننى أريد أن ألفت انتباهكم إلى أن عائلة تشى هذه من نسل أسرة تشينغ الملكية، وأنهم يلتزمون بالقوانين الصارمة، وأن القيام بحمل هذا التابوت ليس بالأمر اليسير، وأرى أيها الرفاق أن تفكروا فى هذا الأمر جيدًا طوال هذه الليلة، وكيف ستتمكنون من عبور الأبواب السبعة وأنتم تحملون ذلك التابوت الثقيل".

راح الرفاق يتناقشون فيما بينهم وكأنهم كانوا قد اتفقوا على أمر ما، وهنا دخل إليهم رجلان فى زى مهيب أنيق، وعرفا نفسيهما بأنهما موظفان مسئولان لدى عائلة تشى خان الكبيرة، وأنهما جاءا لدعوة الرفاق الحمالين من قرية دونغ بيى ليربحوا مبلغًا كبيرًا من المال.

وأفصح الرجلان عن الغرض الذى جاءا من أجله، فراح السيد تساو إر يسألهما بتكاسل واضح: "وكم المبلغ الذى ستقدمونه لنا؟"

فقال أحدهم " خمسمائة دا يانغ! أيها المعلم، إنها فرصة نادرة جدًا لأن ترصد عائلة هذا المبلغ الكبير!".

فألقى السيد تساو إر بخرطوم النرجيلة على المنضدة، وضحك ضحكة صفراء، ثم قال: "أولاً نحن هنا لسنا عاطلين عن العمل وتنقصنا هذه الصفقة، ثانيًا لسنا بحاجة للمال، فلتذهبوا وتبحثوا عن جماعة أخرى تساعدكم فى هذا الأمر!"

فضحك ذلك الرجل مندوب أسرة تشى خان ضحكة تنم عن ذكائه الشديد، ثم قال: "أيها المدير، إننا أيضًا قد عملنا بالتجارة لمدة طويلة!"

فقال السيد تساو إر: "نعم نعم. إنكم بالتأكيد ستعثرون على من يقبل هذا المبلغ الكبير للقيام بهذا العمل".

وهنا أغمض السيد تساو إر عينيه وسرح بعيدًا.

فتبادل الرجلان النظرات فيما بينهما. وقال أحدهما: "أيها المدير، كفانا من اللف والدوران، ولتفصح عن المبلغ الذى تريده!"

فقال السيد تساو إر: "إننى لن أرتكب هذا الجرم الكبير بأن أضحى بحياة عدد من رجالى مقابل حفنة من جنيهات الفضة!"

فقال الرجل المسئول: "سنقدم ستمائة جنيه من الفضة! نعم ستمائة جنيه!"

فجلس السيد تساو إر مكانه دون أن ينبس ببنت شفة.

"سبعمائة جنيه من الفضة! سبعمائة جنيه! أيها المعلم، التجارة تحتاج أيضًا إلى شىء من الضمير فى طلب الأجر!"

فزم السيد تساو شفتيه قليلاً.

"ثمانمائة جنيه من الفضة! ولن نزيد على ذلك جنيهًا واحدًا!"

وهنا فتح السيد تساو عينيه وتحدث بجملة واحدة معلنًا: "ألف جنيه من الفضة!"

فذهل الرجلان ذهولاً شديدًا وراحا ينظران إلى وجه السيد تساو الصارم.

"أيها المعلم.. إذا فإن الأمر خرج من أيدينا تمامًا.".

"إذا فلترجعوا إلى أصحاب الأمر، وأخبروهم أننا نريد ألف جنيه من الفضة، ولن نقبل أقل من ذلك ولو بجنيه واحد".

"حسنًا، ولتنتظر منا الرد".

فى صباح اليوم التالى حضر الرجل المسئول من عائلة تشى من مدينة جياو شيان يمتطى حصانًا أورجوانى اللون، وأخبر السيد تساو بأنه قد تم تحديد موعد رفع التابوت، وأنه سيدفع له خمسمائة جنيه مقدمًا، وسيدفعون له المبلغ المتبقى وقدره خمسمائة جنيه بعد رفع التابوت. وكان الحصان يجرى بسرعة شديدة وقد تصبب جسده عرقًا، وامتلأت المنطقة المحيطة بفمه بسائل أبيض.

وفى يوم الجنازة، تحرك أربعة وستون رجلاً من الحمالين ليلاً، وأوقدوا النيران وأعدوا طعامهم بنفسهم، وجهزوا عدتهم وساروا تحت ضوء النجوم قاصدين مدينة جياو شيان. وقد ركب السيد تساو إر حمارًا أسود اللون وسار خلف الحمالين.

لا يزال جدى يذكر جيدًا أنه فى صباح ذلك اليوم كان هناك عدد قليل من النجوم فى السماء، وأن الجو كان باردًا، كما كان الخطاف الثقيل الذى يخفيه حول خصره، قد آلمه كثيرًا. وصلوا إلى مدينة جياو شيان، وما إن انبلج الصباح، امتلأت الشوارع بالأهالى الذين احتشدوا ليشهدوا هذه الجنازة المهيبة، وقد سدت الطرقات من كثرة الجموع المحتشدة. وراح جدى ورفاقه يسيرون وسط الشوارع يستمعون إلى همسات الجموع المحتشدة، وقد نفخوا صدورهم وودوا لو أعلنوا للجميع عن شجاعتهم وبطولتهم، غير أنهم شعروا بشيء من عدم الاطمئنان وساورهم قلق شديد.

كانت دار عائلة تشى كبيرة جدًا وقد احتلت جزءًا كبيرًا مــن الــشارع. وتبع جدى ورفاقه بعضًا من خدم عائلة تشى وعبروا ثلاثة أبواب داخل الدار الواسعة، وتوقفوا داخل ركن من فناء صغير. امــتلأ هــذا الفنــاء بالأزهــار والورود، وامتلأت الأرض بالأوراق النقدية الورقية، وفاحت رائحة الــدخان الذكية، وبدت الحالة اليسيرة جدًا التى تتميز بها هذه العائلة الشريفة.

دعا المسئول من عائلة تشى أحد أسياده من العائلة لمقابلة السيد تــساو إر. وكان عمر ذلك الرجل من عائلة تشى حوالى خمسين عامًا، وقــد بــدا نحيفًا، تبعد أنفه الصغيرة كثيرًا عن فمه الكبير. وعندما نظر الرجل بعينــه إلى الحمالين الذين جاء بهم السيد تساو إر لحمل التابوت، انتبه جدى إلى أن عينى الرجل كانتا تدوران فى كل مكان، تحرقان كل من تسلطان عليه.

فهز الرجل رأسه تجاه السيد تساو إر، ثم قال: "إن طلبكم ألف جنيــه يتطلب منكم الالتزام بما يفرضه هذا المبلغ".

فهز السيد تساو رأسه، ثم تبع الخادم إلى الباب الأخير داخــل الــدار الواسعة.

وعندما خرج السيد تساو من الغرفة الداخلية، إذا بوجهه قد تغير كثيرًا عما عهده جدى ورفاقه من قبل، وإذا به يرفع إصبعه ذا الظفر الطويل ويحك به رأسه، ثم جمع الحمالين الذين جاءوا معه إلى مكان بجانب سور الغرفــة، وراح يخــاطبهم وهــو يعــض علــى أســنانه قــائلاً: "أيهــا الرفــاق، لقد هلكنا جميعًا!"

فسأله جدى: "ماذا حدث يا سيد تساو؟"

فرد السيد تساو إر قائلاً: "أيها الرفاق، إن عرض ذلك التابوت يكــاد يكون مثل عرض المدخل، كما يوجد أعلى غطاء التابوت قدر كبيــر مــن

النبيذ. وقد أخبرني ذلك السيد من عائلة تشى أنه إذا انسكبت قطرة من النبيذ فسيتم تغريمنا مائة جنيه!"

فشعر الجميع بحيرة شديدة. لفهم الصمت. بينما بدا صوت النحيب القادم من قاعة الحداد مثل صوت الغناء الجميل.

وسأل السيد تساو إر جدى قائلاً: "ما قولك يا جان آو فى هذه المشكلة العويصة؟"

فرد جدى قائلاً: "طالما أننا وصلنا إلى هذه اللحظة فلا يجدى الخوف والتراجع، وسنقوم بحمل هذا التابوت مهما كان وزنه ومهما كانت خطورته!"

فقال السيد تساو إر بصوت خفيض: "إذاً فلتتقدموا أيها الرفاق، ولكم جميع ما تجنونه من هذه المهمة، وإننى المعلم تساو لن أطلب لنفسى جنيهًا واحدًا من الألف جنيه التى ستحصلون عليها!"

فرماه جدى بنظرة ثم قال: "إذاً كفاك من هذه الثرثرة!"

فقال السيد تساو إر: "إذاً فلتبدأوا مهمتكم، أما أنتما يا جان آو ويا سه كوى، فليقف أحدكما فى الأمام والآخر فى الخلف، لتتحكموا جيدًا فى هذا الحمل الثقيل. وأما الرفاق الآخرون، فليدخل عشرون منكم الغرفة، وليدفعوا التابوت فور رفعه من على الأرض، وليستخدموا الدعامات للسيطرة على التابوت. أما العدد المتبقى فلينتظر عند المدخل وينتظر سماع صوت الصاجة التى بيدى. أيها الرفاق، إن السيد تساو إر يشكركم كثيرًا على شجاعتكم!"

فى الأيام العادية كان السيد تساو إر -هذا الظالم المستبد- ما إن ينحنى بجسده المترهل قليلاً يذرف الكثير من الدموع وينهض ثانية.

واصطحب ذلك السيد من عائلة تشى بعضًا من الخدم وتقدم إلى جماعة الحمالين، ثم ابتسم إليهم ابتسامة مصطنعة وقال: "مهلاً مهلاً، يجب أن تخضعوا للتفتيش!"

فرد عليه السيد تساو إر غاضبًا: "ما هذه القواعد الغريبة؟"

فقال السيد من عائلة تشى ببرود شديد: "إنها القواعد الخاصة بمبلغ ألف جنيه من الذهب".

فقام خدم عائلة تشى بتفتيش جدى ورفاقه تفتيشًا دقيقًا حتى أخرجوا منهم تلك الخطافات التى يستخدمونها فى رفع الأشياء وحملها، وألقوا بها على الأرض فأحدثت صوتًا عاليًا إثر اصطدامها بالأرض، بينما بدا الوجوم الشديد على الحمالين.

وراح ذلك السيد من عائلة تشى يحملق فى تلك الخطافات وهو يبتسم ابتسامته المصطنعة.

فمضى جدى يفكر ويقول لنفسه حسنًا! إننا لن نكون رجالاً شجعانًا إذا اعتمدنا على هذه الخطافات الحديدية فى رفع التابوت وحمله، وهنا شعر بشىء من الحزن يخيم على قلبه وكأنه يتقدم نحو ساحة الإعدام. فربط لفافة حول ساقه جيدًا، جمّع نفسه ثم أحكم لف قطعة من القماش حول معدته.

وما إن دخل الحمالون قاعة الحداد، حتى توقف الرجال والنساء من عائلة تشى المحيطون بالتابوت عن البكاء والنحيب. وراحوا يحدقون فى هؤلاء الحمالين وفى قدر النبيذ الموضوع أعلى التابوت. وقد بدا الوجوم والحزن الشديد على جميع من كانوا فى قاعة الحداد، بينما كانوا يحملقون فى السماء.

بدا التابوت الأسود الضخم الخاص بالسيد تشى خان لين مثل السفينة الكبيرة التى ترسو على أربع قواعد قصيرة، وما إن رآه الحمالون حتى شعروا برهبة شديدة.

وتقدم جدى وأنزل من على ظهره حبلاً دقيقًا مصنوعًا من الخيش، ومرره من أسفل التابوت. بينما قام رفاقه بربط عشرات القطع القطنية الدقيقة

فى الحبل الذى مرره جدى، ووزعوا تلك القطع القطنية من جانبى التابوت وأحكموا قبضتهم عليها.

وأخذ السيد تساو إر بالصاجة، وراح يضرب عليها محدثًا صوتًا مسموعًا. وجلس جدى عند مقدمة التابوت، أصعب وأهم وأخطر منطقة فى رفع التابوت. وقد أعاقه التابوت الذى بدا مثل السفينة الضخمة عن الوقوف، أحكم الحزام القطنى حول رقبته وكتفه، فشعر بثقل التابوت قبل أن يهم بالوقوف.

ضرب السيد تساو إر على صاجته ثلاث ضربات جديدة، ثم راح يصيح فى رجاله أن: "ابدأوا!"

وما إن سمع جدى صوت صاجة السيد تساو، حتى حبس أنفاسه جيدًا، وتركزت قوته وعزيمته فى ركبتيه، كان قد سمع إشارة السيد تساو بتشوش، ركز قوته جيدًا فى ركبتيه مستعدًا للخطوة القادمة. وراح جدى يتخيل أن التابوت الضخم الذى يحتوى على جثمان السيد خان لين قد بدأ يتحرك من على الأرض، وأنه قد بدأ فى رحلة إبحاره من هذا المكان، ولكنه توقف فجأة عن الاستمرار فى حلمه هذا عندما شعر بألم شديد فى مؤخرته، حيث اصطدمت بقطعة من الطوب.

وكان السيد تساو إر حتى ذلك الحين لا يزال واقفًا على قدميه، فنظر إلى التابوت الضخم، فإذا به يبدو مثل الشجرة الضخمة التى لا تزال تضرب بجذورها فى بطن الأرض، بينما بدا رجاله الشجعان مثل العصفور الضعيف الذى يضرب بمنقاره على الزجاج، وقد سقطوا جميعًا على الأرض من شدة التعب، وبدت معالم وجوههم وقد تغيرت من اللون الأحمر إلى الأرجوانى ثم إلى الأبيض الشاحب. وعندها عرف أنه قد هلك وهلكوا جميعًا! وأنه قد آن لهذه المسرحية أن تنتهى! وعندما نظر إلى جان أو بدا ملقى على الأرض

وبدا لجدى أنه يستمع إلى صوت ضحكة السيد خـان لـين البـاردة المصطنعة من داخل تابوته الممتلئ بالزئبق، وعندها مضى يفكـر أن أهـل عائلة تشى سواء كانوا أمواتًا أم أحياء، فهم فقط يعرفون الـضحك البـارد المصطنع ولا يعرفون الابتسام والضحك البرىء مثل بنى البشر. وعنـدها شعر جدى ببعض الذل والغضب تجاه الأشياء الكبيرة الـضخمة والرعـب الشديد من الموت.

صاح السيد تساو إر: "أيها الرفاق.. أيها الرفـاق.. انهـضوا لرفـع التابوت.. انهضوا.. ليس من أجلى أنا.. انهضوا من أجـل قـريتكم قريـة دونغ بيى بمدينة قاو مى".

صاح السيد تساو بصوت مرتفع جدًا كاد أن يفتك معدته، وقـد امـتلأ وجهه بالعرق الشديد، ثم مضى فى صياحه وتشجيعه لهم وهو يقول: "أيهـا الرفاق، نعم إنه من أجل قرية دونغ بيى بمدينة قاو مى!".

سمع الحمالون صوت صاجة السيد تساو، وعندها شعر جدى بألم شديد فى قلبه، وكأن هذا الصوت لم يكن بسبب الضرب على الصاجة وإنما كـان على قلبه هو وقلب رفاقه.

عندئذ أغمض جدى عينيه، ومضى يتقدم إلى الأمام بجنون وكأنه مقدم على الانتحار (وفى بداية تحرك الحمـالين لرفـع التـابوت، كـان الـسيد تساو إر قد انتبه إلى ذلك الحمال الملقب بـ "الديك الصغير" وقد ألصق فمـه بقدر النبيذ الموضوع أعلى التابوت وشرب منه شربة كبيرة). وهنا استطاعوا أن يزحزحوا التابوت عن المقاعد الأربعة التى كان يرقد عليها، ولف الغرفة سكون مميت، وسمعوا صوت طقطقة مفاصل هؤلاء الحمالين، التى أحـدثت صوتًا عاليًا مثل المفرقعات لحظة انفجارها.

سكون مميت، وسمعوا صوت طقطقة مفاصل هؤلاء الحمالين، التى أحدثت صوتًا عاليًا مثل المفرقعات لحظة انفجارها.

ولا يعرف جدى أن وجهه لحظة تزحزح التابوت عن المقاعد كان قد بدا شاحبًا مثل وجه الأموات، وأنه كان قد شعر فقط آنذاك أن ظهره قد تألم ألمًا شديدًا، وأن فقراته قد تكسرت إلى قطع صغيره. حتى أنه لم يستطع أن يرفع ظهره مستقيمًا، وقد سيطر عليه شعور بالإحباط الشديد دام برهة قصيرة، وبدت قدماه مقوستين مثل قطعة حديد.

وهكذا فإن ضعف حيلة جدى قد جعلت الزئبق يتحرك داخل التابوت، مالت مقدمة التابوت على ظهر جدى. كما مال قدر النبيذ الكبير الموضوع أعلى غطاء التابوت، وراح النبيذ يتحرك داخل القدر دون أن ينسكب شيء، وراح أفراد عائلة تشى يحدقون إلى إناء النبيذ.

وهنا صفع السيد تساو وجه جدى صفعة قوية.

ولا يزال يذكر جدى أن تلك الصفعة قد دوى رنينها وجلجلت رأسه، وأنه فقد الشعور تمامًا بقدميه وظهره وكتفه ورقبته، وبقى مذهولاً بضع لحظات عقب تلك الصفعة المميتة، وغطت عينيه سحابة سوداء.

وعندما تمكن جدى من رفع ظهره مستقيمًا، كان التابوت الضخم قد ارتفع عن سطح الأرض أكثر من متر، حيث رأى ستة من رفاقه الحمالين أسفل التابوت وأربعة آخرين منبطحين على الأرض يرفعون التابوت على ظهورهم. عندها أخذ جدى نفسًا عميقًا، وشعر ببعض الدفء يسرى فى جميع أعضاء جسده..

وأخيرًا خرج التابوت من الأبواب السبعة، وتم نقله إلى غطاء كبير أزرق اللون.

وهكذا راح جدى - الذى كان قد قام بأعظم مهمة شاقة - ينظر بازدراء إلى أفراد التنظيم الذين كانوا يحيطون بتابوت جدتى، وقد بدوا له غير متقنين لهذا العمل الذى يعد هو ضليعًا فيه، ولكنه لم يرغب فى أن يدخل معهم فى حوار جديد، وانتظر حتى أتى أحدهم بقطعة قماش مبللة بمياه الخليج، ثم تقدم جدى وراح يلفها بنفسه حول التابوت، اختار ستة عشر فردًا من أفراد التنظيم ووزع عليهم العمل، وصاح فيهم أن ابدأوا، حتى تمكنوا من رفع التابوت من على سطح الأرض.. وقاموا بوضع تابوت جدتى فى غطاء كبير مكون من اثنتين وثلاثين عقلة. ثم مضى جدى يتذكر ذلك المشهد أثناء جنازة السيد خان لين، حيث بدت جنازته المهيبة مثل تنين أبيض ضخم، وقد مرت الجنازة من خلال الطريق المرصوف بالحجارة بمدينة جياو شيان، وانشغل المارة بمشاهدة ذلك المنظر المهيب، ومشاهدة وجوه هؤلاء الحمالين الأربعة والستين، بدت وجوههم شاحبة تمامًا، ومشاهدة الدماء التى كانت تسيل من أنوف سبعة أو ثمانية من هؤلاء الحمالين. كان جدى قد انتقل آنذاك إلى مؤخرة التابوت، وراح يمسك بأخف جزء من أحمال التابوت، شعر بسخونة سرت فى جسده، وراح يجرى بسرعة على ذلك الطريق المرصوف بالحجارة..

(٣)

أمسك أبى ببندقيته ولبس ثوب الحداد من الكتان الأبيض، ووقف أعلى مقعد عال ووجه بصره صوب الجنوب الغربى، وراح يعبث بماسورة البندقية فى الأرض أسفل المقعد، ثم راح يصيح بصوت مرتفع:

أمى، أمى، وداعًا إلى الجنوب الغربى، إلى الطريق الفسيح، على ظهر السفينة الكبيرة، على ظهر الحصان السريع، أمى لقد استرحت بعد رحلة معاناة طويلة".

وأوصى الراهب سه شه أبى أن يتلو هذا النشيد ثلاث مرات متتالية، وهكذا تم تشييع روح جدتى وسط دعوات الأهل والأقربـاء إلـى الجنـوب الغربى إلى عالم الراحة والسعادة. ولكن أبى تلا ذلك النشيد مرة واحدة ولـم يستطع أن يستمر بسبب الدموع الغزيرة التى سدت حلقه، فأمـسك ببندقيتـه وبقى ساكنًا فى مكانه. وفجأة انخرط فى الصياح والنداء على أمه بـصوت مرتعش، وراح يتابع الفراشات التى تركت لأجنحتها العنان وحلقت صـوب الجنوب الغربى، حيث البرية الواسعة والهواء العليل، وحيث سطعت شـمس الثامن من أبريل غير المستقرة على صفحة مياه نهر موا شوى حتى خلقـت على سطحها حاجزًا أبيض، كان من الصعب على جدتى أن تتخطـى هـذا الحاجز، ترددت قليلاً ثم عادت ثانية صوب الشرق، فعلى الرغم من أن أبى كان قد ودعها إلى الجنوب الغربى لتنعم هنالك بالمتعة الأبدية، فإن جدتى لم ترغب فى الذهاب إلى هناك، حيث راحت تسير بمحاذاة حافة النهـر التـى كانت تسير عليها من قبل وهى تذهب بالطعام لجدى وفرقته، تنظر بعينيهـا الذهبيتين إلى الخلف لتنادى على أبى. ولو لم يكن أبى آنذاك يـستند علـى بندقيته، فإنه كان بالتأكيد قد سقط من فترة طويلة على الأرض. هنا جاء إليه ذلك الشخص الغريب أبو شامة واحتضنه وأنزله من أعلى المقعد العالى الذى كان يقف عليه منذ وقت طويل. وهنا لف صوت الزمـر والطبـل الجميـل ورائحة الجموع المحتشدة وروعة المراسم الجنائزية، لفت هـذه المـشاعر مجتمعة أبى بجسده وروحه وكأنها طبقة بلاستيكية عالية الجودة أطبقت عليه تمامًا.

قبل عشرين يومًا مضت، كان جدى قد اصطحب أبى وذهبا معًا لحفر قبر جدتى. ولم يكن ذلك اليوم يومًا سعيدًا بالنسبة لطيور الـسنونو، حيـث تغطت السماء فى ذلك اليوم باثنتى عشرة سحابة متقطعـة، وفاحـت بـين السحب رائحة بعض الأسماك المتعفنة، وهبت على نهر مـوا شـوى ريـح

شريرة، وطفت على سطحه أرواح الأشباح، وتناثرت بين الأعشاب الذابلة على ضفتي النهر أشلاء جثث الكلاب التي لقيت حتفها انفجارًا بالقذائف اليدوية، خلال المعركة التي وقعت بين البشر والكلاب في شتاء العام الماضي، بينما راحت تحلق جماعات السنونو التي جاءت مهاجرة منذ وقت قريب من جزيرة خاى نان وهي في رعب شديد، وكانت الضفادع في تلك الأثناء قد بدأت في التعانق مع بعضها بعضًا، كانت الضفاع تقفز في كل مكان منتشية بنشوة الحب الجميلة التي لفت تلك الضفاع السوداء النحيفة.

وراح أبي ينظر إلى جماعات السنونو والضفادع، وإلى جسر نهر موا شوى الذى لا تزال تظهر عليه آثار جراح عام ١٩٣٩، شعر أبي بشعور أشبه ما يكون بالوحدة والحيرة. وخرجت جموع الأهالي التي استراحت طيلة الشتاء، خرجوا إلى الحقول لزراعة الذرة، وبدا صوت الآلات الزراعية القادم من بعيد واضحًا جدًا. وسار أبي خلف جدى ومعهم ما يزيد على عشرة من أفراد التنظيم حتى وقفوا أمام قبر جدتي. وبدا قبرها مع قبور أعضاء فرقتها في شكل أفعى كبيرة، وبدا الطين الذى يغطى القبر باهتًا، ونبت داخله عدد من زهور القرنبيط البرى.

لف الصمت الجميع لمدة ثلاث دقائق.

وسأل جدى: "يا دوو قوان، هل أنت متأكد من هذا القبر؟"

فقال أبي: "نعم، إنني لن أنساه أبدًا".

قال جدى: "إذًا فابدأوا الحفر!"

أمسك أفراد التنظيم بالآلات التي جاءوا بها، إلا أنهم وقفوا مترددين ولم يجرؤا على البدء في الحفر. وأخذ جدى بمعول على شكل الصليب وراح يضرب به على فتحة قبر مكتنز يبدو مثل ثدى الأنثى، أحدثت ضربات

المعول صوتًا مسموعًا وهى تتعمق إلى بطن الأرض، ثم سحبه بقوة، فخرج المعول بقطعة طمى كبيرة، فرماها جدى إلى جانب القبر، وهنا برزت كومة التراب أعلى القبر.

وعندما ضرب جدى بمعوله كومة التراب أعلى القبر، شعر أبى أن قلبه ينقبض، ولفه شعور بالخوف والكره الشديد تجاه جدى ذلك الرجل قاسى القلب.

ألقى جدى بالمعول جانبًا، وقال بصوت ضعيف: "احفروا، احفروا.".

فأحاط أفراد التنظيم بقبر جدتى، وانشغلوا بعملهم حتى استطاعوا خلال وقت قصير تسوية كومة التراب المكومة أعلى القبر بسطح الأرض، وألقوا بالتراب فى كل مكان، حتى تمكنوا من توضيح معالم القبر مربع الشكل، كان التراب ناعمًا جدًا، وبدا القبر مثل حفرة كبيرة. فراح أفراد التنظيم يستخدمون المجرفات فى نزع التراب من القبر. فقال جدى: "احفروا بكل جرأة، فإنه لا يزال أمامنا متسع من الوقت".

ومضى أبى يتذكر مشهد دفن جثة جدتى ليلة اليوم التاسع من الشهر الثامن عام ١٩٣٩، حيث سطعت مشاعل اللهب التى كانت مرفوعة أعلى سطح الجسر وما يزيد على عشرة مشاعل كانت تحيط بالقبر على وجه جدتى الميتة حتى بدا وجهها ينبض بالحياة، ثم قضى التراب بعد ذلك على هذا الانطباع تمامًا. والآن فإن هذه الآلات المعدنية تكشف عن هذا الانطباع من جديد، وكلما أصبحت طبقة التراب رقيقة ازداد توتر أبى، وكأن هذه الطبقة الرقيقة من التراب تفصله عن ابتسامة جدتى التى أخفاها الموت..

أخذ العم أبو شامة أبى إلى مكان ظليل بارد، وراح يمسح على وجنته براحة يده، ثم نادى عليه قائلاً: "استيقظ يا دوو قوان!"

فأفاق أبى على الفور، ولكنه لم يكن يرغب فى أن يفتح عينيه، وقد بدا جسده ينضح بالعرق الساخن، إلا أنه كان يبدو باردًا، وكأن الهـواء البـارد الذى كان يخرج من قبر جدتى قد تسرب إلى أعماق قلبه.. وقد برز القبـر واضحًا الآن، واصطدمت المعاول وآلات الحفر بأعواد الذرة وأحدثت صوتًا مسموعًا، بينما بدت أيدى أفراد التنظيم ترتجف. وبعد أن انتهى الأفراد مـن تنظيف أعواد الذرة من التراب الذى علق بها، توقفوا عن العمـل، وراحـوا ينظرون إلى جدى وأبى بتوسل. ورأى أبى وجـوههم الحزينـة وأنـوفهم المتشنجة. ثم سرت فى تلك الأثناء رائحة عفنة قوية. وراح أبى يتابع تلـك الرائحة وكأنه يشمها، كانت تنبعث عن صدر جدتى، بينما هو يرقـد علـى صدرها للرضاعة.

"واصلوا الحفر، واصلوا الحفر " هكذا راح جدى يصيح غاضبًا فـى وجوه هؤلاء الرجال المتعبين دون أدنى إحساس بالشفقة والعطف تجاههم.

وهكذا اضطر هؤلاء الأفراد إلى مواصلة العمل وراحوا يستلون أعواد الذرة ويلقون بها إلى خارج القبر، وقد لمعت قطرات المياه علـى الأعـواد الخالية من الأوراق، وبدت تلك الأعواد محمرة وملساء وكأنها قطع من اليشم المبلل بالمياه.

واشتدت تدريجيًا تلك الرائحة المنبعثة من داخل القبر، فسارع العمـال بوضع أكمامهم على أنوفهم وأفواههم ليتقوا تلك الرائحة القوية، بينما دمعت أعينهم وكأنها قد تعرضت للحك الشديد بالثوم. وتحولت تلك الرائحة فى أنف أبى إلى رائحة نبيذ الذرة ذى الرائحة الذكية القوية، حتى كاد يشعر بالـسكر من شمها. رأى أبى أعواد الذرة تزداد ألوانها حمرة كلمـا ازدادت قطـرات المياه المتساقطة عليها. ومضى يفكر فى أنه ربما تكون تلك السترة الحمراء

التى ترتديها جدتى مشبعة بنبيذ الذرة، يعرف جيدًا أن جسدها قبيل وفاتها كان لامعًا وشفافًا مثل الحرير، وأن لون تلك السترة الحمراء هو بالتأكيد الذى طفح على أعواد الذرة الخضراء لتبدو محمرة. وعندما مضى العمال فى رفع تلك الأكوام من أعواد الذرة ووصلوا إلى آخر طبقة منها، كان أبى يتمنى أن ينظر إلى وجه أمه التى ترقد تحت هذه الكومة من أعواد الذرة، ولكنه فى الوقت ذاته كان يخشى أن يرى وجهها. وكلما قلت كمية أعواد الذرة المتبقية داخل القبر فوق جثة جدتى، كان أبى يشعر بأنها أضحت بعيدة عنه تمامًا، حيث زالت الحواجز المرئية بين عالم الأحياء وعالم الأموات، فى حين ازدادت سماكة الحواجز غير المرئية بين العالمين. وفجأة سمع الجميع صوت وشوشة خرج من بين آخر مجموعة أعواد ذرة فى القبر، فذهل أفراد التنظيم ذهولاً شديدًا ومنهم من راح يصيح بصوت مرتفع، ومنهم من وقف مذهولاً من هول ما سمع، وكأنهم قد تعرضوا جميعًا لموجة عاتية خرجت عليهم فجأة من بطن القبر وألقت بهم إلى خارجه. بدت وجوههم شاحبة لمدة طويلة بعد خروجهم من داخل القبر، حتى عادوا إليه ثانية بعد أن تقدم أبى وراح يحثهم على مواصلة عملهم، وما إن نظر أبى إلى القبر حتى رأى أربعة فئران من الفئران البرية تتسلق جدار القبر، وكان هناك فأر أبيض اللون يجلس هنالك أعلى عود من أعواد الذرة الجميلة جدًا الملقاة داخل القبر وكأنه يقوم بالتنجيم. انتبه الجميع إلى الفئران الأربعة، التى ما إن صعدت إلى أعلى سطح القبر حتى لاذت بالفرار، بينما كان ذلك الفأر الأبيض لا يزال يجلس فى مكانه وهو ينظر إليهم بعينيه الصغيرتين السوداوين. أمسك أبى بحفنة من التراب وألقاها على الفأر الأبيض، فقفز لأعلى حوالى أقل من متر ولكنه لم يستطع أن يصل إلى سطح القبر، فسقط ثانية وراح يجرى بجنون داخله. وسلط أفراد التنظيم جل بغضهم على ذلك الفأر الأبيض، وراحوا يهيلون عليه كميات كبيرة من التراب المشبع بمياه الأمطار، حتى تمكنوا أخيرًا من قتله

داخل القبر. وعندما وصل التراب إلى آخر مجموعة أعواد ذرة داخل القبر، شعر أبى عندها بالندم الشديد لأنه بدأ بنفسه هذه الحملة من إهالة التراب على الفأر الذى كان يرقد داخل القبر، الأمر الذى تبعه فيه باقى الأفراد، ومعظم تلك الكمية الكبيرة من التراب لم تسقط على الفأر مباشرة، ولكنها كانت تسقط على جثة جدتى.

كان أبى يعتقد على الدوام أن أمه فور خروجها من بطن القبر ستبدو جميلة نضرة، وأن قبرها سيبدو مشرقًا ومبهرًا تفوح منه رائحة ذكية، وسيكون ذلك المشهد مثل المشاهد الجميلة التى تتكرر فى الحكايات والأساطير. غير أن أفراد التنظيم كانوا ينفون هذه المقولة التى يؤكد أبى على صحتها، وكانوا كلما ذكروا هذا الأمر شعروا بامتعاض شديد، وراحوا يصفون صورة جثة جدتى المتعفنة والرائحة الخانقة التى تنبعث عنها. فى حين أن أبى كان على ثقة بأن كلامهم هذا مجرد هراء، حيث إنه كان لا يزال يذكر جيدًا أنه عندما تم رفع آخر عود من أعواد الذرة من أعلى جثة جدتى، كان قد رأى بأم عينيه وجهها الجميل الباسم. كما أنه لا يزال يذكر تلك الرائحة الذكية التى انبعثت من جسدها، ولكن تلك اللحظة كانت للأسف لحظة قصيرة جدًا. وبمجرد أن خرجت جثة أمه من داخل القبر، تلاشت صورتها الجميلة الباسمة، وتبعثرت تلك الرائحة الذكية، ولم يبق فقط سوى هيكلها الأبيض الناصع. ويقر أبى أنه كان قد شم آنذاك رائحة كريهة جدًا، ولكنه كان ينفى من أعماق قلبه أن يكون هذا هو هيكل أمه، ومن ثم فإن تلك الرائحة الكريهة ليست رائحتها.

بدا الحزن الشديد على جدى. وفر الأفراد السبعة الذين قاموا بإخراج جثة جدتى المتعفنة من داخل القبر مسرعين إلى نهر موا شوى، وراحوا يتقيئون مما شعروا به خلال إخراج الجثة. وتقدم جدى وفرد قطعة قماش

بيضاء كبيرة، وطلب من أبى أن يساعده فى نقل جثة جـدتى علـى قطعـة القماش الكبيرة. وشعر أبى بأنه قد وصلت إليه عدوى التقيـؤ مـن هـؤلاء الأفراد الواقفين على حافة النهر، وراح يرفع رقبته لأعلى وهو يشعر بمرارة كبيرة. كان لا يرغب أبدًا أن يتقدم بتحريك تلـك العظـام الملقـاة أمامـه، وقد شعر تجاهها آنذاك بالامتعاض والكره الشديد.

فخاطبه جدى قائلاً: "ما بالك يا دوو قوان تعرض هكذا عن عظام أمك وتتعلل بأنها عظام قذرة؟ هل تشارك الآخرين كره عظام أمك؟

وهنا تأثر أبى كثيرًا بمعالم الحزن الشديد التى رآها على وجه جـدى، وقليلاً ما ترتسم على وجهه مثل هذه المشاعر، فأمـال أبـى ظهـره وراح محاولاً الإمساك برأس جدتى. وقد أحس ببرودة جثتها الشاحبة، وقد شـعر ببرودة تسرى فى جميع أوصاله. وأمسك جدى بكتفى جدتى، وراح يحركها بخفة، ولكن هيكل جدتى تفتت فى تلك اللحظات إلى قطع صـغيرة مـلأت الأرض المحيطة بالغطاء الأبيض الكبير. وغطى شعر جثة جـدتى قـدمى جدى، ثم رأى زوجًا من النمل الأحمر الكبير يتسلق الجثة. وهنا ألقى أبـى بقدم جدتى والتفت إلى الـوراء وفـر بعيـدًا وقـد انخـرط فـى البكـاء بصوت مرتفع..

(٤)

انتهت جميع مراسم الجنازة فى تمام الساعة الثانيـة عـشرة ظهـرًا، وصاح الراهب سه شه بصوت مرتفع: "فلنتحركوا الآن!" وهنا تدفقت جموع المحتشدين المشاركين فى تشييع الجنازة نحو الحقول. ورأت جموع الأهالى المشيعين الذين كانوا ينتظرون منذ وقت طويل علـى مـشارف القريـة، الجموع الغفيرة القادمة من داخل القرية، كما رأوا جنازة عائلتنا، عائلة يـو

المهيبة، والتى بدت مثل التنين الضخم. وقد انتشرت على جـانبى الطريـق مجموعة كبيرة من الخيام الكبيرة، وكانت المسافة بينها حوالى مائتى متـر، وقد امتلأت الخيام بالموائد الفخمة التى تحتوى على شتى أنواع الأطعمة التى يسيل لها لعاب الأهالى المحتشدين لتشييع هذه الجنازة المهيبة. بينما كانـت تجرى فرقة الخيول التى يقودها وو لوان تزه داخل حقول الذرة الممتدة على جانبى الطريق. واشتدت حرارة الظهيرة، وتناثرت كميات كبيرة من التـراب، وتصببت أجساد الخيول بالعرق الشديد، وامتلأت حواف أفواهها بسائل امتزج بالتراب الذى ملأ المكان. وانعكست شمس الظهيرة الحارة على أرداف الخيول اللامعة، بينما علت كميات التراب الكبيرة المنبعثة عن ركض الخيول.

وكان يتقدم الجنازة راهب ممتلئ الجسم يرتدى عباءة صفراء، ممسكًا بحربة حديدية تحدث صوتًا مسموعًا، يدوى حوله وفى عنان السـماء، ثـم يدوى بين جموع المحتشدين. وكأن تلك الحربة الصغيرة كانت مربوطة بيد الراهب، فكانت تبدو ملتصقة بيده مهما اشتدت الرياح. وكان نـصف عـدد الجموع المحتشدة لتشييع الجنازة يعرفون ذلك الراهب ممتلئ الجسم، يعرفون أنه رجل فقير من معبد تيان تشى، وأنه راهب فقير لا يقوم بحرق البخـور وتلاوة كتاب بوذا، وأنه كان يدمن شراب النبيذ وأكل الأسماك، وكان يـأوى معه فى المعبد امرأة شابة ولدت له مجموعة كبيرة من الرهبـان الـصغار. فراح الراهب الفقير يضرب بحربته ليفسح لنفسه الطريـق بـين صـفوف الأهالى، وما إن رفع الحربة تجاه رءوسهم امتثلوا له وتراجعوا عن التقـدم للأمام. وهنا بدت على وجهه علامات السرور.

وكان هناك رجل من أفراد التنظيم يسير خلف الراهب مباشرة، وهـو يرفع عصا طويلة، علق أعلاها علمًا جنائزيًا، وبدت العصا ممتلئة بـاثنتين وثلاثين قصاصة ورقية بعدد السنوات التـى عاشـتها جـدتى. راح العلـم

الجنائزى يرفرف فى السماء الساكنة. وكان يقف خلف رجل آخر من أفـراد التنظيم قوى البنية يرفع راية بيضاء ارتفاعها حوالى عـشرة أمتـار، وقـد امتلأت الراية بهذه الكلمات المكتوبة بالحبر الأسود: نعش السيدة داى زوجة القائد يو جان آو قائد فرقة العصابات بقرية دونغ بيى بمدينة قاو مى بالصين الوطنية، والبالغة من العمر اثنين وثلاثين عامًا. ظهر خلـف الرايـة ذلـك الغطاء الصغير الذى كان يلف شاهد جدتى، وخلف الشاهد ظهـر الغطـاء الكبير الذى كان يحمل نعشها. ووسط الأصوات الحزينة التى هزت المكان، تقدم أربعة وستون رجلاً من أفراد التنظيم فى خطوة واحـدة. وقـد غطـى التابوت عدد كبيرة من المظلات والقصاصات الورقية على شكل فرس وعدد كبير من الأزهار ذات الألوان المختلفة. وظهر أبى مرتـديًا ثـوب الحـداد وممسكًا فى يده بعصا الأحزان المصنوعة من خشب الصفصاف، حمله اثنان من أفراد التنظيم ذوى الرءوس الصلعاء كانوا يتقدمون إلى الأمـام خطـوة خطوة وفق صوت أبى. وكان أبى يولول ولولة ممتازة، وقـد بـدت عينـاه ذاهلتين، وصوت ولولته ملفت للنظر حتى تأثرت به قلوب عدد كبير جدًا من جموع الأهالى المحتشدين لتشييع الجنازة.

كان جدى والسيد أبو شامة يسيران جنبًا إلى جنب خلف أبى، وقد بدت عليهم معالم الحزن الشديد، ولم يكن أحد يستطيع فى تلك اللحظات أن يخمن ما كان يدور داخل رأس كل منهما.

وأحاط بكل من جدى وأبى شامة ما يزيد على عشرين من أفراد التنظيم المسلحين بالبنادق، بدا عليهم التوتر الشديد وكأنهم مقدمون على ملاقاة عـدو قوى. وكان يسير خلفهم ما يزيد على عشر من فرق الطبالين والزمارين بقرية دونغ بيى بمدينة قاو مى، كانوا يعزفون موسيقى غاية فـى الجمـال، تجعـل الإنسان يسبح معها بعيدًا فى عالم الأساطير.

وهكذا بلغ طول جنازة جدتى المهيبة حوالى كيلومتر، وامتلأ الطريق الضيق بالأعداد الغفيرة من المشيعين، وكانوا يتقدمون للأمام بصعوبة بالغة وسط ذلك الطريق الضيق، كانت الجنازة تعرج خلال ذلك الطريق الطويل على خيام المآدب المنتشرة على طول الطريق لشكرها، وكانت كلما مرت بخيمة تقف عندها لإحراق قليل من البخور على روح الميت، وكان الراهب سه شه يمسك عندها بوعاء من النحاس ويقوم بعمل بعض الطقوس القديمة المتبعة فى المراسم الجنائزية، ومن ثم فقد كان موكب الجنازة يسير بخطوات بطيئة جدًا. وكان الراهب قد شعر بالتعب الشديد من كثرة اللعب بالحربة، وتصبب جسمه عرقًا، وتبللت عباءته الصفراء وخمد صوت الحربة كثيرًا، ولم يعد يدوى بعيدًا عن مكان تمركز الراهب. شعر جميع الأهالى المشاركون فى الجنازة بالإرهاق الجسدى والمعنوى الشديد، وراحوا يتمنون من أعماق قلوبهم أن تنتهى هذه الجنازة الشاقة. وراح أفراد التنظيم الذين يحملون الغطاء الكبير ينظرون غاضبين إلى الراهب سه شه، الذى كان لا يزال ممسكًا بالوعاء منهمكًا فى القيام ببعض الطقوس، ومعالم الحزن التى ترتسم على وجهه، وودوا لو انقضوا عليه دفعة واحدة وأخرسوا لسانه الثرثار. كانت فرقة الخيول التى يقودها وو لوان تزه هى أكثر المجموعات التى تحملت التعب والعناء الشديد خلال مراسم الجنازة، كانوا قد انطلقوا فى رحلة مكوكية من القرية إلى منطقة المقابر، ثم من المقابر إلى القرية مرة أخرى، وقد بدا التعب على الخيول التى راحت تلهث وقد بدت أقدامها وبطونها ملطخة بالتراب الكثيف.

وبعد أن ابتعد موكب الجنازة عن القرية نحو كيلو ونصف الكيلومتر، وقف ثانية عند إحدى الخيام لشكرها على المأدبة العامرة التى أقامتها، حيث كان الراهب سه شه لا يزال يتقدم الموكب بروح معنوية

عالية وصرامة واضحة، وفجأة سمعوا صوت طلق نارى يدوى قريبًا منهم، وما إن نظروا إليهم حتى رأوا ذلك الرجل من أفراد التنظيم الذى كان يمسك بالراية جالسًا على الأرض، وقد مالت الراية على جانب الطريق، ثم سقطت على رءوس الأهالى المشاركين فى تشييع الجنازة. وقد عم المكان فوضى عارمة فور سماع صوت الطلق النارى، وتجمع الأهالى فى مجموعة واحدة مثل سرب كبير من النمل حول فريسة كبيرة، كنت ترى فقط أقدامهم وهى تتحرك ورءوسهم وهى تهتز وسط ذلك التكتل الكبير، وامتزجت أصوات البكاء والصياح والفزع لتعم أرجاء المكان.

وفور سكون صوت الطلق النارى، تطاير عدد من القذائف اليدوية فوق رءوس الأهالى المتجمعين على جانبى الطريق، وقد سقطت بعض القذائف تحت أقدام أفراد التنظيم، فامتلأ المكان بالدخان الأبيض الكثيف.

ثم سمعوا صوت أحد الأشخاص على جانب الطريق وهو يصيح بصوت مرتفع: "انبطحوا أيها الأهالى!".

فراح جموع الأهالى المحتشدين ينظرون إلى أفراد التنظيم ثم انبطحوا بسرعة وقد بدا عليهم القلق والفزع، وتمكنوا فقط من رؤية القذائف التى تهتز فى السماء والأصوات المدوية التى تصدر عن انفجارها، وانتشر بينهم شعور كبير بالفزع والرعب الشديد من شبح الموت الذى يقترب منهم.

توالى انفجار القذائف اليدوية، ولفت المكان صورة مأساوية، حيث أسفرت الانفجارات عن مصرع وإصابة ما يزيد على عشرة من أفراد التنظيم، كما أصيب العم أبو شامة إصابة بالغة فى مؤخرته ونزف كمية كبيرة من الدم. فراح يمسك بمكان الجرح ويصيح بصوت مرتفع: "يا فو لاى يا فو لاى " ولم يستمع لرد خادمه فو لاى، الذى كان عمره من عمر أبى تقريبًا، وبالتالى لم يتمكن فو لاى من مساعدته وإنقاذه فى تلك اللحظات

الحرجة. كان أبى قد أهدى للخادم فو لاى إحدى الكرتين الزجاجيتين اللتين عثر عليهما ليلة أمس مع الطبيب التقليدى، حيث كان أبى قد احتفظ لنفسه بالكرة الحمراء وأهدى الكرة الخضراء للخادم فو لاى، وقد فرح بها فو لاى كثيرًا وكأنه قد وقع على كنز ثمين، وكان دائمًا ما يظهر وهو يلعب بها فى فمه. كان أبى ينظر إلى الكرة الخضراء فى فم فو لاى وقد بدت مخضبة بالدماء التى سالت من فمه، ولمع لونها الأخضر الجميل وكأنها مثل إكسير الحياة فى الحكايات والأساطير. وأصابت إحدى الشظايا رقبة الراهب سه شه الذى كان منشغلاً بطقوسه، فقطعت شرايينه وانفجر منها بحر من الدماء، ثم سقطت رقبته على الأرض وامتزج دمه بتراب الأرض. وبدا دم الراهب سه شه مثل قطرات الأمطار الشديدة التى كانت تسقط على التراب لتخلق فيه بعض الحفر، وسقط جزء من الغطاء الكبير ليكشف عن تابوت جدتى الأسود.

ثم سمعوا صوت شخص آخر يصيح بين جموع المحتشدين على جانب الطريق: "أيها الأهالى انبطحوا أرضًا!" وفى تلك الأثناء سقطت عليهم مجموعة جديدة من القذائف. فاحتضن جدى ابنه وراح يحبو على الأرض حتى وصل إلى أخدود ضحل على جانب الطريق، داست عشرات الأقدام على ذراع جدى المصاب، حتى أحس بثقل شديد يجثم على ذراعه، ولكنه لم يتألم كثيرًا من تلك الأقدام. أما أفراد التنظيم الذين كانوا يقفون على جانبى الطريق، فقد ألقى ما يزيد على نصفهم البنادق التى كانوا يمسكون بها وفروا كالجرذان، وأما الأفراد الباقون الذين لم يلقوا ببنادقهم بعد، فقد ظلوا شاردين فى أماكنهم على جانبى الطريق، فى انتظار انفجار قذائف جديدة. وأخيرًا تمكن جدى من رؤية أحد هؤلاء الأشخاص الذين كانوا يلقون بالقذائف. وأحس للوهلة الأولى أن وجه ذلك الرجل كان يبدو مثل الطريق الممتلئ عن آخره بالتراب الكثيف، والذى انبعثت منه رائحة الثعالب الماكرة. بدت على ذلك الوجه علامات رجال الجيش الثامن، إنه من فريق جياو قاو! إنه من رجال القائد جيانغ! إنه من رجال الجيش الثامن!

ثم دوى صوت انفجار القذائف من جديد، وامتلأ الطريق الترابى بالغبار الكثيف الذى تطاير بكميات كبيرة إلى عنان السماء، وتطايرت الشظايا إلى جانبى الطريق، فراح جموع الأهالى المشاركون فى تشييع الجنازة يتساقطون على الأرض مثل أعواد الأرز. تواثب عدد كبير من أفراد التنظيم على جانبى الطريق بفعل تلك الشظايا، التى أصابت أيديهم وأقدامهم، وأجسادهم لتسيل منها كميات كبيرة من الدماء، والتى راحت تتناثر فوق رءوس الأهالى مثل مشاعر الحب الرقيقة.

وهنا مد جدى يده ليخرج بندقيته وقد بدا عليه الاضطراب والارتباك، وحدد هدفه جيدًا نحو ذلك الرجل من الجيش الثامن، ثم داس على زناد بندقيته برفق، لتخرج الرصاصة من داخل البندقية ويتابعها بنظراته الدقيقة.

وراح رجال الجيش الثامن يصيحون بين جموع الأهالى قائلين: "أيها الرفاق! انقضوا عليهم واستولوا على أسلحتهم!"

وهنا توجه أبو شامة وبعض أفراد التنظيم الذين أفاقوا من هول صدمة القذائف، توجهوا نحو ذلك الجمع من الناس وراحوا يطلقون النيران بصورة عشوائية، كانت الطلقات التى خرجت من أسلحتهم فتاكة جدًا، كانت تخترق عددًا من الأجساد قبل أن تستقر داخل جسد أحد الأشخاص أو قبل أن تسقط داخل التراب.

وهنا تمكن جدى من التعرف على الملامح الرئيسية لرجال الجيش الثامن وسط ذلك الجمع الكبير من الناس، والذين بدوا يقاتلون باستماتة وسط جموع الناس، وقد راح جدى يتأمل تعابير وجوههم القاسية وهو يشعر وكأن سكينًا حادًا يخز قلبه الضعيف. والآن تحولت المشاعر الطيبة التى كانت قد تكونت لديه تدريجيًا تجاه رجال الجيش الثامن، تحولت تلك المشاعر الآن إلى

حقد وبغض دفين، صوب جدى بندقيته نحو الكثير من تلك الوجوه المتوحشة، وكان يثق تمامًا أنه لم يقتل أحدًا منهم، كان قد عرف بعد ذلك أن هؤلاء الذين أصابتهم الطلقات العشوائية التى أطلقها أبو شامة وأفراد التنظيم، كانوا جميعًا من الأهالى الأبرياء.

تمكن أبى أن يخرج من تحت إبط جدى، ثم أخرج مسدسه البرونينج، كان قد شعر بالضيق والأذى الشديد من شدة صوت الطلقات النارية التى دوت من حوله. فخرجت من مسدسه طلقة عن غير قصد منه. وراح يتبع عادته المعهودة عندما يطلق الطلقات النارية من سلاحه الخاص، فراح يلاحق تلك الرصاصة التى خرجت من مسدسه. وقد اكتشف أنها سارت فى طريق مستقيم حتى استقرت داخل فم كان مفتوحًا. كان ذلك الفم يخص امرأة شابة فوق العشرين من عمرها، امرأة جميلة ذات شفتين حمراوين نضرتين، وأسنان ناصعة البياض، وذقن ممتلئ. وقد سمع أبى صوتًا مبحوحًا يخرج من ذلك الفم المصاب، وخرجت منه كتل من الدماء التى امتزجت ببعض الأسنان البيضاء الجميلة التى تكسرت بفعل الرصاصة، ففتحت المرأة الشابة الجميلة عينيها الخضراوين الرماديتين وراحت تنظر إلى أبى، ثم سقطت بعدها على الأرض، وقام بعض الناس الحاضرين على الفور بإخفائها عن أعين الجميع.

دوت صافرة الإنذار داخل القرية، واستطاع جدى أن يرى ما يزيد على مائة رجل من قوات فريق جياو قاو وهم يلوحون ببنادقهم وهراويهم، ويتقدمون تحت قيادة القائد جيانغ ويصيحون بكلمة الهجوم. وكان وو لوان تزه قد قطع مؤخرة فرسه الملون داخل حقول الذرة الممتدة جنوب القرية، ثم تقدم فرقة الخيول وفر ناحية الشمال. تألم الحصان الملون كثيرًا

مما أصابه، وتصببت رقبته بالعرق الشديد. وسدت جموع الأهالى المنهزمة الفارة الطريق أمام فرقة وو لوان تزه ورجاله، فراح وو لوان تزه يضرب حصانه ويحثه على التقدم بين جموع الأهالى المعترضين طريقه، ثم تبعه فى ذلك رجاله، وعندها لم يتمكن الأهالى من اعتراض طريق الخيول، فانقضوا إلى أعلى ظهور الخيول، فسقطت الخيول داخل إحدى المستنقعات، ورفعت رقابها وراحت تصهل بصوت يعبر عن إحباطها. وإلى جانب وو لوان تزه، كان هناك حصانان أسقطتهما جموع الأهالى الذين انقضوا عليهما بشكل جنونى، كما سقط الرجلان اللذان كانا يمتطيان هذين الحصانين، وراح عدد كبير من الأقدام يعبر فوق الحصانين المقتولين وصاحبيهما، وصدر صوت ممتلئ بالحزن والأسى عن الحصانين وصاحبيهما. تمكن الأهالى من القبض على أحد رجال فرقة جياو قاو كان بحوزته مسدس ماوزر - ربما يكون هو الذى قام بقتل ذلك الرجل من أفراد التنظيم الذى كان يرفع راية الجنازة - وقدموه إلى وو لوان تزه، وما إن رآه وو لوان تزه حتى غضب غضبًا شديدًا، وقد أطلق ذلك الرجل من فرقة جياو قاو طلقة، إلا أنها لم تصب وو لوان تزه وطارت فى عنان السماء، فانتزع وو لوان تزه سيفه اليابانى اللامع، وقطع به رأس الأسير من فرقة جياو قاو. فطارت تلك الرأس فوق رءوس الأهالى، وتناثرت دماؤها فوق وجوه بعضهم.

وتجمع أفراد التنظيم المرابضون على جانبى الطريق إثر سماعهم صوت توبيخ جدى لهم، واحتموا بأعلام ورايات الجنازة والخيام المنتصبة على جانبى الطريق، وراحوا يواجهون فرقة جياو قاو التابعة للجيش الثامن.

وهكذا تمكن جدى من خطف رجال فرقة جياو قاو والتى كانت قد ضعفت كثيرًا، فلم يكن لديهم عدد من الأسلحة الجيدة، وكانوا فقط يمتلكون روح التضحية العالية. فعلى الرغم من عدم توقف الطلقات النارية التى يوجهها

نحوهم أفراد عصابة جدى حتى أسقطوا منهم عددًا كبيرًا، فإنهم لم يتراجعوا عن التقدم بكل شجاعة ولم يتوقف صياحهم: الهجوم الهجوم، هذا بالإضافة إلى أن الأسلحة البدائية التى كانوا يمسكون بها، كانت فقط تفيدهم فى حالة حدوث احتكاك مباشر وجهًا لوجه مع خصمهم. وقد شكلت هذه الروح القتالية وروح التضحية الكبيرة التى يمتمعون بها، خطورة كبيرة على عدوهم، حتى تمكنوا من تفكيك معسكرات عصابة جدى ورفاقه. وطارت الطلقات النارية التى أطلقها أفراد التنظيم بعيدًا عنهم. فى حين تمكن رجال فرقة جياو قاو المنقضون عليهم ببسالة كبيرة، من رميهم بعدد من القذائف اليدوية، نجحت فى تخويف أفراد التنظيم الذين فروا من أمامهم وهم يجرون أسلحتهم دون مواجهتهم بها، فى حين لاحقتهم تلك الشظايا المنبعثة عن القذائف والتى تمكنت من إصابة عدد كبير منهم. وقد جعلت هذه القذائف الفتاكة جماعة الزمارين والطبالين والأسد والطوالة، يشعرون بخيبة الأمل. تطايرت تلك الآلات التى كان يستخدمها الطبالون والزمارون متاثرة بصوت انفجار القذائف، فى حين تعثر هؤلاء الرجال الذين كانوا يسيرون على الطوالات، ومالوا على جانبى الطريق، وغرست أقدامهم فى الوحل، وبدوا مثل الأشجار الجافة التى انزرعت وسط حقول الذرة. وصدرت عنهم أصوات فى غاية الحزن والقسوة، وبدا على وجوههم الخوف والرعب الشديد.

وما إن رأى وو لوان تزه أفراد التنظيم الفارين من أمام رجال فرقة جياو قاو، بدا عليه القلق الشديد، فراح يرمى رجاله غاضبًا بالسيف الذى يمسك به، كما بدا حصانه مثل الكلب تمامًا وقد كان لا يتوقف عن عض الرجال القريبين منه، وقد سمع وو لوان تزه من أمامه ومن خلفه أصوات الأجساد التى يصيبها السيف وضحكات الأهالى الذين ارتجفت قلوبهم من هول الموت المحدق بهم.

قاد وو لوان تزه فرقته نحو الطريق العام، حيث صادفوا مجموعة من القذائف التى رمتها فرقة جياو قاو. وبعد سنوات عديدة من تلك الحادثة، كان جدى وأبى قد تذكرا تلك المهارة الفائقة التى أظهرها رجال فرقة جياو قاو فى استخدام القذائف اليدوية، لقد بدوا آنذاك مثل ملك الشطرنج الذى منى بهزيمة نكراء على يد لاعب شطرنج لا يملك أدنى خبرة فى هذه اللعبة، والذى يكون فمه مضطرًا لتقبل الهزيمة، فى حين يشعر من داخله بأنه لقى هذه الهزيمة بسبب ضعفه وجبنه. وفى ذلك اليوم الذى كان جدى وأبى ينسحبان صوب نهر موا شوى، كان أبى قد أصيب بطلقة نارية من بنادق جياو قاو الماوز فى ردفه. ولم يكن جدى قد رأى مثل ذلك الجرح الذى أصيب به أبى من قبل، سالت منه كمية كبيرة جدًا من الدماء وكأنه قد تعرض لعضة قوية من كلب مسعور. وكلما نقصت الذخيرة من أيدى رجال فرقة جياو قاو، كانوا يسارعون بجمع الرصاصات الفارغة وإرسالها لمصنعهم الحربى لإعادة تصنيعها مرة أخرى، ولم يكن جدى يعلم كيفية صناعتهم لرءوس الطلقات النارية، التى ما إن تخرج من بنادقهم حتى تذوب مثل سائل الأنف وتلاحق من يقف أمامها. وهكذا كان أبى قد أصيب بطلقة من هذه الطلقات الغريبة. وقد استطاعت هذه المجموعة من القذائف اليدوية أن تنهى تمامًا على فرقة وو لوان تزه برجالها وخيولها. كان حصان وو لوان تزه الملون قد انهار تمامًا مثل الجدار المائل بعد أن راح يقفز عدة قفزات، ليصاب إصابة خطيرة فى بطنه سالت منها كمية كبيرة من الدماء. وبعد أن تمكن وو لوان تزه من الفرار والاختفاء داخل أخدود على جانب الطريق، وتسلق حافة الأخدود، رأى أحد رجال الجيش الثامن ينقض عليه بخنجر لامع. فرفع على الفور الرشاش الذى كان معلقًا فى رقبته وأطلق دفعة من الطلقات النارية، فتساقط أمامه ما يزيد على عشرة أفراد من

رجالها، وتمكن ما يزيد على عشرة أفراد من أفراد عصابة جدى الذين لم يصابوا خلال تلك المعركة، تمكنوا من الهجوم على فرقة الجيش الثامن، وراحوا يقتلون رجالها، فى حين احتمى رجال الجيش الثامن بخناجر أسلحتهم وراحوا يضربون بها بطون خيول أفراد عصابة جدى. وهكذا اشتبك هؤلاء الأفراد من عصابة جدى ورجال فرقة جياو قاو فى معركة حامية، تساقطوا جميعًا وامتزجت دماؤهم بتربة قرية دونغ بيبى بمدينة قاو مى. ونجا من تلك المعركة زوج من الخيول، فرا هاربين صوب نهر موا شوى، وراحت ركاب سرجيهما تضرب بطنيهما، بينما كان ذيلاهما يرفرفان عاليًا وسط الغبار الأسود الذى ملأ المكان، حتى بديا يركضان بلا تكلف.

تمكن ثلاثة من أفراد فرقة جياو قاو من غرز خناجر أسلحتهم بكل غضب فى بطن وصدر قائد فرقة خيول التنظيم، ذلك الرجل الشرير. فأمسك وو لوان تزه ماسورة رشاشه بكلتا يديه ومال إلى الأمام، ثم راح ينظر هنا وهناك حتى توقفت عيناه عن الإبصار تمامًا. وغطى حاجباه الطويلان عينيه الرماديتين، وسال الدم من فمه. ومد أفراد فرقة جياو قاو أيديهم وسحبوا خناجرهم بكل قوة من صدره. فوقف وو لوان تزه برهة ثم سقط صريعًا داخل الأخدود. وسطعت الشمس على عينيه، لتعكس شعاعًا من الضوء الباهت. وهنا انقض هؤلاء الرجال الثلاثة من فرقة جياو قاو عليه واستولوا على الرشاش الروسى الصنع، الذى كان مربوطًا برقبته والمسدس الماوز الألمانى، الذى كان مربوطًا حول خصره. ثم تسلقت صدره سحلية ذات أرجل كثيرة، ووقفت على صدره وقد امتلأ جسمها بالدماء، بينما لمع من عينيها ذلك الشعاع المخيف الذى ينطلق من أعين الحشرات المتسلقة.

وقام شاب من أفراد التنظيم كان قد كسرت قدمه من أثر الانفجار، بوضع بندقيته وسيفه أمامه ورفع يديه الشاحبتين عالية معلنًا الاستسلام لفرقة

جياو قاو، وقد بدا يتمتم بكلمات من بين شفتيه الرقيقتين، ونزلت من عينيه دموع الخوف من الموت، وراح يتوسل إليهم قائلاً: " أيها العم.. لا تقتلني.. أيها العم.. لا تقتلني.". وهنا تراجع ذلك الرجل صاحب المقلة الصفراء من فرقة جياو قاو بعد تردد، تراجع عن رمى ذلك الشاب بقذيفة كان ينوى أن ينهى حياته بها، ثم أحنى ظهره وأخذ بالبندقية والسيف، ولم ينتظر حتى يرفع ظهره، وانقض على ذلك الشاب من عصابة جدى بماسورة البندقية لتدخل فى بطنه وتخرج من ظهره، وقد انتبه ذلك الرجل ذو المقلة الصفراء آنذاك إلى ارتعاش جسد الشاب الذى كان يبدو جميلاً جمال ثمرة الخيار الطازجة، وقد أمسك الشاب بماسورة البندقية المغروزة فى بطنه وراح يصيح مناديًا: "يا أمي.". ثم تساقطت رأسه الجميلة على ذراعيه. وهنا استدار أبو المقلة الصفراء غاضبًا وراح ينظر إلى رفيقه الذى أصيب برصاصة فى منطقة الخصر - وكان رفيقه فى منتصف العمر مستندًا وهو يتألم على ماسورة البندقية التى يمسك بها الشاب من عصابة جدى - وكان أبو المقلة الصفراء قد أصيب برصاصة من مسدس أحد أفراد عصابة جدى الماوز عندما قام ذلك الرجل فى منتصف العمر من فرقة جياو قاو بغرز ماسورة البندقية فى بطن أحد أفراد عصابة جدى.

فترت عزيمة التنظيم وهمته بمجرد انهيار فرقة الخيول التى كان يقودها وو لوان تزه، فر عدد من أفراد التنظيم الذين احتموا خلال المعركة بأعلام ورايات الجنازة بأسلحتهم إلى الجنوب، لم يستطع جدى وأبو شامة إقناع هؤلاء الجبناء بالبقاء والعودة عن قرار الفرار. وبعد أن حاول جدى معهم، حمل أبى وراح يدافع عنه نفسه وعن أبى حتى تمكن من الهرب فى اتجاه نهر موا شوى.

وتمكن رجال فرقة جياو قاو الشجعان الماهرون فى فنون الحرب من جمع الأسلحة التى تركها أفراد التنظيم، ومضوا فى طريقهم يتقدمهم القائد

جيانغ (صاحب القدم الصغيرة) وهم فى غاية السرور بما حققوه من نصر عظيم. وقد استطاع جدى أن يعثر على بندقية يابانية الصنع كان قد ألقى بها أحد أفراد التنظيم الفارين، واحتمى بكومة من فضلات الحيوانات وحشر بداخلها عددًا من الطلقات النارية، وبعد سماع صوت أول طلقة تخرج منها، قام جدى بفك ذراعه المصابة المربوط إلى رقبته، ورفع البندقية على كتفه الذى تورم من أثر حمل ذراعه المصاب، وكاد قلبه يقفز من بين ضلوعه، وراحت رأس القائد جيانغ صاحب القدم الصغيرة تتحرك أمام فوهة بندقية جدى. ولمزيد من الدقة، فقد حدد جدى هدفه صوب صدر القائد جيانغ. وأطلق رصاصته، وفى الوقت الذى دوى فيه صوت الطلقة، رأى أبى القائد جيانغ يسقط على الأرض. سقط القائد المغرور جيانغ قائد فرقة جياو قاو، وانتهز جدى تلك الفرصة وسحب أبى ومضيا مسرعين ليلحقا بأعضاء فرقته الذين انسحبوا من ساحة المعركة.

أصابت تلك الطلقة التى خرجت من بندقية جدى، عظم الكاحل عند القائد جيانغ، وجاء الطبيب فى عجالة لعلاجه ولف المنطقة المصابة. وجاء مساعد القائد للاطمئنان عليه، فى حين بدا وجه القائد جيانغ صاحب القدم الصغيرة شاحبًا وقد تصبب وجهه عرقًا، ولكنه كان لا يزال يرفض بحزم بقاءه إلى جواره، حيث قال: "أسرعوا، أسرعوا والحقوا بهم ولا تشغلوا أنفسكم بى! أسرعوا واستولوا على أسلحتهم ولا تتركوا قطعة سلاح واحدة، أسرعوا أيها الرفاق!"

وهنا انتفض أفراد فرقة جياو قاو الجالسون على الأرض بتشجيع القائد جيانغ، وهبوا فى اتجاه الطلقات النارية بقوة وهمة عالية. فى حين توقف أفراد عصابة جدى الذين قتلهم التعب، وألقوا بأسلحتهم وانتظروا أن يعلنوا استسلامهم لرجال فرقة جياو قاو.

فصاح فيهم جدى غاضبًا: "أطلقوا النيران، أطلقوا النيران!"

فرد عليه رجل ساذج من أفراد التنظيم: "أيها القائد، لا داعى لأن تثير غضبهم، إن كل ما يطمحون إليه هو السلاح، فلنعطه لهم، ولنعد إلى قريتنا لزراعة الذرة".

وأطلق أبو شامة طلقة طارت فى الهواء تمامًا ولم تصب شعرة من أى إنسان، ولكنها أثارت غضب فرقة جياو قاو الذين وجهوا نحو التنظيم ثلاثة رشاشات ألمانية الصنع طراز(١) **MP18**، مما أدى إلى مصرع رجل وإصابة ثلاثة آخرين من أفراد التنظيم. وكانت تلك الرشاشات الثلاثة قد حصل عليها جدى من فرقة لينغ ماتزه فدية عن بعض رجاله، والآن أصبحت أداة يستخدمها الآخرون لمهاجمته هو. ولم يكن هناك أحد على وجه الكرة الأرضية يعرف من أين أتى لينغ ماتزه بتلك الرشاشات الفتاكة.

هم أبو شامة أن يستمر فى إطلاق النيران، فاعترضه أحد أفراد التنظيم. قال له: "يكفى هذا القدر أيها القائد، وكفى إثارة غضب هؤلاء الكلاب المسعورين".

واقترب رجال فرقة جياو قاو أكثر فأكثر، وما إن رأى جدى هؤلاء الرجال الشريرين اللطيفين حتى اضطر إلى إنزال بندقيته.

زلزلت أصوات الرشاشات الألمانية آنذاك المنطقة الواقعة عند ضفتى نهر موا شوى، كانت هناك معركة أكثر شراسة تنتظر أفراد عصابة جدى وأفراد فرقة جياو قاو.

---

(١) رشاش **MP18**، أحد أشهر المدافع الرشاشة الألمانية فى الحربين العالميتين الأولى والثانية. دخل الخدمة خلال الفترة من ١٩١٨ حتى ١٩٤٥. (المترجم)

(٥)

عقب انتهاء خريف عام ١٩٣٩ الغائم الماطر، حل فصل الشتاء وكان شتاءً قارصًا جدًا، حيث تجمدت جثث الكلاب التى تمكن أبى بمشاركة رفقائه من فرقة جدى من قتلها باستخدام المسدسات والقذائف اليدوية، تجمدت تلك الجثث مع سيقان الذرة التى تساقطت داخل وديان المياه. كما تجمدت أيضًا جثث الكلاب التى قتلت بالقذائف اليابانية خلال الصراع على الزعامة، تجمدت مع الأعشاب المائية داخل المجرى المائى لنهر موا شوى. وراحت جماعات الغربان التى آلمها الجوع الشديد تنهش فى جثث الكلاب المتجمدة التى بدت مثل الكتل السوداء الصلبة، والتى كانت تتحرك فيما بين مجرى نهر موا شوى ووديان المياه. وقد تجمدت مياه نهر موا شوى، وظهرت فضلات الغربان الخضراء بالقرب من جثث الكلاب أعلى سطح المياه المتجمدة. كما تجمعت كتل من الجليد أعلى الوديان، وبما أن مياه تلك الأودية كانت ضحلة بالمقارنة مع النهر، فإن تلك الكتل الجليدية بدت متصلة بسطح الأرض، كانت تتكسر من كثرة السير أعلاها. وخلال فصل الشتاء الطويل، استغرق جدى وأبى وأمى والسيدة ليو فى بيات شتوى طويل فى تلك القرية التى انهارت تمامًا. كان أبى وأمى قد علما بطبيعة العلاقة التى تربط بين جدى والسيدة ليو، ولم يبديا أى اعتراض على ذلك، حيث كانت السيدة ليو قد أبدت اهتمامًا ورعاية كبيرة لجدى وأبى وأمى خلال تلك الفترة العصيبة من حياتهم، ولم ينس أفراد عائلتى لها ذلك خلال عشرات السنين، حيث لانزال حتى يومنا هذا نكتب اسم السيدة ليو فى "شجرة العائلة". ومكانها يأتى مباشرة بعد ليان إر، وتأتى ليان إر مباشرة بعد جدتى، وتأتى جدتى مباشرة بعد جدى.

كان جدى قد وقع فريسة للإحباط الشديد عقب الإصابة الخطيرة التى أصابت إحدى خصيتى أبى بواسطة كلب العائلة الأحمر. وكانت السيدة ليو قد

واست جدتى قائلة "كل ذى عاهة جبار". كما كانت تشينغ إر (أمى) قد تجرأت بتكليف من السيد ليو على الاقتراب من قضيب أبى، كان شكله آنذاك يبدو غريبًا جدًا بسبب إصابة الكلب، ومن ثم فقد استطاعت السيدة ليو أن تثبت لجدى أن نسل عائلة يو لن ينقطع، وكان جدى قد فرح آنذاك فرحًا كبيرًا، وفر إلى خارج الخيمة ورفع يديه إلى السماء وراح يدعو ويشكر السماء على اطمئنانه على نسل العائلة، وكانت هذه الحكايات جميعها قد حدثت خلال فصل الخريف المنصرم، كانت السماء آنذاك قد امتلأت بأسراب الطيور التى تحلق صوب الجنوب، وبدأت كتل الجليد تظهر فى وديان المياه، وهبت الرياح الشمالية الغربية أكثر من مرة، حتى حل الشتاء الأكثر برودة فى تاريخ الصين حتى ذلك الحين.

وكانت الخيمة التى يرقد بها جدى ورفاقه ممتلئة بأوراق الذرة الجافة، بينما كانت الخيمة التى يستخدمونها للطعام ممتلئة بكميات كبيرة من مخزون الذرة. ولأجل تقوية عظامهما وبنيتهما والحفاظ على الصحة الجيدة، كان جدى وأبى دائمًا يخرجان لصيد الكلاب[١]، وكانا يرتديان الثياب المصنوعة من جلود الكلاب التى كانت تحيكها لهما السيدة ليو، ويرتديان قبعات من جلود الكلاب كانت تصنعها لهما أمى والسيدة ليو معًا، ويخرجات إلى أعلى تلك الهضبة الواقعة خلف الوداى للصيد. أما الكلاب التى كانت تتقدم إلى الوادى لأكل الجثث، فكانت كلابًا برية غير منظمة. فمنذ حادثة قتل كلب عائلتى الأحمر، أصبحت الكلاب فى قرية دونغ بيى تسير متفرقة دون قائد يتزعمها وينظم تحركاتها، ولم تظهر منذ ذلك الحين أية تنظيمات للكلاب، تحولت

---

(١) من المعروف أن الشعب الصينى يأكل جميع ما يمشى على الأرض فيما عدا البشر، وتنتشر فى الصين حتى الآن مطاعم تقدم لحوم الكلاب والحمير وغيرها من الحيوانات الأخرى التى تختلف تمامًا مع الثقافة العربية الإسلامية. (المترجم)

صورة العالم الإنسانى الذى كانت الكلاب قد سيطرت عليه تمامًا خلال فصل الخريف المنصرم، وأصبح الوضع الآن هو انتصار البشر على الكلاب، كما تحولت الطرق التى كانت خاصة بجماعات الكلاب إلى طرق ترابية مثل غيرها من الطرق المنتشرة فى القرية، ولن يستطيع المرء التعرف على ذلك الطريق القديم إلا فى خياله وذكرياته.

كان جدى وأبى يقومان كل يومين بصيد كلب واحد. وهكذا ساعدتهما تلك الكلاب السمينة على أن يتمتعا بصحة وبنية قوية خلال عام واحد من صيد الكلاب، كانا يقومان بتعليق جلود الكلاب التى يأكلونها على جدران القرية، وينظران إليها من بعيد وكأنها جداريات جميلة. وفى ربيع عام ١٩٤٠، كان أبى قد تحول إلى شاب قوى البنية مفتول العضلات ذى صحة جيدة بفضل لحوم الكلاب السمينة التى تغذى عليها، والتى كان لها أثر واضح على قلبه الميت فيما بعد، فقد كان يقبل على القتل دون أن يرتجف له جفن.

وبالطبع فقد حاول جدى وأبى أن يغيرا تلك الوجبة السمينة التى اعتادا عليها خلال عام كامل. فاصطحب جدى ابنه إلى الوادى لصيد الأوز الصينى.

كانا قد تحركا عند غروب الشمس، واختفيا داخل حقول الذرة المظلمة، حتى شاهدا قرص الشمس الكبير الذى بدا لهما مثل فطيرة كبيرة من كتل الدم، شاهدا الشمس وهى تختفى عن الأنظار، ونظرا إلى الوادى، فإذا بطبقة من الدماء تعلو صفحته المتجمدة، حيث علت جثث البشر وجثث الكلاب التى كانت تملأ مياه الوادى. أما جماعات الغربان التى ملأت بطونها من تلك الجثث، فقد راحت تهز أجنحتها معلنة عودتها إلى أعشاشها فوق الأشجار العالية فى القرية. ولمع بريق النيران المشتعلة فى الوادى. وارتدى جدى وأبى الثياب المصنوعة من جلود الكلاب، حيث جعلا الجزء الداخلى من

الجلد من الداخل، والجزء الذى يظهر به شعر الكلاب من الخـــارج، حتـــى أصبحا أشبه بالكلاب أكثر من شبههم بالبشر. وكان أبى يتمتع برغبة كبيـــرة فى الأكل، وانقض على الفطائر المصنوعة من الذرة، والتى كانت محـــشوة بلحم الكلاب. أمره جدى أن يأكل برفق دون أن يحدث هذا الصخب حتى لا يزعج الأوز الذى يحلق على مسافات منخفضة، فقـــد أخبـــره جـــدى بـــأن الأوز يتمتع بحاسة سمع قوية جدًا، حيث يمكنه أن يستمع الأصوات لمـــسافة خمسة كيلومترات إذا كان الصوت فى اتجاه الرياح، ولمسافة اثنـــين كيلـــو ونصف إذا كان الصوت عكس اتجاه الرياح. غير أن أبى لم يصدقه واستمر فى التهام فطائر الذرة المحشوة بلحم الكلاب، ولكن دون أدنى صـــوت هـــذه المرة. وبعد غروب شمس ذلك اليوم، امتلأت السماء بغيوم خفيفـــة، وخـــيم الظلام على المياه المتجمدة، وظهر ما يزيد على أربعـــين إوزة مـــن الإوز الصينى، كانت تارة تحلق على مسافات منخفضة وتارة تبطـــبط. وقـــد بـــدا صوت بطبطة الإوز حزينًا جدًا، وهنا راح أبى يفكر فى أمه. وخرجت منـــه ريح كريهة جدًا. فسارع جدى بوضع يده على أنفه وقال متأففًا: "فلتقلل مـــن كميات الطعام الكبيرة التى تلتهمها!" فضحك أبى ثم قال: "يا لها من رائحـــة كلابية كريهة جدًا". فقرصه جدى قرصة ثم قـــال: "آه منـــك أيهـــا الكلـــب الصغير!" وراحت جماعات الإوز تطير على سطح المياه المتجمدة، راحـــت كل واحدة تمد رقبتها وتداعب قدميها دون أن تحدث أى صـــوت، وصـــدر صوت بسيط عن قيام الإوز بهز أجنحتها. جمع جدى وأبى أنفاســـهما فـــى انتظار سقوط فريسة من الإوز، ثم شاهدا إوزة تسقط على المياه المتجمـــدة، تبعتها جماعة من الإوز. وقد راحت جماعة الإوز تتحرك فوق سطح الميـــاه المتجمدة، على بعد عشر خطوات فقط من ذلك المكان الذى يختبئ فيه جدى وأبى. ثم تجمع الإوز فى مجموعة واحدة، ولكن بدت إوزة تقف بعيدًا عـــن المجموعة وقد رفعت رأسها ونصبت صدرها مثل جندى الحراسة. وامتلأت

الأرض بفضلات الإوز التى بدت فى البداية صفراء برتقالية، ثم تحولت إلى رمادية ثم إلى فضلات سوداء. ولمعت سبع نجوم أو ثمانى وهى تتلألأ فى السماء، إلا أنه لم تظهر أية شرارات لضوء النجوم على سطح الجليد الذى يتجمع عنده الإوز، وهكذا فقد بدت جماعة الإوز كالظل المظلم. وهنا أخرج جدى ساق الذرة المشتعل الذى كان يخبئه فى ماسورة حديدية، فأصدرت تلك الإوزة التى كانت تقوم بدور جندى الحراسة إشارة الإنذار، فأفاقت جماعة الإوز التى كانت تغفو فوق سطح الجليد، وما إن أفاق الإوز، حتى طار فى السماء، ولم يكن بالصورة المعروفة عنه فى الحكايات، حيث تذكر الحكايات المعروفة عن هذا النوع من الإوز، أنه عندما يخرج الصيادون المختفون ويرفعون المشاعل، فإن الإوزة المكلفة بالحراسة تصدر إشارة الإنذار، فيفيق باقى الإوز ويراقبون المكان جيدًا، وعندما يتأكدون من هدوء المكان وأمانه يواصلون النوم، أما لو قامت الإوزة المكلفة بالحراسة بإصدار صوت الإنذار ثلاث مرات، فتعرف جماعة الإوز على الفور أنها تبلغهم بتحركات العدو، ثم تنقض جماعة الإوز على تلك الإوزة لنقرها، وخلال تلك الفوضى ينقض الصيادون على الإوز وقد يتمكنون من الإمساك بالكثير منه حيًا. وقد تبدو هذه الحكاية منطقية بعض الشيء، إلا أنه يصعب تطبيقها. وربما قد يتصادف حدوثها مرة أو مرتين كل عشرة آلاف مرة. ولكن على الرغم من جمال هذه الحكاية وروعتها، فإنها ليست بروعة حيلة "صيد الإوز بالصنارة" التى اخترعها أبى آنذاك، كان أبى قد اقترح على أمى وهما داخل الخيمة هذه الحيلة قائلاً: "يا تشينغ إر، هيا بنا نخرج لصيد الإوز، ولنستخدم فى ذلك صنارة صيد الأسماك، ولنعلق قطعة من لحم الكلاب غير المطهى على الصنارة، ونربط الصنارة بسلك طويل جدًا، حتى إذا ما أكل الإوز من قطعة اللحم، يتوالى وقوع عدد كبير من الإوز فى أيدينا، فما رأيك فى هذه الحيلة الجديدة؟ فقالت أمى: "لقد جننت من كثرة أكل لحم الكلاب!"، وعندما حلقت

جماعات الإوز، انقض عليها أبى مسرعًا، وكأنه كان يعتقد أنه سيمسك بالإوز من الوهلة الأولى لمهاجمة جماعة الإوز، إلا أنه فى نهاية الأمر لم يتمكن من ذلك. وقد أحس بهواء بارد يضرب وجهه بفرار جماعة الإوز بعيدة عنه. وفى اليوم التالى، أمسك أبى بندقيته وراح يهاجم الإوز حتى استطاع إصابة ثلاث إوزات، ثم أخذها وعاد بها إلى الخيمة وسلخها جيدًا وأخرج أمعاءها ونظفها ثم ألقى بها داخل القدر حتى نضجت تمامًا، وجلس أبى وأمى وجدى والسيدة ليو حول مائدة واحدة ليأكلوا من لحم الإوز، وما إن قصت أمى على مسامعهم حيلة" صيد الإوز بالصنارة" التى اخترعها أبى حتى علت أصوات ضحكهم داخل الخيمة. وهبت فى تلك الليلة رياح قادمة من البرية، كانت الرياح قوية حتى سمعوا صوت اصطدام أعواد الذرة ببعضها بعضًا، وسمعوا أيضًا أصوات الإوز فى السماء، ثم صوت نباح الكلاب على مسافة بعيدة من الخيمة. وقد أحسوا بأن لحم الإوز به طعم الأعشاب الخضراء، وأن هذا النوع من اللحوم يبدو خشنًا ورائحته عادية جدًا.

انتهى فصل الشتاء ذو البرد القارص، وحل فصل الربيع. وهبت فى الليلة الأولى الرياح الجنوبية الشرقية المنعشة، وفى اليوم التالى سمعوا أصوات تفكك الجليد، الذى كان يغطى سطح مياه نهر موا شوى. وظهرت بعض البراعم الصغيرة أعلى أشجار الصفصاف، وتزينت أشجار الخوخ بالبراعم الوردية الجميلة، وراحت جماعات السنونو تحلق فى الوادى وفى مجرى النهر، بينما راحت الأرانب البرية تلاحقها، واخضرت الأرض وأزهرت الأشجار. وبعد تساقط بعض الأمطار الربيعية، خلع جدى وأبى الملابس المصنوعة من جلود الكلاب، التى كانوا يرتدونها خلال فصل الشتاء القارص. ولم تتوقف الأصوات التى كانت تهز جميع أرجاء قرية دونغ بيى بمدينة قاو مى.

لم يحتمل جدى وأبى، اللذان أصبحا يتمتعان ببنية قوية بفضل التغـذى على لحوم الكلاب، البقاء داخل الخيمة، فخرجا للنزهة على حافة نهر مـوا شوى، وراحا يتمشيان على الجسر الحجرى أعلى النهر، ثم وقفا هنالك أمام قبر جدتى وقبور هؤلاء الرفاق من فرقة جدى.

فقال أبى مخاطبًا جدى، فلنستسلم للجيش الثامن يا أبى.

فهز جدى رأسه بعدم الموافقة.

هل تعنى أننا سنسلم أنفسنا لفرقة لينغ ماتزه؟

فهز جدى رأسه بعدم الموافقة أيضًا.

وفى صباح ذلك اليوم، بدا ضوء الشمس ساحرًا جذابًا بصورة لم يسبق لها مثيل. وخلت السماء تمامًا من الغيوم، وقد وقف جدى وأبى أمـام قبـر جدتى صامتين.

وراحا ينظران إلى سبعة خيول تسير متفرقة قادمة من بعيد على حافة النهر الشمالية شرق الجسر الحجرى، كان يمتطى تلك الخيول سبعة أشخاص ذوو وجوه غريبة، تظهر صلعة فى مقدمة رءوسهم، أما الرجل الذى كان فى المقدمة، فكان رجلاً ضخمًا أسمر اللون، ظهرت شامة سوداء إلى جانب عينه اليمنى. وكان ذلك الرجل هو أبو شامة قائد التنظيم من قرية دونغ بيى بمدينة قاو مى، وكان قد لمع اسمه عندما كان جدى يعمل قاطع طريق، حيث كـان هناك عدم توافق كبير آنذاك بين قطاع الطرق وبين رجال هذه التنظيم، وكان جدى يحتقر أبو شامة احتقارًا شديدًا. وفى مطلع شتاء عام ١٩٢٩، وقعـت معركة بين جدى وأبى شامة على شاطئ المياه المالحة، كانت معركة حامية حتى لم يتمكنوا من تحديد المنتصر والخاسر.

تقدمت الخيول السبعة إلى أمام قبر جدتى، وهنا سحب أبو شامة لجام حصانه، فوقف الحصان على الفور، وراح يهز شعره، وأحنى رأسه ومضى يلتهم بعض الحشائش الجافة على حافة الطريق.

وهنا مد جدى يده ليضغط على غطاء مسدسه اليابانى الصنع.

واستقر أبو شامة على ظهر حصانه جيدًا، ثم قال: "أأنت أيها القائد يو!"

فرماه جدى بنظرة تحد واضحة. فضحك أبو شامة بصورة بلهاء، ثم قفز من أعلى ظهر الحصان، ووقف على حافة النهر وراح ينظر إلى قبر جدتى وهو يقول: "هل ماتت؟"

فأجابه جدى قائلاً: "نعم لقد ماتت!"

فقال أبو شامة غاضبًا: "اللعنة كل اللعنة عليك، لقد ضاعت هذه المرأة الجميلة بمجرد أن وقعت فى يدك!"

وهنا تطاير الشرر من عينى جدى.

فقال أبو شامة: "لو كانت اختارتنى أنا لم تكن لتتعرض لهذه النهاية!"

فأخرج جدى مسدسه الماوزر وراح يصوبه نحو أبى شامة.

فقال أبو شامة بثبات واضح: "إذا كنت رجلاً حقًا فاذهب لتثأر لها، أما إذا قتلتنى أنا فهذا خير دليل على عدم استطاعتك لأن تثأر لها!"

كل منا لديه إجابة خاصة به حول ما الحب؟ ولقد قضى هذا الشىء الغريب على حياة الكثير من الأبطال والشجعان والجميلات والموهوبات. وهكذا استطعت وفق تاريخ حب جدى وجماح حب أبى وصحراء حبى الشاحب الهزيل، استطعت أن أصل إلى هذه القاعدة الثابتة التى تناسب فقط حب هذه الأجيال الثلاثة من عائلتى: فالعنصر الأول الذى يشكل الحب الجنونى هو المعاناة الشديدة. وقد يذرف القلب المعذب هنا كميات كبيرة جدًا

من الدماء بسبب معاناته من الحب. أما العنصر الثانى الذى يـشكل الحـب القاسى فهو النقد الذى لا رحمة ولا هوادة فيه، حيث يود كل من طرفى هذا الحب لو يسلخ الطرف الثانى حيًا لتمتزج دماء الجسد ودماء الروح ودمـاء القلب والدماء المعنوية والدماء المادية، ويخرج طرف جميع أحشاء الطرف الثانى بما فى ذلك القلب الأسود أو الأحمر، ثم يلقى بعد ذلك كل طرف بقلبه للطرف الثانى، ويتلاقى الطرفان فى الهواء ويتصارعان حتى يـسقطا إربًـا إربا، والعنصر الثالث الذى يشكل الحب البارد هو الصمت الدائم، فالمشاعر الباردة تؤدى إلى تحول طرفى الحب إلى مجرد أصـابع جيلاتـى مجمـدة، تتجمد بداية خلال الرياح الباردة ثم تتجمد وسط الثلج، ثـم تتجمـد داخـل الأنهار، ثم توضع أخيرًا لتتجمد داخل المبردات الحديثة، ثم يتم تعليقها لتتجمد داخل الثلاجات المستخدمة فى حفظ اللحوم. وهكـذا فـإن طرفـى الحـب الحقيقيين يكون وجههما مثل الصقيع، وتكون درجة حرارتهمـا ٢٥ درجـة مئوية، ويكونان قادرين فقط على التصفيق، غير قادرين على الكلام، لـيس لأنهما لا يرغبان فى الكلام، ولكن لأنهما لم يعد باستطاعتهما الكلام، فى حين يعتقد الآخرون أنهما يتظاهران بالخرس.

ومن ثم فإن الحب الجنونى والقاسى والبارد تعادل نزيف الدماء والسلخ حيًا والتظاهر بالخرس. وهكذا تدور الدائرة دون انقطاع.

وهكذا تتحول دماء الحب الطازجة إلى فضلات، ويظهر الحب فى صورة شخصين من لحم ودم يرقدان إلى جوار بعضهما، فى حين تكون نهايـة هـذا الحب زوجًا من أصابع الجيلاتى، يفتحان أعينهما الرمادية المستديرة.

فى صيف عام ١٩٢٣، كان جدى قد خطف جدتى من علـى ظهـر الحمار، وأخذها إلى داخل الذرة وافترشا ثيابه المصنوعة من القش، وهـذه

كانت بداية مرحلة "النزيف" فى علاقة حبهما. وفـــى صـــيف عـــام ١٩٢٦، وعندما كان أبى فى الثانية من عمره، كانت خادمة جدتى الفتاة ليان إر قـــد أغرت جدى بجمالها وحشرت نفسها بينه وبين جدتى كزوجة ثانية له، وهذه كانت بداية مرحلة "السلخ حيًا" لعلاقتهما العاطفية، وهكذا سقط حبهمـــا مـــن علياء جنونه إلى جحيم قسوته ووحشيته.

كانت الفتاة ليان إر تصغر جدتى بعام واحد، كانت قد بلغت التاســعة عشرة من عمرها فى ربيع عام ١٩٢٦. وتتمتع وهى فى الثامنة عشرة مـــن عمرها ببنية قوية وبساقين طويلتين وقدمين صغيرتين، وعينين مـــستديرتين سوداوين وبأنف صغيرة ودقيقة، وبشفتين سميكتين مثيرتين. وقد صادف ذلك الحين مرحلة الازدهار الكبير، التى يشهدها فرن صناعة النبيـــذ المملوكـــة لعائلتى، كانت تمتلئ القرى والمدن المحيطة بالنبيذ الأبيض ذى الجودة العالية المصنوع من الذرة الذى ينتجه فرن عائلتى، وتفوح رائحة النبيذ الذكية داخل فناء العائلة والغرف الداخلية طوال العام، وهكذا كان جميع أهل العائلة مـــن الرجال والنساء يتمتعون بقدرة كبيرة على الشراب تأثرًا بحياتهم دخل ذلـــك الفرن الكبير المتخصص فى صناعة النبيذ. ولا داعى هنا لأن نتحدث عـــن القدرة الكبيرة التى كان يتمتع بها جدى وجدتى على شرب النبيذ المـــصنوع من الذرة، حتى السيدة ليو تلك السيدة التى لم تنشأ فى تلك العائلة كانت أيضًا قادرة على شرب قدر كبير من النبيذ. وكانت الفتاة الشابة ليان إر قد رافقت فى بداية الأمر جدتى فى الشرب، حتى وصلت فيما بعد إلى مرحلة صـــعبة وأصبح لا يمكنها العيش دون النبيذ. كانوا يشعرون بأن الخمر يجعل الإنسان منتشيًا وشجاعًا لا يهاب الموت، وتجعله أيضًا يتمادى فى الـــشراب حتـــى السكر وما يتبع ذلك من فساد فى حياته وتدهور فى صحته. وكان جدى قـــد بدأ فى ذلك الحين حياته كأحد أفراد قطاع الطرق، ولم يكن دافعه إلى ذلـــك

الحصول على المال، ولكن كان بهدف أن يحافظ على حياتــه لــيس إلا، إن الثأر هذا القانون القاسى قد جعل ذلك الرجل الطيب الــضعيف مــن عامــة الشعب يتحول إلى قاطع طريق ذى قلب أسود قاسٍ جرىء علـــى ارتكـــاب أعظم الجرائم. كان جدى قد استطاع أن يقتل خوا بوا تزه ورجاله بعد تدربه على فنون استخدام السلاح. وفى تلك الأثناء، كان والدجــدى ذلـــك الرجــل الطماع قد غادر فرن النبيذ، وسار وسط الزراعات الخضراء يحتمى بها من أهوال الطريق، وبدأ حياة السلب والنهب. وكانت عصابات قطاع الطـــرق لا تنتهى أبدًا فى قرية دونغ بيى بمدينة قاو مى، فقد صنعتهم الحكومة الرسمية بيديها، وصنعهم الفقر، وصنعتهم الجرائم المنتشرة فـــى القريـــة، وصـــنعوا أنفسهم بأنفسهم. وقد انتشر خبر قيام جدى بقتل خوا بوا تزه زعيم عــصابة قطاع الطرق فى قرية دونغ بيى وأتباعه عند نهر موا شوى، انتشر الخبر فى أرجاء القرية التى راحت تتحدث عن شجاعة جدى وبطولته، وتوافد عليـــه صغار قطاع الطرق، حتى كانت الفترة من عام ١٩٢٥ حتى عام ١٩٢٨ هى العصر الذهبى فى تاريخ عصابات قطاع الطرق بقرية دونغ بيى بمدينة قاو مى، وذاع صيت جدى، وأصبح مصدر رعب كبير للجهات الرسمية.

وخلال تلك الفترة، كان السيد تساو مينغ جيو لا يزال يشغل رئيس مدينة قاو مى. وكان جدى لا يزال يذكر قيام السيد تساو رئـــيس المدينـــة بـــضربه بالحذاء على وجهه، وقد أضمر له حقدًا دفينًا وأصر على أن يثأر منه، كانـــت جرأة جدى على المواجهة المباشرة مع السلطات الرسمية أحد الأسباب المهمة، التى جعلته يشتهر ويذيع صيته بوصفه بطلاً شجاعًا. وفى مطلع عام ١٩٢٦، كان جدى قد اصطحب معه اثنين من رجاله وذهبا إلى مدخل المدينـــة وقامـــا بخطف الابن الوحيد لرئيس المدينة تساو مينغ جيو البالغ من العمـــر أربعـــة عشر عامًا. وكان جدى قد اقتاد ذلك الطفل الوسيم حاملاً مسدسه فى يده وسار

به فى شوارع المدينة، حتى وصل إلى مبنى حكومة المدينة، وجاء إليه يان لوا قو زعيم القبض على اللصوص ومعه أعداد كبيرة من جنود حكومة المدينة، كانوا يصيحون من بعيد غير قادرين على الاقتراب منه خطوة واحدة. وقد راحوا يطلقوان النيران بشكل عشوائى، وكانت جميع الطلقات بعيدًا جدًا عن جدى. وهنا وقف جدى مكانه وترنح قليلاً ثم صوب مسدسه تجاه صدغ الطفل، وراح يصيح بصوت مرتفع: "فلترجع يا يان لوا قو إلى سيدك الكلب تساو مينغ جيو وتخبره أن يأتينى بعشرة آلاف جنيه يفتدى بها ابنه الوحيد، وأمامه ثلاثة أيام فقط، وبعدها سيتم فسخ هذا التعاقد!".

فسأله يان لوا قو بثبات وهدوء واضح: "وأين سنتقابل أيها القائد يو؟"

فأجابه جدى قائلاً: "سنتقابل وسط الجسر الخشبى أعلى نهر موا شوى بقرية دونغ بيى بمدينة قاو مى".

فاصطحب يان لوا قو جنوده وعادوا إلى مبنى حكومة المدينة.

وما إن خرج جدى خارج حدود المدينة، حتى راح الطفل المخطوف يبكى بكاء شديدًا ويصارع للخلاص من قبضة جدى. واحمر وجه الطفل من شدة البكاء، إلا أنه كان لا يزال طفلاً لطيفًا. فخاطبه جدى قائلاً: "كفاك هذا البكاء، فأنا أبوك بالتبنى والآن أصطحبك إلى أمك بالتبنى!" وعندها كاد الطفل أن ينهار من شدة البكاء. فغضب جدى غضبًا شديدًا، واستل سيفه وراح يلوح به فى وجه الطفل، ثم قال: "كف عن البكاء، وإلا قطعت أذنك!" فسكت الطفل وراح ينظر إليهم بذهول وقد اصطحبه الرجلان ومضيا فى طريقهما إلى قرية دونغ بيي.

وعندما ابتعدوا عن حدود المدينة بحوالى كيلومترين ونصف الكيلومتر، سمع جدى صوت حوافر خيول تتبعهم. فنظر جدى نظرة سريعة

إلى ذلك الصوت، فإذا به يرى مجموعة من الخيول تركض نحوهم بسرعة شديدة. وانتبه إلى أن تلك المجموعة من الخيول يتقدمها يان لوا قو ذلك الرجل الذكى القوى. وما إن أدرك جدى صعوبة الموقف، أمر الرجلين من قطاع الطرق أن يختفيا على جانبى الطريق، ثم ينقض ثلاثتهم ويأخذوا بأسلحتهم ويوجهونها نحو رأس الطفل.

وعندما كان يان لوا قو ورجاله على بعد خطوات قليلة من جدى ورجليه، ربط يان لوا قو فرسه ودخل إلى حقول الذرة المجاورة. كانت حقول الذرة عقب موسم الحصاد خالية تمامًا من أعواد الذرة إلا من بعض السيقان الجافة، وقد جاءت رياح الشتاء بالكثير من الأتربة حتى بدت تربة الحقول صلبة جدًا. فراح رجال يان لوا قو يتبعونه حتى وصلوا إلى المكان الذى يختبئ فيه جدى والرجلان من قطاع الطرق، ثم مالوا على جانب الطريق الترابى، واندفعوا نحو قرية دونغ بيي.

بقى جدى مضطربًا لبعض الوقت، ثم أفاق بسرعة. وراح يضرب على رجله بكفه ثم قال: "يا لها من خسارة كبيرة، لقد خسرنا هذه الرهينة!"

ووقف هذان الرجلان من قطاع الطرق مذهولين، ثم سألا جدى بحماقة: "أين ذهب هؤلاء؟"

فلم يجبهما جدى وراح يطلق النيران فى اتجاه جماعة الخيول التى اندفعت نحو القرية، ولكن الخيول كانت قد ابتعدت كثيرًا، ولم يستطع مسدسه أن يصل إلى الخيول وأصاب فقط ذلك الغبار الذى خلفته وراءها.

قاد يان لوا قو ذلك الذكى الماهر فرقة الخيول إلى قرية دونغ بيى وشن هجومه على قريتنا، انقضوا على منزلنا، وبدا أنه يعرف الطريق إلى هنالك جيدًا. وفى تلك الأثناء كان جدى قد بدأ يتحرك نحو القرية. وبما أن الابن الوحيد للسيد تساو مينغ جيو نشأ نشأة طيبة فى بيئة مرفهة، فكيف يمكنه أن

يتحمل كل هذه المعاناة التى تعرض لها منذ أن وقع رهينة فى يد جدى؟ فما إن جرى مع جدى ورفاقه مسافة نصف كيلومتر حتى سقط على الأرض منهكًا، فاقترح أحد الرجلين من قطاع الطرق على جدى اقتراحًا أن: "نقتله ونوفر على أنفسنا مشقة مضايقته لنا خلال الطريق". فقال جدى: "إن يان لوا قو بالتأكيد يستعد الآن للقبض على ابنى!"

فهز جدى رأس ذلك الطفل، حتى نهض الطفل وسار بخطوات بطيئة. فراح الرجل قاطع الطريق يحث جدى قائلاً: "لقد جاء قراره متأخرًا، والآن ليس عليك الاستعجال، فلن يحدث لابنك أى مكروه طالما أن هذا الحيوان الصغير تحت قبضتنا".

قام يان لوا قو ورجاله باقتحام منزل عائلتى وألقى القبض على جدتى وأبى وربطهما فى أقدام الخيول.

فراحت جدتى تسبهم غاضبة: "مهلاً أيها العميان! إننى ابنة السيد تساو مينغ جيو رئيس المدينة بالتبنى!"

فكشر يان لوا قو عن أنيابه ثم قال: "وإننا جئنا نقصدك أنت أيتها الابنة بالتبنى!"

والتقت فرقة يان لوا قو بجدى ورجاله فى منتصف الطريق. وأشار كل طرف من الطرفين بسلاحه إلى" رهينته"، وكانوا قد مروا على مسافة قريبة من بعضهما بعضًا دون أن يتجرأ أى من الطرفين على التصرف بطيش تجاه الطرف الآخر.

ونظر جدى إلى جدتى التى كانت مكبلة من يديها أعلى ظهر الحصان، ثم نظر إلى أبى الذى كان محاصرًا فى حضن يان لوا قو.

ومرت خيول يان لوا قو من جانب جدى بخفة شديدة، وسمع جدى صوت رنين الأجراس المعلقة فى رقاب الخيول، وانتبه إلى البسمة التى كانت تعلو هؤلاء الجنود الذين كانوا يمتطون الخيول، بينما ظهر على وجه جدتى الغضب الشديد، وراحت تنظر إلى جدى الذى يقف على جانب الطريق وقد بدا عليه الحزن الشديد، ثم صاحت بصوت مرتفع: "يا جان آو، فلتطلق سراح هذا الطفل أخى بالتبنى حتى تستطيع أن تنقذنا من قبضتهم".

فقبض جدى على يد ذلك الطفل الرهينة بشدة، وكان جدى يعرف جيدًا أنه عاجلاً أم آجلاً سيطلق سراح هذا الطفل، ولكن لم يحن وقت إطلاق سراحه بعد.

لم يغير الطرفان مكان تبادل الرهائن أعلى جسر نهر موا شوى الخشبى. وعبأ جدى ما يزيد على ٢٣٠ رجلاً يمثلون تقريبًا جميع أفراد عصابات قطاع الطرق فى قرية دونغ بيى، واستعدوا جيدًا بأسلحتهم الممتلئة بالذخيرة الحية، وتجمعوا أعلى الجسر الخشبى إما راقدين أو جالسين فى انتظار اللحظة الحاسمة. كان جليد النهر لم يذب بعد، ذاب الجزء القريب من حافة النهر بفعل جو الربيع الدافئ، وقد خلقت المنطقة المذابة شريطين من المياه الخضراء، وبدت قطع الجليد متفرقة فى وسطها، وامتلأت بطبقة من التراب جاءت بها الرياح الشمالية.

وفى صباح ذلك اليوم، وصلت فرقة الخيول التابعة لحكومة المدينة إلى حافة النهر فى خطوط متعرجة، وكان يتوسطهم هودج صغير يحمله أربعة رجال، وقد بدا الهودج يهتز بصورة ملفتة.

ووقف الرجال القادمون من المدينة فى الناحية الجنوبية من الجسر الخشبى وراحوا يتبادلون الحديث مع جدى ورجاله فى الناحية الشمالية

للجسر. وبدأ السيد تساو مينغ جيو رئيس المدينة الوسيم الوقور الجليل في تبادل أطراف الحديث مع جدى. حيث راح السيد رئيس المدينة يخاطب جدى وقد علت وجهه ابتسامة ودودة قائلاً: "يا جان آو، إنك تعتبر زوج ابنتي بالتبنى، فكيف تقوم باختطاف أخى زوجتك الصغير؟ فإذا كنت بحاجة للمال، فأخبر أباك بالتبنى وسيكون لك ما تطلب!"

فقال جدى: "إننى لست بحاجة للمال، ولن أنسى الثلاثمائة ضربة بنعال الأحذية التى ضربتنى إياها!"

فضحك السيد تساو مينغ جيو منتشيًا ثم قال: "إنه سوء فهم، إنه سوء فهم فحسب! وكما يقول المثل لا محبة إلا بعد عداوة! فيا زوج ابنتى العزيز، أنت بطل كبير تمكنت من القضاء على خوا بوا تزه، وأنا بالتأكيد أريد مكافأتك على بطولتك وإنجازاتك العظيمة".

فرد عليه جدى بأسلوب فيه تعنت وتعسف واضح: "ومن الذى طلب منك أن تكافئه حسب بطولاته وإنجازاته؟"، وعلى الرغم من أنه رد عليه هذا الرد بلسانه، فإنه كان يخفى بداخله عكس ذلك.

حرك يان لوا قو ستارة الهودج، فخرجت منه جدتى تحتضن أبى ببطء ملحوظ.

وسارت حتى رأس الجسر حتى اعترض يان لو قو طريقها، وصاح بصوت مرتفع: "يا يو جان آو، أرسل ابن السيد تساو مينغ جيو رئيس المدينة إلى رأس الجسر، ولنتفق معًا على إطلاق الرهائن فى التوقيت نفسه".

فصاح يان لوا قو بصوت مرتفع: "أطلقوا الرهائن!"

فانطلق ابن السيد تساو رئيس المدينة فارًا إلى أبيه على الناحية الجنوبية من الجسر، بينما انطلقت جدتى محتضنة أبى إلى الناحية الشمالية من الجسر.

فرفع قطاع الطرق من رجال جدى مسدساتهم، بينما رفع جنود المدينة بنادقهم.

تقابلت جدتى مع ذلك الطفل الرهينة وسط الجسر الخشبى. وأحنت جدتى ظهرها لتتحدث معه فبكى الطفل وابتعد عنها، ثم فر مسرعًا إلى الناحية الجنوبية من الجسر الخشبى.

وخلال هذه العملية من عمليات اختطاف الرهائن التى هى أشبه ما تكون بالألعاب، تكونت فجأة عند السيد تساو مينغ جيو رئيس المدينة حيلة على غرار حيل " الدويلات الثلاثة المتحاربة"(١) والتى كان يخطط لها من وقت طويل، وقد نجحت هذه الحيلة العبقرية فى إنهاء العصر الذهبى لعصابات قطاع الطرق بقرية دونغ بيى بمدينة قاو مى.

وفى شهر مارس من ذلك العام مات والد جدتى. فاصطحبت جدتى أبى وركبا على ظهر بغل أسود وتوجها إلى مسقط رأسها لعمل الترتيبات اللازمة لجنازة والدها، قالت إنهما سيعودان بعد ثلاثة أيام فقط، ولكن من يعلم تقلبات الطقس الغريبة المقصودة، ففى اليوم الثانى من وصول جدتى إلى مسقط رأسها بدأت تهطل أمطار غزيرة جدًا، حتى امتلأت الطرقات بالمياه ولم يعد بها موضع قدم لم تصل إليه الأمطار الغزيرة، حتى كادت السماء أن تتصل بالأرض من خلال مياه الأمطار. ولم يحتمل جدى ورفاقه البقاء فى البرية،

---

(١) رواية " الدويلات الثلاثة المتحاربة ": أحد أمهات الكتب الصينية الأربعة المعروفة، والتى تضم إلى جانب رواية " الدويلات الثلاثة المتحاربة رواية "حلم المقصورة الحمراء" و"أبطال البحيرة" و"رحلة إلى الغرب". وتعتبر رواية " الدويلات الثلاثة المتحاربة لمؤلفها لوو قوان جونغ (حوالى ١٣٣٠- حتى حوالى ١٤٠٠) أول رواية تاريخية فى تاريخ الأدب الصينى، وقد صورت الرواية بنجاح الصراعات والخلافات السياسية والعسكرية بين دويلة وى (٢٢٠-٢٦٥) ودويلة شو (٢٢١-٢٦٣) ودويلة وو (٢٢٢-٢٨٠). (المترجم)

فعاد كل منهم إلى بيته، ففى مثل ذلك الطقس الشديد، لــم يكــن هنـــاك أى مخلوقات قادرة على البقاء خارج مكانها الأصلى، حتى طيور السنونو طارت إلى أعشاشها تحتمى من المطر الغزير، كما سكن جنود المدينة تمامًا ولم يعد لهم تحركات واضحة فى الشوارع والطرقات، بالإضافة إلى أنه عقب حادثة الاختطاف الغريبة التى وقعت خلال ربيع ذلك العام، كان السيد تساو مينـــغ جيو رئيس المدينة قد توصل مع جدى إلى اتفاق سرى، وهكذا شهدت مدينة قاو مى صورة من السلام بين العسكر وقطاع الطرق، عاد قطاع الطرق إلى بيوتهم وقاموا بإخفاء أسلحتهم تحت وساداتهم، وبدأوا منذ ذلك الحين ينعمون بالنوم العميق فى بيوتهم.

وارتفع صوت الأمطار أكثر فأكثر، وزاد تدفق مياهها أعلى المـــساكن المبنية من الطوب اللبن. وتجمعت كميات كبيرة من مياه الأمطـــار تغطـــى نصف طول الإنسان وسط فناء المنزل. وقد خصبت مياه الأمطار تربة الفناء الواسع، حيث ظهرت بعض من الأزهار المائية وسط أطلال سوره، فمـــا إن سقط السور، حتى دخل لون المروج الخضراء إلى وسط الفناء عبر النوافـــذ الكبيرة. وقد اضطجع جدى ثم جلس القرفصاء حول المـــدفأة، وراح يتأمـــل منظر المساحات الشاسعة من الذرة الرفيعة الخضراء، وقد اختفت الـــسحب المنخفضة الارتفاع تحت أعواد الذرة السامقة، واستمر صوت أعواد الـــذرة، وامتلأت أرجاء الفناء برائحة التربة الممتزجة برائحة الأعشاب الخـــضراء الذكية. وقد استطاعت تلك الأمطار القوية أن تجعل جدى فى حيرة من أمره، وأن يفقد الشعور تمامًا بكل ما حوله، فراح ينسى ذلك كله بـــشرب كميـــات كبيرة من النبيذ التى لم يكن يستفيق منها، حتى عجز تمامًا عن أن يفرق بين الليل والنهار والسماء والأرض. استطاع بغل العائلة الأسود أن يقطع الحبل المربوط به ويهرب من حظيرته الصيفية فى الجزء الشرقى من فناء المنزل،

ثم وقف متسمرًا أمام نافذة جدتى. وحدق جدى بعينيه اللتين احمرتا من كثرة الشراب إلى ذلك البغل الأحمق، ثم انتابه شعور بالراحة والهدوء. وقد رأى مياه الأمطار القوية تنزل على جسد البغل كالسهام الحادة، ومنها ما يسقط عن جسده بسرعة، ومنها ما يسير على جسده مرورًا بأذنيه المظلمتين، ثم تتجمع أسفل بطنه، ثم تسقط أخيرًا على الأرض وسط مياه الأمطار التى ملأت وسط الفناء. بدأت مياه الأمطار تتحرك محدثة صوتًا مسموعًا، بينما لا يزال البغل ثابتًا فى مكانه لا يحرك ساكنًا إلا عينيه اللتين بدتا مثل زوج من البيض، كان يفتحهما قليلاً ثم يعاود إغماضهما بسرعة. وانتابت جدى حالة من الملل لم يشعر بها من قبل. فخلع جلبابه، ثم خلع بنطاله، وأبقى فقط على سروال داخلى، ثم راح يحك بيده شعر صدره وقدميه، كان كلما حكه بشدة شعر بأنه فى حاجة لأن يستمر فى ذلك، وشم رائحة أنثوية تعبق أرجاء المكان، فأخذ بسلطانية النبيذ وألقى بها إلى المدفأة، فقفز إليه فى الحال فأر صغير ذو فم طويل وراح يرميه بنظرات ساخرة، ثم فر الفأر مسرعًا إلى حافة النافذة الخلفية، وراح يحك جسده بقدميه الخلفيتين. وما إن رفع جدى مسدسه، حتى قفز الفأر بسرعة ليسقط خارج النافذة، ثم دوى صوت الطلقة النارية داخل أرجاء الغرفة.

وهنا دخلت الفتاة ليان إر بشعرها الأشعث، وراحت تنظر إلى جدى الجالس إلى جوار المدفأة شابكًا ذراعيه فوق ركبتيه، ولم تتحدث الفتاة معه بكلمة واحدة، وانحنت لتجمع بقايا السلطانية التى تحطمت منذ قليل، ثم استدارت نحو باب الغرفة مستعدة للخروج.

هنا أحس جدى بحشرجة قوية فى حلقه، فسعل قليلاً، ثم تحدث إلى الفتاة ليان إر بصوت مجهد: "أنت يا... توقفى...".

فاستدارت الفتاة ناحيته، وراحت تعض بأسنانها البيضاء على شفتيها السميكتين، ثم ابتسمت ابتسامة جميلة أضاءت جميع جنبات الغرفة المظلمة، وقد حجبت أعواد الذرة الخضراء صوت الأمطار الشديدة خارج المنزل. وهنا راح جدى ينظر إلى شعر الفتاة ليان إر الأشعث وأذنيها الصغيرتين وإلى صدرها البارز ثم قال: "لقد كبرتِ أيتها الفتاة".

فعضت ليان إر على حافة فمها عضة بها بعض المكر.

فسألها جدى "ما الذى أتى بك إلى هنا؟"

فأجابت الفتاة وهى تتثاءب "لقد غلبنى النعاس!" ثم قالت" آه من هذا الطقس السيئ، إلى متى سيستمر هطول هذه الأمطار الشديدة، لقد كادت الأمطار أن تغرق جميع أرجاء الأرض".

فقال جدى "لقد احتجزت هذه الأمطار الشديدة دوو قوان وأمه فى مسقط رأسها، ألم يقولا بأنهما سيعودان بعد ثلاثة أيام؟ لقد كادت أن تضيع هذه الزوجة الشابة!"

فسألته ليان إر "وهل تأمر بشىء؟"

فطأطأ جدى رأسه ومضى يفكر قليلاً ثم قال: "لا عليك الآن".

فعاودت ليان إر العض على شفتيها وهى تبتسم، ثم هزت مؤخرتها قليلاً وغادرت الغرفة.

وهنا عاود الظلام يلف أرجاء الغرفة، واشتدت الأمطار خارج النافذة. بينما كان البغل الأسود لا يزال قابعًا فى مكانه لا يتحرك، وغرقت أقدامه داخل مياه الأمطار الغزيرة. وقد انتبه جدى إلى حركة مناطق من جسده وهو يهز بذيله.

وعادت الفتاة ليان إر إلى الغرفة مرة ثانية، واتكأت على إطار الباب وهى تنظر إلى جدى نظرات مريبة. وقد تغطت عيناها اللتان كانتا مشرقتين منذ قليل بسحابة زرقاء.

وابتعد صوت الأمطار ثانية، وأحس جدى بأن راحتى قدميه وراحتى يديه قد تصببت جميعها بالعرق.

فسألها جدى" ماذا تريدين؟"

فعضت ليان إر على شفتيها وابتسمت ابتسامة رقيقة. وعندها انتبه جدى إلى أن هالة من الضوء الذهبى قد ملأت أرجاء الغرفة.

وسألت الفتاة" هل تشرب النبيذ؟"

"وهل تريدين أن تشربى معى؟"

"نعم، سأشرب معك".

فأحضرت الفتاة ليان إر زجاجة من النبيذ، وقطعت ملء طبق من البيض المملح.

وازدادت قوة صوت الأمطار خارج النافذة، وبدا البغل الأسود مثل قطعة حجرية سوداء من شدة البرد، وسرت البرودة إلى داخل الغرفة، حتى لفت جسد جدى العارى فراح يرتعش من شدة البرد.

فسألته ليان إر بنبرة تخلو من الاحترام" هل تشعر بالبرودة؟"

فأجابها جدى غاضبًا" إننى أشعر بالحرارة الشديدة!"

فسكبت الفتاة سلطانيتين من النبيذ، قدمت لجدى واحدة واحتفظت بالثانية لنفسها. ثم ضربا السلطانيتين ببعضهما بعضًا.

سقطت سلطانيات النبيذ الفارغة على الأرض، وانشغلا بالنظر إلى السلطانيات الملقاة على الأرض.

ورأى جدى ألسنة لهب ذهبية مشتعلة تملأ أرجاء الغرفة، وقد ظهرت بينها ألسنة لهب زرقاء، فأشعلت ألسنة اللهب الذهبية جسده، بينما أشعلت ألسنة اللهب الزرقاء قلبه.

*　　*　　*

وراح جدى يعيد المسدس إلى جرابه وهو يقول وقد شعر بالبرودة الشديدة" إن الرجل الشجاع سيأخذ ثأره ولو بعد حين!"

أما السيد أبو شامة والذى كان واقفًا على حافة النهر، فقد سار حتى وصل إلى جانب قبر جدتى، وراح يلف حول القبر وهو يضرب بقدمه التراب الذى يغطى سطح القبر، ثم قال متأثرًا: "ما أقصر حياة الإنسان! ولقد قرر يو جان آو والتنظيمات الحديدية أن يقاوموا المعتدى اليابانى، فلتنضم إلينا!"

فزم جدى شفتيه وقال متعجبًا" أنضم إلى عصابتك أنت أيها المخادع؟"

فراح أبو شامة يضرب بقدمه على قبر جدتى ويقول "كف عن الغرور يا ابن اللعينة، فالتنظيمات الحديدية تستند إلى دعم الآلهة وتتفق مع رغبة السماء ورغبة عامة الشعب، وموافقة التنظيم على ضمك يعتبر مكرمة كبيرة!"، وزعيم التنظيم وافق على انضمامك احترامًا لمشاعرها هى".

فقال جدى" إننى لست بحاجة لشفقتك يا ابن اللعينة، وسيأتى الوقت الذى سأصفى فيه حسابى معك، ولا تعتقد أن الأمر قد انتهى إلى هذا الحد!"

ضرب أبو شامة على مسدسه المربوط حول خصره وقال "وهل تعتقد أننى أخشى لقاءك، أنا أيضًا أحسن استخدام السلاح!"

ثم وصل إلى حافة النهر رجل من أفراد التنظيم وسيم بهى الطلعة، وسحب يد جدى وراح يتحدث إليه بتواضع واحترام جم قائلاً: "أيها القائد يو، إن جميع أفراد التنظيم يكنون لك كل الاحترام والتقدير، ونأمل جميعًا أن تنضم إلينا، فالمثل يقول "أنا وأخويا على ابن عمى، وأنا وابن عمى على الغريب!" ويجب علينا جميعًا أن نتكاتف معًا لمواجهة المعتدى اليابانى. ولننظر إلى تلك الخلافات الشخصية بعد أن ننتهى من حربنا ضد المعتدى".

فراح جدى ينظر إلى ذلك الشاب وقد شعر تجاهه بالراحة، ومضى يفكر فى نائبه - ذلك الشاب البطل الذى لقى حتفه بسبب خروج طلقة من مسدسه أثناء قيامه بتنظيفه، ثم سأله جدى ساخرًا: "وهل أنت من أتباع الحزب الشيوعى؟".

فقال الشاب: "إننى لست من أتباع الحزب الشيوعى ولا الحزب الوطنى. وإننى أكره الحزب الشيوعى والحزب الوطنى".

فقال جدى: "يا لك من رجل شجاع!"

فقال الشاب: "أما أنا فأدعى وو لون تزه".

فضرب جدى على يده ضربة خفيفة ثم قال: "عرفتك".

كان أبى يقف إلى جوار جدى، قابعًا فى مكانه لم يتحرك منذ وقت طويل. وقد راح ينظر إلى رأس ذلك الشاب بفضول واضح. وانتبه إلى صلعة الشاب التى تعتبر علامة على أنه من أفراد التنظيم، ولم يكن أبى يعرف السبب فى هذه العلامة.

(٦)

وقضى جدى مع الفتاة ليان إر ثلاثة أيام بلياليها، حتى تورمت شفتاها وسالت منها الدماء، راحت تنزل إلى داخل فمها وتتساب بين أسنانها البيضاء، حتى أنه كان يشم رائحة تلك الدماء كلما كان يقبلها فيما بعد. وبعد مضى تلك الأيام الثلاثة، وبعد أن اختفى صوت تساقط الأمطار واختفى اللون الذهبى واللون الأزرق الذى ملأ الغرفة، سمع جدى أصوات أعواد الذرة فى الحقول الممتدة خارج النافذة، وسمع نقيق الضفادع وصوت الأرانب البرية. وقد جاء ذلك الهواء البارد محملاً بروائحٍ كثيرة، كان أبرزها وأشدها قوة رائحة ذلك البغل الأسود. الذى كان واقفاً فى مكانه لا يتحرك حتى غاص نصف جسده فى المياه. كان جدى يشعر بخطورة البغل كلما شم رائحته القوية. وكان يفكر فى أنه عاجلاً أم آجلاً ستحين الفرصة التى يجهز عليه فيها بمسدسه ويحطم رأسه. وكان قد انتوى ذلك وصوب مسدسه تجاهه أكثر من مرة، ولكن كلما رفع المسدس صوب البغل كان اللهب الذهبى والأزرق يملأ أرجاء الغرفة.

فى صباح اليوم الرابع، انتبه جدى إلى نحافة جسد الفتاة ليان إر التى كانت ترقد إلى جواره، وإلى تلك الزرقة التى تحيط بعينيها المغمضتين وإلى بياض شفتيها الجافتين. وسمع فى ذلك الحين صوت انهيار عدد من منازل القرية. فارتدى ملابسه فى عجالة، وقفز بسرعة من أعلى المدفأة حتى تعثرت قدمه، فسقط على الأرض وشعر بألم فى معدته، فراح يجاهد حتى انتصب ثانية، ثم راح ينادى بصوت منهك على العمة ليو، ولكن لم يجب أحد. فسارع باقتحام باب تلك الغرفة التى تسكنها الفتاة ليان إر والعمة ليو، وراح ينظر داخل الغرفة، فرأى ضفدعة خضراء ترقد أعلى المدفأة، ولا يوجد أى أثر للعمة ليو. فرجع جدى إلى تلك الغرفة التى يقف أمامها

البغل الأسود، وراح يلتقط عددًا من البيض المملح الذى أكله بقشره. وقد شعر بالجوع الشديد بعد أن أكل البيض المملح، فدخل الفرن وراح يبحث فى جميع الخزانات حتى عثر على أربع قطع من الخبر، وتسع بيضات مملحة وقطعتين من الصويا ذات الرائحة الكريهة، وثلاثة رءوس من البصل، ثم شرب ملعقة كبيرة من زيت الفول السودانى.

وسطعت الشمس القادمة من حقول الذرة داخل الغرفة، بينما كانت ليان إر لا تزال تغط فى نوم عميق، فراح جدى ينظر إلى جسدها اللامع مثل جلد البغل الأسود، وقد لاح أمام عينيه الضوء الذهبى. وقد أتت الشمس الحمراء خارج النافذة على هذا الضوء الذهبى. فراح جدى يضرب على بطنها بمسدسه ضربًا خفيفًا، ففتحت ليان إر عينيها وابتسمت له ابتسامة رقيقة، وقد لمعت زرقة عينيها. ثم قفز جدى إلى وسط الفناء، وراح يتأمل الشمس التى غابت عن الفناء لفترة طويلة، وقد سطعت على المياه المتجمعة فى الفناء فاكتست باللون الأحمر، ثم سمع صوت المياه فى الشارع وقد راحت تنساب إلى داخل حقول الذرة. حتى كادت الذرة أن تغرق فى برك المياه.

ونقصت المياه فى الفناء شيئًا فشيئا، حتى اختفت تمامًا ليظهر سطح أرض الفناء من جديد. كما كان الدمار قد أصاب الجزأين الشرقى والغربى من الفناء الواسع، وخرج الجد لوو خان، والعمة ليو وعمال الفرن مسرعين ليتمتعوا بالشمس التى ملأت أرجاء الفناء الكبير. ورأى جدى أيديهم ووجوههم وقد اكتست بطبقة من اللون الأخضر.

فسألهم جدى "هل لعبتم القمار خلال الأيام الثلاثة الماضية؟"

فأجاب الجد لوو خان" نعم لقد لعبنا القمار".

فقال جدى" لقد غاص البغل فى حفرة العام الماضى، فلتأخذوا حبلاً وتذهبوا لرفعه من داخل الحفرة".

فأخذ عمال الفرن بالحبل ووضعوه أسفل بطن البغل، وجعلوا به عقدتين عند ظهر البغل، ووضعوا داخلهما لوحين من الخشب، ثم اجتمع ما يزيد على عشرة أشخاص وسحبوا البغل من داخل الحفرة وكأنهم يسحبون واحدة من ثمار الجزر.

بدا الجو صحوًا بعد توقف الأمطار، واختفت مياه الأمطار تمامًا، واكتست الأرض بطبقة من الطين اللامع. وجاءت جدتى وأبى على ظهر بغل من خلال حقول الذرة الممتلئة بالوحل. وقد امتلأت أقدام البغل وبطنه بالوحل. وكان البغلان الأسودان ما إن يشما رائحة الوحل حتى يضربا بأقدامهما ويرفعا رقبتهما ويصيحا بصوت مرتفع، ثم يتعانقان بمودة بينما هما مربوطان معًا.

واستقبل جدى جدتى بخجل شديد، ومد يديه واحتضن أبى. وقد بدت عينا جدتى محمرتين من الإرهاق الشديد، وفاحت منها رائحة كريهة. وسألها جدى: "هل انتهيتم من الجنازة؟"

فأجابته جدتى قائلة: "لقد انتهينا من دفن الجثة صباح اليوم، ولولا توقف الأمطار الشديدة، لكان قد أصبح وجبة سائغة لديدان الأرض".

فاحتضن جدى ابنه ثم قال" آه من هذه الأمطار الشديدة، لقد كادت أن تغرق الأرض بما عليها. يا صغيرى دوو قوان، أسمعنى صوتك وأنت تنادى يا أبى!"

فقالت جدتى" بل من الأفضل أن يناديك"أبى بالتبنى" "أبى الذى رباني منذ أن كنت صغيرا! والآن سأذهب أنا لتغيير ملابسى".

فاحتضن جدى أبى وراح يلف به أرجاء الفناء الواسع، ثم أشار إلى الحفرة التى غاص فيها البغل وقال: "يا دوو قوان، يا صغيرى دوو قوان، انظر إلى هذه الحفرة التى سقط فيها البغل الأسود، لقد مكث البغل بداخلها ثلاثة أيام بلياليها".

وأحضرت الفتاة ليان إر طستاً من النحاس لتملأه بالمياه، ثم نظرت إلى جدى وهى تعض على شفتيها وتزمهما، فابتسم إليها جدى ابتسامة مقصودة، بينما كشرت هى عن أنيابها وأظهرت له عدم سعادتها برؤيته.

سألها جدى بصوت خفيض: "ماذا بكِ؟"

فأجابت ليان إر بلهجة يملؤها الغضب والحقد: "اللوم كل اللوم على الأمطار اللعينة!"

حملت ليان إر المياه إلى الغرفة، وسمع جدى صوت جدتى تسألها: "فيم كنتما تتحدثان؟"

فأجابت ليان إر: "لم نتحدث فى أى شىء".

"وماذا تعنين بقولك، عليك أن تلوم تلك الأمطار اللعينة؟"

فقالت ليان إر"لا شىء، لا شىء، لقد كادتِ تلك الأمطار اللعينة أن تغرق الأرض بما عليها!"

فتأوهت جدتى قليلاً كأنها قد عرفت الإجابة عن سؤالها، وسمع جدى آنذاك صوت خرير المياه داخل الطست النحاسى.

وعندما خرجت ليان إر لتسكب المياه المتبقية فى الطست، انتبه جدى إلى احمرار وجهها وإلى نظراتها المشتتة.

وبعد مضى ثلاثة أيام، قالت جدتى أنها تنوى العودة إلى مسقط رأسها للقيام بطقس إلقاء الأوراق المالية على جثة والدها. وعندما احتضنت أبى وركبا على ظهر البغل، قالت جدتى مخاطبة ليان إر: "إننى لن أعود اليوم".

وفى مساء ذلك اليوم، كانت العمة ليو قد ذهبت إلى الجزء الشرقى من الفناء حيث مكان إقامة عمال فرن النبيذ لتشاركهم لعب القمار، وعندها عـاد اللهيب الذهبى يملأ أرجاء غرفة جدتى من جديد.

وعادت جدتى على ظهر بغلها فى جوف الليل. وقفـت عنـد النافـذة واستمعت بعض الأصوات التى تصدر من داخل غرفتها، ثم أطلقت سيلاً من السباب البذىء.

وأوجعت جدتى الفتاة ليان إر ضربًا على وجهها الممتلئ، حتى سالت منه الدماء، ثم صفعت جدى صفعة قوية على خده الأيسر، فضحك جدى فور تلقى صفعتها، ورفعت جدتى يدها تنوى صفعه صفعة ثانية، إلا أن يدها شلت تمامًا فور اقترابها من خد جدى، فنزلت يدها على كتفه. وهنا أحكـم جـدى قبضته وصفعها صفعة أسقطتها على الأرض.

فراحت جدتى تبكى بصوت مرتفع.

واصطحب جدى ليان إر إلى خارج الغرفة.

(٧)

وفر أعضاء التنظـيم حـصانًا لكـى يركبـه جـدى وأبـى، كـان أبو شامة يتقدم الركب وهو يجرى بفرسه بسرعة شديدة، بينما سار الشاب وو لوان تزه ذو اللهجة الواضحة، والذى يكره الحزب الشيوعى والحزب الوطنى، سار ببطء بمحاذاة جدى وأبى. كان الحصان الذى ركبه الشاب وو لوان تـزه حصانًا صغيرًا فى ريعان شبابه، وقد راح ينظر إلى الأحصنة الخمسة التـى تسير فى المقدمة بسرعة شديدة، وراح يهز رأسه تعبيرًا عن رغبته الشديدة فى

اللحاق بها، بينما أصر راكبه على شد لجامه وأجبره على التخلى عن رغبته فى الفرار لملاحقة الأحصنة التى تتقدم الركب. وهنا راح الحصان الصغير الملون يعبر عن غضبه بأن راح يداعب الحصان الأسود الذى يركبه جدى تعبيرًا عن غضبه من سيده. رفع الحصان الأسود حافره فى وجه الحصان الملون مدافعًا عن نفسه، وتدخل جدى بأن شد لجام حصانه وراح يصرف الحصان الملون بعيدًا عنه. وبدأت مياه نهر موا شوى الزرقاء الدافئة تتحرك حركات خفيفة، وسرت رائحتها تجاه الحقول الممتدة على جانبى النهر. وبسبب الحرب الطاحنة التى تشهدها المنطقة، اكتست الحقول باللون الأصفر الذابل، كان قد سقط ما يزيد على نصف أعواد الذرة، ظهرت جماعات قليلة من الفلاحين داخل الحقول، كما قام عدد من الفلاحين الأذكياء بإضرام النيران فى أعواد الذرة الجافة حتى تحولت إلى رماد، وعادت ثانية إلى الأرض التى أنبتتها.

وعلا اللهب الناتج عن إضرام الفلاحين النيران فى أعواد الذرة الجافة على جانبى نهر موا شوى، حتى تحول اللهب إلى ستارة حمراء أمام الحقول الممتدة على جانبى النهر، وعلا الدخان فى سماء المكان، وتغلغلت رائحة احتراق أعواد الذرة إلى داخل أنف جدى وحلقه. وانحنى الشاب وو لوان تزه برأسه، وراح يسأل جدى قائلاً: "أيها القائد يو، لقد تحدثت إليك كثيرًا، ولم أستمع حتى الآن إلى رأيكم السديد!".

فابتسم جدى ابتسامة مصطنعة، ثم قال: "إننى جاهل لا أعرف أكثر من مائتى كلمة، وإننى سأحسن القول تمامًا إذا ما تحدثنا عن القتل والسلب والنهب، أما ما يتعلق بالوطن والأحزاب وغيرها من هذه الأمور فإننى أجهلها تمامًا!".

"إذا، فلنستمع إلى رأيكم حول من الذى سيحكم الصين بعد طرد المعتدى اليابانى؟".

" هذا الأمر لا يخصنى فى شيء، وعلى أية حال مهما كان ذلك الحاكم فإنه لن يجرؤ على المساس بى!".

"وما رأيكم فى تسليم هذه المهمة للحزب الشيوعى؟".

فرفع جدى أنفه ساخرًا، وأخرج صوتًا من أنفه.

"أم أنك ترى أن يتولاها الحزب الوطنى؟"

"هؤلاء الكلاب!"

"نعم نعم، إن الحزب الوطنى يتميز بالمكر والخداع، والحزب الشيوعى يتميز بالمراوغة والدهاء، فالصين بحاجة إلى إمبراطور يحكمها! وكنت قد طالعت فى صغرى روايتى "الدويلات الثلاث المتحاربة"(١) و"أبطال البحيرة"(٢)، وتوصلت إلى هذا الرأى، أنه مهما يكن فإن الصين لابد أن تقع فى قبضة إمبراطور، فالدولة إنما هى عبارة عن أسرة هذا الإمبراطور، والأسرة هى دولة الإمبراطور، وهكذا سيبذل الحاكم قصارى جهده لأجل هذا الوطن. أما إذا تمكن حزب ما من حكم دولة ما، فإنه ستكون هناك آراء

(١) رواية "الدويلات الثلاث المتحاربة" تم الإشارة إليها فى مكان سابق من هذا الباب. (المترجم)

(٢) رواية "أبطال البحيرة": من أمهات الكتب الصينية الأربعة. وتعتبر أول رواية فى تاريخ الصين تكتب باللغة الحديثة. وهناك اختلاف حول مؤلفها، حيث تشير الآراء إلى أن مؤلفها هو شه ناى يان، وهنك رأى آخر يقول بأنها كانت تأليفًا مشتركًا بين شه ناى يان ولوو قوان جونغ. وتتكون الرواية من ١٢٠ فصلاً، وتدور أحداثها حول حكاية انتفاضة سونغ جيانغ من أواخر عصر أسرة سونغ الشمالية (٩٦٠-١١٢٧)، وهى من أهم الروايات الصينية التى تناولت أحداثها انتفاضات الفلاحين فى الصين ضد الظلم الواقع عليهم من قبل المجتمع الإقطاعى الغاشم. (المترجم)

كثيرة متفرقة، ولن يتوقف الشعب عن التذمر والشكوى من هذا وذلك، حتى تتشتت الآراء وتضيع البلاد".

وهنا أوقف الشاب وو لوان تزه حصانه لانتظار حصان جدى الذى كان يجرى خلفه، ومال الشاب بجسده ناحية جدى، وقال بشىء من السرية: "أيها القائد يو، كما أخبرتك أننى طالعت منذ طفولتى روايتى "الدويلات الثلاث المتحاربة" و"أبطال البحيرة"، وعلمت جيدًا بما فيهما من خطط ومؤامرات، وجرأة فى المواجهة. وكنت أعتقد فيما قبل أن السيد أبا شامة بطل شجاع، وهكذا هجرت منزلى وتركت بلدتى وسارعت بالانضمام إليه، كنت أتمنى من أعماق قلبى تحقيق طموحاتى العالية والاستماتة من أجل بلوغ هدفى من الانضمام لهذا التنظيم، وأن نحقق على أرض الواقع إسهامات وإنجازات كبرى، ونؤمن حياة زوجاتنا وأطفالنا، ولكن من كان يدرى أن أبا شامة هذا إنما هو رجل أحمق مثل الخنزير، غبى مثل البقرة، جبان ضعيف الحيلة، وأن كل ما يفكر فيه هو حماية ممتلكاته الخاصة فى قرية يان شوى كوو تزه، وكما يقول القدماء: إن الذكى هو من يتحين الفرصة المناسبة لاستخدام ذكائه. وقد توصلت بعد تفكير ملى، إلى أنك أنت البطل الوحيد فى هذه القرية الكبيرة؛ ومن ثم فقد تواصلت مع عشرات الإخوة من أعضاء هذا التنظيم، واتفقنا معًا على مطالبة أبى شامة بأن يدعوك للانضمام إلينا، وهذا من قبيل إغراء الفريسة حتى تقع فى الفخ المنصوب لها. وأنك فور انضمامك لنا ستعتمد على عملك واجتهادك حتى تحظى بتعاطف جميع أعضاء التنظيم والإعلاء من مكانتك بيننا، وعندها سأتحين الفرصة للإطاحة بأبى شامة ونعلن تنصيبك زعيمًا لنا، ونبدأ عهدًا جديدًا تحت زعامتك، حيث الالتزام بالقواعد الصارمة والعمل على زيادة حجم قواتنا، وتوطيد أقدامنا بداية فى قرية دونغ بيى بمدينة قاو مى، ثم نتوسع شمالاً للسيطرة على قرية دونغ نان بمدينة بينغ دو، ثم السيطرة على القرى الشمالية من مدينة جياو

شيان، وتوحيد هذه القرى تحت زعامتنا. وفى ذلك الحين سنتمكن من تأسيس عاصمتنا فى يان شوى كوو تزه، ونرفع عليها علم تنظيم المقاومة ضد اليابان، والذى ستكون أنت أميرًا له. ثم نقوم بعدها بتقسيم أنفسنا إلى ثلاث فرق رئيسية، الفرقة الأولى تهاجم مدينة جياو شيان، والفرقة الثانية لمهاجمة مدينة قاو مى، أما الفرقة الثالثة فتهاجم مدينة بينغ دو، وهكذا حتى ندمر الحزب الشيوعى والحزب الوطنى والشياطين اليابانيين، وبعد الاستيلاء على هذه المدن الثلاث، فسنكون قد استولينا تمامًا على الصين قاطبة!".

وهنا كاد جدى أن يسقط من أعلى ظهر حصانه، وراح ينظر بذهول شديد إلى ذلك الشاب الوسيم المفعم بالحماس، وأحس برغبة قوية تسيطر على قلبه، فشد جدى لجام حصانه، ثم انتظر حتى زال السواد الذى كان يظهر أمام مرمى بصره، ثم نزل من على ظهر حصانه، وقد فكر فى أن يركع أمام الشاب، ولكنه عدل عن ذلك، ومد يده إلى يد الشاب وو لوان تزه التى كانت مبللة بالعرق، وراح يقول بصوت متلعثم: "أيها السيد! يا لك من صعلوك، كيف لم نتقابل من قبل! لسوء الحظ أننا تعارفنا متأخرًا".

قال الشاب وو لوان تزه بعينين دامعتين:" دعنا من المجاملة، ولنعمل ونخطط معًا لتحقيق الإنجازات والمآثر الكبرى!".

كان أبو شامة يحث حصانه على الجرى بسرعة، وهو يصيح بصوت مرتفع: "يا هذا، إلى متى ستمكثون فى مكانكم؟".

فوضع وو لوان تزه قبضة يده على فمه، وراح يرد عليه: "سنتحرك فورًا، لقد انقطع حبل حصان السيد يو، وها نحن نقوم بإصلاحه!".

سمعوا السيد أبا شامة يسبهم آنذاك ببعض الألفاظ القبيحة، وقد راح يضرب على ظهر حصانه، حتى تألم الحصان كثيرًا ومضى يجرى بسرعة شديدة مثل الأرانب البرية.

ونظر الشاب وو لوان تزه إلى أبى ذلك الفتيٍ ذى العينين اللامعتين، الذى كان جالسًا على ظهر الحصان، ثم خاطبه قائلاً: "أيها الأمير الصغير، إن ما دار بينى وبين والدك القائد يو منذ قليل كلام فى غاية الخطورة، وعليك ألا تفشيه أبدًا!".

هز أبى رأسه هزة شديدة بالموافقة.

فأرخى وو لوان تزه لجام حصانه، وترك له العنان، ففر الحصان مسرعًا، وقد تطايرت خلفه كميات كبيرة من الأتربة التى حملتها الرياح إلى مجرى النهر.

وأحس جدى بصدق ووضوح لم يعهدهما فى حياته من قبل، أحس وكأن كلام الشاب وو لوان تزه قد نظف قلبه تمامًا حتى جعله مثل المرآة اللامعة، وشعر بداخله بسعادة بالغة، وأنه أخيرًا قد عرف هدف رحلة كفاحه الطويلة. وراح يحرك شفتيه، ويتمتم بكلمات غير مفهومة تمامًا، حتى إن أبى الذى كان جالسًا فى حضنه قد عجز عن فهم ما يتمتم به. وقال جدى: "لتكن مشيئة السماء!".

وسار الحصان فى طريقه مسرعًا حينًا ومبطئًا حينًا، حتى وصل إلى أسفل حافة نهر موا شوى وجعل النهر من خلفه، وعند غروب شمس ذلك اليوم، جلس جدى على ظهر حصانه، وراح ينظر إلى نهر يان شوى، ذلك النهر الذى يضيق مجراه عن نهر موا شوى، ويجرى فى خطوط متعرجة وسط الأراضى المالحة، وبدت مياه النهر مثل زجاج رمادى يكشف عن صورة غير واضحة.

**(٨)**

أما تلك المؤامرة التى خطط لها السيد تساو مينغ جيو رئيس المدينة، والتى قضت على عصابات قطاع الطرق فى قرية دونغ بيى بمدينة قاو مى،

والتى كان يتزعمها جدى، فكانت قد وقعت فى خريف عام ١٩٢٨. وعندما كان جدى فى المنطقة الجبلية بجزيرة هوكايدو اليابانية، لم يكن يتوقف عن تذكر تلك الفترة التاريخية المحزنة، تذكر مدى سعادته وزهوه بنفسه ومدى حماقته وبلاهته عندما كان قد استقل السيارة "الشيفرولية" السوداء وراح يتمايل بها على الطريق المتعرج بقرية دونغ بيى. وتذكر أنه كان مثل الطائر البارع الذى أوقع ما يزيد على ثمانمائة رجل فى شباكه. وعندما تذكر صورة هؤلاء الرجال، وقد أصابهم وابل من الطلقات النارية الرشاشة حتى سقطوا صرعى فى مجرى النهر خارج مبنى حكومة مدينة جى نان(١)، شعر بأن جميع أطرافه ترتعد. وعندما كان يرتدى جوال الخيش البالى وينزل للصيد فى شاخه، كان يتمكن من رؤية الأمواج الزرقاء التى تتلاطم فى الخليج، وعندها يتذكر نهرى موا شوى ويان شوى بمسقط رأسه، وعندما كان يشعل النيران فى أعواد الأشجار ليطهو بها الأسماك التى كان يصطادها من شاخه فى جزيرة هوكايدو اليابانية، عندها كان يتذكر الحزن الشديد الذى ألم به عقب قيامه بدفن جثث هؤلاء الرجال الثمانمائة الذين لقوا حتفهم بسبب الخطأ الكبير الذى ارتكبه هو...

وقبيل فجر ذلك اليوم، استطاع جدى أن يتسلق سور مكتب شرطة حكومة مدينة جى نان العالى، ثم سار على السور حتى سقط بجانب الجدار على كومة من الأعشاب البالية، فأثار سقوطه ذعر زوج من القطط البرية. وتسلل إلى داخل أحد المنازل بالمدينة، وغير الزى العسكرى الذى كان

---

(١) مدينة جى نان: تأسست فى يوليو عام ١٩٢٩، وهى العاصمة الحالية لمقاطعة شان دونغ بشمال شرق الصين، وتعتبر مركزًا سياسيًا واقتصاديًا وسياحيا وثقافيًا مهمًا على مستوى المقاطعة كلها، كانت قد تعرضت فى عام ١٩٢٨ لمذبحة الثالث من مايو على يد القوات اليابانية التى غزت مقاطعة شان دونغ آنذاك، وقتل فيها ١٢ ألف مواطن من مدينة جى نان. (المترجم)

يرتديه ببعض الملابس القديمة، وراح يسير وسط سوق المدينة بين جموع الأهالي، ورأى بلدياته ورفاقه وقد تم حجزهم داخل عربات مغلقة تمامًا. ورأى حارس المحطة يقف هناك وقد علا وجهه الحزن الشديد، ثم رأى الدخان المتطاير من العربات المغلقة التي تقل بلدياته ورفاقه، فراح جدى يسير على قضيبين من السكك الحديدية صوب الجنوب، سار يومًا بليلته، وفى صباح اليوم التالى، شم رائحة دماء شديدة بالقرب من مجرى مائى جاف، فراح يسير أعلى جسر خشبى مكسور، ومضى ينظر إلى آثار الدماء الطازجة ورءوس البشر التى تظهر جلية على الأحجار الملقاة أسفل الجسر الخشبى، كانت جثث ما يزيد على ثمانمائة من أفراد قطاع الطرق بقرية دونغ بيى تملأ ما يقارب نصف مساحة مجرى النهر... وشعر جدى فى تلك اللحظة بحزن ورعب وحقد دفين، ووقف أعلى الجسر الخشبى المكسور، وقد أصبحت لديه الآن رغبة قوية فى البقاء، لقد مل حياة القاتل والمقتول والمجرم السفاح، والذى يقع فريسة للسفاح. ومضى يتذكر تلك القرى الآمنة التى تمتلئ بدخان المواقد لإعداد الطعام، ومياه البئر الصافية التى تصعد لأعلى من خلال البكرات المربوطة أعلى الآبار، وقد مد حمار ما رقبته وراح يروى ظمأه من مياه الجردل، وقد وقف ديك أعلى السور العالى وراح يشدو بصوته ليعلن بدء يوم جديد... هنا قرر جدى العودة إلى منزله. فمنذ لحظة ميلاده وهو يسكن قرية دونغ بيى، وهذه هى المرة الأولى التى يغادر فيها قريته، وقد شعر أن منزله يبدو الآن بعيدًا عنه، حيث كانوا قد استقلوا القطار حتى وصلوا إلى مدينة جى نان، يذكر جيدًا أن قاطرة القطار كانت تسير آنذاك صوب الغرب، والآن إذا تمكن من السير فى اتجاه الشرق، فإنه حتمًا سيتمكن من الوصول إلى مدينة قاو مى. سار جدى بمحاذاة شريط السكة الحديد، وكان يساوره التردد أحيانًا عندما يلاحظ أن شريط السكة

الحديد يمتد فى اتجاه مختلف، ولكنه كان يرجع فـى الحـال عـن تـردده وشكوكه، كان يفكر فى أنه حتى نهر اليانجستى[1] ذلك النهر الكبير يجـرى فى مجرى متعرج، فكيف لا يمتد هذا الشريط الحديدى الذى صنعه الإنـسان فى خطوط متعرجة. وكان يرى خلال رحلته على شريط السكة الحديد عددًا من الكلاب التى تتبول على الشريط الحديدى. وعندما يأتى القطار، كان جدى ينبطح داخل الأخدود على جانب الطريق، أو يلقى بنفسه داخـل الـزروع الممتدة على جانبى الشريط الحديدى، ويمضى يتأمل عجلات القطار الحمراء أو السوداء وهى تسير على القضبان محدثة صوتًا عاليًا، وتعرجات القضبان أسفل عجلات القطار، ويستمع إلى صفارة القطار العالية، كانت تعلـن عـن شدتها بهز الزروع وإثارة الغبار الكثيف. وما ان يمر القطار، حتى تـستعيد القضبان حالتها الطبيعية بعد أن تألمت لمدة وجيزة، أصبح من الصعب عليه أن يهرب من رؤية اللون الأسود والرمادى، وشم الروائح الكريهة المنبعثـة من فضلات الصينيين واليابانيين... كان جدى يتسول بعض الطعام كلما مر بقرية على طول الشريط الحديدى، ثم يشرب من مياه النهر، وهو يمضى فى طريقه شرقًا، وقد فقد الإحساس بالزمن. وأخيرًا وبعد خمسة عـشر يومًـا، رأى المقصورتين العاليتين اللتين يعرفهما جيدًا أعلى محطة القطار بمدينـة قاو مى. رأى على المحطة جموعًا من وجهاء مدينة قاو مى يودعون الـسيد تساو مينغ جيو رئيس المدينة السابق، والذى تمت ترقيته إلى رئيس مكتـب شرطة مقاطعة شان دونغ، ومد جدى يده يتحسس خصره، فاكتشف أنه خالٍ

---

(١) نهر اليانجستى: (Changjiang River) أطول نهر فى قارة آسيا، يبلغ طوله ٦٣٨٠ كيلـومترًا، ويعتبـر والنهر الأصفر من أهم وأكبر الأنهار فى الصين، وهو ثالث أطول نهر على مستوى العالم بعـد نهـر النيل ونهر الأمازون، وينبع نهر اليانجستى من قمة قه لا دان بجبل تانغ قو لا بمقاطعة تـشينغ خـاى غرب الصين، ليصب فى البحر عند مدينة شنغهاى بجنوب شرق الصين. (المترجم)

تمامًا من أية أسلحة، فراح يفكر فى أسرع حركة ينزرع بها داخل الأرض ليختفى عن الأنظار، وبعد وقت طويل جدًا استطاع أن يتذوق طعم التربة السوداء الممزوجة بالدماء...

أخيرًا، وبعد التفكير مرارًا وتكرارًا، قرر جدى العدول عن العودة إلى المنزل للاطمئنان على جدتى وأبى، على الرغم من أنه قد راوده فى أحلامه جسد جدتى الأبيض، وابتسامة أبى البريئة والغريبة، كان قد أحس فور استيقاظه بدموع غزيرة بللت وجهه المتسخ، وبوخزة شديدة فى قلبه، كان يعلم جيدًا وهو يتأمل فى النجوم مدى اشتياقه لزوجته وابنه. أما الآن فإنه يقف على ناصية القرية التى يعرفها جيدًا، ويشم رائحة النبيذ القريبة إلى قلبه، ولكنه لا يزال مترددًا. لقد استطاعت تلك الصفعة التى صفعته إياها جدتى أن تفرق بينهما، كانت قد سبته: يا حمار! يا خنزير! وقفت أمامه وهى تضع يديها فى وسطها وترفع رقبتها لأعلى، ورأى الدماء الحمراء الداكنة تسيل داخل فمها... هذه الصورة القبيحة جعلته فى غاية الاضطراب، حيث مضى يفكر فى أنه لم يتعرض أبدًا خلال حياته الطويلة للسباب من قبل امرأة، كما أنه لم تجرؤ امرأة على صفعه على وجهه. وعلى الرغم من شعوره بوخز الضمير خلال علاقته السرية مع الفتاة ليان إر، فإنه بعد تعرضه للسب والصفع من قبل جدتى، قد زال شعوره بوخز الضمير، وزال شعوره بنقد ذاته على قيامه بمثل تلك الفعلة، والآن زال هذا الشعور تمامًا، وحل محله شعور قوى بالانتقام. فتشجع على مغادرة المنزل مصطحبًا معه الفتاة ليان إر، وقد غادر إلى قرية شيان شوى كوو تزه التى تبعد مسافة سبعة كيلومترات ونصف الكيلومتر عن قريتنا، واشترى لهما بتلك القرية مسكنًا يقيمان فيه. وكان يعرف جيدًا أن حياته لم تكن تسير على ما يرام خلال تلك الفترة، فلقد اكتشف الكثير من مزايا جدتى من خلال عيوب الفتاة

ليان إر التى اتضحت له من خلال عشرتها... والآن وبعد نجاته من الهلاك المحتم، فإن أقدامه قد أتت به إلى هنا مرة ثانية، وهو الآن يشم رائحة محببة إلى قلبه، شعر بحزن شديد يخيم على قلبه. ومضى يفكر فى أن يتغاضى عن كل ما حدث ويرمى بنفسه داخل ذلك الفناء الذى يحوى الكثير من الذكريات القبيحة والمفجعة والجميلة ليستعيد الأيام الجميلة التى قضاها داخل جدرانه، ولكن صوت السباب المفجع، وتلك الصورة القبيحة يقفان حاجزًا كبيرًا، يعوقان طريقه إلى الفناء.

وعند منتصف الليل، وصل جدى أخيرًا إلى قرية شيان شوى كوو تزه، وقد بدا عليه التعب الشديد، ووقف أمام المسكن الذى كان قد اشتراه قبل عامين، وراح يتأمل قمر ما بعد منتصف الليل الذى ظهر عاليًا فى السماء ناحية جنوب غرب المسكن. بدت السماء رمادية فضية، بينما كان القمر ذهبيًا ناقصًا واضحًا تمامًا، أحاط به عدد من النجوم المتفرقة، وسطع ضوء القمر والنجوم أعلى سطح المسكن والشوارع المحيطة به. ولاح أمام عينيه جسد ليان إر الأسمر القوى الطويل، ومضى يفكر فى ذلك اللهب الذهبى الذى كان ينبعث من جسدها، والشعاع الأزرق الذى كانت ترسله عيناها، وهنا استطاعت هذه الذكريات الجميلة أن تجعله ينسى آلامه الجسدية والمعنوية، فتسلق سور المسكن ودلف إلى داخل الفناء.

طرق جدى على حافة النافذة، فاجتمع حماسه، وراح ينادى بصوت خفيض: "يا ليان إر... ليان إر...".

وسمع صوت صراخ داخل الغرفة، ثم صوت ارتعاد شديد، ثم صوت بكاء متقطع.

"ليان إر، ليان إر، هل تسمعين صوتى؟ إننى يو جان آو!".

"أخى... أخى الحميم! إنك لن تستطيع إرهابى! وإننى أتمنى لقاءك حتى ولو كنت عفريت يو جان آو! وإننى أعلم أنك تحولت إلى عفريت، وأنا فى غاية السعادة لأن تأتى للاطمئنان علىّ بعد أن تحولت إلى عفريت... فإن هذا يدل على أنك لا تزال تفكر فى... تقدم... تقدم...".

"ليان إر، إننى لست عفريتًا، إننى لازلت حيًا، لقد استطعت النجاة حيًا!"، وراح جدى يضرب بقبضة يده على النافذة، ثم قال: "فلتسمعى هذا الصوت، وهل يستطيع العفريت أن يطرق النافذة؟".

فسمع صوت بكائها داخل الغرفة.

فقال جدى: "كفى عن البكاء حتى لا يسمع أحد صوتنا".

اقترب من الباب، ووقف عنده ثابتًا لتجىء ليان إر مثل السمكة الكبيرة وترمى بنفسها فى أحضانه.

واضطجع جدى أمام المدفأة، وراح ينظر بذهول إلى السقف المطلى بالورق، ومكث بالمنزل طيلة شهرين كاملين لم تطأ قدمه خلالهما عتبة المنزل، كانت ليان إر تنقل له كل يوم ما يثار من أحاديث حول عصابات قطاع الطرق فى قرية دونغ بيى بمدينة قاو مى، ومن ثم، فإنه كان يبدو كل يوم غارقًا فى ذكريات تلك المأساة الكبرى. ومضى يفكر فى أنه قضى عمره فى صيد الإوز، ولكنه الآن وقع بفعل الإوز، وأنه كان قادرًا أكثر من مرة على الفتك بذلك الكلب تساو مينغ جيو، ولكنه كان دائمًا ما يعفو عنه. وهنا راح يفكر فى جدتى، إن علاقتها المشكوك فيها كابنة بالتبنى لذلك الكلب تساو مينغ جيو كانت أحد الأسباب التى أوقعته فى يد ذلك الكلب، وأنه كما يكره تساو مينغ جيو، فإنه يكرهها كرهًا شديدًا. وربما تكون قد خططت مع ذلك الكلب وحفرا له تلك الحفرة معًا، وخاصة أنه سمع ليان إر تقول له إنك لا تستطيع أن تنساها، ولكنها نسيتك منذ زمن طويل، فبعد أن غادرت القرية على متن

القطار، كانت قد رحلت مع أبى شامة زعيم التنظيم، ومكثا لبضعة شهور فى قرية شيان شوى كوو نزه، ولم تعد إلى القرية حتى يومنا هذا. كانت ليان إر تفضى إليه بهذه الأسرار، بينما هى تفرك بيدها أضلاعه. وما إن انتبه جدى إلى جسدها الأسود حتى شعر ببعض الاشمئزاز، وهنا راح يفكر فى جسد جدتى الأبيض الناصع، ثم راح يفكر بعيدًا فى تلك الظهيرة التى اختطفها فيها إلى داخل حقول الذرة، وقضى معها لحظات لن تنسى إلى الأبد.

تقلب جدى قليلاً ثم قال: "وهل لا يزال مسدسى موجودًا؟".

فاحتضنت ليان إر ذراع جدى، وقد شعرت بخوف شديد، ثم أجابت: "ماذا تريد أن تفعل؟".

فقال جدى: "أريد أن أقتل هؤلاء الكلاب!".

فقالت ليان إر: "يا جان آو، يجب أن تتوقف عن القتل! فلقد قتلت الكثير من الناس خلال رحلة حياتك الطويلة!".

فركلها جدى ركلة فى بطنها، ثم قال: "كفاك من هذه الثرثرة، وائتينى بالمسدس!".

فشعرت ليان إر ببعض الضيق، ثم فتحت الوسادة وأخرجت منها ذلك المسدس الماوزر.

وعاود جدى وأبى يركبان على ظهر ذلك الحصان الأسود، وراحا يلحقان بذلك الشاب من أعضاء التنظيم، وقد قطعا مسافة طويلة حتى لاح أمامهما أخيرًا نهر يان شوى، وعندما رأيا ذلك الخلاء الواسع الممتد على ضفتى نهر يان شوى، فإنه على الرغم من أنه لم يكن قد هدأ بعد من كلام الشاب وو لوان تزه المثير جدًا، فإنه مضى يفكر فى مشهد اشتباكه مع أبى شامة على حافة نهر يان شوى...

أحكم جدى وضع مسدسه الماوزر، وركب على ظهر حمار كبير وقطع مسافة طويلة خلال صبيحة ذلك اليوم، حتى وصل إلى قرية يان شوى كوو تزه، وقام فور وصوله بربط حماره إلى جذع شجرة من أشجار الدرادار خارج حدود القرية، وراح الحمار يقضم فى لحاء الشجرة، وأنزل جدى قبعته القديمة على عينيه ومضى يسير فى عجالة إلى داخل القرية. وعلى الرغم من اتساع تلك القرية فإنه لم يتوقف للسؤال عن الطريق، وراح يتوغل إلى داخل القرية فى اتجاه صفوف المنازل العالية المبنية من الطوب. صادف الوقت حينها أواخر شهر الخريف ومطلع الشتاء، وقد رأى حركة مجموعة من أشجار الكستناء ذات الأوراق الجافة تهتز بفعل الرياح، ولم تكن الرياح قوية، إلا أن صوتها كان قويًا بعض الشىء. ودخل جدى إلى فناء المسكن الكبير المبنى من الطوب، حيث صادف وقت دخوله اجتماع أعضاء التنظيم. رأى لوحة كبيرة صفراء اللون معلقة على سور الصالة الكبيرة، وقد ظهر عليها رسم عجوز ذى ملامح غريبة يركب نمرًا ضخمًا مخططًا. وقد رأى أسفل اللوحة مجموعة من الأشياء الغريبة جدًا (استوضح جدى فيما بعد أن تلك الأشياء كانت عبارة عن أقدام قرد، عظام دجاج، مرارة خنزير، رأس قطة، حوافر بغل)، ووسط هالة من الدخان ذى الرائحة الذكية، رأى جدى رجلاً تظهر فى وجهه شامة يجلس على مقعد مستدير من الحديد، وقد رفع الرجل يده اليسرى ليمسح على صلعته، بينما وضع يده اليمنى على ردفه، وهو يتلو بصوت مرتفع مجموعة من التعاويذ.

وعرف جدى على الفور أن ذلك الرجل الجالس أمامه هو أبو شامة، ذلك الشيطان المعروف فى قرية دونغ بيى بمدينة قاو مى.

وفور الانتهاء من تلاوة التعاويذ، نهض أبو شامة بسرعة، وراح يسجد ثلاث سجدات أمام تلك اللوحة، ثم عاد بعد ذلك ليجلس على المقعد الحديدى،

ثم قبض على يديه ليجعل أظافر أصابعه العشرة تختفى داخل قبضته. ثم راح يهز ذقنه لمجموعة من أعضاء التنظيم الجالسين فى الصالة الفسيحة. راح أعضاء التنظيم يمسحون على صلعاتهم بأيديهم اليسرى، ويضعون أيديهم اليمنى على أردافهم، ثم أغمضوا أعينهم وراحوا يرددون تلك التعاويذ التى انتهى منها أبو شامة، كان صوت تلاوة تلك التعاويذ مؤثرًا جدًا، وأحس جدى بأرواح غريبة تملأ المكان، واختفى الغضب الشديد الذى دخل به، وأخفى حنقه الشديد تجاه أبى شامة.

راح أعضاء التنظيم يتلون تلك التعاويذ فى صوت واحد، ثم يسجدون معًا أمام ذلك العجوز الذى يركب النمر المخطط، ثم نهضوا ووقفوا فى صفين فى مواجهة السيد أبى شامة. ورأى قدرًا أحمر كبيرًا يوضع أمام أبى شامة، امتلأ القدر الكبير بالذرة الرفيعة، حيث كان جدى قد سمع من قبل أن أعضاء هذا التنظيم يأكلون حب الذرة دون طهوه، وقد رأى هذا أخيرًا بأم عينيه؛ رأى أعضاء التنظيم يتقدمون الواحد تلو الآخر إلى ذلك القدر ويأخذون سلطانية من الذرة يشربونها دفعة واحدة، ثم يقفون أمام منضدة القرابين، ويمسحون على رءوسهم بتلك القرابين الموضوعة أعلى المنضدة بما فيها من أقدام القرود وحوافر البغال وعظام الدجاج.

وانتهى أعضاء التنظيم من هذه الطقوس عند غروب الشمس، وقد تجرأ جدى وأطلق طلقة على تلك اللوحة الكبيرة، حتى أحدث ثقبًا كبيرًا فى وجه ذلك العجوز الذى تملأ صورته اللوحة الكبيرة؛ فذعر أعضاء التنظيم وخرجوا فى جماعة واحدة وحاصروا جدى وسطهم.

وراح أبو شامة يسبه بصوت مرتفع: "من أنت أيها اللص الجرىء!".

فرجع جدى إلى الخلف، ووقف أمام كومة من الطوب، وراح يرفع قبعته إلى أعلى مستخدمًا ماسورة مسدسه التى لم يهدأ دخانها بعد، ثم قال: "إننى جدك وجد آبائك يو جان آو!".

فقال أبو شامة: "هل لازلت على قيد الحياة؟".

فقال جدى: "وددت أن أراك قبل أن أفارق هذه الحياة!".

فقال أبو شامة: "وهل تعتقد أنك ستتمكن من قتلى بهذه الحركات الطائشة؟ أيها الرفاق، ائتونى بالسكين!".

جاءه أحد أعضاء التنظيم بسكين ذبح الخنازير، وحبس أبو شامة أنفاسه قليلاً، ثم أعطى إشارة إلى ذلك الرجل من أعضاء التنظيم. وهنا رأى جدى بأم عينيه ذلك السكين الحاد عندما انغرست فى جسد أبى شامة، وقد بدت وكأنها تشق قطعة من الخشب الصلب جدًا، حيث سمع صوت السكين وهى تحاول اختراق جسده، ولكن دون جدوى، أحدثت فقط بعض الآثار البيضاء البسيطة فى جسده.

راح أعضاء التنظيم يرددون تعاويذهم: "آه ما آه لا آه ما آه لا، رءوس من حديد وأذرع من حديد وأرواح من حديد... وأجساد حديدية وطاعة كاملة للإله الذى يركب النمر المخطط آه ما آه لا... آه ما آه لا...".

شعر جدى بدهشة بالغة أخفاها فى نفسه، لم يكن يتخيل أبدًا أن يرى جسدًا يبدو كسد منيع أمام الطلقات النارية والسكاكين الحادة، وراح يفكر فى مضمون التعاويذ التى يتلوها أعضاء التنظيم، حيث يذكرون كلمات أجساد من حديد، ولكنهم لم يقولوا أعيناً من حديد.

فسأل جدى الزعيم أبا شامة:" هل تستطيع عيناك أن تتصدى لطلقاتى النارية؟".

فرد عليه أبو شامة السؤال بسؤال أصعب: "وهل تستطيع بطنك أن تتصدى لسكينى؟".

كان جدى يعلم جيدًا أن بطنه لن تقوى على التصدى لسكينه الحاد، كما يعلم أن عينى أبى شامة لن تقوى على صد طلقات مسدسه الماوزر.

فأخذ أعضاء التنظيم الموجودون فى داخل الصالة الفسيحة السكاكين والسيوف والأسلحة وأحاطوا بجدى.

كان جدى يعلم أن مسدسه يحتوى فقط على تسع طلقات نارية، وأنه بعد قيامه بقتل أبى شامة سينقض عليه أعضاء التنظيم كالكلاب ويقطعونه إربًا إربا.

فقال جدى مخاطبًا أبا شامة: "يا أبا شامة، كما أرى بأم عينىّ أنك تبدو رجلاً ذا شأن، فقد قررت أن أمنحك فرصة للنجاة! فإذا سلمتنى تلك العاهرة، فسأعتبر أن ما بيننا من نزاع قد انتهى تمامًا!".

فرد أبو شامة قائلاً: "وهل هى تخصك؟ وهل ستقبل ذلك إذا طلبت منها هذا الأمر؟ وهل تزوجتها زواجًا رسميًا؟ فإن من يؤوِ أرملة أو كلبًا ضالاً يكن هو صاحب الحق فيما يؤوى! وعليك أن تعى هذه الحقيقة جيدًا وتغرب عن وجهى، وإلا فلا تلمنى على ما سيكون منى تجاهك!".

فرفع جدى مسدسه، واستعد أعضاء التنظيم بأسلحتهم اللامعة، وما إن رأى جدى هؤلاء الرجال وقد بدأوا فى تلاوة التعاويذ، حتى راح يفكر فى نفسه قائلاً: فلتكن رأس مقابل رأس!

وفى تلك الأثناء خرجت عليهم جدتى، وهى تبتسم ابتسامة باردة، وهنا أنزل جدى مسدسه إلى جانبه.

وتقدمت جدتى، وهى تحتضن أبى ووقفت على درجة سلم حجرى، وقد لفتها أشعة الشمس حتى بدا جسدها يبرق أمامه. ورأى شعرها المرسل اللامع، ووجهها المتورد، وعينيها الصافيتين البراقتين، وملامحها اللطيفة والمثيرة للكره الشديد.

راح جدى يعض على أسنانه ويسبها: "أيتها العاهرة!".

فردت عليه جدتى بسوء أدب واضح: "أيها الحمار! أيها الخنزير! أيها الوضيع! إنك فقط تصلح لمضاجعة الخادمات!".

فرفع جدى مسدسه.

فقالت جدتى: "فلتطلق النار إذا! فلتقتلنى! ولتقتل ابنى!".

وهنا سمع جدى صوت أبى يناديه: "أبى بالتبنى!".

فأنزل جدى مسدسه للمرة الثانية.

ومضى يتذكر ظهر ذلك اليوم الذى جمعه وإياها داخل حقول الذرة الخضراء، وذلك البغل الأسود الذى غاص فى الوحل خارج النافذة، وهذا الجسد الغض عندما يرتمى فى أحضان أبى شامة.

فقال جدى: "يا أبا شامة، إذا فلتكن بيننا المواجهة رجلاً لرجل، مجردين من أية أسلحة، ولتكن معركة حياة أو موت - وسأنتظرك عند حافة النهر خارج حدود القرية.

وأعاد جدى مسدسه إلى الجراب المربوط حول خصره، وشق طريقه بين أعضاء التنظيم الذين وقفوا أمامه شاردين، ثم نظر إلى أبى دون أن ينظر إلى جدتى، ومضى مسرعًا إلى خارج حدود القرية.

وما إن وصل جدى إلى شاطئ نهر يان شوى، حتى خلع سترته القطنية وألقى بمسدسه الماوزر، وشد حزامه جيدًا، ووقف ينتظر مجىء أبى شامة، كان يعلم أنه حتمًا سيأتى للقائه.

بدت مياه نهر يان شوى آنذاك صافية انعكست داخلها أشعة الشمس، وبدت الأعشاب القصيرة داخلها منتصبة وواضحة.

وجاء أبو شامة.

وجاءت أيضًا جدتى، وهى تحمل أبى بين يديها، وقد بــدت نظراتهــا غريبة جدًا.

وجاء أيضًا جميع أعضاء التنظيم الذى يتزعمه أبو شامة.

وسأل أبو شامة: "هل تفضل القتال المهذب أم القتال العشوائى؟".

فسأله جــدى: " وكيــف يكــون القتــال المهــذب؟ وكيــف يكــون القتال العشوائى؟".

فأجاب أبو شامة: "القتال المهذب هو أن تضربنى ثلاث ضربات، ثــم أضربك ثلاثًا، أما القتال العشوائى، فهو أن نتقاتــل بــشكل عــشوائى دون الالتزام بقواعد محددة!".

ففكر جدى قليلاً، ثم أجابه قائلاً: "فليكن القتال المهذب!".

فقال أبو شامة، وقد بدا عليه أنه مستعد تمامًا لهذا النوع مــن القتــال: "هل سأبدأ بمهاجمتك أم أنك الذى ستبدأ؟".

فقال جدى: "فلنحتكم إلى السماء، وليكن الاقتراع من خلال الأعشاب، وسيبدأ الذى يختار العشبة الأطول!".

فسأله أبو شامة:" ومن الذى سيحكم هذا الاقتراع؟".

فقامت جدتى بوضع أبــى علــى الأرض، ثــم قالــت: "أنــا الــذى سأتولى ذلك".

فأخذت جدتى بزوج من الأعشاب الجافة ووضعتهما خلــف ظهرهــا، ثم قدمت يديها إلى الأمام، وقالت: "فلتختارا!".

ونظرت إلى جدى نظرة خاطفة، فبدأ جدى بالاختيار، ففتحت يدها لتظهر العشبة التى اختارها جدى.

وقالت جدتى: "لقد اخترت العشبة الأطول، ولتبدأ أنت بضربه ثلاث ضربات!".

فأحكم جدى قبضته جيدًا وضرب أبا شامة فى بطنه. فصاح أبو شامة بصوت مرتفع.

وأفاق أبو شامة قليلاً، ونصب بطنه ثانية، وراح ينتظر الضربة الثانية، وهو يرمى جدى بنظرات قاتلة.

ثم نزل عليه جدى باللكمة الثانية فى معدتِهِ.

فتراجع أبو شامة خطوة إلى الخلف.

أما اللكمة الثالثة والأخيرة، فقد استعد لها جدى جيدًا، ونزل بكل ما أوتى من قوة على صدر أبى شامة.

فتراجع أبو شامة خطوتين إلى الخلف، وبدا وجهه شاحبًا، وأمسك بصدره وراح يسعل قليلاً، وبصق دمًا.

ثم راح أبو شامة يمسح فمه من بقايا الدم، وهو يهز رأسه أمام جدى، وجمع جدى أنفاسه جيدًا فى انتظار رد أبى شامة.

رفع أبو شامة قبضته الكبيرة فى حجم حافر الحصان، ورفع يده حتى هم أن ينزل بها على جسد جدى، ثم استعادها مرة ثانية.

وقال أبو شامة: "سأعفيك من هذه اللكمة لأجل السماء!".

ثم لوح أبو شامة بيده ثانية مستعدًا للكمة الثانية، ثم قال: "وسأعفيك أيضًا من هذه اللكمة لأجل الأرض!".

أما اللكمة الثالثة التى نزل بها أبو شامة على جدى، فقد تقلب على إثرها فى السماء مثل كتلة من الطين، ثم سقط على الأرض الصلبة.

نهض جدى بصعوبة، وراح يرفع سترته ومسدسه، وقد تصبب وجهه عرقًا.

وقال: "فلنلتق بعد عشر سنوات".

وانتبه جدى إلى قطعة من لحاء الشجر تعوم فوق سطح مياه النهر، فأطلق عليها تسع رصاصات متتالية، حتى تحولت إلى قطع صغيرة جدًا، ثم أعاد المسدس إلى خصره، ومضى فى طريقه مترنحًا إلى البرية المالحة. وانعكست أشعة الشمس على كتفه العارى وعلى ظهره المنحنى، حتى بدا جسده لامعًا مثل البرونز.

وراح أبو شامة ينظر إلى قطع لحاء الشجر التى ملأت سطح المياه، ثم بصق دمًا، وجلس على الأرض.

وحملت جدتى أبى وراحت تنادى على جدى، وهى تبكى قائلة: "يا جان آو...". ثم راحت تجرى وراءه متعثرة الخطى.

(٩)

دوت أصوات الرشاشات خلف حافة نهر موا شوى لمدة ثلاث دقائق، ثم شهدت بعد فترة توقف قصيرة تجمع رجال فريق جياو قاو الذين كانوا يصيحون منذ قليل أن استغلوا فرصة الانتصار وواصلوا القتال، تجمع هؤلاء

وسقطوا وسط الطريق ووسط حقول الذرة الجافة، أما أعضاء التنظيم التابعون لجدى الذين كانوا فى مواجهة أفراد فريق جياو قاو، والذين استعدوا للاستسلام، فقد بدوا مثل أعواد الذرة المكسورة، كان من بينهم أعضاء قدامى انضموا إلى التنظيم منذ ما يزيد على عشرة أعوام متأثرين بخداع أبى شامة لهم، ومن بينهم أعضاء جدد انضموا إلى التنظيم منذ وقت قريب متأثرين فى ذلك بسمعة جدى وبطولاته، أما ما ظهر عليهم جميعًا من الصلعات وأكل حبوب الذرة دون طهيها، وذلك الإله الحديدى الذى يحميهم، وحوافر البغال ومخالب القرود وعظام الدجاج وغيرها من الأشياء الغريبة، فإن ذلك كله لم يستطع أن يحميهم من الطلقات النارية الفتاكة التى أصابتهم من تلك الرشاشات التى حطمت فقراتهم وعظامهم تحطيمًا، واخترقت صدورهم وبطونهم، واختلطت أجساد أعضاء التنظيم بأجساد أفراد فريق جياو قاو الملطخة بالدماء، واختلطت دماء أفراد جياو قاو الحمراء بدماء أعضاء التنظيم الخضراء مكونة بركًا من الدماء البنفسجية، خضبت الحقول والأرض التى افترشتها تلك الأجساد، حيث أصبحت تلك الأماكن بعد عدة سنوات من أخصب الأراضى فى المنطقة؛ إذ كانت محاصيل الذرة الرفيعة التى تزرع فى تلك الأماكن تنمو بشكل سريع، وذات سيقان براقة وتتمتع بصفات تميزها عن غيرها من الذرة فى الأماكن الأخرى، وكأنها كانت تتمتع بقدرات خارقة على التخصيب والنمو.

وهكذا، وقعت معركة حامية بين فريق جياو قاو وأعضاء التنظيم الذى يتبع جدى، إلا أن هذين الخصمين العنيدين تحولا فى لمح البصر إلى رفقاء حرب بينهما خطوط مناوشات، وقد كانوا إما أن يحيوا معًا أو يموتوا معًا يجمعهم مصير واحد، وقد اجتمع القائد جيانغ قائد فريق جياو قاو المصاب فى قدمه مع جدى قائد التنظيم المصاب فى ذراعه، وعندما كان جدى يضع رأسه بالقرب من قدم القائد جيانغ الملفوفة بالشاش، كان قد اكتشف أن قدمه ليست على ذلك النحو من الصغر، وشم جدى رائحة الدماء التى تنزف من جرحه تحت الشاش.

ثم دوى صوت الرشاشات خلف حافة النهر من جديد، وكانت الطلقات النارية تأتى فى اتجاه عرض الطريق وداخل حقول الذرة، وقد خلفت وراءها كميات كبيرة من الأتربة التى ملأت المكان، وامتزج صوت القذائف المدوية التى تضرب الأرض مع صوت ضربها للأجساد حتى بدا الصوت مرعبًا، وقد ود أعضاء فريق جياو قاو والجماعة الحديدية لو اختفوا تحت الأرض من شدة ذلك الصوت.

وتغيرت معالم الأرض المحيطة بموقع المعركة، وأصبحت الأرض منبسطة، وقد خلت من جميع الأشياء التى كانت تغطى سطحها، وبدت الطلقات النارية الكثيفة كما لو كانت مجرفة تجرف كل ما يعترض طريقها.

ثم خيمت على المكان فترة راحة، سمع جدى خلالها صوت القائد جيانغ يصيح قائلاً: "القذائف اليدوية!".

ثم ارتفع صوت دوى الرشاشات من جديد، وخمد الصوت بعد لحظات قليلة، وقام أعضاء فريق جياو قاو الماهرون فى استخدام القذائف اليدوية بإلقاء ما يزيد على عشر قذائف خلف حافة النهر، سمعوا بعدها أصوات نحيب هؤلاء الأبطال المختفين هناك، وتطاير إلى خلف حافة النهر ذراع شخص ملفوف بقطعة قماش رمادية، ورأى جدى أصابع ذلك الذراع القصير وكأنها تبعث إلى القائد جيانغ برسالة تقول: "إنه القائد لينغ ماتزه! إنه ذلك الكلب لينغ ماتزه".

ثم قام أعضاء فريق جياو قاو بإلقاء دفعة ثانية من القذائف اليدوية، ملأ صوت انفجارها جميع أرجاء المكان، وتناثرت كميات كبيرة من الضباب خلف حافة النهر، وتقدم سبعة أو ثمانية من أعضاء الفريق بشجاعة إلى حافة النهر حاملين الرشاشات، وما إن تقدموا إلى الأمام، تلقوا سيلاً من الطلقات النارية أردتهم ما بين قتيل وجريح.

وصاح القائد جيانغ: "انسحبوا!"

وقام أعضاء فريق جياو قاو بإلقاء دفعة ثالثة من القذائف اليدوية، وما إن دوى صوت الانفجار حتى راح بعض الأفراد يحاولون الفرار ناحية الشمال. قام اثنان من أعضاء الفريق بمساعدة القائد جيانغ ليلحق بأعضاء الفريق الذين بدأوا الانسحاب من مسرح المعركة، بينما كان جدى لا يزال منبطحًا على الأرض لا يتحرك، كان قد أحس بخطورة الفرار والانسحاب فى تلك اللحظة، كان يرغب فى الفرار، ولكنه كان على ثقة بأن ذلك التوقيت ليس توقيتًا مناسبًا للفرار من أرض المعركة. وانضم عدد من أعضاء الجماعة الحديدية لأعضاء فريق جياو قاو الذين فروا من أرض المعركة، بينما بقى عدد آخر إلى جانب جدى وقد بدوا مترددين، فراح جدى يخاطبهم بصوت خفيض: "اثبتوا فى أماكنكم...".

وامتلأ المكان بالدخان الكثيف، وعلت أصوات معاناة الجرحى خلف حافة النهر، وسمع جدى صوتًا يعرفه جيدًا يصيح متألمًا: "اضربوهم بالرشاشات، اضربوهم بالرشاشات!"وما إن تيقن جدى من صوت القائد لينغ ماتزه حتى علت وجهه ابتسامة يائسة.

اصطحب جدى أبى معه وانضما للجماعة الحديدية، ووفقًا لقواعد الجماعة، فقد قاما فى مساء ذلك اليوم بحلق الشعر الذى يعلو جبهتهما علامة على كونهما من أفراد الجماعة الحديدية، وعندما كانا يقومان بالسجود أمام ذلك العجوز الذى يركب فوق النمر، انتبه جدى آنذاك إلى آثار إصابة طلق نارى فى وجه ذلك العجوز، فراح جدى يبتسم ابتسامة أخفاها عن الحضور. وقام أبى أيضًا بحلق شعر رأسه، وما إن رأى المقص الأسود فى يد أبى شامة حتى شعر برعشة شديدة سرت فى جسده، لا يزال يذكر ذلك الموقف

الذى مر عليه أكثر من عشر سنوات كما لو كان ليلة البارحة. وبعد أن تم حلق شعر رأس أبى، قام السيد أبو شامة بفرك صلعة أبى بتلك الأشياء الغريبة من أقدام القرود وحوافر البغال وعظام الدجاج، وبعد انتهاء مراسم الانضمام للجماعة الحديدية، شعر أبى بأن جسده قد أصبح فى غاية الصلابة، وكأن أعضاءه جميعها قد أصبحت أعضاء حديدية.

ورحب أعضاء الجماعة الحديدية بجدى ترحيبًا حارًا، وقد راحوا يلحون على أبى أن يلقى على مسامعهم بعضًا من بطولات جدى خلال المعركة التى دارت عند نهر موا شوى. وبتشجيع من وو لوان تزه، استطاع أعضاء الجماعة الحديدية أن يتحدوا معًا ويطالبوا السيد أبا شامة بالاعتراف بجدى نائبًا لرئيس الجماعة الحديدية.

وبعد أن تم الاعتراف بجدى نائبًا لرئيس الجماعة، راح وو لوان تزه يحفز أعضاء الجماعة على القتال والوقوف أمام الشياطين اليابانيين، وقال لقد أمضينا وقتًا طويلاً فى تجهيز هذا الجيش الكبير، وها هو النفوذ اليابانى يزداد، وقد تعرضت البلاد والعباد للدمار الشديد على أيدى الغزاة اليابانيين، وإلى متى ينتظر أفراد هذه الجماعة الحديدية المدربون على فنون القتال حتى يقفوا أمام الغزاة؟ وكان عدد كبير من أفراد الجماعة الحديدية شبابًا ذوى حماس شديد، كانوا يكرهون اليابانيين كرهًا شديدًا، وما إن استمعوا إلى تشجيع وو لوان تزه حتى زادت رغبتهم فى النزول لأرض المعركة ومواجهة اليابانيين وتقديم مهاراتهم الفائقة فى فنون القتال. وقد وجد السيد أبو شامة نفسه مضطرًا لموافقتهم على ما توصلوا إليه معًا. وراح جدى يسأل وو لوان تزه خلسة: هل أنت واثق من قدرة مهاراتهم على التصدى للطلقات النارية التى يمتلكها اليابانيون؟ فضحك وو لوان تزه ضحكة ماكرة، ولم يعطه أية إجابة على سؤاله.

كانت أول معركة تشارك فيها قوات الجماعة الحديدية معركة متواضعة، كانوا قد اشتبكوا مع فريق قاو يينغ التابع لسرية جانغ جو شى الموالية للقوات اليابانية، فعندما همت قوات الجماعة الحديدية أن تباغت مواقع مدافع سرية جانغ، صادف ذلك عودة فريق قاو يينغ الذى كان قد خرج لسرقة كميات من الحبوب الغذائية، وعندها التقى الفريقان عند ناصية الطريق فى معركةٍ متواضعة، وكانت قوات فريق قاو يينغ تتألف مما يزيد على ستين رجلاً، وكانوا يرتدون زيًا عسكريًا مشمشى اللون، وقد ظهروا وهم مسلحون بالبنادق والذخيرة، وكانوا يسوقون عشرات البغال والحمير المحملة بالحبوب الغذائية التى استولوا عليها، بينما ظهرت قوات الجماعة الحديدية فى لباس أسود وهم يحملون الخناجر، فيما عدا ما يزيد على عشرة أفراد منهم كانوا يحملون المسدسات.

وسأل أحد زعماء قوات قاو يينغ كان ممتلئ الجسم، وهو أعلى فرسه: "وإلى أى جماعة تنتمون؟"

فمد جدى يده إلى خصره حيث موضع مسدسه، وما إن استل مسدسه حتى راح يصيح بصوت مرتفع: "إننا من تلك الجماعة المكلفة بقتل الخونة!"

وهنا سقط الزعيم السمين من على فرسه، وقد غرق فى دمائه.

وراح أعضاء الجماعة الحديدية يصيحون فى صوت واحد: "آه ما لا آه ما لا"، ثم انقضوا يتقدمون إلى الأمام بجرأة كبيرة، بينما راحت البغال والحمير المحملة بالحبوب تتصارع محاولة الفرار من أمامهم، وتبعها فى ذلك هؤلاء الخونة الذين بدأوا يحاولون الهرب والنجاة بأنفسهم، وعندها تعرضوا لخناجر أفراد الجماعة الحديدية الذين تمكنوا من السيطرة عليهم تمامًا.

وعندما فر الخونة إلى مسافة قريبة من أفراد الجماعة الحديدية، بدأوا يدركون أنهم قد وقعوا فى قبضة أفراد الجماعة الحديدية فتجمعوا معا وأشهروا أسلحتهم، وهنا انقض أفراد الجماعة الحديدية عليهم وهم يرمونهم بسيل من اللعنات.

وصاح جدى بصوت مرتفع: "تفرقوا – احنوا ظهوركم –"

وقد طغت أصوات لعنات أفراد العصابة الحديدية على صوت صياح جدى ومناداته عليهم، وتجمعوا معًا ومضوا يتقدمون إلى الأمام لملاقاة الخونة.

أطلق الخونة عددًا من الطلقات النارية سقط على إثرها عدد من أفراد الجماعة الحديدية، وامتلأت الأرض بدمائهم، وارتفعت أصوات صراخ وتأوه المصابين منهم.

وهنا شعر أفراد الجماعة الحديدية بذهول شديد من هول ما أصابهم، فأطلق الخونة عددًا من الطلقات النارية، حتى تمكنوا من إصابة عدد أكبر من أفراد الجماعة الحديدية.

راح جدى يصيح بأعلى صوته: "تفرقوا – انبطحوا أرضًا –"

فتقدم الخونة إلى الأمام وهم لا يتوقفون عن إطلاق النيران، فانحنى جدى ومد يده إلى مسدسه ودس بداخله عددًا من الطلقات النارية، فرفع أبو شامة نصف جسده وراح يصيح فى رجاله غاضبًا: "انهضوا، ارفعوا أصواتكم بنشيد الجماعة، ولتقفوا معًا يا من تملكون الرءوس الحديدية والأذرع الحديدية والقلوب الحديدية أمام الطلقات النارية التى لا يمكنها أن تصيب السيد الذى يركب فوق ظهر النمر..".

وهنا طارت رصاصة من أعلى رأس السيد أبى شامة زعيم العصابة الحديدية، فألقى بنفسه أرضًا مثل الكلب الجبان، وبدا وجهه شاحبًا.

ضحك جدى ضحكة فاترة، وانحنى قليلاً ومد يده واستل مسدس السيد أبى شامة، ثم نادى على أبى قائلاً: "يا دوو قوان!".

فقفز أبى على الفور أمامه وأجابه: "نعم يا والدى، إننى هنا!".

فقدم جدى مسدس الزعيم أبى شامة إلى أبى، ثم قال: "اجمع نفسك جيدًا والتزم الصمت وعدم الحركة، ولا تطلق النيران حتى يقتربوا منا".

ثم صاح جدى بصوت مرتفع: "فليستعد كل من يحمل السلاح، ولتبدأوا فى إطلاق النيران فور اقترابهم منا!".

وهنا تقدمت قوات الخونة إلى الأمام بجرأة واضحة.

ومضوا يتقدمون من تجاه جدى حتى أصبحوا على بعد خمسين مترًا، ثم أربعين مترًا، ثم عشرين مترًا، ثم عشرة أمتار، ومضوا يتقدمون حتى استطاع أبى أن يرى بوضوح أسنانهم الصفراء.

قفز جدى قفزة إلى الأمام، وراح يلوح بيده اليمنى نحو اليمين ويده اليسرى نحو اليسار، حتى تمكن من إصابة سبعة أو ثمانية من جيش الخونة، تمكن أبى والشاب وو لوان تزه من إصابة أهدافهما بنجاح كبير، وهنا انسحب أفراد جيش الخونة ولاذوا بالفرار من أمام جدى ورفاقه، لاحقهم جدى ورفاقه وأمطروهم بوابل من الطلقات النارية، حيث إنهم لم يكتفوا بمسدساتهم التى كانوا يحملونها معهم، فراحوا يجمعون البنادق التى سقطت من أفراد جيش الخونة.

وهكذا، عضدت تلك المعركة المتواضعة من مكانة جدى وزعامته بين أفراد الجماعة الحديدية، كما أن مقتل العشرات من أفراد الجماعة قد أدى إلى كشف النقاب عن عدم جدوى تلك المعتقدات السخيفة التى ينادى بها الزعيم أبو شامة. ومنذ ذلك الحين بدأ أفراد الجماعة يمتنعون عن الالتزام بالقيام بالطقوس اليومية التى كان أبو شامة يجبرهم على الالتزام بها، وبدأوا يعلنون حاجتهم إلى السلاح، نعم السلاح ليس غيره، وأن تلك القوى الخارقة، والسحر الذى كان ينادى به أبو شامة، لا يمكنهما أن يقفا فى وجه مجموعة صغيرة من الأسلحة.

استخدم جدى وأبى حيلة ارتداء الملابس العسكرية المزيفة واندسا وسط فريق جياو قاو، واستطاعا فى وضح النهار أن يخطفا القائد جيانغ قائد فريق جياو قاو، ثم استخدم طريقة الانتقال الخادع إلى معسكر فريق القائد لينغ ماتزه، حتى تمكنا من اختطاف القائد لينغ ماتزه نفسه مطالبين فريقه بفدية.

وهكذا، استطاعا أن يحصلا على كمية كبيرة جدًا من الأسلحة والذخيرة والخيول مقابل هاتين الرهينتين، كما ساعدت هذه الحيلة على توطيد مكانة جدى وسط أفراد الجماعة الحديدية، حتى أصبح الزعيم أبو شامة زعيمًا لا فائدة منه فى هذه الجماعة، الأمر الذى جعل الشاب وو لوان تزه يفكر أكثر من مرة فى التخلص منه، ولكن جدى كان يمنعه من تحقيق رغبته.

وبعد حادثة الاختطاف، ازداد نفوذ الجماعة الحديدية فى محيط قرية دونغ بيى بمدينة قاو مى، بينما توارى فريق جياو قاو وفريق لينغ ماتزه عن الأنظار، وكأن الساحة قد أفرغت تمامًا أمام الجماعة الحديدية، والسلام قد عم جميع أرجاء المنطقة، وهنا بدأت تلح على جدى فكرة إقامة جنازة كبيرة لتأبين جدتى، ثم بدأ بعد ذلك يمضى فى طريقه إلى جمع الأموال والقتل والسلب والنهب، حتى التصقت هذه الأعمال بسمعة عائلة يو التى يمثلها جدى، الأمر الذى زاد الطين بلة، كما أن جدى كان قد نسى تمامًا تلك المقولة البسيطة التى تقول بأنه ما طار طير وارتفع إلا كما طار وقع، وهكذا كانت تلك الجنازة المهيبة التى أقامها لتأبين جدتى من أكبر الأخطاء التى ارتكبها فى تلك الفترة من حياته.

دوت أصوات الرشاشات من جديد خلف حافة النهر، واستوضح جدى أن هذا الصوت مصدره زوج من الرشاشات الآلية، وأن بقية الرشاشات الأخرى قد تعرضت للتدمير الكامل بفعل القذائف اليدوية التى ألقت بها قوات

فريق جياو قاو، وتمكنت الطلقات النارية التى خرجت من هذين الرشاشين من تطويق أفراد فريق جياو قاو الذين فروا على بعد ما يزيد على مائة متر من حافة النهر، كما طوقت أيضًا أفراد الجماعة الحديدية الذين اندسوا وسط أفراد فريق جياو قاو، ومضى جدى يفكر فى أن القائد الماكر لينغ ماتزه لن يتقدم لرد هجماته بهذه البساطة، وأنه قرر أن يطلق فقط زوجًا من الرشاشات لإحداث بعض الفوضى أمام العدو.

ورأى جدى جسدًا نحيفًا ملطخًا بالدماء بين أفراد فريق جياو قاو الذين كان يزيد عددهم عن عشرة أفراد، رآه يزحف ببطء شديد محاولاً الصعود إلى حافة النهر، كان الرجل يزحف ببطء ملحوظ أبطأ كثيرًا من حركة دودة القز ودودة الأرض والحلزون، ورأى جسده ينزف مع كل حركة كميات كبيرة من الدماء، وكأنه قد تم تقطيعه إلى قطع منفصلة عن بعضها البعض، وهنا عرف جدى على الفور أن هذا الشخص الماثل أمامه هو أحد الأبطال الشجعان وأحد الرجال الذين يمثلون شجاعة وشهامة قرية دونغ بيى. وما إن تمكن ذلك الرجل من أفراد فريق جياو قاو من الصعود إلى منتصف حافة النهر حتى توقف عن مواصلة الزحف إلى أعلى، ومضى جدى يتابعه وهو يميل بجسده بصعوبة ملحوظة، ثم مد يده إلى خصره وأخرج قذيفة يدوية ملطخة بالدماء وكأنه قد أخرج من بطنه جنينًا صغيرًا، قرب القذيفة إلى فمه ليفتح فوهتها، ثم شد فتيلها بأسنانه، ألقى بنفسه على الأعشاب الخضراء على حافة النهر، وانتشر دخان القذيفة على حافة النهر، ثم إلى خارج حدود حافة النهر.

وهنا ندم جدى ندمًا شديدًا، فكان يجب عليه ألا يبدى ما أبداه من رقة القلب والتعاطف الشديد، ففى اليوم الذى تمكن فيه جدى من اختطاف لينغ ماتزه رهينة، طلب منه فقط مائة بندقية وخمسة رشاشات وخمسين رأسًا

من الخيول. كان عليه منذ بداية الأمر أن يطلب الرشاشات الثمانية التي يمتلكها القائد لينغ ماتزه، ولكنه كان قد نسى أمر هذه الرشاشات، أو لنقل إنه كان يشعر آنذاك أن هذه الرشاشات ليست ذات قيمة كبيرة، حيث إن الفترة الطويلة التي قضاها كقاطع طريق جعلته يعترف فقط بقيمة المسدسات وينكر قيمة البنادق والرشاشات، وأنه لو كان قد أدرج الرشاشات الثمانية في طلبه لإطلاق سراح لينغ ماتزه، لما كان قد تعرض لهذا المأزق الشديد الذى أوقعه فيه لينغ ماتزه.

وعندما سقط ذلك الرجل الجريح من أفراد فريق جياو قاو على الأعشاب الخضراء على حافة النهر، كان قد ألقى بالقذيفة التى كانت فى يده، فحدث صوت انفجار على حافة النهر، وتطايرت الرشاشات إلى أعلى ثم سقطت ثانية. وسقط ذلك الرجل الذى ألقى بالقذيفة مغشيًا عليه، رأى جدى الدماء تسيل من جسده بصورة مستمرة، حتى شعر تجاهه بالشفقة.

وهكذا، فرغت جميع الرشاشات التى يمتلكها القائد لينغ ماتزه. فراح جدى ينادى على أبى بصوت مرتفع: "يا دوو قوان!".

كان أبى لا يزال محاصرًا بجثتين ثقيلتين، كانتا تطبقان عليه بشدة حتى كاد يدرك أنه قد أشرف على الموت، بدا جسده ملطخاً بالدماء، ولم يكد يعرف هل هذه الدماء الكثيفة مصدرها هاتان الجثتان أو أنها تسيل من جسده هو، وهنا سمع أبى صوت جدى ينادى عليه، فرفع رأسه من أسفل الجثتين وراح يرفع ذراعه ليمسح الدماء التى ملأت وجهه، ثم قال وهو يتنهد: "نعم يا أبى، إننى هنا..".

خرج أفراد فريق لينغ ماتزه من خلف حافة النهر حاملين السلاح، وكأنهم مثل نباتات عيش الغراب التى أصبح أكثر حيوية عقب نزول

الأمطار، ومضوا يتقدمون إلى الأمام حاملين السلاح، وقد قابلهم أفراد فريق جياو قاو بإطلاق النيران على بعد مائة متر، أبلوا بلاء حسناً فـي إطـلاق النيران بواسطة الرشاشات التى حصلوا عليها من فريق الخيول الذى يقـوده وو لوان تزه، وهنا بدأ رجال لينغ ماتزه ينسحبون من أمامهم مثل السلاحف.

وتقدم جدى وراح يزيح الجثتين ليفسح الطريق أمـام أبـى ليخـرج من أسفلهما.

وسأل جدى: "هل جرحت يا صغيرى؟".

فراح أبى يحرك يديه وقدميه قليلاً ثم أجاب: "لا يا أبى، وهذا الجـرح الذى يظهر فى ذراعى هو جرح قد أصابنى منذ قليل من قبل أفـراد قـوات جيش يا لو".

فقال جدى: "أيها الرفاق، فلتنجوا بحياتكم!".

نهض ما يزيد على عشرين رجلاً من أفراد الجماعة الحديدية، ظهرت عليهم آثار دماء، نهضوا ممسكين بأسلحتهم وساروا جهة الشمال، ولم يقـم أفراد فريق جياو قاو بإطلاق النيران عليهم، فى حين أطلق أفراد فريق القائد لينغ ماتزه بعض الطلقات النارية، ولكن جميع الطلقات أطلقت فى الهواء ولم تصوب تجاه هؤلاء الأفراد المنسحبين.

ثم جاءت طلقة من الخلف، فشعر جدى أن رقبته قد تعرضت لـصفعة قوية من الخلف، وشعر بسخونة شديدة فى تلك المنطقة من جسده، فمد جدى يده يتحسس تلك السخونة، فإذا بيده تمتلئ بالدماء الطازجة، ثم نظـر جـدى نظرة إلى الخلف، فإذا به يرى الزعيم أبا شامة يقبع فى مكانه مثل الضفدع، وقد ظهرت على وجهه دمعتان ذهبيتان، فابتسم إليه جدى ابتسامة خفيفة ثـم هز إليه رأسه، ثم سحب جدى أبى وغادرا المكان بخطوات بطيئة.

دوى صوت طلقة نارية خلف ظهريهما.

فتنهد جدى تنهيدة طويلة، وراح أبى ينظر إلى الخلف، فإذا به يرى فتحة سوداء صغيرة تظهر على جبين أبى شامة، وقد سال على وجهه خيط سائل أبيض اللون.

وفى أصيل ذلك اليوم، تمكنت قوات القائد لينغ ماتزه من محاصرة أفراد فريق جياو قاو وأفراد الجماعة الحديدية اللذين يتزعمهم جدى داخل المكان المعد لإقامة جنازة جدتى، وراح الفريقان اللذان أطلقا جميع الذخيرة التى كانت بحوزتهما، راحا يحدقان النظر إلى فريق تشى جونغ التابع لفريق لينغ ماتزه، والذى كان يقترب منهما شيئاً فشيئا. وعند غروب الشمس، لف المكان حزن شديد، وامتلأت الأرض بعدد كبير من أبناء وبنات قرية دونغ بيى بمدينة قاو مى، الذين تربوا على حبوب الذرة الرفيعة الحمراء، وقد سالت دماؤهم فى جدول مضى يسير ليصب فى مجرى النهر الكبير. جذبت رائحة تلك الدماء الطازجة جماعات الغربان، التى نسيت العودة إلى أعشاشها وبدأت تحلق فوق تلك الدماء، وحلق معظم تلك الغربان أعلى جثث الخيول التى ملأت المكان، وبدت جماعات الغربان وكأنها مجموعة من الأطفال الذين يتلهفون على أكل طعام لذيذ جذاب.

وبرز تابوت جدتى من تحت المظلة الكبيرة التى كانت تحجبه عن الأعين، وقد ظهرت بعض الفتحات الصغيرة فى جسم التابوت، وكانت عبارة عن آثار لطلقات نارية أصابت التابوت، كان ذلك التابوت قبل ساعات قليلة عبارة عن حاجز مهم خلال المعركة التى دارت بين جيش با لو والجماعة الحديدية من جهة وفريق لينغ ماتزه من جهة أخرى. امتلأت خيام الحداد الممتدة على جانبى الطريق بلحوم الدجاج والبط والأغنام والخنازير. وخلال المعركة، كانت قوات جيش با لو تواصل القتال، وهى تتغذى بتلك اللحوم المعدة لهذه الجنازة المهيبة.

وتقدم عدد من فريق جياو قاو إلى الأمام حاملين الخناجر، فتعرضوا لوابل من الطلقات النارية من قبل قوات لينغ ماتزه حتى سارعوا بالانبطاح أرضًا.

ورفع القائد لينغ ماتزه سلاحه وراح يصيح بصوت مرتفع: "ارفعوا أيديكم وأعلنوا استسلامكم!".

فراح كل من جدى والقائد جيانغ قائد فريق جياو قاو ينظران إلى بعضهما البعض، ولم ينبس أحدهما ببنت شفة، ولكنهما رفعا أيديهما لأعلى فى توقيت واحد.

تبعهما فى ذلك هؤلاء الأفراد المتبقون من فريق جياو قاو والجماعة الحديدية.

وتقدم إليهم القائد لينغ ماتزه الذى كان يرتدى قفازًا أبيض اللون، أحاط به بعض من رجاله لحراسته، وراح الرجل يضحك بصوت مسموع وهو يقول: "أيها القائد يو، أيها القائد جيانغ، لقد التقينا من جديد، فما الذى يدور ببالكما الآن أيها البطلان؟".

فقال جدى بلهجة حزينة: "إنه الندم!".

وقال القائد جيانغ: "أما أنا فأريد أن أقدم تقريرًا للقيادة فى يان آن حول جريمة قيام الحزب الوطنى بتدمير الوحدة القومية لحرب المقاومة ضد اليابان!".

قام القائد لينغ ماتزه بضرب القائد جيانغ بالسوط، ثم راح يسبه قائلاً: "اللعنة عليك أيها القائد من جيش با لو، إن كلامك أشد صلابة من عظامك!".

ولوح القائد لينغ بيده إلى رجاله أن "خذوه للحبس داخل القرية!".

كانت قوات فريق لينغ ماتزه قد قضت تلك الليلة داخل قريتنا، قاموا بحبس أفراد فريق جياو قاو وأفراد الجماعة الحديدية داخل إحدى الخيام،

وقام اثنا عشر رجلاً من فريق لينغ ماتزه الذين يحملون الرشاشات الملونة بمحاصرة الخيمة، ولأجل الحفاظ على أرواح جميع من كانوا بداخل الخيمة، لم يقم أى منهم بأية حركة تثير غضب هؤلاء الحراس المسلحين بالرشاشات، هذا ولم تتوقف طوال تلك الليلة تأوهات الجرحى وأصوات بكاء الشباب الذين اشتاقوا إلى أمهاتهم وزوجاتهم ومحبوباتهم. وقد ارتمى أبى فى حضن والده مثل العصفور الجريح المسكين، وراح يستمع إلى دقات قلب جدى التى بدت سريعة حيناً وبطيئة حيناً، وكأنه كان يستمع إلى صوت موسيقى رنان. وأخيرًا استطاع أبى أن يستسلم للنوم تحت تأثير الرياح الجنوبية الحانية. ورأى فى منامه سيدة تشبه جدتى وتشبه فى الوقت ذاته الفتاة تشينغ إر، راحت تلك السيدة تداعب بلطف جرحه حول عضوه التناسلى، وسرت فى جسده رعشة شديدة... فأفاق أبى من نومه فجأة، وبدا كمن فقد شيئاً غاليًا، وسمع صوت ولولة أحياء وأموات يملأ الخلاء الفسيح. وهنا راح يتذكر ذلك المشهد الذى رآه فى منامه، وشعر بدهشة وخوف شديد، ولم يجرؤ أن يخبر جدى بما يحدث معه، فجلس فى هدوء شديد، وراح ينظر إلى درب التبانة من خلال فتحة الخيمة. ثم تذكر فجأة أنه سوف يبلغ عما قريب السادسة عشرة من عمره!

وبعد طلوع الصبح، قام رجال فريق لينغ ماتزه بهدم الخيام التى نصبوها ليلة البارحة، وحصلوا على عدد من الحبال الطويلة، وقاموا بربط الأسرى فى مجموعات، تكونت كل مجموعة من خمسة أفراد فى حبل واحد، وقادوا أسراهم إلى شجرة الصفصاف جانب الخليج التى كان أفراد الجماعة الحديدية يربطون خيولهم عندها ليلة البارحة، وقد ربطوا القائد جيانغ وجدى وأبى معًا، وجعلوهم فى الجزء الأمامى من الشجرة، كان أبى فى المقدمة وجدى فى الوسط ثم القائد جيانغ فى آخر الصف. وكانت قدما أبى تغوصان

فى كميات كبيرة من نفايات الخيول، وتحول جسد ذلك الطبيب وبغله إلى هيكل يخلو من أى قطعة لحم، وكان قبر يو دا يا يظهر هنالك أسفل تلك الشجرة الوحيدة الموجودة فى ذلك المكان، وكانت نباتات النيلوفر لا تزال موجودة فى مكانها، وقد بدت أوراقها واضحة فوق صفحة المياه، وكانت جماعات الضفادع تشق طريقها وسط الطحالب الكثيفة الصفراء التى تملأ الخليج، وما إن عبروا السور الترابى المحيط بالقرية، حتى رأى أبى أن الحقول لا تزال بها بعض الآثار الواضحة لما حدث بالأمس، سقطت أعلام ورايات الجنازة على الطريق، وبدت وكأنها حية ضخمة تم ضربها ضربًا شديدًا حتى سقطت جثة هامدة. وراح ما يزيد على عشرة أفراد من قوات فريق لينغ ماتزه يشقون جثث الخيول بالمعاول والخناجر، وانتشرت على الفور رائحة الدماء فى أرجاء المكان.

سمع أبى صوت تنهيدة عميقة صدرت عن القائد جيانغ، فالتفت إلى الوراء، وفعل جدى مثله، ورأى أبى جدى والقائد جيانغ ينظران نظرات فاحصة فى جميع الاتجاهات، وقد علا وجههما الحزن والتعب الشديد، تدهورت حالة ذراع جدى المصاب، وفاحت منه رائحة عفنة، جذبت جماعات كثيرة من الذباب الذى كان يتكدس حول عظام الطبيب وبغله، كما سقطت تلك اللفافة التى كانت تغطى قدم القائد جيانغ صاحب القدم الصغيرة، وكان ذلك الجرح الذى أحدثه به جدى لا يزال تسيل منه بعض الدماء السوداء.

وانتبه أبى إلى جدى والقائد جيانغ وهما ينظران إلى بعضهما البعض، وكأنهما يريدان أن يتحدثا إلى بعضهما البعض، ولكن لم يحدث ذلك بينهما. فتنهد أبى ثم التفت إلى الوراء، وراح ينظر إلى تلك السهول الفسيحة ذات التربة الطينية، وسمع صوت بكاء تلك الأرواح المظلومة التى لفظت أنفاسها على تلك السهول، واستطاع أبى أن يستمع ويرى بعض رجال فريق القائد

لينغ، وهم ينقلون ويحملون ويرفعون بعض قطع لحوم الخيول المليئة بالدماء إلى حافة الخليج، وقد حلقت فوقهم جماعات من الغربان التى استقرت أعلى شجرة الصفصاف.

بلغ عدد أفراد فريق جياو قاو والجماعة الحديدية الذين تم ربطهم إلى شجرة الصفصاف ما يزيد على ثمانين رجلاً. من بينهم ما يزيد على عشرين رجلاً من أفراد الجماعة الحديدية الذين اختلطوا بأفراد فريق جياو قاو، ورأى أبى رجلاً من أفراد الجماعة الحديدية فوق الأربعين، كان يبكى بصوت مسموع، حيث بدا أن عظامه قد أصيبت بفعل تلك القذائف اليدوية، وقد راح أحد أفراد فريق جياو قاو الذى كان يقف إلى جواره يضرب على كتفه ويواسيه قائلاً: "يا زوج أختى الكبرى! فلتكف عن البكاء، وحتمًا سيأتى اليوم الذى سننتقم فيه من العميل الخائن جانغ جو شى!"، فأدار ذلك الرجل من أفراد الجماعة الحديدية رأسه تجاه كتفه، وراح يمسح وجهه المتسخ بملابسه المتسخة، ثم قال بصوت متشنج: "إننى لا أبكى على أختك الكبرى! فإنها على أية حال قد ماتت ولا فائدة من البكاء عليها، إننى أبكى على حالنا نحن، لقد كنا فى الأصل قرويين لا نفارق أرضنا وديارنا، ولم نكن ننظر إلى أبعد من ذلك أبدًا، فما الذى جاء بنا إلى هذا المكان؟ إننى أبكى على ابن أختك، أبكى على ابنى دا يين تزه، الذى انضم معى للجماعة الحديدية وعمره لا يزيد على الثامنة عشرة، والذى كان فى بداية الأمر يسعى إلى الانتقام لأختك الكبرى، وها هو لم يتمكن من ذلك، بل سقط على أيديكم، نعم لقد قتلتموه بأسلحتكم، وكان قد أعلن استسلامه لكم، وقد رأيته بأم عينى يعلن استسلامه، ولكنكم قتلتموه! آه منكم أيها الكلاب أصحاب القلوب القاسية! أليس لديكم أبناء مثله؟".

جفت دموع ذلك الرجل من أعضاء الجماعة الحديدية القدامى بفعل الغضب الشديد الذى عبر عنه للتو، ثم رفع رأسه وراح يطلق سيلا من الشتائم

على ذلك الرجل من فريق جياو قاو، والذى كان مربوطًا مثلــه بحبــل مــن الخيش، راح يسبه قائلاً: "أيها الحيوانات! فلتذهبوا لقتال اليابــانيين إذا كانــت لديكم الجرأة على القتال! فلتذهبوا لقتال هؤلاء الغزاة ذوى البشرة الــصفراء! وما الفائدة من قتالنا نحن أعضاء الجماعة الحديدية؟ آه منكم أيها الخونــة! آه من هؤلاء الخونة أمثال جانغ بانغ تشانغ وتشين قوى وغيرهما من الخونة..".

"يا زوج أختى الكبرى، يا زوج أختى الكبرى، أرجوك ألا تغــضب". هكذا راح أخو زوجته الذى يعمل جنديًا فى فريق جياو قاو ينــصحه بهــذه الكلمات.

"من ذا زوج أختك الكبرى؟ وهل نسيت أن لك زوج أخت عندما قمت بإلقاء القذائف اليدوية على ابن أختك؟ إنكم أعضاء جيش با لو الــشيوعيون أصحاب قلوب متحجرة؟ أليس لديكم زوجة وأولاد؟" بدأت الدماء تسيل مــن جرح ذلك الرجل من أعضاء الجماعة الحديدية حينما اشتد غضبه.

"أيها العجوز، لا تنظر إلى الأمر من ناحية واحدة فقط! فإنكم أعضاء الجماعة الحديدية لو لم تكونوا قد قمتم باختطــاف قائــدنا القائــد جيــانغ، والاستيلاء على مائة بندقية من أسلحتنا، فإننا لم نكن لنقاتلكم أبدًا، إن السبب الرئيسى فى قتالنا إياكم هو استعادة تلك الأسلحة التى نستخدمها فى مقاومــة اليابانيين، ولنزود من تسلحنا أمام اليابانيين ونمضى إلى حرب كبــرى مــع هؤلاء المعتدين، ولنكون روادًا على طريق المقاومة ضد المعتدى اليابــانى!" هكذا راح أحد قادة فريق جياو قاو يرد على اتهامات ذلك الرجل من أعضاء الجماعة الحديدية.

وراح أبى يرد على ذلك القائد بلهجة غاضبة قائلاً: "إنكم أنــتم الــذين بدأتم بسرقة الأسلحة التى كنا نخفيها داخل البئر، وأنتم الذين ســرقتم جلــود الكلاب التى كنا نعلقها أعلى السور، وقد قمنا باختطاف قائدكم ردًا على مــا قمتم به!".

ثم بصق أبى بصقة قوية تجاه ذلك القائد من فريق جياو قاو، ولكن بصقته لم تصل إلى ذلك القائد واصطدمت بجبهة أحد أعضاء الجماعة الحديدية.

فأشاح ذلك الرجل الذى تلقى البصقة بوجهه بعيدًا، وشعر بحزن شديد مما أصابه، وراح يمسح ما أصابه بجذع الشجرة. ثم استدار بجسده غاضبًا – غضب غضبًا شديدًا لم يكن ليغضبه حتى لو تم إطلاق النار عليه – وراح يسب أبى قائلاً: "اللعنة كل اللعنة عليك يا دوو قوان!".

وضحك الأسرى الذين كانوا مربوطين بحبال من الكتان، والذين لم يكونوا على علم بما ينتظرهم من حظ سيئ.

ابتسم جدى ابتسامة صفراء، ثم قال: "فيم تختلفون؟ إنكم جميعًا أسرى جيش مهزوم منكسر".

وقبل أن ينتهى جدى من كلامه إلى أبى ومن معه من الأسرى، أحس أن ذراعه المصابة قد حشرت فى الحبل، فاستدار بجسده حتى أرخى الحبل عن ذراعه قليلاً، وعندها رأى القائد جيانغ حزينًا، وقد تورمت قدمه المصابة ورمًا شديدًا حتى أصبحت فى حجم ثمرة الشمام الشتوى، وسال منها سائل مثل الدم.

وهنا اندفع نحوه عدد من رجال فريق جياو قاو، ولكن اعترضتهم الحبال التى كانوا مربوطين بها، واكتفوا فقط بالنظر إلى قائدهم الذى كان ملقى أمامهم ما بين اليقظة والنوم.

وتحررت الشمس من الضباب الكثيف الذى كان يحجبها عن سطح الكرة الأرضية، وعم ضوؤها جميع الأرجاء، وامتلأت الأرض بدفئها وحنوها، كان طباخ فريق لينغ ماتزه مشغولاً باستخدام القدور التى استخدمها

أمس أفراد الجماعة الحديدية لإعداد الأرز المطبوخ، وقد بدأ الأرز يغلى فى القدور، واختلطت رائحة الأرز المطبوخ الذكية برائحة الدماء ورائحة الجثث المتعفنة التى كانت تملأ المكان، وتقدم أربعة رجال من أفراد فريق لينغ ماتزه، وقد حملوا معًا درفتى باب علقوا أعلاهما قطعة كبيرة من لحم حصان مذبوح وقدم الحصان كاملة، حتى وصلوا إلى حافة الخليج. وما إن وصلوا إلى الخليج حتى راحوا ينظرون بشفقة على هؤلاء الأسرى المربوطين إلى أشجار الصفصاف، وقد كان من بين هؤلاء الأسرى من هو مشغول بالنظر إلى القائد جيانغ الذى يرقد مغشيًا عليه، ومنهم من ينشغل بالنظر إلى الحراس الذين يحملون السلاح ويقفون أعلى السور الترابى الواقع إلى شمال القرية، وقد بدت حراب أسلحتهم تبرق، ومنهم من كان منشغلاً بالنظر إلى الضباب الكثيف الذى كان يملأ سماء نهر موا شوى، بينما انشغل أبى بالنظر إلى هؤلاء الرجال الأربعة من فريق لينغ ماتزه الذين جاءوا إلى حافة الخليج يحملون لحم الحصان.

وما إن وصل الركب إلى حافة الخليج حتى قاموا بوضع درفتى الباب إلى جانب مياه الخليج، فانقلبت الدرفتان وسالت منهما بعض الدماء، وجرت الدماء إلى داخل الخليج، ومنها إلى أعلى الطحالب الصفراء التى تملأ الخليج، وقد انقلب عدد من تلك الطحالب ليظهر على السطح لونها الرمادى المخضر، وانعكس الضوء الوردى الذى تعكسه تلك الطحالب الصفراء على وجوه هؤلاء الأفراد من فريق لينغ ماتزه.

ما أكثر الطحالب التى تملأ مياه هذا الخليج! هكذا علق أحد الرجال الأربعة، بدا شخصًا نحيفًا جدًا مثل طائر أبى قردان، وبدت أوراق تلك الطحالب تملأ صفحة الخليج، وكأنها عدد كبير من جلود الخيول.

ما أقذر مياه هذا الخليج!

إن الجميع يقولون إن من يشرب من مياهه سيصاب بالبرص.

وكيف يكون ذلك؟

قبل عدة سنوات، كان قد نزل في هذا الخليج رجلان مصابان بالبرص، حتى إن العدوى أصابت الأسماك الصغيرة التي كانت تملأ مياه الخليج.

وغاصت قدما ذلك الرجل النحيف داخل وحل الخليج، وراح يحاول بسرعة أن يتخلص من الورطة التي وقع فيها، وراح يحرك قدميه بشدة حتى امتلأ حذاؤه الياباني بالوحل.

ومضى أبي يتذكر مشهد قيام أفراد فريق لينغ ماتزه بالاستيلاء على أحذية الجنود اليابانيين الذين كانوا قد سقطوا خلال المعركة التي دارت على الجسر الكبير أعلى نهر موا شوى، كانوا قد قاموا بخلع تلك الأحذية الجلدية الطويلة من أقدام القتلى اليابانيين، وألقوا بأحذيتهم المصنوعة من القماش وارتدوا الأحذية اليابانية الجلدية الطويلة. ولا يزال أبي يذكر صورة هؤلاء الرجال من فريق لينغ ماتزه الذين قاموا بارتداء الأحذية اليابانية، وقد بدوا مثل البغال والخيول التي تم تعليق أجراس حديدية جديدة برقبتها، وراحوا يسيرون بصعوبة واضحة، وبدا عليهم الخوف والرعب من السقوط في أي لحظة.

قام أفراد فريق لينغ ماتزه باستخدام بعض الألواح الخشبية في إزاحة الطحالب التي كانت تملأ صفحة مياه الخليج، حتى استطاعوا الكشف عن بقعة مياه خضراء خالية من الطحالب، ثم تدفقت على الفور كميات جديدة من الطحالب التي جاءت من مساحات تبعد عنهم لتملأ صفحة المياه التي خلت من الطحالب، وقد أحدث تدفق تلك الطحالب صوتًا بدا مزعجًا لأبي.

وأطلت من وسط الطحالب رأس أفعى من تلك الأفاعي التي تقيم داخل المياه، وبعد لحظات قليلة ظهر جسم الأفعى كاملاً أعلى صفحة مياه الخليج، ثم راحت الأفعى تسبح داخل المياه، ولكنها اختفت بعد وقت قليل. ثم عاد السكون إلى مياه الخليج من جديد بعد تلك الجلبة التي أحدثتها الأفعى منذ قليل.

رأى أبى هؤلاء الرجال الأربعـــة، وهـــم يتـــابعون تلـــك الأفعـــى، كان الوحل قد غطى منطقة الكاحل فى أقدامهم، وقـــد نـــسوا أن يتحركـــوا ليخلصوا أنفسهم من الوحل.

واختفت الأفعى من أمامهم، وعندها تنهد الرجال الأربعة تنهيدة عميقة، واستمر الرجال الذين يمسكون بالعصى الخشبية فى إبعاد الطحالب من على سطح المياه، ورفع ذلك الرجل طويل القامة قدم الحصان المذبوح، وألقى بها فى المياه محدثة صوتاً مسموعًا، ثم تناثرت المياه فى كل مكـــان وظهـــرت فقاعات مثل باقات الورود الخضراء.

راح ذلك الرجل الذى كان يمسك بفأس حادة يوبخه على فعلتـــه قـــائلاً:" فلتتحرك ببطء يا ابن الملعونة" فحمل ذلك الرجل صاحب القامة الطويلـــة قـــدم الحصان وراح يحركها إلى أعلى وإلى أسفل، وتطايرت الطحالب فى كل مكان.

وقال الرجل الذى كان يحمل الفأس: حسنًا، يكفى ذلك، وعلى أية حال، فإن هذه القدم سوف تطبخ داخل القدر.

ثم قام الرجل صاحب القامة الطويلة بإلقاء قدم الحصان علـــى درفـــة الباب، وقام الرجل الذى يحمل الفأس بتقطيع القدم إلى قطع صغيرة محـــدثًا صوتًا قويًا مثل صوت ضرب المياه بالعصى.

واستمر أبى فى مشاهدة هؤلاء الرجال الأربعة، وقد قاموا بحمل قـــدم الحصان التى غسلوها جيدًا ثم قطعوها بالفأس ووضعوها أعلى درفة الباب، ثم تابعهم بعد ذلك حتى قاموا بوضع قطع اللحم داخل القدر الكبير، وقد بـــدا اللهب أسفل القدر شديدًا جدًا، وأخذ أحد الطباخين بسكينه قطعة من اللحم من داخل القدر ووضعها أعلى النار ليشويها، أصدرت قطع اللحم صوتًا مرتفعًا، وكأنها تعرف أنها تتعرض لعملية شوى شديدة.

وفى تلك الأثناء رأى أبى القائد لينغ ماتزه يخرج من خيمته فى لباسه الكامل المنسق، وقد حمل سوطًا ومضى يتقدم بمرافقة حراسه لمشاهدة مئات البنادق والقذيفتين اليدويتين التى استولوا عليها من الجماعة الحديدية وفريق جياو قاو، وارتسمت على وجهه ابتسامة الرضا عما حققه من نصر، وراح يلوح بسوطه ويقترب من هؤلاء الأسرى المربوطين إلى شجرة الصفصاف، وسمع أبى حينذاك صوت تنهدات تأتى من خلفه. ولم يلتفت إلى الخلف، ولكنه استطاع أن يرى السخط الشديد الذى علا وجه جدى، وراح القائد لينغ يحرك شفتيه والتجاعيد التى تظهر على وجنتيه.

وقال القائد لينغ بلهجة ساخرة: "أيها القائد يو، هل فكرت كيف سأتصرف معك؟".

فقال جدى: " فلتتصرف كما يحلو لك!".

فقال القائد لينغ: "إذا قتلتك فإنك للأسف تعتبر أحد الرجال الشجعان، وإذا لم أقتلك، فإنه من المحتمل أنك ستعاود اختطافى فى يوم من الأيام!".

فقال جدى: " لن يهدأ لى بال حتى بعد موتى!".

وهنا قفز أبى قفزة ليلقى بقطعة من روث الخيول على صدر القائد لينغ.

فرفع القائد لينغ سوطه، ثم أنزله ثانية، وقال ضاحكًا: "لقد سمعت أن هذا الحيوان يمتلك خصية واحدة فقط، أيها الحراس! أسرعوا بقطع الخصية المتبقية وائتونى بها فى الحال، حتى لا يعاود القفز بهذه الطريقة ثانية!".

فقال جدى: "يا سيد لينغ، إنه طفل، اتركه لشأنه ولتفعل بى ما تشاء!".

فقال القائد لينغ: "طفل؟ إن هذا الحيوان الهجين أشد شراسة من صغار الذئاب!".

وهنا تيقظ القائد جيانغ، وجاء يحبو على يديه.

فسأله القائد لينغ بلهجة ساخرة: "أيها القائد جيانغ، ما رأيك فى الطريقة التى سأقضى عليه بها؟".

فقال القائد جيانغ: "أيها القائد لينغ، لم يكن لديك الحق فى قتلى قبل تحطيم الجبهة الموحدة بين الحزب الشيوعى والحزب الوطنى".

فقال القائد لينغ: "إن قتلى إياك إنما هو مثل تخلصى من نملة ضعيفة!"

ورأى أبى زوجًا من القمل يسرح أعلى رقبة القائد جيانغ الطويلة، وراح يتخلص منهما، وتذكر أبى ذلك اليوم الذى قاموا فيه باختطاف القائد جيانغ، ومشهد قيام أفراد فريق جياو قاو باصطياد القمل تحت شعاع الشمس.

وقال القائد جيانغ بثقة وشجاعة واضحة: "أيها القائد لينغ، إنك لن تتمكن من تحقيق نتيجة جيدة إذا ما قتلتنى، فإننا أعضاء جيش با لو لا ننتهى أبدًا، وسيأتى اليوم الذى سيصفى فيه الشعب حسابه معك على جريمتك بقتل أحد أبطال المقاومة ضد اليابان!".

فقال القائد لينغ: "فلتنتظر هنا قليلاً، وسأعود إليك فور تناول الطعام!".

وتجمع أعضاء فريق لينغ ماتزه معًا ليأكلوا من لحم الحصان ويشربوا نبيذ الذرة.

وأطلق الحارس الذى كان يقف عند السور الترابى شمال القرية طلقة، وحمل بندقيته وراح يجرى إلى داخل القرية وهو يصيح بأعلى صوته: "لقد جاء الشياطين، لقد جاء الشياطين".

فانفجر أعضاء فريق لينغ ماتزه غاضبين، وراحوا يصطدمون ببعضهم البعض، وقد ألقوا بما أمامهم من الطعام والنبيذ.

وجاء الحارس وهو يلهث، وأمسك به القائد لينغ من تلابيبه وراح يسأله: "كم عدد الشياطين؟ وهل هم من الشياطين اليابانيين أم من العملاء؟"

فأجاب الحارس: "يبدو أنهم من العملاء، حيث إنهم يرتدون الزى الأصفر، ويمضون إلى داخل القرية".

فقال القائد لينغ مصدرًا أوامره لرجاله: "إنهم من العملاء، فلتقتلوا هؤلاء الكلاب. أنت أيها القائد تشى أسرع بحشد قواتك حول السور الترابى!"

فحمل أفراد فريق القائد لينغ أسلحتهم وانقضوا نحو السور الترابى عند مدخل القرية، وأمر القائد لينغ اثنين من رجاله الذين يحملون الرشاشات الملونة قائلاً: "راقبوهم جيدًا، وإذا حدث منهم أى خيانة فاقضوا عليهم جميعًا!".

وفر القائد لينغ فى حماية عدد من الحراس إلى شمال القرية.

وبعد مضى ما يزيد على عشر دقائق، وبعد الاشتباك بالنيران الذى حدث فى الجزء الشمالى من القرية، وبعد سماع صوت البنادق المتفرقة، دوى صوت الطلقات النارية من الرشاشات، وبعد وقت قليل انفجرت بعض القذائف داخل القرية، أصابت القذائف الأسوار والأشجار، علت بين أصوات البشر الذين ذعروا من هول القذائف أصوات أناس أجانب.

إنهم من الشياطين الحقيقيين وليسوا من العملاء. وقد راح أفراد فريق القائد لينغ يقاومون عند السور الترابى، وقد انسحب عدد من الرجال الذين أصيبوا منهم خلال تلك المعركة.

وبعد مضى نصف الساعة، تخلى فريق القائد لينغ عن السور، وتراجعوا إلى الجدران المتحطمة، وراحوا يقاومون الشياطين الذين احتلوا السور الترابى.

وسقطت قنابل الشياطين اليابانيين عند جانب الخليج المائى، ولم يعد أفراد الجماعة الحديدية وأفراد فريق جياو قاو يحتملون الصبر أكثر من ذلك، فراحوا يسبون فى غضب شديد: "فكوا قيودنا! فكوا قيودنا، اللعنة عليكم جميعًا!".

فراح الرجلان من أعضاء فريق القائد لينغ اللذان كانا يحملان الرشاشين الملونين ينظران إلى بعضهما البعض، ولكنهما كانا عاجزين عن اتخاذ قرار بشأن هؤلاء الأسرى.

فقال جدى: "إذا كنتم صينيين من ظهور صينيين فسارعوا بإطلاق سراحنا، أما إذا كنتم من ظهور يابانيين فسارعوا بقتلنا!".

فأسرع الرجلان إلى كومة الأسلحة، وأحضرا زوجًا من السيوف، وقطعا تلك الحبال التى كانا يربطان بها هؤلاء الأسرى.

فانقض ما يزيد على ثمانين رجلاً بجنون على كومة الأسلحة والقذائف، ثم انقضوا تجاه مصدر القنابل اليابانية غير عابئين بتعبهم وجوعهم وعطشهم.

وبعد مضى ما يزيد على عشر دقائق، امتدت ألسنة اللهب خلف السور الترابى، وكان ذلك نتيجة أول مجموعة من القذائف التى ألقى بها أفراد الجماعة الحديدية وفريق جياو قاو.

# الباب الخامس

# النهاية الغريبة

(١)

كانت الشفتان الحمراوان الممتلئتان اللتان تتميز بهما النساء ذوات البشرة السمراء، قد جعلتا زوجة جدى ليان إر تتمتع بجاذبية قوية، وكانت الأيام قد استطاعت أن تدفن كل ما يتعلق بأصل ليان إر وفصلها، حيث وارت التربة الصفراء جسدها الشاب الممتلئ، ورأت وجهها الممتلئ وعينيها الزرقاوين اللتين لم يؤثر فيهما الموت، واستطاعت تلك التربة الصفراء أن توقف نظراتها الغاضبة والساخطة والمتحدية لهذا العالم القذر، والتى تتعطش إلى عالم يعج بالجمال الخالص. وفى حقيقة الأمر، فإن زوجة جدى ليان إر كانت قد دفنت داخل التربة السوداء فى مسقط رأسى، كانت جثتها قد وضعت داخل تابوت من خشب الصفصاف، وفاحت رائحة دمائها من داخل التابوت الرقيق، وقد تم دهن الجزء الخارجى من التابوت بطبقة من اللون الأحمر الغامق والفاتح، ولم يستطع ذلك اللون الأحمر أن يخفى تلك الثقوب التى ملأت خشب التابوت. ولكن صورة تغطية جسدها الأسمر اللامع بالتربة الصفراء اللامعة لا تزال حاضرة فى ذهنى، ولن تضيع تلك الصورة من أمام عينى إلى الأبد، حيث رأيت كما لو كانت عيناى تقع على قمة جبلية من الرمال الصفراء التى تنعكس عليها أشعة الشمس الحمراء، وقد بدا أمامى شعرها الطويل المرسل وثدياها العاليان، وبرزت شفتاها المثيرتان من بين الرمال الذهبية، وعرفت أن هذا كله مجرد تخيلات، أعلم جيدًا أن تربة مسقط رأسى السوداء قد وارت جسد زوجة جدى، وأن كل ما يحيط بقبرها الآن هو عبارة عن حقول الذرة الحمراء، وأنك إذا وقفت أمام قبرها فلن

يكون باستطاعتك أن ترى أى شىء سوى الذرة الرفيعة الحمراء، حيث إن حقول الذرة الممتدة حول قبرها ستحجب عنك الرؤية، وتجعلك تعجز عن أن ترى أكثر من شبر أمامك. إذا، فلترفع وجهك عاليًا وتحاول أن تنظر من خلال أعواد الذرة إلى صفحة السماء الزرقاء المفزعة! ولتحاول أن تستمع إلى الأصوات القادمة من الأرواح التى تسكن السماء!

(٢)

فى صباح ذلك اليوم، كانت السماء قد تلونت باللون الأزرق الجميل، وقبل أن تطلع الشمس امتلأ الأفق بحمرة داكنة. وكان العم لاو قينغ قد أطلق رصاصة محلية على ثعلب أحمر اللون بدا ذيله مثل شعلة من اللهب. ويعتبر العم لاو قينغ صيادًا من فئة الصيادين الفريدين فى قرية شيان شوى كوو تزه، كان ماهرًا فى صيد ومهاجمة الإوز والأرانب البرية والبط البرى وابن عرس والثعالب والعصافير. وفى مطلع فصل الشتاء ومنتصف الخريف من كل عام، كانت العصافير تتجمع بكميات كبيرة فى قرية دونغ بيى بمدينة قاو مى، وتغطى جماعات سماء حقول القرية، ثم تطير عائدة إلى القرية وتسقط أعلى شجرة الصفصاف الوحيدة ذات الأوراق الذابلة، وتمتلئ أوراق شجرة الصفصاف الذابلة العارية بأعداد كبيرة من العصافير. وما إن يحل وقت الغروب حتى تتزين شجرة الصفصاف بتلك العصافير وعيونها البراقة، وتمضى العصافير فى حركة مستمرة فوق أعواد الشجرة الكبيرة. وهنا يحمل العم لاو قينغ بندقيته ويغمض إحدى عينيه واضعًا إصبعه على زناد بندقيته، ثم يطلق رصاصة يسقط على إثرها جماعة من العصافير، ويعج المكان

بأصوات العصافير، حيث تمضى العصافير التى لم تصبها رصاصة العم لاو قينغ تطير هنا وهناك وتنظر إلى العصافير التى سقطت على الأرض مصابة برصاصته، ثم تطير مسرعة محلقة فى السماء. وكان أبى قد أكل فى صباه من تلك العصافير التى كان يقوم العم لاو قينغ بصيدها، كان لحمها طيب المذاق غنيًا بالبروتينات اللازمة لتقوية الجسم. وبعد ثلاثين عامًا من ذلك التاريخ، كنت قد رافقت أخى الأكبر وخرجنا إلى حقول الذرة المهجنة للقيام ببعض التجارب على محصول الذرة، وكنا قد اشتبكنا فى معركة حامية مع جماعات العصافير الماكرة. كان العم لاو قينغ قد بلغ آنذاك السبعين من عمره، يعيش بمفرده ويتمتع بمزايا نظام "الضمانات الخمسة"(١)، وكان من الشخصيات ذات السمعة الطيبة على مستوى القرية، وكان كلما حل مهرجان الشكوى الكبير، يصعد إلى المنصة الرئيسية ويبدأ فى بث آلامه أمام الملأ. وفى كل مرة يصعد فيها إلى المنصة الرئيسية لبث آلامه، يقوم بخلع ملابسه الخارجية، ويكشف عن بعض آثار الجروح فى جسده. وكان دائمًا ما يقول أمام الملأ: "لقد قام الشياطين اليابانيون بطعنى ثمانى عشرة طعنة، حتى غرق جسدى فى بركة من الدماء، ولكننى لم أمت بعد. فلماذا لم أمت رغم كل هذه الطعنات؟ لقد كان السبب فى ذلك الإله الثعلب الذى أنقذنى وحمانى من بطش الشياطين اليابانيين، وكنت قد رقدت فترة طويلة، وما إن فتحت عينى حتى وجدتهما تمتلئان بشعاع أحمر، وكان الإله الثعلب الرحيم العطوف يمد لسانه إلىّ ويلعق جراحى..".

(١) "نظام الضمانات الخمسة" ويشير إلى نظام الضمانات الذى سنته الحكومة الصينية لمساعدة الشيوخ وذوى العاهات والقاصرين الذين تتوافق ظروفهم وشروط هذا النظام، حيث تضمن لهم الدولة المأكل والملبس والعلاج والإقامة ومصاريف الجنازة ومصاريف التعليم لأبنائهم اليتامى. (المترجم)

كان الجد لاو قينغ قد أقام فى منزله لوحة مخصصة للإله الثعلب، وفى مطلع فترة "الثورة الثقافية الكبرى"، قدم إلى منزله بعض الحراس من الجيش الأحمر لهدم تلك اللوحة، فسارع الجد لاو قينغ بأخذ سكين كبيرة وقرفص أمام اللوحة، حتى اضطر الحراس إلى التراجع عن هدفهم وتركوه لحاله.

وكان الجد لاو قينغ قد تحقق فى وقت طويل من أمر ذلك الثعلب الذى يعتقد بأنه يملك قدرات الآلهة، ولكنه لم يقم بقتله، حيث كان الجد لاو قينغ يتابع نمو الثعلب ونمو ريشه الأحمر الجميل، حتى صار ثعلبًا كبيرًا جميلاً، وتأكد من أنه سيحصل على مبلغ كبير فى حالة قيامه ببيعه. وهنا عرف أن الوقت قد حان للتخلص منه، وأنه قد عاش فى هذه الدنيا فترة كافية، كان الثعلب يسرق فى كل ليلة دجاجة يأكلها كاملة، ويتمكن من الحصول على دجاجته يوميًا على الرغم من قيام أهل القرية بحماية ما يملكون من دجاج بشتى الوسائل، ويتمكن من النجاة من جميع الفخاخ التى كانوا ينصبونها له، وكانت بطنه قد أصبحت هى المستودع الوحيد الذى امتلأ به دجاج أهل القرية فى ذلك العام، وخرج لاو قينغ بعد سماع صياح الديكة إلى خارج حدود القرية، ونصب كمينًا خلف سور ترابى قصير عند الوادى الذى يقع عند مدخل القرية، وانتظر الثعلب حتى يعود بفريسته. وكان الوادى يمتلئ بكمية من القصب يصل ارتفاعها إلى نصف طول الإنسان، وتجمعت مياه الخريف وسطع الضوء على تلك المياه الباردة، وظهرت جماعات من الأسماك الصغيرة، ثم انعكس الضوء على المياه والقصب، وشم لاو قينغ رائحة الثعلب، وانتبه إلى حركته بين القصب، فقام بوضع أصابع يده اليمنى المتجمدة من شدة البرودة أمام فمه، حيث غلبه النعاس، ثم وضع يده على زناد بندقيته. وقفز الثعلب من بين القصب، ووقف

أعلى المياه المتجمدة، انعكس الضوء الأحمر على تلك المياه حتى بدت مثل ألسنة اللهب المشتعلة، ظهرت آثار دماء الدجاج على فم الثعلب، وظهر بعض من ريش الدجاج وقد علق بشاربه، راح الثعلب يتبختر أعلى سطح المياه، فأصدر لاو قينغ صوتاً مسموعًا، فوقف الثعلب على الفور، وراح ينظر إلى السور الترابى، وسرت رعشة شديدة فى جسد لاو قينغ، وما إن نظر إلى معالم الغضب التى ارتسمت على وجه الثعلب حتى ساوره خوف وقلق شديد، ومضى الثعلب إلى وكره بين القصب، فأغمض لاو قينغ عينه وضغط على زناد بندقيته، وقد جعلته حركة البندقية يشعر برجفة شديدة تهزه هزًا عنيفاً حتى جلس على الأرض، وانزوى الثعلب بسرعة وسط القصب، ووقف لاو قينغ وحمل بندقيته وراح يتابع الدخان الكثيف الذى ملأ سماء المكان، كان يعلم أن الثعلب لا يزال وسط القصب يراقبه بحقد شديد؛ فوقف لاو قينغ فى مكانه، وقد بدا ذا جسد ضخم كبير، وفجأة شعر بشعور أقرب ما يكون إلى وخز الضمير، وندم على ما قام به، ومضى يتذكر تلك الثقة الكبيرة التى منحه إياها الثعلب خلال عام كامل، وأن الثعلب حتمًا يعلم جيدًا أنه يختبئ الآن خلف السور الترابى، إلا أنه لا يزال يسير أعلى سطح المياه المتجمدة، وكأنه يقوم باختبار ضميره؛ فأطلق لاو قينغ رصاصة، وكانت بلا شك خير تعبير عن خيانته لذلك الصديق الذى ينتمى إلى جماعة غير بنى البشر، ثم راح ينظر داخل مساحة القصب التى يختبئ بداخلها الثعلب، ومضى يتعمق إلى داخل القصب ولم يتلفت وراءه أبدًا.

وأحس بعد ذلك ببرد شديد يسرى داخل جسده، فاستدار قليلاً، وسقطت بندقيته أعلى سطح المياه المتجمدة، وشعر بسخونة شديدة تسرى داخل بنطاله القطنى، ونظر أمامه فإذا به يرى ما يزيد على عشرة رجال فى زى أصفر،

كانوا يحملون بنادق كبيرة مزودة بحراب لامعة، وهنا صاح وقد أحس برعب شديد: "اليابانيين!"

وتقدم الجنود اليابانيون نحوه وطعنه كل واحد منهم طعنة فى صدره وفى بطنه؛ فراح لاو قينغ يصدر صوتًا حزينًا وكأنه يتوسل إلى الثعلب لكى يخرج لإنقاذه، ثم سقط أعلى سطح المياه المتجمدة، واصطدمت رأسه بالمياه المتجمدة حتى كشفت عن باطن المياه، وسالت دماؤه داخل المياه، وشعر بسخونة شديدة فى الجزء الأعلى من جسده، وكأنه قد وضع على جمرات من اللهب الشديد، فراح يقطع بكلتا يديه تلك السترة القطنية التى تغطى الجزء الأعلى من جسده.

وفى تلك اللحظات التى كان فيها شاردًا، رأى ذلك الثعلب ذا الشعر الأحمر الجميل يخرج من وكره داخل القصب، ثم راح الثعلب يلف حوله، ثم جلس أمامه وراح ينظر إليه فى شفقة، وبدا شعر الثعلب جميلاً جدًا، وبدت عيناه جميلتين كما لو كانتا من الأحجار الكريمة الخضراء الجميلة، ثم شعر بعد ذلك بشعر الثعلب، وقد اقترب من جسده، وبدأ ينتظر أسنان الثعلب لكى ينقض عليه ويفتك به، كان لاو قينغ يعلم جيدًا أن الإنسان الذى يخون الوعد أحقر من الحيوانات، لذا فإنه لن يشكو إذا ما انقض عليه الثعلب لينهى حياته، وهنا مد الثعلب لسانه البارد وراح يلعق جراح الجد لاو قينغ.

تيقن الجد لاو قينغ أن ذلك الثعلب قد قابل السيئة بالحسنة وأنقذ حياته، وأنه من الصعب أن يجد فى هذا العالم إنسانا غيره تعود إليه الحياة من جديد بعد أن يطعن ثمانى عشرة طعنة، وأنه بالتأكيد هناك دواء فعال فى لسان ذلك الثعلب، قال الجد لاو قينغ إن أى منطقة كان يمر عليها لسان الثعلب، كانت تشفى فى الحال، وكأنها قد دهنت بزيت النعناع.

(٣)

كان بعض أهالى القرية الذين نزلوا إلى المدينة لبيع الأحذية المصنوعة من القش قد ذكروا أن اليابانيين استولوا على مدينة قاو مـــى، ورفعـــوا علـــم اليابان على مدخل المدينة، وما إن سمع أهل القرية ذلك النبأ، حتى أصـــبحوا فى حيرة شديدة ولم يهدأ لهم بال، وراحوا ينتظرون المصيبة الكبـــرى التـــى ستحل بهم عما قريب. وفى الوقت الذى كان القلق والخوف الشديد قد ســيطر على جميع أهل القرية، كان هناك شخصان لا يساورهما أدنى قلق أو خـــوف مما ترامى إلى سمعهما، وكانا لا يزالان يزاولان أعمالهما كمـــا كـــان عليـــه الوضع قبل سماع ذلك النبأ، كان الشخصان هما الجد لاو فينغ ذلـــك الـــصياد الماهر الذى ذكرناه آنفًا، أما الشخص الثانى فهو تشينغ ما تزه، والذى كان قد عمل زمارًا، وكان يعشق غناء أعمال أوبرا بكين.

وقف تشينغ ما تزه أمام أهل القرية وراح يخطب فيهم قائلاً: "ما الذى يخيفكم؟ وما الذى يحزنكم؟ سنكون شعبًا مطيعًا لأى حاكم يحكمنا. أولاً لـــن نشكو من قلة الغذاء، وثانيًا، لن نحتج على الضرائب التى تفـــرض علينـــا، وسننفذ جميع الأوامر التى تفرض علينا، وعندئذ من ذا الذى سيسىء إلينـــا؟ من الذى سيسىء إلينا؟".

وهكذا، عملت نصيحة تشينغ ما تزه على تهدئة عدد كبير مـــن أهـــل القرية، وعاد الجميع إلى ممارسة حياتهم بشكل اعتيـــادى فراحـــوا ينـــامون ويأكلون ويعملون كما لو أن شيئًا لم يحدث. ولم يكد يمر وقت طويل حتـــى عاث اليابانيون فى المدينة فسادًا، وانتشر طغيانهم واســتبدادهم إلـــى أبعـــد الحدود، فراحوا يقتلون الأهالى ويطلقون المدافع الرشاشة ويلقـــون بجثـــث

القتلى للكلاب ويغتصبون النساء اللائى تزيد أعمارهن على الستين، ويعلقون الأهالى على الكابلات الكهربائية فى المدينة. وعلى الرغم من أن الأهالى حاولوا تقليد تشينغ ما تزه والجد لاو قينغ فى هدوئهما وعدم مبالاتهما بما يحدث فى المدينة، فإنهم عجزوا عن ذلك تمامًا، ولم يستطيعوا أن ينسوا فى يقظتهم ونومهم ما يقوم به اليابانيون من جرائم لا تغتفر.

وهكذا، كان تشينغ ما تزه يبدو سعيدًا على الدوام، وازدادت سعادته بسماعه خبر اقتراب قدوم اليابانيين إلى القرية، حيث إن قدومهم سيؤدى إلى زيادة كمية فضلات الكلاب التى يقوم بجمعها فى صباح كل يوم، وأن أحدًا من أهل القرية لن يجرؤ على الخروج لمشاركته فى ذلك. وفى فجر ذلك اليوم، خرج تشينغ ما تزه إلى خارج حدود القرية، والتقى هناك بالجد لاو قينغ الذى كان يحمل بندقية الصيد، وحياه تشينغ ما تزه، ثم مضى كل منهم إلى طريقه. ولم يكد يمر وقت طويل حتى استطاع تشينغ ما تزه أن يملأ سلته بفضلات الكلاب. وهنا وضع تشينغ سلته وحمل مجرفة حديدية، ووقف أعلى السور الترابى جنوب القرية، وراح يتنفس نفسًا باردًا منعشًا، ثم شعر بحكة فى حنجرته، فسلك حنجرته قليلاً ثم راح يتغنى، وقد شعر بسعادة غامرة.

ودوى صوت طلق نارى.

وطارت تلك القبعة البالية التى كان تشينغ ما تزه يضعها فوق رأسه، ثم طأطأ رقبته واختفى خلف السور الترابى، واصطدمت رأسه بتراب السور، ولكنه لم يشعر بأى ألم أو حكة، ثم اكتشف بعد ذلك أن فمه قد امتلأ بكمية من التراب الممتزج بالفحم، ورأى فأرًا ميتًا ملقى هنالك إلى جانب مقشة قديمة، ولم يدرك إذا ما كان هو نفسه حيًا أو ميتًا، فراح يحرك ذراعيه وقدميه ويقفز، ولكن اكتشف أن ذراعيه وقدميه لا تطاوعه فى الحركة.

ثم اكتشف أن سرواله مبلل. وهنا شعر برهبة شديدة، ومضى يفكر فى أنه حتمًا قد انتهى، وأنه قد جرح، وحاول أن يجلس، ومد يده إلى سرواله يتحسس ما بداخله، وانتظر يده التى ستخرج مغسولة باللون الأحمر، فرفعها أمام عينيه، فاكتشف وكأنها قد غسلت باللون الأصفر وليس الأحمر. وامتلأت أنفه برائحة شتلات نباتات متعفنة، فراح يمسح يده فى الأرض ليتخلص من تلك الرائحة، ولكنه لم يتمكن من ذلك، فأمسك بالمقشة القديمة ليمسح عن يده تلك الرائحة الكريهة، وما إن هم أن يستخدم المقشة حتى سمع صوتًا قادمًا من خارج الوادى يصيح فيه قائلاً: "قف!"

رفع رأسه فإذا بالشخص الذى يأمره رجل فى الثلاثين من عمره، ذو وجه حاد فى حدة السيف، وبشرة صفراء وذقن طويلة، يرتدى فوق رأسه قبعة ملونة، ويمسك بمسدس أسود حالك. ثم نظر خلف ذلك الرجل فرأى عشرات الأقدام الصفراء الملفوف حولها شارات من القماش الملون، ثم نظر أعلى تلك الأقدام ليرى وجوهًا لأشخاص غريبين عن وطنه، وقد علت تلك الوجوه سعادة واضحة، ونظر أعلاهم ليرى علمًا مربعًا يتوسطه قرص الشمس. وهنا أحس تشينغ ما تزه برعشة شديدة.

وصاح فيه ذلك الرجل الذى كان يرتدى القبعة الملونة غاضبًا: "انهض!"

فأحكم تشينغ ما تزه ربط حزامه ثم صعد إلى أعلى الخندق، وكان فى ارتباك شديد ولم يتمكن من السيطرة على نفسه، وبدا وجهه شاحبًا ولم يعرف ماذا يقول لذلك الشخص الغريب، فراح يهز رأسه ويتحنى أمامه.

فسأل الرجل تشينغ ما تزه: "هل هناك بالقرية قوات تابعة للحزب الوطنى؟"

فذهل تشينغ ما تزه ذهولاً شديدًا وراح ينظر إلى السائل.

فتقدم نحوه جندى يابانى وقد راح يلوح أمامه بخنجر ملطخ بالــدماء، راح يلوح بالخنجر أمام صدر تشينغ ما تزه ووجهه، وأحس تشينغ ما تزه أن رجفة الخنجر قد تسللت إلى صدره وعينيه، وأحس بأن بطنه تصدر صــوتًا مسموعًا، وأن معدته تهتز بشدة، ثم أحس بسعادة كبيرة جعلته كاد أن يرقص من شدة الفرح. فصاح الجندى اليابانى ثم نزل بخنجره ليشق سترته القطنية، ثم تغلغل الخنجر ليحدث ألمًا شديدًا أسفل السترة القديمة. فراح تشينغ ما تزه ينزوى بعيدًا عنه، وكاد أن يغرق فى دموعه ومخاطه وبرازه وبوله.

غمغم الجندى اليابانى بجملة غير مفهومة، ثم مضى يغمغم بكلام كثير، فراح تشينغ ما تزه ينظر متألمًا إلى وجه الجندى اليابانى الذى اشتاط غضبًا، ثم انخرط فى البكاء بصوت مرتفع.

أمسك ذلك الرجل الذى يرتدى القبعة بمسدسه وضرب تشينغ ما تــزه على جبهته، ثم قال: "اسكت عن البكاء! واستمع إلى سؤالى! ما اســم هــذه القرية؟ هل هى قرية شيان شوى كوو تزه؟"

فجاهد تشينغ ما تزه ليكتم بكاءه، وراح يهز رأسه ليجيب عن ســؤال ذلك الرجل.

ثم سأله الرجل بطريقة لطيفة بعض الشىء قائلاً: "هل يوجد فى هــذه القرية أحذية مصنوعة من القش؟"

وهنا لم يبال تشينغ ما تزه بألمه، وراح يجيب على سؤال الرجل وكأنه يتودد إليه قائلاً: "يوجد، يوجد، يوجد".

فسأله الرجل: "لقد كان يوم أمس هو يوم سوق مدينة قاو مى، فهل ذهــب أى من أهل هذه القرية إلى سوق مدينة قــاو مــى لبيــع الأحذيــة المــصنوعة من القش؟"

فأجاب تشينغ ما تزه "نعم نعم نعم، لقد ذهب بعض أهل القرية إلى هناك لبيع الأحذية المصنوعة من القش"، وبدأت الدماء الساخنة تسيل من صدره إلى منطقة معدته.

"وهل يوجد بينهم من يدعى شيان تساى قه دا؟"

"لا أعرف... لا أعرف...".

وهنا قام صاحب القبعة المصنوعة من الصوف بصفعه صفعة قوية، ثم قال غاضبًا: "تكلم! هل كان بينهم شخص يدعى شيان تساى قه دا!".

فراح تشينغ ما تزه يجيبه مغلوبًا على أمره قائلاً: "نعم نعم نعم أيها القائد"، ثم قال: "أيها القائد، إن جميع الأسر هنا لا تخلو من شيان تساى قه دا(١)، وجميع الأوانى الكبيرة التى تمتلكها الأهالى فى هذه البلدة تحتوى على شيان تساى قه دا".

فقام القائد اليابانى صاحب القبعة بصفعه على وجهه قائلاً: "اللعنة على أمك، كيف تتظاهر بهذه الحماقة؟ أسألك هل يوجد بين هؤلاء شخص يدعى شيان تساى قه دا؟"، ثم راح يسبه "أيها المخادع الحقير، إننى أسالك هل يوجد بينهم شخص يدعى شيان تساى قه دا؟".

فقال المواطن تشينغ ما تزه، وقد سقط مغشيًا عليه من قوة صفعات القائد اليابانى "يوجد... لا يوجد... يوجد... لا يوجد... أيها القائد أتوسل إليك ألا تصفعنى ثانية... لا تصفعنى أيها القائد..".

---

(١) شيان تساى قه دا: وتعنى فى اللغة الصينية عناقيد الخضر المملحة، حيث يقوم أهل شمال شرق الصين بالاحتفاظ بكميات من الخضر بتمليحها واستخدامها فى فصل الشتاء القارص. (المترجم)

وهنا تحدث أحد الجنود اليابانيين ببعض الكلمات، وعندها قام القائد الياباني بخلع قبعته وراح يركع أمام أحد الشياطين اليابانيين، ثم استدار بجسده واختفت تلك الابتسامة التي كانت تعلو وجهه منذ قليل، ودفع تشينغ ما تزه دفعة، ثم قال بلهجة غاضبة: "تقدم إلى الأمام لتقودنا إلى هذه القرية، واصحبنا إلى جميع من يقومون ببيع الأحذية المصنوعة من القش".

كان تشينغ ما تزه لا يزال مشغولاً كثيرًا بسلته الممتلئة بفضلات الكلاب، والتي كانت لا تزال ملقاة عند السور الترابي، وما إن التفت إلى الوراء ينظر إليها حتى اصطدم وجهه بخنجر لامع. وهنا أدرك جيدًا أن حياته أهم بكثير من تلك السلة والقيمة التي تساويها الفضلات التي تمتلئ بها، فمضى إلى القرية ولم يعد الالتفات إلى السلة ثانية. وقد تبعه عشرات الجنود اليابانيين، الذين كانوا يرتدون أحذية جلدية عالية كانت تحدث صوتًا مسموعًا، وصاحت بعض الكلاب الرمادية التي كانت تختبئ عند السور الترابي، وقد بدأت أشعة شمس الصباح تنعكس على الأرض من تحت أقدامهم، وحطمت أصوات بكاء بعض الأطفال ذلك السكون الذي كان يخيم على القرية، وكانت أصوات أحذية الجنود اليابانيين تهز أذنيه وتجثم على صدره، وأحس بأن جرح صدره أصبح أكثر سخونة، وأن سرواله المبلل قد أصبح أكثر برودة. وهنا أدرك أنه قد صادف حظًا سيئًا مثل الفضلات التي خرج ليجمعها على الرغم من امتناع الآخرين عن الخروج في ذلك اليوم. وشعر بالظلم والأسى الشديد؛ لأن الجنود اليابانيين لا يعرفون أنه مواطن مطيع، واستطاع في أسرع وقت أن يصحبهم إلى الأماكن المخصصة لصناعة الأحذية المصنوعة من القش، وقد أصبح على ثقة بأن جميع من سيصدق عليه اسم شيان تساي قه دا سيتعرض للتنكيل به على يد هؤلاء الجنود، وراح ينظر إلى منزله من مسافة بعيدة جدًا، وقد نمت بعض

الأعشاب أعلى سقف المنزل بفعل الأمطار الصيفية الشديدة التى نزلت على القرية، وراح ينظر إلى منزله، وقد أحس بأنه للمرة الأولى فى حياته يشعر بهذا الإحساس والحنين تجاه منزله، ومضى يفكر فى أنه سيعود إليه فور انتهائه من صحبة اليابانيين، ويسارع بتغيير سرواله المبلل، ويطلب من زوجته المساعدة فى تضميد الجرح الذى أصابه فى صدره ووضع بعض الجير داخل الجرح، كانت الدماء قد بدأت تتوقف عن السيل، وشعر بارتخاء قدميه، وبتقزز شديد، إذ إنه لم يكن قد تعرض طيلة حياته لمثل هذا المأزق الشديد، بل إنه لم يتعرض أى من الزمارين فى قرية دونغ بيى بمدينة قاو مى لمثل هذا المأزق من قبل، ومضى فى طريقه غارقًا فى دموعه، ويفكر فى زوجته الجميلة المصابة مثله بمرض الجدرى، والتى قبلت الزواج منه، والتى ارتبطت معه برباط مقدس إلى الأبد.

(٤)

فى صباح ذلك اليوم، أفاقت زوجة جدى من حلمها الذى كانت تتشاجر فيه مع جدتى على صوت دوى إطلاق النيران خارج حدود القرية. وجلست زوجة جدى على سريرها، وكان قلبها يدق دقات مضطربة، ومضت تفكر طويلاً، ولكنها عجزت عن الوصول إلى ماذا حدث عند حدود القرية حتى تسمع صوت الطلقات النارية الكثيفة، أم ترى أنها كانت لا تزال فى عالم الأحلام، وانعكس ضوء الصباح على نافذة حجرتها، وشعرت زوجة جدى ببرودة عند كتفيها فمالت بوجهها ونظرت إلى ابنتها التى كانت لا تزال غارقة فى نومها إلى جانبها واستطاع صوت تنفس تلك الفتاة الصغيرة ذات الخمسة أعوام أن يهدئ من روع زوجة جدى، حيث مضت تفكر فى أن صوت

الطلقات النارية ربما يكون مصدره قيام العم لاو قينغ بممارسة هوايته في صيد القطط والحيوانات البرية، ولم تكن تعلم أن تخمينها هذا لم يكن له أى أساس من الصحة، كما أنها لم تكن تعلم أنه فى الوقت الذى كانت تفكر فيه فى هذا الأمر، وقد شدت غطاءها لتعاود النوم، كانت الخناجر اليابانية الحادة تخترق جسد العم لاو قينغ، واستدارت عمتى الصغيرة قليلاً لترتمى فى حضن زوجة جدى، فاحتضنتها وقد شعرت بأن دفء تنفس صغيرتها قد ملأ صدرها، وكانت قد مضت ثمانية أعوام على قيام جدتى بطرد زوجة جدى من منزل العائلة، وخلال تلك الفترة كان جدى قد احتجز لدى حكومة جي نان حتى كاد أن يفقد حياته، ثم تمكن جدى من النجاة وعاد إلى قريته، ليكتشف أن جدتى كانت قد قامت باصطحاب أبى وأقامت مع الزعيم أبي شامة زعيم الجماعة الحديدية، فاشتبك جدى مع أبى شامة عند نهر يان شوى، وعلى الرغم من هزيمة جدى فى تلك المعركة، فإن ظهوره قد أنعش عاطفة جدتى تجاهه، فلاحقته جدتى وعادا معًا إلى قريتهما، وعملا معًا على إنعاش تجارة النبيذ التى كانت تشتهر بها العائلة، وقد تخلى جدى عن استخدام السلاح وقيادة فريق قطاع الطرق، وعمل عدة سنوات كفلاح من الفلاحين الموسرين في القرية، وكان جدى قد عانى خلال تلك السنوات من الإزعاج والقلق الشديد الذى كان مصدره النزاع المستمر بين جدتى وزوجة جدى. وكانت نتيجة ذلك النزاع والغيرة التى دبت بينهما أن تم توقيع" اتفاق ثلاثى فيما بينهم"، ويقضي الاتفاق بأن يقيم جدى فترة عشرة أيام مع جدتى، ثم ينتقل بعدها للإقامة فترة عشرة أيام مماثلة مع زوجته الثانية، ولا يجوز لأى من الأطراف الثلاثة مخالفة الاتفاق المبرم بينهم. واستطاع جدى أن يلتزم على الدوام بهذا الاتفاق؛ لأنه كان يعلم جيدًا بخطورة زوجتيه، وأنه لن تتنازل أى منهن عن حقها لصالح ضرتها، احتضنت زوجة جدى عمتى الصغيرة، وقد أحست بحزن

شديد. فقد كانت فى ذلك الحين حاملاً فى شهرها الثالث، والمرأة الحامل عادة ما تتحول إلى امرأة طيبة لطيفة، ولكنها تكون فى حاجة ماسة إلى الرعاية والاهتمام بها. وهكذا أكانت زوجة جدى، فى أثناء حملها الثانى تعد الأيام والليالى فى انتظار عودة جدى، وكان موعد عودته هو يوم الغد... ولكنها تسمع الآن صوت الطلقات النارية الكثيفة عند مدخل القرية.

قفزت زوجة جدى فى عجالة وراحت ترتدى ملابسها، وقد شعرت برعشة شديدة تهزها هزًا، وكان قد ترامى إلى سمعها منذ وقت طويل خبر اقتراب وصول اليابانيين إلى القرية، فقضت يومها فى حيرة شديدة وكانت تشعر باقتراب وقوع الكارثة، حتى إنها كانت قد فكرت فى العودة مع جدى، وأن تصبر على مضايقة جدتى وسبابها خير لها وأهون عليها من الرعب الشديد الذى تشعر به فى قرية شيان شوى كوو تزه، وحاولت أن تفصح عن رغبتها فى ذلك إلى جدى، ولكنه رفض رفضًا قاطعًا، وأعتقد أن سبب رفض جدى إنما يرجع إلى المعاناة الشديدة التى يعيشها مع جدتى زوجته الثانية، كان جدى قد ندم ندمًا شديدًا على موقفه من هذا الأمر، كان قد رأى المصيبة الكبرى التى ألمت به من جراء ذلك عندما وقف فى صباح يوم الغد وسط الفناء الكبير الذى كان يمتلئ بآثار الحيوانات البرية.

استيقظت عمتى الصغيرة، وفتحت عينيها المشرقتين، وراحت تتظاهر بأنها تتثاءب، ثم تنهدت تنهيدة عميقة، وذهلت زوجة جدى ذهولاً شديدًا عندما رأت ابنتها تبدو أمامها على تلك الحالة، وراحت تنظر إلى الدموع التى ذرفتها عيناها فى أثناء التثاؤب، وصمتت لمدة طويلة.

وقالت عمتى الصغيرة مخاطبة أمها: "أمى، ساعدينى فى ارتداء ملابسى".

أخذت زوجة جدى بمعطف عمتى القطنى الصغير الأحمر، ثم راحت تنظر إلى وجه صغيرتها بدهشة شديدة، وقد لاحظت هذا التغير الشديد الذى طرأ على ابنتها التى أصبحت تستيقظ بنفسها كل يوم بعد أن كانت تجد صعوبة كبيرة فى إيقاظها فيما مضى، ونظرت إلى التجاعيد الكثيرة التى ملأت وجهها الصغير، وإلى حاجبيها اللذين نزلا إلى فمها حتى بدت تلك الفتاة الصغيرة وكأنها سيدة عجوز، وشعرت زوجة جدى برعشة شديدة تهز قلبها، وأحست ببرودة المعطف الصغير الذى تمسكه بيديها، سرت تلك البرودة إلى قلبها، فراحت تنادى على عمتى بكنيتها: "يا شيانغ قوان... يا شيانغ قوان... انتظرى حتى تساعدك أمك فى تسخين هذا المعطف البارد..".

فأجابت عمتى: "لا داعى، لا داعى لتسخينه يا أماه".

وبدأت عينا زوجة جدى تذرفان الدموع، لم تعد قادرة على رؤية وجه طفلتها الذى أصبح شاحبًا بعد أن كان فى غاية النضارة والإشراق، ثم هربت مسرعة إلى غرفة الطهى، وأشعلت النار فى بعض من أعواد القمح وراحت تسخن معطف ابنتها البارد، أحدثت أعواد القمح عند اشتعالها صوتًا قويًا مثل دوى طلقات نارية، وبدأ المعطف يتقلب وسط اللهب حتى سرت السخونة إلى يدى زوجة جدى، وخمدت النيران فجأة، وبقيت كومة من الرماد الذى تبقى من آثار إشعال أعواد القمح، وتناثر الدخان إلى سقف الغرفة، وهنا نادت عمتى الصغيرة التى كانت فى الغرفة الداخلية على أمها، فأيقظتها، كانت تمسك بالمعطف الصغير داخل غرفة الطهى. فحملت الأم المعطف الساخن وتوجهت إلى الغرفة الداخلية، فرأت ابنتها تجلس أعلى مصطبة التدفئة، وقد التحفت باللحاف، وشاهدت ذلك التناقض الواضح بين بشرة تلك الطفلة البيضاء ولون اللحاف البنفسجي، فقامت زوجة جدى بوضع ذراعى ابنتها

الضعيفتين داخل أكمام المعطف القطنى الأحمر، بدت عمتى مطيعة لها على غير عادتها تمامًا، حتى إن دوى الطلقات النارية الذى كان يهز القرية بأكملها لم يستطع أن يعرقل قيام زوجة جدى بمساعدة عمتى فى ارتـداء المعطـف القطنى الصغير.

بدا صوت الانفجار وكأنه قادم من أعمـاق الأرض، كـان الـصوت مكتومًا واستمر لفترة طويلة، وبدأت ستارة النافذة تهتز بشدة، وسمعوا صوت هروب العصافير التى كانت تبحث عن الحب وسط الفناء الكبيـر. ومـا إن انتهى صوت الانفجار، سمعوا صوت إطـلاق بعـض المـدافع الرشاشـة، فعاودت الفوضى تعم أرجاء القرية، وسمعوا بعض الأصوات المرعوبة من تلك الأصوات، فاحتضنت زوجة جدى صغيرتها بشدة، والتصقت الأم وابنتها ببعضهما البعض، وراحتا ترتجفان من شدة الخوف.

وتوقفت أصوات الضجيج لفترة مؤقتة، ولف القرية صـمت مميـت، وسكنت جميع الأصوات فى القرية إلا من وقع خطوات ثقيلة أو نباح بعض الكلاب ودوى بعض الطلقات النارية، ثم دوى صوت انفجـارين متتـابعين، علت معهما أصوات الأهالى الذين ذعروا ذعرًا شديدًا، ثم عمـت الفوضـى والضجيج القرية من جديد، واختلطت أصوات صراخ النساء وبكاء الأطفال وصياح الديكة ونهيق الحمير التى كانت تصارع للـتخلص مـن قيودهـا. وأغلقت زوجة جدى باب الغرفة، وأتت بعصوين وأحكمت بهما غلق الباب، ثم قفزت إلى دكة المدفأة وانزوت إلى جانب الحائط، وراحت تنتظر وقـوع الكارثة، وكانت فى تلك اللحظة تشتاق إلى جدى كثيـرًا، وتكرهـه كثيـرًا. ومضت تفكر فى أنها ستبكى أمامه بكاءً شديدًا عندما يعود إليها فـى الغـد، وستفتعل معه شجارًا عنيفًا. انعكس ضوء الشمس المـشرق علـى زجـاج

النافذة، وذابت كرات الصقيع التى كانت مكدسة على النافذة، وتحولت إلى قطرات مياه راحت تتساقط على زجاج النافذة. وارتفع صوت دوى الطلقات النارية داخل القرية، وارتفع معه صوت صراخ النساء الذى ملأ أرجاء القرية، وكانت زوجة جدى تعرف بالطبع سبب صراخ نساء القرية، كانت قد سمعت أن هؤلاء الجنود اليابانيين مثل الحيوانات فى الاعتداء على نساء القرية، حتى إنهم كانوا لا يرحمون النساء اللائى بلغن السبعين، وسرت إلى داخل الغرفة رائحة الدخان القادم من خارج المنزل، وسمعت أصوات صراخ الرجال فى الخارج. وهنا شعرت زوجة جدى بالشلل التام، سمعت صوت باب المدخل، بالإضافة إلى لهجة غريبة كانت بالتأكيد لهجة اليابانيين، كما سمعت أصوات نزاع الأهالى عند مدخل الفناء الكبير؛ فحدقت عمتى، ثم صمتت برهة، لتنخرط فى البكاء بصوت مرتفع، مدت أمها يدها ووضعتها على فمها تكتم صوت بكائها. واهتزت درفتا باب المدخل، فنزلت الأم من أعلى مصطبة التدفئة، وملأت يديها بقبضتين من الرماد ونثرته على وجهها، كما قامت بنثر بعض الرماد على وجه صغيرتها، واهتزت درفتا الباب اهتزازًا شديدًا كما لو أنهما كادتا أن تتحطما تحطيمًا، وبدأ الرعب يسيطر على الأم، حيث لم تتوقف مقلتاها عن النظر هنا وهناك. ومضت تفكر فى نفسها، إن هؤلاء الجنود إذا كانوا لا يرحمون العجائز فى سن السبعين، فإنهم يجب أن يرحموا الحوامل؟ ثم فكرت الأم فى حيلة تحاول أن تتقى بها شر المعتدين، سحبت صرة من أعلى مصطبة التدفئة، ثم فكت حزام بنطالها، ووضعت الصرة بداخله وأحكمت ربطها جيدًا، ثم شدت البنطال جيدًا، وحاولت جاهدة أن تضبط وضع الصرة كى لا تضايقها خشية أن يكتشف

اليابانيون أمرها. بينما انزوت عمتى إلى جوار الحائط، وراحت تراقب تصرفات أمها الغريبة.

فتح باب المدخل الكبير، وسقطت إحدى درفتيه الكبيرتين الثقيلتين على الأرض، وبمجرد أن سمعت زوجة جدى صوت سقوط الدرفة على الأرض سارعت بالاختفاء أسفل المرجل، وراحت تنثر الرماد على وجهها، وعمت الفوضى أرجاء الفناء، فسارعت زوجة جدى بالوصول إلى الغرفة الداخلية وأغلقت بابها، وصعدت أعلى مصطبة التدفئة واحتضنت صغيرتها وحاولت جاهدة أن تكتم صوتها، وسمعت صوت تمتمة الجنود اليابانيين وقد بدأوا يستخدمون أسلحتهم فى تحطيم باب الغرفة، كان باب الغرفة الوسطى أضعف بكثير من باب المدخل، لم يصمد أمام محاولتهم، وسمعت الأم صوت فتح باب الغرفة الوسطى، ونظرت إلى العصوين خلف الباب وقد سقطتا على الأرض، ثم تأكدت من أنهم قد نجحوا فى اقتحام الغرفة الوسطى. وبقيت الدرفتان الصغيرتان اللتان كانتا تستندان إلى حائط الغرفة كآخر حاجز بينها وبين المعتدين. وبالطبع فقد كانت الدرفتان أضعف بكثير من باب المدخل وباب الغرفة الوسطى، وما داموا قد نجحوا فى تحطيم باب المدخل وباب الغرفة الوسطى، فإن تحطيم الدرفتين سيكون أمرًا تافهًا بالنسبة لهم، والأمر كله يتوقف على إذا ما كانت لدى الجنود اليابانيين الرغبة فى اقتحام الدرفتين وتحطيمها، ويتوقف على إذا ما كانوا يمتلكون رغبة تحطيم جميع الحواجز بهدف الوصول إلى فريستهم؛ وما دام الأمر هكذا، فإنه لا يزال لديها بصيص من الحظ، لأن الخطر الذى يمكن أن يأتى لها من ذلك الحاجز هو على أية حال مجرد توقعات من الصعب أن تتحول إلى واقع، ثم راحت زوجة جدى تحدق إلى ذلك الحاجز فى حالة من القلق الشديد الذى شعرت به بسماع وقع أقدام الجنود اليابانيين وحواراتهم التى لا تفهم منها شيئًا، وكانت الدرفتان ذواتى لون أحمر داكن، وقد امتلأت بكرتاهما ببعض التراب

الرمادى، كما ظهرت بعض آثار الدماء الحمراء الداكنة القذرة على مـزلاج الباب، وكانت تلك الدماء تخص فأرًا أسود قتل فى ذلك الموضع، ومـضت زوجة جدى تتذكر عندما قامت بقتل ابن عرس الأسود، أطلق صوتًا قويًا ثم راح يتلوى على الأرض حتى فقد القدرة تمامًا على الحركة، وكانت بـالطبع تكره ابن عرس الشرس من أعماق قلبها، ففى أصيل أحد أيام خريف عـام ١٩٣١، وبينما كانت زوجة جدى تقوم بجمع بعض الخضراوات البرية مـن وسط حقول الذرة الرفيعة، رأت ابن عرس يقف أعلى قبر صـغير مغطـى بالأعشاب الصفراء، وبدا جسده متشحًا بالصفار، بينما بدا فمه شديد الـسواد مثل الحبر الأسود تمامًا، وقد انتبهت إليه عندما كانت تقوم بقضاء حاجتهـا وسط حقول الذرة. رأته واقفًا أعلى ذلك القبر، يرتكز على قدميـه، ويرفـع مخلبيه ويهزهما فى اتجاهها. وفجأة أحست كما لو أنها صعقت بتيار كهربائى شديد، سرت بجسدها رعشة شديدة من رأسها حتى أخمص قدميها، فتسمرت وسط حقول الذرة وراحت تصيح بكلام غير مفهوم، وعنـدما عـادت إلـى حالتها الطبيعية، لف الظلام حقول الذرة، وامتلأت السماء بالنجوم، وراحـت تبحث لها عن مخرج من هذا الظلام، حتى توصلت إلى طريق ترابى يقودها إلى داخل القرية، واختفى من أمام عينيها خيال ابن عرس، ثم ظهـر مـرة ثانية. وقد أجبرها ذلك الخيال على أن تصيح بأعلى صـوتها، حتـى إنهـا صاحت بصوت أحست بأنه ليس صوتًا طبيعيًا، وأنها تشعر بدهشة وخـوف شديد لسماع ذلك الصوت الذى يختلف تمامًا عن صـوت صـياح الإنـسان العادى، أصيبت زوجة جدى بحالة من الجنون لفترة طويلة ، وشعرت أنهـا استطاعت أن تتحكم فى نفسها، ولابد أن تلتزم بقواعـد الجنـون، فراحـت تصرخ وتضحك بصوت مرتفع، وتهذى بكـلام غيـر مفهـوم وتتـصرف تصرفات غريبة، وكلما كانت تعاودها تلك الحالة، كانـت تـشعر وكأنهـا شخصان مختلفان تمامًا، وأنها كانت تصارع داخل حفرة ممتلئـة بالـشهوة

والموت، وأنها تعجز عن الخروج من تلك الحفرة. وأحست كما لو أن يديها قبضتا على طوق النجاة الذى يمكن أن يخرجها من تلك الحفرة، ولكن ما إن تقبض عليه بشدة حتى يتحول ذلك الطوق إلى جزء من الوحل يصعب السيطرة عليه، لتسقط داخل الحفرة من جديد. ووسط كل هذه المعاناة، كان ابن عرس ذو الفم الأسود لا يتوقف عن الظهور أمامها، وهو يكشر لها عن أنيابه ضاحكًا، ويهز لها ذيله، كانت تصرخ بصوت عالٍ كلما لامس ذيله جسدها. وفى النهاية غادر ابن عرس وقد أنهكه التعب، وسقطت زوجة جدى مغشيًا عليها، وقد تصبب جسدها عرقًا، واصفر وجهها من شدة التعب. ولكى يتم معالجة الجنون الذى أصاب زوجة جدى، كان جدى قد ركب بغلته وقصد قرية باى لان يستقدم السيد لى شان رن المتخصص فى طرد الأرواح والقبض على العفاريت، كان السيد لى شان رن قد قام بحرق البخور وإشعال الشموع، ورسم باللون الأحمر الداكن علامة غريبة على ورقة صفراء، ثم حرقها حتى تحولت إلى كتلة من الرماد ومزجها بدم كلب أسود اللون، ثم وضع الخليط داخل أنف زوجة جدى وفمها. حتى راح ذلك العفريت الذى كان يلبسها يتلوى ويصيح بصوت جنونى إلى أن خرج من داخلها، ثم عادت زوجة جدى إلى حالتها الطبيعية منذ ذلك اليوم. وفيما بعد كان ابن عرس قد عاد إلى منزلها لسرقة بعض الدجاج، فاشتبك مع الديك الأحمر القوى فى معركة شرسة، انتهت بهزيمة ابن عرس، وقد تمكن الديك من أن يفقده إحدى عينيه، فراح ابن عرس يتلوى وسط الفناء، فاستغلت زوجة جدى الفرصة، وحملت مزلاج الباب وخرجت إلى الفناء، وراحت تضرب ابن عرس ضربات انتقام قوية. حتى تمكنت من الثأر لنفسها وشفت غليلها من ذلك الحيوان الشرس، حملت ذلك المزلاج الملطخ بالدماء ووقفت وسط الفناء شاردة لبعض الوقت. ثم واصلت ضرب ابن عرس حتى حطمت جسده تمامًا، وعادت إلى غرفتها وقد أحست أنها انتقمت منه أشد الانتقام.

راحت زوجة جدى تحدق فى آثار الدماء التى تملأ المزلاج، وتذكرت تلك الحادثة القديمة، وأحست وكأنها تسمع صوتًا مرعبًا جدًا يأتى من أعماقها.

اهتزت درفة الباب الضعيفة قليلاً ثم فتحت على مصراعيها، ودخل إلى الغرفة جندى يابانى ذو بشرة صفراء يمسك ببندقية مزودة بحربة، واستطاعت زوجة جدى وسط صراخها وعدم تركيز عينيها أن تحدد ملامح ذلك الجندى اليابانى، غير أن فمه ووجنتيه وشكله المهذب قد تحول فى لحظة إلى نفس ملامح ابن عرس الذى انتهت حياته بين يديها. بدا لها فمه المدبب وشاربه الأسود ونظراته المتلصصة تشبه ابن عرس إلى حد كبير، إلا أن ابن عرس كان أضخم منه، وكان شعره أكثر اصفرارًا ونظراته أكثر مكرًا، وهكذا راحت زوجة جدى تستعيد ما حدث خلال تلك المعركة التى أبلت فيها بلاءً حسنًا، تأذت عمتى الصغيرة كثيرًا من شدة صراخ أمها، وشعرت بخوف ورعب شديد من منظر وجهها الذى لطخته بالرماد، فراحت الفتاة تحاول جاهدة الخلاص من بين ذراعى أمها اللتين بدتا لها مثل سياج حديدى، فقفزت لتجلس أعلى حافة النافذة، حتى تمكنت من رؤية ستة من الجنود اليابانيين، كانت أول وآخر مرة تراهم فى حياتها القصيرة.

ووقف الجنود اليابانيون الستة أمام مدفأة زوجة جدى، كانوا يحملون جميعًا بنادق مزودة بمحاريب لامعة، وقد بدوا فى زحام شديد داخل الغرفة، علت وجوههم ابتسامة ماكرة وحمقاء كابتسامة ابن عرس، وبدت بالنسبة لتلك الفتاة الصغيرة مصفرة ومحمرة وجميلة ودافئة وودودة مثل خبز الذرة الذى خرج لتوه من الفرن. ولم تكن عمتى تخاف آنذاك من أى شىء أمامها إلا من تلك الحراب التى كانت مزودة بها بنادق هؤلاء الجنود اليابانيين، كانت تخاف أيضًا من وجه أمها الجاف مثل واحدة القرع الجافة، وبدت وجوه هؤلاء الجنود اليابانيين عامل جذب مألوف لها.

راح الجنود اليابانيون يضحكون كاشفين عن أسنانهم المكشرة أو المنتظمة أو المتباعدة عن بعضها البعض، وهنا انتاب زوجة جدى الرعب الشديد بسبب بعض الجنون الذى تبقى من آثار ابن عرس وبسبب ضحكات هؤلاء الجنود، واستطاعت أن تخمن من خلال تلك الضحكات أن هناك خطرًا شديدًا سيواجهها عما قريب، مثلما كانت قد استطاعت فيما مضى أن تتنبأ بما وقع من ابن عرس تجاهها فى تلك الحادثة القديمة. ومن ثم، فقد راحت تصيح بصوت عال، وهى تضغط بكلتا يديها على بطنها، وتميل بجسدها ناحية الحائط.

وتقدم إلى المدفأة جندى يابانى يصل طوله إلى حوالى متر وخمسة وستين سنتيمترًا تقريبًا - وربما يكون أطول أو أقصر من ذلك قليلاً - ويبلغ عمره ما بين الخامسة والثلاثين والأربعين، خلع قبعته العسكرية، ومسح على صلعته، وعلت وجهه نظرة غامضة، وراح يتحدث بلغة صينية متلعثمة قائلاً: "أنت يا، أنت أيتها الفتاة الجميلة، لا تخافى أيتها الجميلة..". ثم سند بندقيته إلى جانب سور المدفأة، وأمسك بالسور، وقفز إلى أعلى مصطبة التدفئة، ثم راح يتلوى مثل الدودة حتى وصل أمام زوجة جدى، وهنا ودت المرأة لو أن ابتلعتها شقوق الحائط، ثم اختلطت دموعها الغزيرة ببقايا الرماد الذى كان يملأ وجهها، ليكشف عن بشرة سوداء لامعة. فراح الجندى اليابانى يستمر فى ثرثرته، ومد أصابعه القصيرة الغليظة وقرص وجه زوجة جدى قرصة سريعة. وما إن طالت يده وجهها، حتى شعرت المرأة بامتعاض شديد، وكأن ضفدعًا تسلل إلى داخل بنطالها. فراحت تصيح بصوت مرتفع، فأمسك الجندى اليابانى برجليها وراح يدفعها بقوة للخلف، فسقطت المرأة على مصطبة التدفئة واصطدمت رأسها بحائط الغرفة. وبعد أن رقدت زوجة جدى على مصطبة التدفئة، بدت بطنها مثل هضبة صغيرة، فبدأ الجندى

اليابانى بالمسح على بطنها، ثم نظر بطرف عينيه إلى تلك الـبطن المزيفـة وخبطها خبطة قوية، راح الجندى اليابانى يحكم سيطرته على قدمى المـرأة بكلتا ركبتيه، وبدأ يفك رباط بنطالها، بينما راحت هى تمنعه بكل ما أوتيـت من قوة وهى تتلوى، ثم تمكنت أخيرًا من عضه عضة قوية فى أنفـه التـى بدت مثل رأس الثوم، فصرخ صرخة غريبة، وأرخى يديه وراح يمسك بأنفه ليمنع الدماء التى بدأت تسيل منها، ثم راح ينظر نظرات مريبة إلى زوجـة جدى التى انزوت إلى جانب الحائط، وهنا ضحك الجنود الخمسة الذين كانوا يقفون أسفل مصطبة التدفئة. بينما سارع ذلك الجندى المصاب بإخراج منديل يد أسود ووضعه على أنفه وراح يضغط عليه بشدة، ثم وقف أعلى مصطبة التدفئة، وقد تغيرت تعبيرات وجهه التى كانت منذ قليل تبدو وكأنها تعبيرات شاعر غزل أثناء إنشاد أبيات من الشعر العاطفى، تغيرت ملامحه لتكـشف عن حقيقته كذئب مفترس، فرفع بندقيته وصوبها تجاه بطن زوجـة جـدى المرتفعة، وقد انعكس ضوء الشمس على حربة البندقية، ولمع ضوء الشمس، وهنا صرخت زوجة جدى آخر صرخة ثم أغمضت عينيها.

جلست عمتى أعلى حافة النافذة، كانت قد تابعت باهتمام شديد ما حدث بين أمها وذلك الجندى اليابانى ممتلئ الجسم، ولكنها لم تستطع أن تتحقق من نية ذلك الجندى اليابانى السيئة من خلال وجهه الذى بدا أمامها، حتى إنهـا راحت تمسك بحب استطلاع ذلك الضوء الذى انعكس على صلعته، بل إنها استهجنت صوت صراخ أمها الذى بدا لها مثل صوت الحيوانـات البريـة، ولكنها ما إن رأت ذلك التغير الكبير الذى طرأ على ملامح ذلـك الجنـدى وقيامه بتصويب حربته تجاه بطن أمها، نقول ما إن رأت ذلك حتى سـيطر عليها شعور بالخوف الشديد على نفسها وشعرت بالحـب العميـق لأمهـا. وعندها قفزت الفتاة من أعلى حافة النافذة وألقت بنفسها على أمها.

وتحدث ذلك الجندى سليط اللسان الذى سبقهم فى الدخول إلى الغرفة ببعض الكلمات مع ذلك الجندى ممتلئ الجسم الذى كان يقف أعلى مصطبة التدفئة، ثم صعد هو إلى أعلى مصطبة التدفئة، وأزاح الجندى إلى أسفل، ثم رماه بابتسامة ساخرة. ثم أدار وجهه وأخذ يحمل بندقيته بإحدى يديه، بينما راح يجذب شعر الفتاة بيده الأخرى وكأنه يجذب رأس واحدة من اللفت، حتى استطاع أن يقتلعها من حضن أمها، وكأنه يقتلع رأس اللفت من بطن تربة صلبة، دفعها بقوة إلى خلف النافذة، ثم جذبها إلى أعلى مصطبة التدفئة. وقد أدت تلك الدفعات القوية إلى تحطيم النافذة. حبست الفتاة صراخها وتغيرت ملامحها من شدة الغضب، وهنا تحررت زوجة جدى من سيطرة ابن عرس عليها فى خيالها وانقضت على ذلك الجندى مثل الحيوان المفترس، فاستقبلها الجندى اليابانى بركلة قوية فى بطنها. وعلى الرغم من أن ركلته قد أصابت بشكل مباشر تلك الصرة التى كانت تضعها فى بطنها، فإن ركلته القوية استطاعت أن تحدث تأثيرًا قويًا على بطنها الحقيقية، واستطاعت أن تدفعها إلى حائط الغرفة، ليصطدم ظهرها ورأسها بالحائط، وعندما جلست على الأرض مغشيًا عليها، شعرت بألم شديد فى بطنها، ولم تستطع الفتاة الصغيرة أن تكتم صراخها أكثر من ذلك، فراحت تصرخ بصوت مرتفع للغاية، واستطاع صوت صراخها المرتفع أن يوقظ الأم، لتنتبه إلى أن ذلك الجندى اليابانى النحيف الذى يقف أمامها الآن قد انفصل تمامًا عن صورة ابن عرس التى كانت تسيطر عليها منذ قليل. وانتبهت جيدًا إلى وجهه النحيف وأنفه الطويل المدبب، وعينيه السوداوين اللامعتين، وكأنه مثقف ذكى سريع البديهة واسع الاطلاع والمعرفة. فسجدت زوجة جدى على مصطبة التدفئة وراحت تذرف الدموع وهى تتوسل إليه قائلة: "أيها السيد... أيها السيد المحترم... فلتعف عنا... أليس لديكم زوجة وأبناء مثلنا... أليس لديكم أخوات مثلنا..".

وتحركت خدود الجندى اليابانى التى بدت مثل خدود فأر صغير ممتلئ الجسم، ولاحت فى عينيه الزرقاوين طبقة دخان أزرق، فمع أنه لم يفهم كلام زوجة جدى، فإنه على الأقل قد فهم مضمون ما تفوهت به. وانتبهت زوجة جدى إلى حركة كتفيه واهتزاز وجنتيه عندما سمع صوت صـــراخ عمتـــى، وإلى نظرة الشفقة التى علت وجهه آنذاك، فنظر بجبن ملحوظ إلـــى رفقائـــه الذين كانوا يقفون أسفل مصطبة التدفئة، وقد لاحقته عيون زوجة جدى التى راحت تتأمل وجوه هؤلاء الجنود الخمسة، علت وجوه هؤلاء الجنود نظرات وتعبيرات مختلفة، غير أن زوجة جدى شـــعرت أن نظـــراتهم وتعبيـــرات وجوههم تخفى بعض اللين والعطف، كانوا يحاولون جاهدين التمسك بالجدية والصرامة فى التعامل ويعلنون عن تلك التعبيرات والنظرات القاسية الساخرة تجاه ذلك الجندى النحيف أعلى مصطبة التدفئة. حول الجندى النحيف نظرته عن هؤلاء الجنود الخمسة، بينما راحت زوجة جدى تتابع نظـــرات عينيـــه، ولاحظت خمود نظراته، وبدأت وجنتاه ترتعشان بشدة، وبدأت عضلاته تهتز بشكل ملحوظ، فراح الرجل يعض على أسنانه وكأنه يخفى شيئًا ما، ثم وجه حربة بندقيته اللامعة تجاه فم عمتى الصغير.

وبدأ الرجل يتحدث بلغة صينية وبلهجة قاسية قائلاً: "أنت يا، اخلعـــى بنطالك! اخلعى بنطالك!" كانت لغته الصينية أفضل من لغة ذلـــك الجنـــدى السمين الأصلع.

وكانت زوجة جدى قد تحررت منذ قليل من تخيلاتها لابـــن عـــرس، ولم تكن قد عادت لحالتها الطبيعية بعد، كان ذلك الجندى النحيف يبدو لهـــا أحيانًا مثل المثقف واسع المعرفة وأحيانًا أخرى مثل ابن عـــرس ذى الفـــم الأسود، فراحت ترتجف حينًا وتصرخ حينا، حيث كادت تلك الحربة اللامعة أن تندفع إلى داخل فم ابنتها الصغيرة، وهنا أفاقت من تخيلاتها، وشعرت بألم

شديد يعتصر قلبها، خلعت بنطالها ثم خلعت ملابسها الداخليه، حتى بدت عارية تمامًا، ثم ألقت بتلك الصرة التى كانت تضعها فى بطنها إلى أسفل مصطبة التدفئة، حتى اصطدمت تلك الصرة بوجه أحد الجنود اليابانيين، والذى بدا شابًا يافعًا وسيمًا، وعندما سقطت تلك الصرة على الأرض، راح ذلك الجندى الشاب الوسيم يتابعها بعينيه الجميلتين وهو فى ذهول شديد، فابتسمت إليه زوجة جدى ابتسامة غريبة، بينما كانت عيناها تذرفان الدموع، ثم رقدت أعلى مصطبة التدفئة وراحت تقول بصوت مرتفع: "فلتتقدم! فلتتقدموا جميعًا! ولا تلمسوا ابنتى! لا تلمسوا ابنتى!".

استعاد ذلك الجندى النحيف حربته، وأنزل ذراعه الذى بدا عليه التعب، وكأنه قد شل تمامًا، وافترش جسد زوجة جدى الغض مصطبة التدفئة، وبدت عيون هؤلاء الجنود اليابانيين شاردة ووجوههم جامدة وكأنهم تماثيل من الصلصال، بينما راحت زوجة جدى تنتظر هجومهم على جسدها، وهى متبلدة الشعور، وقد علا وجهها الشحوب.

وها أنا أفكر الآن هل زوجة جدى كان سيمكنها تجنب تلك الإهانة الكبيرة لو كانت قد واجهت جنديًا يابانيًا واحدًا فقط؟ لا، لم يمكن بإمكانها تجنب تلك الإهانة التى تعرضت لها، فعندما يكون هناك إنسان وحش مفترس بمفرده، لن يكون مضطرًا لأن يرتدى قناع الإنسانية وسيضاعف من جنونه وطيشه، وسيتخلص من جميع الأقنعة والكلمات الجميلة وسينقض على فريسته بكل وحشية. فى الظروف العادية، نجد أن القوة الأخلاقية قد تجبر تلك الحيوانات البرية التى تعيش وسط البشر على التخفى وراء ملابس أنيقة تخفى شكلها الحقيقى، فالمجتمع المستقر الآمن يعتبر مسرحًا لتدريب البشر، تمامًا كما لو وضعنا بعض النمور والذئاب داخل قفص لمدة طويلة، فإن تلك الحيوانات ستتلوث ببعض صفات البشر. أليس كذلك؟ نعم؟ لا؟ أليس كذلك؟

إننى لو لم أكن رجلاً، ولو أمسكت بخنجر فسأقوم بقتل جميع الرجال على سطح الأرض! وربما لو كان ذلك الذى تعرض لزوجة جدى فى ذلك اليوم جنديًا يابانيًا واحدًا فقط، فلربما فكر فى أمه أو زوجته، ولو فكر فى هؤلاء فقد يتخلى عن رغبته، أليس كذلك؟

تشبث هؤلاء الجنود اليابانيون الستة بموقفهم تجاه زوجة جدى، ووقفوا أمام جسدها العارى بخشوع تام وكأنهم يقفون أمام ضريح، حيث لم يكن يرغب أو يجرؤ أحد منهم على التزحزح من مكانه، رقدت هى أمامهم مثل سمكة كبيرة تتعرض لأشعة الشمس، وبكت عمتى بكاءً شديدًا حتى بح صوتها من كثرة البكاء. وفى حقيقة الأمر، إن هؤلاء الجنود كانوا قد تأثروا بما قامت به زوجة جدى وتقديم نفسها لهم، فعندما رقدت أمام هؤلاء الأبناء بقلب الأم، راح كل منهم يستعيد مسار حياته الطويلة.

وأعتقد أنها لو كانت استطاعت أن تصبر قليلاً، فإنه ربما كان بإمكانها أن تنتصر عليهم. فيا زوجة جدى لماذا سارعت بارتداء ملابسك فور أن رقدت على مصطبة التدفئة؟ فإنك ما إن بدأت فى وضع إحدى قدميك داخل بنطالك عمت الفوضى بين هؤلاء الجنود الخمسين المنتظرين أسفل مصطبة التدفئة، وقام ذلك الجندى الذى تعرضت أنفه لعضة شديدة من أسنانك بإلقاء بندقيته وقفز إلى أعلى مصطبة التدفئة، وقد رحت تنظرين بتقزز إلى أنفه المصاب، ثم لم تتمكنى من السيطرة على حالة الجنون الذى يعود إليك بين الحين والآخر، أما ذلك الجندى النحيف الذى تمكن من التغلب عليك بحيلته الماكرة فقد ركل الجندى السمين إلى أسفل مصطبة التدفئة، ثم لوح بقبضته للجنود الواقفين أسفل مصطبة التدفئة وهو يتكلم بكلمات غير مفهومة لك، ثم قام بالصعود أعلى جسدك، والتصق جسده بجسدك وامتلأ وجهك بالرذاذ الكثيف الذى كان يخرج من فمه الكريه.

ثم لاحت أمام عينيك صورة ابن عرس ذى الفم الأسود المدبب، فبدأت فى الصراخ بجنون، وقد أصيب الجنود اليابانيون بالعدوى وراحوا يصرخون مثلك بصورة غير طبيعية.

نعم، إنه ذلك الجندى اليابانى الأصلع فى منتصف العمر الذى أزاح الجندى النحيف من أعلى جسدك. والتصق وجهه بوجهك، فأغمضت عينيك وقد شعرت بامتعاض شديد من هيئته المخيفة، وشعرت بألم شديد يتعرض له ذلك الجنين صاحب الأشهر الثلاثة فى بطنك العالية، وسمعت صوت بكاء عمتى، وصوت تنهد ذلك الجندى الأصلع السمين مثل الخنزير، وصوت قيام هؤلاء الجنود الواقفين أسفل مصطبة التدفئة بدق الأرض وصوت ضحكاتهم الفاجرة. قام الجندى الأصلع بعضك عضة قوية فى وجهك، وكأنه كان ينتقم لنفسه من تلك العضة القوية التى تركت أثرًا واضحًا فى فمه، وامتلأ وجهك بالدموع والدماء وعرق ذلك الجندى الأصلع، وخرجت من فمك كتلة من الدماء الساخنة، وامتلأ أنفك برائحة كريهة، وزاد الألم الذى يطبق على جنينك، وأصيبت جميع عضلات جسمك وأعصابك بتشنج شديد، وأصبحت مثل القوس المشدود، وشعرت بأن جنينك يحاول بأقصى استطاعته أن يختفى فى مكان عميق داخل بطنك العالية، يحاول أن يختفى من تلك المهانة التى تتعرضين لها الآن، وبدت على وجهك علامات الغضب الشديد، فعندما لامس خد ذلك الجندى اليابانى فمك، إذا بك تنقضين على وجهه بعضة قوية من أسنانك الحادة، وقد بدا لحم خده مثل المطاط الناعم، وأحسست برائحة لحمه الكريهة، فبدأت ترخى أسنانك قليلاً، ثم أعقب ذلك ارتخاء أعصابك وعضلاتك.

كانت زوجة جدى قد سمعت بعد ذلك صوت صراخ عمتى المفجع القادم من مكان بعيد جدًا، فراحت تفتح عينيها بصعوبة شديدة لترى أمامها صورة كما فى عالم الخيال: رأت ذلك الجندى اليابانى الشاب الوسيم يقف

أعلى مصطبة التدفئة، وقد كان يستفز عمتى بحربة بندقيته، وهو يلوح بالحربة أمام عينيها، فقفزت عمتى إلى أسفل مصطبة التدفئة بسرعة شديدة، وقد انفتح معطفها الأحمر الصغير تحت أشعة الشمس ليبدو مثل قطعة من الحرير الأحمر الأملس، راح المعطف يتطاير داخل الغرفة من الأمواج، ووقف شعر رأسها خلال قفزتها السريعة من أعلى مصطبة التدفئة، فحمل الجندى اليابانى الشاب بندقيته، وتساقطت من عينيه قطرات من الدموع الزرقاء.

صرخت زوجة جدى صرخة قوية، وودت لو طارت إلى ابنتها، ولكن جسدها كان قد أصبح مثل الجثة الهامدة، ورأت أمامها هالة من الضوء الأصفر أعقبها ظهور هالة جديدة من الضوء الأخضر، وفى النهاية احتضنتها مياه المستنقع السوداء.

فلتقطعى أيتها الخناجر الحادة رقاب هؤلاء الشياطين!

واحمرت الذرة الرفيعة، وجاء الشياطين اليابانيون.

واستباحوا تراب وطننا، واستباحوا جسد زوجة جدى.

فلتأخذوا حرابكم وأسلحتكم، ولتأخذوا معاولكم وعصيكم، ولتقاتلوا الشياطين، وتحموا بلادكم، ولتغسلوا عاركم!

(٥)

كان جدى قد وصل إلى قرية شيان شوى كوو تزه فى صباح اليوم التالى لاعتداء الجنود اليابانيين على زوجته وابنته، جاء على ظهر أحد البغلين الأسودين المملوكين لعائلتى، انطلق قبيل فجر ذلك اليوم، ووصل عند مطلع شمس اليوم نفسه، كان يشعر بضيق شديد طوال رحلته بسبب ذلك

الخلاف الذى دب بينه وبين جدتى قبيل تحركه إلى قرية شيان شوى كوو تزه، حتى إنه لم يهتم بالتمتع بمنظر حقول الذرة الجميل لحظة طلوع الشمس ومراقبة جماعات الغربان التى تحلق فى عنان السماء فى الصباح المبكر، تلقى ذلك البغل الأسود المسكين ضربات قاسية تحثه على الجرى بأقصى سرعة، وحاول البغل المسكين أن يسترق النظر غاضبًا إلى سيده الذى يركب على ظهره، والذى لا يتوقف عن ضربه، ورأى البغل أنه يحاول تنفيذ أوامر سيده قدر استطاعته، كان يجرى بأقصى سرعة ممكنة. نعم، كان البغل يجرى بسرعة شديدة. ففى صباح ذلك اليوم، انطلق ذلك البغل الأسود حاملاً جدى على ظهره، وراح يقطع ذلك الطريق الترابى المتعرج بأقصى سرعة، كانت أقدامه تدك الأرض دكًا، وكان الطريق الترابى يمتلئ بآثار فيضان مياه الخريف وآثار سير العربات ذات العجلات الخشبية. ومضى جدى يتقدم على ظهر البغل ووجهه شاحب، وجسده المتصلب يهتز إلى أعلى وإلى أسفل مع تلك السرعة الشديدة التى كان يقطع بها البغل ذلك الطريق الطويل. حتى شعرت جماعات فئران الحقول التى خرجت تبحث عن رزقها مبكرًا بالفزع الشديد.

كان جدى والجد لوو خان الذى بدأت تظهر عليه ملامح الشيخوخة، قد سمعا فى أثناء حديثهما داخل الحانة صوت دوى الطلقات النارية والانفجارات القادمة من الجهة الشمالية الغربية، وكان جدى قد شعر ببعض القلق، فخرج إلى خارج المنزل وراح يتفقد الشارع، ليكتشف أن هناك حالة من السكون التام قد عمت المكان بما فيه، فعاد ثانية إلى الحانة ليشارك الجد لوو خان الشراب، كان الجد لوو خان لا يزال يتولى مهام المشرف على فرن صناعة النبيذ التى تمتلكها عائلتى، ففى عام ١٩٢٩ عندما تعرض جدى للتنكيل به وغادرت جدتى البلدة، وهجر عمال الفرن عملهم بحثًا عن لقمة عيش فى مكان جديد آمن، مكث الجد لوو خان فى بيت العائلة للحفاظ على

الفرن وحمايته مثل الكلب المخلص لسيده، وكان يؤمن بأنه مهما طال الظلام لابد أن يبدده نور الصباح، وراح ينتظر فى صبر زوال الغمة عن جدى وخروجه من سجنه، وعودة جدتى إلى زوجها وبيتها. وحملت جدتى أبى وعادا بصحبة جدى من قرية يان شوى كوو تزه إلى مسقط رأسهم، وطرقوا باب الفناء الكبير الموحش ليخرج إليهم الجد لوو خان مثل العفريت المخيف من وسط كومة كبيرة من الأعشاب، وما إن رأى الشيخ سيده وسيدته قد عادا إلى منزلهما، حتى سجد أمامهما وقد فاضت عيناه بالدموع، وكان جدى وجدتى يعاملان الجد لوو خان كوالدهما نظرًا لما كان يتمتع به الرجل من أخلاق حميدة وإخلاص لعائلتى، حتى إنهما كانا قد أوكلا له إدارة شئون فرن صناعة النبيذ، ولم يكونا يسألانه عن أى شىء يتعلق بحسابات الفرن.

وعندما مالت الشمس نحو الجنوب الشرقى، دوى صوت بعض الطلقات النارية، واستطاع جدى أن يحدد مصدرها بأنها إما أن تكون بالقرب من قرية شيان شوى كوو تزه أو أن تكون داخل حدود القرية نفسها. وهنا اشتد بجدى القلق، وسحب بغله وهم بالتوجه إلى قرية شيان شوى كوو تزه، ولكن الجد لوو خان نصحه بأن ينتظر بعض الوقت، وألا يتخذ هذا القرار المتهور، وإلا عرض نفسه للخطر الشديد؛ فاستجاب جدى لنصيحة الجد لوو خان، وانتظر داخل الحانة وهو فى غاية القلق، وراح ينتظر عامل الفرن الذى أرسله الجد لوو خان إلى هناك لتقصى الأخبار، وعاد ذلك العامل فى وقت الظهيرة يلهث من شدة التعب، وقد امتلأ وجهه بالعرق وامتلأ جسده بالوحل، حيث ذكر العامل أنه فى صباح ذلك اليوم قام اليابانيون بمحاصرة قرية شيان شوى كوو تزه، ولكن كان من الصعب أن يقف على الحالة الداخلية للقرية، وأنه كان قد تمكن من الاختفاء داخل حقول القصب التى تبعد مسافة كيلومتر ونصف عن القرية، واستمع إلى صراخ أهل القرية الشديد، كما تمكن من رؤية بعض ألسنة اللهب تمتد فى سماء القرية. وما إن خرج

العامل من أمامهما، حتى حمل جدى سلطانية من النبيذ ورفعها على فمه لينتهى منها فى شربة واحدة، ثم عاد مسرعًا إلى غرفته، وراح يبحث عن مسدسه الماوزر الذى لم يخرجه من مخبئه وسط الحائط منذ فترة طويلة.

كان جدى قد التقى عند خروجه من الحانة بحوالى سبعة أو ثمانية من اللاجئين فى ثياب ممزقة وذوى وجوه شاحبة، تمكنوا من الفرار من بطش اليابانيين من قرية شيان شوى كوو تزه. وكانوا يجرون حمارًا عجوزًا ذا عينين جاحظتين، وضعوا فوق ظهره سلتين، أما السلة التى على اليسار فقد كانت تحتوى على لحاف قطنى، والسلة التى على اليمين رقد بداخلها صبى فى الرابعة من عمره تقريبًا، وقد رأى جدى ذلك الصبى الصغير الذى كان ذا رقبة نحيفة طويلة ورأس كبير، وأذنين سميكتين كبيرتين. جلس الصبى داخل السلة وبدت نظراته تعبر عن شعوره بالطمأنينة والأمان، كان يمسك بمنجل قديم اعتلاه الصدأ وينشغل بتقشير عصا من خشب الصفصاف الأبيض، وكان لا يتوقف عن مص شفتيه لانشغاله بتقشير العصا بقوة، بينما كانت تتطاير نشارة الخشب إلى خارج السلة، وأحس جدى أن ذلك الصبى يتمتع بجاذبية قوية، وفى الوقت الذى أجبرته تلك الجاذبية على التقرب من والدى الصبى للاستفسار عن ظروف القرية القادمين منها، كان جدى لا يتوقف عن التفكير فى التقرب من الصبى ومشاهدة حركاته الدقيقة فى تقشير العصى الخشبية والتحديق فى أذنيه الكبيرتين اللتين ترمزان إلى سعادته الكبيرة وعمره المديد وقدرته الكبيرة على الابتكار. قام والدا الصبى بتقديم صورة كاملة لجدى عما قام به اليابانيون فى قرية شيان شوى كوو تزه، كما ذكرا أن الفضل فى تمكنهما من الفرار من أيدى اليابانيين إنما يعود إلى ذلك الصبى، لم يتوقف الصبى عن البكاء الشديد منذ بعد ظهر اليوم الأول من دخول اليابانيين إلى القرية، كان يريد إقناع والديه بالسفر خارج القرية لزيارة

جده لأمه، ولم يستطع والداه أن يقنعاه بعدم السفر بكل الوسـائل بمـا فيهـا التهديد والإغراء. وأخيرًا استجاب الوالدان لرأى الصبى، واستيقظوا مبكـرًا وجهزوا حمارهم، وخرجوا من القرية مع سماع أول صوت انفجار فى شرق القرية. وما إن تمكنوا من الفرار إلى خارج حدود القرية، حتى قام اليابانيون بمحاصرة القرية، قام اللاجئون الآخرون بسرد تجاربهم فى الفرار من بطش المعتدين اليابانيين، كانت جميعها أمثلة وقصصًا مؤثرة. وعندما قـام جـدى بسؤالهم عن أحوال زوجته ليان إر وابنته شيانغ قوان، راح هؤلاء اللاجئون يترنحون هنا وهناك، وقد بدت على وجوههم الحيرة وعجزوا عـن التفـوه بكلمة واحدة، وهنا قام ذلك الصبى الجالس داخل السلة بوضع يديه على بطنه ورفع رأسه لأعلى وأغمض عينيه وراح يجيب جدى قائلاً: "إنهن لم يخرجن من القرية بعد، إنهن ينتظرن الموت؟" وهنا ذعر والدا الصبى ذعرًا شـديدًا، وكأنهما كانا يفكران فى الكلام نفسه الذى تفوه به ابنهما، أو كأنهمـا أفاقـا فجأة، وراحت والدة الصبى تنظر إلى جدى، وراح والده يضرب على ظهر الحمار، بينما مضى اللاجئون فى طريقهم مثل الكلاب الضالة والأسماك التى نجت من شباك الصيادين، وراح جدى يودعهم بنظراته، وخاصة ذلك الصبى ذا الأذنين الكبيرتين، ولقد صدق إحساس جدى ورأيه فـى ذلـك الـصعلوك الصغير، حيث أصبح ذلك الصبى بعد عشرين عامًا مـن ذلـك اليـوم أحـد الصعاليك الشياطين فى قرية دونغ بيى بمدينة قاو مى.

أسرع جدى إلى الغرفة الغربيـة، ودفـع جـدار الغرفـة غاضـبًا، وراح يبحث عن مسدسه الماوزر، غير أنه لم يعثر على المسدس، واكتشف فقط بعض الآثار التى تدل على وجوده هنا من قبل، فـأدار جـدى جـسده غاضبًا، ليقع نظره على ابتسامة ساخرة من جدتى، وقابلته جـدتى بوجههـا المشرق المظلم الكئيب فى الوقت نفسه، وبدا حاجباها متهدلين إلـى أسـفل،

وهى تزم بشفتيها، وتركزت ابتسامتها الساخرة عند وجنتيها؛ فراح جدى يرميها بنظرات تفيض بالانتقام، ثم صاح فيها وقد بدا عليه القلق الشديد: "أين مسدسى؟"

فرفعت جدتى فمها لأعلى وراحت تخرج هواءً باردًا من أنفها، وأدارت جسدها بعيدًا عنه دون أن تعيره أدنى اهتمام، ورفعت منفضة من ريش الدجاج وراحت تضرب بها على اللحاف الموضوع أعلى مصطبة التدفئة.

صاح جدى غاضبًا: "أين مسدسى؟"

فأجابته جدتى غاضبة: "فلتسأل عنه العفاريت!" بينما كانت لا تزال منشغلة بتنفيض اللحاف.

حاول جدى التحكم فى غضبه وخاطبها قائلاً: "أعطينى المسدس"، ثم راح يشرح لها الأمر بصوت خفيض قائلاً: "لقد حاصر اليابانيون قرية شيان شوى كوو تزه، وأريد الذهاب للاطمئنان على زوجتى وابنتى".

فأدارت جدتى جسدها، وقالت غاضبة: "فلتذهب للاطمئنان على زوجتك وابنتك! وما شأنى أنا بهذا الأمر!".

فقال جدى: "أعطينى المسدس!".

فقالت جدتى: "أخبرتك بأننى لا أعلم شيئًا عنه، فلا تطلبه منى ثانية!".

فتقدم جدى خطوة إلى الأمام، ثم قال: "ألست أنت التى سرقت مسدسى وأهديتيه لأبى شامة؟"

"نعم، لقد سرقته وأهديته له! ولم أهد له المسدس فقط، بل إننى أهديته نفسى أيضًا، وقضيت معه ليالى جميلة جدًا! وما أسعد وألـذ الليـالى التـى قضيتها معه!".

تأوه جدى قليلاً، ورفع قبضته لأعلى ونزل بها علـى أنـف جـدتى، فسالت من أنفها كمية كبيرة من الدم الأسود، وتألمـت ثـم سـقطت علـى الأرض، وما إن استطاعت التحامل على نفسها ونهضت، حتى استقبلها جدى بلكمة فى رقبتها، وكانت تلك اللكمة قوية جدًا أطاحت بها مسافة ثلاثة إلـى خمسة أمتار، لتسقط هنالك أعلى الخزانة الموضوعة إلى جوار الحائط.

راح جدى يعض على أسنانه ويسبها "أيتها العاهرة! أيتها الفاجرة!" وقد جمع سبابه كل الحقد والكره الشديد الذى كان يكنه تجاهها خـلال الـسنوات الماضية. وراح يتذكر تلك المهانة التى تعرض لها عندما طرحه أبو شـامة أرضًا، وتذكر تلك المرات العديدة التى تخيل فيها جدتى بين أحـضان أبـى شامة، وتذكر تلك الحالة التى كانت تنتابه عندما يفكر فى ذلك، وسرت فـى جسده سخونة شديدة، فخلع مزلاج الباب المصنوع من جذوع النخل وصوبه تجاه رأس جدتى التى كانت تحاول النهوض من أعلى الخزانة، وهى تميـل برقبتها وقد امتلأ وجهها بالدماء.

نادى عليه أبى الذى عاد مسرعا من خارج المنـزل "أبـى بـالتبنى!" وقد اضطره سماع صوت أبى إلى بقاء يده معلقة فى الهواء، وهى تقـبض على المزلاج.

ولولا نداء أبى فى تلك اللحظة، لكان ذلك المزلاج قد أنهى حياة جدتى لا محالة، وكان قضاؤها وقدرها ألا تموت على يد جـدى، كـان قـضاؤها وقدرها أن تموت برصاص المعتدى اليابانى، كان قضاؤها وقدرها أن يكون موتها موتًا مشرفًا مشرقًا مثل الذرة الرفيعة الناضجة.

زحفت جدتى حتى قدمى جدى، وسجدت بركبتيها على الأرض، وتشبثت بذراعيها بقدميه، وراحت تمسح بيديها الساخنتين على قدميه المتصلبتين، ثم رفعت وجهها المكفهر وراحت تتوسل إليه باكية: "يا جان آو، يا جان آو، يا أخى الأكبر يا زوجى، فلتقتلنى، اقتلنى. فإنك لا تعلم كم يعز علىّ فراقك وبعدك عنى، ولا تعلم كم أتمنى ألا تذهب إلى هناك، فإنك إذا ذهبت لن تعود ثانية. إن هناك أعدادًا كبيرة من اليابانيين، أما أنت ففرد وحيد، ومهما بلغت قوتك وشجاعتك فلن تقوى على مواجهتهم، فالكثرة تغلب الشجاعة يا أخى الحبيب، وإن تلك العاهرة لهى السبب فى هذه الكارثة التى نتعرض لها، وإننى لم أنسك لحظة عندما كنت إلى جوار أبى شامة؛ فإنك لا يمكن أن تلقى بنفسك إلى التهلكة يا أخى العزيز! وكيف يمكننى العيش لحظة واحدة بعد مماتك، أما إذا كنت مصرًا على الذهاب إليها، فليكن فى الغد، فإن فترة الأيام العشرة التى تقضيها معى ستكتمل غدًا، وقد نجحت فى مشاركتى فيك.. وعلى أية حال فلتذهب الآن... فسأتنازل لها عن يوم..".

ألصقت جدتى رأسها بركبة جدى، وأحس جدى أن رأسها ذات سخونة شديدة وكأنها قطعة من الجمر الملتهب، وهنا راح يتذكر بسرعة بعض المزايا التى تتمتع بها جدتى، وشعر جدى بالندم الشديد، وزاد ندمه عندما رأى أبى الذى كان يختبئ خلف باب الغرفة، وراح يلوم نفسه أنه كان عنيفًا جدًا معها، فانحنى واحتضنها إلى أعلى مصطبة التدفئة، وقرر أن يؤجل رحلته إلى زوجته الثانية وابنته فى قرية شيان شوى كوو تزه إلى صباح اليوم التالى، وليحفظهما الرب آمنين سالمين من كل مكروه.

ركب جدى بغله وفر مسرعًا سالكًا الطريق الترابى الممتد من قريتنا إلى قرية شيان شوى كوو تزه، وقد بدا الطريق الذى يبلغ طوله سبعة

كيلومترات ونصف طويلاً جدًا، وكان البغل يقطعه بسرعته جنونيــــة، بينمــا كان جدى يلومه على بطئه، ولا يتوقف عن ضربه ضـــربًا مبرحًــا علـــى مؤخرته. وبدا الطريق طويلاً جدًا وكأنه يمتد إلى ما لا نهاية. وامتلأ جانبــا الطريق الترابى بكميات كبيرة من الغبار التى خلفها البغل الأسود وراءه وهو يقطع الطريق بسرعة جنونية، حتى بدا الطريق وكأنه مغطى بسحابة سوداء تعوق الرؤية تمامًا، انتشرت الروائح الغريبة القادمة من قرية شيان شوى كـــوو تزه لتملأ سماء الطريق.

وتقدم جدى على ظهر بغله حتى تمكن من دخول القرية، ولـــم يهـــتم بالذهاب لرؤية جثث البشر والحيوانات التى كانت مكومـــة وســـط القريـــة، ولكنه توجه إلى منزل زوجته مباشرة، ونزل عن بغله ودخل إلـــى الفنـــاء. وما إن رأى باب المدخل محطمًا شعر بقلق شديد، ثم تقدم إلى الأمام ليـــشم رائحة الدماء التى تملأ المكان، راح يجاهد نفسه لعدم الاهتمام بتلك الرائحة. قطع الفناء واقتحم الغرفة الداخلية، ثم تخطى بسرعة باب الغرفـــة، ليـــشعر عندها بأن قلبه قد أصبح مثل قطعة حجرية صلبة، كانت زوجة جدى لا تزال فى وضع قيامها بحماية عمتى شيانغ قوان، معلقة فوق مـــصطبة التدفئـــة، بينما كانت عمتى ملقاة على الأرض الطينية المقابلة للسرير، وقـــد غطـــس وجهها الصغير فى الوحل، وهى تفتح فمها فتحـــة كبيـــرة، وكأنهـــا تطلـــق صرخة صامتة.

صاح جدى صيحة قوية، ثم أخرج مسدسه ورفعه عاليًا، وفـــر إلـــى خارج المنزل متعثر الخطى، وقفز أعلى ظهر بغله الأسود المنهك، ضـــرب البغل على كفله بماسورة المسدس ليحثه على الفرار إلى المدينة، ليبحث عن هؤلاء المعتدين اليابانيين ويغسل عاره بيديه. ومـــا إن رأت عينـــاه حقـــول القصب الذابل حتى عرف أنه سلك طريقًا خاطئًا، فعدل جـــدى رأس البغـــل

ووضعه على الطريق الصحيح المؤدى إلى المدينة. وسمع صوت صياح غامض من خلفه، إلا أنه لم يلتفت إلى الوراء، وراح يضرب البغل بماسورة المسدس ليحثه على الجرى بسرعة. ولكن البغل لم يكن باستطاعته تحمل كل تلك المعاناة والمعاملة القاسية، فكان كلما تعرض لضربة من جدى راح يرفع قدميه الخلفيتين وكفله لأعلى. وكلما زاد عناد البغل، اشتاط جدى غضبًا وراح يوجعه ضربًا. صب جدى جام غضبه وكرهه تجاه اليابانيين على كفل ذلك البغل الأسود، فراح البغل المسكين يتلوى على الأرض ويجرى بجنون، حتى قام أخيرًا برمى سيده وسط حقول الذرة المتراكمة من العام الماضى.

وراح جدى ينهض مثل الحيوان الجريح، ثم رفع مسدسه وصوبه تجاه رأس البغل الذى امتلأ جسمه بالعرق الغزير، بينما كان متسمرًا فى مكانه مكبل الأقدام، وقد ظهر فى كفله تورم فى حجم البيضة، وظهرت على جسده آثار دماء سوداء. كانت يد جدى التى تحمل المسدس لا تزال مرفوعة عاليًا، ثم بدأت ترتعش. وفى تلك الأثناء، ظهر أمامه بغل العائلة الثانى قادمًا تحت أشعة الشمس الحمراء، وظهر الجد لوو خان يركب أعلى ظهر البغل، وبدا جلد البغل الثانى وكأنه مدهون بطبقة من مسحوق الذهب، رأى جدى حوافر البغل تتحرك حركات شديدة.

قفز الجد لوو خان من على ظهر بغله وقد انتابه بعض القلق، ومال جسده الهزيل إلى الأمام قليلاً حتى كاد أن يسقط على الأرض. ووقف فى المنطقة الواقعة بين جدى وبين بغله الأسود، ثم رفع يده وأنزل يد جدى التى كانت ترفع المسدس وراح يخاطبه قائلاً: "يا جان آو، ارجع عن هذا التصرف الطائش!".

وما إن رأى جدى الجد لوو خان أمامه حتى تحول غضبه الشديد إلى مزيج من الحزن والغضب، وفاضت عيناه بالدموع. وراح يشكو إليه بصوت

مجهد قائلاً: "أيها العم لوو خان، لقد تعرضت زوجتى وابنتى للهلاك على أيدى المعتدين اليابانيين..".

وجلس جدى على الأرض وقد انتابه شعور قوى بالحزن والغضب الشديد. وساعده الجد لوو خان لكى ينهض ثانية، وقال الجد لوو خان مشجعًا: "يا سيدى الفاضل، إن الرجل الشجاع يثأر ويغسل عاره ولو بعد حين! والآن عليك بالعودة للانتهاء من مراسم دفنهن حتى يرتحن فى تربتهن".

فوقف جدى وراح يسلك الطريق المؤدى إلى القرية مترنحًا بخطوات متثاقلة، بينما سحب الجد لوو خان البغلين وسار خلف جدى عائدين إلى القرية.

ولم تكن زوجة جدى قد لفظت أنفاسها الأخيرة بعد، راحت تفتح عينيها ناظرة إلى جدى والجد لوو خان اللذين كانا يقفان أسفل مصطبة التدفئة محدقين إلى جسدها الملقى جثة هامدة فوق مصطبة التدفئة. ونظر جدى إلى حاجبيها السميكين وعينيها الغائمتين وأنفها المصاب وشفتيها المتورمتين، شعر جدى بحزن شديد على حالها ثم انتابه شعور بالقلق على حياتها. وبدأت عيناها تذرفان الدموع، واهتزت شفتاها وراحت تنادى على جدى قائلة: "أخى الكبير..".

وناداها جدى بصوت يعتصره الألم: "يا ليان إر..".

بينما انسحب الجد لوو خان إلى خارج الغرفة.

صعد جدى إلى أعلى مصطبة التدفئة ليساعد زوجته فى ارتداء ملابسها. وما إن لامست يداه جلدها، حتى صرخت صرخة قوية، وراحت تهذى بكلمات غير مفهومة وعاودتها تلك الحالة التى كانت تنتابها منذ سنوات

عندما كان يهاجمها شبح ابن عرس. فراح جدى يحاول جاهدًا شل حركة يديها، واجتهد فى دس البنطال حول الجزء الأسفل من جسدها، والذى كان شبه ميت وغير نظيف تمامًا.

ثم عاد الجد لوو خان إلى الغرفة، وقال مخاطبًا جدى: "سيدى، لقد استعرت عربة من الجيران لنحمل عليها زوجتك وابنتك ونعود بهما إلى قريتنا لنعتنى بها..".

ومضى الجد لوو خان فى كلامه وهو ينتظر سماع رأى جدى، إلى أن هز جدى رأسه بالموافقة.

فحمل الجد لوو خان زوجًا من الألحفة وغادر الغرفة، ثم راح يفرش بهما العربة ذات العجلات الخشبية.

حمل جدى زوجته بين يديه، وجعل إحدى يديه عند رقبتها والأخرى عند ركبتها، وحملها بعناية وحرص شديد كما لو كانت كنزًا نفيسًا، وخطا بها إلى خارج الغرفة ثم باب المدخل ثم إلى الفناء الذى لا تزال آثار أقدام الجنود اليابانيين واضحة على أرضه، ثم تخطى الباب الرئيسى المتساقط حتى وصل إلى العربة الواقفة فى عرض الشارع والمتوجهة صوب الجنوب الشرقى. كان الجد لوو خان قد ربط أحد البغلين الأسودين فى مقدمة العربة، بينما ربط البغل الكبير الذى تورم جسده من شدة ضرب جدى له فى مؤخرة العربة. وهنا قام جدى بوضع زوجته، والتى لم تكن تتوقف عن الصياح داخل العربة. عرف جدى من خلال نظرات زوجته كم تود لو كانت تمتلك القدرة والقوة الشديدة لتحمى نفسها، ولكنها كانت على عكس ذلك تمامًا. فوضعها جدى داخل العربة، ونظر إلى الخلف ليرى الجد لوو خان يحتضن جثة عمتى شيانغ قوان، وقد فاضت عيناه بالدموع. شعر جدى وكأن كماشة

انغرزت داخل حلقه، فراحت الدموع تنهمر من عينيه وهو يسعل ويتقيأ بشدة، ثم راح يستند على العربة وقد رفع وجهه لأعلى، واستغرق يتأمل عجلات العربة الخشبية التى بدت مثل قرص الشمس الكبير.

وسلم الجد لوو خان جثة عمتي شيانغ قوان إلى جدى، فراح جدى يتأمل وجهها الصغير الذى تبدو عليه آثار المعاناة والألم الشديد الذى تحملته، ثم سقطت من عينيه دمعتان حارقتان.

وقام جدى بوضع جثة ابنته إلى جوار الجزء السفلى من جسد أمها، الذى بدا شبه مشلول، ثم سحب طرف اللحاف وغطى به وجه الطفلة المرعب.

قال الجد لوو خان: "سيدى، فلتجلس داخل العربة".

فجلس جدى أعلى عمود العربة شاردًا، وجعل قدميه تتدليان خارج العربة.

وسحب الجد لوو خان حبل البغل ومضى يسير ببطء ملحوظ. وراحت العربة تقطع الطريق وهى تهتز محدثة صوتًا مسموعًا. وأخيرًا خرجت العربة من حدود القرية وسلكت الطريق الترابى لتسير فى اتجاه قريتنا التى تفوح جميع أرجائها بنبيذ الذرة. وواجهت العربة صعوبة كبيرة فى أثناء سيرها على الطريق الترابى غير الممهد، وارتفع صوت عمود العربة، والذى كان يطلق صوتًا قويًا وكأنه يحتضر. أدار جدى جسده، وجعل قدميه تتدليان داخل العربة. وعلى الرغم من اهتزاز العربة المستمر، فإن زوجة جدى بدا أنها قد استسلمت للنوم وعيناها الرماديتان مفتوحتان. فسارع جدى بوضع إصبعه أمام فتحة أنفها ليتأكد ما إذا كانت قد قطعت النفس أم أنها لا تزال على قيد الحياة، وجد أنها لا تزال تتنفس بصورة طبيعية، وعندها اطمأن قلبه قليلاً.

وسارت تلك العربة الحزينة وسط البرية الواسعة، وقد تناثرت خلفها كميات كبيرة من التراب، مضت تسير فى اتجاه قريتنا. جلس جدى داخلها وأحس بأن جميع الأشياء من حوله تكتسى باللون الأخضر.

وبدا عريش تلك العربة بالنسبة لبغل العائلة ضيقًا جدًا، وبدت عجلاتها خفيفة جدًا. وأحس البغل بضيق شديد، فقد كان يتمنى أن يجرى بسرعة إلا أن الجد لوو خان كان يمنعه من ذلك من خلال سيطرته المحكمة على السلسلة المعدنية الموضوعة فى فمه، فاضطر البغل للاستسلام ومضى يسير وفق رغبة سيده. بينما كان الجد لوو خان لا يتوقف عن سب هؤلاء المعتدين اليابانيين قائلاً: "هؤلاء الحيوانات... هؤلاء الحيوانات الذين لا علاقة لهم بالجنس البشرى... لقد قاموا أيضًا بقتل جميع أهل الدار المجاورة، وبقروا بطن تلك السيدة... لقد قتلوا ذلك الجنين المسكين الذى تكون داخل بطن أمه منذ أيام قليلة... يا لها من جريمة كبرى... إن ذلك الجنين يبدو مثل الفأر الصغير الذى سلخ جلده... والذى ترك آثار فضلاته داخل القدر... آه من هؤلاء الحيوانات..".

وهنا راح الجد لوو خان يتكلم مع نفسه، وربما كان يعلم أن جدى كان يستمع إلى كلامه، ولكنه لم يلتفت إلى جدى. مضى يمسك بالسلسلة الموضوعة فى فم البغل مانعًا إياه من الجرى بسرعة، بينما كان البغل لا يتوقف عن هز ذيله، ويضرب به جسم العربة محدثًا صوتًا مسموعًا. أما البغل الذى كان مربوطًا بالخلف، فقد كان يسير مطأطئ الرأس حزينًا، وقد يحار المرء أن يحدد من خلال وجهه المتجهم إذا ما كان حاقدًا أو خجولاً أو يائسًا.

(٦)

لا يزال أبى يذكر جيدًا أن تلك العربة التى يجرها البغل، والتى كانت تحمل زوجة جدى بين الحياة والموت وجثة عمتى شيانغ قوان، لا يزال يذكر

أن تلك العربة كانت قد وصلت إلى القرية فى وقت الظهيرة. وقد هبت فى ذلك التوقيت رياح شمالية غربية عاتية، وامتلأت شوارع القرية بالغبار الكثيف وأوراق الشجر. كان الجو حارًا رطبًا، وقد بدت معالم ذلك الجو على شفتى أبى. كان أبى قد اكتشف أن البغلين المربوطين فى مقدمة ومؤخرة العربة، ما إن وصلا إلى مدخل القرية حتى زادت سرعتهما. وقد تقدم الجد لوو خان يسير بخطوات متعرجة، وعجلات العربة لا تتوقف عن الاهتزاز. امتلأت أطراف عيون البغلين وأطراف عينى جدى والجد لوو خان بقاذورات مثل فضلات العصافير، وامتلأت تلك القاذورات بالأتربة. فجلس جدى فوق عمود العربة ووضع يديه الكبيرتين على رأسه وكأنه تمثال من الصلصال. وسرح فى تلك المناظر المحيطة به دون أن ينبس ببنت شفة. وتقدم أبى إلى مكان يبعد حوالى عشرين مترًا عن العربة التى يجرها البغل، وراح يشم بأنفه الحساس - وإذا صدقنا القول فإن أنفه لم يكن أنفًا عاديًا، بل كان مثل أدوات تجارب الشم الحساسة - واستطاع أن يتأكد من تلك الرائحة غير الطيبة التى تنبعث من داخل العربة. ثم فر مسرعًا عائدًا إلى المنزل، وراح يصيح مناديًا على جدتى التى كانت تقطع الغرفة ذهابًا وإيابًا وهى فى حيرة شديدة: "أمى، أمى، لقد عاد أبى بالتبنى، اكتشفت أن بغلنا يجر عربة خشبية على ظهرها جثة شخص ميت، ورأيت أبى بالتبنى يجلس فوق العربة والجد لوو خان يجر البغل، بينما هناك بغل آخر يسير خلف العربة".

وما إن انتهى أبى من تقديم تقريره إلى جدتى، حتى تغيرت فجأة ملامح وجهها، ثم سارت مسرعة بصحبة أبى إلى خارج المنزل.

ومضت العربة تهتز حتى سكت صوتها تمامًا لتقف خارج منزلنا، وقفز جدى من أعلى العربة، وراح يرمق جدتى بعينين حمراوين، بينما راح أبى ينظر إلى عينى والده وهو فى غاية الرعب، وقد بدت له عينا جدى مثل عينى الهر التى تتغير كثيرًا فى طرفة عين.

قال جدى مخاطبًا جدتى بلهجة قاسية غاضبة: "لقد أتت الرياح هذه المرة كما تشتهين بالضبط!".

فلم تجرؤ جدتى على الدفاع عن نفسها، وتقدمت إلى العربة وهى تقدم رجلاً وتؤخر الأخرى، وتبعها أبى وراح ينظر إلى داخل العربة. امتلأ أعلى اللحاف القطنى بالتراب الكثيف، وبدا هنالك شىء ما تحت اللحاف. ورفعت اللحاف قليلاً، ثم سحبت يدها بسرعة وكأنها قد لامست شيئًا ساخنًا جدًا. واستخدم أبى حاسة بصره القوية ليتمكن من رؤية وجه زوجة جدى الذى بدا مثل ثمرة الباذنجان التالفة أسفل اللحاف وفم عمتى المفتوح المتيبس.

وقد أثار فم عمتى المفتوح بعض الذكريات الطيبة لدى أبى، حتى أنه كان أبى قد خالف من قبل أوامر أمه وأقام أكثر من مرة فى قرية شيان شوى كوو تزه. وكان جدى قد طالبه بأن ينادى على زوجة جدى ليان إر بأمى الثانية، وكانت زوجة جدى تعامل أبى بود وحب شديد، حتى أنه كان يثق فى أنها امرأة ذات قلب طيب. وقد تركت فى ذكرياته انطباعًا طيبًا لن ينسى إلى الأبد، فما إن تذكرها أبى حتى أحس وكأنه يراها أمام عينيه. بينما كانت عمتى الصغيرة شيانغ قوان تتمتع بلسان عذب حلو يقطر شهدًا وهى لا تتوقف عن مناجاته يا أخى الكبير يا أخى الكبير. كان أبى يعشق أخته الصغيرة جدًا، كان يعشق بياض وجهها الجميل وعينيها البراقتين. ولكن كلما تعمقت العلاقة بين أبى وأخته الصغيرة وانخرطا فى اللعب معًا إلى درجة يعز عليهما فراق بعضهما البعض، كانت جدتى تسارع بإرسال من يجبر أبى على العودة إليها فى الحال. فيركب أبى البغل وهو لا يتوقف عن النظر خلفه إلى عينى أخته الصغيرة التى تفيض بالدموع، وعندها يشعر بألم وحزن شديد يعتصر قلبه، ولم يكن يعرف السبب وراء ذلك الحقد الدفين والكره بين جدتى وزوجة جدى ليان إر.

تذكر أبى ذلك المشهد عندما ذهب بصحبة أمه إلى مقبرة الأطفال الأموات المكشوفة لوزن الأطفال الأموات. وكانت تلك الزيارة فى مساء أحد الأيام قبل حوالى عامين، كان أبى قد ذهب بصحبة جدتى إلى "مقبرة الأطفال الأموات المكشوفة" التى تبعد حوالى كيلومتر ونصف شرق القرية - وكانت تلك المقبرة عبارة عن مكان فسيح يلقى فيه الأهالى موتاهم من الأطفال الصغار حيث كانت تنتشر فى القرية عادة تقول بأن الطفل الذى يموت دون الخامسة من عمره لا يمكن دفنه مثل باقى الأموات، وإنما يجب إلقاؤه فى مكان مكشوف لتأكله الكلاب الضالة، وكانت تنتشر فى ذلك الحين الطرق التقليدية فى استقبال المواليد، بالإضافة إلى تدنى مستوى الخدمة الطبية، مما أدى إلى ارتفاع نسبة الوفيات الأطفال، بينما كانوا ينظرون إلى الناجين من الأطفال على أنهم شجعان. كنت أفكر فى بعض الأحيان تفكيرًا غريبًا فى أن تراجع النوع الإنسانى له علاقة وثيقة بالحياة الرغدة المريحة التى يحياها الإنسان. ولكن بما أن السعى إلى تلك الحياة الرغدة المريحة يعتبر هدفًا يسعى إليه كل إنسان، وهدفًا يعتبر الجميع أنه لابد من الوصول إليه حتى تكتمل له الراحة، فإن ذلك سيؤدى بلا شك إلى تناقض عميق يجعل الإنسان فى قلق شديد. فالبشر يجتهدون الآن فى الاعتماد على جهودهم للقضاء على بعض الصفات الجيدة الخاصة بهم. وعندما رافق أبى جدتى إلى ذلك المكان المخصص للتخلص من جثث الأطفال الأموات، كانت جدتى مولعة جدًا بنظام "المقامرة بالزهور" (وهو أحد أشكال المقامرة، ويشبه إلى حد كبير "ورق اليانصيب" و"الجوائز البنكية" و"جوائز المشتريات" فى العصر الحالى)، كانت جدتى تحاول بقدر استطاعتها أن تكون أحد" المقامرين". كان جميع أهل القرية وخاصة جمهور النساء يعشقون ذلك النوع من المقامرة. وكان جدى يعيش آنذاك عيشة رغدة، وقد نصبه جميع أهل القرية رئيسًا لمهرجان المقامرة بالزهور، كان جدى يقوم بوضع اثنتين وثلاثين زهرة

داخل سلة من البامبو، ويقوم بملامسة الزهور مرتين يوميًا في صباح ومساء كل يوم، وكانت تلك الزهور تتكون أساسًا من زهور "الفوانيا الصينية"، و"الورد الصيني" و"الورد البلدي" و"زهرة البنفسج". وعلى الشخص الذي يراهن بدفع ثلاثين ضعف المبلغ الذي يراهن عليه. وبالطبع كانت معظم تلك الأموال تقع في يد جدي. كما كانت النساء العاشقات لذلك النوع من المقامرة يسبحن في خيالهن ويتخيلن الكثير من المهارات الخاصة بتخمين الفائز، والتي كان من بينها وضع طفلة صغيرة داخل قدر كبير ممتلئ بالنبيذ على أن يثقوا في كلامها فور خروجها من النبيذ، والحكم على الفائز من خلال الأحلام التي تراودهن وغيرها من الطرق... التي كان من الصعب إحصاؤها. إلا أن طريقة وزن الأطفال الموتى كانت طريقة جديدة اخترعتها جدتي من وحي خيالها.

صنعت جدتي ميزانًا، ووزنت به اثنتين وثلاثين زهرة من زهور المقامرة.

وكانت تلك الليلة ليلة حالكة، قامت جدتي بإيقاظ أبي عند منتصف الليل، وشعر أبي بأنه استيقظ رغمًا عنه، فاشتد غضبه وتمنى أن يرمي أمه بسيل من الشتائم. فقربت جدتي فمها إلى أذنه وراحت تهمس إليه قائلة: "التزم الصمت التام، وهيا اذهب معي لنقوم بتخمين الفائز في رهان الزهور". كان أبي يشعر بحب استطلاع تجاه تلك الأمور الغريبة، فانتفض مسرعًا وارتدى حذاءه وقبعته، وخرج من المنزل والقرية متخفيًا عن أعين جدي. وسارا بحذر شديد ولم يشعر بحركتهم إنسان أو حيوان. سلم أبي يده اليسرى لأمه لتسحبه وراءها، بينما كانت يده اليمنى تحمل مصباحًا صغيرًا مصنوعًا من الورق الأحمر، أما جدتي فقد كانت تسحب أبي بيدها اليمنى، وتحمل بيدها اليسرى ذلك الميزان الذي تستخدمه في وزن الأطفال الموتى.

وما إن خرجوا خارج حدود القرية حتى سمع أبى صوت الرياح الجنوبية الشرقية التـــى كانـــت تعـــصف بحقـــول الـــذرة الممتـــدة خـــارج القريـــة، وشم رائحة مياه نهر موا شوى القادمة من بعيد. وسارا بحذر شديد تجاه مقبـــرة الأطفال الموتى المكشوفة. وعندما سارا مسافة حوالى نصف كيلـــومتر، كانـــت عينا أبى قد تكيفت مع الظلام الحالك، وأصبح بإمكانه أن يميز لـــون الطريـــق الرمادى ولون الذرة الممتدة على جانبى الطريق. وزادت قوة صـــوت الريـــاح داخل حقول الذرة لتزيد من غرابة تلك الليلة المظلمة، ثم سمعوا صوت نعيـــب بومة مخيف جدًا، وعجزوا عن تحديد المكان القادم منه الصوت.

وأخيرًا تأكدوا من أن البومة كانت تقف أعلـــى شـــجرة الصفـــصاف الواقعة فى منتصف الوادى الفسيح الممتلئ بجثث الأطفال الموتى، وأنها قـــد راحت تنعب بصوت مرتفع بعد أن أكلت حتى شبعت من تلك الجثث. وعندما اقتربت جدتى يتبعها أبى من تلك الشجرة، كانت البومة لا تزال أعلى الشجرة تنعب بشكل متواصل. كانت تلك الشجرة تظهر وسط واد فسيح، وإذا رأيتها فى النهار ستقع عيناك على أوراقها الحمراء. وقد هز صوت البومة الوادى الفسيح، وأحس أبى أن عينى البومة الخضروايين تلمعان بصرامة بين أوراق شجرة الصفصاف. وهنا أحس بأن أسنانه تطقطق من شدة الخوف وســـرت بجسده رعشة شديدة، فراح يقبض بشدة على يد جدتى، وأحس للتو أن ذلـــك الرعب كاد أن يحطم رأسه تحطيمًا.

كان وادى الجثث يمتلئ برائحة كريهة، وعم الظلام الشديد أسفل شجرة الصفصاف، وسمع أبى أصوات الصراصير أسفل الشجرة، وتساقطت مـــن أعلى الشجرة قطرات أمطار فى حجم العملة المعدنية، محدثة صوتًا مسموعًا حطم الصمت الرهيب الذى كان يخيم على المكان. فضربت جدتى على يـــد ابنها وألمحت له أن يقرفص مكانه. فنفذ أبى أمرها بسرعة، وقـــد لامـــست

قدماه ويداه الأعشاب التى تنمو فى ذلك الوادى، وضايقت أوراقها ذقنه، وكأن هناك الكثير من عيون هؤلاء الأطفال الموتى تحدق فى ظهره. وسمع أبى صوت ركض وضحكات جماعة كبيرة من هؤلاء الأطفال الموتى.

ودقت جدتى بهدوء على حجر القداحة، ليخرج بعض اللهب الذى انعكس على يديها المرتعشتين. وهدأت النار، فراحت جدتى تنفخ فيها حتى سمع أبى صوت الهواء الشديد الذى يخرج من فمها. وهكذا حتى اشتعلت النار من جديد وملأ ضوؤها المكان، ثم أشعلت جدتى شمعة المصباح الورقى لتخرج منه كتلة من الضوء الأحمر، وهنا توقفت البومة عن النعيب، وتوافدت جماعات الأطفال الموتى وأحاطوا بأبى وجدتى والمصباح الورقى.

تقدمت جدتى حاملة المصباح الورقى وراحت تبحث عن شىء ما وسط الوادى الفسيح، واصطدم بعض البعوض بالمصباح محدثًا صوتًا مسموعًا. وكان الوادى يمتلئ بالأعشاب البرية، وامتلأت أرضه بالوحل، مما أعاق حركة جدتى بسهولة وسط الوادى، فراحت تنقل قدميها بحذر شديد. ولم يكن أبى يعرف ذلك الشىء الذى تبحث عنه جدتى، كان لديه حب استطلاع لأن يعرف ولكنه لم يجرؤ على سؤالها، فراح يسير وراءها فى صمت تام. كانت أطراف الأطفال الموتى ملقاة فى جميع أرجاء الوادى، وامتلأ الوادى برائحة كريهة. وانتبهت جدتى إلى قطعة حصير مطوية ملقاة أسفل الأعشاب البرية، فأعطت جدتى المصباح لأبى ووضعت الميزان على الأرض، ثم انحنت لتأخذ قطعة الحصير المطوية. رأى أبى تحت ضوء المصباح أصابع جدتى وهى تتحرك مثل دودة الأرض الحمراء. ثم فتحت الحصير لتكشف عن رضيع صغير ملفوف بداخل صرة صغيرة. وبدت رأسه صلعاء تمامًا. فارتعش أبى مما رأى. وأخذت جدتى بعلاقة الميزان ووضعتها على قطعة قماش بالية. وراحت تمسك بإحدى يديها حبل الميزان وتدفع بالأخرى رمانة الميزان. وانفتحت قطعة القماش البالية ليسقط الرضيع على الأرض، وتسقط

رمانة الميزان على قدم جدتى، بينما اصطدمت علاقة الميزان برأس أبى. فصرخ أبى صرخة، وكاد أن يلقى بالمصباح من يده. وهنا ضحكت البومة أعلى الشجرة ضحكة ساخرة، وكأنها كانت تسخر من تصرفاتهم الحمقاء. فمدت جدتى يدها تلتقط رمانة الميزان من على الأرض، وراحت تغرز علاقة الميزان بقسوة داخل لحم الطفل الميت. وشعر أبى برجفة شديدة من صوت غرز علاقة الميزان داخل جسم الرضيع. فأشاح بوجهه بعيدًا، وما إن أدار وجهه ثانية حتى رأى يد أمه تتحرك حول ذراع الميزان، وراح ذراع الميزان يتحرك إلى أعلى وإلى أسفل حتى استقر أخيرًا عند نقطة متوسطة. وعندها أشارت جدتى إلى أبى لكى يقترب بالمصباح، انعكس ضوء المصباح الورقى على ذراع الميزان، بينما كان مؤشر الميزان يقف عند زهرة" الفوانيا الصينية".

وعندما وصل أبى برفقة أمه إلى مدخل القرية، كان لا يزال بإمكانه سماع نعيب البومة الغاضب.

ووضعت جدتى أعلى "زهرة الفوانيا الصينية" مبلغًا من المال.

وكانت الزهرة التى ربحت الرهان فى ذلك اليوم هى زهرة "المايهوا".

ومن ثم فقد أصيبت جدتى حينها بوعكة صحية شديدة.

وما إن رأى أبى فم أخته الصغيرة شيانغ قوان مفتوحًا، حتى تذكر فجأة أن فم ذلك الرضيع الذى وزنته أمه فى ذلك اليوم كان مفتوحًا أيضًا، وأحس أنه يسمع صوت غناء البومة الذى كان يبدو حزينًا حينًا وسعيدًا حينًا، ثم غرق فى التفكير فى جو الوادى الندى الرطب. وانتابه قلق وحيرة شديدة من الجو الحار الرطب والغبار الكثيف الذى كانت ترمى به الرياح الشمالية الغربية فى كل مكان من حوله.

رأى أبى تلك النظرات الحادة التى كان جدى يرمى بها جدتى آنـذاك، وكأنه يستعد للانقضاض عليها ليفترسها فى أى لحظة. وفجأة احدودب ظهر جدتى، ومالت على العربة وراحت تضرب على اللحاف، وهى تبكـى وقـد فاضت عيناها بالدموع: "أختى الحبيبة... أختى الحبيبة... يا شيانغ قوان... يا ابنتى الغالية..".

وخفت حدة غضب جدى بعد سماعه صوت بكاء جدتى. وتقدم الجـد لوو خان إلى جوار جدتى وراح ينصحها بصوت خفيض قـائلاً: "سـيدتى، لا عليك بالبكاء، ولنهتم الآن بحملهن إلى داخل المنزل".

فتقدمت جدتى وفتحت اللحاف، ثم احتضنت عمتى شيانغ قوان وسارت بها إلى داخل المنزل، بينما حمل جدى زوجته الثانيـة وتبـع جـدتى إلـى داخل المنزل.

ووقف أبى خارج المنزل، وراح ينظر إلى الجد لوو خان، وهو يفـك البغل عن العربة، بدت بطن البغل وقد أصيب بآثار جراح من طـول مـدة ربطها بالعربة، ثم نظر إلى الجد لوو خان، وهو يفك البغل الأسود الذى كان مربوطاً بمؤخرة العربة. وما إن تحرر البغلان من قيودهما حتى راحا يتقلبان على الأرض رافعين بطنهما إلى السماء حيناً وملصقيهما بالأرض حينا. وبعد أن انتهى البغلان من التمرغ فى التراب، راحا يهـزان جـسديهما بـشدة، وتطايرت كميات كبيرة من الأتربة من أعلى جسديهما، فسحبهما الجد لـوو خان وتوجه بهما إلى الفناء الشرقى، وتبعه أبى إلى حيث ذهب. فقال الجـد لوو خان: "يا دوو قوان، فلتعد إلى المنزل، لتعد إلى المنزل".

جلست جدتى أمام الموقد، وراحت توقد النيران لتغلى نصف قدر مـن المياه، وتسلل أبى إلى داخل الغرفة ليرى زوجة جدى راقدة فوق مـصطبة

التدفئة، محدقة العينين ولا تتوقف وجنتاها عن الحركة. ثم رأى أبـــى أختـــه الصغيرة شيانغ قوان راقدة أعلى مصطبة التدفئة، وقد تــم تغطيـــة وجههـــا بصرة حمراء، غطت وجهها تمامًا، ثم مضى أبى يتذكر بعض مشاهد تلـــك الليلة المظلمة التى رافق فيها جدتى إلى مقبرة الأطفال المـــوتى المكـــشوفة. وبدا صوت نهيق البغال فى الفناء الشرقى مثل صوت نعيب البومة فى تلـــك الليلة المظلمة. شم أبى رائحة تعفن الجثة، ثم مضى يفكـــر فـــى أن أختـــه الصغيرة ستكون بعد قليل وسط ذلك الوادى الممتلئ بجثث الأطفال المـــوتى، لكى تكون وجبة دسمة للبوم والكلاب الضالة. لم يكن أبى يتخيل أن الإنسان يكون على هذه الدرجة من القبح بعد موته، وقد مثل له وجه أخته المختفـــى تحت الصرة الحمراء قوة جذب كبيرة، وكان يتمنى مـــن أعماقـــه أن يفـــتح الصرة وينظر إلى وجهها الصغير.

عادت جدتى إلى الغرفة، وهى تحمل طستًا نحاســيًا ممتلئًـــا بالمـــاء الساخن، ووضعت الماء على حافة مصطبة التدفئة، وراحت تطرد أبى قائلة: "اخرج من هنا!".

خرج أبى غاضبًا، وسمع صوت غلق الباب فور خروجه من الغرفة. ولم يستطع أن يتحكم فى حب الاستطلاع الذى يسيطر عليه، فوضـــع عينـــه عند شق الباب وراح يشاهد ما يحدث داخل الغرفة. فـــرأى جـــدى وجـــدتى وقد جلسا أعلى مصطبة التدفئة، ثم قاما بخلع الملابس التى كانـــت ترتـــديها زوجة جدى، وألقيا بها على الأرض، فسقط بنطالها الذى كان مـــبللاً علـــى الأرض محدثًا صوتًا خفيفًا. ثم شم أبى رائحة كريهة مقززة. وتساقط ذراعا زوجة جدى إلى جوارها وخرج من فمها صوت غريـــب. وقـــد بـــدا ذلـــك الصوت لأبى مثل صوت نعيب البومة وسط مقبرة الأطفال الموتى المكشوفة فى الوادى الفسيح.

وقالت جدتى لجدى متوسلة إليه: "فلتضغط أنت على ذراعيها". وقد بدا وجه كل من جدى وجدتى غائمًا وسط البخار الذى ملأ سماء الغرفة.

وأخرجت جدتى منديل يد أبيض من داخل الطست النحاسى الممتلىء بالماء الساخن، وراحت تعصره وقد نزلت منه المياه إلى داخل الطست. كان المنديل ساخنًا جدًا حتى عجزت جدتى أن تحتفظ به فراحت تقلبه بين يديها، ثم فتحت جدتى المنديل الساخن ووضعته على وجه زوجة جدى المتسخ، بينما كان جدى منشغلاً بالضغط على ذراعى زوجته، فراحت زوجة جدى تهز رقبتها بشدة وتصرخ بصوت مرعب مثل صوت البومة. ورفعت جدتى المنديل من فوق وجهها، وبدا المنديل متسخاً جدًا. ثم وضعت جدتى المنديل داخل الطست ثانية وراحت تشطفه ثم رفعته لأعلى، وعصرته قليلاً وراحت تمسح به على جسد زوجة جدى...

وفترت سخونة المياه داخل الطست النحاسى، وتصبب جبين جدتى عرقًا، فراحت تخاطب جدى قائلة: "فلتسكب المياه المتسخة وتغيرها بقدر من المياه النظيفة..".

فر أبى مسرعًا إلى الفناء الرئيسى وراح ينظر إلى جدى وهو يحمل الطست النحاسى بكلتا يديه، وقد انحنى ظهره من ثقل الطست، ومضى يترنح حتى وصل إلى جانب سور المرحاض القصير، ورفع ذراعه وراح يسكب المياه المتسخة التى بدت تجرى وسط الفناء مثل الشلال حتى فرغ الطست تمامًا.

وعندما عاد أبى ليضع عينه عند شق الباب ثانية، كان جسد زوجة جدى يلمع مثل قطعة أثاث من خشب الصندل الأحمر التى تم تلميعها منذ وقت قليل، وخفت حدة صوت صراخها وتحول إلى مجرد تأوه. وطلبت

جدتى من جدى أن يحتضن زوجته الثانية، ثم ألقت باللحاف والملاءة إلى أسفل مصطبة التدفئة، وفرشت حصيرة نظيفة تمامًا. فوضع جدى زوجته على الحصيرة، بينما قامت جدتى بوضع كمية من القطن بين قدمى زوجة جدى، ثم سحبت لحافًا وغطت به جسدها. وراحت تتحدث إليها بصوت خفيض ناعم: "أختى الصغيرة، فلتنامى الآن، لترتاحى بعض الوقت، أنا وجان آو سنبقى هنا للاهتمام بك".

أغمضت زوجة جدى عينيها بهدوء وسلام.

ثم خرج جدى ليغير مياه الطست مرة ثانية.

وعندما همت جدتى أن تغسل جسد عمتى الصغيرة شيانغ قوان، تجرأ أبى وتسلل إلى داخل الغرفة، ووقف أمام مصطبة التدفئة، فرمقته جدتى بنظرة دون أن تطلب منه مغادرة الغرفة. وراحت جدتى تنشغل بتنظيف الدماء الجافة التى ملأت جسد عمتى وفاضت عيناها بالدموع. وبمجرد أن انتهت جدتى من تنظيف جسد عمتى، سندت رأسها على الحائط وسرحت فترة طويلة دون أن تتحرك حتى بدت مثل الجثة الهامدة.

وفى أصيل ذلك اليوم، قام جدى بلف ابنته فى لحاف واحتضنها إلى خارج المنزل، وتبعه أبى إلى مدخل البيت، فقال جدى مخاطبًا أبى: "فلترجع أنت يا دوو قوان، ولتبق إلى جوار أمك الأولى وأمك الثانية".

فاعترض الجد لوو خان جدى عند مدخل الفناء الشرقى قائلاً: "سيدى، فلترجع أنت أيضًا، ولأتولى أنا تشييعها".

فسلم جدى عمتى شيانغ قوان إلى الجد لوو خان وعاد هو إلى مدخل الفناء الواسع، وأمسك بيد أبى وراحا يودعان الجد لوو خان بنظراتهما حتى وصل إلى خارج القرية.

(٧)

وفى اليوم الثالث والعشرين من الشهر الثانى عشر القمرى وفق التقويم الصينى لعام ١٩٧٣، كان السيد قينغ صاحب الثمانى عشرة طعنة قد بلغ الثمانين من عمره. وعندما استيقظ فى صباح ذلك اليوم، سمع صوتًا قويًا قادمًا من المذياع وسط القرية، وسمع صوت امرأة عجوز تنادى فى المذياع قائلة: "يا يونغ تشى...: فسألها رجل ذو صوت أجش: "أمى، هل تشعرين بأنك قد تحسنت اليوم؟" فقالت العجوز: "لا، لم أشعر بأى تحسن بعد، بل إننى أشعر بدوار شديد منذ الصباح..".

ضغط قينغ صاحب الثمانى عشرة طعنة على حصيرة المصطبة الباردة ثم جلس عليها، وأحس هو أيضًا بمزيد من الدوار منذ أن استيقظ صباح اليوم. واشتدت الرياح الباردة خارج النافذة، وبدأت نتف الثلج تضرب ستارة سطح النافذة محدثة صوتًا مسموعًا. والتحف قينغ بسترته المصنوعة من جلد الكلاب، والتى ظهرت بها آثار عبث الحشرات، ثم نزل من أعلى المصطبة ومد يده ليأخذ بعصاه التى يتزين أعلاها برأس تنين، والموضوعة خلف باب الغرفة، ثم توجه إلى خارج الغرفة. كان فناء المنزل قد امتلأ بطبقة سميكة من الثلج، وكانت عيناه لا ترى سوى لون الثلج الأبيض الذى ملأ الفناء حتى أعلى السور الترابى المحيط بالفناء، بينما كانت تمتد على المدى البعيد قليل أعواد الذرة وسط الحقول الفسيحة. واستمر هطول كرات الثلج، ولم يكن يعرف متى ستتوقف السماء عن إرسال هذه الكميات الكبيرة من الثلج. فاستدار بجسده سعيدًا بما يرى، وراح يفتح بعصاه غطاء قدر الذرة وقدر الدقيق، ليكتشف أنهما فارغان تمامًا، وعندها تأكد من أن عينيه لم تخنه عندما نظر إليهما بالأمس. لم يكن الطعام قد دخل جوفه منذ يومين كاملين،

وبدأت معدته تتلوى من شدة الجوع، واستعد ليتوجه بكل حزم ودون أدنى خوف إلى مكتب سكرتير الحزب فى القرية ليطلب بعض الحبوب. واشتد شعوره بالجوع والعطش والبرد، وكان يعلم جيدًا أن سكرتير الحزب المسئول بقريته هو مجرد صعلوك ذى قلب متحجر، وأنه ليس من السهل التفاوض معه لطلب كمية بسيطة من الحبوب. فقرر أن يغلى قليلاً من الماء ليشعر ببعض الدفء فى معدته، واستعد ليخوض آخر معركة مع ذلك الصعلوك. مد عصاه ليفتح القدر المخصص للاحتفاظ بالمياه، ليكتشف أن به قدرًا ضئيلاً من الثلج، وأنه يخلو تمامًا من المياه، وهنا تذكر أنه لم يوقد النار فى بيته منذ ثلاثة أيام، وأنه لا يمتلك جرة يحمل بداخلها ما يحتاج من الماء من البئر المخصص لذلك. فراح يبحث عن مغرفة قديمة، وغرف بها ما يزيد على عشرين غرفة من الثلوج التى تملأ فناء المنزل، ثم راح يسكبها داخل القدر الذى لم يقم بتنظيفه أبدًا. وضع الغطاء أعلى القدر ثانية وراح يبحث عن بعض الحطب والكبريت، وفشل فى العثور على ذلك وسط الفناء، فدخل إلى غرفته، وجعل يأخذ قليلاً من أعواد القمح من الموقد أسفل مصطبة التدفئة، وأخذ يستخدم السكين فى جمع بعض أعواد الذرة والأعشاب الأخرى، ثم أشعل فيها النار بواسطة القداحة، انتهى عصر علبة الكبريت التى كان يشتريها بقرشين، وأصبح الناس يحصلون على الكبريت على بطاقات التموين، ولا يمكن شراء الكبريت خارج بطاقات التموين، وكان يعرف جيدًا حجم نفسه وأنه مجرد صعلوك وضيع لا يساوى مليمًا واحدًا فى هذا المجتمع. واشتعلت ألسنة اللهب داخل الموقد، فتقدم نحوها وراح يمنح صدره قدرًا من الدفء وسط برودة الجو الشديدة، بينما كان ظهره لا يزال يشعر بالبرودة، أضاف كمية من الأعشاب ليشتد اشتعال النار، ثم أدار جسده ليمنح ظهره بعض الدفء. وهنا سرت البرودة فى صدره من جديد، وهكذا، فإن عدم قدرته على تدفئة جسده كاملاً فى نفس التوقيت قد زاد من معاناته.

فتوقف عن ذلك، وراح يقذف بالأعشاب داخل النار منتظرًا غليان المياه. كان يعتقد بأنه إذا شرب قدرًا من الماء المغلى ومنح معدته بعض الدفء، سيكون قادرًا على أن يكون خصمًا قويًا أمام ذلك الصعلوك، وإنه إذا فشل في الحصول على الحبوب الغذائية التى يحتاج إليها، فإنه لن يسمح لذلك الصعلوك بأن يطرده بسهولة. وعندما أوشكت النار أن تخمد، أخذ بآخر كمية من الأعشاب وألقى بها وسط النار وراح يتوسل إلى إله النار أن يجعل تلك الأعشاب تشتعل لأطول فترة ممكنة، إلا أنها انطفأت فى أسرع وقت. وعندما سكنت النار تمامًا، قفز بسرعة شديدة عائدًا إلى غرفته، وسحب آخر كمية من الأعشاب المكومة أسفل مصطبة التدفئة وألقى بها فى النار حتى تشتعل وتذيب كمية الثلج داخل القدر. كما ألقى بمقعد ذى ثلاثة أرجل ومكنسة قديمة داخل النار ليزيد من اشتعالها. وهنا اشتدت ألسنة اللهب وسمع صوت اشتعال المقعد والمكنسة وامتلأ المكان بالدخان الكثيف. فذعر ذعرًا شديدًا، ومد عصاه يسحب تلك المروحة الصغيرة المعلقة على الحائط، وراح يهوى بها على النار حتى نجح فى السيطرة على الدخان، ليرى ألسنة اللهب تأكل فى المقعد والمكنسة. كان يعلم جيدًا أن الأخشاب تشتعل ببطء أكثر من غيرها من المواد الأخرى، وهنا شعر ببعض الراحة. وبما أن عيون الشيوخ الكبار تعجز تمامًا عن التصدى للدخان، فقد راحت تذرف عيناه الدموع التى نزلت على وجهه حتى ذقنه. وسمع صوت غليان المياه المستمر داخل القدر. فراح ينصت إلى صوت المياه وغمرته سعادة جمة، وعلت وجهه ابتسامة بريئة. وعندما خفت حدة اشتعال النار داخل الموقد، سحب تلك الابتسامة البريئة وتراكمت علامات الخوف الشديد على صفحة وجهه، فهب واقفًا وراح يمسح المكان من حوله بنظرات حادة باحثًا عن أى شىء قابل للاشتعال، وبالطبع فإن عوارض وسقيفة المنزل من المواد القابلة للاشتعال، ولكنه يعجز عن الإتيان بها. وهنا تذكر على الفور حكاية الأعرج تشويه قواى لى أحد

الملائكة الثمانية، وقيامه بإشعال النار فى قدمه. وتقول الحكاية بأن تشويه قواى لى كان قد وضع قدمه داخل النار المشتعلة حتى سمع صوت اشتعالها يرن فى أذنيه، فجاءت إليه زوجة أخيه، وقالت له: "أنت كده يا أخى صرت أعرج!" وبما أن فم النساء عنوان الشؤم، فقد أصيب قدمه بالعرج. وكان يعرف جيدًا أنه ليس ملاكًا، وأنه إذا حرقت قدمه فلن تقوى على السير خطوة واحدة، ومن ثم فإنه لن يستطيع الذهاب إلى سكرتير الحزب لطلب ما يحتاج من الحبوب الغذائية. وأخيرًا وفى تلك اللحظة التى أوشكت أن تخمد فيها النار أمامه، حدق فى المحراب المحفور داخل الحائط. كانت هناك لوحة سوداء حالكة موضوعة أمام المحراب، فراح يلكز تلك اللوحة بعصاه إلى أن أحدثت صوتًا مسموعًا، وتساقطت من أعلاها كمية من التراب، إلى أن كشفت عن لون خشبها الأصلى الذى كان يغطيه التراب منذ فترة طويلة. وهنا خفق قلبه وشعر بألم شديد. وبينما هو يتألم ألقى بتلك اللوحة التى احتفظ بها أمام المحراب طيلة ستة وثلاثين عامًا فى بطن النار. واستقبلت النار تلك اللوحة بحفاوة شديدة فراحت تلتهمها التهامًا، وظهرت آثار عرق أحمر داكن أعلى تلك اللوحة وهى تشتعل وسط النار، وبدت له آثار العرق وكأنه يحرق لحم ذلك الثعلب الأحمر.. مد الثعلب لسانه وراح يلعق الثمانية عشر جرحًا التى كان يمتلئ بها جسده، وها هو لا يزال بعد هذه المدة الطويلة يتذكر لسان ذلك الثعلب البارد اللطيف. كان على ثقة بأن لسان الثعلب كان دواء شافيًا لجميع الأمراض. حتى إنه بعد أن عاد إلى القرية لم يلتهب أى من تلك الجراح الثمانية عشر، شفيت تمامًا دون أن يضع عليها أى دواء. وكان كلما قص حكاية لسان الثعلب على مسامع الأصغر منه سنًا، يرى علامات الشك تعلو وجوههم. فيخلع عنه سترته الخارجية غاضبًا، ويجعلهم يرون بأم أعينهم آثار الجراح التى كانت تملأ جسده، إلا أنهم كانوا لا يزالون ثابتين على موقفهم تجاه حكايته الغريبة. وكان يثق بأنه لن يموت رغم كل الصعاب،

وأنه ينتظر حظًا كبيرًا سيأتى إليه، إلا أن ذلك الحظ لا يزال يأبى. وبعد أن أصبح واحدًا من أبناء الشعب الذين يتمتعون"بالضمانات الخمسة"، تأكد عندها من أنه قد واتاه الحظ أخيرًا. ثم زال عنه ذلك الحظ فيما بعد، وعندها لم يعد أحد من أهل القرية يهتم بأمره. ذلك الطفل الذى كان يجلس آنذاك داخل السلة الموضوعة أعلى ظهر الحمار، والذى كان مشغولاً بتقشير تلك العصا الخشبية، أصبح ذلك الصعلوك الصغير سكرتيرًا للحزب فى القرية – ولو لم يقم ذلك الصعلوك بقتل تسعة أرواح بشرية خلال سنوات" القفزة الكبرى"، لكان من الممكن أن يصبح سكرتير الحزب على مستوى المقاطعة، قام ذلك الصعلوك بشطب اسمه من قائمة المستفيدين من "الضمانات الخمسة"... وراحت تلك اللوحة تشتعل بصعوبة كبيرة وكأنها مثل لحم الثعالب، سمع صوت غليان المياه داخل القدر، وأخيرًا نجح فى تسخين المياه داخل القدر.

راح يتجرع تلك المياه الساخنة، وما إن دخلت إلى جوفه أول جرعة من الماء الساخن، شعر براحة كبيرة وارتعش جسمه، فراح يتجرع المزيد من الماء الساخن وشعر بأنه قد ارتفع إلى مصاف الملائكة.

وما إن شرب سطلين من الماء الساخن، حتى تصبب جسده عرقًا، وأيقظت سخونة جسده جماعات القمل التى راحت تجرى على جسده دون أن تقرصه. وعلى الرغم من شعوره بالجوع والعطش الشديد، فإنه أحس بأن جسده قد استعاد بعض القوة. فأمسك بعصاه وراح يخترق كومة الثلج الكثيفة وسمع صوت تساقط الثلج، فشعر بارتياح وصفاء. وكان الشارع يخلو من المارة، وقد رأى كلبًا أسود تعلو ظهره كمية من الثلج يسير وسط الشارع بحذر واضح، وكان الكلب يسير مسافة ثم يتوقف ويهز جسده ليتطاير من أعلى ظهره كميات من الثلج، حتى يكشف عن لون جلده الأسود، إلا أنه كانت هناك كمية جديدة من الثلج تتراكم بسرعة فوق ظهره. وتبع الشيخ قينغ

صاحب الثمانى عشرة طعنة الكلب الأسود إلى داخل منزل ذلك الصعلوك سكرتير الحزب بالقرية. كان باب منزل الصعلوك الأسود الكبير مغلقًا، وكانت تطل من داخل السور بعض من أزهار المايخوا شديدة الحمرة. ولم يكن للسيد قينغ مزاج ليتمتع بجمال تلك الأزهار، فصعد درجات السلم الحجرية، وراح يلهث قليلاً، ثم أحكم بعد ذلك قبضته جيدًا وجعل يضرب على درفة الباب. فإذا به يجد الفناء ساكنًا تمامًا إلا من نباح الكلاب. اعتراه الغضب الشديد، وراح يستند على جانب الباب الكبير، ورفع عصاه وراح يضرب بها على قفل الباب، فراحت الكلاب تنبح وسط الفناء بشكل جنونى.

وأخيرًا انفتح باب المنزل الرئيسى، واصطدم أول ما اصطدم بكلب سمين ذى عينين وشعر لامع. ولم يبال الكلب السمين بأى خطر يواجهه وراح يهجم على الشيخ قينغ صاحب الثمانى عشرة طعنة، وهنا راح الشيخ يلوح بعصاه مدافعًا عن نفسه، فتراجع الكلب وكشف عن أنيابه البيضاء الجميلة وينبح بشكل مستمر، وبعدها رأى وجه امرأة فى منتصف العمر ممتلئة الجسم ذات وجه مضىء. فجعلت المرأة تنظر إلى قينغ صاحب الثمانى عشرة طعنة، ثم خاطبته بلهجة ودودة قائلة: "إنه أنت أيها الجد قينغ، هل لديك مسألة ما؟" فرد عليها الشيخ قينغ بصوت مبحوح قائلاً: "أريد مقابلة السيد السكرتير!" فقالت المرأة بلهجة حانية تنم عن تعاطفها مع الشيخ: "لقد خرج لحضور اجتماع الجمعية العمومية للقرية". فراح الشيخ قينغ يصيح بصوت متعب" فلتتركينى أدخل!" فإننى على الرغم من تعرضى لثمانى عشرة طعنة بيد اليابانيين، فإننى لم أمت، فهل هو يريد أن أموت جوعًا وعطشًا تحت قدميه؟" فقالت المرأة وقد شعرت بكثير من الحزن: "أيها الجد قينغ، إنه حقًا خارج المنزل، لقد خرج منذ وقت مبكر لحضور اجتماع الجمعية. وإذا كنت جوعان، فلتتفضل إلى منزلنا لتأكل بعض الطعام، وفى

الحقيقة إننا ليس لدينا طعام فاخر، فالميسر لدينا هو الخبز المحشو بالبطاطا". قال الشيخ ببرود: "تقولين الخبز المحشو بالبطاطا؟ إن كلابكم لن ترضى أن تأكل هذا الخبز المحشو بالبطاطا!" فشعرت المرأة بشيء من عدم الارتياح إلى كلامه، فقالت: "إذا فلا داعى لأن تأكل هذا الخبز. وإنه الآن ليس موجودًا بالمنزل. إنه ذهب لحضور اجتماع الجمعية. وإذا كنت تريده، فلتذهب لمقابلته هناك!"ثم دخلت المرأة إلى المنزل، وأغلقت الباب الرئيسى. فرفع الشيخ عصاه وراح يضرب على الباب من جديد، وقد شعر بالإرهاق الشديد حتى كاد أن يسقط على الأرض. ثم راح يخطو إلى الشارع القريب من كومات الثلج، وهو يحدث نفسه قائلاً: "ذهب إلى اجتماع الجمعية... ذهب إلى اجتماع الجمعية... إننى أتهم هذا الصعلوك الحقير... أتهمه بظلم واضطهاد المواطنين البسطاء الصالحين، أتهمه بأنه اغتصب الحبوب الغذائية التى تخصنى". وراح الشيخ يسير بصعوبة مثل الكلب الأعرج، وقد تركت قدماه آثارًا واضحة وسط الثلج. وبعد أن ابتعد مسافة طويلة عن المنزل، كان لا يزال يشم رائحة أزهار المايخوا العطرة، فأدار جسده ونظر إلى ذلك الباب الأسود الكبير وبصق نحوه بصقة شديدة، بينما كانت أزهار المايخوا الحمراء ترفرف عالية.

وأخيرًا وصل الشيخ قينغ إلى خارج مدخل الجمعية قبيل غروب الشمس. كان الباب مصنوعًا من الحديد، يصل قطر سيخ الحديد فيه إلى حجم سمك إصبع الإبهام، وكان الباب عاليا لدرجة أن أى شاب يفكر جيدًا قبل أن يقدم على القفز من أعلاه. استطاع أن ينظر من خلال السياج الحديدى، ليرى الثلج داخل الفناء وقد بدا أسود متسخًا. ورأى عددًا من الأشخاص يتحركون داخل الفناء يرتدون ملابس جديدة وقبعات جديدة، وذوو رءوس وآذان كبيرة وأسنان لامعة. ومنهم من كان يحمل رأس خنزير تخلو من الشعر – وقد

بدت آذان الخنزير حمراء، ومنهم من كان يحمل واحدة من السمك الشريطى الفضى، ومنهم من كان يحمل الدجاج والبط المذبوح. فـراح الـشيخ قينـغ يضرب بعصاه الباب الحديدى محدثًا صوتًا مسموعًا، وكأن هؤلاء الأشخاص الذين كانوا يقطعون الفناء ذهابا وإيابًا منشغلين جدًا، لم ينظر أحد منهم إلـى الشيخ واستمروا فى حركاتهم وسط الفناء. فراح الشيخ قينغ يبكى ويـصيح بصوت مرتفع قائلاً: "أيها المسئولون... أيها القادة... إننى مظلوم... لقد كاد الجوع أن يقتلنى..".

وتقدم نحوه شاب فى ريعان شباب يظهر داخل جيب قميصه ثلاثة من الأقلام الجافة، وراح الشاب يسأله ببرود: "وما الـذى يحملـك علـى هـذا الصراخ هنا؟" وما إن رأى الشيخ قينغ ذلك الشاب والأقلام الجافة التى تطل من جيب قميصه، حتى اعتقد بأنه واحد من المسئولين الكبار قد خرج إليـه ليسمع شكواه، فسجد الشيخ قينغ أمام الشباب وراح يمسك بالسياج الحديـدى، وبدأ يشكو إليه حاله باكيًا: "أيها المسئول الكبير، لقد استولى سكرتير القريـة على حصة الحبوب الغذائية المخصصة لى، ولم يدخل جوفى طعام منذ ثلاثة أيام، وها أنا كدت أن أموت من شدة الجوع. والطعنات الثمانى عشرة التـى تلقيتها من المعتدين اليابانيين لم تستطع النيل منى، وها أنا سأموت جوعًا..".

فسأله الشاب: "وإلى أى قرية تنتمى أيها الشيخ؟".

فسأله الشيخ قينغ مندهشًا: "أيها المسئول الكبير، ألا تعرفنى؟ إننى قينغ صاحب الثمانى عشرة طعنة!".

فضحك الشاب، ثم قال: "وكيف أعرف أنك قينغ صاحب الثمانى عشرة طعنة؟ فلترجع وتبحث عن السيد المسئول عنكم، فإن هيئـة الجمعيـة فـى عطلة الآن".

راح الشيخ قينغ يضرب على الباب الحديدية لمدة طويلة، ولكن لم يعره أحد أدنى اهتمام. وانعكس ضوء أصفر على نافذة الفناء الكبير، وراحت تتساقط أعلى النافذة كميات من الثلج فى حجم ريش الإوز فى صمت تام. ودوى فى القرية صوت انفجار بعض المفرقعات، فتذكر فجأة أنه قد حان وقت الافتراق عن الموقد، وأنه قد حان وقت صعود إله الموقد إلى السماء. ففكر فى العودة إلى منزله، ولكن ما إن تقدم خطوة سقط منكبًا على وجهه وكأن هناك شخصًا ما قد دفعه من الخلف. وشعر بدفء شديد عندما لامس وجهه نتف الثلج التى تملأ الأرض. وقد جعله هذا الشعور بالدفء يتذكر حضن أمه الدافئ الحنون، لا بطن أمه الدافئة. فعندما كان طفلاً صغيرًا مغمض العينين فى بطن أمه، كان مثل السمكة الصغيرة التى تتحرك بحرية تامة، ولم يكن يشكو من الجوع أو اللباس أو كان يساوره أدنى قلق أو خوف. وقد شعر بسعادة أن يستعيد ذكرياته داخل بطن أمه، وجعله الشعور بعدم الجوع والعطش والبرودة يشعر بسعادة بالغة. وجعله صوت نباح الكلاب الذى كان يملأ جميع أرجاء القرية يتأكد من أنه قد غادر بطن أمه إلى هذه الدنيا. بدا ذلك الضوء الأصفر فى فناء الجمعية وحمرة أزهار المايخوا فى منزل سكرتير الحزب، بدا مثل هالة من النور أضاءت جميع الأرجاء، وشعر بالنور يغمر جميع الأماكن، بينما كانت نتف الثلج تتساقط بشكل متواصل، وقد امتطت آلهة المواقد خيولاً من الورق وفرت إلى ذلك الفردوس البعيد. وهنا شعر بسخونة شديدة تسرى داخله. راح يخلع فى عجالة تلك السترة القديمة من جلود الكلاب، ثم خلع سرواله القطنى البالى، ثم حذاءه القطنى، فوجد أنه لا يزال يشعر بالسخونة، راح يخلع قبعته القديمة من اللباد، ولكنه لا يزال يشعر بسخونة، فخلع جميع ملابسه حتى أصبح عاريًا كما ولدته أمه، ولكنه كان لا يزال يشعر بالسخونة. فاتكأ على كومة الثلج، فإذا بالثلج يلسعه لسعة شديدة، فراح يتلوى وهو لا يزال يشعر

بالسخونة الشديدة. فراح يبتلع كميات كبيرة من الثلج، فإذا بقطع الثلج تلسع حلقه بشدة، وكأنها حصى ساخنة جدًا فى أيام الحر الشديد. ولا يزال يشعر بالسخونة! فانتفض من أعلى كومة الثلج، وراح يمسك بسيخ حديدى من أسياخ سور الجمعية، فإذا بالسيخ يلسع يده لسعة قوية جدًا، حتى التصقت يده بالسور الحديدى وعجز أن ينتزعها منه، واستمر فى صياحه: سخونة شديدة! سخونة شديدة!

وخرج ذلك الشاب صاحب الأقلام الجافة مبكرًا ليكنس الثلج المتراكم وسط الفناء، وما إن أطل من سور الجمعية حتى ذعر ذعرًا شديدًا، حيث رأى ذلك الشيخ الذى كان يقدم نفسه على أنه قينغ صاحب الثماني عشرة طعنة، رآه معلقًا على باب المدخل عاريًا كما ولدته أمه وفى حالة صعبة جدًا. وقد انتبه إلى ملامح الشيخ المسودة، وأطرافه المرتخية، وهو يحدق فى فناء الجمعية. ولم يكن أحد يصدق لأول وهلة أن هذا الشخص هو شيخ وحيد مات من شدة الجوع والعطش والبرد.

تعمد ذلك الشاب أن يحصى آثار الجراح على جسم الشيخ قينغ، ليجد أنها ثمانية عشر جرحًا بالتمام والكمال.

(٨)

استطاع تشينغ ما تزه أن يتحرر من أسر الجنود اليابانيين، بعد أن دلهم على جميع الورش التى تعمل فى مجال صناعة الأحذية من القش. فسأله ذلك الجندى صاحب القبعة المصنوعة من الصوف بلهجة صارمة: "ألا تزال هناك ورش أخرى لم نرها بعد؟" فقال تشينغ ما تزه مؤكدًا: "لا يا سيدى، حقًا إنه ليس هناك أى ورش أخرى". فنظر صاحب القبعة نظرة

إلى الجنود المحيطين به، فهزوا إليه رأسهم بالموافقة، وعندها سمع تـشينغ صاحب القبعة يأمره: "انـصرف!" فهـز تـشينغ رأسـه وانحنـى أمامـه وأخذ يتراجع خطوات إلى الخلف، ثم أدار جسده بسرعة شديدة، كان يتمنـى أن يفر مسرعًا من أمامهم، إلا أن قدميه لم تساعداه على ذلك، وعجز عن أن يخطو خطوة واحدة. وبدأت جراح صدره تؤلمه ألمًا شديدًا، وشعر ببـرودة داخل سرواله. فاستند إلى جذع شجرة وأخذ نفسًا عميقًا، وراح يستمع إلـى الصراخ الشديد القادم من جميع منازل القرية، وعجزت قدماه عن الحركـة. واحتك ظهره بلحاء شجرة الصفصاف الجاف. وملأ دخان القذائف اليدويـة الكثيف سماء القرية. وقام الجنود اليابانيون بإلقاء مئـات القنابـل الـسوداء الصغيرة على الورش الاثنتى عشرة المتخصصة فى صناعة الأحذيـة مـن القش، كانت القنابل تتساقط من نوافذ الورش لتخرج من مداخلها. وبعـد أن انتهى هؤلاء الجنود اليابانيون من إلقاء القنابل على الورش، راحوا يطوفون حول الورش المحترقـة دون أن يتحـرك لهـم سـاكن. ودوت أصـوات الانفجارات داخل الورش وقد رجت الأرض رجًا، وتصاعدت كميات كبيرة من الدخان الكثيف من نوافذ الورش المحترقة وسط صرخات استغاثة هؤلاء العمال الذين لم يلفظوا أنفاسهم الأخيرة بعد. راح الجنود اليابـانيون يلقـون بكميات من القش عبر النوافذ ليزداد اشتعال النيران بداخل الـورش، حتـى خفت حدة صرخات الاستغاثة، وأصبح من الصعب الاستماع إليها. وهكذا قاد تشينغ إلى تلك الورش الاثنتى عشرة فى القرية. كان يعلم جيـدًا أن ثلاثـة أرباع رجال القرية يعملون ويقضون الليل داخل تلك الورش، ويبدو أنه لـن يخرج أحد منهم حيًا. وفجأة أحس بأنه ارتكب جريمة لا تغتفـر. لـم يكـن الجنود اليابانيون يستطيعون التوصل إلى تلك الورشة الواقعة شرق القريـة دون الاعتماد عليه، وتعتبر تلك الورشة أكبر ورشة على مـستوى القريـة، يجتمع داخلها يوميًا حوالى ثلاثين أو عشرين رجلاً ما بين العمل فى صناعة

الأحذية وبين التسامر. ألقى الجنود اليابانيون على تلك الورشة وحدها ما يزيد على أربعين قنبلة، حتى نجحوا فى تدميرها تمامًا. أصبحت الورشة فور تدميرها عبارة عن مقبرة بارزة، وبرز بين الركام عمود خشبى بدا وكأنه فوهة بندقية موجهة نحو السماء.

خاف خوفًا شديدًا وندم ندمًا أشد. وأحس كأنه يرى تلك الوجوه التى تعرف وقد أحاطت به وراحت توبخه توبيخًا شديدًا. راح هو يدافع عن نفسه قائلاً: إن الجنود اليابانيين هم الذين أجبرونى بأسلحتهم على ارتكاب هذا الخطأ، وحتى لو امتنعت عن مساعدتهم، فإنه بإمكانهم أن يتوصلوا إلى جميع الورش فى القرية ويدمرونها تدميرا. وقد راح هؤلاء الضحايا يتبادلون النظرات البائسة فيما بينهم، ثم اختفوا عنه. فراح ينظر إلى أشلائهم، وعلى الرغم من عدم شعوره بوخز الضمير، فإنه أحس ببرودة شديدة تسرى بداخله، وكأنه قد نقع فى نهر شديد البرودة.

وجاهد حتى استطاع العودة إلى منزله، ليكتشف أن زوجته الجميلة وابنته ذات الثلاثة عشر عامًا ترقدان عاريتين وسط الفناء، خرجت أمعاؤهن على الأرض. فاسودت الدنيا أمام عينيه، حتى سقط مغشيًا عليه... فرقد على الأرض ما بين الحياة والموت... ثم مضى يتقدم نحو الجنوب الغربى. كان الجنوب الغربى تعلوه سماء وردية تمتلئ بسحب ورية، وقد وقف بين تلك السحب الوردية زوجته وابنته والعديد من الرجال والنساء والشيوخ والأطفال الذين يعرفهم من أهل القرية. فراح يقفز بسرعة رافعًا وجهه لأعلى يحاول اللحاق بتلك السحب الوردية التى كانت تتحرك ببطء شديد. إلا أن هؤلاء الناس الذين كانوا يسيرون وسط السحب لم يعيروه أدنى اهتمام، بل راحوا يبصقون عليه بما فيهم زوجته وابنته. فهب يدافع عن نفسه أمامهم، راح يقول بأنه كان مضطرًا إلى مساعدة هؤلاء الجنود اليابانيين وإرشادهم إلى ورش صناعة

القش، إلا أن البصق كان ينزل عليه بشدة مثل الأمطار الغزيرة. ورأى أن تلك السحب قد بدأت تبتعد عنه. حتى تحولت أخيرًا إلى نقاط حمراء... كانت زوجته سيدة جميلة شابة يشع وجهها بالنور، وظلمت ظلمًا شديدًا من زواجها بشخص مثله مصاب بالجدرى... كان تشينغ ما تزه ينفخ فى بوقه نفخًا حزينًا مساء كل يوم عندما كان يقيم بقرية زوجته، وكان صوت نفخه يقطع قلبها تقطيعًا... يمكن القول بأنها عشقت وتزوجت من بوقه. وعندما شعرت بالملل من تكرار صوت بوقه وملامح وجهه المصاب بالجدرى، شعرت بالملل الشديد من العيش فى هذا المنزل. فهربت مع بائع متجول، إلا أنه استطاع القبض عليها وإعادتها إلى منزله ثانية. أوجعها ضربًا مبرحًا على أردافها ووجهها. فاستسلمت له وراحت تقضى أيامها معه برضاها. وأنجبت منه ابنة ثم ولدًا... وما إن أفاق من غيبوبته حتى راح يبحث عن ابنه، ليكتشف أن ابنه صاحب الثمانية أعوام كان منزرعًا داخل قدر المياه رأسه إلى أسفل وقدميه إلى أعلى، وقد بدا جسده متصلبًا تمامًا مثل العصا.

فسارع تشينغ ما تزه بربط حبل إلى إطار الباب، وجعل فى وسطه فتحة أدخل فيها رأسه، وترك قدميه تستند على مقعد صغير، وأحكم ربط الحبل حول رقبته. وهنا تقدم شاب يمسك بسكين، وقطع الحبل. فسقط تشينغ ما تزه على عتبة الباب. وقد انشغل الشاب فى إسعافه مدة طويلة حتى أفاق ثانية.

قال الشاب بلهجة غاضبة: "أيها العم تشينغ ما تزه! ألم يكف قيام اليابانيين بقتلنا؟ فلماذا تقبل على الانتحار؟ عليك أيها العم أن تحيا حتى تغسل عارك!".

فراح تشينغ ما تزه يشكو إلى الشاب باكيًا: "يا ابن أخى تشون شينغ! لقد ماتت عمتك وابنتى لان تزه وابنى جو تزه، وأصبحت لا أهل ولا دار لى!".

فحمل الشاب تشون شينغ سكينه وتقدم إلى داخل الفناء، وعندما خرج ثانية بدا وجهه شاحبًا وعيناه محمرتين، وراح يشد تشينغ ما تزه من يده قائلاً: "هيا بنا أيها العم تشينغ! هيا بنا ننضم لقوات الجيش الثامن! فإن فريق جياو قاو التابع للجيش الثامن يقوم فى الوقت الحالى بجمع الجنود وشراء الخيول فى قرية ليانغ شيان!".

فقال تشينغ ما تزه متعجبًا: "وماذا عن منزلى وممتلكاتى؟"

"أيها الشيخ الأحمق! وإلى من كنت ستترك منزلك وممتلكاتك وقد كنت مقدمًا على الانتحار منذ قليل. هيا بنا!".

وفى مطلع ربيع عام ١٩٤٠، كان الطقس على غير عادته شديد البرودة، وتحولت جميع أنحاء قرية دونغ بيى بمدينة قاو مى إلى مجرد أطلال، بينما راح الناجون من جموع الأهالى يعيشون داخل جحورهم مثل الفئران. وبدأ البرد والجوع والعطش يشتد بأعضاء فريق جياو قاو، وظهرت بين صفوفه الكثير من الأمراض، وبدت وجوه جميع أعضاء الفريق من القائد حتى الجندى العادى شاحبة من شدة الجوع، يرتعد الواحد منهم بين الثياب الخفيفة البالية التى يرتديها، ولجأ هؤلاء الناجون للاختفاء فى إحدى القرى القريبة من قرية شيان شوى كوو تزه، كانوا يخرجون فى مطلع كل صباح إلى جانب السور يقبضون على القمل ويعرضونه للشمس. وكانوا يخشون مهاجمة العدو فى وضح النهار، أما الليل فقد كان برده شديدًا جدًا، وكانوا يخشون إذا خرجوا فى هذا الليل البارد فإنهم حتى ولو نجوا من أيدى اليابانيين، فإنهم سيموتون من شدة البرد. وفى تلك الأثناء أصبح تشينغ ما تزه بطلاً معروفًا بين أعضاء فريق جياو قاو التابع للجيش الثامن، بل إنه نجح فى كسب ثقة قائد الفريق السيد جيانغ. وكان تشينغ لا يفضل استخدام البنادق والرشاشات فى مهاجمة العدو، وكان يفضل استخدام القذائف اليدوية،

وفى كل معركة يخوضها الفريق، كان تشينغ يتقدم إلى الأمام بشجاعة ويلقى بالقذائف على العدو مغمضًا عينيه. حتى إنه كان باستطاعته أن يتقدم على مسافة سبعة أو ثمانية أمتار من العدو ليلقى بالقذائف، ومن الغرابة أنه لم يكن حتى يسارع بالاختفاء عقب إلقاء القذيفة تجنبًا للشذرات المتطايرة، كانت تطير من فوقه دون أن تصيبه بأدنى أذى.

وكان السيد جيانغ قائد فريق جياو قاو قد عقد اجتماعًا لمناقشة كيفية حل مشكلة البرودة الشديدة والجوع والعطش. فإذا بتشينغ ما تزه يدخل بطيش ويجلس وسط الحضور عبوس الوجه دون أن يتكلم بكلمة واحدة. فسأله القائد جيانغ: "سيد تشينغ، هل لديك رأى فى هذه المسألة؟"

فاستمر تشينغ ما تزه فى صمته.

فقال قائد شاب مثقف: " بالنظر إلى أوضاعنا الحالية، فإنه إذا لزمنا التقوقع داخل قرية دونغ بيى بمدينة قاو مى، فإننا بلا شك ننتظر الموت. فيجب علينا أن ننجو بأنفسنا من هذه المنطقة ونفر إلى مناطق إنتاج القطن بمدينة جياو نان لنصنع لأنفسنا بعض الثياب القطنية لتقينا البرد الشديد، كما أن تلك المنطقة تشتهر بإنتاج البطاطا التى ستسد جوعنا".

أخرج القائد جيانغ من جيبه قصاصة جريدة، وقال: "إنه وفقًا لجريدة لجنة الحزب، فإن الوضع فى مدينة جياو نان أشد تأزمًا من هذه المدينة، وقد نجحت القوات اليابانية فى محاصرة قوات الجماعة الحديدية، وقد قضوا عليهم تمامًا. وإذا قارنا بين المنطقتين، فإن قرية دونغ بيى بمدينة قاو مى هى أنسب مكان لمهاجمة العدو، حيث تتمتع هذه المنطقة بمساحة شاسعة وتفصل بين قراها مسافات بعيدة، كما أن قوة عملاء القوات اليابانية ضعيفة جدًا، ولم يتم حصاد مساحات كبيرة من محصول الذرة الرفيعة منذ العام الماضى، وستكون هذه المساحات أماكن مناسبة لأن نختبئ بداخلها، وإذا تمكنا من

التوصل إلى حل لمشكلة المأكل والملبس، سيمكننا الصمود حتى نتحين الفرصة المناسبة لقتال العدو اليابانى".

فقال أحد قادة الفريق، وبدا وجهه شاحبًا: "وهل يمكن ذلك؟ وأين لنا بالقماش؟ وأين لنا بالقطن؟ وأين لنا بالغذاء؟ إننا سنموت إذا اكتفينا بأكل حفنة من الذرة المنبتة! أرى أنه يجب أن نتظاهر بالاستسلام، ونقدم أنفسنا إلى القائد العميل جانغ جو شى، ثم نهرب من بين صفوفه بعد أن نحصل على الثياب القطنية ونتزود بالكمية الكافية من الذخيرة".

فانتفض القائد الشاب المثقف غاضبًا، ثم قال: "هل تريدنا أن نكون عملاء؟"

فراح ذلك القائد ذو الوجه الشاحب يوضح وجهة نظره قائلاً: "من الذى طلب منك أن تكون عميلاً؟ إننى أقصد التظاهر بالاستسلام! ففى عصر الدويلات الثلاث المتحاربة، استخدم كل من جيانغ وى وخوانغ قاى حيلة التظاهر بالاستسلام أو الاستسلام المزيف!".

"إننا ننتمى إلى الحزب الشيوعى، وإننا لن نطأطئ رءوسنا وننحنى لعدونا ولو متنا من الجوع والبرد، وإننى سأقف بسلاحى هذا فى وجه من يفكر فى بيع نفسه للعدو!".

فقال ذلك القائد ذو الوجه الشاحب بلهجة قوية: "وهل يعنى انتماؤنا للحزب الشيوعى أن نموت من الجوع والبرد؟ إن الحزب الشيوعى يتمتع بذكاء حاد، وعلينا أن نعمل ذكاءنا ونخطط للوصول إلى الهدف السامى، ولن نتمكن من إحراز النصر فى معركتنا أمام العدو اليابانى إلا إذا حافظنا على الروح الثورية العظيمة التى نتمتع بها!".

فقال القائد جيانغ: "أيها الرفاق، أيهـــا الرفـــاق، لا داعـــى للتـــشاجر، وعلينا أن نتناقش بهدوء".

قال تشينغ ما تزه: "أيها القائد العام، إن لدى خطة محددة".

وما إن قدم تشينغ ما تزه خطته، حتى أعجب بها القائد جيانغ كثيـــرًا، وراح يصفق له على ذكائه الحاد.

وهكذا أخذ فريق جياو قاو بخطة تشينغ ما تزه، كانوا قد استغلوا ظلمة الليل وقاموا بالاستيلاء على جلود الكلاب التى تزيد عن مائة جلد، والتى كان يخفيها جدى وأبى على بعض الأطلال فى القرية، كما سرقوا أيضًا خمـــسة عشر رشاشًا كان جدى يخفيها داخل إحدى الآبار فى القرية، ثم قاموا وفـــق الخطة بمهاجمة الكلاب ليحلوا مشكلة المأكل، ثم وزعوا جلود الكلاب فيمـــا بينهم بمعدل جلد واحد لكل فرد يتقى به البرد الشديد. وفى ربيع ذلك العـــام الذى اتسم بالبرودة الشديدة، انتشر فى محيط قرية دونغ بيى بمدينة قاو مـــى جماعة من الأبطال الذين كانوا يلتحفون بجلود الكلاب، خاضوا أكثـــر مـــن عشر معارك قوية، حتى تمكنوا من تحقيق النصر علـــى قـــوات العمـــلاء الموالين للجيش اليابانى وخاصة قوات القائد العميل جانغ جو شى.

أما أول معركة اشترك فيها رجال فريق جياو قاو فقد وقعت فى اليوم الثانى من الشهر الثانى حسب التقويم القديم، وقعت فى ذلك اليوم الذى يعرف باليوم الذى يرفع التنين فيه رأسه عاليًا، حيث كان رجال فريق جيـــاو قـــاو الذين كانوا يلتحفون بجلود الكلاب قد دخلوا قرية ما ديـــان، ونجحـــوا فـــى محاصرة السرية التاسعة التابعة لجيش القائد العميل جانغ جو شى وإحـــدى الفرق اليابانية الصغيرة، والذين كانوا مكلفين بحراسة قرية ما ديان. وكانت قوات القائد العميل تعسكر فى مدرسة قرية ما ديان الابتدائية، وكانت تتكون من أربع غرف مبنية بالطوب وسور عال. كانت هناك شبكة من الأســـلاك

الحديدية تمتد فوق السور، وكان هناك حصن شيده الشياطين اليابانيون فى منتصف الغرف الأربع فى عام ١٩٣٨، وكان الحصن قد تأثر بسقوط الأمطار فى العام الماضى حتى سقطت قاعدته وحدث به انحناء واضح. فهجره اليابانيون وتم هدم الحصن، ومع دخول فصل الشتاء القارص وعدم القدرة على العمل على إعادة بناء الحصن، اضطر اليابانيون والسرية التاسعة التابعة لجيش القائد العميل إلى الإقامة داخل هذه الغرف الأربع فى مدرسة القرية الابتدائية.

كان قائد السرية التاسعة رجلاً صينيًا من مدينة قاو مى، وكان معروفًا بقسوته وبطشه الشديد، فى حين كانت الابتسامة لا تفارق وجهه طوال النهار، كان قد بدأ منذ مطلع فصل الشتاء فى جمع الطوب والأحجار والأخشاب للاستعداد لإعادة بناء الحصن، وأنفق مبالغ طائلة خلال مرحلة جمع المواد اللازمة لإعادة بناء الحصن، الأمر الذى أدى إلى أن كرهه أهالى القرية كرهًا شديدًا.

أما قرية ما ديان، فكانت تتبع القرى الشمالية الغربية لمدينة جياو، تجاور قرية دونغ بيى بمدينة قاو مى، وتبعد حوالى خمسة عشر كيلومترًا عن معسكر فريق جياو قاو التابع للجيش الثامن. وكان فريق جياو قاو قد غادر القرية قبيل غروب شمس ذلك اليوم، وكان بعض من أهالى القرية قد شاهدوا الفريق لحظة خروجه من القرية: فقبيل غروب الشمس، غادر القرية مجموعة من رجال الجيش الثامن يزيد عددهم على مائتى شخص. كانوا يلتحفون جلود الكلاب، وقد جعلوا شعر الكلب من الخارج، بينما كان يتدلى ذيل الكلب بين قدمى الواحد منهم، وقد سطع الضوء على شعر الكلاب فبدا لامعًا ذا ألوان متعددة، جميلاً وغريبًا فى الوقت نفسه، وكأنهم مجموعة من العفاريت.

كان أعضاء فريق جياو قاو الذين خرجوا ملتحفين بجلود الكلاب ليخوضوا أول معركة ضد العدو، قد بدوا مثل الشياطين تمامًا، وعندما انعكست شمس الغروب على جلود الكلاب التى يلتحفون بها، راحوا يسيرون فى سرب واحد مسرعى الخطى حيناً ومبطئين حيناً آخر.

وكان القائد العام جيانغ يسير فى المقدمة ملتحفاً بجلد كلب أحمر كبير - وكان ذلك الجلد الأحمر الكبير يخص كلب عائلتى الأحمر - يسير ببطء وقد راح جلد الكلب الأحمر يتدحرج فوق جسده، بينما يتدلى ذيل الكلب بين قدميه وهو يتحرك ملامسًا الأرض. والتحف تشينغ ما تزه بجلد كلب أسود، وعلق أمام صدره كيسًا من القماش يمتلئ بثمان وعشرين قذيفة يدوية. وكانوا قد التزموا بشكل واحد فى التحاقهم بجلود الكلاب: ربطوا قدمى الكلب الأماميتين بحبل، وجعلوا هذا الجزء من جلد الكلب يتدلى أسفل رقبة الواحد منهم، ثم أحدثوا فتحتين فى جانبى جلد بطن الكلب، ثم ربطوا الفتحتين بحبلين، وربطوا الحبلين عند صرة كل واحد منهم.

كانوا قد دخلوا قرية ما ديان فى منتصف الليل، وقد امتلأت سماء القرية بالنجوم وكان البرد شديدًا، وكان أعضاء فريق جياو قو الملتحفون بجلود الكلاب قد شعروا بالبرد الشديد فى صدورهم، بينما كانت ظهورهم دافئة، وما إن دخلوا القرية، حتى استقبلتهم مجموعة من الكلاب بحفاوة. قام أحد أعضاء الفريق، وكان يتمتع بروح فكاهية، بتعلم نباح الكلاب، وعندها أحس جميع أعضاء الفريق برغبة قوية فى ضرورة تعلم صوت النباح، وسمعوا صوت القائد جيانغ من المقدمة يأمرهم بأنه: غير مسموح بتعلم نباح الكلاب! غير مسموح بتعلم النباح! ممنوع النباح منعًا باتاً!

ووفق استطلاعهم للمنطقة وخطتهم المعدة سلفاً، قام الفريق بنصب كمينه فى منطقة تبعد حوالى مائة متر من مدخل القرية الرئيسى، كانت تتكوم

فى تلك المنطقة كميات الطوب والأحجار التى جمعها القائد العميل جانغ لإعادة بناء الحصن.

قال القائد العام جيانغ مخاطبًا تشينغ ما تزه الذى كان يتبعه مباشرة: "يا ما تزه، فلتتحركوا الآن!".

فنادى تشينغ ما تزه بصوت خفيض: "فلنتحرك يا ليو تزه وتشون شينغ".

ولكى يمكنه التحرك بسهولة، قام تشينغ ما تزه بفك الكيس القطنى الممتلئ بالقذائف والمعلق أمام صدره، وأخذ قذيفة ودسها عند خصره، ثم قدم كيس القذائف إلى رجل من أعضاء الفريق ذى قامة عالية قائلاً: "سلمنى هذا الكيس عندما أنجح فى اختراق الباب". فهز ذلك الرجل ذو القامة العالية رأسه بالموافقة.

وانعكس ضوء النجوم الخافت على الأرض من تحتهم، ورأوا هنالك ما يزيد على عشرة مصابيح معلقة فوق معسكر جيش العملاء، حتى بدا فناء المعسكر مضيئًا كوقت الغروب؛ فقفز أحد أعضاء فريق جياو قاو من خلف كومة الطوب والأحجار، ثم تبعه ثلاثة من رفاقه الذين كانوا جميعًا يلتحفون بجلود الكلاب، وراحوا يجاهدون حتى اقتربوا من الباب الرئيسى. وتجمع ثلاثة منهم إلى جانب كومة من الأخشاب - كانت تلك الكومة تبعد ما يزيد على عشر خطوات من الباب الرئيسى، وراحوا ينظرون إلى الباب من بعيد وكأنهم يتنافسون على وجبة شهية دسمة.

كان القائد جيانغ يتابع من خلف كومة الطوب والأحجار راضيًا ما يقوم به تشينغ ما تزه ورفاقه، وراح يتذكر منظر تشينغ ما تزه فور التحاقه

بالفريق، حيث كان آنذاك جبانًا جدًا، وكان مثل النساء العجائز لا يتوقف عن البكاء من شدة الخوف.

استمر تشينغ ما تزه ورفاقه فى النباح بصبر وسط المنطقة المظلمة عند كومة الأخشاب، وهنا راح يستمع إلى صوت نباحهم اثنان من جنود الحراسة، وهما فى ذهول مما يسمعان. فانحنى أحد جنود جيش العملاء على الأرض وأمسك بحجر ورمى به إلى تلك المنطقة المظلمة، ثم راح يسب قائلاً: "آه من هذه الكلاب المريضة!".

راح تشينغ ما تزه يقلد صوت الكلاب عندما تتعرض لهجوم من قبل طرف آخر، وكان صوته قريبًا جدًا من صوت الكلاب، حتى كاد القائد جيانغ ألا يتمالك نفسه وينفجر ضاحكًا.

وكان أعضاء فريق جياو قاو قد بدأوا يتعلمون جميع ما يتعلق بنباح الكلاب فور وضع خطة الهجوم على قرية ما ديان. وبما أن تشينغ ما تزه كان يتغنى من قبل بأعمال أوبرا بكين، وكانت له تجارب فى نفخ الأبواق، وكان يتمتع بحنجرة قوية وصوت جهورى، فقد أصبح أفضل من يقلد صوت نباح الكلاب بين أعضاء الفريق، كما بلغ كل من ليو تزه وتشون شينغ مستوى جيدًا فى تعلم نباح الكلاب، ومن ثم، فقد أوكلت إلى ثلاثتهم مهمة استدراج جنود الحراسة فى جيش العدو والقضاء عليهم.

وهنا لم يستطع جنود حراسة جيش العملاء الصبر أكثر من ذلك، فتقدموا فى حذر شديد إلى جانب كومة الأخشاب حاملين الرشاشات المزودة بالحراب، وعند ذلك ازدادت حدة النباح. وعندما كان جنود جيش العملاء على مسافة ثلاث أو خمس خطوات من كومة الأخشاب، انخفض صوت نباح الكلاب، وكأنهم بدأوا يشعرون بالخوف من العدو القادم إليهم، ولكنهم لم يغادروا أماكنهم بعد.

تقدم اثنان من جنود حراسة جيش العملاء خطوة إلى الأمام فى حذر شديد.

وهنا انقض عليهم تشينغ ما تزه ورفاقه، وقد انعكس ضوء المصابيح على جلود الكلاب التى يلتحفون بها، ثم ألقى تشينغ بقذيفة نحو رأس أحد الجنديين، بينما طعن كل من ليو تزه وتشون شينغ الجندى الثانى بحراب رشاشاتهم فى بطنه. فتساقط الجنديان على الأرض محدثين صوتًا مسموعًا.

وانقض باقى أعضاء فريق جياو قاو الملتحفون بجلود الكلاب على معسكر جيش العملاء، وقد استرد تشينغ ما تزه كيسه القطنى الممتلئ بالقذائف عند الباب الرئيسى، وراح يلقى بالقذائف نحو غرف المعسكر بجنون.

وهكذا، حطم دوى الطلقات النارية والقذائف اليدوية والصياح المتعالى وصراخ الجنود اليابانيين وجنود جيش العملاء الخونة، حطم ذلك كله الصمت الرهيب الذى كان يلف قرية ما ديان، وملأ نباح الكلاب جميع أرجاء القرية.

وحدد تشينغ ما تزه هدفه نحو إحدى نوافذ غرف المعسكر وألقى بداخلها عشرين قذيفة يدوية، حتى إن دوى الانفجارات وصراخ الجنود اليابانيين المصابين جعله يتذكر مشهد قيام الجنود اليابانيين قبل عدة سنوات بإلقاء القنابل على ورش صناعة الأحذية، إلا أن التشابه الكبير بين المشهدين لم يجعله يشعر بنشوة الثأر وغسل العار، وأحس بألم شديد وكأن سكينًا حادًا يمزق قلبه.

وتعتبر هذه المعركة أكبر المعارك التى خاضها فريق جياو قاو منذ تأسيسه، كما أنها حققت أعظم انتصار على مدار تاريخ حروب المقاومة ضد اليابان فى منطقة بين خاى بأكملها. ومن ثم فقد أصدرت لجنة الحزب

الشيوعى بمنطقة بين خاى آنذاك أوامرها بمكافأة فريق جياو قاو. وفى تلــك الأيام، كان أعضاء فريق جياو قاو يعيشون أسعد أيام حيــاتهم، إلا أن هــذه السعادة البالغة لم تدم طويلاً، فبعد أيام قليلة وقعت حادثتان عكرتا صــفوهم: أما الحادثة الأولى فهى قيام سرية بين خاى المستقلة بالاستيلاء على كميات الأسلحة والذخيرة الكبيرة التى حصل عليها أعضاء فريق جياو قــاو خــلال معركة قرية ما ديان. وكان القائد جيانغ قائد فريق جياو جيــانغ قــد أدرك بصفته قائدًا أن قرار لجنة الحزب الشيوعى فى ضم الأسلحة والذخيرة قرار صائب تمام، إلا أن أعضاء الفريق من الجنود العــاديين كــانوا متــذمرين ومستائين من هذا القرار ولا يتوقفون عن توجيه اللــوم والــسباب للجنــة. وعندما جاء أعضاء سرية بين خاى المستقلة لنقل الأسلحة والذخيرة، كــانوا قد رأوا أعضاء فريق جياو قاو شاحبى الوجوه، وقد بدا عليهم الندم على ما كان منهم، أما الحادثة الثانية فهى موت تشينغ ما تزه الذى كان قد أبلى بلاءًا حسنًا خلال معركة قرية ما ديان شنقًا معلقًا على شجرة صفصاف عند مدخل القرية، وأشارت جميع الأدلة إلى أنه قد انتحر، ولم يكن قد خلع عنه آنــذاك جلد الكلب الذى كان يلتحف به، مما أدى إلى أنه كان يبدو من الخلف، وكأن المنتحر كلب، بينما كان يبدو من الأمام إنسانا.

**(٩)**

ومنذ أن قامت جدتى بغسل جــسد زوجــة جــدى بالمــاء الــساخن، توقفت زوجة جدى تمامًا عن الصياح والصراخ، كانت الابتسامة الرقيقــة لا تفارق وجهها الممتلئ بآثار الجروح، لم يتوقف النزيف من الجزء الأسفل من جــسدها، وكــان جــدى قــد أحــضر لهــا طبيبًــا مــن القريــة،

وأخذت كمًا كبيرًا من الأدوية، إلا أن النزيف كان يزداد يومًا بعد يوم. امتلأت غرفة جدتي آنذاك بكميات كبيرة من الدم، فقد كانت زوجة جدي قد نزفت تقريبًا كل دمائها، حتى بدت أذناها شفافة تمامًا مثل هلام النشاء.

أما آخر طبيب جاء لعلاج زوجة جدي فكان شيخًا أحضره الجد لوو خان من مدينة بينغ دو، وكان ذلك الطبيب شيخًا فوق الثمانين، ذا لحية فضية ورأس أصلع وأظافر طويلة، يعلق في عروة عباءته مشطًا من قرن الأبقار لتمشيط لحيته الطويلة، وخلة أسنان من العظم وقطنة لتنظيف أذنه، وكان أبي قد رأى هذا الطبيب وهو يضغط بأصابع يده على معصم زوجة جدي. وما إن انتهى من الضغط على معصمها الأيسر، راح يضغط على معصمها الأيمن، وبعد أن انتهى من الضغط على المعصم الأيمن حتى قال: "جهزوا لجنازتها!".

راح جدي وجدتي يشيعون الطبيب الشيخ، وبدأوا يشعرون بحزن شديد. انشغلت جدتي طوال الليل في حياكة ثوب الحداد لزوجة جدي، بينما أرسل جدي الجد لو وخان إلى النجار ليصنع لها تابوتًا.

في اليوم التالي، استطاعت جدتي بمساعدة عدد من جاراتها حياكة ثيابٍ جديدة لزوجة جدي، وارتدت زوجة جدي الثياب الجديدة، كانت عبارة عن عباءة من الحرير الأحمر وسروال من الساتان الأزرق وتنورة من الحرير الأخضر، وحذاء مطرز من الساتان الأحمر، ثم رقدت زوجة جدي أعلى مصطبة التدفئة، وعلت وجهها ابتسامة مشرقة.

وفي الظهيرة رأى أبي بومة سوداء تقف أعلى سقف الغرفة، أصدرت صوتًا حزينًا، فعثر أبي على حجر صغير وضربها به ، فقفزت البومة مسرعة حتى لاذت بالفرار من أمامه.

وفى موعد إشعال المصابيح، عاد مجموعة من عمال فــرن صــناعة النبيذ بالتابوت الخشبى، وقامت جدتى بإشعال مصباح الزيت داخل الغرفــة ووضعت بداخله ثلاثة من أعواد الإضاءة نظرًا للظروف الخاصة اســتعدادًا لجنازة زوجة جدى، وانتشرت من ذلك المصباح رائحة ذكية مثل رائحة لحم الغنم المحترق، وراح الجميع ينتظرون قلقين تلك اللحظة التى ســتلفظ فيهــا زوجة جدى أنفاسها الأخيرة. اختبأ أبى خلف باب الغرفة وراح ينظــر إلــى أذنى زوجة أبيه التى كانت تبدو شفافة تمامًا مثل الكهرمان، وقد انتابه شعور بالغرابة الشديدة مما ترى عيناه. شعر أبى بأن طوب الغرفة يتساقط بفعل تلك البومة السوداء، وأحس وكأنه يرى عينى البومة البارقتين، وأنه يسمع صوت نعيبها. كان شعر رأس أبى يقف مثل السلك المعدنى عندما يحيره أمر مــا. وفجأة فتحت زوجة جدى عينيها، وبدت عيناها ثابتتين، وجفناهــا يتحركــان وكأنهما قطرات من المطر المركز. بينما كان لحم وجنتيها يتحرك وشــفتاها تهتزان بشكل متواصل، ثم سمعها تصيح بصوت أسوأ من مــواء القطــط. وانتبه أبى إلى تحول لون الفتيل داخل المصباح إلى اللون الأخــضر، وفقــد وجه زوجة أبيه ملامحه البشرية تحت ضوء المصباح الأخضر.

وفى بداية الأمر كانت جدتى فى غاية السعادة بعودة الروح إلى زوجة جدى، ولكن لم يكد يمر وقت طويل حتــى تحولــت تلــك الــسعادة إلــى رعب شديد.

قالت جدتى: "ما الذى أصابك يا أختى الصغيرة؟".

فراحت زوجة جدى تسبها قائلة: "أيتها العاهرة! إننى لن أرحمك أبدًا، لقد قتلت جسدى، ولكنك لن تستطيعى قتل قلبى، إننى سوف أنتقم منك شــر انتقام، سأسلخ جلدك سلخًا لا هوادة فيه!".

وقد استطاع أبى أن يميز أن الصوت الذى يسمعه الآن ليس صوت زوجة أبيه الذى يعرفه، إنه أقرب ما يكون لصوت عجوز طاعنة فى السن.

استطاعت زوجة جدى بسبابها أن تجبر جدتى على السكوت.

وهكذا راح جفنا زوجة جدى يرتجفان بشكل سريع، بينما كانت لا تتوقف عن الصراخ حيناً والسباب حيناً آخر، وقد هز صوتها جميع أرجاء الغرفة، وسرت داخل الغرفة نوبة هواء باردة جدًا. واستطاع أبى أن يرى بوضوح أن حنجرة زوجة جدى كانت متصلبة تمامًا، وعجز عن أن يعرف مصدر ذلك الصراخ.

كان جدى فى حيرة وقلق شديدين، فأرسل أبى إلى الفناء الشرقى ليستدعى الجد لوو خان. وقد كان بإمكانه أن يسمع وسط الفناء الشرقى صوت صراخ زوجة جدى المرعب. كان هناك سبعة أو ثمانية من عمال فرن النبيذ يتحدثون داخل غرفة الجد لوو خان، وما إن رأوا أبى يدخل إلى الغرفة، بادروا بالصمت، فقال أبى: "أيها الجد لوو خان، إن أبى بالتبنى يدعوك إليه".

فدخل الجد لوو الغرفة، وبدأ بإلقاء نظرة على زوجة جدى، ثم سحب جدى من طرف ثيابه إلى خارج الغرفة، وتبعهم أبى إلى الخارج، وقال الجد لوو خان مخاطبًا جدى: "سيدى الفاضل، لقد ماتت منذ وقت طويل، ولا أعرف أى روح شيطانية سكنت جسدها".

لاذ الجد لوو خان بالصمت ولم ينبس ببنت شفة، وعندها سمع زوجة جدى تكيل له السباب المقذع بصوت مرتفع قائلة: "وأنت أيها الكلب لوو خان! يجب أن تموت شر ميتة، فسأسلخ جلدك وأقطع لك مذاكيرك...".

فنظر جدى والجد لوو خان إلى بعضهما البعض مرعوبين دون أن يتفوه أحدهما بكلمة واحدة.

وفكر الجد لوو خان قليلاً، ثم قال: "فلتصبوا عليها قدرًا من مياه الخليج، فإن مياهه قادرة على طرد الأرواح الشريرة".

هذا بينما كانت زوجة جدى داخل الغرفة تكيل له السباب المقذع.

فحمل الجد لوو خان قدرًا من مياه الخليج المتسخة، واصطحب معه أربعة من عمال فرن النبيذ ذوى بنية قوية، وما إن وصلوا إلى وسط الفناء حتى سمعوا صوت زوجة جدى، وهى تضحك بصوت مرتفع قائلة: "أيها الكلب لوو خان، فلتصب مياهك، فلتصب مياهك، فإن سيدتك ستشربها كاملة!".

ورأى أبى أحد العمال، وقد راح يحشر قمعًا معدنيًا من الأقماع المستخدمة فى بيع النبيذ داخل فم زوجة أبيه، بينما رفع عامل آخر قدر المياه، وراح يصب الماء داخل فمها، وقد انسابت المياه داخل القمع بسرعة، حتى يكاد الناظر أن يشك فى أن تلك المياه قد انسابت جميعها داخل جوف زوجة جدى.

وما إن انتهوا من صب قدر المياه داخل جوف زوجة جدى، حتى هدأت تمامًا، وبدت بطنها منبسطة وصدرها يتحرك، وكأنها تأخذ نفسًا عميقًا.

وهنا التقط الحضور أنفاسهم مسرورين بعودة الحياة إليها من جديد.

فقال الجد لوو خان: "حسنًا حسنًا!".

وأحس أبى مرة ثانية أن هناك وقع أقدام فوق سقف الغرفة، وكأنه وقع أقدام تلك البومة السوداء.

وعاود وجه زوجة جدى الضامر يشرق بابتسامة جذابة، وبدت رقبتها مشدودة مثل رقبة دجاجة لحظة الصياح، ولمع جسدها، وقد خرجت كمية من المياه من داخل فمها فى أثناء الصياح، وتجمعت المياه للتفرق فجأة فى جميع الاتجاهات وكأنها براعم زهور الأقحوان، وتناثرت لتملأ ثوب حدادها.

شعر العمال الأربعة بالرعب من خروج تلك الكمية الكبيرة من المياه من فمها، ففروا من جانبها، بينما راحت زوجة جدى تصيح فيهم قائلة: "فروا، فروا، فروا، ولكنكم لن تتمكنوا من الهروب منى ولن تفلتوا من يدى".

شعر العمال بالرعب الشديد من صراخها وتهديدها لهم.

وراح الجد لوو خان ينظر إلى جدى متوسلاً إليه، وجدى يبادله النظرة نفسه. وتقابلت عيونهم لتصدر عنهما تنهيدة تمتلئ بالرعب الشديد مما يرون.

اشتدت حدة سباب زوجة جدى، حتى إنها لم تكتف بالسباب فقط، إبل راحت تهز ذراعيها وقدميها هزًا قويًا. قالت: "أيها الكلاب اليابانية، وأيها الكلاب الصينية، إنكم سوف تنتشرون بعد ثلاثين عامًا فى كل مكان، وأنت يا يو جان آو، لن تفلت منى أبدًا، فالنصر دائمًا للأقوى، ومصيبتك الأكبر لم تأت بعد!".

فانحنى جسد زوجة جدى مثل القوس، وكأنها تستعد للجلوس.

وصاح الجد لوو خان بصوت مرتفع: "لا تتركوها هكذا، يجب حمل الجثة كما هى! أسرعوا وائتوا بمنجل معدنى!".

فألقت إليهم جدتى بالمنجل.

فتشجع جدى وراح يحكم سيطرته على زوجته، بينما تقدم الجد لوو خان وراح يضغط على قلبها بالمنجل، ولكن أنى لهم ذلك؟

قام الجد لوو خان، وهم أن يغادر المكان، فخاطبه جدى قائلاً: "لا يمكن أن تغادر أيها العم لوو!".

فصاح الجد لوو خان: "فلتسرعى يا سيدتى وتأتى لنا بمجرفة معدنية!".

وهكذا هدأت زوجة جدى بعد أن قاموا بالضغط على صدرها بواسطة مجرفة تستخدم فى تجريف الأرض الزراعية.

وهنا تحرك جدى والجد لوو خان، ثم تبعهم أبى إلى خارج الغرفة.

وبقيت زوجة جدى وحيدة تتعذب داخل الغرفة، وقد تركها جدى والجد لوو خان وأبى وخرجوا إلى الفناء الكبير.

راحت زوجة جدى تصيح داخل الغرفة قائلة: "يا يو جان آو، إننى أرغب فى أكل دجاجة ذات أقدام صفراء!".

فقال جدى: "فلتصطادوا لها الدجاجة التى طلبتها!".

فقال الجد لوو خان: "مستحيل، مستحيل، إنها قد فارقت الحياة منذ وقت طويل!".

فقالت جدتى: "أيها العم لوو خان، فلتفكر بسرعة فى حل يرضيها!".

فقال الجد لوو خان: "أسرع يا جان آو بالذهاب إلى باى لان جى واستدعِ أحد ساكنى الجبال!".

وعند فجر ذلك اليوم، اشتد صوت سباب وصراخ زوجة جدى، وقد راحت تسب الجد لوو خان قائلة: "أيها الكلب لوو خان، لتكن بينى وبينك عداوة إلى أبد الآبدين!".

ورافق الجد لوو خان ذلك الرجل من أهل الجبل إلى داخل الفناء، بينما كان صوت سباب زوجة جدتى قد تحول إلى مجرد تنهدات.

كان ذلك الرجل من أهل الجبال فى حوالى السبعين من عمره، يرتدى عباءة سوداء، مرسومًا عليها من الأمام والخلف صور غريبة جدًا. يحمل فوق ظهره حربة تستخدم فى تقطيع الأخشاب، ويقبض بيده على صرة.

واستقبله جدى عند مدخل الغرفة، وعرف أنه هو الشيخ لى الذى كان قد ساعد زوجة جدى فى طرد روح ابن عرس الشريرة التى لبستها منذ عدة سنوات مضت، ولكن الشيخ لى بدا الآن نحيفًا أكثر مما كان عليه آنذاك.

وضرب الشيخ لى ستارة النافذة بحربته، وراح ينظر إلى داخل الغرفة، ثم حول نظره عن الغرف، وقد علا وجهه الشحوب، ثم راح ينحنى أمام جدى بخضوع قائلاً: "سيدى الفاضل، إن قوة هذه الروح أقوى من قدراتى بكثير، وأخشى أن أعجز عن طردها".

انتاب جدى قلق شديد، وقال مخاطبًا الشيخ الكبير: "أيها الشيخ لى، إنه لا يمكنك مغادرة هذا المكان إلا بعد أن تساعدنا فى التخلص من هذه الروح، وعندها سأشكرك شكرًا جزيلاً وأجزل لك العطاء".

فرمش الرجل بعينيه الغريبتين، ثم قال: "حسنًا، ولتدعونى أرتشف رشفة من حساء دم الخنزير، وسأظهر بعدها قوة تحطم الجبال!".

وهكذا، فإنه لا يزال أهل القرية حتى يومنا هذا يتداولون فيما بينهم حكاية نجاح ذلك الرجل من أهل الجبل فى طرد تلك الروح الشريرة من جسد زوجة جدى.

قيل بأن ذلك الشيخ لى كان يسير وسط الفناء، وهو يتلو بعض الكلمات، ويلوح بحربته، بينما كانت زوجة جدى تتقلب على المصطبة ولا تتوقف عن البكاء بصوت يهز المكان هزا.

وفى نهاية الأمر، طلب الشيخ من جدتى أن تحضر له طستًا خشبيًا، وتملأه حتى منتصفه بالمياه الصافية، ثم أخرج الرجل من صرته بعض أكياس الدواء وصبها داخل الطست، وراح يخلطها بالمياه الصافية بواسطة حربته، وأثناء ذلك كان لا يتوقف عن تلاوة بعض التعاويذ، وبدأت مياه الطست تتحول تدريجيًا إلى اللون الأحمر فى حمرة الدماء، ثم قفز الرجل قفزة على الأرض، وقد تصبب وجهه عرقًا، وراح يقفز لأعلى ثم يتساقط على الأرض وهو يبصق هنا وهناك حتى سقط مغشيًا عليه.

وعندما أفاق الرجل من غيبوبته، كانت زوجة جدى قد لفظت نفسها الأخير، وخرجت رائحة جسدها المتعفن عبر النافذة.

وعندما هموا أن يلفوها بثياب الحداد، كان الجميع يضعون على أفواههم قوطًا تم نقعها فى نبيذ الذرة.

(١٠)

مرت عشرة أعوام كاملة على هجرى لمسقط رأسى، ثم عدت بعدها محملاً بمشاعر المودة الزائفة التى أصبت بالعدوى بها من الطبقة الراقية، عدت بجسدى الذى لوثته حياة المدينة، ووقفت من جديد أمام قبر زوجة جدى، بعد أن قمت بزيارة الكثير من القبور التى صادفتنى فى طريقى إلى قبرها. تركت حياة زوجة جدى المشرقة ذكرى مثيرة للانتباه الشديد فى تاريخ مسقط رأسى" الذى يعتبر تاريخًا مليئًا بالأبطال والشجعان والصعاليك". استطاعت من خلال تجربة موتها الغريبة أن تثير كمًا كبيرًا من المشاعر الغامضة التى كانت تكمن فى أعماق نفوس أهل قرية دونغ بيى بمدينة قاو مى، هذه المشاعر الغامضة لا يمكن أن تنبت وتنمو وتتعاظم وتصبح سلاحًا فكريًا

بإمكانه مواجهة عالم المجهول، نقول إنها لا يمكن أن تحقق ذلك إلا فى العالم الفكرى لشيوخ مسقط رأسى الذى يشبه إلى حد كبير سكر البنجر حلو المذاق، والذين يشغلهم تاريخ هذه البلدة. كنت فى كل مرة أعود فيها إلى مسقط رأسى، أكتسب الكثير من وحى هذه القوة الغامضة من خلال عيون أهل هذه البلدة المخمورة. وكنت فى ذلك الحين لا أرغب فى عقد أية مقارنات أو مقابلات، إلا أن ذلك القصور الذاتى فى فكرى المنطقى قد أجبرنى على الخوض فى دوامة المقارنة والمقابلة. اكتشفت مذعورًا من خلال الفكر المتواصل أن تلك العيون الجميلة التى تعرفت عليها جيدًا خلال بعدى عن مسقط رأسى على مدى عشرة أعوام، اكتشفت أن جزءًا كبيرًا من تلك العيون إنما هى مثبتة فى رءوس أرانب منزلية ذكية بارعة، وأن الرغبة القوية هى التى جعلت تلك العيون تبدو محمرة مثل التفاح الجبلى، وتظهر بها بعض النقاط السوداء. حتى إننى أعتقد من خلال المقارنة والمقابلة، فى وجود نوعين مختلفين من البشر، وأن هؤلاء جميعًا يتطورون وفق نظم تخص كل جماعة منهم، وأن كل نوع منهم يسير نحو ذلك العالم الكامل الذى تحدده قيمه الخاصة. وأخشى كثيرًا أن تصاب عيناى بالعدوى وتظهر مثل ذلك الذكاء البارع، أخشى أن يكرر لسانى تلك الكلمات التى سرقها آخرون من كتب آخرين، وأخشى أيضًا أن أصبح كتابًا رائجًا من كتب" مقتطفات القراء".

وهنا خرجت زوجة جدى من داخل قبرها، ممسكة بمرآة نحاسية مذهبة، وقد ظهرت بعض التجاعيد على جانبى شفتيها المكتنزتين، وقالت: "أيها الحفيد الذى لم ألده، حافظ على كرامتك!"

بدت زوجة جدتى فى تلك اللحظة فى ثياب أنيقة، كما كانت لحظة لفها بثياب الحداد، وبدت ملامحها أكثر شبابًا وجمالاً مما تخيلت، ومضمون ما تحدثت به إلىّ يشير إلى أنها تمتلك فكرًا أعمق بكثير من فكرى

المحدود، فهى تمتلك فكرًا ومشاعر تفيض بالحنو والوقار والمهابة والمرونة، بينما يبدو فكرى مثل غلاف مزمار يهتز فى السماء.

رأيت نفسى فى مرآة زوجة جدى، واكتشفت أن عينى تمتلكان ذكاء وبراعة تلك الأرانب المنزلية، وأن هناك صوتًا لا يخصنى يخرج من فمى، تمامًا مثل ذلك الصوت الذى كان يصدر عن زوجة جدى أثناء احتضارها والذى لا يخصها على الإطلاق، وإننى أصبحت ممهورًا بختم الأشخاص المعروفين.

وكاد الخوف يقتلنى.

قالت جدتى بلهجة يملؤها التسامح واللين: "عد يا حفيدى! عد حتى تكتب لك النجاة. إننى أعلم جيدًا أنك لا ترغب فى العودة، أعلم أنك تخشى أكوام الذباب والناموس والحشرات، أعلم أنك تخشى الأفاعى التى تملأ حقول الذرة الرفيعة. أعلم أنك تقدس الأبطال، وأنك تكره الصعاليك. ولكن من منا لا ينتمى إلى هؤلاء الأبطال والشجعان والصعاليك؟ إننى الآن أشم رائحة الأرانب المنزلية الماكرة التى عدت بها من تلك المدينة، فلتسرع يا حفيدى إلى نهر موا شوى وتغطس بداخله ثلاثة أيام بلياليها – ولكننى أخشى أن تشرب صغار الأسماك من المياه الكريهة التى تغتسل بها، وأن يظهر فى رءوسها آذان مثل آذان تلك الأرانب المنزلية الماكرة!".

اختفت زوجة جدى فجأة داخل قبرها، وعم حقول الذرة صمت وهدوء شديدان، وانعكست على المكان أشعة الشمس الحارقة، وسكنت الرياح. وقد تغطى قبر جدتى بكميات كبيرة من الأعشاب المختلفة، عبقت المكان برائحتها الزكية، وكأن شيئًا لم يحدث، وجاء من بعيد صوت غناء الفلاحين الذين كانوا منشغلين بعزق الأرض.

كان قبر زوجة جدى قد أحاطت به مساحات شاسعة من الذرة الرفيعة المهجنة التى جاء بها الفلاحون من جزيرة خاى نان، وامتلأت تلك المساحات الشاسعة من أراضى ريف دونغ بيى بمدينة قاو مى بتلك الذرة الرفيعة المهجنة. وها هى الذرة الرفيعة الحمراء فى حمرة الدم، والتى كثيرًا ما تغنيت بها، قد اختفت تمامًا بفعل فيضان الثورة العارم، لتحل محلها هذه الذرة الرفيعة المهجنة ذات السيقان القصيرة والأوراق الكثيفة والمسحوق الأبيض والسنابل الطويلة مثل ذيول الكلاب، والتى تتمتع بمحصول وفير جدًا، ومذاق مر لاذع أدى إلى حالات إمساك كثيرة بين جموع الشعب. كانت وجوه جميع أهل القرية فيما عدا سكرتير الحزب والقيادات الأعلى منه، كانت وجوه جميع الأهالى تبدو شاحبة كالحة ضامرة مثل قطعة حديد أصابها الصدأ.

إننى أكره الذرة المهجنة كرهًا شديدًا.

فهذه الذرة المهجنة تبدو لى وكأنها لن تنضج إلى الأبد، وأنها ستبقى إلى أبد الآبدين على هذه الحالة عيونها الرمادية الخضراء شبه مغلقة. وقفت أمام قبر زوجة جدى، ورحت أنظر إلى حقول الذرة المهجنة القبيحة، التى احتلت مساحة كبيرة جدًا من مساحة الذرة الرفيعة الحمراء الأصيلة. إن الذرة المهجنة تملك على أية حال اسم الذرة، إلا أنها لا تمتلك السيقان العالية التى تتميز بها نباتات الذرة. تملك اسم الذرة، ولكنها تفتقر إلى لون الذرة المشرق، أهم ما ينقص هذه الذرة المهجنة هو روح نباتات الذرة، لقد استطاعت أن تلوث بملامحها الغامضة ذلك الجو الصافى الذى يتميز به ريف دونغ بيى بمدينة قاو مى.

شعرت بيأس شديد، وأنا محاصر وسط المساحات الشاسعة من الذرة المهجنة.

وقفت وسط معسكرات الذرة المهجنة وانشغلت بالتفكير في تلك الصورة الجميلة الخلابة التى لم يعد لها أثر فى أرض الواقع، فى تلك الحمرة الشديدة التى كانت تمتد على مدى مساحات الذرة الحمراء فى شهر أغسطس وتحت السماء الصافية والهواء المنعش. وإذا ما فاضت مياه الخريف، تحولت عندها مساحات الذرة إلى محيطات صغيرة، وبدت أعواد الذرة الحمراء ترتفع نحو السماء العالية، وهى منغرسة داخل المياه الصفراء المعكرة. وإذا ما طلعت شمس الصباح وانعكست على مساحات المياه الكبيرة الممتدة وسط حقول الذرة، فإنها تملأ الأرض بألوانها المتعددة الجميلة الخلابة.

تلك هى البيئة الإنسانية الجميلة التى أتطلع وسأظل أتطلع إليها إلى الأبد.

لكننى أبدو الآن محاصرًا وسط حقول الذرة المهجنة، وقد طوقتنى أوراقها مثل حية كبيرة حتى عجزت عن الفكاك منها، تسممت أفكارى بسمومها الخضراء الداكنة، حتى أصبح من الصعب أن أتنفس وهى تحاصرنى حصارًا شديدًا. وهكذا، غرقت فى الحزن الشديد لعجزى عن أن أنجو بنفسى من هذه المعاناة.

عندها سمعت صوتًا حزينًا من أعماق الأرض، بدا صوتًا مألوفًا وغريبًا فى الوقت نفسه، صوتًا يشبه صوت جدى، صوت أبى، صوت الجد لوو خان، صوت جدتى، ويشبه صوت زوجة جدى الثانية. وهنا سمعت أرواح عائلتى يدلوننى إلى طريق النجاة:

أيها الابن المسكين، الضعيف، الغيور، الحقود، كثير الشك، الذى أضله شراب النبيذ السام، أسرع أيها الابن إلى نهر موا شوى وانقع جسدك داخل

مياهه ثلاثة أيام بلياليها، تــذكر جيــدًا هــذه المــدة، لا يمكــن أن تزيــد أو تنقص يومًا واحدًا، حتى تغسل جسدك وروحك مما علق بهمــا، عنــدها سيمكنك العودة إلى عالمك الذى تبحث عنه. هناك جنوب جبل باى ما شــان وشمال نهر موا شوى، توجد شتلة ذرة رفيعة حمراء أصيلة، عليك أن تبذل قصارى جهدك حتى تعثر عليها، ارفعها عالية واخترق بها عالمك الملــىء بالأشواك المستبدة، هى تميمتك، وطوطم شرف هذه العائلة ومجــدها، إنهــا رمز روح تراث ريف دونغ بيى بمدينة قاو مى!

**المؤلف في سطور:**

**مو يـــــان**

روائى وقصاص صينى معروف، ولد عام ١٩٥٥ بمدينة قاو مى مقاطعة شان دونغ شمال شرق الصين لأسرة من الفلاحين البسطاء كثيرة العدد. عـــاش فى مطلع حياته حياة صعبة جدًا، عمل فلاحًا وعاملاً فى مصنع للأقطان، إلـــى أن التحق بالخدمة العسكرية فى فبراير عام ١٩٧٦. وعمل بعدها لفترة طويلـــة فى الجيش الصينى جنديًا ومعلمًا وكاتبًا. وانتقل فى عام ٢٠٠٧ ليتـــولى مهـــام عميد معهد دراسات الفنون الصينية.

يعد الكاتب الصينى الكبير مو يان أحد أهم الروائيين فى تاريخ الأدب الصينى المعاصر (١٩٤٩- حتى الآن)، وأبرز المجددين فى فن السرد فـــى الرواية الصينية. كتب خلال مشواره الأدبى الذى بدأه عـــام ١٩٨١ إحـــدى عشرة رواية طويلة، ترجمت جميعها إلى مختلف لغات العالم فيما عدا اللغة العربية، (تعتبر هذه الترجمة التى بين يدى القارئ الكريم أول ترجمة مباشرة تصدر لعمل من أعمال مو يان إلى اللغة العربية). تتربـــع روايـــة " الـــذرة الرفيعة الحمراء" على عرش الأعمال الروائية لمو يان التى ترجمـــت إلـــى اللغات الأجنبية، حيث ترجمت هذه الرواية إلى تسع عـــشرة لغـــة عالميـــة بالإضافة إلى اللغة العربية، كما أبدع مو يان ما يزيد على عـــشرين روايـــة

متوسطة، وما يزيد على ثمانين قصة قصيرة وعددًا من الأعمال المسرحية والسيناريو.

حصدت أعمال مو يان الكثير من الجوائز المهمة داخل البر الرئيسى الصينى وتايوان وهونج كونج وخارج الصين، حتى توجت أعماله بالحصول على جائزة "ماو دون الأدبية" لعام ٢٠١١، وتعتبر أرفع جائزة أدبية فى الصين، وذلك عن روايته المعروفة "الضفدع"، التى صدرت عام ٢٠٠٩ عن دار نشر الفنون والآداب بشنغهاى.

- ثم حصل أخيرًا على جائزة نوبل فى الآداب ٢٠١٢.

**أهم الجوائز:**

- جائزة الدورة الرابعة لجائزة أفضل رواية متوسطة على مستوى الصين، ١٩٨٧، عن روايته "الذرة الرفيعة الحمراء". كما حصل فيلم "الذرة الرفيعة الحمراء" المأخوذ عن الرواية نفسها على جائزة الدب الذهبى لمهرجان برلين السينمائى فى دورته الثامنة والثلاثين.
- جائزة الاتحاد الأدبية بتايوان، ١٩٨٨، عن قصة "أرجوحة الكلب الأبيض".
- جائزة لورباتليون، **Prix Laure-Bataillon** لأفضل عمل أدبى مترجم إلى الفرنسية عن روايته "مملكة النبيذ" عام ٢٠٠١.
- وسام الاستحقاق الفرنسى من طبقة فارس عام ٢٠٠٤.

- جائزة **NONINO** الأدبية الدولية بإيطاليا عام ٢٠٠٥.

- جائزة الثقافة الآسيوية من اليابان عام ٢٠٠٦.

- جائزة ماو دون الأدبية (نوبل الأدب الصينى) عام ٢٠١١.

- جائزة نوبل فى الآداب عام ٢٠١١.

**المترجم فى سطور:**

**حسانين فهمى حسين**

مدرس اللغة الصينية وآدابها بكلية الألسن- جامعة عين شمس.

دكتوراه اللغة الصينية عام ٢٠٠٨ من جامعة اللغات ببكين.

**قام بتأليف:**

١- معجم المفردات والمصطلحات السياحية عربى صينى - صينى عربى، القاهرة، ٢٠٠٩.

٢- معجم التعبيرات والمصطلحات التجارية والصناعية عربى صينى - صينى عربى، القاهرة، ٢٠٠٩.

٣- دليل المحادثة باللغة الصينية المجال التجارى- القاهرة ٢٠١١

**شارك فى تأليف كتب باللغة الصينية منها:**

١- كتاب "دراسات فى قضايا عربية معاصرة"، دار نشر الشعب، بكين، ٢٠٠٦.

٢- "نجيب محفوظ حب وعطاء بلا حدود"، دار نشر نينغ شيا، الصين ٢٠٠٨.

٣- كتاب "حكايتى مع الصين" دار نشر القارات الخمس، ببكين عام ٢٠٠٨.

**قام بترجمة:**

١- كتاب "المروحة فى الثقافة الصينية" إصدار الدار العربية للعلوم ٢٠٠٩.

٢- كتاب "اليشم فى الثقافة الصينية" إصدار الدار العربية للعلوم ٢٠٠٩.

٣- كتاب "تعرف على ٥٠٠٠ عام من تاريخ الصين" الدار العربية للعلوم ٢٠١٠.

٤- كتاب "دراسات فى المسرح الصينى خلال القرن العشرين - الجزء الأول" وزراة الثقافة - مهرجان المسرح التجريبى ٢٠١٠.

٥- كتاب "دراسات فى المسرح الصينى خلال القرن العشرين - الجزء الثانى" - وزارة الثقافة ٢٠١١.

٦- كتاب "المسرح التجريبى الصينى" - وزارة الثقافة ٢٠١١.

٧- كتاب "مختارات قصصية لكاتبات صينيات معاصرات" المركز القومى للترجمة - تحت الطبع.

- ترجمة مجموعة من الأفلام الوثائقية والتاريخية لوزارة الثقافة الصينية.

- ترجمة عدد من الكتب التعليمية لوزارة التعليم الصينية.

- قام بأعمال الترجمة الفورية والتتبعية والتحريرية فى العديد من المؤتمرات والمحافل الدولية والإقليمية داخل مصر والصين.

- حصل على جائزة التفوق فى الدورة الأولى لمسابقة اللغة الصينية للطلاب الأجانب المقيمين بالصين عام ٢٠٠٨.

- حصل على لقب الطالب المثالى بجامعة اللغات ببكين عام ٢٠٠٨.

الإشـــراف اللغـــوى:     أحمـــد نزيـــه

الإشـــراف الفـــنى:     حـسن كـامـل

"الذرة الرفيعة الحمراء" هي رواية الصين بامتياز.. طفلٌ صينيٌ كبير، يستعيد بوعي وحنين، نُتَفًا من "تاريخ عائلته" في قرية دونغ بي بمدينة قاو مي، وهي نفسها قرية المؤلف. يستعيد الطفل حكايات عن الأب والأم والجد والجدة وزوجة الجد.. وما أحاط بعالمهم من أساطير، خلال مقاومة الغزو الياباني للصين في ثلاثينيات القرن العشرين. ومن هذه النتف والحكايات، تتألف لدى القارئ في النهاية لوحةٌ ملحميةٌ واسعةٌ للصين والصينيين، بتقاليدهم وعاداتهم الغرائبية، وفي خلفية كل ذلك تتبدّى طبيعةٌ خاصةٌ، بنباتها وحيوانها وإنسانها.

تلك هي بإيجاز رواية مو يان: طفل يتذكر ويحكي ما رآه وما رُوي له، مستندًا إلى وعي بهوية الصين، ومشهد حقول الذرة الرفيعة الحمراء التي تشكل الخلفية الطبيعية والسحرية لعالم هذه الرواية البديعة، ففي هذه الحقول وحولها تقع كل الأحداث والأسرار والأفراح والجنازات، الذرة الرفيعة الحمراء التي يكتب الراوي مرثيتها بعد عودته وحضوره المفاجئ في نهاية الرواية، معلنًا عن رعبه من الذرة المهجنة التي زحفت واحتلت الصين.

يمكن للمرء أن يقرأ كتبًا كثيرة عن الصين وثقافتها وعاداتها، لكنه لن يعرفها في العمق، ومن داخل قلوب أبنائها وعيونهم، كما يمكن له أن يعرفها من قراءة هذه الرواية. تلك هي معجزة فن الرواية، الرواية التي هي تاريخٌ للواقع، تفصيليٌ وخارجي، بقدر ما هي - كما قيل - تاريخٌ للقلب، عاطفيٌ وداخلي.

مو يان روائى صينى كبير. ومن دواعى سعادتنا وفخرنا أن يحصل على جائزة نوبل قبل أيام معدودات من صدور روايته بالعربية عن المركز القومي للترجمة.

تصميم الغلاف: عبد الحكيم صالح